مجلة آداب المستنصرية

تصدرها كلية الآداب بالجامعة المستنصرية

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

العدد الثامن

٨

لجنة المجلة

كلمة المجلة

يسر هيئة تحرير مجلة آداب المستنصرية أن يصدر العدد الثامن من المجلة حافلاً بنتاج الزملاء الأفاضل أعضاء الهيئات التدريسية بكليات الآداب والتربية في جامعات القطر في البحوث والدراسات المتخصصة وقد حرصت لجنة المجلة على مواصلة الارتفاع بمستواها وأخذت بمبدأ العدالة في تمثيل الكليات بأعداد البحوث المنشورة محكومة بالتقويم الذي يصدر عن الخبراء الذين تعتمدهم المجلة وبضرورات التنويع بالاختصاصات حسب حوافزها وفي هذا الاطار من التوجيه تدعو هيئة التحرير عمادات الكليات المعنية مواصلة مد المجلة بالدراسات والبحوث لتكون قادرة على تحقيق هذا المبدأ باستمرار .

ان هيئة تحرير المجلة التي تصدر هذا العدد يسرها أن تجد في ملاحظات الزملاء الأساتذة ما يعينها على استكمال شرعية التطور للأعداد القادمة وترحب بكل ما يصل اليها من آراء التوجيه والتسديد لأن المجلة في وضعها الجديد تعكس جانباً مهماً من واقع حركة البحث العلمي في كليات الآداب والتربية على صعيد القطر كله .

إن متطلبات المرحلة التي يمر بها قطرنا المناضل وأمتنا العربية المجيدة تفرض أن توجه البحوث والدراسات الى [illegible] الأمة على مستوى [illegible] والمعاصرة وأن تكون [illegible] العلمي المتخصص [illegible] من الأساتذة الذين يسعون الى [illegible] ويسهمون بهذا [illegible] وجهاً من أوجه المجابهة التي [illegible] البحث العلمي ضد العدو [illegible] والمؤامرات [illegible]

والاستعمار وفاءً لأهداف النضال القدير الذي يباشره شعبنا العظيم بقيادة الرئيس القائد صدام حسين ــ حفظه الله .

وبمناسبة صدور هذا العدد يلزمنا الواقع أن نبدي أسفنا الشديد لوقوع جملة من الأخطاء المطبعية والتنظيمية لصعوبة متابعة الاشراف على الطباعة في مطابع جامعة الموصل وقد عمدنا الى تلافي هذه النواقص بتكليف الزملاء المختصين في كلية آداب جامعة الموصل بالاشراف على الطباعة نيابة عنا ونحن على ثقة بأن هذا العدد والاعداد القادمة من المجلة سترتقي الى الدرجة المنشودة والى شرعية الطموح المأمول .

والله الموفق والمعين مع التقدير

حميد مخلف الهيتي
عميد كلية الآداب
الجامعة المستنصرية
رئيس تحرير المجلة

المحتويات

الموضوع | الصفحة

اللغة العربية وآدابها

العلة في تقسيم الحروف الى شمسية وقمرية

اسماعيل خليل السامرائي
مدرس/ قسم اللغة العربية

لا شك في أن اية لغة يطرأ عليها تغير في الاساليب والدلالات والمفردات، فمفرداتنا من الكلمات في وقتنا الحاضر تختلف عن مفردات من سبقونا بمئات السنين — سواء اكانت هذه المفردات من اللغة الفصحى او العامية — كما أن الاساليب تختلف من جيل إلى آخر بل من انسان إلى آخر. اما من ناحية الاصوات — الحروف — فقد حبا الله الانسان العربي اصواتاً جامعة قادرة على نطق الاصوات المختلفة التي نجدها في اللغات جميعاً، وقد كانت لهذه الاصوات وما زالت نفس الصفات التي عرفها العرب الاوائل. فلم يحدث فيها الا تغير او تطور يسير في النطق اذ أن اساس لغتنا — اعني اصواتها — لم يبعد عن الاصالة المتمثلة في قدرة ناطقيها على التكلم بلغات العالم المختلفة . كذلك فان هذه الاصوات استمرت محافظة على صفاتها ومخارجها إلى حد كبير ، وهذا مايمكن اعتباره الاساس الذي تستند عليه عربيتنا في ديمومتها بل وقدرتها على التكيف لكل جديد في عالم متغير متطور .

هدف البحث ومنهجه :—

يهدف هذا البحث إلى تأكيد امر هام ذلك أن الاصوات العربية قد قسمت الى اصوات قمرية واصوات شمسية .

ونود أن نشير في هذا المجال إلى أن هذا التقسيم لم يحدث اعتباطاً او ارتجالا ، وانما هو نتيجة للسماع من افواه الاعراب كما كانوا ينطقون هذا الصوت او ذاك وهذا هو منهج سيبويه واستاذه الخليل وغيرهما في تدوين العربية ، بل هو منهج من سبقوهم من علماء اللغة وعلماء القراءات القرآنية الا أن ذلك كله لايمنعنا من القول بانه قد طرأ تغير في نطق بعض الاصوات كالجيم مثلا ، ولكن ذلك التطور في النطق لايعني تحول هذا الصوت او غيره من اصوات شمسية الى اصوات قمرية او العكس لأن العلماء الافذاذ وضعوا حدوداً لمثل هذه الظاهرة ،أن صوت الطاء —مثلا— عند المحدثين من اللغوين — من الاصوات المهموسة(١) بينما عده الاقدمون من الاصوات المجهورة وفق قاعدة وضعوها إلى جانب حركة الاوتار الصوتية مع المجهور ، فقد عرفوا الصوت المجهور بانه «الصوت الذي منع النفس أن يجري معه» (٢) .

ومن هذا التحديد الدقيق في التفريق بين الاصوات المهموسة وبين الاصوات المجهورة نميل إلى أن صوت الطاء صوت مجهور على الرغم من الاختلاف في نطقة من قبل العرب سواء كان هذا الاختلاف بين الاجيال التي تعيش في ايامنا هذه ام بين العرب عموما قديما وحديثا .

أن المنهج الذي يجب أن نتبعه هو المنهج المعياري وهو المنهج الذي يعني بتدريب الناس على الصواب وتجنب الخطأ . ولا يمكننا اتخاذ المنهج الوصفي اساساً لانه المنهج الذي لا يتخذ من تدريب الناس على الصواب طريقاً واسلوباً(٣)

---

(١) علم اللغة—د . السعران— ص ١٦٨ وفقة اللغة المبارك ٥٢ .

(٢) الكتاب ٤٠٥/٢، سر الصناعة ٦٩/١

(٣) اللغة والتطور— د. عبد الرحمن ايوب ص ٧١

بل يهتم بتدوين اللغة كما ينطقها البشر في ايامنا . ونحن بصدد اصلاح اخطاء الناطقين للغتنا فلو تساهلنا في امور اللغة لشاع اللحن ولضاع كثير من امور اللغة . إن لغتنا جاءتنا مسموعة اولا ثم تم تدوينها وقد اخذها اللغويون من كلام العرب انذاك هذا من جانب . اما الجانب الاخر فان المرجع الاول والاخير في المسائل اللغوية والنحوية وغيرها من جوانب لغتنا هو القرآن الكريم الذي نال ابلغ الاهتمام عند تدوينه وقد وصلنا هذا السفر العظيم مدونا ومسموعا . سمعناه في عصرنا مقروءا على السنة من يعتد بقراءاتهم التي اخذوها عن شيوخ القراءات الذين سمع بعضهم القرآن الكريم متلواً من قبل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم .

الأصوات العربية وعددها :ـ

الاصوات العربية ثمانية وعشرون صوتاً بعد اخراج الالف منها. اذ لا يمكن أن نعده صوتاً صحيحا . فهو لا يحتمل الحركة لانه لو تم تحريكه لأصبح صوتاً آخر أي يصبح صوت الهمز . وقد ذهب إلى هذا ابن دريد في جمهرة اللغة(١) وخالف بذلك كلا من الخليل وسيبويه اللذين عدا الالف من الاصوات الصحيحة(٢) ويرى المحدثون أن الالف صوت مد جوفي(٣) وهذا التعريف لايبعد عما اراده ابن دريد من تحديد اوصاف ومخرج الالف .

الصفات العامة للأصوات :ـ

للاصوات العربية اوصاف عدة فبعضها مهموس والاخر مجهور . وقسم منها شديد والقسم الاخر رخو إلى غير ذلك من الاوصاف التي اشبعها الباحثون دراسة واتقانا . قديمهم وحديثهم وتوصف الاصوات من جانب آخر بان قسماً منها شمسي والقسم الثاني قمري وقد جاء هذا التقسيم بشكل متساو اي أن كل قسم منهما يشمل أربعة عشر صوتاً . فالاصوات القمرية يجمعها

---

(١) جمهرة اللغة ١/٧ .

(٢) العين ص ٣ والكتاب ٢/٤٠٤ .

(٣) انظر مثلا مناهج البحث ـ د. تمام .

فوللك (ابغ حجّك وخَف عقيمَه) والاصوات المتبقية من الابجدية العربية هي اصوات شمسية والاصوات القمرية هي الاصوات التي تقبل بقاء لام التعريف معها اذا وقعت في اوائل الكلم (البدر ،الفتاة ، الورد . . .) اما الاصوات الشمسية فهي التي ننطقها دون صوت لام التعريف مع حدوث ظاهرة تضعيف الصوت الشمسي الواقع في اوائل الكلم — ويبدو ان هذه الظاهرة ليست وليدة جيل من الاجيال وانما هي قديمة، كما أنه لادخل لعملية التعليم فيها — والتضعيف هذا يحدث بصورة تلقائية ويمكن اعتبار هذا الامرعملية تعويض عن صوت اللام الذي يحذف من الكلام عند النطق، أن حذف صوت اللام مع الاصوات الشمسية يخفف من الثقل الذي يصاحب نطقه مع الحروف الشمسية، وكما هو معروف فان العربي في نطقة يتحرى الخفة والسهولة والجرس الموسيقي، ونحس فرقاً بين نطق اللام من كلمة الثمر وعدم نطقه معها او مع غيرها من الحروف الشمسية .

صوت الجيم هل هو شمسي ؟

يعد الجيم من الاصوات القمرية بمعنى أنه يقبل بقاء صوت اللام منطوقاً معه الا اننا نجد بعض الناطقين في ايامنا هذه يحذفون لام التعريف مع الجيم الذي يكون في اول الكلمة، فيقولون اجّمال في الجمال واجّمهورية في الجمهورية الخ . . . . . .

وهذا النطق في الحقيقة بعيدعن لغتنا الفصحى كما أن هذا التقسيم لم يحدث بشكل اعتباطي* اوبصورة غير دقيقة بل جاء نتيجة نطق العرب لهذا الصوت عبر اجيال متعددة واللغة كغيرها من الظواهر الانسانية لايمكن أن تحدث وأن تتكامل من جوانبها المتعددة في حقبة معينة من الزمن وانما تحتاج إلى ما لا حصر له من السنين لكي تبرز تامة غير منقوصة.لذا فلايمكن أن نسلم بخطأ الناطقين بل علينا أن ندربهم على النطق السليم لصوت الجيم .

* لقد جاء تقسيم الاصوات بشكل عادل فكل صنف يحوي اربعة عشر صوتا وهذا مالادخل لانسان فيه .

إن قسماً من العرب او العراقيين يميل إلى تعطيش الجيم أي يقربه من صوت الشين كما يذهب الدكتور ادور حنا (١) وهذا ليس مبررا لان نعده صوتاً شمسيا فعندما يغلب الناطق صوت الشين فهو في حقيقة الامر لم ينطق صوت الجيم، بل قد نطق الشين مع مراعاة ما بينهما من قرب في المخرج(٢) الذي اعتمد عليه الدكتور ادور حنا ليجعله قرينة على كون الجيم شمسيا. وهذا لايدل على شيء لأن قرب مخرج صوت من صوت لا يعني شيئاً من حيث الصفات العامة للاصوات فالياء على سبيل المثال توصف من حيث المخرج بأنها من مخرج الجيم والشين او من وسط اللسان كما يذهب الخليل وسيبويه وابن جني وابن يعيش (٣) وبأن الياء غاري على رأي المحدثين بمعنى(٤) انها والجيم والشين من حيز واحد ولكن ذلك لايشكل دليلا على كون الياء صوتاً شمسياً ومن ثم فان الجيم ينطبق عليه ما ينطبق على الياء، ويمكننا أن نضيف على سبيل المثال أن صوتي الهمزة والحاء من حيز واحد هوالحلق، ولكن ذلك لم يطابق بين صفاتهما العامة فالهمزة صوت انفجاري مجهور بينما نجد الحاء صوتاً رخوا مهموسا، اذن فقرب المخارج لايصلح أن يكون دليلا او قرينة على اشتراك اكثر من صوت في الصفات العامة. ولايسعنا والحال هذه ان نقر بتحول الجيم إلى صوت شمسي لا لسبب الا لان بعض العراقيين او غيرهم ينطقونه كما ينطقون الاصوات الشمسية بينما نجد عربا من القطر السوداني وآخرين من صعيد مصر لا عيب في نطقهم للجيم اذ ينطقونها فصيحة، كما أن المجيدين من القراء ينطقونها فصيحة على الاصل (٥)

---

(١) مجلة الثاني المستنصرية العدد الرابع ص ١٢-١٩.

(٢) مخرج الجيم عند القدماء : شجري او من وسط الفم / العين ٦٥ .
ومخرجه عند المحدثين : غاري حنكي — مناهج البحث — ١٨١ ومخرج الشين عند القدماء : من شجر الفم او من وسط اللسان /١١ الكتاب /٢/٥٠٤ ومخرج الشين عند المحدثين : انه غاري مناهج البحث ١٢١

(٣) العين ٦٥ ، الكتاب ٢/٤٠٦ ، سر الصناعة ١/٥٢ ، شرح المفصل ١٠/١٢٤ .

(٤) فقه اللغة د. وافي ١٠٦ .

(٥) الاصوات اللغوية — ابراهيم انيس ٧٨ ، ٧٩ .

وهذا دليل واضح على أن الجيم ما هو الا من الاصوات القمرية ، لان هذه القبائل عربية صليبة ولم تختلط السنتها او تتأثر بغير العرب وان نطق الجيم وكأنه شمسي اقرب الى ان يكون لهجه وليس لغة ، فاللهجة سلوك واللغة نظام(١) وعليه لانعتد باللهجات وانما المعول عليه انما هو اللغة اي النظام والذي نراه ان من حكموا على ان الجيم صوت شمسي انما انطلقوا في ذلك من واقع لهجوي محلي ، وعندنا ان هناك فرقاً واسعاً بين اللهجة واللغة ، فاللهجة كلام واللغة نظام . والامر الاخر الذي يمكن الركون اليه للحكم على ان الجيم ماهو الا صوت قمري هو ظاهرة الابدال في اللغة العربية وهو امر معروف نطرقه في فصحانا وعاميتنا وقبل الحديث عن ظاهره الابدال عامة وكيف اننا سنجد انها لا تحدث الابين اصوات قمرية وقمرية واصوات شمسية وشمسية ولم نعثر على العكس ، نود ان نتطرق الى ما يقوله الدكتور ادوار من ان العرب القدماء قد وصفوا صوتاً مختلفاً عن الصوت الحالي للجيم(٢) ان هذا الامر محتمل اذ ان العرب كثيراً ما كانوا يحلون صوت الكاف بدل صوت الجيم وهذه لغة فاشية في عدن خاصة ، نقل المقدسي صاحب احسن التقاسيم عن اهل عدن انهم يقولون (ركب في رجب وركل في رجل) ونقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اتي بروثة عند الاستجمار (..انها ركس)(٣) فالى جانب عامة الناس نجد افصح العرب – الرسول الكريم – يتكلم بهذه اللهجة التي تجعل الكاف بدل الجيم وهي لغة فصيحة اذ يكفيها فصاحة ان الرسول العربي تكلم بها ، فالكاف صوت شاع قديماً ولا يزال شائعاً في لهجات العرب وهو من باب ابدال الاصوات ، ونشير الى ان صوت الكاف يقبل بقاء لام التعريف معه ولا نظن ان الاصل (الجيم) لا يحتمل نطق اللام معه ومن هنا جاءت اشارة صاحب المقال من ان العرب ربما وصفوا صوتاً مختلفاً عن الجيم اذ لاشك

---

(١) محاضرات في اللسانيات د. هادي نهر / العدد م ١٩٨٠ جامعة قسنطينة .

(٢) مجلة كلية اداب المستنصريه العدد الرابع ص ١٣–١٦ .

(٣) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ٩٥ .

في ان صوت الكاف اكثر شدة من الجيم وابعد مخرجا ولكن الكاف بديل للجيم في عربيتنا وفي كثير من الكلمات والكاف قمري والجيم كذلك ومن الناحية الاخرى فإن الاصوات القمرية في الاغلب لاتبدل الا بأصوات قمريه والاصوات الشمسية في الاغلب كذلك لاتبدل الا بأصوات شمسية مثلهـا .

الابدال بين الاصوات القمرية :ـ

١ ـ يحدث ابدال بين الهمزة والياء (المعي ويلمعي) (١)

٢ ـ يحدث ابدال بين الهمزة والواو (اكّد ووكّد) (٢)

٣ ـ ويحدث ابدال بين الهمزة والعين (يقال الاسف والعسف) (٣)

٤ ـ يحدث ابدال بين الهمزة والهاء يقال (يقال ارقت الماء وهرقته) (٤)

٥ ـ يحدث ابدال بين الهاء والحاء (قال ابن فارس مدح ومده) (٥)

٦ ـ يحدث ابدال بين الغين والخاء (يقال اغبن من ثوبه واخبن) (٦)

٧ ـ يحدث ابدال بين القاف والجيم (يقال البوائق والبوائج وهي الدواهي (٧)

٨ ـ يحدث ابدال بين القاف والكاف يقول الزجاج (رق ورك) (٨)

٩ ـ يحدث ابدال بين الياء والجيم (الصهري والصهارى تقول ذلك بنو تميم في الصهريج والصهاريج) (٩)

١٠ ـ ويحدث ابدال في الفصحى بين الاصوات الاخرى واعني القمرية ،

---

(١) الامالي ـ القالي ـ ٢/١٦٠ .

(٢) الكنز اللغوي ـ ص ٥٢ ، ٥٥ .

(٣) الخصائص ٥٣٨ .

(٤) الامالي ـ ٢/٦٨ .

(٥) الصاحبي ٢٠٣ .

(٦) الابدال اللغوي ١/٣٣٤ .

(٧) الابدال اللغوي ١/٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٨) الابدال والمعاقبة ٧٧ .

(٩) الكنز اللغوي ٣٩ .

اذ يحدث ابدال بين العين والحاء والخاء والجيم والخاء والحاء ...) (١)

بعد رصد ظاهرة الابدال بين الاصوات القمرية نفسها نود ان نرصد ما يحدث من ابدال بين الاصوات الشمسية :ـ

١ ـ يحدث ابدال بين الصاد والسين ، قال ابن جني (من ذلك قراءة يحيى بن عمارة : **واصبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) (٢)**

٢ ـ ويحدث ابدال بين الصاد والزاي (هو لصيقه ولزيقه) (٣)

٣ ـ ويحدث ابدال بين الشين والسين ، قال ابو الطيب يقال (تنسمت علماً وتنشمت علماً((٤)

٤ ـ السين والزاي : يقال (هو لسقه ولزقه) (٥)

٥ ـ ويحدث ابدال بين اللام والراء، يقال (سهم املط وامرد اذا لم يكن له ريش) (٦)

٦ ـ اللام والنون ، يقول ابن يعيش (اما لعل فقد قالوا فيها لعن) (٧)

٧ ـ ويحدث ابدال بين الاصوات الشمسية الاخرى : التاء والطاء ، والذال والظاء ، والدال والطاء ، والتاء والدال ، والدال والذال ، والدال والتاء ، والذال والزاء .

الى غير ذلك من ظاهرة الابدال بين الاصوات الشمسية نفسها (٨) ، ويندر ان نعثر على ابدال فصيح يحدث بين صوت قمري وآخر شمسي ، وهذا الامر

---

(١) انظر مثلا الابدال والكنز اللغوي .

(٢) المحتسب في القراءات — ٢/١٦٦ .

(٣) اصلاح المنطق — ٤٠٨ .

(٤) **الابدال — ٢/١٥٤ — ١٥٥ .**

(٥) اصلاح المنطق ١٦٨ .

(٦) الكنز اللغوي ١٥ .

(٧) شرح المفصل ١٠/٣٦ .

(٨) انظر البيان والتبيين والابدال ج ٢ والكنز اللغوي والامالي ....

ان دل على شيء فإنما يدل على ان الجيم هو من الاصوات القمرية وخير قرينة تدلل على ما ذهبنا اليه هي هذه الظاهرة الفصيحة التي تحدث في عربيتنا منذ القدم.

ولابد من الاشارة الى ان الدكتور ابراهيم انيس قد ذكر في كتابه (الاصوات اللغوية) بأن هناك ابدالا يحدث في لهجة بعض ابناء صعيد مصر بين الجيم القمري وصوت الدال الشمسي اذ يقولون ردل في رجل وهذا لايمكن ان يعد قاعدة او قرينة تدلل على شيوع ظاهرة الابدال بين الاصوات الشمسية والقمرية، فهذه الظاهرة تحدث في بقعة محددة من الوطن العربي كما اننا لانعتد باللهجات المحلية لتكون هاديا في تقنين لغتنا حيث اتخذنا المنهاج المعياري في هذا البحث ولا نعتمد المنهج الوصفي في مثل هذا الامور الدقيقة.

الخاتمـــة : ـــ

١ـ لا نشك ان تطورا حدث في نطق الجيم على السنة عرب اليوم. اذ نجد اختلافاً واضحاً في نطقه عند العراقيين مثلا ونطقه عند السوريين الذين يعطشونه حتى يقرب من صوت الشين.

٢ـ ان المعول عليه في روح اللغة العربية من جميع جوانبها هو القرآن الكريم مكتوباً او مقروءاً على السنة ائمة القراءات، وقد سمعنا الجيم مقروءاً مظهراً باللام وهذا يدلل على انه صوت قمري لا شمسي.

٣ـ ان الامر الذي [illegible] حدوث الابدال بين الاصوات القمرية وبين الاصوات الشمسية في الكلمات العربية وهذا ما اقره اللغويون [illegible]

وبالله التوفيـــــق

المصادر والمراجع :

١ ــ علم اللغة ــ د. محمود السعراق

٢ ــ الكتاب ــ سيبويه

٣ ــ سر صناعة الاعراب ــ ابن جني

٤ ــ اللغة والتطور ــ د. عبد الرحمن ايوب

٥ ــ جمهرة اللغة ــ ابن دريد

٦ ــ العين ــ الخليل بن أحمد

٧ ــ مناهج البحث في اللغة ــ د. تمام حسان

٨ ــ مجلة اداب المستنصرية العدد الرابع

٩ ــ الاصوات اللغوية ــ د. ابراهيم انيس

١٠ ــ محاضرات في اللسانيات ــ طبعة جامعة قسنطينة

١١ ــ احسن التقاسيم ــ المقدسي

١٢ ــ الامالي ــ القالي

١٣ ــ الكنز اللغوي ــ هفنر

١٤ ــ الخصائص ــ ابن جني

١٥ ــ الصاحبي ــ ابن فارس

١٦ ــ الابدال اللغوي ــ لابي الطيب اللغوي

١٧ ــ الابدال والمعاقبة ــ الزجاجي

١٨ ــ المحتسب في القراءات ــ ابن جني

١٩ ــ اصلاح المنطق ــ ابن السكيت

٢٠ ــ شرح المفصل ــ ابن يعيش

من اعلام النقد الروسي في القرن التاسع عشر
نيكولاي تشيرنيشيفسكي

الدكتور جليل كمال الدين
كلية الآداب — جامعة بغداد
قسم اللغات الأوربية

كان تشير نيشيفسكي « الشخصية المركزية » لحقبة الخمسينات — الستينات في القرن التاسع عشر في روسيا . وقد استأثرت شخصيته المتعدّدة الجوانب والأبعاد ، ناقداً أدبياً ، ومنظّراً في علم الجمال الواقعي ، وقاصاً وروائياً ، وفيلسوفاً ، ومفكراً ، وثائراً ، بأقصى الاهتمام ، من مختلف الاطراف ، ولأسباب شتى ، في أوربا والعالم .

ولد تشير نيشيفسكي في ١٢ تموز ١٨٢٨ ، في مدينة ساراتوف ، في عائلة قسيس . ولم يكن والده شبيهاً بمعظم رجال الدين الأرثوذكس ، فقد كان رجلاً متنوّراً ، منفتحاً على الاتجاهات الليبرالية في الدين واللاهوت . وقد ضمّت مكتبته الخاصة قدراً كبيراً من الكتب غير الدينية . وقد تعرّف تشير نيشيفسكي ، في مثل هذا الجو ، ومنذ الطفولة على مؤلفات بوشكين ، وجوكوفسكي ، وغوغول ، وأعمال الناقد الروسي الدمقراطي — الثوري ، بيلينسكي ، وعلى أفضل نتاجات الأدب العالمي ، وقرأ عدداً وافراً من الكتب في التاريخ والجغرافية والعلوم الأخرى (١) .

وقد أتقن تشير نيشيفسكي ، الموهوب ، في يفاعته ـــ اللغات اللاتينية ، واليونانية ، والفرنسية ، والألمانية ، والأنكليزية ، وكان ملماً باللغات : التترية ، والبولونية ، والعربية ، والفارسية . في سنّ مبكّره بات تشير نيشيفسكي ، وفقاً لكلماته ، هو ، « بيبليوغرافياً ، ملتهماً للكتب ». غير ان نزوعه نحو اكتساب المعرفة الكتبيّة لم يعقه من أن يصبح إنساناً مبتهجاً بالحياة ، محبوباً من لداته جميعاً ، وصديقاً لأولاد الفلاّحين الأقنان . وهكذا تعرّف منذ صباه ، على أهوال حياة القنانة الاقطاعية ، وتفهّم عذاباتها وعذابات الفلاّحين الروس الذين كانوا يقاسون الأهوال . وقد كتب في مذكراته ـــ فيما بعد، يقول : (إن حياة طفولتي كانت ملتحمة بحياة شعبي ، التي استحوذت على مشاعري كلياً). وفي الفولغا ، كان تشير نيشيفسكي يمضي وقتاً يستمع فيه إلى أقاصيص الفلاّحين الفارّين من ظلم الملاكين المستبدين، وإلى الأغاني الشعبية ، والأساطير والحكايات الفلاحية ، وكان يتعاطف مع الفلاّحين ، متفهماً مشاكلهم بعمق .

وكان ذووه يريدون له أن يواصل دراسته الدينية العالية ، غير أن ذلك لم يرق لتشير نيشيفسكي ، الذي كانت أعمال بيلنسكي وخيرتن ، والمؤلّفات الفلسفية التأريخية والأدبية قد استهوته تماماً . ومن هنا ، ففي عام ١٨٤٦ ، ودون أن ينهي دورة دراساته الدينية العالية ، مضى إلى العاصمة بطرسبورغ ، ليحقّق حلمه العريق ـــ الانتساب إلى الجامعة .

وبعد أن قدّم امتحاناته على نحو رائع ، بات طالباً في الجامعة . غير انه سرعان ما اجتاحته خيبة الأمل . فجامعة العاصمة القيصرية لم تكن ، قطعاً ، شبيهة بـ «محراب العلم» ، بالشكل الذي تصوّره تشير نيشيفسكي ، بل كانت جزءاً من منظومة ثقافية قيصرية رجعية مهمّتها الأساسية منع الشبيبة من «العدوى» بالأفكار الثورية الواردة من أوربا ، والمزدهرة في التربة الاجتماعية الكادحة لروسيا القيصرية (٢) .

وبكلّ ما عُهد عن تشير نيشيفسكي من توقّد وحميّة علمية ، كرّس

نفسه للتثقيف الذاتي . وقد أولع ، وقتاً ، بفلسفة هيغل المثالية ، غير انه سرعان ما فهم جوانب ضعفها . وكان يؤكّد ، باستمرار ، ان منظومة هيغل الفكرية لم تعد تتّسق مع الوضع الراهن للمعارف . فقد أدرك ، على نحو متميّز ، ان هيغل كان عبداً للوضع الماثل للأشياء في زمنه ، وتابعاً لذلك النظام الاجتماعي — الاقتصادي المعاصر له (٣) .

وهكذا تحوّل عن هيغل إلى دراسة فلسفة لودفيغ فيورباخ المادية . وقد ترك كتاب فيورباخ «جوهر المسيحية» تأثيراً بالغاً في نفس تشير نيشيفسكي ، وخلب لبّه بنبل مضمونه ، وصراحته ، وحدّته (٤) .

وبانتباه كبير ، جعل الشاب تشيرنيشيفسكي يتابع أحداث عام ١٨٤٨ في الغرب . واندمج ببعض أعضاء حلقات (بتراشيف) ، بحثاً عن جواب عن الأسئلة التي كانت تعذّبه . ومثل بيلينسكي ، فانه أولع بأفكار الاشتراكية الطوباوية ، وأشرب ذهنه بالنقد غير المهادن للنظام البرجوازي — الاقطاعي وعسفه واستغلاله الوحشي ، وبالايمان بحتميّة انتصار الاشتراكية . واستوعب تشيرنيشيفسكي الثروات النظرية للعقول الطليعية لأوربّا الغربية . وفيما بعد تجاوز تشيرنيشيفسكي في نظراته وأفكاره التقدمية معلّمية الأوربيّين (٥) .

وإذْ أنهى تشير نيشيفسكي دراسته الجامعية ، عام ١٨٥٠ ، عاد إلى ساراتوف ، مدرساً في التعليم الثانوي . واصطدم في ممارساته التعليمية الدمقراطية التي أسرت عقول الطلبة وقلوبهم ، بمفارقات التعليم القيصري الرجعي المقيت (الذي كان لايتورّع عن جلد الطلبة ، وضربهم ضرباً مبرحاً ، وفصلهم من المدرسة ، وتسليمهم الشرطة القيصرية لقاء أي جرم يقترفونه . وخصوصاً ما يُشم منه رائحة النضال السياسي والفكر المتحرّر) (٦) .

وقد أحسّ الطلبة ، في الحال ، بالفارق النوعي الحادّ بين جلاوزة التعليم القيصري وبين المدرس الدمقراطي الجديد ، الذي كان يقص عليهم ، باستمرار ، قصص نضال وابداعات الكتاب «المتنورين » — غوغول ،

وبيلينسكي ، ويربّي فيهم المقت للعسف والاستبداد ونظام القنانة الدموي الرهيب . (٧)

وكتب تشير نيشيفسكي إلى خطيبته (أولغا سوكراتوفنا فاسيليفا) — ابنة أحد أطباء ساراتوف البارزين — يقول : (اني ، هنا ، أصنع تلك الأشياء التي تشمّ منها ، رائحة الحبس بالأشغال الشاقة ، وأقول أشياء عنيفة جداً في الصف . لا أعرف كم من الوقت سأمضيه طليقاً . فمع ما أقوم به ومع هذا الظلام الدامس يستطيعون اقتيادي في أي يوم ! وسيكون من الصعب علي جداً مغادرة القلعة) (٨). لقد كان تشيرنيشيفسكي واثقاً من أنه ستندلع ، قريباً الثورة الفلاحية ، واستعدّ لها ، مسهماً فيها ، بالشكل الذي أتيح له ، وبالقدر الذي استطاعه ، ولاسيما على صعيد التعبئة الفكرية والروحية .

— ٢ —

وفي عام (١٨٥٣) ارتحل تشير نيشيفسكي ، إلى بطرسبورغ ، حيث انخرط في التدريس في مدرسة عسكرية ، وقتاً محدوداً ، كما صار يعمل في مجلة « مذكرات وطنية » (٩).

وفي نهاية عام ١٨٥٣ ، أنهى العمل في أطروحته التي كان عنوانها « علاقات الفن الاستاتيكية بالواقع » . وقد بذلت رئاسة الجامعة الرجعية ، والسلطات القيصرية ، جهدها ، لتأخير الدفاع عن رسالة الماجستير هذه ، فيما كان الشعب ، والشبيبة الثورية خاصة ، متلهفة ، كل التلهف ، لحضور الدفاع عن هذه الرسالة ، لكونها وثيقة برنامجية للفلسفة العلمية في عصرها .

وأخيراً جرى الدفاع عن الأطروحة (في ١٠ مايس ١٨٥٥) ورأس لجنة المناقشة رئيس الجامعة نفسه ، ب . أ . بليتنيوف . وكانت القاعة ، حيث تمّ الدفاع ، مزدحمة ، بشكل غير اعتيادي « حتى اقتعد البعض النوافذ » . ودافع تشيرنيشيفسكي عن أفكاره بتواضع جمّ ، وبصلابة مؤمن بعقيدته . وبعد المناقشة صدرت من بليتنيوف ملاحظة جافة إلى تشيرنيشيفسكي : «من

المرجح انني لم أقل شيئا مثل هذا في محاضراتي » وبالفعل كانت الأطروحة شيئاً جديداً ، غير تقليدي . وكما جاء في وصف الدفاع ، على لسان أحد شهوده (ن. شيلغونوف – صديق تشيرنيشيفسكي وزميله ، فيما بعد ، في النفي إلى سيبريا (: «... لقد كان كل شيء فيها جديداً ، كما كان كل شيء مغرياً : أفكار جديدة ، ومناقشات حامية ، وبساطة ووضوح في العرض. ولكن لم ينظر إلى الأطروحة بهذا الشكل سوى الجمهور . واقتصر بليتينوف على ملاحظته ، ولم تعقب ذلك التهنئة الاعتيادية ، وسرعان ما وضعت الأطروحة على الرف » (١٠) .

ومع أن مؤامرة صمت لئيمة نظمت حول الأطروحة في الصحافة القيصرية ، الا أن الصمت حتى الأبد كان أمرا مستحيلا . وما لبثت المجلات الرجعية ان ردت على الاطروحة وصاحبها بحملة من الهجمات الرجعية . وهكذا أكد أحدهم في مجلة « مكتبة للقراءة » على انه في نظرية الأطروحي لم يكن ثمة شيء جديد ماعدا الاستنتاجات الخرقاء . كما أثارت الأطروحة وأفكارها هجمات ضارية من جانب الكتاب النبلاء . ولكن ، في المقابل ، استقبلتها الجماهير ، وأوساط المثقفين والكتاب الدمقراطيين ببالغ الترحيب والتعاطف . وكتب الناقد الدمقراطي – الثوري (زميل بيلينسكي وتشيرنيشيفسكي في معركة النقد الواقعي) ، دوبرولوبوف ، في مذكراته : (ان أطروحة تشيرنيشيفسكي تعجبني جدا ، وانها لتبدو شيئا رائعاً للغاية) (١١) .

وفي حقبة خمسينات القرن التاسع عشر نشط تشيرنيشيفسكي نشاطاً كبيراً ، متميزاً ، في العمل العلمي ، والصحافة الأدبية والنقدية . ففي خريف ١٨٥٣ ، ابتدأ تشيرنيشيفسكي العمل في المجلة التي كان يصدرها الشاعر الروسي الدمقراطي الشهير نكراسوف ، باسم «المعاصر» وسرعان ماغدا محرراً بارزاً في المجلة . فقد عهد نكراسوف إليه بالاشراف على قسمين رئيسين في نشاط المجلة – هما القسم السياسي ، وقسم النقد والمراجعات النقدية . وتجلت مواهب تشيرنيشيفسكي بكل ألقها ، فانطلقت المجلة

منبراً جهورياً للأفكار الدمقراطية ــ الثورية ، كما بلورها نكراسوف ، وتشيرنيشيفسكي ، ودوبرولوبوف ، باسم مصالـــح ملايين الفلاحين في روسيا (١٢) .

وكرّس ناقدنا للمجلة قواه كافة . ففي «المعاصر» نشرت أفضل أعماله : « لمحات عن المرحلة الغوغولية في الأدب الروسي »، «ليسنغ وعصره » ، ودراسات نقدية أدبية عن بوشكين ، وتولستوي ، وشيدرين ، وأوستروفسكي وغيرهم ، وجملة من الدراسات الفلسفية والتأريخية أثبت فيها كاتبها ، باقتدار لفت أنظار معاصريه ، إفلاس الاقتصاد السياسي البرجوازي .

وشنّ الناقد نضالاً لا هوادة فيه ضدّ اللبراليين الثرثارين ، كما كان يدافع ، في أعماله جميعاً ، عن مصالح الشعب ، ويلاحم وينظّم القوى الثورية ، القادرة على النضال ضد الحكم القيصري المطلق . وقد فضح نفاق اللبراليين في الأدب والفكر والسياسة والاقتصاد ، وأشار ، بمنتهى القوة ، إلى تهافت أفكارهم التي كانت تأتي بمردود كبير لمصالح توطيد نظام القنانة الأستبدادي .

وسعى للاتفاق مع الناقد والمفكّر الروسي اللامع ، غيرتسن ، في مهجره ، في انكلترا ، لتوحيد النضال المشترك ضد الرجعية الأدبية والفكرية والسياسية . وأسهم في نشاط المنظّمة الثورية «الأرض والارادة » ، ودعا ، بكل قواه ، إلى الثورة الفلاحية . وقد ربط العمل الأدبي والنقدي ، والصحفي عامة ، بالنشاط الثوري السرّي ، الذي وجّهه باتجـــاه الانتقال إلى الاشتراكية (الطوباوية) عبر «الكوميونات» الفلاحية (١٣).

وعند بداية عام ١٨٦٢ ، كان الوضع في روسيا قد سخُن الى حدّه الأقصى ففي روسيا كلها انتشرت الانتفاضات الفلاحية ، وانتشرت في الجامعات الاضطرابات الثورية ، وزجّ بمئات الطلاب في السجون ، وطرد الأساتذة الطليعيون من الأقسام العلمية ، وانتقلت الحكومة القيصرية إلى

القمع المباشر للعناصر الثورية في المجتمع . وفي حزيران ١٨٦٢ أوقفت السلطة مجلّة «المعاصر» ومجلّة « الكلمة الروسية » عن الصدور ثمانية أشهر . وما لبث ان اعتقلت تشير نيشيفسكي ، مع عدد كبير من الأدباء والمثقّفين الأحرار ، وزجّت به في زنزانة انفرادية في قلعة (بتروبافلسكايا) . وأمضى الناقد — المفكر الطليعي ، تشير نيشيفسكي ، (٦٧٨) يوما في اعتقاله دون تهمة محدّدة في القلعة ، مظهراً شجاعة مذهلة وصلابة في الروح استثنائية . وحتى في القلعة لم يتوقّف عن العمل الفكري والثقافي ، فقد أعدّ ترجمات عديدة ، وكتب كثيراً من الدراسات والمقالات ، كما كتب عدداً من نتاجاته الفنّية ، كان أبرزها روايته الشهيرة « ماالعمل.. » ؟ وأضرب تشير نيشيفسكي عشرة أيام عن الطعام (مدشّنا بذلك أول الاضرابات عن الطعام في كامل تاريخ الحركة الثورية في روسيا) ، وذلك في سبيل ان يسمح له باللقاء بزوجته (فقد حرم طوال سبعة أشهر ونصف من رؤية أسرته وذويه). وانتصر الناقد في إضرابه . غير ان السلطة سارعت بفبركة شهادات ملفقة ضده ، واشترت شهود زور عديدين للايقاع به . ومع أن الاتهامات جميعاً انهارت أمام دفاع الناقد البليغ عن نفسه الا ان الحكم صدر ، باصرار القيصر نفسه ، وتصديق مجلس الشيوخ المطيع لأوامره ، بتجريد تشير نيشيفسكي من حقوقه المدنية كافة ، وحبسه أربعة عشر عاماً في سيبريا مع الأشغال الشاقة ، وفيما بعد (إسكانه في سيبريا إلى الأبد).

وفي ١٩ مايس (أيار) ١٨٦٤ ، وفي ساحة ميتينسكي ، في بطرسبورغ ، جرى تشهير علني بالمفكر والناقد الثوري البارز ، تشير نيشيفسكي فقد كسر [illegible] على رأسه [illegible] على ركبتيه ، مقيداً بالأصفاد ، [illegible] [illegible] [illegible] الموقف الذي شهد التشهير العلني [illegible] على تشير نيشيفسكي فتحرّر عن عجل من القيود ليقذف به إلى العربة التي تنقله إلى السجن مشيعاً بهتافات

الشبيبة الثورية « إلى اللقاء ... إلى اللقاء ... » (١٤) .

ومع أن الحكم بالحبس قد خُفض إلى النصف (سبع سنوات مع الاشغال الشاقة)، الاّ ان السلطة القيصرية المستبدة كانت حريصة على أن لاتدع فرصة للراحة لهذا الناقد — المفكر الثوري ، كما انها كانت تخشى فراره إلى الخارج . وبالرغم من كل ذلك فان تشير نيشيفسكي واصل العمل في المنفى مبدعا عديداً من الأعمال الفنية والدراسات والمقالات ، مع معرفته بأن السلطة الغاشمة لن تسمح قطّ بنشر أعماله . إن عدم الكتابة أمر لم يستطعه هذا الناقد — المفكر العظيم ، ذلك لأنه بالعمل الذهني المستمر فقط استطاع هو أن ينقذ نفسه من الجنون . وقد كتب المفكر الروسي الكبير بليخانوف عنه ، مقدماً شهادة بليغة بحقّه وحقّ ابداعه ، فقال : « في تاريخ أدبنا... ليس ثمة شيء اكثر مأساوية من مصير ن .غ . تشير نيشيفسكي . ومن الصعب على المرء أن يتصوّر كم من العذابات الممضة قد تحمل ، بكبرياء وكرامة انسانية شامخة ، هذا « البروميثيوس » الأدبي ، في مدى زمن طويل، كان يمزقه فيه ، نظامياً ، الوحش البوليسي القيصري (١٥) .

وقد بذل الثوّار الروس جهوداً كبيرة ، وقاموا بمحاولات عديدة لانقاذ تشير نيشيفسكي من الموت البطيء ، لكنها باءت بالفشل ، رغم جرأتها. كما باءت بالفشل محاولات الحكومة القيصرية ثلم كبرياء هذا الناقد — المفكر العظيم ، وذلك بحمله على تحرير الالتماس بالعفو إلى القيصر ، لاطلاق سراحه . ومن هذه المحاولات ، المحاولة التي اضطلع بها ياور الحاكم العسكري العام لسيبريا الشرقية (فينيكوف)، عام (١٨٤٧) — بتخويل من سلطات بطرسبورغ . وذلك ماكتبه بهذا الخصوص :

« لقد باشرت فورا بالمهمة ! « نيكولاي غافريلوفيتش ! إنني مرسل الى فيليوسك ، بتفويض خاص ، من الحاكم العسكري ، إليك بالذات . اليس مجدياً ان تقرأ هذا وتعطيني جواباً ايجابياً بهذا الشكل أو ذاك . وناولته ورقة فاخذها ، صامتا ، وقرأها بانتباه . وممسكاً بالورقة في يده ، دقيقة

أو أكثر ، أعادها الي مرة أخرى ، ناهضا على قدميه ، وقال : «أشكركم. ولكن أترون ... فيم ينبغي عليّ أن أسأل العفو ؟ تلكم هي المسألة . إنه ليبدو لي أنني منفيّ ، فقط لأن رأسي ورأس رئيس الجندمة شوفالوف مخلوقان بطريقين مختلفين ! ولكن أفي هذا يمكن أن أسأل العفو ؟ أشكركم عن العناء . أما تقديم الالتماس فاني أرفضه بشكل مطلق » . واذا ما قلت الحقّ، فاني ذهلت ، ولعلي وقفت ثلاث دقائق مثل أبله حقيقي ... « هكذا ، إذن ترفضون يانيكولاى غافريلوفيتش ؟ » — « أرفض اطلاقا ! » ونظر إليّ ببساطة وهدوء (. (١٦)

وبعد ان اغتيل القيصر الكسندر الثاني، اشتدّ سعار الرجعية القيصرية. ولم يُسمَح لتشرنيشيفسكي بمغادرة ياقوتيا إلى استراخان (منفاه الجديد) الاّ في ١٨٨٣. كان تقدير السلطة بسيطاً : فإن إحدى وعشرين سنة من الأشغال الشاقة والنفي وصنوف الحرمان كان ينبغي ان تحطم عقل وإرادة وصحّة تشيرنيشيفسكي! وفي استراخان لم يتغيّر وضع تشيرنيشيفسكي تقريباً. ظلّ منفياً، مُخضعاً لرقابة البوليس الصارمة «نحن ... هنا ... مدفونون أحياء» كتبت زوجة تشيرنيشيفسكي الى أبنائها. وكما في السابق، فإن تشيرنيشيفسكي ظلّ محروماً من إمكانية النشر، أما عقله الجبار فانه كان لا يزال محتفظاً بالقدرة على العمل لأشهر كاملة، يوماً بعد يوم، من الصباح حتى الليل، دون أن يعرف الكلل. كما كانت ذاكرته الخارقة قد ذخرت كثرةً مما كتبه في سجن فيليوسك وأتلفه — من قصص ، وروايات، ومقالات. ولكيلا يموت جوعاً، فإنه كان مضطراً أن يشتغل بترجمة مجلدات التاريخ العديدة التي كتبها العالم الالماني فيبر . (١٧)

إن مثل هذه الحياة الشاقة، غير المحتَملة بحال، قد تطاولت حوالي ستة أعوام. وليس إلا في عام ١٨٨٩ سُمح لتشرنيشيفسكي بالانتقال إلى بلدته (ساراتوف). ورغم مرضه ، والارهاق المضني الذي استحوذ عليه، كليةً، فإن الناقد ظلّ يحلم بالأعمال الجديدة، ولم تتضاءل معنوياته العالية. غير

ان أعوام الأشغال الشاقة، والنفي، فعلت فعلها فيه، وفي ١٧ تشرين الأول ١٨٨٩، لم يعد تشيرنيشيفسكي في عداد الأحياء. وقد أثارت وفاته، على هذا النحو البطولي، الذي يكاد يكون استشهاداً، المظاهرات الشعبية في مختلف مدن روسيا. فقد كان هذا الناقد — المفكر العظيم عزيزاً جداً على شعبه.

وعن تشيرنيشيفسكي يمكن ان نقول ما قاله هو نفسه عن المفكر الالماني الكبير ليسنغ: (إن شخصية هذا الانسان من الشهامة والعظمة، واللطف، والروعة، كما ان نشاطه من الاخلاص والقوة — ونفوذه من الضخامة، بحيث كلما تمعنت في ملامح هذا الانسان، كلما تشبعت، اكثر فاكثر باحترام وحبّ غير مشروط تجاهه. إن العقل العبقري، والطبيعة بالغة الشهامة، وصلابة الارادة، وتوقد الروح، ورقة القلب، والتعاطف مع كل ما هو رائع في العالم، والعواطف القوية والنقية، في آن، والحياة المليئة بالنضال والنشاط، دون شائبة تشوبه أو نقيصة ... إن كل ما يمكن أن يكون الانسان رائعاً وكبيراً به قد توحد فيه) (١٨).

— ٢ —

تعود بداية نشاط تشيرنيشيفسكي النقدي الأدبي إلى عام ١٨٥٤. وقد أبرزته، بين النقاد ولفتت اليه أنظار الكتّاب، مقالاته ونقداته وعروضه ومراجعاته النقدية الأولى في مجلة «المعاصر».

لقد انطلق تشيرنيشيفسكي، مدافعاً عن تقاليد معلّمه وسلفه العظيم، بيلينسكي، مبشراً بالأدب الطليعي ذي المحتوى الفكري الرفيع، الفن المدعوّ لخدمة مصالح الشعب في النضال ضدّ الحكم المطلق، والقنانة الاقطاعية. وقد اتسمت لدى تشيرنيشيفسكي دقّة المواقف، ووضوح المعايير الاستاتيكية، والاتجاهات الطليعية، والنظرة الثاقبة إلى مراتب الفهم العميق لذات طبيعة الابداع والمعرفة العميقة لقوانين الفن. وفي مقالته المبكّرة، الرائدة، المعنونة (الاخلاص في النقد) (١٨٥٤)، كان تشيرنيشيفسكي قد بسط نظراته في مهمات النقد

المدعوّ لنشر الأفكار الاجتماعية الطليعيّة في أوساط القرّاء (١٩) .

وفي المقام الأول، طرح تشيرنيشيفسكي مطلب «الفكرة» و «المضمون»، عند تقويم النتاجات الفنية. ومع تأكيده أهمية الشكل الفنيّ، رفض، على أية حال، ان يسبغ عليه صفة امتيازية مطلقة، كما فعل ذلك النقّاد الجماليون المثاليون والرجعيون المعاصرون له .

لقد استخدم تشيرنيشيفسكي المبادىء الأساسية للنقد وعلم الجمال العلمي الثوري، كما طرحها في اطروحته «علاقات الفن الاستاتيكية بالواقع» (التي مرّت الاشارة اليها)، ... واستخدمها في نقداته التطبيقية تجاه الظواهر المحددّة للأدب الروسي الماضي المعاصر له .

وفي سلسلة مقالاته، مؤلفّات بوشكين "(١٨٥٥)، عرض، بشكل جديد، القضايا التي طرحت في عهد بيلينسكي، حول مغزى الابداع الفنيّ، ورسالته الاجتماعية، وأوضح ان بوشكين هو أول من رفع القضية القومية في روسيا إلى المستوى الذي تستحق، وانه «كان الشاعر الأول الذي ارتفع في عيون الجمهور الروسي كله، إلى ذلك المكان الرفيع الذي ينبغي ان يشغله في بلاده الكاتب العظيم» (٢٠) .

وفي مرحلة (١٨٥٥ — ١٨٥٦)، نشر في مجلة «المعاصر»، عمل تشيرنيشيفسكي التأريخي — الأدبي البارز «لمحات عن المرحلة الغوغولية في الأدب الروسي»، وهو العمل الذي قُدّمت فيه، من مواقع الدمقراطية الثورية ومنطلقاتها، للمرة الأولى، قضايا تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي، وفترة عشرينات — أربعينات القرن التاسع عشر. كما أظهرت فيه، على نحو شامل، الأهمية الكبيرة لابداع غوغول، وأفكار بيلينسكي النقدية — الجمالية بالنسبة إلى تطور أدب الواقعية الانتقادية .

إن مغزى هذا العمل يكمن في كونه موجهاً ضدّ النقّاد النبلاء — الليبراليّين، الذين حوّلوا من نظرات بيلينسكي النقدية — الجمالية إلى الفن بدعوى حقها

وتخلّفها ، والذين هاجموا ، بضراوة ، كتّاب المدرسة الغوغولية واتجاهاتها الهجائية الفضّاحة .

وأكّد تشيرنيشيفسكي ، في غضون هذا العمل ، ان الرسالة التاريخية لكل كاتب روسي تنحصر في خدمة الوطن والشعب ، من منطلق علمي سليم . كما أشار الناقد ، في عمله هذا ، بقوة الى الصلة غير المنفصمة بين الأدب الروسي الطليعي وحياة الشعب ، والحركة التحرّرية ، وقد ظهرت في الاتجاه الهجائي ـ الانتقادي ، الذي كان يشكّل ، وفقاً لكلماته ، الجانب الاكثر حيوية وأصالة في الأدب الروسي . وبهذا الاتجاه ارتبطت ، طبقاً لما يقوله هو ، أسماء أدباء بارزين مثل أ.د. كانتيمير ، د. اى . فانفيزين ، أى . آ . كريلوف ، أ. س. غريبويدوف ، وأ. س. بوشكين . وعلى أية حال ، فان مأثرة توطيد تقاليد الاتجاه الهجائي (أو الانتقادي ، بكلمة أخرى) في الادب الروسي الواقعي تعود الى غوغول (٢١) .

إن غوغول يحظى بتقويم خاص لدى تشيرنيشيفسكي . ولعلّ في الاشارات التالية (من بين إشارات كثيرة جداً) مصداق ما نقول . فقد كتب الناقد ، بخصوص غوغول ، يقول :

ـ «لم يُعَبّر ، عند أي من كتّابنا الكبار ، عن الوعي بالاهمية الوطنية ، وأهمية الكاتب مواطناً ، بذلك القدر من الوضوح والحيوية ، كما كان الأمر لدى غوغول » (٢٢) .

ـ «منذ أمد طويل ، لم يكن ثمّة في العالم كاتب ، كان بذلك القدر من الأهمية بالنسبة الى شعبه ، مثلما كان غوغول بالنسبة الى روسيا » (٢٣) .

لقد دعا تشيرنيشفسكي معاصريه من الأدباء الى مواصلة تقاليد غوغول في الادب — الواقعي — الانتقادي ودعمها . وذلك نابع من إيمان الناقد بان ابداع غوغول كان اكثر إبداعات الأدباء الواقعيّين المعاصرين إيفاء لحاجات ومطالب العالم المعاصر .

وعلى صعيد آخر ، كان تشيرنيشيفسكي هو اول من أضاء على نحو شامل (في عمله — «لمحات عن المرحلة الغوغولية») نظرات بيلينسكي النقدية — الأدبية ، ذات الأهمية الايديولوجية — الاجتماعية الكبيرة ، معتبراً ان نشاط بيلينسكي يشغل ، في تاريخ الأدب الروسي ذات المكانة الهامّة المتميّزة ، التي تشغلها نتاجات غوغول .

وقد أشار تشيرنيشيفسكي ، بمزيد من الدقة والوضوح ، الى آفاق التطور المطّرد للأفكار التي بشّر بها غوغول ، وبيلينسكي ، وكان يرى ان فكرة الوطنية ومواطنة الأديب أهمها ، واكبرها جدوى ومردودا . (٢٤) ومع ان عمل الناقد «لمحات عن المرحلة الغوغولية » قد ظهر في ظروف الارهاب القيصري المسعور ، الا انه كان ، كالاطروحة «علاقات الفن الاستاتيكيّة بالواقع » ، مواصلة لافكار وطروحات بيلنسكي وتنظيراته في الواقعية الانتقادية. وفي الفصول الأولى من «لمحات ...» لم يكن ممكناً حتى ذكر اسم بيلينسكي . غير ان الناقد تغلّب ، بشكل رائع ، على هذه العقبة ، مستخدماً في الحالات الضرورية ، لغة الاستعارة . فقد تحدّث عن بيلينسكي « كاتب المقالة عن بوشكين »،أو «ناقد الاتجاه الغوغولي » (٢٥) .

ويعتقد تشيرنيشيفسكي ، مثل سلفه العظيم — بيلينسكي ، ان الأدب الروسي مدين بمنجزاته الفنية ، قبل كل شيء ، للاحساس الوطني الرفيع الذي كان يلهمه . كما انه يعلّق ، شأنه شأن بيلينسكي ، آمالاً ضخمة على الأدب ، واجداً فيه ذلك الشكل من النشاط الروحي الذي «يركّز في نفسه كلّ النشاط الذهني للشعب » . واكثر من ذلك — فانه يطالب القارىء ليس فقط بالتعاطف مع أفكار الكتّاب الكبار ، بل وبالنضال الفعّال ضدّ الرجعية واضطهادها الرقابة ، أيضاً . وهو يكرّر ، في عديد من المواضع في أعماله النقدية النظرية والتطبيقية . ان مستقبل الادب الروسي وتطوّره الدائب يعتمد على القارىء ، وعلى تطور إرادته الصلبة .

ان تقويم تيشيفسكي الرفيع لأدب ممثلي الماضي القريب (نهاية القرن

الثامن عشر — النصف الأول من القرن التاسع عشر) لايعني انه يدعو الى تكرار الماضي . إنهُ مفعمٌ ، كليةً ، بانتظار الجديد الحقيقي في الادبَ ، ومتعطّش «للحركة الى أمام » .إنما الذي يهمّه هو ان يظهر الجديد من الاتجاه الغوغولي الذي يظلّ — وفقاً لكلمات الناقد — «الاتجاه الوحيد القوي المثمر ». بَيد ان هذا لايعيقه من رؤية الجوانب الضعيفة في إبداع غوغول . ويتوقّع الناقد من معاصريه من الأدباء والفنّانين نضجاً أكبر في الفكر السياسي ، الضروري من أجل التوصّل إلى السبل الحقيقية لتغيير روسيا (٢٦) .

إن تشيرنيشيفسكي يقنع القارىء في «لمحاته» — بأن عملية تطوّر الادب إنما هي عمليّة النضال ، وإن أيّ اتجاه في الفنّ يحمل في نفسه دائرة من الافكار . على ان المسألة تنحصر فقط — في ماهيّة هذه الأفكار ، ومن تخدم . وهكذا . فان مايدعى بـ(الفن الخالص) هو ، أيضاً . مشبع بالأفكار ، مهما قال مبدعوه عن تجرّدهم من المصالح العملية للمجتمع (٢٧) .

— ٤ —

لقد كان نشاط تشيرنيشفكسي النقدي — الأدبي ، في خمسينات وستّينات القرن التاسع عشر حافلاً ، ومتنوعاً ، وشاملاً ، فلم يكن ثمّة اسم مهم ، قليلاً أو كثيراً ، في الأدب المعاصر ، لم يحظ باهتمامه .

وبين الكتّاب ، الأكثر قرباً من تشيرنشيفسكي ، من حيث الروحية ، ينبغي ان نسمّي ن. نكراسوف . فقد كان شعر نكراسوف عزيزاً على الناقد ، من حيث رقدة الفكر الثوري فيه ، والدفاع الحار عن مصالح الشعب المستعبَد . كما كان شعر نكراسوف الغنائي ، هو ايضاً ، أثيراً لدى الناقد . لقد أحسّ تشيرنيشيفسكي ، وهو الانسان ذو القلب المتوقد الذي رأى في الحبّ مصدراً من مصادر السعادة الانسانية ، أحسّ بالقيمة الاستثنائية «لشعر القلب» ، واستطاع ان يقوّمه ، كما ينبغي له (٢٨) .

وعلى العموم ، فان نشاط أكبر الكتّاب الروس في ذلك الوقت (إي . س.

تورغينيف ، ل.ن. تولستوي ، آ.ن. أوستروفسكي ، م .ى. سالتيكوف ـ شدرين ، ن .ب. آغاريوف) قد ازدهـــر في تلك المرحلة التي انطلق فيها تشيرنيشفسكي ناقداً أدبياً في مجلّة «المعاصر» . وقد دخلت مقالات الناقد عن نتاجات هؤلاء الكتّاب العظام في كنز النقد الروسي الواقعي .

ومنذ عام ١٨٥٦ ، كان تشيرنيشيفسكي قد فطن الى عبقريّة ليف نيكولايفتش تولستوي ، وتنبأ به قائداً من قادة أدب المستقبل ، وكشف خصائص المذهب الفني الابداعي لتولستوي ، وأسرار أسلوبه . ولاحظ الناقد ان أهمّ ملامح موهبة تولستوي المميزّة ـــ هي القدرة على كشف «ديالكتيك الروح » ، وعمق التحليل النفسي ، ونقاوة الاحساس القيمي ، الذي يلهم نتاج الكاتب. وقد درس الناقد قصص تولستوي المبكرة ، وأقاصيصه عن الحرب ، وتابع تطوّر فنه القصصي الروائي ، باعجاب وودّ . ولعلّ مما يلفت النظر ، حقاً ، ان الناقد قد استطاع ، حتى قبل ظهور روائع تولستوي «الحرب والسلام »، و.. «آناكارينينا »، و«البعث» بملاحظة وتحديد أهمّ ملامح إبداع الفنّان العبقري . فعندما راجع أقصوصة «صباح ملاّك» ، المبكّرة ، اكّد في مقالته «ملاحظات حول المجلات» (١٨٥٧) ، ان تولستوي يصوّر ، باقتدار استثنائي ، ليس فقط الوضع الخارجي لحياة الفلاّحين ، بل وعالمهم الداخلي ، أيضاً (٢٩) .

لقد دعا تشيرنيشيفسكي الكتّاب للاستماع الى النبض الجديد للحياة ، ومعاينة الظواهر الجديدة فيها (مرحلة خمسينات ـــ ستينات القرن التاسع عشر ، التي تختلف ، دون شك ، عن مرحلة عشرينات أربعينات القرن ذاته ، المرحلة التي تألّق فيها بوشكين وليرمنتوف وخلقا «الانسان الزائد» ، أو (الفائض عن الحاجة) . وأوصى الناقد الأدباء والفنّانين دراسة الحياة الجديدة ، ورؤية البطل الجديد ، الفعّال النشيط ، القادر على القيام «بخطوة الى الأمام» والمتجرّد من الأوهام التي لا أساس لها الذي (ينظر الى الحقيقة في العيون)(٣٠).

هكذا ـــ فان التأمّلات العميقة في مسألة البطل الايجابي للعصر ، في [illegible]

الجديدة ، قد قادت الى صرف النظر والاهتمام عن «الناس الزائدين » الذين كانوا قد عُدّوا في حقبة سابقة ، ايجابيين (كما أسلفنا آنفا) . ففي وضعيّة النهوض الاجتماعي الكبير لنهاية خمسينات القرن التاسع عشر في روسيا ، وانتشار الاستياء الجماهيري العام من ظروف الحياة الاجتماعية — الاقتصادية — السياسية والعلاقات الاجتماعية التي تحكمها ، لم يعد ابطال الادب السابقون (في عشرينات — أربعينات القرن) أمثال(أونيغين) و(بيجورين) كافين لاجتذاب الشبيبة الطليعية والجماهير ، التي تتطلّع الى النشاط العملي (لا مجرّد التأمل ، والاستياء ، وعدم التكيف مع بيئة الحكم المطلق المستند الى الاقطاع والقنانة الاقطاعية) ، والى النضال الفعّال ، الذي يسهم في التغيير ، فعلا .

في مثل هذا الضوء ، كرّس الناقد مقالته الشهيرة «روسي على موعد» ، لدراسة قصّة تورغينيف ، «آسيا» ، التي صوّر القاصّ فيها المثقف — النبيل الروسي ، بما هو لصيق به من أحاسيس رقيقة وعميقة ، ولكنه ، بسبب تردّده وضعف إرادته ، يغدو عاجزاً عن صنع السعادة لفتاته الحبيبة .

إن بَطَلَ هذه القصّة التورغينيفية (كما نفهم ذلك من تفسير الناقد) هو ، بالضبط ، ذلك الانسان الزائد أو الفائض ، غير القادر على الجهود الحاسمة ، التي تتطلّبها الحياة الجديدة . وقد شجب تشيرنيشفسكي مثل هذا البطل في الظروف الجديدة ، ودعا الادباء والفنانين والمثقفين الطليعيين لان ينظروا الى ما حولهم بعناية ، وان يتأملوا ، عميقاً في ذلك الجديد الذي يتحقّق في حياة البلاد ، وان يحدّدوا دورهم وموقعهم من ذلك .

ومع تقويم الناقد الرفيع لانسانية وصدق إبداعات القاصّ الروسي الشهير (تورغينيف) ، فانه شجب ، بقوّة ، لبرالية النظرات السياسية لهذا الكاتب ، ولبرالية طرحه للمشكلات الاجتماعية والظواهر الحياتية في إبداعه القصصي في حقبة خمسينات — ستينات القرن التاسع عشر (٣٦) .

إن تحليل الطابع الخاصّ لبطل القصة التورغينيفية (العجز ، وضعف الارادة ، وعدم القدرة على اتخاذ القرارات الحاسمة) قد سوّغ لتشيرنيشفسكي

ان يقدّم لوحةً شديدة الواقعية ذات نقد ماحق للنبلاء اللبراليين الروس ، في عشية «الاصلاح الفلاحي »(١٨٦١) .وهكذا ، كانت مشبعةً بالحماس الثوري والايمان بجماهير الشعب ، مقالة الناقدعن «لمحات من المحافظات» للقاصّ الروسي الشهير سالتيكوف — شدرين (١٨٥٧). لقد انتصر الناقد للمضمون وطريقة الصياغة الفنية في عمل شدرين هذا . وتفهّمه كجرّاح يعمل مبضعه في القرح الاجتماعية ، دون رحمة أو مسكنّات . وأسمى الناقد «لمحات» شدرين هذه ، حقيقة تاريخية للحياة الروسية . (٣٢) ورأى الناقد في هجاء شدرين مأثرةُ متميّزةً للكاتب ، تتجلّى في توغّله العميق في جوهر الظواهر التي اضطلع بتصويرها ، منطلقاً من منطلقه الواقعي الفنّي ، الملتحم وثيقاً بالفكر الثوري الطّليعي .

لقد ساق تشيرنيشيفسكي ، (الناقد — المفكّر ، الذي لاحم بعمق بين رؤيته الفكرية الواقعية ورؤيته النقدية — الجمالية الواقعية — الانتقادية ، ومزج ، بعمق ، كذلك بين موقفه النقدي — الجمالي . وموقفه الفكري — السياسي الثوري الملهم لثورة الفلاحين في روسيا أواسط القرن التاسع عشر والمتفاعل بقوّة بها) ، القارىء الى الاستنتاج بأن اجتثاث العيوب الاجتماعية ، واستئصالها ممكن ، فقط ، عن طريق التغيير الثوري للنظام الاجتماعي لروسيا القيصريّة . وكان تشيرنيشيفسكي قد توصّل إلى ذلك ، شأنه شأن طليعيي عصره في روسيا وأوربا ، منطلقاً من ظواهر الواقع الاجتماعي الحياتية وخيّراته المادية . لقد ركّز الناقد تفكيره في وضع الشعب ، وحياته ، وروحه ، ودوره في بناء الحياة الجديدة ، أو إعادة بنائها وفقاً لمتطلّبات مصالحه . وفي ظروف النهوض الثوري في نهاية خمسينات القرن التاسع عشر في روسيا وأوربا ، عدّ الناقد — المفكّر ضرورياً للشعب ان يعرف الحقيقة كاملة عن نفسه ، الحقيقة كما هي ، دون تزويق ، أو تلفيق ، أو تسكين . وطالب ناقدنا الأديب المعاصر ، في زمنه ، لا بالاشفاق على الشعب ، بل بإيضاح الجوانب القوية والضعيفة (الايجابيّات والسلبيّات) في الوعي الفلاحي .

لقد كان واثقاً ان الشعب ، سيفهم ، اذا ما انكشفت له الحقيقة عن نفسه ، أين تكمن مصالحه الحقيقية ، وسيتغلّب على خموله ، ويتجاوزه ، الى العمل بهدف التغيير ، نحو الأفضل .

وطوّر تشيرنيسيفسكي أفكاره هذه في مقالته الشهيرة «أليست بداية التحوّل ؟ » (١٨٦١) ، التي تحدّث فيها ، باستفاضة نسبيّة ، عن أقاصيص أوسبينسكي وعن الحياة الشعبية (التي صوّر فيها غلظة وخشونة عادات وحياة الفلاحين المسحوقين) . ولم يدافع الناقد ، هنا ، عن حقّ الأديب فحسب ، بل عن واجبه ، أيضاً ، في ان يحكي الحقيقة للشعب ، مهما كانت مرّة . ووصف أوسبينسكي بأنه مثال للأديب المبدع الذي «يكتب عن الشعب الحقيقة من دون أيّما تزويقات »، (٣٣) وعارض به الأدباء — النبلاء ، الذين انطلقوا من مواقف مثالية، في إبداعهم الفني،وصوّروا الشعب ومفاهيمه ومشاكله بتلاوين مثالية ، متغنّين أحياناً بجمال الريف المتخلّف ، ومكرسين المشاكل الاجتماعية والاقتصادية ، عاجزين حتى عن الأشارة إلى الحلّ الثوري ، الجماهيري الجذري .

وأكّد الناقد مراراً ، وبسبل شتى ، في مختلف المناسبات ، عبر نقداته الأدبية ومقالاته في موضوعات متعددة ، ان في الشعب المسحوق ، رغم جهالته وتخلّفه الذي لا ذنب له فيه ، تكمن ، بالتأكيد ، تلك القوى غير الناضبة ، بحال ، القوى التي ينبغي توحيدها وتوجيهها . وانه لينبغي القول ان مقالة تشيرنيشيفسكي عن أقاصيص أوسبينسكي قد أدت ، دون شكّ ، دوراً تقدمياً في بلورة النظرية الثورية ، وفي تطوير الأدب الروسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وإننا لنجابه ، بالفعل ، أصداء أفكارها في إبداعات كثير من الأدباء الروس المعاصرين الناقد ، أو المبدعين في أوقات لاحقة .

وهكذا ، فانه يمكن القول ، بثقة ، ان في تشيرنيشيفسكي الناقد قد التحم الكاتب الاجتماعي الذي طرح المشاكل الاجتماعية — السياسية ، استناداً

إلى مادة الأدب الفنّي ، والمقيّم المرهف لظواهر الفن وابداعاته . وفي مثل هذا الالتحام تكمن القوة الاستثنائية لأعماله في النقد الأدبي ـ الجمالي .

ــ ٥ ــ

إن نظرات تشيرنيشيفسكي الجمالية ـ الايديولوجيّة كانت أحد أهمّ ملهمات الأعمال النظرية والتطبيقية لهذا الكاتب الواقعي الكبير ، على صعيد النقد الأدبي والفنّي .

ومن هنا فان التوقّف عند نظرات ناقدنا الجمالية ـ الايديولوجية ومحاولة تسليط الضوء اللازم عليها ، أمر بالغ الضرورة والأهمية ؛ لأن ذلك يتيح لنا إمكانية أفضل لنفهم طبيعة ومنطلقات نقده الأدبي .

لقد كان عمل تشيرنيشيفسكي (علاقات الفن الاستاتيكية بالواقع) أي أطروحته ، دراسةً كبيرةً من جانب الناقد ـ المفكّر للمشكلات الجمالية المعاصرة ، وعلم الجمال البرجوازي ، ومحاولة تأسيس نظريّة جماليّة واقعيّة .

وقد بذل الناقد جهداً كبيراً ، حقّاً ، في تفنيد ودحض مقولات ومسلّمات علم الجمال البرجوازي المثالي ، المستند ، أساساً ، الى جماليّات الرومانسية الرجعية الروسية ، المتأثرة كلّ التأثر بالمدرسة الرومانية الرجعية الألمانية وسواها .

إن جوهر المفاهيم الجماليّة المثاليّة المعاصرة لتشيرنيشيفسكي كان ينحصر في جملة أمور أساسية . أولها ـ ان الفن أسمى من الواقع ـ وانه مرتفع للتعويض عن قصور الجمال في الحياة ، وملء ثغراته ، وابداع مثال الواقع [illegible] الاشارة إلى ان هذه النظرات والأفكار التي كانت ولا زالت ، تلاقي ما يدعى « الفن » المعاصر ، لم تكن جديدة ، فقد تبنّى عل سابق [illegible] ومنظّر الواقعية الانتقادية وجمالياتها ـ بيلنسكي ، أن يشنّ حرباً شعواء ، في وقته ، على أمثال هذه المفاهيم ، موضحاً مدى الضرر البالغ الذي تلحقه بالأدباء

والفنّانين — الذين يقعون تحت تأثيرها . وقد أكّد الناقدان الكبيران — بيلينسكي ، وخليفته — تشير نيشيفسكي ، على نحو مقنع ومبرّر كفاية ، ان هذه المفاهيم تلحق ضرراً بالغاً بالفنّ نفسه ، مفضيةً به إلى الفقر الروحي ، وأحاديّة الجانب ، وضيق الأفق (٣٤) .

وثمّة أمور أساسية أخرى أضاءها الناقد ، واخضعها للنّظر المدقّق — وهي (جوهر الرائع ، والعلاقة التناسبية بين الرائع في الفنّ والحياة ، ورسالة الفن الاجتماعية) ، مبيناً مدى خطل المنطلقات المثالية في هذه القضايا الجمالية.

وأيّاً كان الجانب الذي تطرّق إليه الناقد ، في أطروحته ، فانه كان يتابع هدفاً واحداً — وهو أن يرفع من شأن الواقع في عيون معاصريه ، وان يبلغهم فكرته التي تقول ان الحياة هي أروع الأشياء بالنسبة للانسان .

« إن الرائع هو الحياة » ، يكرّر الناقد ذلك ، في كلّ مناقشاته مع أنصار النظرات المثالية الجمالية — الفلسفية إلى قضية الرائع في الفنّ ، وهو يحاجج ، بقوّة منطقة ، انه لاشيء يستطيع ان يدفع الفنّ مثل التحامه بالحياة . إن هذا فقط هو الذي يمكن ان يكون مصدراً للرائع في الفن (٣٥) .

لقد أثارت أفكار تشير نيشيفسكي الجمالية هذه تعاطف الكثيرين ، مثلما أثارت حقد وسعار الآخرين ، فقد اتهم الجماليون الرجعيون تشيرنيشيفسكي بعدم تقويم الفنّ بما ينبغي ، وبالتهوين من اهميته . ومقابل ذلك ، أكّد تشير نيشيفسكي ان كل أفكاره الجمالية في الأطروحة ، « مشبعة بالاحترام تجاه الفنّ بسبب مغزاه الكبير بالنسبة إلى الحياة ». وفي الواقع فان البرنامج الاستاتيكي — النقدي الكفاحي ، الذي تقدّم به تشير نيشيفسكي ، في الأطروحة وسواها ، لايشير ، بحال ، إلى التهوين من شأن الفنّ ، بل يؤكّد على ضرورة الاعتراف بالقيمة العليا للحياة والواقع ، وبأنّ الواقع وحده هو مصدر الفنّ الحقيقي . وقد كان محقاً أحد دارسي تشير نيشيفسكي ، الذي عد الأطروحة « تبشيراً بالانسانية . وكشفاً كاملاً بالحبّ تجاه الانسانية ، التي دُعي الفنّ لخدمتها » (٣٦) .

وعلى أيّة حال ، فان تشيرنيشيفسكي لايقول ان كل شيء في الحياة رائع. فعلى تأكيده ان « الرائع هو الحياة » يدخل تدقيقاً يقول : «إن مايبدو كائناً رائعاً بالنسبة إلى الانسان هو ذلك الكائن الذي يرى فيه الحياة كما يفهمها هو » (٣٧). وبهذا الشكل ، ففي الحياة بالنسبة إلى الانسان يكون الرائع هو مجرّد ما يؤلّف تصوّره عن المثال .

غير ان المجتمع ليس واحداً — فثمّة شعب يكدح ، فيما هناك ، بالمقابل ، طبقات طفيليّة ، تعيش على حساب الشعب ، ولكلّ هذه الطبقات ، مثلما للشعب ، تصوّرات مختلفة عن الجمال ، ومن ثم عن الرائع في الفنّ . لقد كان تشير نيشيفسكي هو المفكّر الأوّل الذي ربط المثال الشعبي ، وتصوّر الشعب عن الرائع ، بتصوّره عن العمل (٣٨) .

وعلى هدي بيلينسكي ، وفي اثره ، كان تشيرنيشيفسكي يسعى ، بالوسائل كافة ، من أجل توسيع أطر الفن ، وإثراء محتواه . إنه يعارض الفنّ المقوقع في نطاق «الرائع» ، والبعيد عن الحياة ، والفقير في موضوعاته . بالفنّ الذي ينفتح على كل غنى الواقع وتنوعه ، على « كلّ ميادين الحياة والطبيعة ». وباعلانه إن المهمّ في الحياة هو محتوى الفن ، إنما يعني انه يمكن ان يكون هدف التصوير الفنّي ليس الرائع فقط . إن واجب الكاتب هو ان يُخضع للتحليل النّقدي كلّ مايعيق الحياة من أن تكون رائعةً بحقّ (٣٩) .

وعلى صعيد الكفاح الضّاري ضدّ الرجعية في الاستاتيك والنقد الأدبي كان الناقد مضطراً للنضال على أكثر من جبهة . فقد شُنّت عليه الحرب من كل جهة ، وانثالت الاتهامات الظالمة عليه دون حساب . فقد اتهمه خصومه الرجعيون ، المثاليون الجماليون بالعمل على جعل الفنّ مجرّد أداة لطرح المشاكل الاجتماعية فقط . وردّ الناقد انه دعا الفنّانين لتصوير الحياة الواقعية فحسب ، وان هذه « الحياة الواقعيّة » لا تقتصر على عالم الظواهر الاجتماعية . بل تتجاوزه إلى « الحياة الداخلية للانسان » . وأكّد الناقد ان الانسان يعيش

بأحلامه ، أحياناً ، وهو غالباً ما يعيش في عالم إحساسه . إن حياة الانسان الداخلية ، وعالمه الداخلي يرتفع بالضرورة إلى مصاف المهم عموماً ، ومن هنا فهو ، أيضاً ، ينبغي ان يكون ملكاً للفن الواقعي ، ومجالاً لفعاليته ،(٤٠)

وإلى جانب ذلك ، فان مهمة الأدب ، في مفهوم تشيرنيشيفسكي ، لا تُستنفد بتصوير الحياة ، فالكتاب ملزمون ليس بايضاح ظواهر الواقع وتفسيرها وحسب ، بل وباطلاق الحكم عليها أيضاً . وفي هذه الحالة فقط يغدو الأدب « كتاب الحياة » الحقيقي (٤١) . وفي تربية الانسان ، وفي التأثير على عالم قيمه ، يرى ناقدنا المغزى العظيم للأدب .

إن الأفكار ، التي صرح بها تشيرنيشيفسكي في أطروحته ، ترتبط ، أوثق الارتباط ، بأفكار بيلينسكي في طور نضجه . وهي تعتمد ، كذلك ، على التجربة الفنية الغنية ، التي اكتنزها ، في ذلك الوقت ، الكتاب الطليعيون الروس ، الذين عدوا أن الرسالة الرفيعة لابداعهم تكمن في تصوير الظواهر الحياتية الواقعية وإطلاق حكم المواطن عليها .

ويمكن القول ، بثقة ، ان الفن الديمقراطي – الثوري في خمسينات – سبعينات القرن التاسع عشر قد تطور تحت التأثير الكبير لتلك الأفكار التي أعلنها تشيرنيشيفسكي في أطروحته ، ومقالاته في النقد الأدبي . وقد انعكس تأثير هذه الأفكار على سبيل المثال لا الحصر ، في شعر نكراسوف ، ولوحات الفنانين الجوالين ، وسمفونيات وأوبرات الموسيقيين الروس الكبار – بورودين ، وريمسكي – كورساكوف ، وموسورسكي وغيرهم . كما انعكس تأثيرها في عديد من ابداعات أدباء الواقعية الانتقادية في روسيا وأوربا (٤٢) .

— ٦ —

ربما يسجل للناقد – المفكر الروسي الكبير ، تشيرنيشيفسكي ، (وربما يؤسفنا . ويعنينا ، نحن العرب ، خاصة) ، انه كان قد وقف موقف الاحترام

العميق والتعاطف المخلص من قضايا الحضارة العربية ـ الاسلامية ، ومن عديد من أعلام تراثنا الفكري المجيد كابن رشد ، وابن باجة ، وابن سينا ، وابن طفيل ، والفارابي ، والرازي والكندي .

ولم يقتصر إعجابه بثقافتنا العربية على الصعيد الفكري ، بل تجاوزه إلى الصعيد الأدبي الفنّي أيضاً . فقد كان هذا الناقد ـ المفكّر الروسي البارز متابعاً لما ترجم الى الانكليزية والالمانية والفرنسية والروسية من روائع تراثنا الأدبي الفنّي ـ مثل (كليلة ودمنة) ، والمعلّقات ، و(ألف ليلة وليلة) وقصائد أبي العلاء المعرّي ، والمتنبّي ، وعديد من الشعراء الأندلسيين . (٤٣)

وكانت الطبعة الأولى من كتاب «ألف ليلة وليلة» ، في ترجمته الى الروسية قد صدرت عام (١٧٦٣) في مدينة (سمولنسك) .ومنذ ذلك الوقت تداولتها الأيدي ، وأقلام المترجمين الروس وغير الروس ، وصارت دور النشر تعيد طبعها بين آونة وأخرى . وقد قرأ تشيرنيشيفسكي هذه القصص العربية الرائعة ، فاستحوذت على لبّه وخياله ، وأعاد قراءتها مراراً ، طالعاً علينا بهذا التقويم الرفيع لها الذي نثبته في هذا المقتطف من أقواله :

ـ (هناك من القصص الخيالية مما لم يُكتب للأطفال . فلقد اشتهر عصر النهضة في ايطاليا بقصصه الخيالية والاسطورية اكثر مما اشتهر بمفكره العظيم دانتي نفسه . ويستطيع المرء ان يجد أثر هذه القصص البليغ في شعر شكسبير ... ومع كل ذلك فان هذه القصص الايطالية لم تكن منبع الوحي لالهامي ، ففي صغري خلبت لبي قصص الف ليلة وليلة . وحين بلغت سنّ النضج عاودت قراءة هذه القصص المرّة تلو المرّة ، حيث كنت أستمتع ، في كلّ مرّة ، بسحر جديد فيها ... ومع اطلاعي على مؤلفات أدبيّة لاتقلّ قيمةً عنها ، إلاّ انني لم أجد في حياتي ومطالعاتي ما هو أروع منها) (٤٤)

ولم يقتصد تقدير تيشرنيشفسكي بهذا فحسب ، بل وجد أن به حاجة ماسّة لتعلّم اللغة العربية ذاتها (كما أسلفنا الاشارة إلى ذلك في مفتتح دراستنا) :

لكي يقرأ المؤلّفات العربية التي تعجبه باللغة الأصل ، كما كان يقول . وفعلاً تعلّم هذا الناقد — المفكّر (والأديب أيضاً) ، اللغة العربية بطريقتين — الأولى، دراسته الخاصة في منزله ، والثانية دراسة على يد المستعرب الروسي (سابلوكوف) الذي كان في عداد أول من ترجم القرآن الكريم إلى اللغة الروسية . (٤٥)

وقرأ الناقد — الأديب قصص لقمان ، وحكايات وأخباراً عن الخلفاء العباسيين ، .. ولاسيما الرشيد والمأمون والمعتصم ، كما قرأ وأجيز في كتاب « النحو العربي » لمؤلّفه المستعرب بولدريف . (٤٦)

ولعلّ ملاحظات تشير نيشيفسكي عن اللغة العربية والأدب والتراث العربي — الاسلامي تقدّم دليلاً بليغاً على عمق تفهّم هذا الناقد — المفكّر الكبير لقضايا الثقافة العالمية ، بما فيها ثقافتنا العربية — الاسلامية ، الطليعيّة في القرون الوسطى خاصةً . فقد كتب في ملاحظاته تلك مؤكداً ان العرب شعب متمدّن ، وقد حمل مفكروهم مشعل الحرية .. والثقافة أيام كانت أوربّا تغطّ في الظلام ، وان هذا الشعب إذا كان يعاني الآن من الجهل والتخلّف فما ذلك ذنبه ، وإنما هو ذنب الاقطاع والغزاة الأجانب الذين يهمّهم ، فيما يبدو ، ترسيخ هذا التّخلف ، وتكريسه إلى الأبد .(٤٧)

لقد كان إعجاب هذا الناقد — المفكّر ، الأديب الواقعي الثوري بتراثنا نتيجة لاسباب عديدة ، بينها ، بالتأكيد ، تعاطفه مع الشعب العربي في نضاله ومقاومته للغزاة الأجانب . فقد دافع عن شعب مصر والسودان ، وأعلن اتفاقه مع كثير من رجال الفكر الذين انبروا لتأييد كفاح مصروالسودان ضدّ الامبريالية ، في القرن التاسع عشر . ولاسيما المهندس الباحث ايغور كوفاليوفسكي ، الذي كان يعمل في التنقيب الجيولوجي مع بعض المهندسين المصريين ، الذين أكملوا دراستهم العليا في معاهد بطرسبورغ انذاك) . (٤٨)

وحتى في سنوات المنفى الصعبة ، في سيبريا الشرقية ، ظلّ تشير نيشيفسكي يواصل دراساته العربية ، ويكتب في هجاء الأسماء العربية ، وفي فلسفة وفقه اللغة العربية وعدد من اللغات الشرقية الاخرى ، وفي تأثير العرب

الأدبي والفكري والحضاري على كثير من شعوب المعمورة . (٤٩)

ذلكم هو بعض مما استطعنا التوصّل اليه ، وتقديمه إلى القارىء الكريم ، عن ناقد ، مفكّر ، أديب روسي كبير يعد أكبر منظّري الواقعية — الانتقادية بعد بيلينسكي ، وأبرز روّاد الأدب الدمقراطي — الثوري في القرن التاسع عشر ، في روسيا وأوربا ، والعالم عامةً .

،،،،،،

الهوامش

(١) ن . غ . تشيرنيشيفسكي (بقلم روريكوف) — (مصدر باللغة الروسية) ١٩٦١ ، أيضاً — " مدخل الى الادب الروسي في القرن التاسع عشر " (بقلم — د. حياة شرارة و (د. محمد يونس) — المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٨ ، فصل (النقاد الدمقراطيون) (ص — ٩٧ — ٩٨) .

(٢) تشيرنيشيفسكي في ذكريات معاصرية (لعدة مؤلفين) — (مصدر باللغة الروسية) .

(٣) تشيرنيشيفسكي (بقلم — روريكوف ، مصدر سابق) . أيضاً — " أستاتيك الواقعية الدمقراطية — الثورية " (في كتاب ، " قضايا نظرية الأدب " ، موسكو ، ١٩٥٠)

(٤) و (٥) المصدران السابقان .

(٦) و (٧) تشيرنيشيفسكي (بقلم — روريكوف / مصدر سابق) .

(٨) ن . غ . تشيرنيشيفسكي (المؤلفات الكاملة — ذكريات ورسائل) .

(٩) هذه المجلة كانت منبراً مبكراً للنقاد الدمقراطيين — الثوريين الروس ، وقد عمل بيلينسكي فيها أمداً ليس بالقصير .

(١٠) تشيرنيشيفسكي في ذكريات معاصريه (مصدر سابق) ، كذلك (تشيرنيشيفسكي — بقلم روريكوف — مصدر سابق) .

(١١) المصدران السابقان ، كذلك — [illegible] (الأعمال الكاملة) .

(١٢) — (تشيرنيشيفسكي — بقلم روريكوف / مصدر سابق) . كذلك — " دور مجلة المعاصرة " في نشر الفكر الدمقراطي — الثوري في روسيا القرن التاسع عشر " ، (مقالة بقلم ل . ايفانوف — مجلة " [illegible] الفلسفة " [illegible]) .

(١٣) — " أستاتيك الواقعية الدمقراطية — الثورية " (لافريستكي / مصدر سابق) .

(١٤) و (١٥) (تشيرنيشيفسكي — بقلم روريكوف / مصدر سابق) .

(١٦) المصدر السابق .

(١٧) المصدر نفسه .

(١٨) المصدر السابق . كذلك (ن . غ . تشيرنيشيفسكي — الأعمال الكاملة) ، مج ٣ .

(١٩) " فن الواقعية الروسية " (غ . فريدليندير) ، لننغراد ، ١٩٧٣ .

(٢٠) ن . غ . تشيرنيشيفسكي ، الأعمال الكاملة ، مج ٢ ، ص ٤٧٥ .

(٢١) المصدر ذاته ، مج ٣ ، ص ١٨ .

(٢٢) نفسه ، ص ١٣٧ .

(٢٣) نفسه ، ص ١١ .

(٢٤) نفسه ، ص ١٠ .

(٢٥) نفسه .

(٢٦) نفسه . كذلك : (تشيرنيشيفسكي — بقلم روريكوف / مصدر سابق) .

(٢٧) المصدران السابقان .

(٢٨) المصدران السابقان . كذلك " قضايا الرومانسية في أستاتيك النقاد الدمقراطيين — الثوريين الروس " — مقالة بقلم آ . فيدرينكور " قضايا الفلسفة " ، ١٩٦٩ .

(٢٩) " أستاتيك الواقعية الدمقراطية — الثورية " (لافريتكي / مصدر سابق) . كذلك : " نضال بيلينسكي وتشيرنيشيفسكي ودوبرولوبوف في سبيل الواقعية " .. (لافريتسكي / ترجمة د . جميل نصيف التكريتي ، بغداد) . أيضاً ، " مدخل الى الأدب الروسي في القرن التاسع عشر " (د . شرارة و د . يونس / مصدر سابق ص ١٠٠) .

(٣٠) و (٣١) — " أستاتيك الواقعية الدمقراطية — الثورية " لافريتسكي / مصدر سابق). أيضا " في سبيل الواقعية " لافريتسكي / ترجمة — د . جميل نصيف التكريتي / مصدر سابق) .

(٣٢) — ن . غ . تشيرنيشيفسكي (الأعمال الكاملة ، مج ٤ — ص ص ٢٩٧ ، ٣٠٢) .

(٣٣) — المصدر ذاته ، مج ٧ ، ص ٨٩٦ .

(٣٤) — ن . غ . تشيرنيشيفسكي (الأعمال الكاملة ، مصدر سابق) ، كذلك ن . غ . — تشيرنيشيفسكي (الأعمال الكاملة ، مصدر سابق) ، كذلك أيضا — أستاتيك الواقعية

الدمقراطية – الثورية " لافريتنكي / مصدر سابق) . أيضا – " استاتيك بيلينسكي / لافريتسكي ، موسكو ، ١٩٥٩ (فصل – " الاتجاه في الفن " ص ، ١٦٦ ؛ ١٩٣ – ١٩٩) .

(٣٥) – تشيرنيشيفسكي (بقلم روربكوف / مصدر سابق) . كذلك تشيركيشيفسكي / الأطروحة " علاقات الفن الأستاتيكية بالواقع ") . أيضاً – " استاتيك الواقعية الدمقراطية – الثورية / لافريتكي / مصدر سابق) .

(٣٦) – ف . ايفانوف – " أطروحة تشيرنيشيفسكي وقضايا الانسانية " / " قضايا الفلسفة" / ١٩٦٤ ، كذلك " في سبيل الواقعية " (مصدر سابق) .

(٣٧) – نفسه . كذلك – تشيرنيشيفسكي / الأطروحة " علاقات الفن الأستاتيكية بالواقع / مصدر سابق . أيضاً – " أستاتيك الواقعية الدمقراطية – الثورية " / مصدر سابق .

(٣٨) – " الأدب والفن في ضوء الواقعية " بقلم جون فريفيل ، ترجمة – محمد مفيد الشوباشي القاهرة – الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ (ص ٢٥) . أيضاً – " استاتيك الواقعية الدمقراطية – الثورية / مصدر سابق . كذلك – " مدخل الى الأدب الروسي في القرن التاسع عشر " (د . شرارة و د . يونس / مصدر سابق) – ص ٩٨ – (يرتبط مفهوم الفن عند الناس بانحدارهم الطبقي . فهو ليس متجانسا عند الجميع فالمرأة الجميلة حسب مفهوم الفلاح هي المرأة الممتلئة المتوردة الوجنتين والقوية التي تستطيع ان تعمل بنشاط وحيوية . أما المرأة النحيفة والشاحبة التي تعد جميلة حسب المفهوم الأرستقراطي فيرى الفلاح في نحافتها مظهراً من مظاهر الخمول والمرض . وهذا يدل على المفهوم الطبقي للجمال) .

(٣٩) – " في سبيل الواقعية " / مصدر سابق . كذلك – " أستاتيك الواقعية الدمقراطية – الثورية " (مصدر سابق) . كذلك – " من أعلام النقد الروسي – فيساريون بيلينسكي / د . جليل كمال الدين ، مجلة كلية الآداب ، العدد التاسع عشر ، ١٩٧٦ ، فصل " أستاتيك بيلينسكي " ، ص ٤٠١ فصاعدا .

(٤٠) – و (٤١) – في سبيل الواقعية " (مصدر سابق) . كذلك " أستاتيك الواقعية الدمقراطية – الثورية " (مصدر سابق) . كذلك – (تشيرنيشيفسكي – الاعمال الكاملة – " علاقات الفن الاستاتيكية بالواقع " و " نظرة انتقادية الى المفاهيم الاستاتيكية المعاصرة" – ج ٢ ، موسكو ، ١٩٤٧) . أيضاً : " الأدب والفن في ضوء الواقعية " / جون فريفيل / ترجمة الشوباشي (مصدر سابق) ، حيث نقرأ : (يطلب تشيرنيشيفسكي الى الفن الاهتمام بكل مايمس الانسان . ولكن تمثيل الحقيقة لايمكن ان يضؤل ، كما قال ديدرو الى حد تقليد الطبيعة ، فالحياة لها الصدارة ، والفن لايستطيع البقاء في المؤخرة فليمثل الحياة وليحكم عليها ايضا . ليكن الفن ذلك " الكتيب عن الحياة " ، ذلك "

م/٤/١م.س

الدليل " الذي يعين على فهم الحقيقة وتفسيرها على نحو واضح . وينكر " تشيرنيشيفسكي " " كما فعل " بيلينسكي " نظرية الفن للفن الرجعية ، ويؤكد رسالة الفن الايديولوجية والاجتماعية ومهمته التربوية) — ص ٢٤ .

(٤٢) " الفن والأدب ، غ . ف . بليخانوف ، موسكو ١٩٤٨ ؛ كذلك ، نظرية الأدب ن . آ . غولايف ، موسكو ، ١٩٧٧ . أيضاً — " الادب والفن في ضوء الواقعية " جون فريفيل / ترجمة الشوباشي (الفصل الأول) .

(٤٣) و (٤٤) و (٤٥) — ن . غ . تشيرنيشيفسكي (الأعمال الكاملة) — ، ذكريات ورسائل " .

(٤٦) — و (٤٧) و (٤٨) — المصدر السابق . كذلك — " الرحالة الروس في الشرق الأوسط " و " الشرق الأوسط " (كتابان بقلم — ب . م . دانتسيغ) ، موسكو ؛ أيضاً — (إي . يو . كراجكوفسكي — " مع المخطوطات العربية " ، الأصل الروسي ، الأعمال المختارة لكراجكوفسكي في ستة أجزاء ، والترجمة العربية ، موسكو دار التقدم) . أيضاً — كراجكوفسكي " لمحات في تاريخ الاستعراب الروسي " موسكو — لننغراد ، ١٩٤٠ ، ص ١٧٠ فصاعداً) .

العراق رائد الكتابة الفنية في التراث العربي

حميد مخلف الهيتي
عميد كلية الآداب
الجامعة المستنصرية

في تقرير منزلة الكتابة الفنية عند العراقيين في التراث

قال أبو حيان التوحيدي في كتاب الامتاع والمؤانسة :

« وقال أحمد بن محمد : إذا أنصفنا التزمنا مزية العراقيين علينا بالطبع اللطيف والمأخذ القريب ، والسجع الملائم ، واللفظ الموفق ، والتأليف الحلو ، والسبوطة الغالبة ، والحلاوة المقبولة في السمع ، الخالبة للقلب ، العابقة بالروح ، الزائدة في العقل ، المشاكلة القريحة ، المرتوفة على فضل الآداب ، الدالة على غزارة المغترف ، النائية عن عادة كثير من السلف والخلف» .

العراق رائد الكتابة الفنية في التراث العربي

تقديم :

لقد عبر العراق عن اهميته في التراث خلال التاريخ القديم والوسيط والحديث ففي التاريخ القديم كانت ارض الرافدين مهداً لاولى الحضارات الانسانية التي عرفها العالم ومن العصور الوسطى اثمر العراق العظيم اضخم حضارة عرفتها البشرية آنذاك في ظل الدولة العربية الاسلامية الموحدة وعاصمتها المجيدة بغداد(١) وفي التاريخ الحديث يتصدر العراق قمم الاحداث المؤثرة باتجاه بعث الامة العربية بوصفه متنها القوي وفكرها المتطور وسياجها المنيع امام الاعداء والطامعين .

من اساس البديهة سالفة الذكر يكون الحديث عن ريادة العراق لجوانب الابداع الحضارية والفكرية والثقافية في التراث امراً واردا ومشروعاً يستند إلى المحاكمة العقلية قبل أن تؤكده مصادر التوثيق في الكتب والاثار ومدونات الامم الاخرى وحين يكون مدار بحثنا عن الدور الرائد للعراق في الكتابة الفنية في التراث العربي يحق لنا أن نستعيد في السياق عراقة بلاد الرافدين في امتلاك ادوات الفكر. فالعراقيون القدماء هم اول من عرف الكتابة واصول التدوين وان المدونات السومرية والاكدية والبابلية تعد من اقدم المدونات في التاريخ وكان للادب حظ وافر من هذه المدونات اقترن معظمه بالمفاهيم والطقوس الدينية اضافة إلى اخبار الحروب والمعالجات الاجتماعية والانسانية (٢) .

وفي حدود هذا البحث يهمنا أن نشير إلى دور العراق الريادي في الكتابة الفنية في تاريخ العربية اما قبل الاسلام فكانت دولة المناذرة بالحيرة من اولى الممالك العربية التي كان لها شعراؤها وادباؤها وشارك شعراء وادباء القبائل العربية العراقية في تراث الادب العربي قبل الاسلام . وفي صدر الاسلام كان العراق اول ساحة عربية نشطت في احداث الرسالة العربية الجديدة

وكانت البصرة والكوفة اهم مركزيين ثقافيين في العالم في ظل فجر الثورة العربية الاسلامية «٣» وان الحديث عن الكتابة الفنية بمفهومها الاصطلاحي الدقيق يقودنا إلى قصر البحث على اطوارها بدءا من نهاية القرن الثاني الهجري حتى نهاية العصر العباسي حيث تميزت في هذه الحقبة اصول الكتابة واتجاهاتها الفنية كما سنلاحظ ذلك في خطة البحث التالية .

الاتجاهات الفنية للكتابة وريادة العراق لأنماطها

أن الجري على اسلوب ونقاء السليقة العربية كان الاساس الذي قامت عليه انماط الكتابة الفنية منذ عصر الرسالة حتى النصف الاول من القرن الثاني للهجرة وقد تميز طرزها بالجزالة والاصالة والسلوك الحر في الترسل البليغ ولكن تطور دواوين الدولة العربية اقتضى تحول الكتابة إلى حرفة يقوم عليها الموهوبون من الكتاب واقتران الكتابة برسوم واصول اصبحت من تقاليد الحكم وقيافته (٤)ومع لزوم احتفاظ الكتابة بحدود البلاغة العربية فقد تميزت — مع مرّ الزمن — الاتجاهات الفنية الآتية في اصناف النثر :

أولا : مذهب الترسل الحر غير المقيد :

النثر المرسل غير المقيد هو الاساس الذي صدرت عنه المذاهب النثرية الاخرى في مسلسل تطورها وقد طبع هذا المذهب طرز الكتابة حتى مطلع الدولة العباسية على وجه التقريب الامن بعض الانماط التي ظهرت قبل ذلك لدى كتاب الصنعة في الكتابة الرسمية .

ونقصد بالنثر المرسل اسلوب الكتابة الطبيعي الذي لاينوء بقيود السجع او الازدواج او صيغ البديع وفي حدود الزمن الذي ندرسه يتصدر العراقيون مراكز الريادة فيه قبل وبعد انتقال القيادة السياسية المركزية إلى العراق وكان لمدرستي الكوفة والبصرة اثر بليغ في ارساء قواعد النثر الفني واثرائه قبل بناء مدينة بغداد عاصمة الدولة العربية العباسية (٥)ويقف على رأس مذهب

الترسل الحر في النثر الخطباء والوعاظ من امثال الحسن البصري والمتكلمون من اوائل المعتزلة امثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وابراهيم النظام والهذيل بن العلاف والكتاب من امثال ابن المقفع في معظم نثره واحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة (٦) وكثير غيرهم ممن اشتغلوا في دواوين الدولة ببغداد ودواوين الامراء في الاقاليم .

ولا ينبغي الاعتقاد ان النثر المرسل لم يحتفل بالبلاغة العربية او يهتم بها لانه استقى انماطه من اصالة الاسلوب العربي في ايراد النص الفصيح دون كد او مكابدة وتطرأ الفنون البلاغية في طرزه بانسيابية تلقائية ومن فيض الخاطر جميلة سمحاء. ومن نماذج هذا النثر قول ابن المقفع (٧) في وصف أخ له :

« اني مخبرك عن صاحب لي كان اعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظمه عندي صغر الدنيا في عينه . كان خارجا من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر اذا وجد . وكان خارجا من سلطان فرجه . فلا يدعو اليه ريبة ، ولا يستخف له رأيا ولا بدنا ، وكان لايأشر عند نعمة ولا يستكين عند مصيبة . وكان خارجا من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لايعلم ولا يماري فيما علم وكان خارجا من سطان الجهالة فلا يقدم الا على ثقة بمنفعة . وكان اكثر دهره صامتا ، فاذا نطق بذ القائلين . وكان يرى ضعيفا مستضعفا . فاذا جد الجد فهو الليث عاديا . وكان لايدخل في دعوى ، ولا يشارك في مراء ، ولا يدلي بحجة . حتى يرى قاضيا فهما وشهودا عدولا وكان لايلوم احدا على ما قد يكون العذر في مثله . حتى يعلم ما اعتذاره . وكان لايشكو وجعا الا الى من يرجو عنده البرء . ولا يستشير صاحبا الا من يرجو عنده النصيحة . وكان لايتبرم ولا يتسخط . ولا يتشكى . ولا يتشهى . وكان لاينقم على الولي ولا يغفل عن العدو . ولا يخص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته . فعليك بهذه الاخلاق ان اطقتها . ولن تطيق ، ولكن اخذ القليل خير من ترك الجميع » .

ثانياً : مذهب النثر المتوازن أو المزدوج :

يمثل هذا المذهب اهم واخطر مرحلة في النثر الفني ، بل هو تطور ناضج لمذهب النثر المرسل المتقدم ذكره . ويميز هذا المذهب عنايته بتصنيع الكلام وتهذيبه الى حد الاقتراب من طلب بعض الانماط البلاغية التي تحسن في الانشاء النثري ، ولكي يكون كلامنا اكثر وضوحا نشير الى ان النثر المتوازن او المزدوج يهتم بالملاءمات الوزنية بين فواصل الفقرات في الجمل في الحد الادنى وقد يتجاوز ذلك الى الملاءمة بين طول الفقرات والملاءمات الوزنية الداخلية في الجملة الانشائية بهدف اشاعة التلوين الصوتي في النص الادبي(٨) وافضل انماط هذا المذهب واقربها الى الواقعية ما سلك منه على محجة سنوح الازدواج في فواصل فقرات الجمل فحسب دون الافراط في طلبه في الفاظها الداخلية . واذا اتفقنا مع الآخرين في ان عبد الحميد الكاتب القائم على ديوان مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية هو اول من بدأ اصول هذا الطراز (٩) فان العدل يقضي ان نؤكد ان الكتاب العراقيين في القرنين الثاني والثالث الهجريين هم الذين انضجوا ثماره وقد تجاوزوا في تحسينه واثراء المكتوب على سننه حدود التطور النسبي الى حد الابتكار الاصيل لفنونه وقد اسهم في فضيلة تأصيل هذا المذهب عشرات الكتاب العراقيين الذين اشتغلوا في دواوين الدولة العباسية في بغداد وخارجها واننا اذا نجعل ابن المقفع من اوائل المشتغلين بها زمانا ومنزلة في جانب من كتاباته نذكر من الآخرين قبل شموخ مدرسة الجاحظ عمارة بن حمزة كاتب السفاح والمنصور ، وأبا عبيدالله بن معاوية بن يسار كاتب الخليفة المهدي ويوسف بن صبيح ومحمد بن الليث ، وعيسى بن مهران كاتب الخيزران ام الرشيد والفضل بن الربيع كاتب الخليفة الامين والفضل بن سهل كاتب الخليفة المأمون وابن الزيات كاتب المعتصم (١٠) .

ويبلغ مذهب هذا النثر المزدوج ذروته في العراق على يد الكاتب الفذ ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رأس المدرسة العراقية في الكتابة الفنية وقد

طبقت شهرته وشهرة مدرسته الافاق وسيطرت فنونه النثرية على مناهج المترسلين بعده وقد لا نكون مبالغين اذا قلنا ان مناهج الجاحظ في اطوار ترسله المزدوج كانت الوديعة الكريمة التي اسس عليها المجددون من الكتاب العرب في العصر الحديث مذاهبهم في الانشاء متجاوزين مراحل الضعف التي ناء بها النثر العربي في العصور العباسية المتأخرة (١١).

ثالثاً : مذهب السجع وتصنيع البديع :

ذكرنا سابقا ان القرن الثالث الهجري شهد انضج مدرسة للكتابة الفنية — هي المدرسة العراقية — واتفقنا مع الاجماع الذي احل الكاتب العراقي العظيم (الجاحظ) اماما لمذهب الترسل العربي المتوازن الذي اخذت به الاطوار النثرية المتفوقة في مراحل الاشراق الادبي في عصر النهضة (١٢) ولكن عندما نصل الى القرن الرابع الهجري في سياق التسلسل الزمني تتغير الحال ويشيع مذهب نثري جديد هو النثر البديعي المسجع ويكون ابو الفضل ابن العميد اول رواده المعتدلين ويسلك في انماطه المعتدلة الصاحب بن عباد وابو اسحاق الصابي وفي انماطه شبه المبالغة ابو بكر الخوارزمي وبديع الزماني الهمذاني صاحب المقامات المشهور (١٣)، وفي اجيال المتأخرين في القرن الخامس الهجري بعد ابي محمد القاسم الحريري وحتى سقوط بغداد في النصف الثاني من القرن السابع الهجري يتطرف عشاق هذا المذهب في تصنع السجع والمحسنات البديعية الى حد افسدوا به حلاوة الديباجة العربية واغرقوا المعاني في قوالب لفظية معقدة تتحرى صخب الاصوات والالوان بلا طائل باتجاه الحماس الى قهر النص الادبي بتطبيقات بديعية ثقيلة بعيدة عن معايير البلاغة في انماط السلف وقد آلت الكتابة على يد هؤلاء الى شيخوخة مجهدة نرى انماطها في نصوص القاضي الفاضل ومعاصريه (١٤).

ان هذا المذهب اصبح السمة المميزة لانماط الكتابة الفنية منذ المائة الرابعة للهجرة واصبح تجاوزها — في غير نثر المصنفات — سلوكا غريبا في الكتابة

لايقبله العصر واننا اذ لا ننكر ان طرز الكتاب على هذه المحجة حتى جيل ابي محمد القاسم الحريري قد احتفل بنصوص رائعة وجيدة لانه تحرى الاعتدال في التصنيع واخذ رسومه في فن الترسل من عبقرية الجاحظ نؤكد ان هذا المذهب تأثرت اشكاله واصباغه المضافه بالذوق الفارسي لغلبة الفرس على شؤون السياسة في العصر البويهي وان هذا التطور لايخلو من انحراف عن الاصالة العربية في ديباجة الكلام النثري وان السؤال الذي يفرض نفسه هو موقف الكتاب العراقيين من هذا المذهب ومدى اسهامهم في رسومه وللجواب على ذلك نقول ان اقتران مظاهر الثقافة بالقيادة السياسية العباسية وهي — على اية حال — عربية عراقية يضع هذا الموروث في دائرة اهتمام الكتاب العراقيين ضمن تجربة العصر ونجعل على رأس هؤلاء ابا اسحاق الصابي من القرن الرابع الهجري والحريري من القرن الخامس على ذلك تكون المحصلة ايضا رياسة العراقيين لهذا النمط من الكتابة شئنا ام ابينا (١٥) .

وقد يكون من المناسب ان نشير — هنا — الى ان بعض الكتاب قد ثاروا على مذهب العصر واصروا على مواصلة الشوط ضمن المفاهيم المطورة لمدرسة الجاحظ العراقية بالقرن الثالث وعلى رأس هؤلاء ابو حيان التوحيدي الذي يعد بحق التلميذ البار للجاحظ ومدرسته الفنية لذلك بدا في طرزه النقي غريباً بين اهل السجع. وتجاهله نقاذ عصره حتى فطن اليه المتأخرون فأنصفوه وصدروه على كتاب زمانه وجعلوه حلقة امينة بين الجاحظ وبين مرحلة صحوة النثر (٦) المرسل من جديد في انماط كتاب النهضة الحديثة وفي سياق التعرف على طراز المعتدلين من كتاب السجع وتصنيع البديع نسوق هذا النموذج لابي اسحق الصابي (١٧) : في التهنئة :

«أسأل الله تعالى مبتهلا لديه ، ماداً يدي اليه ، ان يخيل على مولانا هذه السنة وما يتلوها من اخواتها بالصالحات الباقيات . وبالزائدات الغامرات ، ليكون كل دهر يستقبله ، وأمد يستأنفه موفيا على المتقدم له ، قاصرا عن المتأخر عنه ، ويوفيه من العمر اطوله وابعده . ومن العيش اعذبه وارغده .

عزيزا منصورا ، محميا موفورا ، باسطا يده فلا يقبضها الا على نواصي اعداء وحساد ساميا طرفه فلا يغضه الا على لذة غمض ورقاد ، مستريحة ركابه فلا يعملها الا لاستضافة عز وملك فائزة قداحه فلا يجيلها الا لحيازة مال وملك ، حتى ينال اقصى ما تتوجه اليه امنيته جامحا ، وتسمو اليه همته طامحا » .

رابعاً : مذهب النثر المترجم :

اصبحت الترجمة المنظمة سمة بارزة من سمات العصر العباسي منذ عصر الخليفة ابي جعفر المنصور وبلغت الذروة في عصر الخليفة المأمون ويقضي سياق الكلام عن الكتابة الوقوف عند لون من النثر الفني يمكن ان يميز عن سواه هو نثر الادب المترجم ويهمنا ان نقف عند حدود الادب المترجم فحسب لأن نثر المترجمات العلمية يدخل في باب نثر المصنفات العلمية وسيأتي الحديث عن ذلك. وقبل ان نصف الملامح الفنية لهذا النثر يحسن بنا ان نشير الى ان العراق بموقعه السياسي والعلمي في القيادة كان اسبق الاقاليم العربية واكثرها اهتماما ونتاجا بالترجمة والنقل (١٨) ومن ذلك النثر المترجم وفي سياق الشكل لا يخرج النثر المترجم عن سياق المذاهب المعروفة وهي النثر المرسل او المتوازن او البديعي المسجع حسب ذوق العصر الذي يظهر فيه النص المترجم ولكن الذي يهمنا في هذا اللون من الكتابة هو مدى قدرة المترجمين على نقل النص بأسلوب يرتفع الى مستوى المكتوب بالعربية اصلا ولقد اخذ الجاحظ من القدماء والدكتور طه حسين من المحدثين على المترجمين تذبذبهم في ورطة ازدواجية الاسلوب ورأينا ان المسألة (١٩) نسبية بين كاتب وآخر ممن كان منهم عارفا بأسرار لغة الامة التي يترجم عنها واسرار بلاغة الاسلوب العربي ينجح في الترجمة الى حد اقترابها من اسلوب الانشاء ومن لم يكن كذلك يقصر في الشوط رغم استعانة بعض المترجمين بالكتاب لتصويب اساليبهم وتعريبها ولكن قناعتنا بأن وقوف الكتاب على اسرار بلاغة الامم الاخرى بعد ترجمة ما عند الفرس والهنود من ذلك وترجمة كتب البلاغة والخطابة

والشعر لارسطو يسر على النقلة تكييف النص المترجم الى العربية بحيث تتناظر الصور والاساليب والمضامين في اللغة المترجم اليها مع الاصل او قريبا منه وهذا مافعله المترجمون العراقيون واوضح ماتستشهد به في هذا المجال ما اثر من ترجمات ابن المقنع في (كليلة ودمنه) وفي الادب الصغير والادب الكبير ولعل نجاح المترجمين في النقل الى العربية يسمي بقدر كبير عبقرية اللغة العربية التي اتسعت لكل علوم العصر بل اتسعت لتحفظ للنص الادبي المترجم سماته الفنية ان لم تزده عمقا وجمالا (٢٠) .

خامساً : مذهب نثر المصنفات العلمية :

يقصد بهذا اللون من الكتابة النثر العربي ما تؤلف به كتب العلوم المختلفة في اللغة والتاريخ والفقه والفلسفة والكيمياء والطبيعة وغير ذلك ويرى البعض اخراجه من دائرة الكتابة الفنية لانه نثر علمي او تعليمي ولكن مناهج المثقفين العرب الموسوعية في الماضي واخذ واحدهم من كل علم بطرف مع تحيف واضح لاحد جوانب المعرفة ووقوفهم على محجة عالية في اساليب الانشاء ارتفع بنماذجهم المكتوبة ببلاغة وفصاحة ودفع بالبعض من النقاد ومؤرخي الادب الى دراسة نثر المصنفات ضمن مناهج الكتابة . اما اهم ما يلفت النظر في نثر المصنفات فهو ميله الى طريقة الترسل الحر غير المقيد المعني بالوضوح والابتعاد عن التعقيد او افتعال فنون البلاغة ولم يخرج نثر المصنفات عن دائرة الترسل الحر في سائر العصور الادبية على خلاف الكتابة الفنية التي تلونت بألوان تلك العصور وذوقيها .

اذا انصفنا العراق وثراءه الثقافي يمكننا القول ان العصر العباسي وعاصمة دولته بغداد كان لها قصبة السبق والريادة في تأليف المصنفات والموسوعات في جميع مصادر المعرفة ويمكن ان نراجع في هذا الصدد كتب ابن سلام الجمحي والمبرد وابن قتيبة وابن المعتز والمسعودى والجهشيارى وآل المنجم والثعالبي ومئات غيرهم (٢١) .

مكانة المدرسة العراقية في الكتابة الفنية في نظر الكتاب

لقد عالجنا منزلة المدرسة العراقية في الكتابة الفنية من خلال الواقع واستقرائه ويجدر بنا ان نلجأ هنا إلى تأكيد ذلك من وجهة نظر الكتاب انفسهم واقرارهم بريادة وتفوق مناهج الكتاب العراقيين على سواهم. وفي هذا السياق نورد النص الاتي لابي حيان التوحيدي من كتاب الامتاع والمؤانسة: (٢٢) « وقال أحمد بن محمد : اذا انصفنا التزمنا مزية العراقيين علينا بالطبع اللطيف ، والمأخذ القريب ، والسجع الملائم ، واللفظ الموفق ، والتأليف الحلو ، والسبوطة الغالبة ، والموالاة المقبولة في السمع الخالبة للقلب ، العابثة بالروح ، الزائدة في العقل ، المشعلة للقريحة ، الموقوفة على فضل الادب . الدالة على غزارة المغترف ، النائبة عن عادة كثير من الخلف والسلف » .

والحق اننا لم نقف عند نص ادق واشمل من هذا النص في وصف الانشاء المتفوق البليغ وان حظوة المدرسة العراقية بهذا التقويم الجليل لا يصدرها على المدارس النثرية الاخرى فقط بل يمنحها من القيم الفنية ما يثبت لها فضيلة الزيادة والتفرد والخلود وان تحليلنا لنص ابي حيان سيوقفنا على اسرار القدرة في منهج المدرسة العراقية من ذلك انها مطبوعة لا مصنوعة وانها واضحة المرامي تأخذ بالسجع متى سنح دون كد او افتعال وتلتقط اللفظ الجميل الرائق والبناء المتسق والانشاء البليغ والاصوات المريحة للسمع المؤثرة في القلب المتفاعلة مع النفس المغنية للعقل التي تؤجج المشاعر وتتجه في موضوعاتها إلى فضيلة الهدف الصادرة عن صدق الاساس وعمق التجربة وعلى قدر عظيم من الاصالة والتفرد والابتكار . وبعد ذلك كله هل يوجد ابلغ من هذا الوصف ؟ واسمى من هذه الطريقة ؟ واجدى من هذا النمط الرفيع في صياغة الانشاء وعبقرية الادب النثري ، وعلينا اخيراً ان نعترف براقمية ابي حيان التوحيدي في اشهاره شهادة الاسبقية في الكتابة لطرائق الجاحظ وانماطه العراقية في الاداء النثري وقد كان الزمن في صف التوحيدي

اخيرا بعد ما سقطت المدرسة الغالية في السجع وتصنعه وبقيت المدرسة العراقية وانماطها الجميلة في الاقاليم العربية كلها .

أهم أنواع الكتابة الفنية وفضل العراقيين فيها

سوف نوضح في هذا الجزء من البحث اهم الانواع الادبية في النثر الفني في العصر العباسي وفضل العراقيين في قيادتها ومن اصولها المتطورة مع نماذج مختارة من نصوصها .

أولا : الرسائل الديوانية :

هي الكتب الرسمية التي تصدر عن الخليفة او الامراء في شأن من شؤون البلاد وادارة الحكم وكان لايلي شؤون ديوان الرسائل الا جهابذة الكتاب واساطين الادب وبالنظر الى ان الادارة العباسية قد شهدت تطورا كبيراً - في اصول ورسوم السياسة فقد واكب الديوان هذه الاطوار وبني طرزه المتقدم في ظلها ولم يستطيع احد من منافسة بغداد وكتابها في هذا المجال لانها استقطبت اليها عباقرة الزمن من جميع اقاليم الدولة وكان من أشهر كتاب الديوان ابن المقفع وسهل بن هارون واحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات (٢٣) والصولي وابن خاقان واحمد بن الخصيب وسعيد بن حميد والحسن بن وهب (٢٤) وابو اسحق الصابي . ويجدر بنا ان نشير إلى رقي مركز صاحب الديوان عند الخلفاء اذ كثيرا ماتكون الكتابة سبيلا إلى الوزارة وامثلة ذلك كثيرة في الدولة العربية العباسية .

ثانياً : أدب التوقيعات :

لون من الوان النثر الفني يقترن بآداب دواوين الدولة وكانت اوليه جملا وعبارات بليغة موجزة يوقع بها الخليفة كتبه الرسمية وتكون على شكل حكمة او قول يتفق مع الموضوع العام للرسالة وقد اثر عن المنصور والرشيد والمأمون توقيعات رائعة من هذا النمط ومع تقدم الزمن عمت رسوم التوقيعات

وصارت للامراء والوزراء والقادة بعدما كانت مقصورة على الخلفاء كما تحولت مناهجها من الايجاز المركز البليغ إلى الاطناب وفي اواخر ايام الدولة العباسية طال التوقيع حتى اصبح معظم الرسالة او الرسالة بكاملها وبذلك هبطت فنية التوقيع وجدواه. ومن اوليات التوقيعات الجيدة توقيع الخليفة السفاح على كتاب من جماعته يشكون ضيق الرزق «من صبر في الشدة شارك في النعمة» وتوقيع المنصور على شكوى أهل الكوفة من عامله عليهم « كما تكونون يؤمر عليكم» وتوقيع الرشيد على كتاب إلى واليه في خراسان «داو جرحك لايتسع » (٢٥) وتوقيع جعفر بن يحيى البرمكي في قصة محبوس « العدوان اوبقه والتوبة تطلقه» (٢٦). وليس بعيداً عن الواقع قولنا ان هذا اللون من النثر عراقي النشأة والاطوار والريادة لان العراق هو مركز الدولة ومحل دواوينها المركزية .

ثالثاً : الرسائل الأدبية :

الرسائل الادبية اعلى مراتب الكتابة الفنية لانها تصدر عن وجدان الكاتب وتعبر عن مشاعره ازاء حافز يثيره او تجربة يعانيها ويدخل في هذا اللون من الرسائل ، الرسائل الاخوانية التي يتبادلها الاصدقاء في التهاني والتعازي والاعتذار والعتاب والمديح والتهادي والدعوات لمجالس الطرب وغير ذلك من الموضوعات. وهذا يعني ان النثر تقمص الاغراض التقليدية للشعر فحاكاه في تلك الاغراض والمرامي وقد وجد الكتاب في نثر الرسائل طواعية وسهولة لايجدونها في الشعر ويبدو ان اكثر المترسلين سلكوا مسالك الشعر والنثر معا ولكن مواهبهم في الترسل تحيفت مواهبهم الشعرية فظهروا بالنثر دون الشعر بل ان لبعض الشعراء المشهورين رسائل نثرية لاتقل روعة عن اشعارهم (٢٧) .

ان تأكيدنا على أهمية الرسائل الادبية والاخوانية لاينصب على اغراضها الجديدة فحسب بل يتعدى ذلك إلى الصياغة الفنية الجميلة التي تسود هذا اللون من الكتابة وبالموازنة بينها وبين فنون الكتابة الاخرى ترجح كفة الرسائل الادبية بعنايتها بالملاءمة بين اللفظ والمعنى واستبطان الذات الانسانية

فيما تحب وتكره مع سعة ظاهرة في السلوك بالمجاز اللغوي وفنون البلاغة التي تحسن في النص الادبي وتعلي طرزه .

وقد هيأ الله للرسائل الادبية من اعلام الكتاب المشتغلين بدواوين الدولة ما وسع من دوائرها واعلى مقدارها وقد عبر هؤلاء الكتاب عن ذكاء وفطنة وثقافة واسعة في مصادر المعرفة ونذكر من مشاهير كتاب الرسائل محمد بن زياد الحارثي ويوسف بن صبيح وابراهيم بن سيابه والعتابي والحسن بن سهل وجبل بن يزيد والحسن بن وهب (٢٨) وابن المعتز والجاحظ وابا اسحق الصابي (٢٩) .

رابعاً : المقامات :

المقامات لون من الوان النثر الفني التي شاعت انماطه في القرن الرابع الهجري وبعده ورغم اختلاف النقاد المحدثين بين تصنيفه في اعداد الادب القصصي المبكر او ادب المقالة فلاشك انه شكل من اشكال ادب الحكايات الذي يقترب من أدب الرواية والاحاديث المعروفة في ذلك الوقت وكما اختلف النقاد في تحديد هوية ادب المقامة اختلفوا في الغرض من انشائها اذ جعلها البعض من أدب الفكاهة للتكسب بها من ذوي الجاه والسلطان وجعلها اخرون من الملح التي يستهل او يختم بها الدرس اللغوي لتشويق الطلبة ودفع الملل عنهم بعد كل الدرس ومشاقه. ورأى نفر اخر ان المقامات تعالج وضعا اجتماعيا ساد في عصرها لانها تحدثت عن طبقة المكدين والمحتالين بصيغة فكهة وبذلك يمكن ان تكون من ادب الرفض الذي انتقد الحالات السلبية في المجتمع (٣٠).

الذي يهمنا في حدود البحث ان نشير الى اهمية المقامات بين فنون النثر الفني في القرنين الرابع والخامس الهجريين واهتمام الناس بها والمبتدع الاول لانماطها ودور الكتاب العراقيين في ريادتها ... اما اهمية المقامات فيجيب عنها شيوعها واقبال الناس على قراءتها وايثارها ثم تطورها مع الزمن

وتعدد مقاصدها وسلوك الكتاب في انماطها حتى العصر الحديث كالذي نراه من مقامات اليازجي والبشري واما ابتداعها فيرى الكثيرون ان بديع الزمان الهمذاني هو المبتدع الاول لها وهو صانعها وباسط شريعتها في القرن الرابع الهجري يأتي بعده الحريري وهو مطورها ومقعد قواعدها ومعلي انماطها في القرن الخامس الهجري ولكن التحري الدقيق اثبت ان بديع الزمان توصل الى هذه الصناعة مستفيدا من احاديث ابن دريد التي تشبه المقامات في كل شيء الا من الجوانب الموضوعية وعند هذه الحقيقة تكون المقامات فنا عراقي البذار والولادة وحين يؤكد الجميع ان الحريري هو المطور والباني والمفرع لها تكون المقامات ايضا عراقية النضج والثراء والمدرسة ويكون بديع الزمان الهمذاني حلقة مهمة بين الحلقتين له فضل التسمية والتبويب وانه بالتالي ليس بعيدا عن ثقافة العراق لان الثقافة العراقية كانت مدرسة الجميع ويؤكد هذا كذلك فضل العراقيين في ريادة فن المقامات وتطويره . ويحسن في الاخير ان نوضح ان ادب المقامات كان تطبيقا بارعا لاسلوب الكتابة الادبية التي تتصرف بتوسع في فنون البلاغة بين الاعتدال والتطرف المحبب مع المام تعليمي في اللغة العربية واحكامها (٣١) .

خامساً : موضوعات نثرية أخرى :

يحسن بنا قبل ان ننهي الكلام عن انماط الكتابة الفنية ان نشير الى فنون اخرى منها استكمالا للبحث . من هذه الفنون ادب الاحاديث كأحاديث ابن دريد وادب الرواية كروايات ابن الانباري وروايات صاحب كتاب الاغاني والقصص المترجم ككتاب كليلة ودمنة لابن المقفع وكتاب ليلة وليلة المترجم عن الفارسية والقصص الفلسفي والخيالي عند ابي العلاء المعري وغيره وكتب ادب الرحلات والتذاكر والقصص الديني والصوفي — ولايشك احد في ان العراقيين كانوا الرواد والمطورين لكل هذه الانماط لان حاضرة الدولة العباسية ملكت قيادة مصادر العلم والمعرفة والادب بين القرنين الثاني والسابع الهجريين (٣٢) .

نماذج من نصوص الكتابة الفنية

١ ـ نموذج من الرسائل الديوانية :

كتب اسماعيل بن صبيح على لسان الخليفة الأمين إلى اخيه المأمون يطلب حضوره الى بغداد : « من عند الأمين محمد أمير المؤمنين الى عبدالله بن هرون أمير المؤمنين ، اما بعد فان أمير المؤمنين روى في أمرك والموضع الذي انت فيه من ثغرك وما يؤمل في قربك من المعاونة والمكانفة على ما حمله الله وقلده من أمور عباده وبلاده ، وفكر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد اوجب لك من الولاية وامر به من اقرارك على ما تصير اليك منها. ورجا أمير المؤمنين ان لايدخل عليه وكف في دينه ، ولا نكث في يمينه اذ كان اشخاصه اياك فيما يعود على المسلمين نفعه ، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله . وعلم أمير المؤمنين ان مكانك بالقرب منه اسد للثغور ، واصلح للجنود ، واكد للفيء ، وأرد على العامة ، من مقامك ببلاد خراسان منقطعاً عن أهل بيتك ، متغيبا عن أمير المؤمنين وما يجب الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك .. فاقدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعونه ، بأبسط أمل ، وأفسح رجاء ، وأحمد عاقبة ، وأنفذ بصيرة ، فانك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره ، واحتمل عنه النصب فيما فيه صلاح بيته وذمته، والسلام» (٣٣).

٢ ـ نموذج من الرسائل الأدبية :

قال محمد بن الليث من رسالة يعتذر بها من صديق :

« كيف يسعك ان تأخذني بظن لو كنت فيه على حقيقة علم لما وسعك اخذي ولا عقابي عليه ، ولو كانت العقوبة على الذنب الكامن في سويداء القلب واسعة لك في حكم الرب لكان فيما حجبت الغيوب عن العمل ما ينتقل في القلوب التي لاتثبت على حال ، الا ريثما يتبعها انتقال مايدعوك إلى أن تمسك عني ، وتقف ، حتى تعرف ايمضي رأي أم ينصرف »(٣٤).

٣ – نموذج من المقامات :

قال الحريري في المقامة الاسكندرية :

قال الحارث بن همام طحابي مرح الشباب ، وهوى الاكتساب ، إلى أن جبت ما بين فرغانة ، وعانة .اخوض الغمار لأجني الثمار ، واقتحم الاخطار لكي ادرك الاوطار ، وكنت لقيت من افواه العلماء وثقفت من وصايا الحكماء ، انه يلزم الأديب الاريب ، اذا دخل البلد الغريب ، ان يستميل قاضيه ، ويستخلص مراضيه ، ليشتد ظهره عند الخصام ، ويأمن في الغربة جور الحكام ، فاتخذت هذا الادب اماما وجعلته لمصالحي زماما.

فبينما انا عند حاكم الاسكندرية ، في عشية عرية ، وقد احضر مال الصدقات ، ليفضه على ذوي الفاقات ، اذ دخل شيخ عفرية ، تعتله امرأة مصبية . فقالت ايد الله القاضي ، وادام به التراضي ، اني امرأة من اكرم جرثومة ، واطهر ارومة .

وكان ابي اذا خطبني بناة المجد ، وارباب الجد ، سكتهم وبكتهم ، وعاف وصلهم وصلتهم ، واحتج بأنه عاهد الله تعالى بحلفة ، ان لا يصاهر غير ذي حرفة ، فقيض القدر لنصبي ، ووصبي ، ان حضر هذا الخدعة نادي ابي ، فأقسم بين رهطه ، انه وفق شرطه ، وادعى انه طالما نظم درة الى درة فباعهما ببدرة ، فاغتر ابي بزخرفة محاله ، وزوجنيه قبل اختيار حاله . فلما استخرجني من كناسي ، ورحلني عن اناسي ، ونقلني الى كسره ، رحصلني تحت اسره ، وجدته قعدة جثمة ، والفيته ضجعة نومة ، وكنت صحبته برياش وزي ، واثاث وري ، فما برح يبيعه في سوق الهضم ، ويتلف ثمنه في الخضم والقضم إلى ان مزق مالي بأسره ، وانفق مالي في عسره ، فلما انساني طعم الراحة وغادر بيتي انقى من الراحة .. قلت له الخ .. » (٣٥).

خزانات الكتب ودور الترجمة في العراق وأثرها في تطوير الانشاء النثري العباسي

ذكرنا في مقدمة البحث ان الكوفة والبصرة كانتا من اوائل المراكز الثقافية العربية وربما العالمية بعد الفتوح الاسلامية وبعد قيام الدولة العباسية وبناء مدينة بغداد لتكون عاصمة الدولة العربية الاسلامية امتلك العراق زمام القيادة الثقافية وظهرت فضيلته في مد العالم المعروف آنذاك بمصادر المعرفة في العلوم كافة المبتدعة او المنقولة والمطورة من تراث الامم الاخرى وقد وجدنا من المناسب ان نسمي اهم خزانات الكتب ودور الترجمة العراقية في العصر العباسي واثرها في الحركة الثقافية خلال الفترة التي خصصناها في هذا البحث .

أولاً : بيت الحكمة في بغداد :

قد اسميت في بعض المراجع خزانة الحكمة او دار الحكمة .اسست في عهد الخليفة هارون الرشيد وربما في زمن الخليفة المنصور وبلغت اوج ازدهارها في عصر الخليفة المأمون وقد كانت دار الحكمة مكاناً لخزن الكتب وتجليدها واستنساخها وترجمة المصادر الاجنبية وضمت اقساما اساسية للتأليف والبحث والنقل والترجمة عن اليونانية والفارسية والارامية والهندية والقبطية واذا تجاوزنا حقيقة كونها مآبة وموقعاً لاشهر علماء العصر العباسي وكتابه فمن الواجب ان نشير الى انها اعظم مؤسسة للترجمة والنقل في العالم.ومن اشهر من عملوا بها من كبار المترجمين بنو موسى بن شاكر المنجم وهم ثلاثة (احمد ومحمد والحسن) ويحيى بن ابي منصور الموصلي ومحمد بن موسى الخوارزمي وسعيد بن هارون وحنين بن اسحاق العبادي وابنه اسحق وحبشي بن الحسن الاعسم وثابت بن قرة وقد وردت اسماء هؤلاء وتراجمهم وآخرين معهم في كتاب الفهرست لابن النديم واخبار الحكماء للقفطي وطبقات الامم لصاعد الاندلسي وعيون الأنباء لابن ابي أصيبعة وكشف الظنون لحاجي خليفة(٣٦) . ويبدو ان دار الحكمة بقيت موئلاً للعلم والعلماء حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ كما يذكر ذلك القلقشندي في صبح الاعشى وبيت الحكمة واحة ثقافية اثمرت اعظم الكتاب واشهر العلماء .

ثانياً : خزانة المدرسة النظامية في بغداد :

هي حلقة تالية لبيت الحكمة ارتفعت بالمدرسة النظامية وقد فرغ الوزير نظام الملك من عمارتها سنة ٤٥٩ هـ توافرت موجوداتها من الكتب عن طريق التأليف والشراء والاهداء والوقف وممن وقف كتبه عليها المؤرخ البغدادي الشهير محب الدين بن النجار صاحب كتاب (ذيل تاريخ بغداد) وقد تولى امرها خزنة ومشرفون ومناولون من مشاهير العلماء منهم القاضي ابو يوسف يعقوب بن سليمان ويحيى بن علي بن الخطيب التبريزي والشاعر الابيووردي وعبد القادر بن داود الواسطي وعمرو بن عبد الله بن ابي السعادات وكانت المدرسة النظامية وخزانتها من المراكز الثقافية التي اسهمت في تطوير العلوم والاداب وفروع المعرفة الاخرى (٣٧) .

ثالثاً : خزانة المدرسة المستنصرية في بغداد :

انشئت مع المدرسة المستنصرية على يد الخليفة المستنصر بالله العباسي ولان هذه المدرسة اخذت طابعاً جامعياً في التخصص والتقاليد فقد اثرت مكتبتها بعدد هائل من الكتب بلغ تعدادها ثمانين الف مجلد وقد قام على ادارتها من الخزنة والمشرفين والمناولين مشاهير العلماء والادباء نذكر منهم الشيخ عبد العزيز بن دلف ابو محمد البغدادي وابنه العدل وضياء الدين والشمس علي بن الكثير وابن الساعي المؤلف المشهور صاحب كتاب اخبار الادباء ومختصر اخبار الخلفاء وابن الفوطي المؤرخ والمؤلف المشهور صاحب كتاب درر الاصداف في بحور الاوصاف وكتاب الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة وقد طال عمر مكتبة المستنصرية وبعد سقوط بغداد نقلت معظم كتبها الى مراغة بعد استيلاء المغول على العراق وعند حلول المائة التاسعة للهجرة نجد ان بقية كتبها تبددت بالتلف او السرقة والنهب (٣٨) .

خاتمة : بقي ان نقول في خاتمة البحث ان المدرسة العراقية في الكتابة الفنية التي سادت منذ العصر الاموي حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ قد أرست قواعد

وطرز النثر الفني وان نمطها الرفيع كان الامانة التي تسلمها كتاب عصر النهضة ليسنوا على شريعتها انماطهم المطورة بعيداً عن الطفرات الشاذة التي ابتلى بها النثر العربي على يد الغرباء في العصور المتأخرة وقد لا نعدو الحقيقة حين نؤكد ان مدرسة الجاحظ الفنية تسمى بشرف طرز المناهج الفنية للكتابة العربية في اجل انماطها .

الهوامش

(١) يراجع كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام د . جواد علي
وكتاب تاريخ العرب قبل الاسلام لجورجي زيدان

(٢) المصدر الاول نفسه – سومر واكد وبابل
وكتاب الواح سومر – كريمر – ترجمة طه باقر

(٣) المزهر للسيوطي ٢١١/١
اصالة الحضارة العربية – ناجي معروف ٤٩٥
العصر العباسي الاول – شوقي ضيف – ١١٨ ومابعدها

(٤) الوزراء والكتاب – الجهشيارى ص ٢ ومابعدها
الفن ومذاهبه في النثر العربي – شوقي ضيف ١٠١ ومابعدها

(٥) لان هاتين الحاضرتين ضمتا اشهر المشتغلين الاوائل باللغة والادب والتاريخ
انظر العصر العباسي الاول – شوقي ضيف ١١٨ أيضا

(٦) انظر في هؤلاء الكتاب – الجهشيارى – الوزراء والكتاب والبيان والتبيين وجمهرة رسائل العرب

(٧) جمهرة رسائل العرب ٦٠/٣

(٨) الصناعتين – ابو هلال العسكرى ٢٠٣

(٩) مروج الذهب – المسعودى ٨١/٦
العقد الفريد ابن عبد ربه ٢٠٦/٢

(١٠) العصر العباسي الاول – شوقي ضيف – ٥٧٠ ومابعدها

(١١) معجم الادباء – ياقوت الحموي – ٦٩/٦ – ٧١

(١٢) تطور الاساليب النثرية / انيس المقدسي / ١٦٩

(١٣) المصدر السابق نفسه

(١٤) يراجع القاضي الفاضل في وفيات الاعيان ٢/٨–٦

(١٥) معجم الادباء / ياقوت / ١٧٠/٦

(١٦) تطور الاساليب النثرية / انيس المقدسي ١٨٧ ومابعدها

(١٧) يتيمة الدهر – الثعالبي ٢٢٢/٢

(١٨) يراجع كتاب كوركيس عواد – خزائن الكتب القديمة في العراق

(١٩) الفن ومذاهبه في النثر العربي – شوقي ضيف ١٤١

(٢٠) العصر العباسي الاول – شوقي ضيف ١٤٤

(٢١) تراجع كتب التراجم عن هؤلاء وغيرهم

(٢٢) الامتاع والمؤانسة — ابو حيان التوحيدى ٩٤/١

(٢٣) ينظر في تراجم هؤلاء الكتاب — الفهرست والجهشيارى
والبيان والتبيين وزهر الاداب — ومروج الذهب والتنبيه
والاشراف للمسعودي ومعجم الادباء لياقوت وتاريخ بغداد
وابن خلكان والعقد الفريد
العصر العباسي الاول — شوقي ضيف ٥٠٧ ومابعدها

(٢٤) المصادر أنفسها مع بقية كتب التراجم
العصر العباسي الثاني — شوقي ضيف ٥٧٤ ومابعدها

(٢٤) العقد الفريد ٢١٣/٤

(٢٦) الجهشيارى ٢٠٥

(٢٧) العصر العباسي الاول — شوقي ضيف ٤٩١ ومابعدها

(٢٨) المصدر نفسه ٤٩١ ومابعدها

(٢٩) العصر العباسي الثاني — شوقي ضيف ٥٩٢ ومابعدها

(٣٠) أهل الكدية — ابطال المقامات في الادب العربي — عبد النافع طليمات

(٣١) براجع في المقامات — المقامة — لشوقي ضيف
النثر الفني زكي مبارك ١٩٧/١ ومابعدها
زهر الاداب — الحصرى ٢٠٧/١

(٣٢) هذه سلسلة تؤكدها كتب التاريخ وتاريخ الادب قديما وحديثا

(٣٣) الطبرى ١١/٧

(٣٤) جمهرة رسائل العرب ١٨٥/٣ — طبعة دار الكتب — القاهرة

(٣٥) مقامات الحريري — المقامة الاسكندرية

(٣٦) خزائن الكتب القديمة — كوركيس عواد ص ١٠٥ — ١١٠
الفهرست لابن النديم ص ٢٤٣ حول الاوائل من رجال بيت الحكمة

(٣٧) خزائن الكتب القديمة — كوركيس عواد ص ١٤٥ ومابعدها

(٣٨) المدرسة المستنصرية ببغداد — كوركيس عواد — مطبعة التفيض ص ٢٣ ومابعدها

مراجع البحث

١ ـ المزهر ـ السيوطي ـ القاهرة ١٩٥٨ .
٢ ـ الوزراء والكتاب ـ الجهشياري ـ مطبعة البابي ـ القاهرة
٣ ـ البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ القاهرة١٩٦٠
٤ ـ الصناعتين ـ ابو هلال العسكري ـ تحقيق البجاوي ـ القاهرة١٩٥٢
٥ ـ جمهرة رسائل العرب ـ طبعة دار الكتب ـ القاهرة .
٦ ـ مروج الذهب ـ المسعودي ـ طبعة باريس ـ وطبعة دار الاندلس.
٧ ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ـ بولاق ـ مصر ١٢٩٣هـ .
٨ ـ معجم الادباء ـ ياقوت الحموي ـ طبعة مرجليوث .
٩ ـ وفيات الاعيان ـ ابن خلكان ـ مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٣٤.
١٠ ـ يتيمة الدهر ـ الثعالبي ـ طبعة الصاوي ـ القاهرة ١٩٣٤.
١١ ـ الامتاع والمؤانسة ـ ابو حيان التوحيدي ـ تحقيق أحمد أمين ـ القاهرة .
١٢ ـ الفهرست ـ ابن النديم ـ طبعة القاهرة .
١٣ ـ زهر الاداب ـ الحصري ـ المطبعة الرحمانية ـ القاهرة ١٩٢٥ .
١٤ ـ تاريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي .
١٥ ـ تاريخ الرسل والملوك ـ الطبري ـ المطبعة الحسينية ـ القاهرة وطبعة ليدن .
١٦ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي ـ طبعة المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ..
١٧ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جورجي زيدان ـ القاهرة ١٩٠٨ .
١٨ ـ الواح سومر ـ كريمر ـ ترجمة طه باقر .

١٩ ـ اصالة الحضارة العربية ـ ناجي معروف ـ مطبعة التضامن ١٩٦٩ .
٢٠ ـ العصر العباسي الأول ـ شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ مصر.
٢١ ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي ـ شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ مصر.
٢٢ ـ تطور الاساليب النثرية ـ انيس المقدسي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .
٢٣ ـ خزائن الكتب القديمة في العراق ـ كوركيس عواد ـ مطبعة المعارف ـ بغداد .
٢٤ ـ العصر العباسي الثاني ـ شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ مصر.
٢٥ ـ اهل الكدية ابطال المقامات في الادب العربي ـ عبد النافع طليمات دار ابن الوليد ـ حمص .
٢٦ ـ فنون الادب العربي ـ المقامة ـ شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ القاهرة .
٢٧ ـ النثر الفني ـ زكي مبارك ـ المطبعة التجارية ـ مصر
٢٨ ـ مقامات الحريري ـ الحريري ـ منشورات المكتبة التجارية ـ القاهرة .
٢٩ ـ المدرسة المستنصرية ببغداد ـ كوركيس عواد ـ مطبعة التفيض ـ بغداد .
٣٠ ـ تاريخ الحكماء ـ القفطي ـ طبعة الخانجي ـ القاهرة .
٣١ ـ الاغاني ـ ابو الفرج الاصفهاني ـ طبعة الساسي ودار الكتب ـ مصر .
٣٢ ـ الكامل في التاريخ ـ ابن الاثير ـ المطبعة المنيرية ١٣٤٨هـ وطبعة ليدن.
٣٣ ـ التنبيه والاشراف ـ المسعودي ـ دار الصاوي ـ القاهرة ١٩٣٨.

ملحمة كلكامش العراقية

ودورها الرائد في أدب الملاحم العالمي

الدكتور سلمان داود الواسطي
أستاذ الأدب الأنكليزي المساعد
كلية الآداب الجامعة المستنصرية
بغداد

خلاصة البحث

يتألف هذا البحث من مقدمة ومتن وخاتمة

لتبرير الاصرار على تسمية ملحمة كلكامش ملحمة عراقية ، تستعرض المقدمة الأقوام التي تعاقبت على سكنى العراق القديم من سومريين وأكديين وبابليين وآشوريين لتستخلص نتيجة هامة هي ان ارض العراق وماءه وهواءه هي التي أمدت تلك الاقوام بالطاقة الروحية والفكرية الهائلة التي مكنتهم من أن يكونوا مبدعي أول حضارات البشر . ولما كانت تلك الحضارات أصلية في «عراقية» نشأتها ، لاتدين بالكثير للمواطن القديمة التي نزحت عنها تلك الأقوام ، سامية كانت أم غير سامية ، توجّب الا ندعو تلك الحضارات حضارات «عراقية» نسبة الى الأرض التي نشأت فيها وترعرعت وازدهرت في ربوعها .

ويناقش المتن الاعتقاد الشائع خطأ وهو ان ملحمتي «هوميروس» :

الالياذة والأوديسة هما النموذجان الأولان لأدب الملاحم في العالم ، إذ يؤكد عن طريق التعريف السريع بملحمة كلكامش وتاريخ تأليفها أنها تسبق تأليف «هوميروس »بأكثر من عشرة قرون . ويبين المتن كذلك إمكانية إطلاع «هوميروس » على الملحمة العراقية التي كانت معروفة في بلاده قبل زمنه بخمسة قرون ، وإفادته منها شكلاً وموضوعات مركزية ، شأنه في ذلك شأن كتّاب «العهد القديم »وغيرهم من كتّاب الآداب الشرقية والغربية التي جاءت بعد اكتمال ونضج أدب العراق بقرون . يستعرض المتن ، بعد ذلك، ملحمتي «هوميروس »ثم يلقي نظرة ثانية متعمقة على ملحمة كلكامش ليوضح الخطوط العامة في الشكل والمضمون مما التقطه « هوميروس » من ملحمتنا بذكاء وأفاد منه في تأليف ملحمتيه ، خاصة الأوديسة .

تعود الخاتمة لتؤكد الدور الريادي لملحمة كلكامش في الأدب العالمي ، ومدّها ذلك الأدب بـ«ثيمات » ، أو موضوعات مركزية ، لاتزال تحتفظ بجدّتها وتثير النقاش لنقاش وتلهم الأدباء حتى هذا اليوم.وتؤكد الخاتمة ،أخيراً. حق كل عراقي في الاعتزاز والافتخار بملحمته الوطنية باعتبارها أول قصيدة بطولية تمجّد بحث الانسان عن « الخلود » ، خلود « الاعمال » ، تحدياً المقدر الذي حرّم عليه خلود « الاعمار » .

١٠٠ ــ مقدمة :

١٠١ ــ العراق : خلفية لابدّ منها

سمِّه ما شئت،
سمِّه أرض سومر وأكد، أرض كلدة، أو أرض بابل وآشور،
سمِّه وادي الرافدين، بلاد الرافدين، أو ما بين النهرين،
سمِّه العراق القديم، أو العراق العربي،
سمِّه أرض الجزيرة، أو أرض السواد،
سمِّه العراقين،
سمِّه ما شئت، ويبقى العراق هو العراق العظيم، تبقى جباله وهضابه واحدة من أقدم مواطن الانسان القديم: تذكر كهف «شانيدار» وعد خمسين ألف سنة إلى الوراء .. تأمل فؤوس إنسانه وأدواته الحجرية في عصر ما قبل العصور وتوغل في تاريخ ما قبل التاريخ مائة ألف عام ..

قل : ما تشاء عن أمجاد العراق فلن يجرؤ أحد على تكذيبك ..

قل : إن العراق هو مهد الحضارات البشرية قاطبة،

قل : إنه منطلق الاضاءات الأولى لفكر الانسان،

قل : هنا اخترع دولاب العجلة الذي لا يزال يدور حتى الآن ويدير الكون معه،

قل : هنا اخترعت الكتابة التي بها سيطر البشر، كل البشر، على الماضي والحاضر والمستقبل، وبها صار الفكر مادة قابلة للحفظ والنقل والتداول عبر العصور، وبها سجل الزمن المرئي أخبار الخرافات، وبها ضمنت حضارات البشر، كل البشر، لنفسها الخلود.

قل مع «ول ديورانت» وهو يروي قصة الحضارة (١)، هنا في وادي الرافدين، في أرض سومر وأكد وبابل وآشور، في أرض العراق:

«نجد أولى ما أسسه الانسان من دول وامبراطوريات وأول

نظم الري ، وأول استخدام للذهب والفضة في تقويم السلع ، وأول العقود التجارية ، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب للقوانين ، وأول استخدام للكتابة في نطاق واسع ، وأولى قصص الخلق والطوفان ، وأولى المدارس والمكتبات ، وأول الشعر والأدب ، وأولى أصباغ التجميل والحلى ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل ، وأول استعمال المعادن في الترصيع والتزيين ، وهنا نجد في البناء أول العقود والأقواس.» (ص — ٤٠).

وقل مع «صمويل كريمر» وهو يستنطق ألواح سومر (٢) ، هنا في العراق أنشئت أول المدارس ، وعقد أول برلمان ذي مجلسين ، وكتب أول مؤرخ ، وعاش أول مشرّع للقوانين ، ووضع أول دستور للادوية وأول تقويم للزراعة . وجرت أول تجربة للغرس تحت ظلال الاشجار ووضعت أول الآراء عن أصل الخليقة والكون وفلسفة الوجود وهنا في أرض العراق وضعت أول المثل العليا في الاخلاق ، وأول الامثال والحكم وجرت أولى المناظرات الادبية ، وكتبت اولى الملاحم البطولية والاساطير المفسرة للحياة ، وأقيمت أول مكتبة ، وجرت أول فهرسة للكتب في العالم ، وألفت أول المعاجم اللغوية.

سمّ العراق أرض كلدة مع «غوستاف لوبون» وهو يستعرض حضارة بابل وآشور (٣) ، وقل معه «كانت حضارة الكلدانيين تزهو على ضفاف الفرات . وقد أفاضت على أمم الشرق ثم الاغريق من بعدهم» (ص ٤٦). واستمع إليه وهو يقرّ باسم الأوربيين بأن تلك الحضارة قد وصلت إليهم بعد أن ربّت [illegible] في مواكب التاريخ» (ص — [illegible]).

تواضع مع «أندري بارو» وقل معه وهو يقدم لك : سومر فنونها وحضارتها (٤) « لا نود في هذه اللحظة أن ننكر على شعوب أخرى مساهمتها في هذا الانجاز الجماعي » . أي الانجاز الحضاري ، ولكن استدرك معه ، وهو يقول إن لكل لهب أضواء للبشر سوضعاً ، وإن العراق كان واحداً من مواضع اللهب

الكبرى في العالم حيث «أخذت شمس بلاد الرافدين، كجبّار ذي اكتاف ملتهبة، تسير قدماً في طريق افتتاحه للسماء. ولم تضيء تلك الشمس بأنوارها سهل وحوض النهرين العظيمين، دجلة والفرات، حسب، بل أضاءت... كل المنطقة الواسعة التي كان البحر الأبيض المتوسط يحدها من الغرب، وتمتد شرقاً حتى تخوم الأفغان» . (ص — ٤٦)

تذكر مؤسسي حضارة العُبيد وأريدو ، وتذكر مؤسسي حضارة الوركاء من السومريين ، ولا تأبه لتخرصات المشككين بأصلهم(٥) لانهم ، ومهما قيل عن أصلهم ، يبقون عراقيين موطناً وحضارة وإبداعاً . تذكر الأكديين والبابليين والآشوريين ثم تذكر ما تعاقب على العراق من غزاة من الحيثيين والحوريين والأخمينيين واليونانيين والفرثيين والساسانيين ، تذكر كل هذا وردد مع «انطون مورتكارت» وهو يستعرض الفن في العراق القديم (٦) ويتحدث عن حضارة العراق القديم فيقول إن تلك الحضارة العريقة كانت نتاج «تعاقب أجناس بشرية من أصول ولغات متباينة جداً ، ومع ذلك فانها تعكس نظاماً روحياً متماسكاً تهيمن عليه وحدة تامة » .(ص — ١٥) تذكر هذا وأضف الى قوله موضحاً ومعللاً أن ذلك النظام الروحي المتماسك وتلك الوحدة التامة كانت تستمد قوتها وديمومتها من الأرض ، أرض العراق ، ومن الماء ماء العراق ، ومن الهواء ، هواء العراق . هذا الهواء وهذا الماء وهذه الأرض كانت ولاتزال حتى هذا اليوم تغذّي شعباً عجيباً بين الشعوب ، أسقطت وتستقطب حتى هذا اليوم وحدته الروحية المستمدة من حب الأرض والماء والهواء كل محاولات الطامعين في تفتيت هذه الوحدة الروحية وهذا التماسك العراقي المتين .

وأخيراً . تتجلى مع أبعاد أعرق الشعوب في العالم وتجسدها ... ولك كل الحق في أن تتباهى بالتاريخ معك ... بأنك من العراق : عراق ملحمة كلكامش وقيثارة أور . عراق مسلة حمورابي . عراق الزقورات وباب عشتار ، عراق الثور المجنح ومكتبة آشور . عراق ألف ليلة ، عراق شهرزاد التي أدركها

ألف صباح وصباح وهي تتحدث حديثها المباح عن بغداد هرون الرشيد ، وستظل تتحدث به لكل الامم ولكل العصور .

وتباه الآن بأنك من العراق الحديث ، عراق صدام حسين الذي تضيء روحه وترود رؤاه ورؤى أرواح بناة العراق العظيم : المأمون ، الرشيد ، المنصور ، آشور بانيبال ، نبوخذ نصّر ، سنحاريب ، حمورابي ، سرجون وكاكامش الذي بنى أسوار أوروك العالية والذي رأى كل شيء فغنت بذكره البلدان .

٢٠٠ ــ ملحمة كلكامش العراقية ودورها الرائد في أدب الملاحم العالمي

٢٠١ ــ ملحمة كلكامش : نظرة سريعة أولية

لعل فيما تقدم توضيحاً وتبريراً كافيين لاصراري المتعمد على تسمية ملحمة كلكامش ملحمة عراقية لا «سومرية» أو «أكدية» أو «بابلية» أو «آشورية» وأضيف هنا أن وادي الرافدين بسومره وأكده وبابله وآشوره لم ينصهر ثم يتبلور «عراقاً واحداً» مثلما انصهر وتبلور في عمليات تأليف وتدوين وتنقيح وتحقيق هذا الأثر الأدبي الرفيع : فبطل الملحمة سومري تعود فترة حكمه الى عصر فجر السلالات «٢٨٠٠ ــ ٢٤٠٠ ق.م.» ، والنصوص الأولى التي تذكره وتشيد بأعماله ومآثره تعود الى عهد سرجون الأكدي «حوالي ٢٣٥٠ ق .م .» . وهي نصوص أكدية تستند بدورها الى نصوص سومرية سابقة لها . أما الملحمة بشكلها المتكامل نسبياً ، أي بخطوط أحداثها وشخصيات أبطالها فتعود إلى العهد البابلي القديم «حوالي ٢٠٠٠ ــ ١٥٠٠ ق. م. » لكن آخر نص للملحمة ، وهو نص كامل اعتمدت عليه كل الترجمات الحديثة للملحمة ، عربية وأجنبية«٧» ، فانه يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد ، وهو النص المدوّن في اثني عشر لوحاً طينياً عثر عليها في مكتبة آشور بانيبال في نينوى تحت عنوان «هو الذي رأى كل شيء»«٨»

ان الاهتمام الكبير والاعتزاز الواضح الذي ابداه الكتاب والمنقحون والمترجمون الأكديون والبابليون والآشوريون لهذه الملحمة ، رغم وفرة الملاحم والأساطير العراقية القديمة الأخرى(٩)هذا الاعتزاز إنما هو اعتزاز بقيمتها الفنية العالية وتمجيدها بطلاً عراقياً أصبحت أعماله مثلاً يحتذى وقدوة يقتدي بها الحاكمون من بعده .

والملحمة ، اضافة الى هذا ، عبرت الحدود العراقية ، قمةً كما عبر معها من ملاحم واساطير وقصائد عراقية اخرى ، لتظهر في بلدان مجاورة قديمة بلغتها البابلية أو بترجمات إلى لغات تلك البلدان حيث كشفت التنقيبات الأثرية عن نصوص من الملحمة تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد في بلاد الحوريين والحيثيين (وهي البلاد التي تضمها في الوقت الحاضر أراضي الجمهورية التركية من بحيرة «وان» شرقاً حتى مضيق الدردنيل غرباً) كما ظهرت لها نصوص في مدينة «مجدّو» الفلسطينية القديمة .

إن تاريخ عبور الملحمة إلى آسيا الصغرى أو بلاد الاناضول ، وهو القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، تاريخ مهم جداً كما سنوضح بعد قليل .

٢٠٢ — التعريف بالملحمة جنساً أدبياً

٢٠٢٠١ — الملحمة لغة

يعرّف لسان العرب الملحمة بأنها «الوقعة العظيمة القتل، وقيل موضع القتال.... والجمع الملاحم مأخوذا من اشتباك الناس و اختلاطهم فيها كاشتباك لُحمة الثوب بالسِّدى ».ولا يتطرق لسان العرب للمعنى الاصطلاحي الذي اتخذته كلمة «ملحمة» في الأنواع الأدبية . لكن سليمان البستاني يقول في مقدمته الموسوعية لترجمة إلياذة هوميروس «١٠» ان العرب قد بحثوا «في أبواب الشعر وضروبه وفنونه ودعوها جميعاً بأسماء تنطبق عليها . ولكن لم يتصل بنا أنهم وضعوا اسماً لمنظومات الشعر القصصي من نظائر الالياذة إلاّ أن يكون ذلك ما استحدثه اهل المغرب وسمّاه بعضهم بالملاحم وهو عنده

كالملاعب بالشعر العامي ما تضمن من المنظوم أحوال أمة او قوم وفصلت فيه وقائع الحروب والتاريخ. ولعلهم أخذوا ذلك من التحام القتال . والملحمة في اللغة الوقعة العظيمة «ص ١٦٢ — ١٦٣»

ذلك في اللغة العربية ، أما اللغات الأجنبية الرئيسة فانها كلها تستخدم لفظاً مشتقاً من المفردة الاغريقية « إيبوس Epos » وتعني، أصلاً «الكلمة» أو «الحديث » او «الحكاية» . وقد استعملت الكلمة في اللغات الأوربية لتعني اصطلاحاً ، «القصيدة الطويلة التي تسدد الأعمال العظيمة لبطل أو أبطال تراثيين أو تاريخيين ذوي مكانة سامية . الأعمال العظيمة التي يقوم بها أبطال بارزون هي إذن المحور الأساس الذي تدور حوله «الملحمة» ، ولكن ثمة مواصفات وشروطاً اخرى يتضمنها التعريف الكامل للملحمة .

٢٠٢٠٢ — تعريف الملحمة

يعرّف مؤلفو كتاب *A Handbook to literatur* (١١) الملحمة بأنها «قصيدة سروية طويلة ذات اسلوب ضخم ، تقدّم شخصيات رفيعة في سلسلة من المغامرات التي تشكّل كلاً متماسكاً بارتباطها بشخصية مركزية ذات أبعاد بطولية ، وتكون الأحداث فيها مهمة لحياة شعب وتاريخه . » أما مصادر الملحمة فانها «أحداث متناثرة مجهولة المؤلفين ترددها ، شفاها ، أجيال كثيرة على امتداد طويل من الزمن ثم تجمعها بعد ذلك عبقرية مؤلف واحد يضفي عليها بناء فنياً ويحقق فيها وحدة الموضوع عن طريق شخصية البطل المركزي .» ثم يقدم المؤلفون الخصائص المميزة للملحمة وهي : —

١ — تكون الشخصية الرئيسة للملحمة شخصية بطولية ذات أبعاد وطنية أو قومية أو عالمية ، وتكون له أهمية تاريخية أو اسطورية في حياة شعبه .

٢ — تكون ساحة الحدث الملحمي (أو الأحداث الملحمية) ساحة واسعة تضم دولاً وشعوباً كثيرة أو العالم بأسره . بل وحتى عوالم أخرى كالسماء أو العالم السفلي .

٣ ــ الفعل الملحمي فعل يتميّز بالبطولة التي تتطلب قوى خارقة هي عادة فوق طاقة البشر العاديين .

٤ ــ تهتم القوى الخارقة أو الخارجة عن الطبيعة كالآلهة أو الملائكة أو الشياطين . بالفعل الملحمي وتتدخل به .

أما عن الاسلوب في الملحمة فانه اسلوب سام فخم لكنه يتميّز بما يمكن أن يسمى (السهل الممتنع) ، ويلاحظ في الملحمة غياب صوت المؤلف إلا في مواضيع معينة تمليها بعض التقاليد الشكلية المتبعة في تأليف الملاحم وهي :

ا ــ يوضح المؤلف في بداية الملحمة موضوعها الأساس .

ب ــ يبتهلُ المؤلف لربة الشعر للاخذ بيده وهو يحاول موضوعاً عظيماً .

جـ ــ بدء «القصة» في وسط أحداثها وملء التفاصيل اللازمة عن طريق «الرواية» فيما بعد .

د ــ استعمال التشابيه الملحمية المطولة .

هـ ــ اللجوء الى التكرار والى الخطب الطويلة الرنانة .

و ــ إعطاء تفاصيل وافية لمحركات الفعل الملحمي كالأسلحة والسفن والمقاتلين .

ذلك التعريف وهذه التقاليد الشكلية والخصائص المميزة للملحمة كلها أو جلها موجودة في ملحمة كلكامش العراقية التي تم تأليفها خلال الألف الثاني قبل الميلاد . وكلها تبدو وكأن مؤرخي تاريخ الأدب الغربي وواضعي معاجم المصطلحات الأدبية ينظرون الى ملحمتنا وهم يضعونها . لكن الواقع غير هذا . إنهم ينظرون الى «الالياذة» و «الأوديسة» . ملحمتي الشاعر الاغريقي « هوميروس » . ويكتبونها بعد أن وجدوا ان كل كتاب الملاحم الغربيين بعد هوميروس» قد نظروا إليها وحذوا حذوها في تأليف ملاحمهم وهذا مايفعله كذلك مجدي وهبه واضع معجم مصطلحات الأدب (١٢) للقارىء العربي ، فهو بعد أن يعرّف « الملحمة » تعريفاً لايختلف عن

التعريف الذي أوردناه يقول إن هذا النوع من القصائد « يخضع عادة لبعض المواضعات المستمدة من ملحمتي هوميروس المعروفتين . (ص — ١٤٠).

لقد استلب «هوميروس» واستلبت ملحمتاه : «الالياذة» «والأوديسة» فضل الريادة لأدب الملاحم العالمي من ملحمتنا العراقية ، رغم أن ملحمتنا بشكلها البابلي ، ولانقول بشكلها السومري الأقدم ، قد سبقت ملحمتي «هوميروس» بما لايقل عن اثني عشر قرناً . فمن هو «هوميروس» هذا؟ وماهي إمكانية تأثره بملحمتنا شكلاً وبناءً إذا استبعدنا الموضوع وبعض الخطوط العامة للمضمون ؟

٣٠٠ — هوميروس وملحمتاه

٣٠١ — موطن «هوميروس» وأصله وزمنه

تتنازع «هوميروس» وتدّعي بنوّته لها ثمان مدن تتوزع على غربي تركيا الحالية والجزر اليونانية المقابلة لها ، وأشهر هذه المدن وأقربها الى الصواب في الادّعاء هي مدينة «أزمير» التركية الحديثة والتي كانت تدعى أيام هوميروس «سمرنا smyrna » . إن الاختلاف حول موطن هوميروس وأصله وزمنه شديد ، لكن الرواية التي يرويها «هيرودوتس» المؤرخ الاغريقي هي أقربها الى التصديق ، وهي رواية يرويها سليمان البستاني في مقدمة ترجمته للالياذة وخلاصتها ان هوميروس قد والدته امه على ضفة نهر « فيليس» في أزمير وكانت الأم على اتصال بمعلم كتاب يدعى «فيميوس» استأجرها لغزل الصوف الذي كان يتقاضاه أجرة من تلامذته وقد أعجب المعلم بالمرأة وبفطنة طفلها فعرض عليها الزواج وتبني الطفل . وتم ذلك. وأخذ الطفل يفوق أقرانه في الكتاب حتى أصبح الساعد الايمن للمعلم ثم وريثه في إدارة الكتاب بعد وفاته . ويشتهر الكتاب ومعلمه الشاب ويزداد عدد زواره والمستمعين لقصصه الخلابة وكان بين المعجبين ربان سفينة اسمه «منتس» كان ينقل الحبوب بين أزمير ومدن آسيا الصغرى الساحلية وج: ر

الأرخبيل اليوناني . أقنع الربان «منتس» هوميروس بمرافقته على السفينة صديقاً ومعاوناً وقصاصا وظل يعمل مع ذلك البحار ويوسع من أُفقه القصصي ويغنيه بما كان يلتقطه من المدن حتى أصيب بالرمد فتركه البحار في مدينة «إيثاكه» للعلاج ، لكنه فقد بصره وأصبح قص القصص وتأليفها المهنة التي يتعيش منها . وهكذا أصبح هوميروس قصاص اليونان الأول خاصة عندما حول حروب طروادة وقصص أبطالها الى ملحمتين قوميتين تغنى بهما الشعب اليوناني بأسره .

كان هوميروس يونانياً بلاشك ، وكان زمنه القرن التاسع قبل الميلاد استناداً الى هيرودتس الذي عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد وقال إن هوميرس يسبقه بأربعمائة عام تقريباً .

٣٠٢ ــ إمكانية إطلاع هوميروس على ملحمة كلكامش العراقية

عاش هوميروس ، إذن ، خلال القرن التاسع قبل الميلاد وتنقّل بين الأجزاء المغربية لبلاد الأناضول التي كانت موطناً للحيثيين الذين سيطروا لعشرة قرون (بين القرن الثامن عشر والثامن قبل الميلاد) على المنطقة الواقعة بين جزر اليونان غرباً وأعالي نهر دجلة شرقاً . لقد تأثر الحيثيون ، جيراناً ثم غزاة ، بحضارة وادي الرافدين ، فقد تبنوا ، مثلاً ، شريعة حمورابي لتنظيم أمورهم القضائية واستعملوا الخط المسماري لتدوين لغتهم وقد أصبحت منطقتهم معبراً لحضارة العراق القديم الى جزر اليونان . وكما عرف الحيثيون شريعة حمورابي فانهم قد عرفوا كذلك ملحمة كلكامش والملاحم والأساطير العراقية الأخرى ونقلوها الى لغتهم بعد أن احتفظوا بنصوص منها بلغتها البابلية القديمة منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، أي قبل الفترة التي عاش فيها هوميروس بخمسة قرون . وخمسة قرون كافية لأن تغدو فيها الملاحم والأساطير العراقية . خاصة ملحمة كلكامش ، جزءا من التراث الحيثي يتناقله القصاصون والرواة جيلاً بعد جيل ، وهوميروس كما يحدثنا عنه «هيرودوتس» كان من أنبغ القصاصين وأذكاهم .

إن عبور الملاحم والأساطير العراقية الى جزر اليونان وانتشارها فيها عن طريق الأجزاء الغربية من بلاد الأناضول حقيقة يشير إليها ويعترف بها معظم الباحثين الأجانب ، إضافة الى الباحثين العرب ، المتخصصين بحضارة وادي الرافدين ومنهم « جيمس برجسارد "James Pritchard" محرر كتاب :

Near Eastern Texts Relating to the Old Testament.

ومؤلف كتاب :

The Ancient Near East in Pictures Relating to the Old Testament

وكتاب :

Ar chaeology aud the Old Testament

ومنهم كذلك البروفسور «توماس فش "T.Fish" » كاتب التعريف بملحمة كلكامش في «الانسكلوبيديا البريطانية» (١٤) ، والدكتور حسن عون مؤلف كتاب العراق وماتوالى عليه من حضارات (١٥) و«صمويل كريمر » samuel Kramer » مؤلف من ألواح سومر(١٦) والعديد من الكتب Parrot ـ Ander » والمقالات عن حضارة العراق القديم ، وأندريه بارو Andre Parrot مؤلف كتاب بلاد آشور (١٧) وأخيراً ن. ك ساندرز "N.K.Sandars" مؤلف النص النثري الانكليزي لملحمة كلكامش (١٨) . وإليك مايقوله «ساندرز» حول إمكانية اطلاع هوميروس على ملحمة كلكامش : «لقد كان من الممكن تاريخياً لشاعر الأوديسة أن يسمع قصة كلكامش ، ليس بشكل مشوه أو محرف وإنما بشكل مباشر ذلك لأن السفن الاغريقية كانت ، وقبل زمنه ، تتاجر مع سواحل سورية . وكان الأغريق على اتصال بالآشوريين في «الميناء» و«طرسوس» (ص ـ ٤٤ ـ ٤٥) .

ولكي نتبين مدى تأثر ملحمتي الاغريق وشاعرهما بالملحمة العراقية وشاعرها ، نقدم عرضاً سريعاً لملحمتي هوميروس او عرضاً مفصلاً نسبيا لملحمة كلكامش ، ونشير الى جوانب الشبه أو أوجه التأثر .

٣٠٣ ـ ملحمتا هوميروس : الألياذة والأوديسة

٣٠٣٠١ ـ الالياذة

تبدأ أحداث الالياذة (والعنوان مشتق من أحد اسماء مدينة طروادة وهو «إليوم Ilium أو إليون Ilion) » مع بداية العام العاشر الذي ضربه الاغريق بقيادة «أغاممنون» حول مدينة طروادة Troy'' من أجل استعادة « هيلين » التي اختطفها «باريس» ابن «بريام » ملك طروادة من بيت زوجها الملك «مينيلاوس» . ويدير أحداث الملحمة أبطال بارزون أهمهم «أخيل» (أكيليز Achilles) من الجانب الاغريقي ، و«هكتور Hector » من الجانب الطروادي . وتنتهي الملحمة بمقتل «هكتور» على يد «أخيل» الذي أغضبه مقتل صديقه «باتروكلس Patroclus» على يد «هكتور» ومن ثم حرق مدينة طروادة بعد خدعة «الحصان الخشب» الشهيرة التي ابتدعها الداهية «يوليسيز» (أوديسس Odysseus) .

إن الالياذة ملحمة حربية بالدرجة الأولى وتمثل ، من الناحية القومية إنتصار اليونانيين ، أو الجزر اليونانية ، على الطرواديين ، وهم سكان طروادة الواقعة في الجزء الغربي من آسيا الصغرى التي أخذت تنافس الجزر اليونانية في تجارتها .

وأقرب النماذج العراقية لملحمة الالياذة هي القصيدة الحربية السومرية «أكّا وكلكامش» التي تتحدث عن التنافس على السلطة بين مدينتي «أوروك» التي كان يحكمها كلكامش ومدينة «كيش» التي كان يحكمها «أكّا». في هذه القصيدة يجرد «أكّا» جيشاً ويحاصر مدينة «أوروك» لكن مصير «أوروك» في النهاية يختلف عن مصير «طروادة» حيث يستطيع كلكامش من مصالحة «أكّا» وكسب صداقته دون قتال .

أما أوجه الشبه أو التأثر بملحمة كلكامش في الالياذة فهي قليلة ولاتتعدى الملامح أو الخطوط العامة ومنها تناظر أصل البطلين كلكامش و«أخيل»

إذ أن في كل منهما جزءا إلهياً يأتيه عن طريق الام ، فأم كلكامش هي الالهة «نهنسون» وأم «أخيل» هي الالهة «ثيتس» ونظراً لان الآلهة يلعبون دوراً بارزاً في كلا الملحمتين فانه ينبغي علينا أن نوضح هنا أن «البانثيون» (محفل الآلهة) الاغريقي متأثر تأثيراً كبيراً بالبانثيون العراقي القديم الذي تفصله ملحمة أو اسطورة الخليقة البابلية ويظهر ذلك واضحاً في قصيدة شاعر إغريقي معاصر لهوميروس هو «هسيود Hesiod مؤلف كتاب «أنساب الآلهة» Theogony . إن أنساب الآلهة الاغريق ومواصفاتهم وواجبات كل منهم تشبه أنساب الآلهة العراقية القديمة ومواصفاتهم وواجباتهم الى حد يثير الانتباه والخلاف الوحيد هو في الأسماء . وتغيير الاسماء لاينفي أو يدحض التأثر، ذلكلأن تغيير الاسماء حصل حتى في العراق عندما تبنى الأكديون . والبابليون والآشوريون آلهة السومريين القدماء وغيروا اسماءهم بما يلائم لغتهم . خذ، على سبيل المثال ، إلهة الحب : فهي «إنانا» عند السومريين و«عشتار» عند البابليين ، وظهرت باسم «أفروديت» عند الاغريق وباسم «فينوس» عند الرومان . إن الاسم لايعني الكثير ، لكن الاصالة تكمن في «فكرة» اختراع الهة للحب شأنها شأن المظاهر الكونية والدوافع البشرية الأخرى التي وجد لكل منها إله أو إلهة .. والفكرة ، فكرة خلق الانسان لآلهته فكرة عراقية قبل أن تكون إغريقية ، لهذا فالكثير من الآلهة الذين يرد ذكرهم في ملحمة الالياذة لهم نظائرهم التامة في «بانثيون» الآلهة العراقية القديمة .

وهناك في الالياذة ، أخيراً ، مشهد يذكرنا تماماً بمشهد مناظر له في ملحمة كلكامش والدافع لكلا المشهدين واحد هو الاعتزاز بالصداقة والحزن العميق لموت الصديق .

يتخذ كلكامش في ملحمتنا العراقية « أنكيدو » صديقاً ورفيقاً في الكفاح والسلاح وكذلك يتخذ «أخيل » في «الالياذة» « باتروكلس » صديقاً ورفيقاً في الكفاح والسلاح . عندما يعلم «أخيل » بمقتل صديقه يقدم بنثر الرماد على رأسه ووجهه وملابسه ويرتمي على الأرض ويقطع شعره ، تماماً كما يفعل كلكامش بعد موت صديقه «أنكيدو» . وإليك وصف مشهد «أخيل» عل النص الانكليزي للمحمة الالياذة :

«عندما سمع «أخيل» الخبر غرق في الأعماق السود لليأس . تناول الرماد الاسود بكلتا يديه ونثره على رأسه وعفّر وجهه الصبوح به ولوث قميصه المعطر النظيف بذراته القذرة ، ثم القى بنفسه على الأرض وأخذ يتمرغ وكأنه عملاق صريع وهو يكلل شعره بالرماد وينتفه بكلتا يديه .. » (١٩) وهذا وصف مشهد كلكامش بعد موت أنكيدو . عن ترجمة الاستاذ طه باقــر :

عند ذاك غطى صديقــه كالعروس
وأخذ يـزأر حوله كالأســــد
وكاللبوة التي أختطف منها أشبالها
وصار يروح ويجيء أمام الفراش وهو ينظر إليه
وينتف شعره المظفور ويرميه على الأرض
نزع ثيابه الجميلة ورماها وكأنها أشياء نجسة (٢٠) .

ونشير ، أخيراً ، إلى أن موت الصديق في كلا الملحمتين يدفع بالفعل الملحمي إلى أمام . فموت أنكيدو يدفع كلكامش إلى رحلة البحث عن الخلود . وموت «باتروكلس» يدفع «أخيل» إلى المشاركة في الحرب التي كان قد انسحب منها ، وبذلك يجعل نهاية الملحمة ممكنة . لكننا نؤكد ، مرة أخرى ، ان الشبه بين الالياذة وملحمة كلكامش لا يثير من الانتباه ما يثيره الشبه بينها وبين الأوديسة .

٣٠٣٠٢ — الأوديسة

بعد سقوط طروادة وتقاسم الغنائم يعود أبطال الأغريق إلى ممالكهم بعد غياب عشر سنين باستثناء «يوليسيز» (أوديسس) الذي يبقى عشر سنين أخرى يجوب البحار والممالك والعوالم الغريبة ومنها عالم الأرواح بحثاً عن المعرفة والخبرة قبل عودته النهائية إلى الوطن .

ومع أن الملحمة تتألف من أربعة وعشرين نشيداً أو فصلاً ، إلا أن بالامكان تقسيمها من حيث البناء الفني إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي :

١ — بحث «تليمانكس» إبن «يوليسيز» عن مصير والده الذي لم يعد إلى وطنه رغم مرور عشر سنين على سقوط طروادة وعودة أبطالها إلى أوطانهم.

٢ — أسفار البطل ومغامراته في عوالم غريبة ومروره بتجارب لا يخرج منها إلا أبطال خارقو الشجاعة والدهاء .

٣ — عودة البطل إلى وطنه وتصحيح ما حصل خلال غيابه من أخطاء .

إن وحدة الحدث في الأوديسة أكثر إلتحاماً مما هي عليه في الألياذة ذلك لأن محركها الأساس بطل واحد له الكثير من صفات «كلكامش» كما سيتضح في النظرة الثانية الآتية لملحمة كلكامش .

٤٠٠ — ملحمة كلكامش : نظرة ثانية متعمقة

تصف الانسكلوبيديا البريطانية ملحمة كلكامش بأنها «أوديسة ملك» (و«أوديسة» هنا «أسفار» أو «مخاطرات») «لكنها أوديسة ملك لايريد أن يموت » (٢١)

يتألف نص الملحمة النهائي الذي وجد في مكتبة آشور بانيبال من اثني عشر لوحاً باللغة الأكدية . وتستند هذه الألواح إلى ألواح سومرية تعود إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وتضم خمس قصائد يبدو أنها كانت قبل تدوينها بكثير حكايات شائعة لا تجمع بينها إلا شخصية البطل كلكامش . وهذه القصائد هي : —

١ — كلكامش وأرض الأحياء

٢ — كلكامش وثور السماء
٣ — كلكامش وأكّا ملك كيش
٤ — كلكامش وأنكيدو والعالم السفلي
٥ — موت كلكامش

إن الواح نينوى الاثني عشر تغفل القصيدة الثالثة (وهي القصيدة التي سبق أن أشرنا إليها في معرض الكلام على الالياذة) وتغفل كذلك القصيدة الخامسة (التي يضيفها «ساندرز » الى الترجمة الانكليزية للملحمة) وتتوسع في القصائد الأولى والثانية والرابعة حسب الترتيب الآتي :

اللوح الأول : — يبدأ بمقدمة تشيد بكلكامش البنّاء العظيم والمحارب البطل الذي يتألف ثلثاه من مادة الآلهة وثلثه الآخر من مادة البشر ، والذي يعرف كل شيء على الأرض والبحر ، لكنه يحكم شعبه حكماً تعسفياً يقوم بسببه الاله «آنو» (أبو الآلهة الذي ظهر لدى الاغريق باسم «زوس») بأمر الآلهة «أرورو » بخلق «أنكيدو » الذي يعيش أولاً بين الوحوش ، لكنه حالما يفقد «براءة » البراري ويتعلم «خبرة » المدنية على أيدي امرأة يتوجه الى «أوروك» حيث ينتظره كلكامش .

اللوح الثاني : — يصف هذا اللوح «اختبار القوة » بين البطلين كلكامش وأنكيدو يتعادل البطلان ويصبحان صديقين حميمين .

الألواح الثالث والرابع والخامس : تصف رحلة البطلين الى غابة الأرز البعيدة وانتصارهما على حارسها «خمبابا » .

اللوح السادس : يصف كيف أن كلكامش ، بعد عودته الى أوروك ، يرفض عرض الآلهة عشتار للزواج ، وكيف يقتل ، بمساعدة أنكيدو ، الثور السماوي الذي أرسلته لتدميره .

اللوح السابع : يبدأ برواية أنكيدو لحلم يقرر فيه الآلهة «آنو » و«آيا» . و «شماش» بناء على طلب من « أنليل » بأن أنكيدو ، من بين الصديقين ،

هو الذي يجب أن يموت بسبب ذبح الثور السماوي. يسقط بعد ذلك أنكيدو مريضاً ويحلم بعالم الأموات الذي ينتظره .

اللوح الثامن : يروي نواح كلكامش على صديقه «أنكيدو» والتشييع «الرسمي» الذي يأمر به لدفن ذلك الصديق .

اللوحان التاسع والعاشر : يصفان رحلة كلكامش الخطرة بحثاً عن « أوتنابشتم » الذي نجا وزوجه من الطوفان ومنحته الآلهة الخلود، ليسأله عن كيفية الخلاص من الموت ونيل الخلود .

اللوح الحادي عشر : وتروى فيه، على لسان «أوتنابشتم» قصة الطوفان (ولهذا اللوح يرجع الفضل في بعث ملحمة كلكامش الى الحياة على يد الانكليزي «جورج سمث» الذي اكتشف أثناء استنساخه في المتحف البريطاني عام ١٨٧٢ الشبه العجيب بين حوادث الطوفان كما يرويها أوتنابشتم وحوادث الطوفان في (العهد القديم) فأعلن اكتشافه للعالم ثم سافر الى نينوى للبحث عن بقية الألواح) (*). وفي هذا اللوح أيضاً تروى حكاية النبتة التي تجدد الشباب والتي يدل «أوتنابشتم» كلكامش على كيفية الحصول عليها، لكنه بعد أن يجدها يفقدها اذ تسرقها منه الأفعى فتفوت عليه فرصة الشباب الدائم ويعود كلكامش برفقة «أور شانابي» الملاح إلى أوروك ذات الأسوار، حيث يتفحص كلكامش تلك الاسوار ويشرح لصاحبه خطط المدينة ويشيد بما أنجز .

اللوح الثاني عشر : وهو لوح يسقطه المترجمون عادة من الملحمة. وفي اسقاطه كسب كبير لوحدتها، خاصة بعد نشيد الختام الذي ينتهي به اللوح الحادي عشر. هذا اللوح «الاضافي» الذي يقدم الاستاذ طه باقر ملخصاً له كملحق لترجمته للملحمة، يروي فقدان كلكامش لشيئين يدعيان «بكو» و «مكو» (الطبل ومدق الطبل؟)، ويروي كذلك عودة روح أنكيدو الى كلكامش

(*) كان « أوستن هنري لايرد layard »(علامة الأثريات الفرنسي ١٨١٧ — ١٨٩٤) أول من اكتشف الألواح من محتويات مكتبة آشور بانيبال ، وكان أول من حمل هذه الألواح الى العالم دون أن يعلم أنه كان يعيد أقدم أدب عرفه العالم المتحضر .

وعدها إياه باستعادة الشيئين. وهنا تقدم روح أنكيدو «تقريراً» عن أساليب «الحياة» في عالم «الأموات»، يصلح وحده أن يكون رائعة مستقلة من روائع الأدب العالمي .

هذه هي ملحمة كلكامش، وباستطاعة القارىء العربي، بل ينبغي عليه، أن يقرأها كاملة في إحدى الترجمتين الرائعتين اللتين قام بها كل من الاستاذ طه باقر (ترجمة نثرية بعنوان ملحمة كلكامش، مع مقدمة آثارية غنية بالمعلومات والمصادر) والاستاذ عبد الحق فاضل (ترجمة شعرية بعنوان هو الذي رأى: ملحمة قلقميش، مع مقدمة أدبية عميقة تؤهله بجدارة لاسم «هو — الذي — قرأ» تمشياً مع اقتراحه تسمية المؤلف «هو — الذي — كتب») .

٥٠٠ — المقارنة بين ملحمة كلكامش والأوديسة

لانريد لهذه المقارنة التي نجريها بين ملحمتنا العراقية وملحمة الاغريق أن تفهم على أنها محاولة تعسفية يسيطر عليها ويوجهها تحيّز ضال (رغم أن تحيّز الانسان الواعي لتراث بلاده ، بمعنى حبه اياه واعتزازه به ، امر شرعي جداً ، بل واجب يمليه الشرف الوطني) . كلا لا نريد ذلك ، لهذا نبادر إلى القول ان تأثر هوميروس بملحمة كلكامش أو الملاحم والاساطير العراقية التي كانت معروفة في بلاده قبل ولادته بقرون لا يندرج تحت باب «السرقات الأدبية» أو «الترجمة» أو «التقليد الاعمى» لقد كان هوميرس فناناً عظيماً وأصيلاً عظمة وأصالة المتنبي وشكسبير في تعاملهما مع « المواد الخام» التي يعرفان ماذا يلتقطان منها لصهره في بوتقة عبقريتهما الخاصة وماذا يتركان . لقد التقط «هوميروس» من ملحمة كلكامش «ثيمتها » أو موضوعها المركزي وهو «البحث »: بحث البطل عن هويته كالانسان ، بحثه عن التجربة والخبرة ، وبحثه عن الخلود . خلود «الأعمال » العظيمة حد المخاطرة بالحياة . عندما يتعذر الحصول على خلود «الأعمار» . استمع إلى هوميروس وهو يصف بطل ملحمته «يوليسيز» في الاسطر الافتتاحية للملحمة (عن النص الانكليزي) :

ان بطل الحكاية التي أتوسل إلى ربة الشعر أن تعينني على حكايتها هو ذلك الرجل الداهية الذي جاب العالم الواسع بعد أن اجتاح حصن طروادة المقدس . لقد رأى مدن الكثير من الشعوب وتعلم عاداتها ، وعانى الكثير من المصاعب في البحار الكبيرة ...(٢٢) .

واستمع إلى «هو — الذي — كتب» يصف بطل ملحمته كلكامش في الأسطر الافتتاحية (عن ترجمة الاستاذ طه باقر) :

هو الذي رأى كل شيء فغني بذكره يابلادي
وهو الذي عرف جميع الأشياء وأفاد من عبرها
وهو الحكيم العارف بكل شيء
لقد أبصر الأسرار وعرف الخفايا المكتومة
وجاء بأنباء الزمان ما قبل الطوفان
لقد سلك طرقاً قاصية في أسفاره
حتى حل به الضنى والتعب ...«٢٣»

كما التقط هوميروس البناء الفني لملحمة كلكامش بركائزه الثلاث : هوية البطل . أسفاره ومغامراته لتعزيز الهوية البطولية ، وعودته إلى الوطن بجسد هدّه التعب . ولكن بعقل أغنته التجارب .

ان سر خلود «الأوديسة» واستمرارها نبعاً دافقاً غرف ويغرف منه كتاب وفنانو الغرب قاطبة يكمن في شخصية البطل التي تحمل الكثير من سمات كلكامش : ذكاء وجمال وقوة وتحد لايأبه حتى بالآلهة : يقتل « يوليسيز » إبن إله البحر ويقتل كلكامش قبله « خمبابا » حارس الآلهة والثور السماوي ويرفض الرضوخ لشهوات عشتار وينعتها بأبشع النعوت . لكن «يوليسيز» يظل . كما كان كلكامش قبله « إنساناً » قبل كل شيء إنساناً يحمل هموم البشرية كلها في صراع فاشل لامحالة مع الموت : بعد سفرة مضنية خطرة للبحث عن سر الخلود يصل كلكامش إلى أوتنابشتم الذي يؤكد له حقيقة لم يكن يجهل أبعادها :

ان الموت قاس لايرحم
متى بنينا بيتاً يقوم إلى الأبد ؟
متى ختمنا عقداً يدوم إلى الأبد ؟
وهل يقتسم الاخوة ميراثهم ليبقى إلى آخر الدهر ؟
وهل تبقى البغضاء في الارض إلى الأبد ؟
وهل يرتفع النهر ويأتي بالفيضان على الدوام ؟
والفراشة لا تكاد تخرج من شرنقتها فتبصر وجه الشمس
حتى يحل أجلها
ولم يكن دوام وخلود منذ القدم ...

وكذلك يصل «يوليسيز» بعد سفرة تناظر في تفاصيلها سفرة كلكامش .. إلى نهاية العالم حيث يجد روح العرّاف « تايرسياس » التي تخبره أنه سيموت وتحاول أن تخفف رهبة الموت بالوعود:

سوف يأتيك الموت من البحر بأكثر اشكاله رفقاً ، وعندما يقبضك الموت سيكون قد انهكتك الشيخوخة بعد عمر طويل بين شعب يعيش برخاء ...

قبل أن يصل كلكامش إلى أوتنابشتم يصادف «سادوري » ربة الحانة «الهة الخمر» فتشفق عليه وتحاول أن تثنيه عن عزمه للوصول إلى المستحيل :

إلى أين تسعى ياجلجامش
إن الحياة التي تبغي لن تجد
حين خلقت الآلهة البشر قدرت الموت على البشرية
واستأثرت هي بالحياة
أما أنت ياجلجامش فليكن كرشك مملوء على الدوام
وكن فرحاً مبتهجاً نهار مساء
وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك
وارقص والعب مساء نهار ...

هذه هي فلسفة اللذة واغتنام الحاضر التي اشتهرت في الغرب باسم Çazpedlem أي تمسك بيومك أو اغتنم الفرصة وتمتع بالحاضر والتي خلدها الشاعر الروماني « هوراس » في البيت الشعري الآتي : Carpe diem, quam minmum credula postero «اقبض على اليوم ، ولا تثق بالغد إلا أقل من القليل» وهذه هي فلسفة «الخيام» وهي ذات الفلسفة التي تقدمها الالهة «سرسي» إلى «يولسيز» وصحبه بعد عودتهم من زيارة عالم الأرواح : —

ان موتاً واحداً كاف لمعظم البشر ولكن سيكون لكم موتان ، ومع ذلك فان عليكم نسيان هذه الأشياء وأمضوا بقية يومكم حيث أنتم متمتعين بالطعام والشراب .

٦٠٠ — الخاتمة

لقد أمدت ملحمة كلكامش العراقية الأدب العالمي عن طريق من أحسنوا استخدامها من أمثال هوميروس وكتاب «العهد القديم» بالكثير من «الثيمات» أو الموضوعات التي لاتزال تحتفظ بجدتها وتثير النقاش : فنصيحة «سدوري» لكلكامش أصبحت «ثيمة عالمية» ، ومراحل تطور الانسان من البداوة إلى التحضر تجد في العلاقة بين أنكيدو و «شمنحة» البغي التي علمت أنكيدو «فن المرأة» أول وأقدم تعبير رمزي لها ، وكذلك الافعى التي أصبحت رمزاً للخلود وتجديد الشباب في الكثير من آداب الشعوب بعد أن سرقت النبتة من كلكامش . ويبقى كلكامش رمزاً للانسان في بحثه الدائم عن الخلود ، ذلك البحث المأساوي الذي لابد أن ينتهي بالفناء لكن حتمية الموت والفناء تزيد من عظمة الانسان البطل لانها تملي عليه أن يبذل كل ما لديه من شجاعة وبطولة وذكاء ليحقق خلال فترة حياته المحدودة خلوداً من نوع آخر خلود الاعمال العظيمة التي تعود على شعبه وعلى البشرية جمعاء بالخير العميم.

ان الملحمة كما يقول ثي . ام. تليارد "E.m. Tillyard" .«٢٤» قصيدة وطنية قبل ان تكون أي شيء آخر ذلك لان وجودها في تراث أي شعب

من الشعوب دليل على أصالة ذلك الشعب وماضيه البطولي العريق . والملحمة، وهي «قمة الشعر البطولي» على رأي «موريس باورا C.M. Bowra"»(٢٥) تنشأ عن مفهوم خاص للرجولة والشرف لهذا فانها لايمكن أن توجد مالم يضع بطلها الانسان نصب عينيه قيماً واضحة لتلك الرجوله وذلك الشرف وما لم يتخذ موضعاً مركزياً ومحركاً للاحداث مهما كلفه ذلك من جهد وتضحيات.

واذا كانت تقاليد البناء الفني للملحمة وصفات البطل فيها وأعماله الخارقة هي التي جعلت من هوميروس في نظر الغربيين الرائد الاول لأدب الملاحم في العالم ، فان هذه التقاليد وصفات البطل ، كما حاولنا إيضاحه في هذه الدراسة ، كان قد وضعها مؤلف ملحمة كلكامش العراقي قبل هوميروس بأكثر من عشرة قرون . وإذا كانت الملحمة ، باعتبارها أسمى الأشكال الادبية قاطبة ، مما تعتز وتفتخر به الشعوب ذات الماضي العريق ، فان من حق شعبنا أن يعتز ويفتخر بأنه قد أعطى العالم في ملحمة كلكامش أول قصيدة بطولية على امتداد التاريخ المسجل للانسان .

بغداد ــ نيسان ١٩٨٣

سلمان داود الواسطي

الهوامش

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة: ترجمة محمد بدران. الجزء الثاني. حضارة الشرق الأدنى.

(٢) صموئيل كريمر : من ألواح سومر : ترجمة طه باقر .

(٣) غوستاف لوبون : حضارة بابل وآشور . ترجمة محمود خيرت .

(٤) آندريه بارو: سومر: فنونها وحضارتها: ترجمة د. عيسى السلمان وسليم طه التكريتي.

(٥) انظر كتاب المرحوم العلامة الدكتور أحمد سوسة : حضارة وادب الرافدين بين الساميين والسومريين الذي يرد فيه على محاولات منح تاريخ وادي الرافدين التي تدعى بأن حضارة هذه الأرض هي أساساً آرية باعتبار ان السومريين عنصر آري ، ويبرهن فيه علمياً على أن هذه الحضارة حضارة سامية عربية منبعها جزيرة العرب .

(٦) أنطون مورتكات : الفن في العراق القديم ترجمة د . عيسى السلمان وسليم طه التكريتي

(٧) تبقى ترجمة الاستاذ طه باقر للملحمة كلكامش ، خاصة بطبعتها الثانية (١٩٧١) أشهر ترجمة عربية للملحمة ، وتبقى كذلك مقدمته المستفيضة أغنى مقدمة للتعريف بالملحمة وبأدب وادي الرافدين عموماً . أما أشهر الترجمات الانكليزية التي أطلعت عليها في ترجمة E.A.Speiser الشعرية المنشورة في كتاب *Ancient Near Eastern Texts Relatiug to It Old Testament* الذي حرره James B. Pritchard وصدر عن مطبعة جامعة برنستون الأمريكية عام ١٩٥٠ وترجمة *N.K. Sandars* النثرية بعنوان *The Ezid of Gilgamesh* الصادرة عن دار « بنغوين » عام ١٩٦٠ وأعيدت طباعتها مع بعض الاضافات والتعديلات عام ١٩٦٤ .

(٨) وهو العنوان الذي تبناه الاستاذ عبد الحق فاضل في أحدث ترجمة شعرية للملحمة : هو الذي رأى : ملحمة قلقميش في طبعتها الثانية لعام ١٩٨١ .

(٩) انظر كتاب الاستاذ طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات . الطبعة الثانية ١٩٤٤ للتعرف على المزيد من الملاحم والأساطير العراقية الأخرى . وكذلك كتاب الأستاذ كاظم الجنابي مقدمة لدراسة أقدم أدب عرفه الانسان بغداد عام ١٩٤٧ وفيه خلاصات وافية لأربع عشرة ملحمة واسطورة عراقية قديمة .

(١٠) سليمان البستاني : الياذة هوميروس : معربة نظماً . جزءان دار إحياء التراث العربي العربي . بيروت ، دون تاريخ لكن المؤلف يقول انه فرغ منها عام ١٩٠٣.

(١١) *A Handbook-to Literature*, W. F. Thrall and A. Hibbard (1930), revised by C. H. Holman (1960), Odyssey Press, New York, 1960.

(١٢) مجدي وهبة : معجم مصطلحات الادب. مكتبة لبنان . بيروت ١٩٧٤ .

(١٣) J.B.Pritchard, *Archaeolcgy aud the Ojd Testament*(Princeton Univerity Press, 1958).

(١٤) *Eucyclozaedia Britanuica* (1965) Oal. 10.

(١٥) د. حسن عون : العراق وما توالى عليه من حضارات . الطبعة الثانية الاسكندرية ١٩٥٢ .

(١٦) انظر ملاحظة رقم (٢)

(١٧) أندريه بارو : بلاد آشور ترجمة د. عيسى السلمان وسليم طه التكريتي ١٩٨٠ .

(١٨) N.K. Sandars, *The Ezic of Gilgamesh*. Penguin 1960, 1964 E.V. Rieu

(١٩) كل الاستشهادات من ملحمتي هوميروس الألياذة والاوريسة مأخوذة عن الزمن الانكليزي الذي ترجمه E.V. Rieu وصدر عن دار بنغوين بين عامي ١٩٤٦و١٩٥٠ وأعيدت طباعتها عدة مرات .

(٢٠) كل الاستشهادات من ملحمة كلكامش مأخوذة عن ترجمة الاستاذ طه باقر : ملحمة كلكامش الطبعة الثانية . ١٩٧١

(٢١) انظر ملاحظة رقم (١٤)

(٢٢) انظر ملاحظة رقم (١٩)

(٢٣) انظر ملاحظة رقم (٢٠)

(٢٤) E.M.W. Tillyard, *The English Ezic and Its Back ground* (1954, 1966).

(٢٥) C.M. Bowra, *Heroic Poetry* (1952, 1966).

المصادر العربية والأجنبية للبحث

١ ـ المصادر العربية :

ابن منظور : لسان العرب المحيط : إعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي. (دار لسان العرب. بيروت. د.ت)

بارو، أندريه : سومر فنونها وحضارتها ترجمة د. عيسى السلمان وسليم طه التكريتي بغداد ١٩٧٩

بارو، أندريه : بلاد آشور. ترجمة د. عيسى السلمان وسليم طه التكريتي. بغداد ــ ١٩٨٠.

باقر، طه : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. الجزء الأول. الطبعة الثانية. بغداد ١٩٥٥.

باقر، طه : ملحمة كلكامش. الطبعة الثانية. بغداد ــ ١٩٧١.

البستاني، سليمان : إلياذة هوميروس معربة نظماً. جزءان. دار إحياء التراث العربي. بيروت. د.ت.

الجنابي، كاظم : مقدمة لدراسة أقدم أدب عرفه الانسان. القسم الأول. في العراق. بغداد ١٩٥٧.

ديورانت، ول : قصة الحضارة الجزء الثاني. حضارة الشرق الأدنى ترجمة محمد بدران. القاهرة ١٩٥٧.

سوسه، أحمد : حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين. بغداد ١٩٨٠ .

عون، حسن : العراق وما توالى عليه من حضارات. طبعة ثانية. الاسكندرية ١٩٥٢.

فاضل، عبد الحق : هو الذي رأى: ملحمة قلقميش. الطبعة الثانية. بغداد ١٩٨١.

الكبيسي، طراد : مقدمات في الشعر : السومري. الأفريقي. الصوفي. بغداد ١٩٧١.

كريمر، صموئيل : من ألواح سومر. ترجمة طه باقر. القاهرة ١٩٥٧.
لوبون، غوستاف : حضارة بابل وآشور. ترجمة محمود خيرت؛ القاهرة ١٩٤٧ .
ملرش، أج. اي. ايل : قصة الحضارة في سومر وبابل. ترجمة عطا بكري. بغداد ١٩٧١.
مورتكارت، أنطون : الفن في العراق القديم ترجمة د. عيسى السلمان وسليم طه التكريتي. بغداد ١٩٧٥.
هوميروس : الأوديسة: ترجمة دريني خشبة. القاهرة ١٩٧٠.

٢ – المصادر الأنكليزية :

C.m. Bowra, *Heroic Poetry* (macmillan, 1966)
Encyclopaedia Britannica (1965) vals: 1,2,8,9,10,11
Holman, *A Hnndbook to literature* (1960)
Homer, The *Iliad* ad the *Odyssey*, both translated by E.V. Rieu. (Penguin books, 1946, 1950)
Hooke, S.H; *Middle Eastern try Mythology* 1963.
Kramer, S.N., *Sumerian Mythology* 1961.
Pritchard, J·B., *Archaelogy and the Old Testament.* 1958.
Sandars, N.k, *Rhe Epic of Gilgamesh*, 1960, 1965.
Smith, W., *Smith's Classical Dictionary* 1952.
Tillyard, E.m.w., *Rhe English Epic and Its BacPgJound* 1954, 1966.
Van Aken, A.R.A., *The Encyclopedia of Classical Mythology*, 1952

المحتويات

منهج السهيلي النحوي في اماليه

الدكتور طارق عبد عون الجنابي
كلية التربية/جامعة الموصل

توطئة :

و القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلّي الأندلسي (ت ٥٨١هـ) (١). أحد النحاة المنسوبين الى الأندلس المعدودين في الطائفة النابهة منهم ، بما عُرف عنه من استيعاب لمسائل النحو ، ومدارسته كتب المتقدمين ، مع تبصّر دقيق في آرائهم ومذاهبهم ورواياتهم .

وأماليه(٢) ، جلّها (أجوبة في مسائل له . سأله عنها الفقيه المحدّث أبو إسحاق إبن قرقول) (٣) .

وهذا الكتاب يسبق الكتب التي عنيت بإعراب ما أشكل من الحديث النبوي مثل : إعراب الحديث النبوي للعكبري (ت ٦٠٩ هـ) ، والتوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك (٦٧٢ هـ) .

من ثمّة وجدت أنّ السهيليّ قد بثّ أجوبته حتى تقوم كثيراً من التأويل والتعليل والحوار والرأي الخاص . ما يصدق أن يكون صورة واضحة لنحو السهيليّ علماً وصناعة ومذهباً ، وما يصلح في بعض جوانبه خاصة آراءه في

(١) ينظر في ترجمته : ما كتبه محقق الامالي ٧ — ١٢ ، ووفيات الأعيان ١/٣/١٤٣ ، وهامشه ، والمطرب لابن دحية ٢٣٠ — ٢٤٣ ، وانباه الرواة للقفطي ١٩٢/٢ — ١٦٤ وهامشه . وبغية الوعاة للسيوطي ٨١/٢ ، ٨٢ وثمة مصادر أخرى ، ينظر : معجم المؤلفين ١٤٧/٥ ، والاعلام ٨٦/٤ .

(٢) هي ليست أمالي على الحقيقة ، والتسمية مجاز مقبول ، ينظر ١٥ ، ١٦ من مقدمة المحقق.

(٣) من صفحة العنوان ١٧ ، وينظر ١٢ ، وابن قرقول هو أبو إسحاق ابراهيم بن يوسف الفقيه المحدث (ت ٥٦٩هـ). ينظر : العبر ٢٠٥/٤ .

غير المنوّن ليكون منطلقاً في اتجاه تيسير قواعد النحو العربي ، ومن أجله أطلت المكث عند هذا الموضوع ، لأنه يمثل فكراً نحوياً حريّاً بالنظر والبحث وقد شغل كثيراً من اهتمام الدارسين قدامى ومحدثين .

المذهب النحويّ :

ما تزال طائفة الدارسين تدور في فلك المدارس النحويّة ، وما يزال أكثرهم ينسب للأندلس مدرسة لها قواعدها وأصولها ، ويجعلون من تسمّحها وترخّصها وحيادها بين المدرستين البصرية والكوفية منهجاً خاصاً وطريقاً منفردة(١) . غير أنّي لا أعرض لهذا ، وإنّما أعرض للسهيليّ نحوياً له أسلوبه وخصائصه في ضوء أصول المنهج الذي درج عليه النحاة في دراستهم للنحو العربيّ .

أ ـ التعليل :

يميل السهيليّ ميلاً حادّاً الى إنكار ما يسمّيه بالعلل الفاسدة ، وهو لا يقبل من العلل إلاّ ما كان له دليل لغويّ من غير تحكيم للعقل بما يخرج بالنحو عن طريقه ، من هنا عُني بمسائل الممنوع من الصرف ، ووقف عندها بتأنّ موازناً بين علل النحاة فيها فاحصاً وناقداً وموجّهاً ، وقد أجمل ذلك بقوله ((وتعليلهم لهذا الباب يشتمل على ضروب من التحكم وأنواع من التناقض ، وفساد من العلل لأنّ العلة الصحيحة هي المّطردة المنعكسة ، التي يوجد الحكم بوجودها ، ويفقد بفقدانها ...ومن علل النحو ما يّطرد وينعكس فيبيّن صحتها ، كالاضافة فانّها علة للخفض ، يوجد بوجودها ويعدم بعدمها)) (٣).

من ذلك :

١ ـ ذهب النحاة الى أنّ علّة منع الاسم من التنوين(٣) مضارعته للفعل ، فكما أنّ الفعل لا ينّون ولا يجرّ ، فالاسم الممنوع من الصرف لا ينوّن ولا يجرّ(٤) ، وقد ردّ السهيليّ على ذلك بأنّ كثيراً من الاسماء يضارع الفعل في حركاته وسكناته وعمله(٥) . مع وقوعه نعتاً له(٦) ثم إنّه لم يمنع من الجرّ

والتنوين كاسم الفاعل(٧) . ومن عجب أن يقلب النحاة المسألة : وهم يتحدثون عن الإعراب والبناء فيزعمون أنّ الفعل المضارع إنّما أعرب لمضارعته الأسماء ، وهكذا تبادل المقيس والمقيس عليه مواضعهما كي يستقيم لهم ما يزعمون .

٢ — مدار المنع من التنوين عند النحاة على أنّ غير المنصرف ما كان فيه علتان(٨) من تسع ، أو علّة مغنية عن علّتين ، وقد ردّ عليهم السهيلي :

أ — بالأوصاف التي تلحقها التاء فرقاً بين المذكر والمؤنث ، نحو : مسلمة، وما جرى مجراها ، وفيها علّتان : الوصف والتأنيث(٩) .

ب — بالأسماء الاعجمية المزيدة ، مثل : سفسير وبُندار (١٠) ، فهما منصرفان وفيهما علّتان : العجمة والزيادة(١١) .

ج — بنحو : كرام ، وغيّب ، وأمجاد ، وهي جموع لأوصاف ، وقد اجتمعت فيهما علّتان : الجمع وهو تالٍ للافراد ،والوصفية ، فما منعتاها من التنوين(١٢) .

ثم إنّ جمع المؤنث السالم منصرف مع أنّ فيه علّتين : الجمع والتأنيث حتى اذا سمّي به الاعلام ، وقف النحاة أمامه حيارى ، فتارة يمنعونه الصرف ، وأخرى يعاملونه على أصله جمعاً منصرفاً ، وثالثة يجعلونه بين بين ، فيعاملونه معاملة جمع الإناث منزوعاً منه التنوين ، وقد توارثت كتب النحو الشاهد المشهور :

تنوّرتُها من أذرعات وأهلُها بيثرب أدنى دارها نظر عالي

فأجازوا في (أذرعات) ثلاثة الأوجه ، ولم يقطعوا بمنعها الصّرف مع أنّ فيها ثلاث علل العلمية والجمع والتأنيث(١٣).

٣ — واذا عكسنا الامر وقفنا على اسماء ممنوعة من التنوين من غير أن تلحقها العلّتان المانعتان ، أو العلّة المغنية عنهما . ف (أبو قابوس) مثلاً لا ينوّن ولا يجرّ وليس فيه الاّ العلميّة(١٤) .

٤ ـ زعم النحاة أنّ التعريف احدى العلتين المانعتين من التنوين والخفض وزعموا أيضاً أنّ (أل) والاضافة تصرفان الاسم الممنوع وذلك تناقض ، أنكره السهيليّ ، لأنهما ضربان من التعريف(١٥) .

ه ـ ومن جانب آخر تعدّ العلمية التي احتفل بها النحاة في هذا الباب أحرى بابعاد الاسم عن شبه الفعل ، إذ يتمكن الاسم بها في باب الاسميّة تمكّناً أشد ، على حين يسوغ دخول (أل) على الفعل في ضرائر الشعر ، من نحو قول الشاعر .

يقول الخنا وأبغضُ العجم ناطقاً إلى ربّنا صوت الحمار اليُجَدّعُ(١٦) .

وقد انكر السهيليّ ذلك أيضاً ، إذ كيف يسوغ أن تمنع العلميّة اذا عضدتها علّة ثانية ، من التنوين والخفض ، وتصرف (أل) الاسماء التي لا تنصرف ،؟

٦ ـ والعلمية أيضاً محالة في الافعال(١٧) ، والاضافة ممكنة فيها ، اذ تضاف اليها ظروف الزمان ، وهذا مناقض لعلّة النحاة في منع صرف الاعلام ، وصرفها حين تضاف (١٨) .

٧ ـ وأيُّ أقرب الى الفعل الاعلام الاعجميّة ، وهي نصّ في الاسميّة في أصل وضعها مثل : فرعون وقارون واسماعيل أم اسماء الفاعلين من نحو: مُكرِم ومُستخرِج ، وهي بمعنى الافعال الدالّة على الحال والاستقبال؟(١٩) وقد عدّها الكوفيون قسيماً رابعاً وسمّوها الافعال الدائمة .

٨ ـ وقد أنكر عليهم ادّعاءهم أن ((الفعل أثقل من الاسم ،والعجمي أثقل من العربي ، والمؤنث أثقل من المذكر ، والجمع أثقل من الواحد . فاذا اجتمع في الاسم من هذه مُنِع ما يُمنَعه الفعل من الخفض والتنوين . فالثقل هي العلّة وهو قول امامهم وزعيمهم أبي بشر رحمه الله » (٢٠) .

ويبدو أنّ الثقل والخفّة غير بيّن عند النحاة ، ومن ثمّ وجد السهيليّ السبيل ميسورة للردّ عليهم بأمرين :

أ ـ اذا كان النحاة يقصدون بالثقل اللفظيّ (٢١) من حيث جرس الاسم

ورشاقته، فلا جرم أنّ زينب وسعاد وحسناء أرقّ وأحلى في النطق والسمع من فرزدق وشمردل ومسحنكك، ومع ذلك كانت الاسماء الاولى غير منصرفة في حين صرفت الثانية.

ب – وإذا كان النحاة يقصدون به الثقل المعنويّ(٢٢) فـ (همّ وسخط وبلاء وجذام وبرص) وسواها. فيها من الثقل المعنويّ ما لا نجده قطّ في نحو (حسناء وكحلاء وألمى وألعس .وثغر أشنب. ومقلة نجلاء ...) وهي ألفاظ مستأنسة محبّبة. فكيف ساغ صرف أولئك ومنع هاتيك مع ما فيها من الخفة والاستعذاب؟(٢٣).

ويبدو أنّ الخفة والثقل عند النحاة محمولان على الأصل والفرع، فلما افترضوا أنّ الاسم أصل والفعل فرع عليه، والمفرد أصل والجمع فرع، والمذكر أصل والمؤنث فرع. خفّت الاصول وثقلت الفروع. وهكذا سائر الامثلة.

يمضي السهيلّي ناقداً لمذاهب النحاة في الممنوع من الصرف ومتهماً ايّاهم بالتحكّم في تحديد العلل المانعة من الصرف: انواعها، وعددها ولم يبعُد السهيلّي في هذا اذ كانت القسرية طابعاً مميزاً لافتراضات النحاة، من ذلك ماذكره السهيلّي نفسه: –

١ – أنّهم جعلوا التعريف علّة منع الاسم من التنوين لكونه فرعاً على التفكير والفرع – عندهم – اثقل من الاصل. وقصروا الفرعيّة وهي علّتهم المعتمدة. على التعريف والتفكير ليستقيم لهم القول. ولم يلتفتوا الى أنّ المصغّر ينبغي ان يعدّ فرعاً على المكبّر. والمعتل فرعاً على الصحيح والمزيد فرعاً على المجرّد «٢٤».

ومن هنا أخلّوا بواحد من أخطر أصول النحو العربي، وهو القياس، اذ لم يلتفتوا إلى الشبه بين هذه النظائر، لانّه يكسر لهم قاعدتهم الموضوعة. وقد سقطت العلّة، لانّ الحكم لم يكن مطرداً».

٢ ـ وقد تحكّموا في «قصرهم التعليل على علتّين فصاعداً«٢٥». وقد أنكر السهيلي ذلك «٢٦» ، اذ الجأ هذا التحديد النحاة إلى افتراضات لاسند لها : ـ

آ ـ انّ الف التأنيث علّة مغنبه عن علتّين .

ب ـ وان صيغة منتهي الجموع علّة مغنية من علتّين ايضا لانّ الاسم كأنّه جمع مرتين«٢٧» ، وكان ضابطها عندهم ، انها كل جمع بعد الف تكسيره حرفان ، او ثلاثة ثانيها ساكن«٢٨» .واذا عدت اليها وجدت النحاة قد تحكّموا ثانية اذ اخرجوا منها ما كان مثل: فراعنة ، وعمالقة ، لانّ ثاني الثلاثة بعد الف التكسير متحرك«٢٩» ، وغاب عنهم انّا اذا عددنا التاء للتأنيث«٣٠» فهي علّة اضافيّة زيدت على ماكان بعد الف تكسيره حرفان ، واذا عددناها تفيد الجمعيّة مثل تاء الكوفية والبصرية فكأن الاسم قد جمع ثلاث مرات جرياً مع منطقهم . فكيف آل إلى أن يكون منصرفا قالوا: لانه انتقل إلى بناء له نظير في الآحاد ، نحو: رفاهية .

٣ ـ ومن تحكّمهم واخلالهم بالقياس أنّ الاسم لما اشبه الفعل منع الخفض والتنوين «٣١» . وقد ردّهم السهيليّ بأنّه لم تمنع هذه الاسماء ممّا هو ممنوع في الافعال كالتثنية والجمع والاضافة،«٣٢» ومن ايغالهم في التحكّم والافتراض انّهم منعوه الخفض والتنوين معاً، ولم يكتفوا بأحدهما دون الاخر .

ولم يقف السهيلي عند حدّ انكار علل النحاة في الممنوع من الصرف ، وتحكّمهم فيها، بل ذكر علله هو في ذلك على هذه الوجوه : ـ

١ ـ علل صرف بعض(*) الاعلام ، مثل : زيد، وعمرو، وجعفر، و محمد ومنع صرف نحو : يزيد، واحمر «٣٣» ، وثُلاثَ «٣٣» . وعمر وابراهيم بأنّ ما كان منوّناً قبل العلميّة يبقى كذلك ،وما لم يكن منوّنا فيترك على اصله «٣٤».

وهذا وجه من اوجه الصواب اذ ليس هو بتعليل إنّما هو وصف لحقيقة الظاهرة يشمل، في تقديري، سائر الممنوعات من الصرف، ولو جرى النحاة على ماجرى عليه السهيلي ،، اذن لتخلص النحو، خاصة في هذه الظاهرة من الايغال في التعليلات. فليس انتفاء الصرف طارئاً بعد العلميّة، بل هو مؤهّل في هذه الألفاظ قبلها.

٢ — وعلّل زوال الخفض بزوال التنوين لئلاّ يتوهّم بأنّ الاسم مضاف الى ياء المتكلم، واكثر العرب يحذف هذه الياء ويكتفي بالكسرة منها. وقد ورد في القرآن الكريم:

«فكيف كان نكيرِ»، و«فستعلمون كيف نذير»(٣٥)

٣ — وعلّل عدم صرف نحو: حمزة وطلحة علمين، وهما منقولان من منوّن مخفوض، بأنّ التاء«٣٦» في (حمزة وتمرة) حرف جاء بمعنى، وهو الدلالة على الفرق بين الواحد والجمع ...)«٣٧»، فإذا سمّي به صار للاسم وللتاء معنى جديد، وقد افقده الاستعمال ذلك المعنى الأصليّ حتى لم يُعرف به «٣٨».

وكأنّه من الاعلام المعدولة حكمه حكم: عائشة وفاطمة إذ المعنى الذي كان لهما قبل العلمية معدوم في حال العلمية، والتأنيث فيهما للمعنى والاستعمال لا للعلامة. ولحقهما المنع كما لحق حمزة وطلحة«٣٩».

٤ — وعلّل بقاء الاعلام من نحو: اسد ونمر، على اصلها في الصرف، أنها باقية على ماهي عليه من الدلالة على ما في الاسد والنمر وسواهما من الصفات المطلوبة في المسمى «٤٠».

٥ — وعلّل عدل ماكان على «فُعَل» نحو: عمر، عن الصفة، وهي عامر بأنه أُريد به تحقيق العلمية لئلا يلتبس بعامر الذي هو صفة من عمارة الارض«٤١».

٦ ـ وعلّل العدل إلى «فعل» دون سائر الابنية. لأنهم أرادوه ان يعدل إلى بناء غير مألوف في الصفات ، ومن هنا جعل مثل: عمران وعمارة معدولاً أيضاً ، لأنهما بناءان ليسا معروفين في الصفات «٤٢» ، وقال : «فلا تحسبنّ أنّه مخصوص بـ «فُعَل» ، انّما هو العدل مخصوص بما يخرجه عن وزن ليس في الصفات إلاّ نادراً ».«٤٣» وهذا مذهب لم أجد من يشركه فيه ، اذ لم يرد في كتب النحويين مثل هذا التعليل ، ولا أنّ عمران وعمارة معدولان، «٤٤» .

٧ وعلّل عدلهم عن اوصاف قليلة نحو: عامر وزاخر ،وقاتم ، وزاحل ... دون سائر الاوصاف مثل: مالك وصالح وسالم وغانم ، بأنّهم ارادوا بالتسمية بنحو هذه الاوصاف التفاؤل بالملك والصلاح والسلامة والخير من لدن يوم ولادته ، فأبقوا الاوصاف على ماهي عليه ، امّا عدلهم عن عامر وقاتم فهو بالتفاؤل له على المآل والصيرورة ، ليكون ثمة تحقيق للعلميّة وجمع بينها وبين التفاؤل في تكلم الاوصاف القليلة«٤٥» .

وفي هذا التعليل شيء من البعد والتصوّر ، اذ ليس ثمة ما يفيد حقيقة العدل من النصوص ، والذي اراه انّ زنة «فَعَل» من زنات الاوصاف اصالة لا عدلاً ، ولكنها زنة قليلة لم تشع مثل سائر الاوزان . وهي دالّة بنفسها ، لا بالعدل على معنى التفاؤل أو التصغير أو المبالغة . وشأنه شأن عمران وعمارة وهما بناءان على اصلهما . وليسا معدولين كما ذهب هو اليه . وحكمهما حكم غضبان وعطشان . وامثالهما مما يراه مشبها المثنى ، اذ قال : لانّ اصل العدد قد تضاعف ، فتقول: غاضب وعاطش . فاذا تضاعف الغضب والعطش وزاد ، قيل : غضبان وعطشان «٤٦» .

ومن ثمّة كانت الاعلام التي هي على زنة (فُعَل) ليست أعلاماً معدولة . وانّما هي أعلام منقولة عن أصل . وقد علّق الشنقيطي على ماأورده ابن سيده في المخصص ، بأنّ عمر هو جمع عمرة الحج مستشهداً بالحديث

الصحيح: «اعتمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم أربع عُمَر» ، والزّفر هو الأسد ، والرجل الشجاع فهما لذا مصروفان «٢» ومعلوم أنّ ماكان على (فُعَل) ضربان : أعلام وأسماء اجناس ، فمن الاولى : عُمَر ومُضر وزُحَل ، ومن الثانية : صُرَد ، ونُغَر وقُذَذ ، وقد جعل النحاة الأولى غير منصرفة ، لأنها أعلام معدولة عن (فاعل) والثانية منصرفة لأنها على أصل البناء ، وان سمّي بها علم ، لأنّ الأصل في المعدول الممتنع أن يتحقق منه وجود (فاعل) وعدم (فعل) ، أمّا (زفر) الذي لاينصرف فقد زعموا أنّه غير (زفر) الذي ينصرف ، ودليله دخول (أل) عليه في قول الأعشى :

أخو رغائب يعطيهـا ويسئلها يأبى الظلامة منه النّوفل الزّفر

ومن عجب أن ينطلي هذا القول المتهافت على باحث معاصر فيسوقه قائلاً :

فدخول اللام عليه يعني أنّ (زفر) الذي ليس بمصروف غير هذا لدخول اللام ، ولو سمّيتَ بزفر هذا بعد تجريده من اللام رجلاً لصرفته، لأنه حينئذ كصرد ونغر «٤٨» وهذا القول المتهافت مردود بأمور :

أ — لم يرد مثل هذا إلاّ في الشعر والشعر لغته الخاصة المحكومة بالضرورات أو المحكومة بسياقه ونمطه في التعبير فليست هي إذن مناط القياس الصحيح. وإن ذهب بعض الدارسين الى أنّ مايسمونه ضرورات انما هو لغات قبائل

ب — وأغلب الظنّ أنّ اللام هنا للجنس لا للتعريف .

ج — وقد كانت العرب تسمّي بأسماء المحسوسات غالباً . فسُمّت بأسماء الحيوان والسلاح والنبات . ولهذا سمّت بصرد وزفر.

د — وإذا كان الاستقراء قد هدى النحاة إلى أنّ أسماء الأجناس على (فعل) تنصرف ، وأنّ أسماء الاعلام لاتنصرف «٤٨».

فان هذا يهدينا ولاريب، إلى أنّ ما استعمل أعلاماً إنما هو ألفاظ معلومة فلم يكن ثمّة للتنوين ضرورة ، لأمن اللبس . لشيوع استعمالها أعلاماً كما سيأتي أيضاحه بعد ـــ حتى غلبت العلميّة عليها .

هـ ــ وأنّ زوال التنوين أو بقاؤه مبنيّ على الصيغة والاستعمال الجديد لاعلى أصل الدلالة ، لانّ المتحدث لايميز بين الدلالتين، ولا يقصد الى ازالة التنوين قصداً ، وانّما هي السليقة والمران .

٨ ــ وعلل عدم انصراف نحو : سكران وغضبان من الصفات بمضارعته المثنّى لفظاً ومعنى ، بالدلالة على مضاعفة السكر والغضب ، ونونـه مقابله لنـون المثنى ، فكمـا لم تنّون هذه لم تنّون تلك ، وبذلك انكر على النحاة مازعموا من مضارعتها لباب حمراء وصفراء «٤٩» . اذ لامضارعة بينهما لامن حيث المعنى ولامن حيث اللفظ ، لان ((الهمزة بعيدة المخرج من النون))«٥٠».

وهذا مذهب أجدر من مذاهب النحاة .

اما ماكان مثل : ثعبان ، وسرحان ، فأنهّما ملحقان بفسطاط وقرطاس اذ كان على عدّة حركاته وسكناته وكسراته وضمّاته «٥١» فألحق بالواحد ولم يلحق بالتثنية .

٩ ــ وعلّل عدم صرف صيغ منتهى الجموع بأنها صيغ خاصّة بالجمع لانظير لها في الاحاد ، فحقّها أن تحمل على الجمع السالم الذي لانظير له في الآحاد أيضاً ، فكما ان هذا لم يلحقه التنوين لمكان نون الجمع حمل عليه لقياس المشابهة بينهما ، ومن ثمّة علل صرف مالحقته التاء لمشابهته المفرد اذ لاتدخل هذه التاء على الجمع «٥٢» .

وعقّب على ذلك بقوله : «ومع هذا قد صرفه كثير من العرب وقد جاء في القرآن مصروفا ، وغير مصروف «٥٣» .

ويجارى السهيلي هنا جمهور النحاة في انها صيغ لانظير لها في الآحاد روجه خلافه معهم قياسه على الجمع السالم الذي لاينّون . ولانظير له في الواحد . وهذا ممّا لم يقل به أحد غيره «٥٤» .

ب — الرواية والسّماع : —

يعتدّ السهيلي بالرواية اعتداداً عالياً ، ولا ينكر مسموعاً بل يميل إلى توجيهه بما يراه موافقا للعربية ، من ذلك :

١ — أجاز وقوع الجواب بـ«نعم» بعد الاستفهام الانكاريّ من النفي ، نحو قولهم : أليست الخمر حراماً ؟ .

وحق الاستفهام بعد النفي ان يجاب عنه بـ«بلى» ، وذلك اذا كان الجواب تقرير حقيقة المنفي ، وليس ثمة نفي ، وجعل الأول غير جيد ، والثاني هو الاشهر ، لانّ اكثر العرب على مراعاة اللفظ اذ هو الظاهر المسموع ، واستدلّ عليه بقوله تعالى «ألسْتُ بربكم ؟ قالوا : بلى ».«٥٥»

٢ — وقد تحدّث عن «خوّة» في حديث ابي بكر : (لكن خوّة الاسلام) وخرّجها بما يلائم كونها رواية مقولة على الوهم ثمّ قال : «ويُحتمل ايضاً أن تكون لغة في الاخوّة » «٥٦» على تخفيف الهمزة وتسهيلها وليس كل لغة بلغتنا لا ولا الاصمعيّ . وأذا بلغتنا لغة في حديث صحيح قبلناها ، ولم نزيفها عند عدم وجودها في كتب يعقوب وابي عبيد ، وغيرها فانّ ماذكروه ، فيما لم يذكروه نقطة من بحار . « ٥٧ » وختم توجيهه لحديث «شهادة للقوم» بقوله « واذا امكنت هذه الأوجه كلها ، ووجد لها في العربية نظائر ، لم نلحّن الرواة ، ولا أبطلنا التقييد ، ولكن لا نقطع على مراد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ولا على مقصوده منها«٥٨» .

ويشهد فحوى هذين المثالين على تعلق السهيلي بكلام العرب ، وتوجيهه ما خرج على قواعد النحاة ما لم يجد له مخرجاً ولو على بُعد .

ج — الاستشهاد :

كل كلام عربي صالح للاستشهاد عند السهيلي ، نثراً كان أم شعراً ما صحّت روايته ، أو كان له وجه في العربية مقبول وهو من اجل ذلك يؤوّل كلّ رواية للحديث حتى ماكان منه محتملاً للتصحيف ، ومن

هنا اكثر من تأويل الاحاديث التي كانت معرض سؤالات ابن قرقول

ويخيّل الي ّ ان ّ الأندلسيين كانوا اكثر تسامحاً من نحويي المشرق في الاستشهاد بالحديث مطلقاً ، وليس لأحد منهم فضل السبق في ذلك ، وليس صحيحاً قول بعض الباحثين إن ّ أول من اقدم على الاستشهاد بالحديث من النحاة هو ابن خروف الاندلسي ّ (ت ٦٠٩ هـ) ، ثم توسّع فيه ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) «٥٨» . اذ كان الاستشهاد بالحديث مطلقاً مذهباً اندلسياً محضاً وعاماً ، والدليل على ذلك ان ّ السهيلّي قد عُني بالحديث عناية فائقة ، وهو متقدّم عليهما ، ومن العسير أن نشير إلى السابق الذي رسم لهم الطريق وإنْ كان بعض الباحثين يعدّونه الرائد في هذا الميدان (*).

من ثمّة أزعم أن ّ فرق مابين نحاة الاندلس والمغرب ، وما بين النحاة المشارقة أن ّ اولئك كانوا متحررين من القيود المذهبية التي خضع لها المشارقة بحكم التنافس بين البصريين والكوفيين والبغداديين ، وكان التراث المشرقي النحوي واللغوي خاصة فضلاً عن المعارف الاخرى غايتهم في الافادة والانتفاع ، فاحتفلوا بكل ذلك لم ينكروا منه شيئاً . ولم يروا مايدعوهم للتحفّظ من الاستشهاد بالحديث طالما قبلوا رواية ماعداه من شعر ومثل وخبر ، قال ابن الطيب الشرقي الفاسي ّ « اذا خالف بعض الحديث القاعدة ، فلا ينبغي أن يكون ذلك داعياً إلى ترك الاستشهاد جملة ، لأن ّ هذا البعض صحيح مع التوجيه والتأويل. » «٥٩» . وهذا هو نفسه منهج السهيلي ّ في رواية الحديث وتأويله «٦٠» .

د ـــ أسلوبه ومنهجه : ـــ

يتميّز السهيلي ّ بنظر ثاقب يعضده اطّلاع واسع ، واستقراء حسن للقرآن والحديث «٦١» ، ومداومة على كتب النحو . وعبارته في الجملة تتّسم بالوضوح والسلاسة وحسن المحاورة والتوجيه، حتى لكأنه ينفذ إلى الذهن نفوذاً سهلاً ، ولعل ّ ابرز سماته : ـــ

١ — نقله عن النحويين المتقدمين : سيبويه ، والمبرد ، وابن السرّاج وابن الطراوة شيخه هو «٦٢» ، وسواهم ، غير انّه يقبل بالدليل . وينكر بالحجة حراً من الانتساب إلى نحويّ ، لايميل الاّ إلى مايراه صواباً. من ذلك :

آ — نقل عن سيبويه تعليله بعدم اتّصال كاف التشبيه بالمضمر . اذ قال : استغنوا عن الكاف بـ (مثل) «٦٣» فأنكره بأمور . منها أنّ العرب تميل إلى الايجاز والخفّة فكيف استغنوا بالطويل والثقيل عنهما «٦٤» .

ب — نقل قول سيبويه في دلالة (ممّا) على معنى (ربّما) في الحديث (ممّا يحرّك) : ((انّي ممّا افعل ، أي من الامر)) «٦٥» ليعضد به ماذكره المبّرد من أنّ (ممّا) في معنى (ربمّا) في قول الشاعر :

وانّا لممّا نضربُ الكبش ضربةً   على رأسه تُلقي اللسانَ من الفمِ «٦٦»

ووجهّ السهيلي المسألة توجيهاً هو توجيه المبرد «٦٧».

ج — ردّ على من زعم بورود الاسم بمعنى التسمية على المصدرية ، محتجاً بقول سيبويه في مطلع كتابه : ((الكلم اسم وفعل وحرف)) «٦٨» .

د — وقال في إعراب ((ربّ كاسية)) الأحسن هو إعراب (كاسية) مخفوضة على أنّها نعت لمخفوض (ربّ) المحذوف ، لأنّ مذهب سيبويه أنّ (ربّ) حرف خفض متفرداً من سائر أدوات الخفض بالتقدم وأنّ مخفوضه نكرة منعوتة «٦٩» .

هـ — وتحدّث عن توجيد إعراب (الأولين والآخرين) فقال : ((ولا أحسب هذه الرواية صحيحة ، وان صحّت فعلى إضمار فعل)) «٧٠» . وذكر أنّ سيبويه قد بين الغرض من ذلك وأكثر فيه الشواهد.

و — وانكر نصب الفعل بأن مضمرة إلاّ على ضعف في حديث اليهودي : ((لاتسألوه لايجيءّ بأمر تكرهونه)) ، قال : ((النصب فيه بعيد وله وُجَيه)) وقصد به النصب بـ (أن) مضمرة ، وقال : ((لأن يقبح أن تعمل وهي مضمرة وان كان جاء ذلك)) .

انشد سيبويه :

((ونهنهْتُ نفسي بعد ماكدت افعلَه)) «٧١»

وهو عند سيبويه محمول على الضرورة. «٧٢»

ز – ونقل استقباح سيبويه لنحو (لاتدنُ من الاسد يأكلْك) ، بجزم (يأكلْك) «٧٣» ولكنه أجازه معتدّاً بقول أبي طلحة في حديث أُحُد :

((يارسولَ الله لاتطاولْ يصبْك سهامهم)) مخرّجاً اياه على اضمار فعل يدل على النهي « او يكون منجزماً على نهي آخر ، كأنه قال (لايصبْك) واستغنى بالنهي الاول ، ولهذا نظائر وشواهد يطول ذكرها «٧٤» . وهذا هو مذهب الكسائيّ في إجازته جزم جواب النهي مطلقاً.

وعندي أنّ السهيلي يتابع سيبويه لولا الحديث المرويّ ، اذ وجدناه يعتبر الحديث وينزله منزلة عالية في الاستشهاد ، وذا مذهبه ومنحاه .

ح – وتحدّث عن رفع (أول) في (ايُّهم يكتبها أولُ) فجعله مبنياً على الضم ، لأنه ظرف مقطوع عن الاضافة قياساً على (قبلُ وبعدُ) مستشهداً بقول سيبويه (أبدأ بهذا اولُ) «٧٥» . وليس هذا المثال عندي دالاً على الظرفية ، وان كان سيبويه قد اورده في سياق مسائل تتصل بالظرف «٧٦» غير أنّ قياسه على (قبل وبعد) صحيح من جهة انّه اذا طال الكلام لزم النصب فاذا قصر بالقطع وجب الضم ، كما حمل الخليل المنادى في حالتي النصب والضم على (قبل وبعد) «٧٧» .

ط – وخرّج نصب (عنبةً) في (أعور عينه كأنّ عنبةً طافية) على حذف خبر كأنّ ، لانّه جائز في الكلام الفصيح حذف الخبر في (إنّ وكأنّ) واخواتها اذا نصبا النكرة ، مهتدياً بأنشاد سيبويه :

إنّ محلّاً وإنّ مرتحـــلاً وإنّ في السّفْر اذمضى مهلاً «٧٨» ،

وانشاده بيت الفرزدق :

فلو كنْتُ ضبّيّاً عرفْتَ قرابتي ولكنّ زنجياً طويلاً مشافره «٧٩»

ثم قال : ((ولم يجيء الحذف مع المعرفة الا نادراً بقرينة حال اوجبت ذلك)) «٨٠»

ي ـ وذهب مذهب سيبويه في انتصاب (غدّة) على المصدر النائب عن فعله في قول عامر بن الطفيل : ((اغدّةً كغدة البعير وموتاً في بيت سلولية)) وقد نسبه سيبويه الى بعض العرب،وعزاه السهيليّ الى عامر بن الطفيل«٨١»

٢ ـ ومن خصائصه الدقة في الافادة والنقل خاصة اذا ذكر المصدر المنقول عنه ونادراً ماتخونه ذاكرته العلميّة،لانه قد قرأ واوعب وتمثّل ماقرأ«٨٢» من ذلك :

آ ـ قال في توجيه (أنْ ارجع) في قول ابي برزة : ((انّي أنْ كنت أنْ أرجع مع دابتي أحبّ اليّ)) أنه في موضع رفع على البدل من (أنْ كنت) وجعل خبر كان محذوفاً ، والتقدير أنْ كنت راجعاً ، وقال : ((وهذا على قياس سيبويه؛وأصله في إعراب قوله سبحانه:(أيعدُكم أنّكم) «٨٣».

وقد بحثه سيبويه في الكتاب«٨٤» في باب تكون فيه (أنّ) بدلاً من شيء ليس بالأول «قال : من ذلك :«واذ يعدُكم الله احدى الطائفتين أنّها لكم ..» فـ (انّ) مبدلة من (احدى الطائفتين) موضوعة في مكانها..) (.. ثم قال :)(ومما جاء مبدلا من هذا الباب : (أيعدكم أنّكم إذا متّم وكنتم تراباً وعظاماً أنّكم مخرجون) فكأنه على (أيعدُكم أنّكم مُخرجون إذا متّم) .

ونقل عن المبّرد اعرابه على التوكيد ، وهذا هو قياسه . «٨٥»

ب ـ وأعرب (جالساً) في حديث غورث بن الحارث : «هاهوذا جالسا» انّه منصوب على الحال . وقال : ((كما نقول : هذا زيد قائما ، أي : انظر اليه قائما . هكذا قدّره سيبويه.)) «٨٦»

وعبارة سيبويه : ((فأما المبنيّ على الاسماء المبهمة فقولك : هذا عبد الله منطلقا ... فمنطلق حال ... فكأنك قلت : انظر اليه منطلقا.)) «٨٧»

ج ـ وقال في رواية (أعور عينِهِ اليمنى) «٨٨» بخفض عين(من باب اضافة الصفة إلى موصوفها في نحو : حسنُ وجهِه . واضافة الموصوف

إلى الضمير «٨٩» ، قال ((وهو بعيد في القياس ... وانما الأصل أن يكون (الوجه) مرفوعاً مع الهاء ، أو «٩٠» منصوباً . أو مخفوضاً مع نقل الضمير إلى الصفة)). «٩١»

ثم نقل منع الزجاجيّ إياها ، وزعمه مخالفة الناس كلّهم لسيبويه ، وقال ((وسيبويه لم يجزها قياساً ، وانما اخبر انها جاءت في الشعر ، وأنشد: —

تُميتا الاعالي جَوْنتا مصطلاهما

واعترف سيبويه برداءة هذا الوجه.)) «٩٢»

وهذا الذي نقله عن سيبويه صواب كلّه ، غير انّه كان أكثر سماحة منه في اجازته ، لأنه كان يتحرج من انكار ماردّه سيبويه وغيره ، مستشهداً بما ورد في النثر ، وهو ماذكره ابو عليّ القالي في أماليه في صفة النبي صلى الله عليه وسلّم (شَثْن الكفين ، طويلَ أَصابِعه) ، «٩٣» وأجازه الكوفيون في السعةِ . وتابعهم ابن الناظم في إجازته على ضعف لوروده في الحديث الشريف (*) على مذهب الكوفيين وأهل الأندلس .

٣ — مرونته في المناقشة والاخذ ورجوعه عن الرأي اذا تبين له وجه الصواب فقد ذهب مذهب الكوفيين في أنّ (ربّ) اسم مبتدأ ، لاحرف خفض ، وهو مامضى عليه شيخه ابن الطراوة ، قال : ((ومنذ سمعت هذا القول لم أقدر أنْ اعرج معتقدي عنه ، وان كانوا قد احتجّوا أنّ (ربّ) حرف ، لانّ حروف الجرّ لاتدخل عليها.)) . وردّ عليهم بأنّ عدم دخول حرف الجرّ عليها من حيث أنها بمعنى (قلّ) او (أقلّ) وحروف الجر لاتدخل على الأفعال. «٩٤»

٤ — ميله الحادّ الى الحوار وتقليب المسألة على الوجوه المختلفة على طريقة السائل والمجيب . من ذلك الحديث الذي أجراه على دلالة (ايضاً)واعرابها«٩٥»

٥ — وضوح شخصيته وآرائه وعبارته. فهو ليس بصرياً متعصباً. ولا كوفياً متشدّداً وقد رأينا نماذج من ذلك، وهو اذ يستعمل مصطلح ((الممنوع من الصرف «٩٦» البصري ، يكرر مصطلح (الخفض) تارة ، ومصطلح (الجرّ)

تارة اخرى كما يكثر من ترداد مصطلح (الردّ) موضع العطف«٩٧» ، وتاء التأنيث عنده تاء مرة ، وهاء ثانية«٩٨» . ولعلّ ذلك راجع الى اعتبار الدرج والوقف .

آراؤه : —

من مسوّغات البحث الاساسية تعرّف آراء طائفة من النحاة طغى على أصواتهم الصخب الذي ثار حول كبار النحاة : سيبويه والمبّرد والفراء وابن يعيش وسواهم على حين كانت تلكم الطائفة ذات اجتهاد ورأي فيه من اليسر والوضوح ومجاراة المنطق اللغوي مالا نجده عند النحاة الأُلى أغربوا فيما عرضوا من النحو ومسائله . واذا كان ثمة دعوات تنادي بالتجديد ، وأصوات تدعو الى التيسير فان في كثير مما انطوت عليه ثنايا دراسة النحاة العرب المغمورين والمرموقين أموراً لو تصدى لها الدارسون بالاستقصاء والموازنة لوجدوا فيها زاداً رضياً يغنيهم في رحلة التيسير والتجديد تلك . وللسهيلي آراء تفرّد بها لم يسبقه اليها سابق ، تنمّ على علم جمّ وعلى عقل نابه حصيف ، تصلح لأن تكون نظرات شديدة في الطريق . وفي اماليه هذه من ذلك شيء ذو شأن .

١ — رأينا فيما مضى انكاره لعلل النحاة الفاسدة في مسائل الممنوع من الصرف وكلّ ماجاء من تعليلاته جديد اختص به ، ولكنها تصب جميعاً في أنّ ((المانع من صرف الاسماء استغناؤها عن التنوين الذي هو علامة الانفصال(٩٩) واشعار بأنّ الاسم غير مضاف الى ما بعده ولا متصل به وليس دخول التنوين في الاسماء علامة للتمكّن))«١٠٠» . و(علّة هذا الباب كلّه استغناؤه عن التنوين ، ثم اذا زال التنوين ترك الخفض ، كيلا يلتبس بالمضاف الى المتكلّم ... فاذا أدخلت عليه الالف واللام أو أضفتَه أُمن اللبس ، فعاد الخفض وحده ، ولم يحتج الى التنوين(«١٠١» .

ومفتاح السرّ في هذه المسألة هو الاضافة ، وهو يعتمد على ركنين رئيسين : —

الاول : ـ

أنّ التنوين علامة على استقلال الاسم وانفصاله ، لذا يزول التنوين حين يضاف الاسم الى ما بعده، لانتفاء الاستقلال، ولأنّ المضاف والمضاف اليه كالشيء الواحد ، كما يقول النحاة .

الثاني : ـ

هو أمن اللبس ، وذلك بانعدام الحاجة الى التنوين حين لا تتوهم الاضافة لذا لم يكن ثمة ضرورة للتنوين حين يحلى الممنوع من الصرف بـ (أل) ، اذ لايتّهِمُ أحد بكونه مضافاً، لعدم امكان اجتماع المعرّف بأل مع الاضافة ، وهي أحدِ المعرفات .

وليس من ريب في انّ (أمن اللبس) هو الغاية التي يهدف اليها توجيه قواعد النحو العربي«١٠٢» .

وربّ متسائل يتساءل : ما الصلة بين التنوين والجرّ ؟

ظاهر الأمر أنْ لاصلة البتة، للتفاوت بينهما في الدلالة والوظيفة ، اذ يرى بعض الباحثين في اللغات السامية أنّ النون كانت تلحق المعارف والنكرات معاً في الساميّات ثم نسيت دلالتها«١٠٣» ، وعلى هذا فلا صلة للتنوين بالجر غير انّ الاسماء الممنوعة من الصرف ـ وهي محدودة الشيوع ـ لاتستقل بنفسها، فلم يلحقها التنوين، لانه علامة على انفصال الاسم واستقلاله «١٠٤»

وهذا الكلام قريب جداً مما ذكره السهيليّ ، فالسهيليّ أيضاً لا يلمح الى صلة مابين الجرّ والتنوين، سوى تعليله بأنّ عدم لحاق علامة الجرّ بالممنوع من الصرف لئلا يلتبس بالمضاف الى ياء المتكلّم . وبذلك كان توجيه المسألة باتجاه (أمن اللبس) امر سليم، اذ له نظائر ممّا ورد في رسم المصحف . وفي أقوال العرب .

غير أنّ طائفة من اللغويين يرون ثمّة علاقة بين الجرّ والتنوين حملاً على شبه الاسماء الممنوعة من الصرف بالفعل، فنسبوا لها ما هو منسوب للفعل

افتياتاً على الحقيقة اللغوية، فقد كان أبو حاتم السجستاني يرى أن ، الممنوع من الصرف يفتح في موضع الجرّ، اذ كان الجرّ لا يدخل الافعال، لانّه لا يضاف الى الفعل شيء، وعلة ذلك عنده ((أنّك إذا أضفت الى شيء ادخلته في ملكه، والفعل ليس بشيء ثابت فيكون له ملك انما الفعل حركة منقضية «١٠٥»

غير أنّ ملخصا مهمّاً يشير اليه علماء الساميات ينبغي الوقوف عنده ، اذ يضيء، لنا الطريق، ملاكه :

١ – ذكر (بروكَشتراسر) انّ التمييم والتنوين كانا علامة التعريف في الأكدية القديمة«١٠٦»، وكانت الحركات القصيرة الضمة والفتحة والكسرة تدوّن فيها، كما تدوّن الميم، نحو: (١٠٧)

Kal–bum, kat–bam, kat–bim

٢ – وأشارة (ّلويدي) الى انّ أداة التعريف في العربية الجنوبية هي (آن) وانهّا تلحق آخرالاسم(١٠٨) .

٣ – وأنّ (أم) هي اداة التعريف في حمير وطيىء«١٠٩» .

٤ – و (أل) هي اداة التعريف في العربية .

٥ – و (الهاء) هي أداة التعريف في اللحيانية والثمودية والصفوية واستخدمت اللحيانية الى جانبها (هن) و(هل)«١١٠»

وخلاصة الأمر أنّ الادوات المعرّفة هي : (اللام والميم والنون) ، وهي الاصوات الذُلْق«١١١». وهي أصوات سهلة شبيهة بأصوات اللين . لذا كثرت في أبنية الكلام، وصارت أكثر استعمالاً في العربية«١١٢». قال الخليل: ((فليس شيء من بناء الخماسيّ التامّ يعرى منها أو من بعضها))«١١٣»

من ثمة، ليس ببعيد أن يحصل في تاريخ مسيرة اللغات الساميّة واللغة العربية القلب المكاني والابدال بين هذه الاصوات. وكان موضع هذه الادوات في اول الاسم تارة وفي آخره اخرى .

ولا يستبعدأن تكون (النون) عنصراً إشارياً قديماً يلحق الاسماء للتعريف في الساميات. ثم تلته اللام والميم، أو هما معاً وحصل بينهما ما ذكرناه.

وليس بمستعبد أيضاً أنّ الاسماء التي سمّوها بالممنوعة من الصرف كانت تحتفظ بهذا العنصر للدلالة على تعريفها، حتى اذا زال منها بعض الإعراب في سياق التطوّر اللغوي، ثم شاع تعريفها في الاستعمال، زال التنوين اذ لم يك من ضرورة له، وقد أمن التباسه بالمنكّر.

وفي ضوء ما مضى يتضح لنا:

١ ـ أنّ الاسماء الممنوعةمن الصرف كانت منوّنة ثم زال منها التنوين بعد، فهي اذن كانت معارف، لانّ التنوين علامة على التعريف، يهدينا الى ذلك أنّ الاكدية القديمة، تمثل وجهاً نقيّاً للسامية الاولى، أي العربية، على ما اقرّه جملة من الباحثين المعاصرين، وقد وصلت الينا قواعدها كاملة دقيقة.

٢ ـ وانّ زوال التنوين، أي المنع من الصرف حديث في الساميّات، ومنها العربية، سواء أكانت حالة تالية للاعراب أم حالة تالية للبناء «١١٦»

٣ ـ وقد كانت قليلة، وما تزال كذلك، وهي اسماء محدودة شاع استعمالها اعلاماً او ما يشبه الاعلام، فكأنها قد حافظت بذلك على استقلالها وانفصالها من حيث ثبات التعريف فيها.

٤ ـ وأنّ ذلك قد آل بها الى الاستقلال الاعتباري فوق الاستقلال اللفظي فلم يكن ثمة ليس في هذا التعريف وذاك الاستقلال، فزال التنوين منها مع تطوّر اللغة وهذا لا يختلف في المنطلق والنتيجة عمّا ذكره السهيليّ.

٥ ـ وأنّ صرف الممنوع في الشعر مطلقاً، وصرف ما جاء منه على صيغ منتهى الجمع في القرآن الكريم، يؤيد حداثته، مهما يقل في تأويله. اما مراعاة لموسيقى الشعر«١١٧»، او لفواصل (لآى).وقد نقل الرضي الاسترابادى أنّ صرف مالا ينصرف مطلقاً لغة قوم فيما ذكره الكسائي والأخفش «١١٨».

ومن ثمة ليس ما يقال من صرفه في الشعر ضرورة ، كما نقل السهيليّ أنّ : كثيرا من العرب تصرف الجمع المتناهي«١١٩» .

وملاك القول في هذه المسألة، انّ العلّة في زوال التنوين من الاسماء الممنوعة من الصرف يرجع الى تعريفها، فأكثر ما امتنع منها هو الاعلام، ثم الاوصاف المخصوصة بأبنية معينة، والجموع التي لا نظائر لها، يدل على ذلك أنّ التنوين — كما سبق — كان في الاصل علامة على التعريف، فلما زال اللبس في تعريف تلكم الاسماء، لانها محدودة بحدود الابنية او، حدود العلميّة، وقد جرى بها الاستعمال والسياق، لم يكن ثمة مسوّغ لبقاء التنوين فزال عنها بأمرة من حياة اللغة. ومن هنا لم يكن بعيداً في المنطق اللغويّ أن تصرف في نصوص من قرآن او شعر. امّا ماكان منقولاً من اصل غير منوّن كالاعلام المنقولة من الافعال، او الاعلام الاعجميّة فهي على اصل وضعها لا يلحقها التنوين .

٢ — وممّا ذهب اليه السهيليّ من آراء جديدة قوله بأنّ الضمائر المنفصلة لم توضع للدلالة «على مرفوع ولا منصوب وإنّما وضعت للدلالة على شأن آخر من الغيبة والخطاب والمذكر والمؤنث، ونحو ذلك»». واستدلّ على ذلك بأمور : —

آ — أنّه يؤكد بها المخفوض، نحو : مررت به هو .

ب — دخول الكاف الخافضة عليها. إذ قالوا: زيد كهو، وهو خلاف القياس .

ج — وقوع (إيّاه موقع الرفع. وقد ورد في الحديث : «مَنْ خرج إلى المسجد ليصلّي الضّحى. لا يخرجه إلاّ إياه) . ووقوع (انت) موقع المنصوب مستشهداً بقول لبيد :

فان انت لم ينفعْك علمك «١٢٠»

وقال : ((الغالب عليها أن تستعمل في مواضع النصب ، وإن خولف بها لم يبعد «١٢١» .))

وقد خالف النحاة في مسألتين :

أولاهما : أنّ الضمائر المنفصلة لم توضع لتدلّ على مرفوع او منصوب بل لتدلّ على أحوال الاسم أو الجملة ، وبذلك جرّدها من الاسمية ، وجعلها كأنّها قرائن ، أو ألفاظ اشارية ، كما ينظر اليها بعض المعاصرين.

والثانية : إطلاق استعمالها من حيث كونها قرائن ، لامن حيث كونها دالّة على رفع أو نصب أو خفض .

٣ — واعرب (نسيت) في بيت امرىء القيس :—

فأقبلْتُ زحفاً على الركبتيــن فثوبٌ نسيْتُ وثوبٌ أجرُّ

على النعت لـ (ثوب) ،لاعلى الاخبار عنه«١٢٢»،وهو خلاف سيبويه«١٢٣» وجمهور النحويين «١٢٤» ، وقــد رمى السهيليّ سيبويه بالتوهّم في هذه المسألة ، وفي إعــراب (ثرى ، وترى) في المثــل ((شهرٌ ثرى ، وشهرٌ ترى)) ، اذ هما في موضع النعت ، لاوجه سواه مقدّراً المثل بـ (الشهور ثلاثة : شهر ثرى ، وشهر ترى ، وشهر مرعى «١٢٥» ، فيكون (شهر) مرفوعاً على الإخبار او البدل ، وما يليه نعت له).

وأجاز مجيء الحال من النكرة ، اذا افادت معنى ، وقد حسنت الحال عنده في حديث الموّطأ ((صلّى وراءه قوم قياماً)) «١٢٦» .

وذهب إلى اعراب (النار) على بدل الكلّ من الكلّ ، مع حذف المضاف ، وذلك في قوله تعالى : ((قُتِلَ اصحابُ الاخدودِ ، النارِ ذاتِ الوقود» ، مخالفاً الفارسيّ في اعرابه على بدل الاشتمال. «١٢٧»

٤ — مضى منا القول إلى أنّ السهيلي يرى أنّ زوال الخفض في غير المنصرف يرجع إلى التحرّز من توهّم الاضافة ، ولئلا يلتبس بالمضاف إلى ياء المتكلم وقد وردت عليه اعلام مبنية على الكسر ، وهي ماكانت على زنة (فَعَال) نحو : حَذامِ ورَقاشِ. «١٢٨»

فتأوّلها بقوله : «وذلك أنهّم يشيرون بهذه الاسماء إلى أنّهنّ محبوبات

وكلّ محبوب مقرّب إلى النفس مضاف اليها . وترك التنوين يشعر بهذا المعنى ألا ترى كيف خصوه بالكسرة التي هي اخت الياء ، كأنّ المتكلّم يريد إضافتها إلى نفسه ، وهذا موجود في زماننا، لأنّ البدويات يسمّين شكلِ وشمْسِ . ونحو ذلك . والحضريات منيةِ وعزيزةِ ، يكسرن أواخر هذه الاسماء «١٢٩» .

أما النحاة فكانوا يرون انّ اختيار الكسر يعود الى أنّ هاتيك الاعلام معدولة عما فيه التاء وهي علامة من علامات التأنيث ، ف(حذام) معدولة من (حاذمة) و (قطام معدولة من (قاطمة)، فلزم أن تلحق البناء بعد العدل علامة أخرى ، فلحقتها الكسرة ، اذ هم يرون أنّ كَسر (إنكِ) و (أنتِ) انما هو علامة للتأنيث ، «لانّ الكسرة من نوع الياء» ١٣٠ . والياء للمؤنث

اما حقيقة هذه الكسرة فهي بقية اداة قديمة في الساميات كانت تلحق الاسماء للتمليح أو للتأنيث «١٣١» . وهذه الحقيقة لمحها السهيلّي بأحد وجهيها وإنّ لم يدركها ، كما لمحها النحاة بوجهها الاخر دون ان يفقهوه وليس ذلك بغاضّ من قدر ما ذهبوا اليه جميعاً ، لانّه من شأن الدراسات السامية المقارنة .

٥ — ويرى أنّ التنوين لم يلحق (آخر) للعدل — كما هو مذهب النحاة«١٣٢». ولكن لانه في معنى التفضيل«١٣٣» الذي يليه (من) وهو غير مستحق للتنوين«١٣٤» ، نحو قولك : محمد اكبرُ من اخيه فلم يلحقه التنوين ، وهو غير : محمد اكبر أخوته ، لان زوال التنوين مقرون بالاضافة .

٦ — وذهب الى انّ السّر في جواز دخول كاف التشبيه على الضمير المنفصل انها اشبهت (كأنّ) في المعنى ، فأذا شبّهت بالكاف وقع مجرورها موقع المشبّه به بعد (كأنّ) . ويوضحه المثالان الآتيان : —

محمد كالأسد .

كأنّ محمداً اسد .

فالمشبّه به في المثالين هو الأسد ، فإذا وضعنا الضمير موضعه لم يجز أن يكون

ضميراً متصلاً، لانّ اسم (كأنّ) قد فصل بينه وبينها وهي أداة التشبيه، فلزم، والحالة هذه، أن يكون المشبّه به ضميراً منفصلاً، وهو مجرور الكاف لعلّة المشابهة«١٣٥» .

٧ ــ وانكر على ابي جعفر النحّاس وابي عليّ الفارسيّ وابن الرمّاك (*) وابن الابرش إجازتهم العطف بلا تكرار الواو «١٣٦»، وذهب الى انّ، ما يتوهّم انّــه عطــف باسقاط العاطــف، وهو الواو «انما هو على حكاية كلام متوال، اي: من كان متمادياً على هذا الكلام» «١٣٧» . مثل قول الشاعر: ــ

كيفَ أصبحتْ، كيف أمسيْتَ ممّا يُثبتُ الودّ في فؤادِ الكريم

وهو مثل إباحة الطبيب المطعومات لمن لايحتاج الى الحمية بقوله: كل تمراً سمكاً لحماً لبناً«١٣٨» . وقد فسّره النحاة على ظاهره من حذف الاداة، وردّه السهيلي الى المعنى، فأعرب ذلك باسقاط الاداة«١٣٩» .

٨ ــ وذهب الى تركب (بلى) من (بــل) التي للاضراب. و (لا) التي للنفي، فصار لهما بعد التركيب حكم، ومعنى جديد. مذهب الخليل في التركيب، اذ صارت اسماً للجواب لا يقع الا اضراباً عن النفــي«١٤٠» .

وأخيراً: فثمة في نحو السهيلي:

١ ــ احترام للمسموع من كلام العرب، ونظرة سمحة في فهم كلامهم. وتوجيه ما خالف منه قواعد النحاة .

٢ ــ وشخصية مرنة مستقلة. تميل الى الموازنة والتحليل عن وعي وتدبّر.

٣ ــ جريان في الاتجاه النحويّ العام بالاحتفال احياناً بأصول النحو العربي ومقاييسه .

٤ ــ ونزعات تيسيرية تمثّل نحواً جديداً. وقفنا على أنماط منه في مسائل غير المنوّن. إذا ضُمّت الى آراء طائفة من النحاة الاندلسيين والمغاربة كأبن مضاء وابي حيّان. وغيرهم آخرين من نحويي المشرق تكون أساساً لنظرات عميقة جديدة لتيسير قواعد النحو، ووضعها وضعاً آخر .

٥ ــ وانّ اهمّ ما عرض له السهيليّ هو باب الاسماء الممنوعة من التنوين وقد خلص فيها الى ان السر في زوال التنوين من تلك الاسماء هو أمن اللبس.

الهوامش

(١) ينظر : المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف .

(٢) الامالي ١٠٦٩ وفيه مناقشة عقلية لكنها لاتخرج عن دائرة البيان والايضاح .

(٣) وهو الصرف ، وعند الكوفيين هو الاجراء ، والباب كله عند المبرد ما يجرى وما لا يجرى (المقتضب ٣٠٩/٣) تارة ، وما ينصرف ومالا ينصرف اخرى (المقتضب ٣١٩/٣) .

(٤) ينظر : المقتضب ٣٠٩/٣ .

(٥) قال السهيلي : في لفظه ومعناه . (ينظر : الامالي ٢٠) .

(٦) وذلك أن النحاة قد جعلوا الشبه اللفظي او المعنوي مسوغاً لمنع الاسم من التنوين من أي وجه جاء الشبه . (ينظر :المقتضب ٣٠٩/٣) ، وقد جعل المبرد سبب منع (أفعل) من الصرف هو مضارعته الفعل في حركاته وسكناته ، وهو شبه لفظي ، ووقوعه نعتا له كما يقع الفعل ، وهو شبه معنوي (نفسه ٣١١/٣) .

(٧) وهو فعل دائم عند الكوفيين ، وبذا عدوه قسيماً رابعاً .

(٨) ويسميها الزجاج فرعين (ماينصرف وما لا ينصرف ٢) وسيرد ايضاحه بعد

(٩) الامالي ٢٠ .

(١٠) المفردتان فارسيتان ، اولاهما السمسار والخادم ، وثانيتهما التاجر . (هامش ٢٠)

(١١) الامالي ٢٠ ، غير ان النحاة لم يذكروا اجتماع العجمة مع الزيادة ، ورد السهيلي هنا على مطلق الجمع بين العلتين ليمتنع الاسم من الصرف .

(١٢) الامالي ٢١ . وزيادة في التحكم والتمحل عند النحاة العلل المانعة شفعاً ووتراً ، ولم يجيزوا ماعداها على سبيل التقييد لا الائتلاف .

(١٣) واذا افترضنا انها ليست جمعا على التحقيق فهي على صورة الجمع وقد شاع استعمال جمع الاناث أعلاماً في مصر من نحو : عنايات ، وزينات وهدايات ...وسواها .

(١٤) الامالي ٢١ ، وضع السهيلي التعريف موضع العلمية ، وقابوس فاعول من القبس . هذا مذهب السهيلي ، وفي القاموس المحيط انه منع للعلمية والعجمة (قبس) .

(١٥) الامالي ٢١ . ويبدو أن النحاة يقصدون بالتعريف العلمية او شبه العلمية .

(١٦) الامالي ٢١ ، وهامشه . ويرى بعض الباحثين المحدثين ليس في الشعر ضرورات وانما هي لغات قبائل . (ينظر : اللهجات العربية في التراث)

(١٧) الا في الاعلام المنقولة من الافعال ، نحو : يزيد ، ويشكر وشمر (على رأى) ، إذ تمنع ثمة من الصرف بالنظر الى أصل الوضع

(١٨) الامالي ٢٢ .

(١٩) الامالي ٢٢، ٢٤

(٢٠) الامالي ٢٢، قال سيبويه (٦/١) : «واعلم أن بعض الكلام اثقل من بعض ، فالافعال اثقل من الاسماء ، لأن الاسماء هي الاول ، وهي أشد تمكناً ، فمن ثم لم يلحقها تنوين واعلم أن ما ضارع الفعل المضارع من الاسماء في الكلام ، ووافقه في البناء أجري لفظه مجرى مايستثقلون ومنعوه مايكون لما يستخفون فيكون في موضع الجر مفتوحاً ، استثقلوه حيث قارب الفعل في الكلام . »، وعلة الخفة والثقل هذه علة لجأ اليها النحويون كثيراً في تسويغ ارائهم وتوجيهاتهم ، غير انها علة افتراضية غير مطردة .

(٢١) سماه السهيلي بالحسي، ويقصد به جرس اللفظ . (ينظر : الامالي ٢٢)

(٢٢) وسماه السهيلي بالعقلي (نفسه)

(٢٣) الامالي ٢٣

(٢٤) الامالي ٢٣ ، ويبدو أن النحاة قد اختاروا الفروع التي وجدوا أنها إذا كانت في الاسم منعته الجر والتنوين ، ثم ازوروا عما عداها ، لانها تتعارض ومنطلقهم ، وهذا يعني انهم استقروا غير المنصرف يتحرون العلل والفروع ، فلما انتهوا من ذلك صمتوا عن الفروع الاخرى ، وقد عد الزجاج الفروع التي اذا علق لها الاسم منعته الصرف ، فاذا هي : الصفة ، لان الموصوف قبل الصفة ، والتأنيث والمعرفة ، وشبه الفعل ، والجمع والعدل وعلامة التأنيث الداخلة على غير جهتها ، والعجمة . (ينظر : ماينصرف ومالا ينصرف ٣ — ٥) .—

(٢٥) الامالي ٢٣ .

(٢٦) الامالي ٢٣ .

(٢٧) ينظر : شرح التصريح على التوضيح ٨٤/١ .
وينظر : الامالي ٢٤ ، وقال الزجاج ٤٦ ان اوسط الثلاثة حرف لين .
وضابطه عند السيوطي (همع الهوامع ٧٨/١) هو تحرك ما بعد الالف ويقصد بالتحرك الكسر . وينظر : شرح التصريح على التوضيح ٢١١/٢ .
وحاشية الصبان على شرح الاشموني ٢٤١/٣ ، وقد اشترطوا أن يكون أول هذه الصيغ مفتوحاً ، لذا قالوا في »خروجه عن صيغ الآحاد العربية انك لاتجد مفرداً ثالثة الف، بعدها حرفان او ثلاثة الا اوله مضموم » (الصبان ٢٤١/٣) .

(٢٨) شرح ابن الناظم ٢٥١ .شرح الكافية ٥٤/١ .

(٢٩) وجعل سيبويه التاء هنا بمنزلة اسم ضم الى اسم فجعل منه اسما واحداً فتغير بناؤه (الكتاب ١٦/٢) اى هو محمول على التركيب المزجي وله نظير في الواحد ، نحو : علانية : الزجاج ٤٧) .

(٣٠) وقد جعل النحاة هذه التاء اللاحقة بهذا اللون من الجموع تائين الاولى تاء لاحقة للتأنيث في مثل صياقله ، وصيارفة ، وملائكة فيقال : صياقل وصيارف ، وملائك ، والثانية تاء عوض عن محذوف وهو الياء ، مثل : جحاجحه ، وبطارقة ، فأصلها جحاجيح وبطاريق وحينئذ لايجوز حذفها ، لانها عوض عن اصل موجود في الجمع (ينظر المذكر والمؤنث للمبرد ١٢٥) .

(٣١،٣٢) الامالي ٢٣، ٢٤ ، وقد جعل النحاة ما كان على وزان (ضرب) منصرفاً لأن له نظيراً في الاسماء نحو : جمل ، وكان عيسى بن عمر يمنعه الصرف ، وقيل : بل لا ينصرف على الحكاية ، وذلك قول سحيم :

انا ابن جـلا وطـلاع الثنايـــا   متى أضع العمامة تعرفونـــي

واما مثل (دحرج) اى الرباعي المجرد فهو غير منصرف من قول سيبويه وهو منصرف من قول الزجاج ، للعلة التي ذكرنا . ينظر التفاصيل والاضطراب والتعارض : الكتاب ٧/٢، ٨ وماينصرف ٤ .

(×) (بعض) عند السهيلي تدل على اكثر من واحد ، كما هو السياق ، ولعل الصواب أنه اكثر الاعلام .

(٣٣) .إذا سمي به علم .

(٣٤) ينظر تفصيله في الامالي ٢٨ .

(٣٥) الامالي ٢٩ وهامشها .

(٣٦) قال السهيلي في الاصل (تاء التأنيث) وليست التاء هنا للتأنيث ، وانما هي تاء الواحد ، إلا إذا أراد ذلك على التغليب (ص٣٠) .

(٣٧) الامالي ٣٠ .

(٣٨) ينظر : الامالي ٣٠ والامر نفسه فيما يتصل بمن سمي بنحو : قدم : وقدر وينظر : ٣١ .

(٣٩) ينظر : الامالي ٣١، ٣٢ .

(٤٠) الامالي : ٣١ .

(٤١) ينظر الامالي ٣٤، ٣٥ .

(٤٢) الامالي ٣٥

(٤٣) الامالي ٣٥ .

(٤٤) ينظر : المقتضب ٣/٣٦٨ — ٣٨٢

(٤٥) الامالي ٣٦

(٤٦) الامالي ٣٧ .

(٤٧) ينظر : المخصص / الحاشية ١٢١/١٧ ،والتاج (زفر ٣/٢٣٧) .

(٤٨) العدل في الممنوع من الصرف للدكتور عبدالكريم الاسعد ، مجلة الدارة ، العدد ٤/السنة ٧ص ٩٨ — ١٠٧ .

(٤٩) ذهب المبرد إلى ان ما كان معدولا عن منصرف نحو عمر ،فانما منع الصرف لانه حاله تالية لتمام الاعراب . ينظر مجالس العلماء ٢٢٣ .

(٥٠) الامالي ، هامش ٣٧ ، وينظر الكتاب ١٠/٢ ، قال سيبويه في (باب مالحقته نون بعد الف فلم ينصرف في معرفة ، ولا نكرة «وذلك نحو عطشان وسكران وعجلان واشباهها وذلك انهم جعلوا النون حيث جاءت بعد الف كألف حمراء ، لانها على مثالها في عدة الحروف والتحرك والسكون وهاتان الزائدتان قد اختص بهما المذكر ، ولا تلحقه علامة التأنيث ، كما ان حمراء لم تؤنث على بناء المذكر ، ولمؤنث سكران بناء على حدة ، كما كان لمذكر حمراء بناء على حدة، فلما ضارع فعلاء هذه المضارعة واشبهها فيما ذكرت لك اجرى مجراها . »

(٥١) لان مخرج الهمزة من اقصى الحلق ، والنون صوت انفي .

(٥٢) الأمالي ٣٨، وينظر : سيبويه ١١/٢ .

(٥٣) الأمالي ٣٩

(٥٤) الامالي ٣٩

(٥٥) ينظر : الكتاب ١٤/٢ ، وهمع الهوامع ٧٩/١، ٨٠

(٥٦) الأعراف /١٧٢ ، الامالي ٤٦ .

(٥٧) الأمالي ١٢٩ وينظر : شواهد التوضيح والتصحيح ٨٢ في توجيه المسألة .

(٥٨) الأمالي ١٢٩ .

(٥٩) الأمالي ٨٨ .

(٦٠) دراسات في اللغة والنحو ٢٠، ٢١ وهو مستفاد مما نقله البغدادي في خزانته عن ابن الضائع في انكاره على ابنه خروف ، وعن ابي حيان في انكاره على ابن مالك كثرة استشهادهما بالحديث الشريف . ينظر : الخزانة ١/

(×) ينظر : موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث ١٩١ .

(٦١) فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح ص١٥٩ (مخطوط) نقلا عن (الاصول ١٦٩) للدكتور تمام حسان .

(٦٢) ينظر : الامالي /المسألة ١٤/ص٦٤، ١٥/٦٥، ١٦/٦٩، ١٩/٧٤، ٢١/٧٦، ٣٣/٨٨، ٤٠/٩٥، ٦١/١١٤، ٧٢، ٧٣/١٢٨ .

(٦٣) ينظر : الامالي م٣٤/٨٨.

(٦٤) ينظر : فهرس الأمالي .

(٦٥) الأمالي ٤٠، ومقالة سيبويه في الكتاب ٣٩٢/١ : «هذا باب مالا يجوز فيه الاضمار من حروف الجر ، وذلك الكاف في (انت كزيد ، وحتى ، ونعذ وذلك لانهم استغنوا بقولهم : مثلي وشبهي عنه فأسقطوه . »

(٦٦) ينظر . تفصيل ذلك في ص٤٠ – ٤٢ من الأمالي (م) .

(٦٧) في الكتاب ٤٦٧/١ : «وتقول : اني مما افعل ذاك ، كأنه قال : إني من الامر او من الشأن أن افعل ذلك ، فوقعت (ما) هذا الموقع» .

(٦٨) في المقتضب ١٧٤/٤ : «وتقول : إني مما افعل ، على معنى : ربما افعل » .

(٦٩) الأمالي ٥٢، ٥٣

(٧٠) الكتاب ٦/١، الامالي ٦٦ .

(٧١) الأمالي ٧٠، ٧١، ينظر الكتاب ٢١٦/١، ٣٥٠/١

(٧٢) الامالي ٧٦، لقد بحثه سيبويه في «باب مايضمر فيه الفعل المستعمل لظهاره من غير الامر والنهي» وقد اكثر فيه الايضاح والتمثيل ، ولم يستشهد البتة ينظر : الكتاب ١٢٩/١، ١٣٠ .

(٧٣) الامالي ٨٣، ٨٤

(٧٤) الكتاب ١٥٥/١

(٧٥) الكتاب ٤٥١/١

(٧٦) الأمالي ٦٦ وهامشها

(٧٧) الامالي ٩٢/٢ ، ومثاله سؤال أبي ذر رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أي مسجد وضع في الأرض اول ؟» وقد وجهه العكبري على أن ضمة (اول) ضمة بناء كما قالوا : بدأ بهذا اول ، قال : وانما بني لقطعه عند الاضافة ، كما بنيت قبل وبعد ، والتقدير : اول كل شيء . »
ينظر : إعراب الحديث النبوي ٦٢، ٦٣

(٧٨) ينظر : الكتاب ٤٦/٢ .

(٧٩) ينظر الكتاب ٣٠٣/١

(٨٠) الكتاب ٣٤٨/١ . والبيت للأعشى .

(٨١) ورواية سيبويه في الكتاب ٢٨٢/١ : ولكن زنجي عظيم المشافر ، بالرفع " والنصب اكثر في كلام العرب كأنه قال : ولكن زنجياً عظيم المشافر ... " وكأن السهيلي خلط بين رواية البيت وتعقيب سيبويه .

(٨٢) الامالي ١١٦ ، وقد أحال المحقق في الهامش على سيبويه ٢٨٤/١ ، ولم يقل به سيبويه لاصراحة ولا تلميحاً .

(٨٣) الامالي ١٢٠ ، وينظر : الكتاب ١٧٠/١

(٨٤) وتمثل بانكاره على الفراء حديثه في قوله تعالى : " ولمن خاف مقام ربه جنتان " انما هي جنة واحدة وجعلها جنتين لاعتدال الفواصل ، كما جعلهم لبيد اربعة وهم خمسة في قوله :

نحن بني أم البنين الأربعة

وقال : " وكانوا خمسة ، وانما ترك ذكر الواحد ، لانه كان ميتاً حين ارتجز لبيد ." ينظر : الامالي ١٢١ — ١٢٣ ، معاني القرآن ١١٨/٣ .

(٨٥) الامالي ٩٨

(٨٦) ٤٦٧/١

(٨٧) المقتضب ٢٥٦/٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨

(٨٨) الامالي ١٠٤

(٨٩) الكتاب ٢٥٦/١

(٩٠) الامالي ١١٦ ، وينظر ١١٥ وص ١٣ من هذا البحث .

(٩١) الامالي ١١٧

(٩٢) في الاصل : ومنصوباً

(٩٣) الامالي ١١٧

(٩٤) الامالي ١١٧ ، وهو في الكتاب ١٠٢/١ بمعناه ونقله محقق الامالي في الهامش ، وينظر : الاعلم في موضعه من الكتاب فثمة خلاف للنحاة مع سيبويه في التخريج .

(٩٥) ينظر توكيد ذلك في الامالي١١٨ ، وهامشه

(*) ابن الناظم ١٧٥ .

(٩٦) الامالي ٧٢

(٩٧) الامالي ٧٩ — ٨١

(٩٨) ينظر الامالي ١٩ فما بعدها ، غير انه يميل الى استعمال مصطلح (التنوين) غالبا بازاء (الصرف) ، وهو عندي اوضح وأولى .

(٩٩) ينظر على سبيل التمثيل : الامالي ٩٨/س ٣ .

(١٠٠) ينظر : ص ٧١ من الأمالي .

(١٠١) لقد سبق المبرد الى القول بأن التنوين علامة انفصال الاسم وهذا مامضى عليه النحويون غير أن آخر كلام المبرد في هذه المسألة لايشبه اوله ، ولايستقيم معه ، لانه علل زوال التنوين من الاسماء بشبهها الفعل (ينظر : المقتضب ٣٠٩/٣) وكان حديث السهيلي مترابطاً ومنسجماً ، فثمة صلة ادركها السهيلي بين الاضافة والتنوين ، لمحها النحويون ولم يزيدوا ، كما سيأتي .

(١٠٢) الامالي ٢٤ ، ٢٥ ، وقد جعل النحاة المتقدمون منهم والمتأخرون التنوين علامة على تمكن الاسم تمام التمكن في باب الاسمية ، وعلى هذا مضى محدثون معروفون بنظراتهم التيسيرية ، زيادة على المعاني الاخرى التي تخرج اليها انواع التنوين وفي ذلك كله ألوان من التمحل والافتراض .
ينظر حاشية الصبان على شرح الاشموني ٣٤/١ ، ويلتقي مع السهيلي في هذا المنطلق محدثون معروفون بنظراتهم التيسيرية . ينظر : إحياء النحو ١٦٥ .

(١٠٣) الامالي ٣٩ : وقد اختلف النحاة في مفهوم غير المنصرف : ألمزال منه التنوين فقط أم المزال منه التنوين والجر؟ بناء على المعنى اللغوى ، وقال ابو حيان : وهذا الخلاف لاطائل تحته .
ينظر : همع الهوامع ٧٦/١

(١٠٤) ينظر : الاصول للدكتور تمام حسان ٢٢٠

(١٠٥) لعل لحاق التنوين للمعارف والنكرات قد حصل متأخراً لان الدراسات تشير الى أن التنوين والتميم كانا يلحقان المعارف . كما سيأتي

(١٠٦) ينظر : دراسات في اللغة العربية للدكتور خليل نامي ٢٦ ، ٢٧ .

(١٠٧) مخطوطة " المذكر والمؤنث " ق ١٩٢ ب .

(١٠٨) التطور النحوي للغة العربية ٢٩

(١٠٩) اللغة العربية عبر القرون ٢٥

(١١٠) المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة ١٤ ، وقال : " وهو يقوم مقام لام التعريف هذه أداة التعريف (كذا) الاسم المضاف او المتصل بمضمر موافقا للعربي " .

(١١١) وهو مايسمونه بطمطمانية حمير ، ومنه الحديث المشهور (ليس من امبر امصيام امسفر) . وقد خالف الدكتور جواد علي في ذلك ينظر : المفصل في تاريخ العرب ٥٧٦/٨ .

(١١٢) اللهجات العربية في التراث ٣١٢

(١١٣) قال الخليل (العين ٥١/١) : " الحروف الذلق والشفوية ستة وهي : ر، ل، ن، ف، ب، م، وإنما سميت هذه الحروف ذلقاً، لان الدلاقة في المنطق إنما هي بطرف اسلة اللسان والشفتين ، وهما مدرجتا هذه الاحرف الستة . "

(١١٤) ينظر : اللهجات العربية في التراث ٣١٢ .

(١١٥) العين ٥٢/١

(١١٦) احياء النحو ١٧٤ ، ١٩١ .

(١١٧) التطور النحوى ٨٧ ، ٨٨ ، ودراسات في اللغة (نامي) ٢٨ .
وقال المبرد في منع صرف المعدول نحو : عمر ، انه منع الصرف لانه حالة تالية تمام الاعراب . (ينظر : مجالس العلماء ٢٢٣)

(١١٨) على الرغم من ذهاب الباحثين في اللغات السامية إلى اصالة الإعراب وقدمه فيها ، وانها تجنح الي البناء ، فثمة حالات مغايرة اذ كانت " اللغات السامية لاتعرب الخبر ، ولا المضاف ، ولا الفعل المضارع (الا في حالة النصب) ، واعرابها جميعاً ظواهر مستحدثة في العربية .
(ينظر : المدخل ٣٦ ، ١١٦)

(١١٩) يذهب استاذنا الدكتور ابراهيم السامرائي إلى ان تنوين غير المنون يأتي لفائدة ، وهذه الفائدة هي التزام الناحية الموسيقية التي تحصل في التنوين . (ينظر : دراسات في اللغة ١١٧) . غير ان اطلاق القول وعزو المسألة الى الناحية الموسيقية حسب امر فيه نظر ، لما ذكر . (وينظر : دراسات ١٠٩) .

(١٢٠) شرح الكافية ٣٨/١

(١٢١) الامالي ٣٩ .

(١٢٢) الامالي ٤٣ ، وينظر : هامش المحقق في تتمة البيت واختلاف الرواية .

(١٢٣) الامالي ٤٣

(١٢٤) الامالي ٩١

(١٢٥) ينظر : الكتاب ٤٤/١ ، والأعلم في هامشه ؛ فقد ذهب الى جواز الوجهين

(١٢٦) شرح ابن عقيل ١٢٩/١ .

(١٢٧) الأمالي ٩١ .

(١٢٨) الامالي ٩٣ ، وينظر الهامش في تخريج الحديث .

(١٢٩) الامالي ١١٣ ، ١٢٧ .

(١٣٠) بناؤها لغة حجازية ، واعرابها اعراب مالاينصرف لغة تميمية سوى ماآخره (راء) مثل : حضار ، اذ هو مبني ، وحضار اسم نجم .
ينظر : المقتضب ٣/٣٧٣ ، ٣٧٥ ، وعلة ذلك عنده العدل كما عدل (عمر) ولا ادرى أين مشابهة الفعل فيه ؟! وهي علتهم الاولى .

(١٣١) الامالي ٣٢ .

(١٣٢) ينظر / المقتضب ٣/٣٧٤ . ويقصد بها (ياء المخاطبة) في تكتبين واكتبي .

(١٣٣) المدخل الى دراسة النحو العربي ١١٧ .

(١٣٤) المقتضب ٣/٣٧٦ .

(١٣٥) اذ أخر ، جمع (اخرى) مؤنث (آخر) مثل : اكبر وكبرى ، وتليها (من) في التفضيل .

(١٣٦) الاصل في التفضيل الاضافة ، و (من) تفيد الاضافة من باب إضافة معنى ماقبلها الى مابعدها بالواسطة .

(١٣٧) الأمالي ١٤ ، وفيه تفصيلات شتى يمكن الرجوع اليها .

(*) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الاشبيلي ، كان أستاذاً في العربية ، مهتماً بكتاب سيبويه . أخذ عن ابن الطراوة ، وابن الأخضر ، توفي سنة ٥٤١ هـ . (البقية ٢/٨٦)

(**) هو أبو القاسم خلف بن يوسف الشنتريني ، كان إماماً في العربية ، قيل : يستظهر كتاب سيبويه وأدب الكتاب والمقتضب والكامل ، مات بقرطبة سنة ٥٣٢ هـ . (البقية ١/٤٤٧)

(١٣٨) شاع في الاساليب المعاصرة من باب التأثر بالترجمة نزع الواو في المتعاطفات ، وابقاؤها قبل آخر معطوف ، وليس فصيحاً ولا منسجماً مع سياق العربية .

(١٣٩) الامالي ١٠٢ .

(١٤٠) الامالي ١٠٣ ، وقد تكلم عليه كلاماً لامسوغ لايراده هنا .

(١٤١) الامالي ١٠٠ .

(١٤٢) ينظر : الامالي ٤٤ ، ٤٥

المصادر والمراجع

١ — إحياء النحو — ابراهيم مصطفى — لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٥١ ،

٢ — الأصول — الدكتور تمام حسان — دار الثقافة — فاس — المغرب ١٩٨٠

٣ — اعراب الحديث النبوى — العكبري — تح .عبدالاله نبهان — مجمع اللغة العربية — دمشق ١٩٧٨

٤ — الأعلام — الزركلي — ط٣بيروت د. ت ،

٥ — أمالي السهيلي — تح . محمد ابراهيم البنا — القاهرة ١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م

٦ — إنباه الرواة — القفطي — تح . محمد أبو الفضل ابراهيم — دار الكتب — القاهرة ١٩٥٠ — ١٩٧٣ .

٧ — بغية الوعاة — ت. محمد ابو الفضل ابراهيم — مط الحلبي — القاهرة ١٣٨٤ — ١٩٦٤

٨ — تاج العروس — محمد مرتضى الزبيدي — مط الخيرية — القاهرة ١٣٠٦هـ (مصورة) .

٩ — التطور النحوي للغة العربية — بركشتراسر — نشر محمد حمدي البكري — القاهرة ١٩٢٩ .

١٠ — حاشية الصبان على شرح الاشموني — إحياء الكتب العربية — القاهرة د. ت

١١ — دراسات في اللغة — الدكتور ابراهيم السامرائي — مط المعاني — بغداد ١٩٦٠ .

١٢ — دراسات في اللغة العربية — الدكتور خليل يحيى نامي — دار المعارف — القاهرة — ١٩٧٤ .

١٣ — شرح ابن الناظم — بدر الدين بن مالك — بيروت ١٣١٢هـ (مصورة).

١٤ — شرح التصريح على التوضيح — خالد الازهري — المكتبة التجارية — القاهرة د. ت .

١٥ — شرح الكافية — الرضي الاسترابادي — مط مجمع الرضي — الاستانة ١٢٧٥هـ .

١٦ — شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح — ابن مالك — تح محمد فؤاد عبد الباقي مكتبة دار العروبة — القاهرة .د ت.

١٧ — العين — الخليل بن احمد الفراهيدي — تح الدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي — دار الرشيد بغداد ١٩٨٠ .

١٨ — الكتاب — سيبويه — بولاق — (مصورة) .

١٩ — اللغة العربية عبر القرون — الدكتور محمود فهمي حجازي — دار الكاتب العربي (المكتبة الثقافية) القاهرة

٢٠ — اللهجات العربية في التراث — الدكتور احمد علم الدين الجندي — مطابع الهيئة المصرية العامة — القاهرة د. ت

٢١ — ما ينصرف ومالا ينصرف — الزجاج — هدى قراعة — القاهرة ١٣٩١هـ — ١٩٧١ م

٢٢ — مجالس العلماء — الزجاجي — تح . عبدالسلام هارون — الكويت ١٩٦٢

٢٢ — المختصر في علم اللغة الجنوبية القديمة — كويدي — القاهرة ١٣٤٩هـ — ١٩٣٠ م

٢٤ — المخصص — ابن سيده — بولاق ١٣١٦ — ١٣٢١هـ (مصورة) .

٢٥ — المدارس النحوية الدكتور شوقي ضيف — دار المعارف بمصر — ١٩٦٨ .

٢٦ ـ المدخل في دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية ـ عبدالمجيد عابدين ـ القاهرة ١٩٥١ .

٢٧ ـ المذكر والمؤنث ـ ابو حاتم السجستاني (مخطوطة) .

٢٨ ـ المذكر والمؤنث ـ المبرد ـ تح . الدكتور رمضان عبد التواب وصلاح الدين الهادي ـ مط دار الكتب القاهرة ١٩٧٠/ .

٢٩ ـ معجم المؤلفين ـ عمر رضا كحالة ـ مط الترقي ـ دمشق ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧ م

٣٠ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام الدكتور جواد علي ـ ط الثانية ـ بيروت ١٩٧٨ .

٣١ ـ المقتضب ـ المبرد ـ تح . محمد عبد الخالق عضيمة ـ القاهرة ١٣٨٥.

٣٢ ـ موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث ـ الدكتورة خديجة الحديثي ـ دار الرشيد ـ بغداد ١٩٨١ .

٣٣ ـ نظرات في اللغة والنحو ـ طه الراوي ـ المطبعة التجارية ـ بيروت ١٩٦٢ .

٣٤ ـ همع الهوامع ـ السيوطي ـ . عبدالسلام هارون ، وعبدالعال سالم مكرم ـ دار البحوث العلمية ، الكويت ١٣٩٤هـ ١٩٧٥م.

٣٥ ـ وفيات الاعيان ـ ابن خلكان ـ تح . الدكتور احسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت د. ت

الرّافدان وأثرهما في أدب المياه وقصص الطوفان

الدكتور عادل جاسم البياتي
كلية الآداب – الجامعة المستنصرية

هذا بحث، كنت قد أعددت اجزاء منه عن الفرات في تراثنا الشعري والحضاري، ثم بدا لي ان ما خصصت به الفرات لا يمكن فصله عن توأمه الاخر: دجلة، وان كان العرب قد غلبوا اسم الفرات على دجلة. فاطلقوا على الرافدين اسم الفراتين جرياً على القاعدة اللغوية المعروفة، وكما اوحى الفرات للعراقيين منذ الاف السنين الى اليوم، وللعرب عبر عصورهم المديدة، بأجمل تراتيله وارق اناشيده، فقد اوحي دجلة اليهم بمثلها ايضاً. ولقد تعاون النهران الخالدان منذ ظهرا الى الوجود في خلق هذه السهول الرسوبية الخصيبة والوديان الخضر المثمرة. ثم عملت اكثر من يد سخرتها العناية الالهية لتضفي الجمال على الطبيعة العراقية. ذات الخصوصية والتفرع والتعدد بحسب تدرجها الجغرافي من شمال القطر الشامخ الى جنوبه الاشم. ومن شرقه الوضاء الى غربه النضير. مانحة الانسان دفقة الشعور والحيوية أوسمة التفكير والتأمل. ووهبه الخالق نعمة الالهام الشعري وقدرة التحليل الفلسفي. فكانت تربة الرافدين أعرق وطن للشعر كما اشارت نتائج الحفريات في كل انحاء الارض. واقدم ميدان ظهرت فيه أول مغامرة فكرية ذمتأملة في قضايا «البدء والمصير» والخلق والتكوين» «والنظم

والشرائع» متمشية مع طفولة العالم ونظرته البدائية المشوبة بالخيال والاسطورة الى ان بدأت مرحلة النضج والاكتمال، وخرج العرب على العالم باطار الاسلام العظيم وافكاره الخيرة، منطلقة من مهدها الاصيل، شبه الجزيرة العربية مرسلة اشعاعها الى العالم شرقاً وغرباً، فكانت دولة العرب في الاندلس المعنجمة الى جانب عشرات النجوم الوضاءة في سماء تلك القبة الالهية الكبيرة التي كانت اجمل سقف غطى العالم يومذاك .

ان الملاحظة الدقيقة نحو التراث، سرعان ما تكشف عن اصالة الرؤية وميل العراقيين نحو «التوحيد» في العقيدة والارض والتراث، فهي ارهاصات الذات الانسانية للاهتداء الى بارئها ومنشئها او دعوة مخلصة الى كل ما يوطد النظام، واشارة قوية الى الكفاح الدؤوب نحو السعادة من خلال توظيف المياه وعوارضها الكبرى رموزا لهذه الاعمال الادبية، ويعود الفضل في ظهور «ادب المياه» و «قصص الفياضانات» «الى النهرين الخالدين «دجلة والفرات» اذ يحتل هذا الفن مساحة كبيرة من ادب وادي الرافدين، وكان له اثر طيب في ادب الاقوام القديمة المجاورة والبعيدة، ممن سكنوا أحواض الانهار واستوطنوا وديانها، فقامت على الضفاف اعظم حضارات العالم القديم، فخلدت الاشعار، السيرة الذاتية الاولى للمياه وتحدثت عن طفولة الانهار الغامضة، في اناشيد لم تزل الامم تتذوقها لجمالها واصالتها وتجددها الدائم في ضمير الامة خلقاً وابداعاً .

اما ابرز الحضارات التي قامت على احواض الانهار وفي الوديان الخصيبة بعد حضارة وادي الرافدين، فهي حضارة وادي النيل التي تعد جزءا متكاملاً مع حضارة وادي الرافدين وتدخل بينهما حضارة الكنعانيين وبالاخص اشعارها وملاحم «أوغاريت» وحضارة الهند حيث ضفاف الكنج وحضارة الصين على ضفاف النهر الاصفر وحضارة اليونان حيث السواحل الايجية من البحر المتوسط . والحضارة اليابانية اذ تمتد جزرها كأنها قوس عظيم يصوب نحو المحيط الهادي غير بعيد عن الساحل الشرقي الاسيوي(١)، وعند ملاحظة اقدم أثر ادبي في ملاحم المياه، تظل اشعار وادي الرافدين هي المتقدمة، لان

العنوان الذي ثبته الاستاذ ديرك بودي «اساطير الفيضان» ضمن بحثه المطول عن اساطير الصين القديمة(٢)، يفيد بأن اقدم الافكار الاسطورية في الصين القديمة كلها وابعدها شمولا هي اسطورة الفيضان وتظهر في الكتابات التي تنتمي الى مطالع اسرة (تشو) أو (مأثور الشعر) وارتقى الباحث بتاريخه الى مؤسس اول اسرة وراثية للصين هي هسيا (٢٢٠٥ ق.م على المأثور)، بينما يفيدنا نص في ملحمة كلكامش (في حدود ٢٧٠٠ ق.م) ان هذا البطل «جاء باخبار تعود الى ما قبل الطوفان»(٣)، وعند التأمل في محصلة الاشعار التي تشخص الظواهر الطبيعية في اطار التأمل الفكري لدى قطرين عربيين مثل العراق ومصر، نجد المنحى الواحد يتألف من معتقد الناس ان الدنيا خرجت من مياه «الهيولي» وفي مصر كان (يم الزمن الاول) هذا ذكرا، هو الاله (نون)، اي انه كان يعتبر وسيلة الاخصاب، ولذا فهو عامل دائم في دنيا الخليقة يرونه في المياه الجوفية وفيضان النيل السنوي، اما في ارض الرافدين فكانت قوة الاخصاب المائية تمثل في الاله «أنكـي» أو «أيـا» غير انه لا صلة له البتة ببحر الزمان الاول (٤) لان طبيعة (النيل) غير طبيعة (الرافدين) في فيضانهما وعنفهما، فلم تكن الافكار الشعرية في (ادب النيل) متقدمة جداً، وانما جاءت بعد فترة نهوض حضاري فانعكس النبل في الشعر العربي بعد انحتاق الفكر من اساطيره(٥)، ثم ان التصور المصري البدائي لادب المياه لا يتعدى حدود الالف الثالثة قبل الميلاد وقد جاءت ملاحم المياه والفيضانات ذات الصيغ التأملية والعقائدية والتبشيرية بوحي من الرافدين نفسهما، فقلدته محلية حذوه شعوب متحضرة متقدمة، فانتشرت ظاهرة ادب الفيضانات في القارات الاسيوية والافريقية والاميركية (المكسيك) قبل العهد الاوربي (٦) وتعد الاشارة السومرية لقصة الطوفان اقدم المقومات الاساسية في ابتداع هذه الاصول التراثية لحضارة وادي الرافدين وقد وردت هذه الاشارة الطوفانية السومرية ضمن رقيم كان قد اكتشف في مدينة (نفر) ونشره الاستاذ (بوبل) في عام ١٩١٤ وفيه تصميم على انقاذ البشرية من الدمار واعادة الناس الى موطن سكناهم ثم تعريج على بـــدء

الخليقة وهبوط الآلهة إلى الأرض لتوزيع السلطات فيما بينها.وهناك اشارة إلى (زيو سدرا) بطل قصة الطوفان السومرية الذي له مايناظره في ملاحم الطوفان البابلية الاخرى ، (٧) اما ملحمة (الانوما اليش) فهي اقدم شعر تحدث عن المياه الازلية التي عرفت بمياه الهيولى ، ثم خلقت الارض بعد ان تقرر (قدر) الكون (واقيم) دجلة والفرات مع شطآنهما وقنواتهما ، واعطيا اتجاههما الصحيح (٨) :—

الآن ، وقد قرر ((قدر)) الكون
واعطي الشاطىء والقناة اتجاههما الصحيح
واقيمت ضفتا دجلة والفرات
فماذا نحن غير ذلك فاعلون ؟
وماذا نحن غير ذلك خالقون ؟

وتأتي قصة ((أتو نبشتم)) الملحقة بالواح كلكامش مع تفريعاتها العبرية والاسلامية نموذجاً بارزاً لاولية الشعر وقصص الفيضان واخبارها في العالم، مما يمنح وادي الرافدين خصوصية المعالم الشعرية والأدبية الاولى، والاهتداء إلى اسلوب التعبير بالرمز لاكبر المعضلات الفكرية المتعلقة بالبداية الازلية والمصير الابدي ، ولقد ورد في كتابات المسلمين الاوائل وتصوراتهم الابداعية والوقفية عن دجلة والفرات مايمكن أن يوضع في اطار المنحى الآخر لرسوم الكون وخارطة الطبيعة ونشوئهما . وتعكس قصة الطوفان (اترا خاسيس) شعراً يتناول خلق الانسان ليحل محل الآلهة في احتمال مشاق الاعمال وتبعاتها . وتكاثر الناس وازديادهم وضجيجهم . وقرار إله الهواء (أنليل) بانزال العقوبات (وباء وقحط) عليهم . ثم الطوفان لابادتهم. ومع ان اسطورة (تلمون) (دلمون) الشعرية تتعلق بجزيرة البحرين الواقعة في الخليج العربي . فهي تجسد وحدة الارض العربية وتضفي عليها تأثير الرافدين في معطياتها الادبية . ثم كون هذه الجزيرة كانت جزءاً غير منفصل عن وادي الرافدين بفعل العوامل الجيولوجية والجغرافية القديمة ،

ومع ذلك فان محاولة هذه الاسطورة استقصاء وحدة سببية لعدة ظواهر ، تبقى هذه الوحدة سببية في المعنى الميثولي فقط (١٠) ، فهي من هذا المعنى أو المنطق تعمق فهمنا لقوتين من قوى الكون الكبرى ((الارض والماء)) لان الفهم في هذا العالم البابلي معناه نفاذ البصر السيكولوجي ، فالاسطورة تطلعنا على التضاد العميق الكامن وراء التلاعب المخصب بين هاتين القوتين في الطبيعة فنتبعه ، وهو يرتفع إلى ذروة من العنف الصريح المهدد بتدمير الماء إلى الابد ، ثم ننتهي إلى الشعور بالارتياح عندما يتم الصلح بين الطرفين ، ويعود الانسجام إلى الكون . ونطلع كذلك ، اثناء تتبعنا التفاعل بين القوتين على اهميتها كمصدرين للحياة : فهما مصدر النباتات ، وهما مصدر النسيج والثياب ، واليهما تعود قوى خيرة عديدة في المياه ، وهكذا تتضح لنا رقع من رقع الكون ، والاسطورة — بعد ذلك — تعطي صورة للعالم في ابتداء نشوئه وارتقائه أو في صباه عندما كان عالماً واعداً ، لم يعرف عاداته ومميزاته ولم يتحدد له شكل (١١) .

عندما كنتما تقتسمان الأرض العذراء (مع رفاقكما من الآلهة)

— انتما — كانت ارض تلمون اقليماً نقياً .

عندما كنتما تقتسمان الارض النقية (مع رفاقكما من الآلهة)

— انتما — كانت ارض تلمون اقليماً نقياً .

كانت ارض تلمون نقية ، كانت ارض تلمون فتية

. . .

. . .

لم يكن الغراب ينعق في تلمون (كما ينعق اليوم)

ولا الديك .. (كما يصيح اليوم)

ولا الاسد يفترس .

ولا الذئب تختطف الحمل

ورمد العين لم يكن يقول ((انا رمد العين))
ولا الصداع يقول ((انا الصداع))
والعجوز لم تكن تقول ((انا العجوز))
ولا الشيخ يقول ((انا الشيخ))...

وتلمون (دلمون) ايحاء رمزي لدجلة والفرات ، وهما يقطعان في ارض العراق اطول مساهمة واعظم رحلتيهما ، ثم على اراضيه يلتقيان ويندمجان ببعضهما ، ليؤلفا نهراً عظيماً حمل اسم العرب منذ اقدم العصور ، ثم يذوبان متعانقين في الخليج العربي العظيم ليعيدا دورة المياه الكبرى في رحم الطبيعة ، محتفظين في اعماقهما بالسر الالهي الكبير الذي بحث عنه اجدادنا ونبحث فيه اليوم ، دون أن تنتهي كنوز هذا السر ، فهو يسمح لنا عبر المديات البعيدة بقليل من الاكتشاف لغموضه ومكنوناته ، عن طريق الاسطورة والشعر ، ان جميع هذا العطاء أو الخير يحمله « دجلة الخير » و «الفرات العذب» فيا ترى كيف وقف الانسان العربي منذ ازمانه الطويلة ينظر إلى هذا الطوفان الكبير . والتدفق ، وما تعليله لهما ؟ .

والجواب . أن انسان وادي الرافدين اسقط تصوره المستمد من مكونات النهرين ، على بدء الزمن ، فكانت فكرة العراقيين القدماء عن الكون الاول اوحى بها النهران الخالدان ، وصورهما الشعر ابدع تصوير في ملاحمه وقصصه التي ذكرت بعضها في اول البحث . وكان لها صدى في حضارات مجاورة وبعيدة ، فالدنيا خرجت من المياه الكونية الاولى ـ مياه الهيولى (١٢) . فلما تأسست اول دولة كونية ، لم ينس العراقيون ان يكون ثالث الزعماء في مجلس الهة الدولة ((اله المياه)) ففي مطلع ملحمة ((الخلق)) البابلية وصف يعد من ابكر مراحل الكون في نظر المفكر العراقي القديم . وهي مرحلة تعقب مرحلة فوضى المياه ، فقد كانت هذه الهيولية تتألف من عناصر ثلاثة متداخلة : ((ابسو)) ويمثل المياه العذبة . و ((تيامت)) ويمثل مياه الملوحة و (ممو)) ويحدس العلماء انه يمثل السحاب والضباب ، ولم يكن هناك ارض ولا سماء ولا يابسة مستقرة ،

انما الكل ماء ، ولا مستنقع ولا جزيرة ولا الهة ، ثم ظهر الهان: «لخمو» «ولخامو» يمثلان الطمي المتراكم في مجاري المياه ، انجبهما ((ابسو)) العذوبة (دجلة والفرات)) و ((تيامت)) الملوحة ((البحر)): فأنجبا الهين جديدين ((انشار)) و ((كيشار)) وجهين من اوجه الافق ، يلدان (آنو) اله السماء ، وضعه انشار على شاكلته ، لان السماء تشبه الافق في الاستدارة ، فولد (آنو) الهاً جديداً هو (انكي) اله المياه العذبة صنعه (آنو) على صورته ، لان الارض في زعم العراقيين القدماء في شكل قرص أو اناء مستدير ، ويلاحظ في صفة (انكي) بأنه مفتوح الاذنين ، حكيم ، قوي البطن ، سعى ليقرب بين (انليل) اله الهواء وبين (كي) سيدة الارض ليخرج من اتحادها الحيوانات والخضار ، ثم خلق (دجلة والفرات) وملأهما بالمياه العذبة والاسماك ، ولما اصبحت الاعمال والمهن شاقة على الآلهة ، اتجهت النية الى خلق الانسان من صلصال معجون بدم اله ثم بدأت مهمة انكي ، اله المياه ، في تنظيم مزرعة الكون ، يصدر الاوامر من مقر قيادته في قصر الفرات ، ويبدع الشاعر السومري في تصوير مهمة هذا الحكيم في عمله ، واصفاً اياه وهو في جولته الكونية لجميع الاقطار ، يبارك الانهار والثمار ، ويملأ دجلة والفرات بالأسماك وقد منح الشعراء السومريون الآله (انكي) صفات الماء التي يشعر بها من يمارس شؤون الارواء ، وبالاخص سكان العراق القدماء ، فوصفوه بالدهاء كالماء الذي له ارادة وهدف ويحمل الفاعلية الانتاجية . فضلا عن الفكر الزراعي والخلق ، واعطى ((انكي)) صفات الحكمة ، لان العراقي تأمل في مياه الآبار والبحيرات الساكنة المظلمة التي لاينفذ فيها البصر ، فأوحى اليه بأن الماء يتمتع بالعمق الفكري والحكمة والمعرفة ويحمل الماء صفة الصبر اذا حبس في موضع . والدهاء اذا حاول التخلص من محبسه ، وكان لصفات التغلب والعزف المعهودة في المياه اكبر الاثر في موازنة مهمة انكي وقواه العجيبة بها فكان انكي فعالا في ادوارة المتعددة التي يلعبها في كل مكان ، فكان يسقط على المدن في هيئة قطر ، أو يتهاوى في القنوات في صورة

نهر ، أو يجري في الوديان وعبر الحقول والبساتين في شكل سيول ، ينتج الغلال لرفاه الشعب لكن جوهر انكي يبدو للعيان في الصبر والفهم والعلم والمعرفة(١٣) ، وهذا جزء من نشيد سومري يصف وظيفة انكي بالنسبة لدجلة والفرات :ـ

يامن بعينيك السحريتين حتى لو كنت ساكنا
غارقا في الفكر ،
تنفذ الى القلب من كل شيء
يا أنكي ، يا من وعيك لا حد له
يا ناصح الانوناكي الاعظم
يا عميق العلم ، يا من تطاع عندما تعمل فطنتك
للمهادنة والتقرير ،
والفصل في منازعات القانون يا ناصحا ،
من الشروق إلى الغروب
أياك احمد .
لقد خولك ابوك آنو ، اول ملك وحاكم
على عالم لم يكن قد اكتمل ،
خولك في السماء والارض ان تصنع وترشد
ورفعك سيدا عليها .
واليك عهد بأن تنقي الفمين الطاهرين :
من دجلة والفرات .
وان تكثر اليانع من الخضرة وتكثف الغيوم
وتغدق الماء على الارض الحريث .
وتنبت الفسائل في المزارع والحدائق
الملتفة النبت كالغاب .

هذه كلها ، عهد اليك بها آنو ملك الالهة
وانليل وهبك اسمه الجبار الرهيب
فأنت لانك تحكم كل بلاد ،
انليل الاصغر ،
أخوه الاصغر انت ، وهو الاله الأوحد
في السماء والارض .
أو لم يمنحك القدرة على تقرير
مصائر الشمال والجنوب مثله ؟
وعندما تجعل اقواليك وقداراتك الخيرة
المدن المهجورة تأهل من جديد ،
وعندما ، ياصبارا ، تتوطن الاف الناس
في طول البلاد وعرضها ،
انك في الحقيقة اب لهم ،
وأنهم ليسبحون لجلال الرب الهمم ...»

ولقد عبد (أنكي) في اماكن مختلفة من بلاد الرافدين ، وعثر قرب معابده على عظام الاسماك التي لعلها كانت تقدم نذورا له .

وحول فهمه ، ورد هذا المقطع :

«أنكي ،
هو الذي يمنح الحكام الفطنة والعقل
ويقيم مصراع الفهم ..»

وكذلك في مهارته ورد هذا المقطع :

«أنكي ،
هو اله أمهر الصناع ..»

وجوهر «أنكي» يظهر ايضا في صلوات الكهان ورقاهم السحرية ، يسكن ثائرة القوى الساخطة، ويطرد الارواح الشريرة التي تهاجم الانسان،

فهو صديق الانسان وسيكون إلى جانبه عندما تقع كارثة الفيضان، فهو الذي نصح بصنع الفلك ، وعندما ولدت السيدة المعظمة «كي» المشوهين كان «أنكي» ينصفهم ويهديهم إلى خبزهم .

من هذه التحدرات السومرية ، يتخذ الاكديون موقفاً فلسفياً متأملاً من الحياة ، وسوى بعض الاضافات والتحويرات ، يظل الفكر السومري في نظرية الخلق الكونية المبنية على معطيات الرافدين ، هو المنبع الاول والرائد لجميع ضروب هذا التصور ، لذلك لن استطرد وراء هذه الفروقات مهما تعددت لانها في نظري واحدة في اصلها ، اما قصة الطوفان في عطائها الآشوري أو البابلي أو الأكدي ، ما اكتشف منها وما سيكتشف ، وفي عطائها العبري ، وحتى المسيحي اذا اكتشف مستقبلاً ، وفي عطائها الاسلامي تظل مصدر دراسة ذات ثراء كبير الفكر والأدب فضلاً عن الحقل العقائدي ، لكن الظاهرة الموحدة بين هذه التوجهات المتباينة ، وثنية وتوحيدية ، هو ان استخدام هذه الظاهرة ، يتجه نحو الموعظة حالياً، بتوجيه انظار الخلق للاعتبار بمن أخذهم الطوفان لتماديهم في غيهم، بحيث صارت تقليداً شعرياً كالطوفان الذي اصاب مأرب عند انفجار السد الركامي فيها، وهجوم جحافل السيل العرم فأخرج الاعشى في هذا الموقف شعره الوعظي في قوله(١٤)

من سبأ الحاضرين مأرب اذ يبنون دون سيله العرما

وفي موضع آخر ، فصل الاعشى في شكل الموعظة :

ومأرب عفى عليها العرم وفي ذاك للمؤتسي أسوة
رخاء بنته لنا حمير اذا جاءه ماؤهم لم يرم
فأروى الزروع واعنابها على سعة مأؤهم اذ قسم
فعاشوا بذلك في غبطة فجار بهم جارف منهزم
فطار القيول وقيلاتها ببهماء فيها سراب يطم
فطاروا سراعاً وما يقدرون منه لشرب صبي فطم

الآن الحدث نفسه عند وتوجه بنجه في الملحمة أو القصة الاسطورية نحو العقاب . اذ يبوء الناس بغضب من ربهم فيسلط عليهم الفيضان، ويبدو أن الرافدين كانا اذا فاضا دمرا كل شيء خلافاً للنيل الذي حول فيضانه إلى رحمة. وهذا ماعناه الشاعر أحمد شوقي في قصيدته : ايها النيل (١٥) :

والماء تسكبه فيسبك مسجدا والارض تغرقها فيحيا المغرق

وهذا معنى جليل . لان الفيضان هو الغرق ويعني الهلاك الا مع النيل، فان الغرق معناه الحياة ، ومطلع قصيدته هو :

من أي عهد في القرى تتدفق وبأي كف في المدائن تغدق

ومن السماء نزلت ام فجرت من عليا الجنان جنائنا تترقرق

يشير بذلك الى ما اورده المؤرخون والبلدانيون العرب المسلمون من ان دجلة والفرات والنيل انهار تنبع من الجنة على ماكان يعتقد الناس،فينعكس في اشعارهم ، حتى عدا مثل هذا الاعتقاد سائدا الى مثل يومنا هذا ، لذلك سأقف عند شخصية مقدسة ، احتضنتها الجماهير العربية واحبتها واضفت عليها من خيالها الخصب الاصيل كثيرا من تصورها لمسألة الارواء والزرع والخصوبة والايناع والثمار ، فضلا عن امتداد هذه الشخصية مع اشباه ونظائر في اعماق التراث العربي العريق وتراث وادي الرافدين وملاحمه الشعرية ، تلك هي شخصية الخضر «عليه السلام» المعروف لدى شعبنا باسم ((خضر الياس)) وهما شخصيتان والملقب براعي المياه والذي يتخذ مقره في دجلة والفرات ومسايل المياه العربية الاخرى (١٦) . وهو امتداد لتراث وادي الرافدين.وعلى وجه التحديد الاله «انكي» اله المياه العذبة الذي نقف له على نظائر في الاداب الاجنبية ايضا مثل (بوسيدون الاغريقي)(١٧) وان كان انكي اقدم منه بكثير . وانكي سبق خلفه ((الخضر)) في اتخاذ مقر الفرات وجميع المياه مقرا له ، فشيد معابده فيها ، وهو معبد الحكمة ، وعرف بدار البحر ايضا (١٨) ، واصل كلمة الخضر : الرجل الاخضر ، ثم نسي اللقب ، لكنه يفسر لنا الصيغة الحالية التي تلمح إلى الاصل

وهو التشبيه بالنبات الاخضر ، وهذا هو اسمه في المأثور الشعبي ، ولم ترد الصيغة في القرآن الكريم ،وانما جاء الاسم موصوفا بعبد الله في قوله تعالى: ((فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما))(١٩) وفسره جمهور العلمـــاء بأنه الخضر ، ورووا قصته مـــع النبي موسى عليه السلام ، الا ان (فنسنك) كاتب مادة (الخضر) في دائرة المعارف الاسلامية أرجع اصل القصة الشعبية الى ثلاثة أصول : (١) ملحمة كلكامش (٢) قصة الاسكندر (٣) الاسطورة العبرية الخاصة بايليا الرباني ، وناقش الاصول مناقشة علمية معقودة بموازنة حادة مستنتجا اهـم الخصائص الاساسية التي اتفقت فيها المصادر الثلاثة مع القرآن الكريـم ، واشار ((فنسنك))نقلا عن ((غانو)) الى العلاقة بين الاحرف العربية ((خ ، ض ر)) وبين الحروف البابلية ((ح ، ص ، ر)) ومن ثم يكون اسم الخضر تصحيفا لـ ((حسترة ، الذي هو أتو ـ نبشتم خسترة)) وهو توجيه ليس بالقريب ، وقد لايخلو من تمحّل ، لاننا نستطيع ان نجد تشابها من اسم ((زيو ـ سودرا)) باسم الخضر ايضـــا ، وذلك في اللفظتين (سودر) و ((الخضر))وخصوصا الحرف «د» من «سودرا» والحرف «ض» من الخضر الذي يلفظ دالا ايضاً ، «وزيو ـ سودرا» هو (أتو نبشتم خسترا) وكلاهما تلقيا النصيحة بصنع الفلك يوم وقعت كارثة الفيضان لكن الرواية السومرية التي ذكرت (زيو سودرا) هي الاصل للرواية البابلية التي اوردت اسم خسترا((والاصل لرواية ((اترانحاسيس)) الذي يرشح ان يكون امتداد لشخصية الخضر ايضا بسبب تشابه اسمه ولان معنى الاسم هو الواسع الفهم والحكمة وجميع هذه الشخوص تبدو في النصوص منقذة أو مخلصة للبشرية من كوارثها عند حدوث سيول عظيمة لعلاقة بينها وبين الماء والحكمة. وربمـا يلفت نظرنـا ان تكون هذه الشخوص متناقضة في بنائها الفكري والعقائدي مع شخصية الخضر عليه السلام . وليس هذا ببعيد ، لان هذه الشخوص قد تكون امتدادا لشخصية الخضر وفق المعطيات التوحيدية لكن

الوثنية احتوتها في عقائدها بما يناسب فكرها ، أو ان الملاحم الوثنية الكونية قد تكون تحريفا للكتب والاسفار السماوية ، لاننا نجد في هذه الشخوص المنقذة شبها كبيرا بشخصية نوح عليه السلام حين صنع الفلك وانقذ الجنس البشري من الانقراض ساعة الفيضان .

لكن الذي افادنا به ((فنسنك)) هو استخراجه من شروح اسم بعض الحقائق حول الخضر :

أ ـ انه اخضر لتدليه في عين الحياة .

ب ـ انه كان يعيش في جزيرة ، وكان في الاصل كائنا بحريا .

جـ ـ البحارة في شواطىء الشام يدعونه اذا عصفت الريح ، ويعتقد العراقيون انه ما ان يخطر اسمه على بال احد أو يذكر على طرف لسان حتى يحضر في الحال واقترن اسمه بشخصية اخرى دينية ، فقيل له ((خضر الياس)) وتوضع له النذور في مياه دجلة والفرات ، وتقتصر عملية النذر على شمعة متقدة فوق قطعة خشب ترسل عائمة فوق وجه الماء ، فاذا انكفأت وغطست ، استبشر الناذر واعتقد بحضوره واخذه النذور ، وعندئذ يذهب ليوفي نذره .

د ـ في الهند يدعى ((خواجة خضر)) ، وهو عندهم اله نهري يمثل جالسا على حوت ، وهي نفس حكاية الحوت في تراث العرب ووادي الرافدين وستأتي .

هـ ـ يتصل بمملكة النبات ايضا فوق اتصاله بمملكة المياه ((اذ جلس على فروة بيضاء اهتزت تحته خضراء)) والفروة البيضاء رمز الارض اليابسة وقد خوطب عند نهر الحياة :

انت الخضر .

كلما لامست قدماك الارض .

اخضرت ...

وقال فيه العلماء المتصوفون :

ان لكل عصر خضره ..

وهو صديق الانسان ، يحميه من ((السرق والحرق والغرق والسلطان والشيطان والحية والعقرب)) ويدخل في قائمة الشخصيات التي لم تذق طعم الموت ، وهو يقتات على الكمأة والكرفس ، وقد حضر وقعة القادسية ضد الفرس الى جانب العرب ،ان ماذكره (فنسنك) هو الغاية في التحقيق العلمي الدقيق ، وقد احببت ان اتعرض لرأيه بشيء من التعليق ،واتمم رحلته بشيء من الاضافة ، ان في خلود ((أتونبشتم خسترا))ضرباً من المكافأة له على انقاذ الجنس البشري من الهلاك عندما صنع الفلك ، وانه كوفيء ايضا بان تكون اقامته عند منابع المياه وفم الانهار ليأمن طوفانا جديدا قد يحيق بالبشر فهو في مأمنه بعيداً عن مدن المصب (٢٠) يحرس المياه ويسيطر عليها في منابعها ، فهو بهذا المعنى موكل بالماء ايضاً ، وامتداد (لزووسودرا) اول انسان يمنح بعض صفات الاله ، وحاول كلكامش أن يفعل مثل فعله لينال مثل جزائه فأخفق . فيكون تشبيه الخضر به من هذا الجانب محمولاً على اتفاق الوظيفتين، اما بالنسبة لكلكامش فلاشبه بينهما ، اما الاسكندر فهو تكرار لشخصية كلكامش في بحثه عن نهــر الخلود أو (اكسير الحياة) الذي يقابل (نبات الخلود) في قصة كلكامش ، واخفق أيضا لكن ناله طاهيه الخاص ((اندرياس)) الذي احتار فلايدري مايصنع بهذا الخلود ، فليس من علاقة بين الاسكندر والخضر . واما الاسطورة اليهودية التي كان (زونز)(zunz) اول من نبه الى مشابهتها لقصة الخضر فموجزها ان الرباني يوشع بن ليفي ، قام برحلة مع (ايليا) على شروط اشترطها الاخير تماثل تلك التي اشترطها الخضر على موسى (٢١) . وهنا يوجد تشابه في جزء من قصة حياة الخضر بالسيد ايليا ، وان شخصية الرفيق في الرحلة تظهر وتختفي في هذه القصص ، وكذلك الحوت يظهر في قصة ويختفي في اخرى ، وجميع هذه القصص تصور لنا الخضر قد بلغ مرتبة

الخلود والوصول الى (عين الحياة) وشربه الماء الواهب للبقاء ، اما وصول الخضر الى تلك العين ، وكيف تم ذلك ومتى ، فلعل احدا لم يلتفت اليه وقد وجدته في كتاب التيجان في ملوك حمير (٢٢) ، ضمن السيرة الذاتية للملك الحميري المعروف بالصعب ذي القرنين ابن الحارث الرائش الحميري .
واورد وهب بن منبه في اول القصة حديثا يرفعه الى الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه (حدثوا عن حمير فان في احاديثها عبرا) وذكر قصة لقاء الصعب بالخضر عليه السلام في فلسطين ودخولهما بابل في العراق وصعودهما الى عين الحياة ، منابع دجلة أو الفرات ، فشرب الخضر منهما ، وامتنعت العين على الصعب ذي القرنين ، ومات ذو القرنين بين يدي الخضر ، وغاب الخضر بعدها ولم يظهر لبشر بعد ذلك الا لموسى بن عمران عليه السلام .
واوردت القصة للخضر نسبا طويلا ينتهي الى جده ابراهيم الخليل . كما اوردت وصية للخضر الى ذي القرنين الذي لقبه الخضر بهذا اللقب وتتضمن الوصية مواعظ وحكما بالعشرات مما يوجه الى العظماء في لحظات فوزهم وانتصارهم وامتداد نفوذهم ، تقيهم الغرور وتعصمهم من السقوط في مهاوي الاعتداد بالنفس ، والقصة بعد ذلك تعكس اكثر من رمز وتجيب على اكثر من تساؤل توجه به ذو القرنين إلى الخضر وهي نفس سؤالات موسى للخضر لكن بحدث مغاير ، لكن والمهم في القصة ان العظيم مع سلطانه لم ينل الخلود ويشرب من عين الحياة (اكسير الحياة) (نبات الخلود) بينما ناله الزاهد البسيط ، عبد الله ، بعلمه وحكمته . فالخلود خلود الذكر بالعلم ومحامد الفعال والمحصلة التي استقرت في ايدينا هي ان (سودرا) و (خسترا) اقدم راعيين لمياه الرافدين يتصل بهما الخضر من هذا الجانب ، واما السيد (ايليا) فلم تعرف رعايته للمياه العربية والخضار . لكنه يتصل به في جزء من القصة ، هو امتحانه لرفيقه الرباني يوشع ، المشابه لامتحان الخضر لذى القرنين أو لموسى بعد ذلك ، ونستطيع أن نتلمس للخضر شبهاً من (انكي) اله المياه وامتداداً له في وظيفته ، ويمكننا

بعد أن اوجزنا الملامح العامة لحياة الشخصيتين آن نعقد المقارنات الآتية بينهما :

((انكي)) معبود الفراتيين واله الحكمة	((الخضر)) راعي المياه العربية والملم بشيء من الغيب
١ — يقال له (نون) أيضاً ، والكلمة في عربيتنا تعني «الحوت» ، وان كانت لدى علماء ((السومريات)) تعني «النبيل» ، والحوت لايخلو من هذه الصفة ، وبعض انواعه يعرف بأنه صديق الانسان .	١ — تظهر قصة الحوت مرتبطة بتواجد الخضر عند منابع المياه ، والحوت رمز النبل في الموارد الاسلامية ،وتؤكد قصة النبي يونس (ذو النون) ذلك المظهر النبيل للحوت.
٢ — يسكن في أعماق المياه ، ويتنقل بينها وقد جعل معبده في اعماق الفرات .	٢ — يقال له «راعي المياه» وتقدم اليه النذور في دجلة والفرات .
٣ — ساهم في ايجاد النبات والخضرة بأن هيأ لاخصاب (كي) ام الأرض السيدة المعظمة التي انجبت (اوتو) الهة الزرع (٢٣) ، وكان نباتياً فأكل مرة ثمانية أنواع من النباتات .	٣ — هو الذي يمنح الارض حلتها القشيبة الخضراء واسمه مشتق من الخضرة ، ويمشي فيطأ اليابسة فتخضر ، ويجلس على وجه الماء فوق طنفسة خضراء وطعامه الكمأة والكرفس ، فقد كان نباتياً .
٤ — لم يكن ملكاً ، وورد أنه أمير (٢٤) ، لكنه كان وزير الزراعة في مملكة الكون ، ووزيراً لالهة الملوك ، لكنه يتمتع بصلاحيات	٤ — لم يكن نبياً ، فهو نقيب الاولياء ، ويوحى اليه (٢٥)

ويتمتع بصلاحيات تقترب منه به من اكبر الالهة ، حتى (آنو) اله السماء.	منحه اياها الخالق عز وجل ، فكان يعلم الغيب، كما أشارت إلى ذلك الآية في سورة الكهف ، ولم يكن موسى عليه السلام وهو نبي ليعلم علمه بالغيب.
٥ ــ انه خالد لايموت .	٥ ــ منح الخلود ، فهو أحد القلائل الذين لايموتون .
٦ ــ عرف بحبه للبشر ، فهو الذي نصح بصنع الفلك عندما عزمت الآلهة على عقاب البشر بالطوفان ، وكان يوصل الخبز للمشوهين الذين ولدتهم امهم الأرض .	٦ ــ عرف بحبه للخير والناس، وقد اشتهر عنه انه يحمي الناس من الفيضان أو الغرق ومن الحريق وظلم السلطان والشيطان والضار من الحيوان .
٧ ــ منح الحكمة الألهية، واحتفظ بكنز الثقافة والحضارة والفنون في معبده ((أيا)) في مقر الفرات ، واعطي صفات الماء ، الصبر اذا احتبس والدهاء اذا اراد التخلص من محبسه.	٧ ــ منح العلم الالهي ((وعلمناه من لدنا علماً)) الآية الكريمة ثم ورد في الآية أنه كان صبوراً ، فلم يستطع النبي موسى ان يصبر صبره في القصة المذكورة في القرآن الكريم . وتتميز فلسفته بالعمق . وفيها تفسير للقدر الذي ظاهره مأساة تجر إلى سعادة مجهولة تكتشف

فيما بعد ، وله حكم
مأثورة في الكتب .

وخرجت بحوث جيوفري ببي (Jeaffry Bibby) حول دلمون (Dilmun) بحصيلة طيبة من المعلومات فيما يتعلق بالخضر وتقديسه ، فقد ظهر أن جزيرة ((فيلكة)) في الكويت تحتفظ لنفسها بتاريخ عريق يضرب في اعماق الماضي بما لايقل عن (٤٠٠٠) اربعة آلاف عام من يومنا هذا ، حيث كان يعبد فيها اله دلمون المعروف بالإله انزاك (Inzak) ثم لما انتصر اليونانيون في زمن الاسكندر نقلوا إلى موضعه الآلهة ارتيموس (Artimus) بعد أن محي معبد الإله انزاك باعتباره الهاً مندحراً ، بينما شخصت ارتيمس باعتبارها منتصرة ، فلما ضعف امر الاسكندر ، ظهر مزار الخضر في الموضع نفسه (٢٦)، وقد لاحظ ببي (Bibby') هذا المزار في جزيرة فيلكة في الكويت ، وكان قد تعرضت لعدة هجمات استهدفت وجوده فدك تماماً ، ثم اعيد تشييده ، واخطر مالفت انتباه الباحث عند دراسته لهذا المزار ، هو شكله الغريب من نصب الوثنيين العرب في العصر الجاهلي، وقد افادنا الباحث بجملة معلومات جمعها بنفسه في صورة مأثور شعبي (فولكلور) من فم الأهلين هناك ، فذكروا عن الخضر انه ولي صالح وصديق للنبي موسى وانه يسكن ضفاف الفرات في كربلاء المدينة العربية المقدسة في العراق ، فكان منها ((يطير)) في كل ثلاثاء إلى مكة المكرمة متخذاً من هذه الجزيرة ((فيلكة)) محطة راحة له والنساء هنا يتقربن إلى مزاره ليحققن لأنفسهن ولادات ذكور مؤكدة .

انا نخرج من مشاهدات (جيوفري ببي) بجملة استنتاجات : فبالنسبة لوجود المزار في هذه الجزيرة . فقد وصفها ببي نفسه بانها تحيط بها المياه من جهاتها الثلاث . وانها ميناء مهم : وان المزار يحتل تلة عالية وهو في القمة منها . يتألف من سور يرتفع إلى حوالي خمسة اقدام ، له مدخل ضيق ، وهذا الموضع طبيعي جدا لمزار الخضر ، لانه راعي المياه العربية

انطلاقا من كونه قديسا فراتيا ، وكائنا بحريا ، وغالبا ما يستغيث به التجار والبحارة في شواطىء الشام ، ولعا «انزاك» و «ارتيموس» يمتلكان نفس الخصوصية التي يمتلكها الخضر مع المياه ، واما المزار الشبيه بالدكة أو انصاب الوثنيين ، فهو يلمح إلى الاصل الذي كان عليه الخضر ، فهو يتسم بصفات إلهية اكثر من كونه وليا ، وذلك لعلمه بالغيب ، اما انه نقيب الاولياء فهو تطور اسلامي لشخصيته ، لكن علمه بالغيب يجتذبه إلى مصاف الالهة ، يضاف إلى ذلك خلوده ، وهذا ما حصل لغيره فجرت له نفس الطقوس ، ومن ثم يؤيد امتداده في شخصية (أنكي).

ان اكتشاف مزار للخضر هناك ، وارتباط ذلك بالروايات الشعبية في مسكنه الاصلي على ضفاف الفرات ، وتفسير دلمون بالبحرين التي يظن انها التقاء الماء الحلو بالمالح ، اي دجلة والفرات بالبحر ، وهو موضع لقاء موسى بالخضر في مجمع البحرين ، يؤكد ان موضع الخضر كان عند فم الانهار ، وعند تتبع علاقة الفينيقيين بدلمون واستيطانهم فيها ، يتضح لنا ما جاء في ملحمة كلكامش عن رحلته إلى جبال الارز بحثا عن رجل الخلود ، ولم يغفل الباحث طبيعة العلاقة العقائدية بين الجزيرة (فيلكة) وبين انتساب الخضر إلى مدينة مقدسة عراقية لم يزل قريبا منها ما يعرف بالاخيضر ، تمنح هذه الشخصية شمولية وعمقا ، وبالاخص اذا علمنا بان للخضر مقامات متعددة في العراق ، وان احد هذه المقامات في مدينة تكريت في محافظـــة صـــلاح الدين ، وان بعض الروايات الشعبية تجعل له صلة رحم بالاسكندر ، واذن فقد اظهرت لنا الدراسة والمقارنة العلمية ان شخصية الخضر عليه السلام اصيلة في التراث العربي ، وان لها امتدادا في معتقدات العراقيين القدماء وخصوصا الفراتيين . لان انكي حكيم الجنوب تطور إلى شخصية الخضر الاسلامية ، وان الاسطورة اليهودية ، كعادتها ، سطت على هذا التراث وان معجزة القرآن الكريم تجلت في عظمة استشراف هذا التراث وكشفه مع جهل الناس له يومئذ . وان هذا التنزيل الحكيم

يبشر به رجل لا يقرأ ولا يكتب ، وقصة الخضر الشعبية امتداد للسيرة الذاتية لذلك الحكيم في التراث ، اما قصته في القرآن الكريم فهي تنفرد في اصالتها ومصادرها ، وهذا سر اعجازها ، وربما رمزت الشموع التي توقد للخضر إلى اضاءة لتلك الاغوار المعتمة في اعماق المياه حيث تقترن المعرفة بالنور ، ويقترن الجهل بالظلام منذ اقدم الازمنة ، وتشخص قصيدة «شموع للخضر» للشاعر شفيق الكمالي بين هذا الموروث وتشخصه وتوظفه في لمحة عصرية تبرأ من اية خطابية مباشرة وتعف عن كل نثرية أو سطحية لان المعاني تنبض في قالب الكلمات محدثة دويا يضرب في عمق هذا الموروث يسبر ابعاده وينشرها(٢٧) .

الشمس لاتغيب مرتين ..
والفرات فاض وانتهت مواسم الندى
. . .
عيناي لهفة
والف شمعة
نذرتها للخضر
يبيت فوق سورها اليمام
. . .
انهضي . .
فالديك صاح مرتين . .
. .

وقد بلغ من حب اله المياه لفنون الحضارة والثقافة ، انه حزن حزناً شديداً عندما استغفلته «عشتار» الهة الحب والجمال ، فاختطفت منه النواميس الثقافية والحضارية ونقلتها إلى مدينتها «اوروك» . وكانت «عشتار» وهي ((أنانا — ملكة السماء)) قد اقبلت في اجمل رحلة اسطورية تمت في قارب بردي من مدينة ((اوروك)) إلى مدينة ((اريدو)) عن طريق نهر الفرات

وجاءت رحلة العودة عبارة عن مغامرة ومطاردة لاسترجاع هذه النواميس المحتوية على مجموعة مراسيم السيادة الآلهية والتاج العظيم والوظائف الكهنوتية والحقيقة والبلد الثائر والصلاح والعدل وصرخة النصر ، وغير ذلك من النواميس التي كانت محفوظة في كنز الإله (انكي) في اعماق الفرات ، وقد استنتج صمويل نوح كريمر في كتابه : الاساطير السومرية بأن هذه ((القصة الفراتية تعطي الدليل على ان الحضارة السومرية في العراق اول الحضارات وأعرقها في العالم القديم)). وتقدم اسطورة الطوفان السومرية ، برغم نقصها وغموضها ، الدلائل على تأثير دجلة والفرات في ذهنية العراقيين وحضارتهم وفكرهم ، فرسموا عن طريقهما مسار حياتهم وفلسفتهم في خلق الانسان وتكوينه حتى جعلوا طينة الخلق الاولى من شواطىء الرافدين والدم المعجون فيها دم عراقي . لذلك كان الرافدان في نظرهم أقدم الأنهار وخصوهما بكثير من التقديس ، فورد في قطعة أدبية أشبه بالترتيلة الدينية ذكر للفرات بأنه القاضي الحكم بين الناس لعله رمز إلى الإله (انكي) المعروف بالحكمة ، وربما المراد بذلك ماجاء في المادة الثانية من النص الوارد في شريعة حمورابي برمي المتهم بتعاطي السحر في النهر لاظهار براءته أو جرمه ، والقطعة الأدبية المذكورة ، عثر عليها باللغتين السومرية والبابلية ، وكانت تتلى في اثناء شعائر التطهير في معبد (أي — زبدا) معبد الإله (نبو) في بورسيبا (جنوب بابل) وقد وردت في رقيم بابلي ودونت في صورة خطاب موجه إلى الفرات : —

((أيها النهر . .
ياخالق كل شيء
حينما حفرتك الآلهة العظام .
أقاموا أشياء طيبة على ضفافك .
وفي [illegible] .
بنى ((أيا)) ملك الغمر مقامه
وأفضوا عليك بفيض من المياه .

لانظير له . .

فيا أيها النهر العظيم
أيها النهر المجيد
يانهر المعابد المقدسة
مياهك تفرج الغمة
فاقبلني برأفة ؟؟ .
وخذ مافي بدني . .
وانعم به على شطآنك
وغطسه في اعماقك . .».

ويذكر لنا الملك شيلمنصر الثالث في القرن التاسع قبل الميلاد ، انه اقام في عام حكمه الخامس عشر نصباً عند منبع دجلة ، وانه سار بعد ذلك الى ينابيع الفرات ، حيث قرب هناك الضحايا ، وغسل سلاحه في مياهه (٢٩) .

لقد أدرك العراقيون القدماء ، وفهموا عمق العلاقة بين الماء والأرض وما تنتجه هذه العلاقة الجدلية الرائعة ، فاخرجوا لنا هذا الشعر الخالد المنبثق من واقع فكرهم وارضهم ، فهو يمثل اقدم مبادىء الالتزام في الادب الواقعي ، وان كان يبدو لنا فكراً اسطورياً (ميثولوجياً) بحتاً ، فهو بالنسبة لمرحلتهم المبكرة يمثل فلسفة حياتهم وايديولوجيتهم بشكل مبدع خلاق .

اشارات هامشية :

(١) ينظر كتاب اساطير العالم القديم لطائفة من الباحثين الغربيين ، نشر وتقدم الدكتور صمويل نوح كريمر المتخصص بحضارة وادى الرافدين ، ترجمة الدكتور احمد عبد الحميد يوسف ومرجعة الدكتور عبد المنعم ابو بكر ، نشر الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٣ وتراجع مقالتنا ، الفرات واثره في تراثنا الشعري والحضاري — مجلة افاق عربية — بغداد العدد (٤) لسنة ١٩٧٩ (ص — ٥٠) .

(٢) كتاب اساطير العالم القديم ص — ٣٥٥ (اشارة سابقة) .

(٣) ينظر كتاب الطوفان للدكتور فاضل عبد الواحد علي (ص — ١٧) طبع على نفقة جامعة بغداد ١٩٧٤ وتراجع الملحمة .

(٤) يراجع كتاب ماقبل الفلسفة تأليف هـ . فرانكفورت واخرين (ص — ٢٦٥) ترجمة جبرا ابراهيم جبرا — طبعة ثانية — بيروت ١٩٨٠ ويراجع في (يم الزمان الاول) (المحيط البدائي) معتقد المصريين ، كتاب اساطير العالم القديم (ص — ٣٥) .

(٥) يراجع كتاب النيل في الادب العربي للدكتورة نعمات فؤاد احمد طبع دار المعارف بمصر

(٦) ينظر كتاب اساطير العالم القديم (اشارة متقدمة) وكتاب (مقدمة في تأريخ الحضارات للاستاذ طه باقر / ٤٦٠ طبعة اولى) .

(٧) ينظر كتاب الطوفان (ص — ٢٢) (اشارة سابقة) .

(٨) اساطير العالم القديم (ص — ١٠٠) (اشارة سابقة) وكتاب ماقبل الفلسفة (ص — ١٩٩) (اشارة سابقة) .

(٩) الطوفان (اشارة سابقة) (ص — ٢٨ ، ١٢٣) .

(١٠) ماقبل الفلسفة (ص — ١٨٦) (اشارة سابقة) .

(١١) المصدر السابق .

(١٢) م. ن (ص — ٢٠٠) ونستطيع ملاحظتها في نصوص الملاحم الكونية لوادي الرافدين

(١٣) م. ن (ص — ١٧٢) ومابعدها .

(١٤) ديوان الاعشى وتنظر دراسة في هذا الجانب في ملحق مجلة كلية الاداب ببغداد وكتاب تاريخ الادب العربي قبل الاسلام للدكتور نوري القيسي والدكتور عادل البياتي والدكتور مصطفى عبد اللطيف (ص — ٢٢٤) .

(١٥) ديوانه ٢/٦٤ (طبع ببيروت — دار الكتاب العربي) .

(١٦) دائرة المعارف الاسلامية مادة (الخضر) ٣٤٧/١ (الترجمة العربية) . وكتاب الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ٥٣/٢ للاستاذ آدم متز ، ترجمة (أبو ريدة) طبعة رابعة ١٩٦٧ بيروت .

(١٧) الاساطير السومرية لصموئيل نوح كريمر (ص - ٨٥، ١٢٤، ١٢٦) ترجمة يوسف داود عبد القادر - بغداد ١٩٧١ مطبعة المعارف .

(١٨) م. ن (ص - ١٠٧) .

(١٩) سورة الكهف الايات (المصحف العثماني) وفيها موجز القصة وتنظر دائرة المعارف الاسلامية (الخضر) تراجع التفسيرات والشروح التي اقترحتها الدائرة .

(٢٠) مقدمة في ادب العراق القديم للاستاذ طه باقر (ص - ١١٦) طبع على نفقة كلية الاداب جامعة بغداد ١٩٧٦ وكتاب الطوفان (ص - ١٠١) (اشارة سابقة) .

(٢١) هذه القصة مشهورة ، مختصرها ان موسى عليه السلام وفتى له (عبد أو خادم) قصدا مجمع البحرين ، ومعهما حوت (لعله نوع من السمك يعرف بسمك الحوت وكانت علامة الوصول ترتبط بمعجزة هي ان يفقدا الحوت المملح بان يفلت منهما الى الماء ، وحصل فعلا ، فرأى موسى عند منبع المياه أو (عين الحياة) رجلا راقدا وقد غطى جسمه بردائه ، فأيقظه موسى وجرى بينهما حوار ، فظهر انه الخضر ، وعزم الرجل على اختبار موسى ليمتحن صبره والمامه بالغيب ، فكسر سفينة كانت لمساكين ، وقتل صبيا وحيد والديه ، واحسن الى قوم لئام لم يكرموهما فبنى جدارا متهدما لهم ، فأخفق موسى في الامتحان ، وفارقه الخضر قائلا ، ألم اقل لك انك لم تستيطع معي صبرا ، وفسر له الظواهر الثلاث .

(٢٢) لوهب بن منبه (٣٤ - ١١٠هـ) برواية ابي محمد عبد الملك بن هشام صاحب كتاب (السيرة النبوية) الشريفة ، وتراجع في التيجان قصة الخضر من الصحائف (٨٥) الى (١٠٩) ، وهي ضمن سيرة الصعب ذى القرنين (ص - ٨١) ، والكتاب طبع الهند (١٣٤٧ هـ) .

(٢٣) الاساطير السومرية ٨٧ (اشارة سابقة) .

(٢٤) الطوفان (ص - ١٢٣) العمود الاول السطر ١٦) .

(٢٥) التيجان (ص - ٨٥) (اشارة سابقة) .

(٢٦) 26 Lookicg for Dilmunp 204 By Jeaffry colliris

(٢٧) ديوان هموم مروان وحبيبته الفارعة - دار الاداب ١٩٧٤ .

(٢٨) تراجع الاسطورة والشعر في مجلة سومر لسنة ١٩٤٩ (ص - ٢٠١) .

(٢٩) مقدمة في تاريخ الحضارات ٤٣٢/١ (اشارة سابقة) .

طريقة في نقد النصوص النثرية

الدكتور عصام محمود الخطيب
كلية الآداب/جامعة الموصل

هناك مدارس نقديه معاصره متعددة في الأدب الانكليزي تختلف في طريقة معالجتها للنثر (١) تبعاً للأسس الفكرية او الأدبية التي تستند اليها فحين تكون هذه الأسس لغوية أدبيه ينصب اهتمام الناقد على هدف الكاتب ولغته ومادته مع اعطاء الأسلوب ومقوماته الأولويه من هذا الاهتمام (٢).

(١) لاتوجد حدود واضحة لمفهوم النثر كما هي الحال مع الشعر أو الرواية أو المسرحية . والمقصود بالنثر هنا هو النثر غير الروائي الذي نجده عادة في المقال أو البحث أو في جزء أو فصل من كتاب أو رسالة . ويشترط في النص النثري أن يكون مكتملا في معناه : أي أن تكون له بداية واضحة ونهاية تشتمل على خلاصة الموضوع أو على توصيات أو نتائج . ويمكن للكاتب أن يوحي فقط بانتهاء الموضوع . كما يحتوي النص النثري على وسط يربط بدايته بنهايته . ويجوز أن يحتوي النص النثري على سرد روائي أو محاورة مباشرة . ولا توجد قيود على المواضيع التي يمكن أن يطرقها أو الأساليب التي يتبعها كاتب النص النثري .

(2) S.H.Burton. *The Criticism of Prose* (London, 1973).
Robert Miller, *The Lauguage of Prose* (London, Heineman, 1977).
M. Peet and D.Robinson, *The Critical Examiuation* (Oxford, 1977) pp. 40–69.

وحين تكون الأسس التي ينطلق منها الناقد اجتماعيه في طبيعتها ينصب اهتمامه على نوع العلاقة ودرجتها بين الكاتب والقاريء أو المتحدث والسامع والهدف الاجتماعي الذي يسعى الكاتب الى تحقيقه مع الاهتمام بجوانب النثر الاخرى بالقدر الذي يخدم هذا الهدف فقط (١) وهناك النقاد الذين انطلقوا من الأسس الفكرية التي قام عليها علم اللغة التركيبي فانصب اهتمامهم على بنية النص النثري الداخليه والخارجيه أو مايسمى احياناً بالوحده العضويه والوحده الموضوعيه والدور الذي يلعبه صوت الكاتب (مثل ظهور الكاتب في النص عن طريق استخدام ضمير المتكلم المفرد أو عدم استخدام هذا الضمير مع وجود صوت الكاتب بدرجات (٢) متفاوته من الوضوح في النص النثري أو اختفاء صوت الكاتب كليا أو جزئيا عن طريق موضوعية وطرح الأفكار والتفاصيل ... الخ) في ذلك النص وعلاقة ذلك ببعض جوانب النثر كهدف الكاتب أو المادة المستخدمة لعرض الموضوع أو درجة بعد الكاتب عن القارىء (٣) .

وفي النقد العربي الحديث لم أعثر على طريقة متكاملة في معالجة النصوص النثرية (وأقصد هنا النصوص غير الروائية) والمتوفر هو معالجات جزئية أو هامشية (٤) .

---

(1) Martin Joos, *The Five Clocks* (New York, 1961).
H. Brown, *Proose Styjes: Five Primary Types* (Un. of Minnesota, U.S.A. 1966).

(2) W.Booth, *The Rhetoric of Fiction*, (Un. of Chicago Press, Chicago, U.S.A 1961).

(٣) ومثال على ذلك ماورد من معالجة جزئية للنثر في كتاب أحمد أمين ، النقد الأدبي (بيروت لبنان ، ١٩٦٧) صفحة ١١٠-١١٧ .

(4) Bonamy Dobree, *McdeJn Prose Style*, (OUP, 1964), pp 2-14 أنظر التشابه مع رأي

أما المتقدمون فقد كتبوا الكثير في هذا الموضوع ومنهم ابن جني والجاحظ وابن سنان الخفاجي وقدامه بن جعفر .

وفي اعتقادنا أن طبيعة الأسس التي تستند اليها هذه المدارس لاتسمح لها بتقديم منهج نقدي متكامل للنثر . والغرض من هذا البحث هو معالجة النقص الموجود في مناهج النقد التطبيقي للنثر في الانكليزية أو في العربية بدون التقيد بأسس فكرية أو لغوية أدبية أو أجتماعية معينة أو تاريخية تقع خارج النص النثري . والمنهج الذي ستتبعه ينطلق من كون النص النثري نفسه هو الأساس الذي نستند عليه لتثبيت المنهج النقدي . وهذا الأساس يسمح لنا باعطاء أهمية متوازنة لكافة جوانب النص الذي نبغي معالجته .

ويمكن تلخيص الجوانب التي يمكن معالجتها تبعاً لهذا المنهج النقدي المقترح بما يأتي : الفكرة العامة والمادة المستخدمة لمناقشة الموضوع وطريقة تنظيم المادة وعرض الموضوع والمناسبة والهدف والكاتب والقارىء والاسلوب والخلفية التاريخية والاجتماعية والثقافية .

وقبل البدء بمعالجة الجوانب المذكورة أعلاه يجدر الاشارة إلى بعض الامور التي لها علاقة مباشرة بالعملية النقدية . فعند معالجتنا لهذه الجوانب سيكون هناك تداخل أو تكرار لما نقوله في أحد الجوانب مع مانقوله في جانب آخر من النص النثري . وهذا التداخل أو التكرار ربما كان خللاً في طريقة معالجة النص النثري ولكنني اعتقد أنه أمر مرغوب فيه لأنه يساعدنا على ربط معالجة هذه الجوانب وبالتالي يصبح منهجنا النقدي التطبيقي المقترح متماسكاً ومتكاملاً .

ولنضرب مثلاً على ذلك . فعند معالجتنا للكاتب نتطرق إلى درجة قربه من القارىء . فقد تكون المسافة بينهما قصيرة جداً بحيث يستطيع القارىء أن يرى نفسه مكان الكاتب ، أو تكون قصيرة فقط بحيث يشعر القارىء بالألفة تجاه الكاتب . أو تكون المسافة على درجة معقولة من البعد بحيث يستطيع القارىء أن يتابع أفكار أو أحداث النص بموضوعية كافية لاتنسيه شخصية الكاتب . أو تكون المسافة بعيدة جداً بحيث ينصب اهتمام القارىء على مايقرأ من دون التفكير بالكاتب بتاتاً .

وما نقوله عن الكاتب هنا مرتبط بالقارىء وعند معالجتنا للقارىء نشير إلى ماذكرناه عنه تحت باب الكاتب وهنا يكتمل الارتباط .

ونذكر مثلاً آخر أكثر تعقيداً فنقول بأن الكاتب يتأثر بطبيعة الموضوع الذي يكتب فيه والكاتب الجيد يختار الأسلوب الملائم لموضوعه والطريقة المناسبة لعرضه وذلك عند معالجتنا للكاتب كجانب من النص النثري . ونجد هنا أن الكاتب «يتأثر» و «يختار» . أما القارىء فيستجيب للموضوع الذي يقرأه تبعاً لاهتماماته ودرجة ثقافته وعلاقة الموضوع بالزمن والمكان الذي يعيش فيه ، كما يستجيب لنوع الأسلوب المختار . وهذا بعض مانقوله عن هذا الجانب من النص النثري ، أي القارىء . وهنا نجد لدى القارىء «استجابة». وتشكل عوامل «التأثر» و «الاختيار» و «الاستجابة» بعض الخيوط المبرومة التي تربط حبات القلادة وتجعل منها حلية واحدة متكاملة مرتبطة الأجزاء للمعالجة التي يطرحها الناقد للنص النثري . وهذا الارتباط والتكامل قد تم عن طريق التداخل أو التكرار اللذين أشرنا اليهما .

وهناك قضية أخرى يجدر التطرق اليها . فحين نتحدث عن جوانب النثر المذكورة آنفاً تتم عملية تصنيف النثر إلى أنواعه بدرجات مختلفة من الوضوح وبصورة شبه واعية. وهذا التصنيف مرتبط بالعملية النقدية بشكلها المتكامل أكثر من ارتباطه بجانب واحد منها علماً بأن تصنيف النثر يمكن أن يتم تبعاً لجوانب المعالجة النقدية التي سبق أن ذكرناها .وتصنيف النثر موضوع مستقل ولكنه يدخل ضمن سياق هذا البحث بالدرجة التي يخدم فيها المنهج النقدي الذي سنعرضه .

ويحتاج الناقد إلى توضيح بعض خصائص النص النثري لنفسه أو القارىء قبل البدء بالمعالجة النقدية . ومن هذه الخصائص المتعلقة بطبيعة النصوص النثرية هي تنوع موضوعاته سواء كانت انسانية بأنواعها المختلفة أو علمية. ويفضل هنا الفصل بين النثر العلمي والنثر التقني ، أي النثر الذي يتعامل مع أفكار علمية مجردة والنثر الذي يشرح تطبيق تلك الأفكار عملياً . كما يفضل

تحديد مستوى النص العلمي حيث إن هناك فرقاً بين مستوى كتابة عالم موجهة لزملائه وبين مستوى كتابة آخر موجهة لقراء مثقفين غير متخصصين، ويفتقرون إلى معلومات كافية عن الموضوع قيد البحث . ويظهر هذا الفرق في المستوى بصورة اساسية في مقومات الأسلوب الذي يستخدمه الكاتب في طرح موضوعه . وهكذا الحال مع نصوص اجتماعية أو دينية تثقيفية بأنواعها ومستوياتها المختلفة . والغرض من تثبيت نوع الموضوع ومستواه هو مساعدة الناقد في تحديد مسار المعالجة النقدية وتنظيم تسلسل جوانبها وتثبيت مايمكن قوله عن كل جانب من جوانب النص النثري .

اضافة إلى ذلك فان المعرفة المسبقة باسم الكاتب تساعد العملية النقدية . فالناقد يقارن النص الذي يتعامل معه مع أعمال الكاتب الأخرى بصورة ضمنية غير مقصودة أو علنية مقصودة . كما تساعد هذه المعرفة المسبقة في تحديد الفترة الزمنية التي كتب فيها النص النثري وخصائص النثر العامة لتلك الفترة التي تركت أثراً معيناً في ذلك النص وعزل ذلك عن المميزات الخاصة لذلك الكاتب .

ونعرض الآن الخطوات التي يمكن أن يتبعها الناقد عند تعامله مع نص نثري :

(١) **الفكرة العامة :** لايمكن للناقد أن يبدأ عمله من دون ادراك واع لخلاصة الموضوع المدون أمامه أو الذي يسمعه . وتشخيص هذه الخلاصة تعني فهماً كاملاً للموضوع ويمكن أن تكون ظاهرة في النص على شكل عبارة أو جملة واحدة أو أكثر كما يمكن استخلاصها من النص وتفاصيله . ويفضل أن يذكر الناقد هذه الخلاصة قبل الانتقال إلى الجانب التالي من النص

(٢) **المادة المستخدمة لطرح الموضوع :** والمقصود هنا هو نوع التفاصيل التي يستخدمها الكاتب لطرح موضوعه والتي يجب على الناقد أن ينتبه اليها. ويمكن لهذه التفاصيل أن تكون أفكاراً جزئية أو مواد محسوسة أو أمثلة وشواهد أو أسماء أدوات أو أماكن أو ظواهر طبيعية أو أشخاص وغير ذلك .

ويختار الكاتب التفاصيل التي يطرح من خلالها أفكاره على الأغلب عن قصد وبصورة واعيه لأنها حسب رأيه تخدم غرضه بشكل أفضل . وأحرى بالناقد أن يفسر اختيار الكاتب لتفاصيل موضوعه على أنها عملية مقصودة لأن ذلك يؤدي به الى معرفة غرض الكاتب بشكل أكثر دقة .

ومعرفة طبيعة التفاصيل التي أختارها الكاتب وملاءمتها لموضوعه قد تفسر لنا درجة خبرته العمليه ومعلوماته النظرية وميوله ومواقفه وأسلوب تفكيره . وقد تكون هذه التفاصيل جميلة أو مؤلمة قبيحة ، مألوفة أو عكس ذلك ، معاصرة أو قديمة .. الخ . كما قد تكون التفاصيل مؤشرات لها مدلولاتها فيما يخص الجوانب الأخرى للنص النثري ويستطيع الناقد المتمرس أن يستفيد منها في تلك المجالات .

(٣) طريقة عرض الموضوع : والمقصود هنا هي الطريقة التي يستخدمها الكاتب في تنظيم التفاصيل في النص النثري والمذكوره في الفقرة الثانية أعلاه وهناك طرق متعددة لتنظيم التفاصيل منها ماهو ثابت عام ومتفق عليه ومنها المألوف او الشائع ومنها الخاص بكاتب معين . كما ان طبيعة الموضوع قد تفرض شكلا عاما لطريقة تنظيم التفاصيل وعرضها . فالبحث العلمي المتخصص مثلا يتبع طريقة ثابته متفقاً عليها. فقبل البدء بالبحث العلمي المتخصص تقدم خلاصة له يفضل قراءتها المختصون في نفس الموضوع اختصارا للوقت ويبدأ البحث عادة بمقدمة تطرح آراء ونتائج العلماء الذين سبق وأن بحثوا الموضوع نفسه . ثم ينتقل الكاتب الى تسمية المواد والأجهزة التي استخدمها في تجربته يليها عرض للطريقة المستخدمة في التجربة . ويشمل الباب الثالث للبحث على النتائج التي حصل عليها الباحث من تجربته بينما يخصص الباب الرابع لمناقشة هذه النتائج ويختتم البحث بتقديم الرأي الخاص للباحث . وعادة هناك ملحق بالمصادر التي أفاد منها الباحث في عمله .

وهناك طرق أخرى مألوفه في تنظيم النصوص النثريه غير العلميه المتخصصة منها أن يبدأ الكاتب بطرح فكرة عامة ينتقل بعدها الى مناقشة احدى جوانبها

عن طريق التفاصيل التي اختارها مع تدعيم مناقشته بالأمثلة والشواهد . ثم ينتقل الى جانب آخر وهكذا ينتهي الى خلاصة شبيهة بالفكرة العامة التي طرحت في بداية النص . وقد يعمد كتاب آخرون الى البدء باعطاء مثل معين أو رواية حادثة خاصة أو عامة تستند عليها المناقشة في مسيرتها لتنتهي الى نتيجة أو رأي يمثل خلاصة البحث أو فكرته العامه .

ويكمن عمل ناقد النص النثري عند مناقشته لطريقة تنظيم التفاصيل في العثور على المسار العام للتنظيم اولاً . وكلما اتضحت معالم هذا التنظيم الدقيقة بانت طريقة تفكير الكاتب وآراؤه وميوله ومواقفه والهدف الذي يسعى إلى تحقيقه . وقلما يلاقي ناقد النص النثري العلمي المتخصص صعوبة في توضيح طريقة تنظيم التفاصيل . فهي واضحة بطبيعتها تتصف بتسلسلها

---

(٦) ولغرض المقارنة يمكن التطرق الى النثر الروائي حيث يسرد الكاتب التفاصيل التي أختارها وينظمها بطرق مختلفه تتحكم فيها شخصيته وخبرته ، كما يتحكم فيها الهدف الذي يسعى الى تحقيقه والنوع الادبي الروائي . وهناك الرواية العلمية والخيالية والواقعيه وغيرها وعلى الرغم من هذه العوامل التي تؤثر في ترتيب التفاصيل الا أن هناك طرقا عامة مألوفه في سرد الرواية وأن اختلفت في بعض الجزئيات كما أن هناك طرقا يمكن ان تنسب الى كتاب معينين .

ويدعونا الحذر هنا الى عدم الخوض بعمق في موضوع تنظيم القصة والروايه وبعكسه فسينتهي بنا الأمر الى مناقشة البنية الخارجيه والبنية الداخليه للنثر الروائي . ولكن الاشارة الى موضوع بنية الرواية يفيدنا في تمييز النثر الروائي عن غيره من أنواع النثر . فالنصوص النثرية العلميـــة المتخصصة أو غير المتخصصة أو تلك التي تبحث في العلوم الاجتماعيه والتاريخية مثلا تملك بنية واحدة فقط الا وهي البنية الخارجيه وذلك لأن هدف الكاتب هو ايصال المعلومات الى القارىء بوضوح ودقة وربما بايجاز وعن أقصر الطرق . وقلما يهتم باثارة مشاعر القارىء أو كسب وده أو اثارة غضبه واشمئزازه او تبيان النواحي الجماليه في الطبيعه أو الغوص في مجاهل النفس البشريه والعلاقات الانسانيه ، وهذه مواضيع أكثر ملائمة للنثر الروائي أو بعض العلوم المتخصصه . وعلى العكس من ذلك يملك النثر الروائي بنية خارجية وأخرى داخلية وهذا يوضح لنا تعدد الاراء النقدية المرتبطة بهذا النوع من النثر .

المنطقي الصارم حيث تستند كل واحدة من مراحل المناقشة على المرحلة التي سبقتها وبذا تشير إلى أسلوب التفكير العلمي العام المتصف بدقته ووضوحه، واهتمامه بالجزئيات . لذا فطريقة تنظيم التفاصيل في نص علمي متخصص لاتوضح شخصية الكاتب أو طريقة تفكيره الخاصة .

وتشير طريقة تنظيم التفاصيل في نص علمي غير متخصص أو نص اجتماعي أو تاريخي إلى أكثر من أسلوب الكاتب وطريقة تفكيره ، فهو يملك حرية محدودة في تنظيم التفاصيل وفي توجيه المناقشة بطريقة ومسار يخدم رأيه الشخصي الذي يريد طرحه . وبالرغم من كون هذه الحرية محدودة ولكنها تختلف في درجتها من كاتب إلى آخر وتبعاً للموضوع قيد البحث ويستطيع الناقد هنا أن يلقي ضوءاً أكبر على شخصية الكاتب وأسلوبه وطريقة تفكيره وآرائه الخاصة .

ويملك كاتب النثر الروائي حرية تكاد تكون مطلقة في تنظيم التفاصيل، لذا فان عمل الناقد يتطلب قراءة مركزة للنص وخبرة أكبر وجهداً أعلى في توضيح طريقة تنظيم التفاصيل ليستنتج منها الأمور التي تستحق المناقشة لغرض طرحها للقارىء أو السامع .

(٤) المناسبة : ونقصد بها الظروف الخارجية الآنية أو المعاصرة التي تفرض نفسها أو تترك بعض الأثر على الكاتب أو المتحدث في آختيار الموضوع وانتقاء التفاصيل وطريقة عرضها وهدفه وأسلوب كتابته . وجميعها تؤثر سلباً أو ايجاباً في فكر القارىء أو السامع وشعوره . كما ترتبط المناسبة بالخلفية التاريخية الثقافية بصورة واعية أو بدون وعي من الكاتب أو المتحدث . ويمكن للناقد أن يبحث عن المناسبة خارج النص النثري الذي يعالجه ليصل إلى درجة في فهمه لجوانب النص أكثر شمولاً ووضوحاً . كما قد يجد الناقد مايشير إلى المناسبة ضمن سياق النص أو عن طريق عنوانه أو هوامشه .

والمناسبة تحدد اختيار الموضوع وانتقاء التفاصيل إلى درجة كبيرة . فما

يقال في احتفال جماهيري بمناسبة يوم معين مثل يوم الجامعة أو يوم العمال أو يوم يرتبط بمناسبة سياسية أو اقتصادية يجب أن يرتبط بالمناسبة وهذا ما يتوقعه السامع . وانتقاء تفاصيل ذلك الموضوع يتأثر بكافة الجوانب الأخرى. فطريقة تفكير المتحدث وطبيعة شخصيته ودرجة ثقافته وغرضه واسلوبه والفترة الزمنيه التي يعيشها هو ومستمعوه ونوعية المستمعين الثقافية والاجتماعية وعددهم والمكان الذي يتحدث فيه وغيرها من الامور المتفرعة أو المتعلقة بهذه الجوانب كلها عوامل تؤثر في انتقاء التفاصيل . كما تؤثر كافة هذه الجوانب بعضها على البعض الآخر عند تعلق الامر بالمناسبه . وخلاصة القول أن انتقاء التفاصيل يتأثر بالعوامل المذكورة اعلاه كما تحدد هذه العوامل نوع التفاصيل وطبيعتها التي يشير اليها المتحدث في كلامه . وفي كلتا الحالتين يكون دور المناسبة حاسما .

والجوانب التي حددناها عند معالجة نص نثري تتأثر باثنين من مقومات المناسبة بصورة خاصة ، أي عنصر الزمن الآتي وما يثيره من عواطف أحيانا على التفكير الموضوعي المتزن للمقاله أو البحث . كما يلعب المكان الذي ينشر فيه البحث دورا في تحديد طبيعة ومستوى ونوع الجوانب المختلفة للنص النثري . ونقصد بالمكان الجهة التي تنشره وموقعها الجغرافي . وعلى الناقد أن ينتبه الى هذين العاملين ويتعامل مع جوانب النص المختلفة بشكل يبرز تأثيرهما تبعا لما يراه مناسبا . ويفضل أن يكون الناقد موضوعيا في تعامله مع النص ولكن خبرته النقدية ودرجة تمرسه في عمله تزودنا في نهاية المناقشة برأي شخصي يستند الى التعامل الموضوعي .

ومقارنة بما ذكرنا أعلاه تلعب المناسبة دورا ثانويا في معالجة نص يبحث في احدى المسائل المتخصصة المتعلقة بعلم الأدوية مثلاً . فالمناسبة هنا قد تكون استمرارا لبحوث سابقة حول نفس المسألة أو رغبة الكاتب في تحقيق هدف قد يكون شخصيا أكثر منه عاما أو غيرها من الأمور الثانوية التي يمكن للناقد إهمالها بدون ترك أثر يذكر على نوعية معالجته للنص .

(٥) **الهدف** : ويقصد به الهدف الذي يبغي الكاتب أو المتحدث تحقيقه. ويرتبط الهدف بالفكرة العامة التي يطرحها الكاتب ارتباطا عضويا وهذا شيء بديهي. والدقه والمهارة في اختيار التفاصيل وطريقة عرضها تخدم غرض الكاتب الى حد بعيد وبالتالي تترك أثرها في القارىء أو تقرر درجة استجابته لما يقرأه أو يسمعه. كما أنها تحدد نوعية استجابته سواء كانت فكرية أو عاطفية أو كليهما معا.

كما يرتبط الهدف بالأسلوب ويعتمد ذلك على مهارة الكاتب أو المتحدث في استخدام اللغة ودرجة خبرته وسعة اطلاعه واذا كان هدف الكاتب اثارة مشاعر قرائه اختلف أسلوبه عن ذلك الذي يستخدمه كاتب آخر يشرح معلومات تفصيلية في موضوع متخصص. وبين هذين الأسلوبين نجد من يمزج هذا بذاك: اي الأسلوب الذي يثير العواطف والآخر الذي يشرح المعلومات. فعندما يتحدث كاتب ما عن مخاطر تلوث البيئة أو الانفجار السكاني أو عواقب الاشعاعات النووية ويحاول ان يخاطب أكبر عدد من القراء المثقفين يستطيع الوصول اليهم فاننا نتوقع منه ان يستخدم الأسلوب المختلط اي الأسلوب الذي يقدم المعلومات ممزوجاً بما يثير العواطف. وفي هذه الحالة نتوقع أن يحقق الكاتب غرضه بدرجة عالية من النجاح بشرط أن يكون ماهراً في استخدام اللغة ودقيقاً في اختيار التفاصيل وطريقة عرضها.

والبحوث التي تنشر في المحيط الاكاديمي أياً كان موضوعها تحدد هدفها في المقدمة قبل ان يبدأ كاتبها في عرض التفاصيل. وتحديد الهدف هنا أمر متفق عليه. ولكن غالبية النصوص النثرية تقع خارج نطاق المحيط الاكاديمي. فكاتب المقالات في حملة جماهيرية أو في صحيفة يومية مثلاً قلما يحدد هدفه وكما لا نتوقع ولا نرغب ان يحدد كاتب الرواية أو القصة هدفه لأن ذلك متروك للقارىء كي يجده. وفي النثر الروائي تمتزج الفكرة العامة أو خلاصة الموضوع بالهدف ومع ذلك يمكن عزله اذا كان امراً دعائياً توجيهياً أو اثارة الغرائز فقط. ويفضل الاكتفاء بما ذكرناه عن النثر الروائي

والا وجدنا انفسنا ندخل معترك النقد الأدبي من باب واسع. وبالنسبة للبحوث أو النصوص النثرية التي تحدد هدفها بشكل صريح في البداية يكون واجب الناقد واضحاً، فهو يتابع النص النثري الى نهايته ليقرر درجة نجاح الكاتب في تحقيق هدفه. ويواجه الناقد صعوبة مع النصوص التي لا تحدد هدفها بصراحة أو أن يكون الهدف كامناً بشكل ضمني في سياق النص أو أن يكون غامضاً. ويستطيع الناقد أن يقرر مع نفسه أو علنا أن النص النثري الذي يتعامل معه لا يستحق الجهد المبذول لايجاد الهدف الضمني أو الغامض. ولكن هناك نصوصاً نثرية تجزي الناقد على الجهد الذي يبذله في ايجاد الهدف وتقرير مدى نجاح الكاتب في تحقيق ذلك.

(٦) الكاتب : يمكن للناقد ان يعالج قضية ظهور الكاتب في النص النثري. وقد يعرفنا الكاتب بنفسه أو باسمه أو أن يذكر لنا جانبا من حياته أو تجربة شخصية لها علاقة بموضوعه. ويمكن ان يحجب عنا كل ذلك ويترك لنا سماع صوته فقط سواء كان ظاهرا أو مكتوما ويبقى لنا خيار تصوره او تقييمه عن طريق موضوعه والتفاصيل التي يختارها وطريقة عرضه لها أو عن طريق اسلوبه. وفي النصوص النثرية هناك تطرف في وجود الكاتب ضمن النص. ففي احدى النهايات من الكتابة النثرية توجد السيرة الذاتية حيث تملأ حياة الكاتب وشخصيته وافكاره ومشاعره كافة جوانب النص النثرى. وفي النهاية الاخرى توجد البحوث العلمية التي تتشابه الى حد بعيد في طريقة عرض تفاصيلها وأسلوبها (ويشمل ذلك المفردات الأساسية التي تشترك فيها غالبية البحوث، والمفردات المتخصصة والمتعلقة بموضوع البحث: وبعض صيغ الأفعال وتراكيب خاصة للجمل وطريقة ربطها) ونوعية قراءتها. وتتميز هذه البحوث بتسلسلها المنطقي المدرج والمترابط وبموضوعيتها الصارمة حيث تختفي شخصية الكاتب بصورة شبه كاملة مع اختفاء الأسلوب المتميز على الرغم من وجود رأي خاص في نهاية البحث أو في مطالعه.

ومسأله علاقة الكاتب بأساليبه معروفة وإن اختلفت حولها الآراء. وسوف

نناقشها تحت باب الأسلوب . ونكتفي هنا بالاشارة الى واجب الناقد عند حديثه عن الكاتب . فما يخبرنا به الكاتب عن نفسه يجب ان يؤخذ كما هو دون مقارنته بحياته الواقعية كما هو مدون مثلا في سيرة حياته . والسبب في ذلك يكمن في أن للكاتب هدفا في تقديم هذه المعلومات عن سواء حياته كانت تنطبق مع الواقع أم لا . كما انها جزء من التفاصيل التي يستخدمها الكاتب في طرح موضوعه . وهذا يؤدي بنا الى تمييز ما يخبرنا به الكاتب عن حياته من كونها معلومات مفيدة عن شخصيته أو كونها جزء من تفاصيل مادته . والناقد المتمرس يستفيد من هذه المعلومات على أنها جزء من التفاصيل تكشف عن شخصية الكاتب حين يربطها بالجوانب الأخرى للنص النثري . واذا طبقنا هذه القاعدة على نصوص من السيرة الذاتية فيجب على الناقد ان يتعامل مع ما يقوله الكاتب على أنها تفاصيل لمادته عدا تلك الأجزاء التي تتطابق مع ما ورد عنه في سيرة حياته بعد أن تم التثبت منها . وكتب السيرة ذاتية بطبيعتها ، تفتقر في أحيان كثيرة الى الموضوعية . لذا فهي قريبة الى الأدب الروائي حيث يمثل الكاتب فيها الشخصية البارزة .

وتعامل الناقد مع النصوص العلمية المتخصصة التي تتشابه إلى حد كبير في معظم جوانب النثر التي ذكرناها قد تفرض عليه أجراء بعض التعديل في الطريقة النقدية التي نناقشها هنا. فأمامه نص فكرته العامة واضحة والتفاصيل بارزة والهدف مذكور وشخصية الكاتب مختفية ودرجة ثقافته وتخصص القراء تكاد تكون معروفة، فماذا يستطيع أن يقول؟ ان معالجة طريقة تنظيم التفاصيل التي سبق أن ذكرنا أنها عامة ومتفق عليها، ومناقشة خصائص الأسلوب العلمي قد تعطي مردوداً ثميناً يمكن تعميمه على النصوص المشابهة .

ونعود إلى فكرة تطرف وجود الكاتب ضمن النص. فهنالك نصوص نثرية تبتعد أكثر فأكثر عن السيرة الذاتية أو عن النثر العلمي المتخصص لتكون جزءاً مهماً يقع بين النقيضين. وفيما يتعلق بالنثر غير الروائي يستطيع الناقد أن يصغي إلى صوت الكاتب الذي يبرز بشكل خاص من خلال أسلوبه. وهذا

الصوت يمكن أن يكون واضحاً مباشراً أو مكتوماً. وقد يكون متستراً وراء شخصية تتحدث ضمن النص أو عن طريق الأسلوب وذلك باستعمال ضمير الغائب أو صيغ أفعال وتراكيب لجمل معينة. كما يستطيع الناقد أن يصغي الى هذا الصوت ليرى مدى قربه منه أو بعده عنه وعندما يفكر الكاتب في قرائه ويحاول أن يصل اليهم يكون أسلوبه مألوفاً أو ودياً. واحدى السبل المتبعة لتحقيق هذا الغرض هي أن يروى لهم حادثة شخصية مسلية ترتبط بالأسلوب الودي لتنفذ إلى قلب القارىء وتقربه من الكاتب. وعمل الناقد هنا هو ان يقرر مدى قرب الكاتب من القارىء استناداً إلى مناقشة التفاصيل وطريقة عرضها وخصائص الأسلوب .

وعندما يستطيع الناقد أن يحدد هدف الكاتب ومدى نجاحه في تحقيق ذلك الهدف، وبعد أن أتم تحديد وجود الكاتب ضمن سياق النص ونوع صوته ودرجة قربه من قرائه يستطيع الناقد عندئذ أن يصدر حكمه عما يراه مناسباً أو هاماً عن الكاتب بدرجة معقولة من الموضوعية .

(٧) القارىء : تكمن أهمية القارىء أو السامع في أن الكاتب يكتب على الأكثر لكي يُقرأ ويتحدث لكي يُسمع، فهو اذن جزء من هدف الكاتب. والقارىء أيضاً هو الناقد وأن اختلف الناقد المحترف بسعة اطلاعه ودرجة خبرته ومهارته في عمله عن القارىء الذي لا يقرأ قراءة نقدية. واستجابة القارىء (ويجب على الناقد هنا ان يأخذ بنظر الأعتبار عدد القراء ومستوى ثقافتهم ودرجة اهتمامهم بما يقرأون) سواء كانت فكرية أو عاطفية أو كليهما معا ونوعها ودرجتها . هذه الاستجابة قد تحدد مدى نجاح الكاتب في عمله .

ويتطابق الجانبان الهدف والقارىء اذا كان غرض الكاتب هو الاقناع أي اذا كان غرض الكاتب هو اقناع القارىء بقبول ما يطرح من أفكار . ويدخل الأسلوب هنا كطرف ثالث وذلك لأن حالة كهذه تتطلب ميزات اسلوبية معينة . ويستطيع الناقد أن يعالج هذه الجوانب مجتمعة . ويفترق الهدف عن القارىء عندما يطرح الكاتب معلومات محددة او آراء معينة بموضوعية

جامدة وبطريقة منطقية متسلسلة صارمة ، حيث ينصب اهتمام الكاتب على مادته دون التفكير بالقارئ أو أسلوب كتابته . وفي هذه الحالة هناك القليل مما يستطيع الناقد قوله عن القارئ .

والناقد هو أحد القراء وان اختلف عن القارئ العادي . واذا استطاع الناقد أن يضع نفسه مكان القارئ غير المتمرس في النقد فعندئذ يمكنه ان يلتقط تلك الانطباعات الفكرية والعاطفية العفوية عند قراءته الاولى ويبدأ معالجته النقدية منطلقا منها .

واستجابة القارئ ونوعها ودرجتها من الأمور الهامة يرغب الناقد في معالجتها فحين يضع نفسه موضع القارئ العادي ويلتقط الانطباعات الاولية العفوية يكون قد حصل على ركيزة ثمينه ينطلق منها في معالجته النقدية مستخدما اطلاعه الواسع وخبرته ومهارته في تطوير تلك الانطباعات لتتحول تدريجيا الى أفكار وآراء تساعد القارئ على فهم أبعاد النص النثري المختلفة وما خفي عليه . وسواء كانت استجابة القارئ سلبا أم ايجابا ، قوية ام خفيفة ، فكرية ام عاطفية ، فعلى الناقد أن يوضح ذلك اضافة الى الأسباب التي تكمن في النص نفسه والتي أدت الى نوع تلك الاستجابة ودرجتها .

ويستطيع الناقد ان يناقش مسألة درجة قرب القارئ من الكاتب في هذا المجال ومن زاوية أخرى غير التي أشرنا اليها سابقا . فعند معالجة نص نثري تأملي يمكن القول بأن الكاتب يسجل خواطره لنفسه وليس لاطلاع الآخرين عليها . ونتوقع في حالات كثيرة ان يترك الكاتب العنان لفكره وعاطفته وخياله ليسجل ما يكمن في ذاته من أمور تشبه الأسرار الشخصية في طبيعتها . ونتوقع ان يشعر القارئ عند اطلاعه على هذه الخواطر بأنه قريب من الكاتب لدرجة الألفة والمودة . وقد يشعر القارئ بالقرب من الكاتب عند قراءته نصا نثريا يختلف تماما عن النثر التأملي . ففي نص نثري يناقش فيه الكاتب مسألة عامة مثل السياحة والاقتصاد القومي يمكن أن يعمد الى سرد حادثة شخصية مسلية في مطلع حديثه وبذا يثير اهتمام القارئ ويقربه منه . وهنا

يجب ان نتساءل عن السر في قرب القارىء من الكاتب في هاتين الحالتين . فنحن هنا أمام نصين نثريين يختلفان في فكرتهما العامة واسلوبهما وهدفهما ، كما يختلفان في المناسبة وفي طريقة تنظيم التفاصيل وعرضها . والناقد الجيد يستطيع أن يعالج مسألة قرب القارىء من الكاتب عن طريق المقارنة بين نص وآخر ، أو أن يركز اهتمامه على استجابة القارىء مع ربطها بجانب أو أكثر من جوانب النص النثري .

وعدد القراء ومستوى ثقافتهم والشرائح الاجتماعية التي ينتمون اليها والقراء الذين يثير اهتمامهم نص نثري معين كلها أمور يمكن ان تترك أثرا في طريقة معالجة الناقد لذلك النص او في آرائه واحكامه عنه ،خاصة اذا ارتبط ذلك النص بمناسبة معاصرة خلافا لنص ذي بعد زمني ، أي قد مضى على كتابته فترة زمنية كافية تمنح للناقد حرية أكبر ليكون موضوعيا (ومتاثرا بأفكار عصره ، أي ذاتياً او متحيزاً في الوقت نفسه) بدرجة أكبر عند معالجته للنص الثاني .

(٨) الاسلوب : هناك تعاريف متعددة للأسلوب تختلف عن بعضها تبعا للباحثين الذين طرقوا هذا الموضوع والأسس أو المنطلقات التي اعتمدوها في فهمهم وشرحهم له . وما يهمنا هنا هي الطريقة التي يتبعها الناقد في معالجته للأسلوب فاذا كان الاسلوب هو الرجل ارتبطت شخصية الكاتب بطريقة كتابته بشكل وثيق مما يؤدي بالناقد الى التأكيد على هذه الصلة واهمال الجوانب الاخرى من النص النثري .

واذا حاول الناقد ربط معالجته الكاملة للنص النثري بمفهوم « الأسلوب هو الرجل » أدى به ذلك الى التأكيد على الأسلوب واهمال الجوانب الاخرى من النص ، كما قد يؤدي به في النهاية الى مناقشة امور ترتبط بشخصية الكاتب وتقع خارج نطاق النص النثري حيث تكون فائدتها في توضيح جوانب النص الاخرى محدودة .

والمهم هنا هو ان يتبع الناقد طريقاً واضحاً ثابتاً في معالجة الأسلوب يتحاشى

فيه المزج العشوائي بين أكثر من منطلق واحد أو بين معالجة نقدية وأخرى والناقد المتمرس يعالج الاسلوب بالطريقة التي تلائم النص أكثر من غيرها . ولنضرب مثلا على ذلك . فالطلب الذي يقدمه موظف ما الى رئيس دائرته. يختلف في اسلوبه عن الرسالة التي يكتبها الموظف نفسه الى صديق له. واختلاف الأسلوب هنا ناتج عن عدة اسباب .فالمناسبة التي ادت الى تقديم الطلب تختلف عن تلك التي ارتبطت بكتابة الرسالة . كما ان علاقة الموظف برئيسه تختلف عن علاقته بصديق ، وبعبارة اخرى تختلف المسافة بين الموظف ورئيسه عن تلك التي نفترض وجودها بين نفس الموظف وصديقه . والمسافة هنا ليسب جغرافية وانما اجتماعية او عاطفية. وهنالك الهدف أو الغرض من كتابة الطلب أو الرسالة الذي يؤثر في اسلوب كل منهما تبعاً لذلك . كما ان موضوع الطلب أو الرسالة قد يؤثر في الأسلوب .

ان هذا المثل يوضح لنا كيف أن الغموض يكتنف قضية ربط الأسلوب بشخصية الكاتب . لذا فعلى الناقد ان يأخذ بنظر الاعتبار المناسبة ، والمسافة بين الكاتب والقارىء ، والغرض ، والموضوع مع ملاحظة أي من هذه الجوانب أكثر تأثيراً في اسلوب النص النثري .وهذا يعني أن على الناقد اتباع الطريقة النقدية الأكثر ملاءمة لذلك النص.

ونود أن نتطرق الى احد مفاهيم الأسلوب . ان الافكار والمشاعر والتأملات والاحداث هي أمور معزولة أو غير ملموسة ولا يمكن ان تصل الينا الا عن طريق الشكل أو اللغة . والشكل هو التفاصيل العامة بينما الاسلوب هو الخصائص الدقيقة المميزة لتلك اللغة ـ كتابة كانت أم حديثاً . وأمام الكاتب اختيارات غير محدودة من انواع الشكل والأسلوب يستطيع من خلالها نقل الافكار والمشاعر والتأملات والاحداث الى القارىء . واختيار الكاتب لأحد هذه الأنواع من الاساليب يمكن أن يكون عفوياً او مقصوداً ـ أي اختيار بدرجة من العناية أو بشيء من عدم المبالاة .

والعناية في الاختيار والاختيار المقصود الواعي لنوع الأسلوب يمكن أن يساعد الكاتب على تحقيق هدفه بشكل أكثر دقة من الاختيار العفوي وان كانت هناك حالات لا تنطبق عليها هذه القاعدة . ويستطيع الناقد هنا أن يفترض عدم عفوية أو عدم مبالاة في الاختيار الا اذا كان ذلك صفة واضحة في النص . والأجدر بالناقد أن يعالج الأسلوب على أنه اختيار مقصود للكاتب .

ويمكن للناقد أن يبدأ بمناقشة عناصر الأسلوب التي تظهر بوضوح في النص النثري الذي يعالجه . وتختلف أهمية بعض هذه العناصر من نص الى آخر غير أنها يجب ان تشمل الامور التالية :

أ — المفردات

ب — طريقة ترتيب المفردات في وحدات لغوية مثل العبارات والجمل

ج — نبرة النص النثري

من المعلوم أن المفردات هي رموز لأشياء معينة وليست الاشياء بحد ذاتها، لذا تملك هذه الرموز معان يمكن أن تكون حرفيه أو ترتبط بقرائن أو دلالات موجودة مسبقا في ذهن القارىء ويمكن تحديدها ضمن سياق النص . (١) ويمكن لهذه المعاني والقرائن ان ترتبط بأمور فكرية أو عاطفيه ، خيالية او جمالية ، ملموسة أو مجردة . ومعاني المفردات وقرائنها ليست وحدها موضع اهتمام الناقد فهناك عنصر الصوت الذي تحمله المفردات حيث تبرز أهميته للسامع أكثر منها للقارىء . ويرتبط صوت المفردات بقرائنها أكثر من ارتباطه بالمعنى .

ويهتم الناقد بالدرجة التي تكون فيها المفردات مألوفة لدى القارىء . أي بدرجة قربها من خبرة القارىء وثقافته وتجاربه وميوله فهناك المفردات القديمة التي لاترد في لغة الفترة الزمنيه التي يعيشها الناقد أو القارىء ،وهناك المفردات قليلة الاستعمال او تلك المرتبطة بعلم معين ولها معان خاصة مرتبطة

(١) نقصد هنا بالمعنى المفهوم الأساسي والدلالة أو القرينة المفهوم الأضافي الثانوي .

بذلك العلم . وترتبط المفردات المألوفة لدى غالبية القراء بتجاربهم ارتباطا وثيقا . وكثرة استعمال نوع معين من الأنواع هذه في نص نثري يساعد الناقد على تشخيص أحد عناصر أسلوب النص الذي يعالجه . ومع ذلك يجب أن لاننسى أن المفردات سواء كانت مألوفة أو عكس ذلك ونوع القرائن المرتبطة بها وطبيعة صوتها تترك انطباعا وتأثيرا يختلفان من قارىء الى آخر أو من ناقد الى آخر تبعا لدرجة ثقافته وخبرته وتجاربه وميوله . وتبرز هذه الاختلافات في أحكام النقاد على النص النثري وهو أمر طبيعي .

ودراسة المفردات من نواحيها المختلفة لا يعطي صورة كاملة عن الأسلوب ولا بد من النظر الى طريقة ترتيبها في وحدات لغوية مثل العبارة أو الجملة وتكتسب المفردات قيمة صوتية ضمن العبارة أو الجملة تختلف عن قيمتها عندما تلفظ بشكل مستقل .وتتابع اصوات المفردات أو أجزائها يؤلف تفعيلة من نوع خاص مرتبط بطبيعة النثر تختلف عن تلك التي نجدها في الشعر عادة .وتنتج تفعيلة الوحدة النثرية أو موسيقاها عن طريق ترتيب المفردات ضمن تلك الوحدة. وتترك تفعيلة الوحدة النثرية اثرا في المعنى أو في الدلالة . وعندما يتكرر التركيب اللغوي ذو التفعيلة المتشابهة بشكل متواز أو متسلسل يكون تأثير التكرار في المعنى أو الدلالة أكبر . ولا يمكن الخوض هنا في تفاصيل هذه النقاط لتشابكها وتعدد أشكالها ويأتي هنا دور الناقد ليشخص تفاصيل النقاط المذكورة ضمن النص النثري حيث تبرز بعض منها كما قد تبرز غيرها في نص مختلف ويستنتج الناقد رأياً مما قد يجده من تفاصيل يتحول الى حكم على الأسلوب عند ربط هذا الرأي برأيه عن المفردات

وتؤلف الصور اللغوية أو التعابير البلاغية جانباً هاماً من الأسلوب وتداولها في النص النثري بنحو ما قد يعد من خصائص أسلوب معين واستعمالها بشكل آخر نوع مغاير من الأسلوب . وقد تحتوي الصورة اللغوية او التعبير البلاغي على اكثر من دلالة واحدة كما تكون وسيلة لتكثيف المعنى ضمن مفردات محدودة او للتأكيد عليه تبعاً لطريقة ترتيبها في الوحدة النثرية . وفي الوقت نفسه تمتلك هذه

الصورة أو ذلك التعبير قيمة جمالية تكمن أهميتها في ذاتها أو في مدى تأثيرها العاطفي أو فيما توحيه من افكار تكمن في ثناياها.

وتبرز نبرة النص النثري كمحصلة اندماج نوع المفردات مع طريقة ترتيبها واستخدام الصور اللغوية والتعابير البلاغية . كما تبرز كنتيجة لطبيعة العلاقة بين المعنى والدلالة أو بين القيمة الصوتية للرمز ومعناه أو دلالته . ويشعر الناقد المتمرس بالنبرة بوضوح ويشخصها بسهولة ولكنه لايستطيع دائماً وبنفس السهولة ان يجد الطريقة المثلى لمعالجتها أو ان يعالج الطريقة التي اتبعها الكاتب في بلورتها سواء كانت تلك الطريقة متكلفة أم عفوية . وقد تكون نبرة النص النثري جدية أو هزلية صارمة أو وقحة. هجائية أو مادحة، غامضة أو صريحة ، ولكنها في جميع الاحوال تنطوي على خلاصة للمعنى والدلالة ومؤشراً واضحاً لنوع الأسلوب النثري .

(٩) الخلفية التاريخية والاجتماعية والثقافية : هناك تأثير واضح للفترة التاريخية التي ينتمي اليها نص نثري تظهر فيه على الرغم من محاولة الكاتب المقصودة او العفوية ان يكون اصيلا ومبدعا . والفترة التاريخية ، طالت أم قصرت ، هي تلك التقاليد والممارسات العامة التي ينتهجها الكاتب بتوافق غير مقصود حيث تؤثر عليه وتطبع كتاباته بمميزات معينة. ويمكن للقارىء أن يحدد الفترة الزمنية التي ينتمي اليها نص نثري حين تتضح له هذه المميزات . كما يستطيع أن يحدد طبيعة المجتمع ودرجة ثقافة أفراده ووضعه السياسي أو الديني سواء كانت تلك المميزات متعلقة بالموضوع أو المادة المستخدمة أو طريقة عرضها أو هدف الكاتب أو أسلوبه .

وعلى الناقد أن يراعي التقاليد والممارسات المرتبطة بطريقة الكتابة النثرية ضمن فترتها الزمنية عند معالجته لها . ومن المفضل عدم تطبيق تقاليد وممارسات فترة زمنية اخرى عليها لأن ذلك يخرجها من اطارها التاريخي ويبرز فيها عيوبا او مميزات غير موجودة فيها اصلا كما أن ذلك قد يقود الناقد الى أساءة فهم هدف الكاتب . والمقصود هنا هو اتباع المنهج التاريخي في النقد عند

معالجة نص نثري ينتمي الى فترة زمنية سابقة . ومع ذلك فللمنهج التاريخي مثاليه حيث أن التشدد في اتباعه يحرم القارىء المعاصر من الاستجابة الواعية للنصوص النثرية القديمة ولا يسمح باختصار المسافة الزمنية بين الكاتب والقارىء أو بين التراث والمعاصرة .

ويمكن استكمال المعالجة النقدية بمراعاة الطرق المعاصرة والقيم المألوفة في الوقت الحاضر وعندها يمكن للنص النثري أن يفسر لنا طبيعة المجتمع الثقافية والسياسية والدينية والفكرية في الفترة الزمنية التي ينتمي اليها ذلك النص وتثبيت التقاليد والممارسات في الكتابة النثرية لتلك الفترة كما يمكن في الوقت نفسه أن نسمح للنص النثري أن يخاطب القارىء المعاصر بصورة مباشرة ومن مسافة قريبة .

خلاصة :

ان ما عرضناه أعلاه هو مجرد اقتراحات قد تكون مفيدة في مجال نقد النصوص النثرية . وقلنا أنه عند معالجة نص نثري غير روائي يفضل أن يعتبر الناقد النص بحد ذاته كأساس يستند عليه في تثبيت منهجه النقدي . وهذا المنطلق يسمح بتقديم معالجة نقدية متوازنة لكافة جوانب النص أو أن تفرض احدى ميزات النص البارزة نفسها على الناقد حيث يعالجها بتركيز أكبر . والجوانب التي يمكن أن يعالجها الناقد هي الفكرة العامة والمادة المستخدمة لعرض الموضوع وطريقة تنظيم المادة والمناسبة والهدف والكاتب والقارىء والأسلوب والخلفية التاريخية والاجتماعية والثقافيه . وتتداخل هذه الجوانب مع بعضها عند معالجتها ولكن التكرار هنا يجعل ما يقوله الناقد متكاملا . ومهما حاول الناقد أن يكون موضوعيا فأن رأيه النهائي عن النص النثري ذاتيا بطبيعته لأنه يمثل رأيا شخصيا على الرغم من موضوعية المنهج . والاختلاف في الآراء النقدية وتعددها يعطي وزنا أكبر لأهمية النص كما أن الاختلاف في المناهج النقدية قد يمنحنا فرصا أكثر في التعرف على طبيعة النثر .

من بواكير المسرح الشعري العربي
الحارث
لخليل طنوس باخوس

د. فائق مصطفى أحمد
كلية التربيـــة / جامعة الموصل

تمهيد

هذا بحث يتناول بالتعريف والدراسة مسرحية شعرية عربية صدرت في عام ١٨٨٧، كاد الباحثون في تاريخ الادب المسرحي العربي يجهلونها. انّ مسرحية (الحارث) التي نظمها خليل طنوس باخوس (من القطر اللبناني) هي — فيما اعلم — ثاني مسرحية شعرية عرفها المسرح العربي الحديث بعد مسرحية خليل اليازجي (المروءة والوفاء) الصادرة في عام ١٨٧٦. بالرغم من ذلك لم أعثر فيما كتب عن تاريخ المسرح العربي على ايّ ذكر او اشارة للمسرحية، خلا الاشارة غير الدقيقة التي وردت في الكتب البيلوغرافية لاسعد يوسف داغر. ففي كتابة (الأصول العربية للدراسات اللبنانية) يذكر داغر ناظم المسرحية كاتبا مسرحيا من كتاب المسرح اللبناني، ويذكر له هذه المسرحية ويسميها (الحارث ملك نجران) ومسرحية اخرى هي (حلم فيقظة)(١) ويعود داغر إلى ذكر المسرحية ثانية في معجمه (معجم المسرحيات العربية والمعربة) حيث يقول (الحارث ملك نجران... شعرية في ٣ فصول، تأليف خليل طنوس باخوس، وضعها سنة ١٨٨٧، ط١، بيروت ١٨٨٧.

ط٢ بيروت ١٩١٠ في ٦٦صفحة.)(٢) في حين ان عنوان المسرحية هو(الحارث) وليس (الحارث ملك نجران) * وذكر المسرحية ايضا لنداو في فهرسه معتمدا على داغر.(٣) اما الباحثون الذين ارخوا للمسرح العربي او الذين درسوا الادب المسرحي العربي فلم يذكروا المسرحية قطّ. فالدكتور محمود حامد شوكت لم يشر إلى المسرحية في كتابيه (المسرحية في شعر شوقي) و (الفن المسرحي في الادب العربي الحديث) وذهب إلى ان شوقي (أول رائد وضع اساس الشعر التمثيلي الراقي) (٤)

وتناول الدكتور محمد يوسف نجم في كتابه (المسرحية في الادب العربي الحديث) بالعرض والتحليل عددا كبيرا من المسرحيات التي صدرت في القرن التاسع عشر، دون ان تكون بينها هذه المسرحية. ويقول عمر الدسوقي مشيرا إلى المحاولات الاولى في المسرح الشعري العربي(ان شوقي لم يبتدع المسرحية الشعرية العربية ، وليس اول من ذلل الشعر العربي للمسرحية فقد سبقه في ذلك اليازجي ، كما ان البستاني مترجم الالياذة قد نوع كثيرا في بحور الشعر وقوافيه وهو يترجم تلك القصة الطويلة التي جاءت في احد عشر الف بيت . وقد نشرت لاول مرة سنة ١٩٠٤. وكذلك حاول بعض كتاب المسرحية على اسلوب المقامة ان يجروا الحوار شعرا احيانا..)(٥) كذلك ذكر محسن اطيمش طائفة من المسرحيات الشعرية العربية في القرن التاسع عشر في حديثه عن بواكير المسرح الشعري العربي ، لكنه لم يذكر مسرحية (الحارث)(٦). اما الدكتور علي الراعي فيقول (بدأت المسرحية الشعرية في المسرح العربي حين اخرج احمد شوقي للناس مسرحياته السبع التي احدثت ضجة كبرى في حينها واعتبرت فتحا كبيرا في المسرح(٧).

أما ناظم المسرحية فقد بحثت عن ترجمته في كتب التراجم والاعلام وتاريخ الادب العربي فلم اجد فيها شيئا ذابال. ان هذه الكتب تغفل ترجمة طنوس مثل (تاريخ آداب اللغة العربية) لجرجي زيدان . و(معجم المطبوعات العربية والمعربة) ليوسف اليان سركيس ، و (الاعلام) للزركلي . و (الادب

العربية في القرن التاسع عشر) للويس شيخو ، و (مصادر الدراسة الادبية) لاسعد يوسف داغر. ولعل عمر رضا كحالة ان يكون الوحيد الذي ترجم لناظم المسرحية في (معجم المؤلفين) حيث يقول(خليل طنوس باخوس (.....١٣٣٩هـ) (....١٩٢١م) قصصي له روايات.)(٨) اضافة إلى تاريخ وفاته الذي يذكره داغر وهو ١٩٢٤(٩) . هذا كل ما استطعت العثور عليه من معلومات تتعلق بترجمة ناظم المسرحية.

لكن ثمة حقائق اخرى نعرفها عن طنوس وردت في المقدمة التي كتبها للمسرحية فمن هذه الحقائق ثقافته المسرحية ، اذ يبدو انه ملم بتاريخ المسرح واصول وقواعد المسرحية. ولعل مايؤيد ذلك قوله في المقدمة (اما بعد فان فن الروايات لم يزل متقهقرا في هذه البلاد ولم يتيسر له ان يدرك من الكمال المبلغ الذي وصل اليه في الديار الاوربا وية. وقد كنت احب الان ان اخوض في الكلام عن اصله وكيفية انشائه والاغراض التي وضع لها ولكن لما كان الاعاجم قد شحنوا كتبهم من هذه المباحث واطالوا فيها بما لا مزيد عليه لكاتب لم اجد حاجة إلى ذلك ولا سيما مع حالة هذه الايام وبراعة الخاصة من شباننا في لغات الاجانب . ومن ثم كان لابد لكل من شاء الوقوف على نجاح هذا الفن والاطلاع على تقلباته ان يراجع كتابات الاقدمين من اليونان واللاتين ويقابلها بتأليف المتأخرين من الفرنسيس والانكليز فيظهر له الفرق وتتجلى لبصيرته الحقيقة .) (١٠)

يضاف إلى ذلك تواضعه الجم . نلمس هذا في قوله (....ولذلك قد عنّ لهذا العاجز ان يتطفل على اهل النظم بهذه الرواية الشعرية منظومة في ثلاثة فصول كنت اتعلل بها في ماتسنى لي من اوقات الفراغ وايام العطـــل . ومرجوي ممن يتكرم بمطالعتها من اهل النظر الاغضاء عما يجده من الخلل فاني معترف بقصوري وما الكمال الا لله . » (١١)

ومن المحتمل ان تكون المسرحية نظمت لتمثل في المدارس المسيحية في لبنان في الربع الأخير من القرن التاسع عشر . اذ (كانت حفلات المدارس

التبشيرية والدينية والاعياد مناسبات طيبة تعرض فيها مسرحيات تؤلف للوعظ والتهذيب ويعكف على تأليفها عادة رجال الدين او اساتذة المدارس.) (١٢).

ويبدو ان خليل طنوس نظم مسرحيته هذه مقتديا بخليل اليازجي في مسرحيته (المروءة والوفاء) الصادرة في عام ١٨٧٦ التي كانت (نموذجا احتذاه كثير من الكتاب سواء في الاطار الفني الشعري او في الاطار التاريخي العام .) (١٣) وذلك لان كلتا المسرحيتين بنيتا على واقعة تاريخية مسيحية واعتمدتا على اسلوب الشعر ، وفيما يأتي دراسة مفصلة عن المسرحية :

— موضوع المسرحية —

ان موضوع المسرحية واقعة تاريخية استمدها طنوس من تاريخ العرب قبل الاسلام وهي غزو الملك الحميري ذى نواس مدينة نجران بهدف القضاء على النصرانية فيها . واغلب الظن انها هي الواقعة التي يشير اليها القرآن الكريم في سورة البروج (قتل اصحاب الاخدود . النار ذات الوقود . اذ هم عليها قعود وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . ومانقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد) (١٤) .

تقع المسرحية في ثلاثة فصول ، كل منها ينقسم بدوره الى عدد من المشاهد اما الفصل الاول فنرى فيه الكفار محيطين بمدينة نجران ، يبغون اقتحامها لاجتثاث النصرانية منها . يجتمع الحارث صاحب نجران مع الكاهن وقائد الجيش والوزيرين بكر ونعمان للتشاور في الملمة وعمل مايلزم في مثل هذا الظرف . يقترح البعض الاستسلام للعدو بحجة انه قوي ولاقبل للمدينة بالتصدي لمثل هذه القوة في حين يدعو البعض الاخر الى قتال العدو ثم يحضر رسول ملك الكفار حاملا رسالة الى الحارث (من دونآن ملك اليمن الى الحارث صاحب نجران : أما بعد فاني اتيت بمئة وعشرين الف رجل الى نجران وانا ادعوك الان الى الطاعة فان اجبتنا نجوت من القصاص . والا فاعلم اني افتك بك وبأهل نجران المسيحيين واجعل مدينتك خرابا والسلام.(١٥)

وبعـــد ذلك يصل وزير دونآن يعرض الاستسلام عـــلى الحارث ، لكن الحارث يأبى ذلك ويقرر اعلان القتال ومقاومة الغزاة .

ويدور الفصل الثاني على توديع خليل لابنه الحارث قبل خروجه الى القتال بصورة تقطر حزنا ومرارة ؛ ومحاولة خليل اللحاق بأبيه في القتال؛ وحيلولة الكاهن وأحد رفاقه بينه وبين ذلك . ثم تتطور الاحداث فيتسلل الوزير بكر الى جبهة الغزاة ويسهل لهم اقتحام المدينة ، عندئذ يتمكن العدو من الدخول الى نجران ويقع الحارث جريحا فأسيرا في ايدي العدو .

اما الفصل الثالث فيدور في مقر دونآن حيث نلقاه فرحا بانتصاره ومعلنا ان الفضل الاكبر في انتصاره انما يعود الى الوزير بكر الذي يرشحه البعض ليكون ملكا على نجران ، لكن دونآن لايتحمس للفكرة ، وذلك لانه يرى ان بكرا قد اعتاد على المكر والدسائس ومن ثم فلا يؤمن جانبه اذا ما اصبح صاحب نجران ثم يساق الى مقر دونآن الحارث حيث يعرض عليه الارتداد عن دينه مقابل العفو عنه والاحتفاظ بعرش مملكة نجران ، غيران الحارث يرفض عرض دونآن ، عندئذ يريه دونآن ومعه ابنه العذاب والقتل اللذين يصيبان انصاره لعله يتراجع عن موقفه فيرضى بالكفر . يظل الحارث في صموده وايمانه حتى يكون الموت جزاءه ، وبعد ذلك وفجأة نلتقي دونآن وقد استيقظ ضميره بعد فتكه بالحارث وابنه ، ويدين بالمسيحية ، كما يتحول النعمان في مسرحية خليل اليازجي . اما الوزير بكر فيضيع امله في الحكم ويسيطر عليه اليأس حتى يجد الخلاص في نشدان الموت .

— المسرحية والتاريخ —

انّ المسرحية — كما اسلفنا القول — تاريخية ، لان مادتها مستمدة من التاريخ ، ولعل هذا يشكل دليلا بين عدة أدلة تثبت — كما سنرى فيما بعد تقيد طنوس بالاصول الكلاسيكية في مسرحيته هذه ، اذ (من المعلوم ان الكلاسيكية — كما عرفتها فرنسا في القرن السابع عشر — قد جعلت من

اصولها الثابته العودة الى التاريخ بل والتاريخ اليوناني والروماني بنوع خاص لتستمد منه موضوعات لمسرحياتها) (١٦).

لكن طنوس بسبب ثقافته المسرحية ــ وكما يقول هو في مقدمة المسرحية ــ لم يتقيد بوقائع التاريخ وانما تصرف فيها بعض التصرف . فهو يقول بعد ان يوضح موضوع المسرحية (هذا هو موضوع الرواية وقد تصرفت فيه بعض التصرف جريا على عادة منشىء الروايات الذين يقصد كل منهم غاية فيما ينشئه ..) (١١) .

والواقعة التاريخية التي اعتمد عليها طنوس في المسرحية تتمثل في ان ذانواس (اغار على نجران وحاصرها مدة طويلة بلغت سبعة اشهر ، فلما طال الحصار عمد ذو نواس الى الخداع والغش ففاوض النجرانيين على التسليم له وتعهد ان فتحوا له المدينة الا يتعرض لهم بسوء فلما صدقوه وفتحوا المدينة له اعمل فيهم السيف) (١٨) .

وربما اعتمد طنوس في هذه الواقعة على مؤلفات يونانيه قديمه وخاصة كتاب (يوحنا يولند) الذي ترد فيه بالتفصيل قصة الحارث الملقب بشهيد نجران (١٩) .

ولعل اهم ماغير فيه طنوس فيما يتعلق بالواقعة التاريخية هو تسمية الملك الحميري ذى نواس بـ (دونآن) في حين ان هذا الاسم لايرد بهذه الصورة في النصوص النصرانية ، بل يرد بصور اخرى مختلفة مثل : دمنوس ، دميان ، دميانوس (٢٠) .

كذلك اختار طنوس دافعا واحدا لذى نواس في غزوة نجران من عدة دوافع يذكرها التاريخ وهو تعصبه على المسيحية ، في حين ان التاريخ يذكر له دوافع عديدة اخرى في ذلك مثل ايمانه باليهودية (٢١) ، ودافعاً ذا طابع سياسي اذ (يظن بعض المؤرخين ان حركة ذى نواس هذه كانت حركة وطنية ذلك ان نصارى نجران كانوا على ولاء مع الحبشة ، وكانت الحبشة

تعد حامية النصرانية في نجران ، وقد اتخذت النصرانية وسيلة للتدخل في شؤون اليمن ، فاراد ذو نواس وقومه محو هذا النفوذ الحبشي ، وكذلك لما قتل ذو نواس نصارى نجران استنجد بقيتهم بالحبشة فانجدوهم) (٢٢).

وغيّر طنوس في الوقت نفسه في كيفية تمكن ذى نواس من التغلب على نجران ، ففي التاريخ — كما رأينا — يتم له ذلك عن طريق المكر والخداع اذ يفاوض النجرانيين ويتعهد ألا يمسهم بالسوء ان فتحوا له ابواب المدينة فتنطلي عليها الحيلة وتتحقق غاية ذى نواس في نيل المدينة .

اما في المسرحية فيتم له ذلك بواسطة بكر وزير الحارث ، اذ يخون هذا الوزير ملكه وينضم الى الغزاة ويسهل لهم دخول نجران وذلك حتى يوليه الغزاة على عرش المدينة . وفي هذا تقول المسرحية :

سليم ....

أسر العداة مليكنا | من دون ان يلقوا متاعب
اذ انهم بخداع بكر | ادركوا كل الرغائب
ر— قد ادركوا بالغدر حاجة م | نفسهم لا بالقواضب (٢٣)

كذلك تختلف نهاية ذى نواس بين التاريخ والمسرحية ، ففي التاريخ تتفق اغلب الروايات على ان الاحباش حينما يغلبون على اليمن يخرج ذو نواس هاربا فيقتحم البحر بفرسه ويغرق (٢٤) . اما في المسرحية فنلقى ذا نواس بعد فتكه بالحارث وابنه . يتغير فجأة اذ يوبخه ضميره على فعلته هذه ويدين بالمسيحية ويطلب الموت تكفيرا عن ذنوبه . يقول دونآن في ختام المسرحية :

فاني بالمسيح الان ارجو | لذنبي العفو اني كنت غافل
أمتني كي ارى في ذا ختاما | لتوبيخ الضمير وللمشاكل (٢٥)

— العقدة —

في المسرحية عقدة واحدة ، وهي عقدة بسيطة لكنها محكمة ، في الوقت ذاتـه ، وذلك بسبب التزام طنوس بالقـواعد والاصول الكلاسيه المتعلقة بالمسرحية . لقد التزم طنوس التزاما صارما بالوحدات الثلاث : وحدة الفعل ووحدة الزمان ووحدة المكان . اما وحدة الفعل فتمثلت فيما يحدث للحارث بطل المسرحية اثناء غزو ذى نواس نجران وحتى مقتله ، دون الخروج الى وقائع اخرى . حتى ان المسرحية لاتتتبع مصائر الشخصيـات الاخرى في المسرحية خشية ان تخل بوحدة العقدة . واما وحدة الزمان فتتمثل في حدوث وقائع المسرحية خلال فترة زمنية قصيرة ومحددة لا اثر فيها لامتداد الزمن . ومثل ذلك وحدة المكان حيث تجري وقائع المسرحية في مكان واحد هو مدينة نجران دون الانتقال الى اماكن اخرى . ان كل ذلك اعان على بلورة وابراز الاثر النفسي العام للمسرحية لدى القارىء او المشاهد.

كذلك اقيم بناء العقدة على الاسس والاصول التي نادى بها الكلاسيون في المسرح ففي الفصل الاول ما ان يرتفع الستار الا ونرى عناصر الازمة قد تجمعت وارشكت على الاشتباك دون تمهيد او مقدمات . نرى ذلك في وصول دونآن مع جيشه الى نجران مستهدفا احتلالها للقضاء على المسيحية فيها ، واستعداد الحارث للدفاع عن مدينته وفي الفصل الثاني تتطور الازمة عندما يخون بكر بلاده بانضمامه الى العدو ومساعدته اياه في اقتحام المدينة وتبلغ الازمة ذروتها بدخول جيش دونآن الى نجران ووقوع الحارث اسيرا لدى العدو . اما الحل فيأتي في الفصل الثالث عندما يصرع دونآن الحارث بعد ان يأبى الاخير الارتداد عن دينه .

ونلاحظ في العقدة ايضا مايسميه النقاد بمبدأ السببية ويعنون به (ان يكون كل حدث سببا ومقدمة للحدث الذي يليه دون ان تتدخل المصادفات او المفاجآت المفتعلة في تطور الاحداث ونموها) (٢٦) . فالوقائع تتطور هنا وفق اسس واسباب منطقية لا اثر فيها للمصادفات او المفاجآت القدرية التي

نراها في بناء كثير من المسرحيات ، بالرغم من صدور المسرحية في وقت مبكر في ادبنا المسرحي ، حتى خيانة بكر لاتبدو في المسرحية امرا مفاجئا ، او مفتعلا ، وانما تأتي امرا طبيعيا وذلك لان بكرا لايزال منذ البداية يدعو قومه الى الاستسلام امام العدو . يستثنى من ذلك الانقلاب المفاجىء الذي يحصل في شخصية دونآن بعد فتكه بالحارث قبيل نهاية المسرحية .

ومن هذه الاصول الكلاسيه ايضا مايتمثل في عدم اظهار مشاهد العنف او الموت في المسرحية ، وجعل معرفة مثل هذه الامور عن طريق الاخبار التي ينقلها بعض الممثلين .

واخيرا يبدو في العقدة من هذه السنن الكلاسيه مايسمى بوحدة المادة او وحدة النغم ، اذ يسيطر على المسرحية كلها جو من الجد والذعر دون ان تتخلل المسرحية عناصر فكاهية بحجة التفريج عن اعصاب الجمهور

— الصراع —

يبدو ان طنوس مدرك ان الصراع انما هو جوهر المسرحية ، لان الصراع هو الذي يخلق في المسرحية الحركة ، لذلك نجده يبني مسرحيته على صراع واضح وقوي يظهر فيها منذ البداية ولايزال ينمو ويتطور حتى يبلغ الذروة فالحل.

والصراع السائد في المسرحية هو من النوع الذي يسميه النقاد بالصراع الخارجي اي الصراع الذي يدور خارج الذات الانسانية ، ويدور هذا الصراع بين طرفين هما الحارث ودونآن. اما القضية التي يدور حولها الصراع فهي قضية الايمان والكفر . فدونآن يسعى جاهدا الى جعل الحارث كافرا ، في حين يصر الحارث على البقاء مسيحيا مؤمنا. ويأتي الصراع هذا قويا وواضحا دون ان يتخلله فتور او ضعف وذلك لان طرفي الصراع متكافئان في القوة وفي الاصرار والثبات في العقيدة . فبالرغم من ان دونآن هو اكثر قوة من الحارث لامتلاكه جيشا جرارا . يبدو الحارث نداً له في مثل هذه القوة

بسبب ايمانه والحق الذي تستند اليه قضيته . ويظل الصراع قويا حتى بعد اسر الحارث وذلك لانه لا يزال مصرا على عقيدته ، صامدا في ايمانه ، ودونآن مصر على جعله يرتد عن دينه حتى يصرع الحارث فينهي الصراع.

وفي المسرحية ، فضلا عن هذا الصراع ، صراع ، آخر من النوع الذي يسميه النقاد بالصراع النفسي ، وهو صراع يدور داخل النفس الانسانية، لكنه صراع بسيط ليس مثل الصراع الاول في القوة والاهمية . وهو كذلك صراع تنقصه الاستمرارية لانه يظهر في بعض اجزاء المسرحية ليختفي بعد ذلك في الاجزاء الاخرى نلمس مثل هذا الصراع في المشهد الرابع من الفصل الثاني:

الحارث —

هل اصبرن على وداع حشاشتي والصبر واه والحشى تتقطع
لكنما أدعى لقهر عداتنـــــا ووداعها لمقاصـــدي لايمنع
والمجد يدعوني لاترك موطني واسير عن ولد لبعدي يجزع

نعمان —

مولاي دع هذا العدوّ لانـــه يثنيك عن عزم به نتشجـــع
فيرى بشخصك جيشنا يوم الوفى حصنا له والله لايتزعـــزع

الحارث —

لو كنت تشعر بالحنوّ كوالد لعرفت انّ ابا يحنّ ويولع
ان الامور تعسرت وتصعبــت دعني افكر في الذي اتتبــع

فالحارث انما يخوض هنا صراعا نفسيا بين ان يتقبل رؤية ولده ليودعه قبل ان يخرج إلى الحرب مع العدو ، ام يمتنع عن ذلك خشية ان يؤثر فيه هذا الوداع فيثنيه عن النزول إلى المعركة ، حرصا على حياته من اجل ولده وبمعنى آخر ان هذا الصراع يدور في اعماق الحارث بين العاطفة والواجب ، عاطفته تجاه ابنه و واجبه تجاه بلاده. ولعل مثل هذا الصراع ان يكون

شبيها بالصراع السائد في المآسي الكلاسيه التي صدرت في فرنسا ابان القرن السابع عشر مثل مآسي كورني وراسين.

– الشخصيات –

في المسرحية عدة شخصيات ، بعضها شخصيات رئيسه تلعب دورا بارزا في المسرحية وهي الحارث ووزيره بكر وعدوه دونآن . والبعض الاخر شخصيات ثانوية لايكون لها دور كبير في المسرحية وهي قيس قائد جيش الحارث ووزيره نعمان وكاهنه يوسف وابنه خليل وسليم صديق الابن وسلمان ومنذر من اتباع دونآن . ولان ناظم المسرحية ذو ثقافة مسرحية حسنة ، فقد جعل شخصياته في المسرحية مختلفة الطباع ، متباينة الميول والمواقف ، وذلك لان (لاسبيل الى تأليف مسرحية فنيه من شخصيات متفقه في ميولها وافكارها وغايتها فلابد من تصارع نوازع الشخصيات وتناقضها ، على الا يضر هذا التناقض بضرورة تعاونها وتضامنها معا حتى يبرز منطقها الحيوي .) (٢٨)

نلقى الحارث الذي هو بطل المسرحية ملكا عادلا ، تنعم الرعية في ظله بالطمأنينه والأمان . وهو يؤمن بالشورى ولايعرف الاستبداد في الرأي ، كذلك نجده شجاعا عفيف النفس ، متسامحا يعفو عند المقدرة . فمما يثبت ايمانه بالشورى وعدم ميله الى الاستبداد قوله حينما يحاصر العدو نجران:
الحارث –

ابدوا لنا رأيا يهون به البـــــلا فالرأى في وقت المصائب يحمد
بل دبروا بالرأى كل اموركـم فالرأى من قبل الشجاعة يقصد (٢٩)

ويكاد الحارث يصبح بطلا مأساويا ، وذلك لان اغلب الصفات التي يشترطها النقاد في بطل المأساة متوافرة فيه . فهو شخص رفيع المقام مـن طبقة الملوك ، ينتهي الى مصير مفجع لايستحقه الامر الذي يثير الشفقه والخوف لدى المشاهد . كذلك يتوافر في الحارث الشرط الذي اشترطه ارسطو في

سقوط بطل المأساة اذ يرى ارسطو ان يكون هذا السقوط (مسببا عن خطأ او نقص في خلقه او عن هفوة في تقديره الامور .) (٣٠) ان الحارث يسقط هنا ويهلك على يد دونآن بسبب ثقته العمياء بالناس وعدم تقديره الامور تقديرا صحيحا ، وتهاونه في اتخاذ مايلزم بشأن من تحوم حوله الشبهات فهو – كما مرّ بنا – لايبالي بما يصله عن خيانه بكر وتعاونه مع العدو ، ولايرتاب في امر وزيره ، بالرغم من علمه بذهاب بكر الى معسكر العدو . وقتذاك يعمل الخائن مثلما يحلو له مع العدو حتى يكون سقوط الحارث. ولاننسى هنا ان الفضل الاكبر في غلبة دونآن على الحارث انما يعود الى بكر لكن مثل هذه الخله التي تبدو في شخصية الحارث والتي تسبب سقوطه ، لاتؤكدها المسرحية كثيرا . وآنذاك يبدو الحارث شخصا خيرا لاشر فيه ولا خطأ . وفي هذه الحالة هل يبقى الحارث بطلا مأساويا ؟ والجواب أجل ، اذ حتى في هذه الحالة يمكن عدّ الحارث بطلا مأساويا وذلك لان بعض المسرحيين مثل كورني يرى (انه يصح عرض بطل خير لاشرّ لديه في المأساة يتعرض لاضطهاد ظلم استبدادي . على شرط ان يثير الرحمه لها كثر مما يثير من الغضب والاشمئزاز ممن اضطهده .) (٣١)

اما الوزير بكر فهو شخصية محورية في المسرحية لانه هو الذي يحرك الصراع ويطوره بخيانته وتعاونه مع العدو . وتبدو عناية طنوس بتصوير شخصية بكر واضحة ، حتى حينما تظهر خيانته في المسرحية ، لاتبدو هذه الخيانة أمرا مفتعلا . أو أمراً يمكن ان يصدر عن اية شخصية من شخصيات المسرحيه ، وذلك لاننا نلقاه منذ البداية داعيا الحارث الى الخضوع والاستسلام للعـدو :

بكر ....

بالحرب نفني مالنا وجيوشنـا وخضوعنا والله أمر يسعد (٣٢)

وأما دونآن الملك الوثني الذي يخوض الصراع ضد الحارث فهو على الرغم من كونه احد الشخصيات الرئيسة في المسرحية ، يبدو شخصية مسطحة

باهتد المعالم ، لم يعن طنوس كثيرا بتصويرها ، فدوافعه في صراعه ضد الحارث غير واضحة كثيرا . والشيء الوحيد الذي نعرفه عنه هو وثنيته ومن هنا نرى الانقلاب المفاجيء الذي يطرأ على شخصيته قبيل النهاية ، ذلك الانقلاب الذي يحوله من شخصية وثنية شريرة الى شخصية مؤمنة خيّرة نرى مثل هذا الانقلاب امرا مفتعلا ، لانه لايأتي مبرّراً أو مقنعا .

— الحوار —

تتوافر فيه كافة الشروط التي يشترطها النقاد ليكون الحوار قادرا على تحقيق وظائفه الدرامية في المسرحية ، وذلك لان المسرحية صدرت في وقت لم يعرف فيه المسرح العربي بعد المسرحية الشعرية ، الا مسرحية اليازجي ، ولخلو التراث الشعري العربي من الشعر الدرامي ، اضف الى ذلك صعوبة النظم في الشعر الدرامي في حد ذاته .

ان العيوب التي نراها في حوار المسرحية هي نفس العيوب التقليدية الشائعة في حوار المسرحيات الشعرية . ولعل اهمها النزعة الغنائية ، اذ ترد عدة ابيات لاتساهم في تطوير الحدث . ولاتكشف عن جديد فيما يتعلق بالشخصيات ، حتى لو حذفت من الحوار لما اختل البناء بأيه صورة من الصور مثال ذلك مايبدو في حوار قيس قائد جيش الحارث ، اذ نراه يتغنى بقوته ويتباهى بنفسه بأسلوب يذكرنا بأسلوب المتنبي في الفخر بالنفس :

قيس —

والله لا اخشى وعيد عدونا ... ولشدّتي كل الخلائق تشهد

فالسيف رأيي والاسنّة حكمتي ... وبحكمتي عقد الضلال مبدّد

ودم العدى يوم الكريهة موردي ... والموت فخري والورى لي حسّد

ان كانت الاعداء تنظر هيبتي ... فدماؤهم يوم الوقيعة تجمد

فرنتي كرعد في قلوب عداتنا ... منه ترى كل الفرائص ترعد

كم خضت أمواج الردى وبصارمي   امواج بحر بالمنية تزبد (٣٣)

ومن هذه العيوب ايضا بروز النزعة الخطابية والتعليمية في بعض اجزاء الحوار حيث يطول الحوار ويتكرر وينفصل عن الموقف ليتوجه إلى الجمهور لاغراض تتعلق بالحماسة او ايضاح امر من الامور ، او استخلاص العبرة مما يجري على المسرح :

ـ الحارث ـ

أبدوا لنا رأيا يهون به البلا   فالرأي في وقت المصائب يحمد

بل دبّروا بالرأي كل اموركم   فالرأي من قبل الشجاعة يقصد

نيل العلا واللّه ليس بهيّن   من رام امرا لاينام ويرقد

لاندركن ظفرا بغير مشقة   والنفع من دون العنا لايوجد (٣٤)

ومن الواضح ان مثل هذه العيوب انما تقضي على التركيز الذي يتطلبه الحوار الدرامي وتصيب الحدث بالجمود فتسبب ضعف الحركة في المسرحية.

لكننا من ناحية اخرى نحمد للناظم مابذله من جهد في تطويع الشعر العربي ليصور وقائع المسرحية ويعبر عن مكنونات شخصياتها ، دون ان تكون امام الشاعر تجارب سابقة يمكن أن يفيد منها . ومما يحمد للناظم ايضا هو انه لاينتقل في شعره هذا سريعا بين البحور والقوافي ، كما يفعل فيما بعد احمد شوقي في مسرحياته الشعرية (٣٥) . وانما يحافظ إلى حد كبير على وحدة البحر والقافية ، فالفصل الاول يأتي كله على بحر الكامل. اما الفصل الثاني فيفتتح ببحر البسيط ثم يتحول إلى بحر الكامل. واما الفصل الثالث فينتقل فيه الناظم بين بحر الوافر وبحر الكامل . وفيما يتعلق بالقافية. نجد الناظم يحافظ على وحدة القافية في مشاهد المسرحية . اعني ان القافية لاتتغير الا عندما يتغير المشهد . في حين انه لايحافظ على وحدة البيت دائماً في حوار الشخصية . اعني انه احيانا يقطع البيت ليوزعه بين شخصيتين من الشخصيات المتجاورة . وهذه الاوزان على العموم اوزان مستقيمة لا

اضطراب فيها ، والشعر هنا بعد هذا في اغلبه شعر خال من الضعف والتكلف ، لكن ترد فيه احيانا ابيات تبدو فيها الفضلة والحشو الذي لايضيف جديدا إلى المعنى :

قيس —

لاتعف عن ملك عدو كافر بمسيحنا ليس العدو بمؤمن(٣٦)

ويلاحظ في هذا الشعر ايضا تأثره — إلى حد ما — بالشعر العربي القديم في معانيه وصوره :

الحارث —

ابدوا لنا رأيا يهون به البلا فالرأى في وقت المصائب يحمد

بل دبروا بالرأى كل اموركم فالرأى من قبل الشجاعة يقصد(٣٩)

ان هذا المعنى تتضمنه احدى حكم المتنبي :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو اول وهي المحل الثاني(٤٠)

اما التأثر بصور الشعر العربي القديم فيبدو في الابيات الاتية :

يوسف .....

فمن المصائب لم يشب دهري ومنها صرت شائب

فاراه ينشب من صروف م خطوبه فيّ المخالب (٤١)

ان مثل هذه الصور شائعة في الشعر العربي القديم ، فصورة البيت الثاني مثلا نلمسها في احدى مراثي ابي ذؤيب الهذلي :

واذا المنية انشبت اظفارها الفيت كل تميمة لاتنفع (٤٢)

واما لغة الشعر فهي — على العموم — لغة اقرب ماتكون الى المتانة والجزالة والقوة .

— الفكرة والهدف —

يبدو جليا ان لناظم المسرحية فكرة وهدفاً واضحين في المسرحية ، اذ يشير في مقدمة المسرحية الى ان منشئي الروايات التمثيلية (يقصد كل منهم غاية فيما ينشئه . ولكل رواية نتيجة ادبية تظهر للمطالع ، فأنا أرجو أن يتيسر لي ما اروم الوصول اليه والله اسأل ان يحقق امانيّ بمنه) (٤٣) .

والمعروف ان الكتاب المسرحيين العرب مالوا إلى المسرحية التاريخية ابان القرن التاسع عشر ، وذلك لان في مثل تلك الايام التي تفتر فيها الهمم وتجيش فيها الامال نجد ان جميع الرجال يبحثون عن ماضي امتهم او تراث عقيدتهم يستهلون منه الطريق والخلاص ولهذا فان معظم المسرحيات التاريخية التي كتبت باللغة العربية تمجد فترات الزهو والعظمة في التاريخ الاسلامي والعربي) (٤٤). وقد برزت عند الكتاب مواقف مختلفة من التاريخ (منها ذكر النوابغ والابطال وعرض امجادهم ومآثرهم والاشادة بمفاخرهم وبطولاتهم ومنها التعرض للمأثور من وقائع العرب واخبارهم وابرازها ناصعة مشرقة (٤٥).

انّ طنوس يرمي في المسرحية إلى ابراز صفحة مشرقة من التاريخ العربي القديم يتجلى فيها اروع ايات التضحية والصمود في سبيل العقيدة . انه يهدف إلى الاشادة بشمائل الحارث الحميدة كالعدل والتسامح والشجاعة والتضحية ونكران الذات في سبيل العقيدة والمبدأ : حتى انه يجعل عدوه يعجب باخلاقه ويعتنق ديانته . وواضح ان المسرحية انما تدعو إلى بعث مثل هذه المثل والفضائل والاقتداء بها في عصر غدت فيه مثل هذه المثل والفضائل اثرا من آثار الماضي.

وترمي المسرحية في الوقت نفسه إلى تصوير عواقب الخيانة والطمع . فالوزير بكر بعد ان يمارس غدره وخيانته . طمعا في الحكم . لايكسب سوى الافلاس الدنيوي والروحي وحتى دونآن الذي يحقق مآربه بفضله لايجازيه على خيانته وغدره . بل ينبذه لانه يراه خؤونا كاذباً . لذلك ينتهي نهاية تعيسة :

بكـر ....

الا مـوت يبـاع فاشتريـه فهـذا العيش مـالا خير فيه

الا موت لذيذ الطعم يأتي يخلصني من العيش الكريه(٤٦)

ـ المسرحية والتراث الشعبي ـ

لان المسرحية صدرت في القرن التاسع عشر ، فقد تأثرت في بعض جوانبها بالتراث الشعبي ، والمعروف ان المسرح العربي قد خضع لمؤثرات محلية مختلفة في بدايته في القرن التاسع عشر (٤٧) .

ولعل اهم مايبدو في المسرحية من الاثار المحلية السعي إلى تحقيق مشاركة الجمهور في العرض المسرحي ليكون له دور فيه . فالمعروف (ان المسرح الشعبي لايعنيه ان ينسى المتفرج ان مايجرى امامه انما هو مجرد عرض مسرحي ولا هو يسعى إلى ان يندمج متفرجه في العرض المسرحي . حتى لينسى نفسه وينسى الزمان والمكان الذي يعيش فيه) (٤٨) . لذلك يلغى الحاجز بين الممثلين والجمهور في العروض التمثيلية الشعبية ويعدو أمراً مألوفاً ان يتدخل المتفرجون في العرض او ان يدعو الممثلون انفسهم المتفرجين إلى المشاركة في العرض(٤٩).

نلمس هذه الظاهرة في عدة مواقف من المسرحية ، ففي المشهد الخامس من الفصل الاول يتدخل الجمهور في العرض عندما يرد على سؤال يوسف الكاذن :

هل تنكرون مسيحكم لوعيده (الجمهور) فلنقتلن وربنا لا نجحد(٥٠)

ونجد مثل هذا الموقف ايضا في المشهد السادس من الفصل الثالث :

دونآن

هل تتركون مسيحكم اعطوا الجواب م لانني عن كفركم لا أصبر

اني سأقتلكم اذا لم تكفروا بمسيحكم(الجمهور)بمسيحنا لا نكفر(٥١)

ومن الاثار المحلية التي تسربت الى المسرحية ايضا التوسل بالاغاني والالحان ، وادخالها الى سياق المسرحية ، لان الاحتفاء بالموسيقى والغناء يلاحظ بجلاء في السير الشعبية وعروض الاراجوز وخيال الظل . والمعروف ان المسرح العربي بسبب خضوعه في القرن التاسع عشر للذوق الشعبي ، اصبح من ابرز معالمه النزعة الغنائية .

لقد توسلت المسرحية بأغان تأتي في مواقف تقع فيها ملمات وشدائد غير متوقعه ، مثال ذلك هذه الاغنية التي ينتهي بها الفصل الثاني التي يغنيها ابن الحارث معبرا فيها عن احزانه على اثر سماعه بان اباه قد وقع اسيرا جريحاً في ايدي العدو :

قدّ

أبت دموعي أمست سواكب من بعد حرب فيها نوائب
أبت فؤادي قد صار ذائب كيف اصطباري يا للمصائب

دور

ناديت ابي فما اجابا ياحسرتي قد زدت اكتئابا
وسهم حزني الحشى اصابا أبي ابنك أمسى في متاعب

دور

يالوعتي بالحزن بليت فأي ذنب بالله جنيت (٥٢)
ياليتني للموت دعيت فما انا للعيش طالب

الهوامش

(١) منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٩٧٢، ص٣٩٤

(٢) وزارة الثقافة والفنون ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٨، ٢٤٥

(*) ربما اصبح عنوان المسرحية هكذا في الطبعة الثانية التي لم اعثر عليها

(٣) دراسات في المسرح والسينما عند العرب ، ترجمة احمد المغازى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٧٢، ص٣٥٨. ويشير لنداو هنا الى (شيخو) و(حنين) في كتابه (شوقي على المسرح)مرجعين عن المسرحية وقد بحثت في كتب شيخو فلم اجد فيها ذكرا للمسرحية او ناظمها ، علما اني لم استطع العثور على كتابه (المخطوطات الشرقية) كذلك لم اعثر على كتاب حنين المطبوع في بيروت - ١٩٣٦ .

(٤) المسرحية في شعر شوقي ،مطبعة المقتطف والمقطم ، ١٩٤٧، ص٤٨

(٤) المسرحية نشأتها وتاريخها واصولها ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط٣ ،بدون تاريخ ص ٥١ - ٥٢ .

(٦) الشاعر العربي الحديث مسرحيا ، وزارة الاعلام - بغداد - ١٩٧٧ص ٥٧ - ٥٨

(٧) المسرح في الوطن العربي ، سلسلة عالم المعرفة - الكويت ،١٩٨٠،ص١٦١

(٨) مطبعة الترقي بدمشق ، ١٩٧٥،ج٤ ،ص١٢١

(٩) الاصول العربية للدراسات اللبنانية ، ص٣٩٥

(١٠) المسرحية ، المطبعة الادبية - بيروت - ١٨٨٧، المقدمة ص٢

(١١) المسرحية ، المقدمة ، ص٢

(١٢) د. محمد يوسف نجم : المسرحية في الادب العربي الحديث ، دار الثقافة بيروت ١٩٨٠ ط٣ ص٣٨٤ .

(١٣) المرجع السابق ، ص٢٩٨

(١٤) القرآن الكريم ، سورة البروج ، الايات ٤ - ٨

(١٥) المسرحية ، ص١٢

(١٦) د. محمد مندور : المسرح ، دار المعارف ، ١٩٦٣، ص٧٢

(١٧) المسرحية ، المقدمة ، ص٣

(١٨) د. جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٥٣ ، ج٣ ،ص١٨٨

(١٩) المرجع السابق ، ص١٨٧

(٢٠) المرجع نفسه ، ص١٩٠

(٢١) انظر د. صالح احمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ،مؤسسة دار الكتب – جامعة الموصل ١٩٨١، ج١ ،ص٢٩.

(٢٢) احمد امين : فجر الاسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٩، ص٤٤

(٢٣) المسرحية ، ص٢٨

(٢٤) انظر القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ، دار الكاتب العربي ،القاهرة ١٩٦٧ج١٩ ص٢٩٢

(٢٥) المسرحية ، ص٤٢

(٢٦) محمد مندور : الادب وفنونه ، دار نهضة مصر ، ١٩٧٤، ص١٢٠ – ١٢١

(٢٧) المسرحية ، ص٢١

(٢٨) د. محمد غنيمي هلال : النقد الادبي الحديث ، دار الثقافة – بيروت ، ١٩٧٣ص٦١٢

(٢٩) المسرحية ، ص١٣

(٣٠) ملتون ماركس : المسرحية كيف ندرسها ونتذوقها ، ترجمة فريدمدور ،دار الكتاب العربي – بيروت ، ١٩٦٥، ص١٢٩ .

(٣١) محمد غنيمي هلال : النقد الادبي الحديث ، ص٥٧٨

(٣٢) المسرحية ، ص١٤

(٣٣) المسرحية ، ص١٣ – ١٤

(٣٤) المسرحية ، ص١٣

(٣٥) انظر شوقي ضيف : شوقي شاعر العصر الحديث ، دار المعارف بمصر ، بدون تاريخ ص١٨٥

(٣٦) يستثنى من ذلك قافية المشهد الاول من الفصل الثاني حيث تتغير القافية دون أن يتغير المشهد ، المسرحية ، ص١٩

(٣٧) يبدو في الاوزان احيانا اضطراب مرده الى عيوب الطباعة مثل :

كم خضت امواج الردى وبصامي   امواج بحر بالمنية تزبد (ص١٤)

والصحيح (وبصارمي) . ومثل ذلك :

مولاي ما هذه المصائب   لكن دهري ذو عجائب (ص٢٧)

والصحيح (هذى)

(٣٨) المسرحية ، ص١٥

(٣٩) المسرحية ، ص١٣

(٤٠) شرح ديوان المتنبي ، عبدالرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج٤ ص٣٠٧ .

(٤١) المسرحية ، ص٢٨

(٤٢) ديوان الهذاليين ، الدار القومية – القاهرة ، ١٩٦٥، ص٣

(٤٣) المسرحية ، المقدمة ص٣

(٤٤) لنداو : دراسات في المسرح والسينما عند العرب ، ص٢٠٢ – ٢٠٣

(٤٥) د. محمد يوسف نجم : المسرحية في الادب العربي الحديث ، ص٢٩٣

(٤٦) المسرحية ، ص٤٢

(٤٧) انظر فائق مصطفى : اثر التراث الشعبي في الادب المسرحي النثري في مصر ، وزارة الثقافة والاعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٨٠، ص٩

(٤٨) د. علي الراعي : الكوميديا المرتجلة في المسرح المصري ، كتاب الهلال ، ١٩٦٨، ص٣٢

(٤٩) المرجع السابق ، ص٦٣ – ٦٤

(٥٠) المسرحية ، ص١٣

(٥١) المسرحية ، ص ٣٨

(٥٢) المسرحية ص ٢٩

الحروف والأصوات العربية في مباحث القدماء والمحدثين

الدكتور هادي نهر

كلية الآداب / الجامعة المستنصرية

— آ —

يُعد الحرف من العناصر الاساسية في تأليف البنية اللغوية مفردة كانت أم جملة، وهو العنصر الاصغر في هذا البناء فكلّ تركيب يتكون من عدة بنيات مفردة متباينة الحروف والاصوات، مرتبطة مع بعضها في سياق خاص لاداء معنى عام، ومحور هذا الربط لأوصال التركيب هو الحرف، وقد يكون كلمة مستقلة لها معنىً وظيفي تعرف به، وتساق له، وتُنسب اليه، كالابتداء والانتهاء، والاستفهام، والتمني، والتبعيض، والملك، والنفي، والايجاب وغير ذلك مما يُؤدّي ضمن وظيفة الربط بين المفردات، وهذا ما اصطلح عليه (بحروف المعاني). وقد يكون حروفاً غير مستقلة عن اصول الكلمات ولكنّها تمتزج معها بحيث تساهم في بناء معنى المفرد، او بناء معنى المركب. وهذه الحروف رموز لاصوات معينة متباينة فيما بينها اصطلح عليها عند اللغويين (بحروف المباني). وقد حضيت الحروف العربية واصولها منذ القديم بعناية خاصة من لدن اللغويين العرب، ابتداء من الخليل (ت.١٧٥هـ) وسيبويه (ت١٨٥هـ) وحتى يومنا هذا، وقد استطاع هؤلاء اللغويون أن يقدّموا

في هذا المجال دراسات فاحصة في الحروف واصواتها وبيان مخارجها وصفاتها «مما اعترف باصالته علم اللغة الحديث قياساً الى زمانه»(١). واذا كان العرب متأخرين – زمانياً – عن كثير من الامم التي سبقتهم في مجال الدرس اللغوي العام . فانّا نجدهم في مجال الدرس الصوتي متفوقين كثيراً على باقي الامم . ولقد شهد بذلك علماء الغرب فقال (فيرث) الانكليزي لقد نشأت الدراسات الصوتية ونمت في احضان لغتين مقدستين : العربية والسنسكريتية»(٢)، وقال (برجشتراسر) الالماني : «ولم يسبق الاوربيين في هذا العلم – يعني علم الصوت – الا قومان : العرب والهنود»(٣)، ورأى (جورج مونين) ان علم الاصوات عند العرب «ظاهرة هامة بحدّ ذاتها...، ولابد من الاعتراف بوجوده عندهم وانه علم ممتاز»(٤).

– ب –

وهذا البحث في الحروف والاصوات محاولة متواضعة اردت بها مخلصاً أنّ افرز مفهوم كلّ من الحرف والصوت، وغيرهما من المصطلحات الفرعية التي ترد في الحديث عنهما عادةً كاللفظ، والقول، والحركة، والاداة عند اللغويين العرب قدماء ومحدثين . مع الوقوف عند معطيات هؤلاء في هذا المجال . وغايتي من هذا كله اختصار وتركيب تلك الاراء، وبيان تأويلات وتعليلات وخلافات اصحابها . ومحاولة الموازنة بينها وصولاً الى حدود واضحة تُعين على فهم تلك المصطلحات اللغوية والصوتية ، وتحدد مدى مساهمة اللغويين العرب القدماء في مجال الدرس الصوتي ، ومدى نجاح المحدثين في معاودة ذلك التراث وتمثّله وتوظيفه لخدمة اللغة العربية، ومدى نجاحنا في تقويم معطيات اسلافنا على وجه التحديد الواضح والحكم العادل.

– ج –

ولقد سلكت وصولاً الى غايتي هذه منهجاً قائماً على النظر في مجموعة من كتب اللغويين قدماء ومحدثين وفقاً لدرجة تواتر العينات الكافية للموضوع الذي نحن بصدده فيها ، ومستوى تلك العينات من حيث شيوعها واهميتها

ودلالتها على صورة الموضوع الذي نريد ، مع ملاحظة تمثيلهــــا متنوعة الأتجاهات الافكار ، ابتداء من الخليل الذي يمثل اقدم صورة وصلتنا عن الدراسة الصوتية في طور الصدود الفطري، وبداهة العقل والتأمل والجهد الذاتي دون الاستعانة بالمخبر او الآلة ، وانتهاءً بالدرس الحديث الذي اسعفته التجربة المخبرية والآلية، وامدته بكثير من المعطيات التي يسرت سبيل عمله، وعززت نتائج بحوثه ، واسلمته الى طمأنينة في تقرير الحقائق واستنباط القواعد .

حروف المعاني : — قسّم اللغويون العرب الكلم العربي الى ثلاثة اقسام: اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل(٥)، فالاسم لفظ يدل على معنىً في نفسه ،ولا يتعرض ببنيته لزمان ذلك المعنى(٦)، ولا يدل جزء من اجزائه على جزء من اجزاء معناه، بمعنى ان (الشين) مثلاً ، وهو جزء من كلمة (الشمس) لا يدل على بعض معنى هذه الكلمة .

واماّ الفعل فلفظ يدل على معنى في نفسه، ويتعرض ببنيته لزمان ذلك المعنى. واما الحرف فيكاد اللغويون لا يتفقون على معنى محدد له ، فسيبويه يرى انه جاء لمعنى يختلف عن المعنى الذي جاء له كل من الاسم والفعل ، يقول : «واما ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل فنحو :ثم ،وسوف، وواو القسم ، ولام الاضافة، ونحو هذا» (٧) .

وواضح من عبارة سيبويـه انـّـه لا يشير الى طبيعـة هذا المعنى المدلول عليه بالحرف . وفي حديثه عن حروف الجر يحدد وظيفة الحرف ودوره في بناء الجملة باعتباره اداة اضافة وربط بين معنى الفعل الذي تعلّق به ومعنى الاسم المجرور مثلاً . يقول في حديثه عن او يسميها احياناً بحروف الاضافة حروف الجر انها «يضاف بها الى الاسم ما قبله وما بعده. فاذا قلت : يالبكر. فانما اردت أن تجعل ما يعمل المنادى مضافاً الى بكر بالللام. واذا قلت : مررت بزيد. فانما اضفت المرور الى زيد بالباء...الخ» (٨) .

ومن الطبيعي ان وظيفة اللفظ المعين تختلف عن معناه.

وقد بقيت فكرة سيبويه حول الحرف هي المعروفة عند النحاة من بعده الى أن شاع بين النحويين ما رفعه ابو الاسود الدؤلي (ت . ٦٩هـ) الى الامام علي (رض) من تحديد لكل من الاسم والفعل والحرف، جاء في بعض النصوص ان الحرف «ما انبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل» وفي بعضها «والحرف ما اوجد معنى في غيره»(٩) وقد صار التعريف الشائع بين النحاة مأخوذاً من ذلك اي : (الحرف ما دل على معنى في غيره).

واراد الزجاجي (ت.٣٣٧هـ) أن يتبين طبيعة المعنى الذي يدل عليه الحرف في غيره فذكر قوله انّ (من) تدخل في الكلام للتبعيض فهي تدلّ على تبعيض غيرها لا على تبعيض نفسها، وكذلك اذا كانت لابتداء الغاية كانت غاية غيرها ...وكذلك (الى) تدلّ على منتهى غيرها لا على منتهى نفسها، وكذلك سائر حروف المعاني» (١٠) .

وقد وفق الرضي الاستراباذي (ت.٦٨٦هـ) في بيان معنى الحرف بقوله : «الحرف كلمة دلّت على معنى ثابت في لفظ غيرها، فغير صفة اللفظ ، وقد يكون اللفظ الذي فيه معنى الحرف مفرداً كالمعرّف باللام، والمنكر بتنوين التنكير، وقد يكون جملة كما في (هل زيد قائم) ، لانّ الاستفهام معنى في الجملة، اذ قيام زيد مستفهم عنه ، وكذا النفي في (ما قام زيد) اذ قيام زيد منفي، فالحرف موجد لمعناه في لفظ غيره، امّا مقدّم عليه كما في نحو : (بصريّ) او مؤخّر عنه كما في (الرجل) ،والاكثر أن يكون معنى الحرف مضمون ذلك اللفظ. فيكون (اي ذلك اللفظ) متضمناً للمعنى الذي احدث فيه الحرف مع دلالته على معناه الاصلي ... فرجل في قولك : (الرجل) متضمن لمعنى (التعريف) الذي احدث فيه (اللام) المقترن به،وكذا ضرب زيد في (هل ضرب زيد) متضمن لمعنى الاستفهام، اذ ضرب زيد مستفهم عنه. ولا بدّ في المستفهم عنه من معنى الاستفهام وموجده (هل) .. الخ»(١١).

فليس للحرف معنى موجودٌ في (ال) او (هل) او (من)، وانما معناه كائن في مضمون لفظ آخر تعلّق به الحرف، بمعنى أن لفظ الحرف كبنية لغوية لا معنى لها، فهي بنية فارغة من الدلالة، ولذلك قال الرضي في نهاية رأيه «فالحرف وحده لا معنى له اصلاً، اذ هو كالعلم المنصوب بجنب شيء ليدل على أنّ في ذلك الشيء فائدة ما، فاذا افرد عن ذلك الشيء بقي غير دال على معنى اصلاً. فظهر بهذا أنّ المعنى الافرادي للاسم والفعل في انفسهما وللحرف في غيره»(١٢).

وفي ضوء هذا الفهم نجد انّ «الاستقلال بالمفهومية» على حدّ تعبير ابن الحاجب(١٣) (ت. ٦٤٦هـ) وعدم ادراك المعنى الا ضمن سياق ما، هو اساس التفريق بين الاسم والفعل من جهة، والحرف من جهة ثانية، فالحرف لايستقل بالمفهومية، وليس له واقع معنوي سابق على عملية التركيب بخلاف غيره من الاسم او الفعل، فلا يخبر بالحرف ولا يخُبر عنه، ولا يوجد لفظ (من) مثلاً ولا غيرها من نوع الحرف مستعملة في معناها وهو الابتداء، ولو كان ذلك حاصل لترادفت (من) مع (ابتداء)، وهو مالا نجده في واقع الاستعمال اللغوي، ودلالة (قد) على التحقيق، و (ثم) على التراخي و (من) على الابتداء. و (سوف) على التسويف انما هو في معاني ما ترتبط به هذه الاحرف من الفاظ الجملة لا في نفس الحرف، «ولذلك كان التعريف الشائع للحرف بـ (ما دل على معنى في غيره) وافياً بما يفهمه اتباع سيبويه من معنى الحرف»(١٤).

ولقد اراد الشيخ بهاء الدين بن النحاس (ت. ٦٩٨هـ) —وتبعه ابو حيان الاندلسي (ت. ٧٤٥هـ) ان يخرق اجماع النحاة في عدم دلالة الحرف على معنى في نفسه. وذهب في (تعليقة على المقرّب إلى انّ للحرف معنى في نفسه. وحجته في ذلك انه اذا خوطب به مَن لا يفهم موضوعه لغةً كان كذلك. وان خوطب به من يفهمه. فانّه يفهم منه معنى عملاً بفهمه موضوعة لغة، كما اذا خوطب بـ(هل) من يفهم أنّ موضوعها الاستفهام

وكذا سائر الحروف . وعن الفرق بين الحرف وكلّ من الاسم والفعل قال: «والفرق بينه وبين الاسم والفعل أنّ المعنى المفهوم منه مع غيره اتمّ من المفهوم منه حـــال الافراد بخلافهما ، فالمفهوم منهما في التركيب عين المفهوم منهما في الافراد» (١٥) .

وراي ابن النحاس كما يلاحظ قاصر عن اقناعنا بوجود معنى للحرف في نفسه فما زال الاستقلال بهذا المعنى غير واضح ذلك أنّ المعنى نوعان : معنى افرادي مستقل ، ومعنى تركيبي غير مستقل ، فالمعنى الافرادي هو صورة الشيء المرتسمة في ذهن الانسان سواء علم انّ هناك لفظاً موضوعاً بازائه ام لم يعلم كصورة (الجدار) او (الفرس) او (الابتداء) او (الاستفهام) ، وفائدة علمه بالوضع انه اذا سمع من يقول (فرس) مثلاً حضرت في ذهنه تلك الصورة المستقلة ، واذا سمع من يقول : (استفهام) او (استفهم) حضرت في ذهنه تلك الصورة المعلومة دون ضميمة شيء اليها . اما المعنى التركيبي فهو الذي لايحضر في الذهن عند سماع اللفظ منفرداً . بل عند سماعه ضمن الجملة ، (فالفاعلية) مثلاً معنى تركيبي يمكن أن نفهمه من جملة (قام محمد) أي أن محمداً فاعل القيام ولكننا لو افردنا كلمة (محمد) فاننا لانفهم منها معنى (الفاعلية) — وان دلت عليه ضمن الجملة — وهكذا الاستفهام في جملة (هل قام محمد) فاننا نفهم أن قيام محمد مستفهم عنه ، ولكننا لو جردنا (هل) وحدها فلا نفهم منها هذا المعنى ، بل لانفهم منها معنى الاستفهام ، لانه لاترتسم صورته بأذهاننا عند سماع كلمة (هل) كما ترتسم بأذهاننا عند سماع كلمة (الاستفهام) او (استفهم) ، وذلك لان هل وضعت للاستفهامات الخاصة كالاستفهام عن قيام محمد بجملة (هل قام محمد) اي انها وضعت للاستفهام في حالة كونه (معنى تركيبياً) وليس للاستفهام المطلق المستقل بمفرده ، والا لكانت (هل) مرادفة لكلمة الاستفهام (١٦) .

ولقد أدّى سوء فهم بعض المحدثين لمفهوم الحرف عند القدماء باعتباره احد اجزاء الكلام الى تقديم انموذج جديد لتقسيم الكلم العربي ، فدعا الدكتور

تمام حسان الى تقسيمه الى سبعة هي : الاسم ، والوصف ، والفعل ،والضمير ، والخالفة ، والظرف ، والاداة .

— والى ذلك ذهب فؤاد حنا ترزي ايضا (١٧) ودعا المرحوم ساطع الحصري الى ترك التقسيم القديم للكلم العربي لانّ سائر لغات العالم يقسم الكلم الى انواع كثيرة يبلغ عددها ثلاثة امثال ذلك وليس من المعقول على رأيه ان نبقى متمسكين بهذا التقسيم بل من الاوفق عنده ان نعيد النظر فيه على اساس تكثير انواع الكلمات اسوة بما يفعله لغويو العالم (١٨) ... ولم يضع الحصري خطة تفصيلية لتقسيمه المزعوم .

وبغض النظر عن هذه الدعوات وغيرها ، فانّ اللغويين العرب القدماء قد استطاعوا القيام بدراسة تحليلية وصفية فذّة للغتنا ، وتلك من اعقد واشق المهام التي يسعى الى تحقيقها في العصر الحديث اكاديميات العلوم اللغوية ومعاهدنا المتخصصة في مختلف بلدان العالم . ونتيجة للدراسة التحليلية الوصفية للغة العربية وحد الاوائل الكلمات في مجموعات كبيرة وصنفوها التصنيف الثلاثي المعروف ، غير منطلقين من معناها — كما يظنّ بعض الدارسين — بل وبالاستناد الى خصائص مميزة لكل نوع . فالحرف عند سيبويه كما ذكرنا انما جاء «لمعنى ليس باسم ولا فعل» وهو عند الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ) «مادل على معنى في غيره . ومن ثم لم ينفك من اسم وفعل يصحبه إلاّ في مواضع مخصوصة حذف فيها الفعل . واقتصر على الحرف فجرى مجرى النائب » (١٩)

وقد اتضح لدينا مما ذكره الاقدمون عن طبيعة كل جزء من اجزاء الكلام العربي انهم لم يكن تقسيمهم الى كلمات مستقلة بالاسم وهي الاسماء والافعال ، وكلمات غير مستقلة بالفهم وهي الحروف ، ولكنهم كانوا يشعرون بالحيرة احياناً ازاء بعض الالفاظ التي تشترك في اكثر من قسم واحد ، كما هو الحال في (اسماء الافعال) و(ربّ) و(ليس) وغير ذلك مما ساق الخلاف بشأنه صاحب الانصاف . كما انه قد تبين للغويين القدماء أنّ الفعل نفسه لايستقل

بالدلالة دون فاعله اذا كان هذا الفاعل ذاتاً نحو : أقبل خالد ولكنه لايستقل عن الفاعل : « كما توهم من قال انّ الفعل لايستقلّ بالدلالة دون الذات ، والذات متصلة بالفعل في تركيبه الاصلي » (٢٠)

وقد اكد صحة التقسيم العربي بعض المستشرقين فقد ذكر الاستاذ (غ. فيلنيكوف)(٢١) «ان المفردات السامية تقسم الى :

آ– كلمات لم تفقد صلتها بعد وب(آلية) الحدث ، ولذلك تحتاج الى مطابقة الفاعل وهي الكلمات المتصرفة أي الافعال .

الكلمات المتصرفة أي الافعال

ب– كلمات تفهم عن طريق الحديث ، ولكنها فقدت علاقتها ب(آلية) الحدث وهي الاسماء .

ج– وبقية الكلمات المساعدة التي لاترجع الى جذر الفعل . وهي الاحرف » واشار (ميلنيكوف) الى أن هذا التقسيم يعتبر اساساً في وصف القواعد السامية . ولقد اثبتت الدراسات اللغوية المقارنة الحديثة ايضاً صحة تقسيم الكلمات الى اسم ، وفعل ، وحرف ، بل انها توصي باتباع ذلك التقسيم بالنسبة للغات التي لاتتبعه قواعدها ، فقد توصل مثلاً الدكتور (س. غالسان) نتيجة دراسة مقارنة قام بها للغتين المنغولية والروسية الى ضرورة تمييز ثلاثة اقسام للكلمات في هاتين اللغتين هي : الاسم، والفعل، والحرف. علماً بانّ ذلك التقسيم غير متبع في دراسة قواعد اللغتين المنغولية والروسية . (٢٢)

وخلاصة الامر انّ الحروف ما هي الإعلامات ورموز سواء كانت حروف معانٍ ام حروف مبانٍ ، فان كانت حروف معان فهي علامات لتخصيص المعاني الاسمية أو الفعلية وتضييق دوائرها ، او تغيير طبيعة دلالاتها . تنكيراً او تعريفاً سلباً او ايجاباً ، اخباراً او استفهاما ، ابتداء أو انتهاء . او تغيير طبيعة زمانها ماضيا او حاضرا او مستقبلاً ، وغير ذلك من التنويع والتصنيف الذي يطرأ على الالفاظ وهي متّسقة ضمن سياقات معينه .

ومن الثابت ان لحروف المعاني قيمة تعبيرية في الجملة العربية ، فبالاضافة الى انها تفسّر بعض طرائق النمو اللغوي ، والتكاثر اللفظي فيها فلها وظائف دلالية واضحة . فحروف العطف مثلاً تفيد ادخال مابعدها في حكم ما قبلها فوظيفتها اذن الدلالية هي جمع المتعاطفين في حكم واحد، وتخصيص كليهما او أحدهما بحكم معين على سبيل التعيين أو على سبيل الابهام . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان حروف المعاني نوعان : احدهما لايعمل وهو المهمل كبعض احرف الاستفهام والجواب والتعريف والتنكير والتفسير والاستفتاح ... الخ ، والآخر يمنح الاسم او الفعل حركة معينة ويمكن أن نسمّيه اصطلاحاً (اداة) ، ويمكن أيضاً أن نقرر أن الفرق بين حروف المعاني والاداة يتحدد في كون الاداة مختصة . أي تؤثر فيما تختص به وذلك باحداث حركة في المختص به ، على الرغم من ان القدامى لم يفرقوا بين ماعمل وما لم يعمل ، وأطلقوا أدوات الاستفهام وفيها حروف غير عاملة مثل الهمزة وهل ، ومنهم من اضاف ام المنقطعة . والاداة عندهم تكون حرفاً وقد تكون اسماً .

وقد توزعت الادوات عند بعض المحدثين على ابواب ثلاثة هي (٢٣) :

— أدوات تغير الجدول التصريفي كأدوات النصب والجزم .

— وأدوات تغير الجدول النحوي واعتبر منها بعض النواسخ وما يصنف معها

— وأدوات العطف التي تحتم على المعطوف ان يتبع المعطوف عليه في الحركة ، او التشريك اللفظي . ويجوز بها عطف الاسم على الاسم والفعل على مثله ، إلى ماهنالك من ضروب العطف .

وأرى أن توزيع المحدثين للادوات هذا التوزيع يبتعد إلى حدّ ما عن الحقيقة العلمية فاذا سلمنا بأنّ أدوات الجزم تؤثر على الأفعال من الناحية الصرفية وخاصة الافعال المعتلة مثل حذف حرف العلة في نحو : لم يقل ، ولم يرم . فإن أدوات النصب في أصل وضعها لاتؤثر في الأفعال من الناحية الصرفية . كما اننا لانستطيع أن نعدّ النواسخ من بين الأدوات التي تغير

الجدول النحوي كما أن هناك أدوات تغير من الجدول النحوي للأسماء لم يلتفت اليها المحدثون كحروف الجر وأداة الاستثناء ، وحرف النداء .

حروف المباني : أطلق اللغويون العرب مصطلح (الحرف) أيضاً على كل واحد من حروف المعجم أو الهجاء التسعة والعشرين (٢٤) وفرقوا بين مدلول الحرف وجعلوه على قسمين هما : حروف المعاني ، وحروف المعجم أو الهجاء وتسمى أيضاً ، (حروف المباني) ، واستطاعوا أن يقوموا بدراسات مستفيضة لهذه الحروف وباعتبارات عديدة على الرغم من أن دراساتهم تلك كانت تأتي ضمن مباحثهم النحوية والصرفية والمعجمية ، ونكاد لانقف على أثر مستقل يهتم بحروف المباني حتى القرن الرابع اذ الفينا ابن جني (ت. ٣٩٢هـ) في كتابه (سر صناعة الاعراب يُعنى بها عناية خاصة باعتبارها علماً قائماً بذاته ، يهتم فيما يهتم بدراسة تحليلية لمادة اللغة الأساسية وعناصرها التكوينية ، ويعرض لاحوال كل حرف على حدة ، متحدثاً عما نسميه اليوم (بالسمات المميزة للوحدات الصوتية) واقفاً عند تحديد امرين هامين هما: مخارج الحروف ، وما يتصف النطق به من صفات مما يجعل مباحث ابن جني في هذا المجال ذات صلة واضحة بعلم الصوتيات الحديث مع بعض الفروق البسيطة ، اذ يدرس هذا العلم السمات المميزة للوحدات الصوتية عن طريق امرين : هما تحديد مخارج الحروف ، وبعض صفات النطق ، وقد تحدث عنهما ابن جني منذ مايزيد على العشرة قرون .

ومما يلاحظ في دراسة الاوائل للحروف هو تعدد المصطلحات والتسميات التي اطلقت عليها كمصطلحات (الحروف العربية) و (الرسم العربي) و (الخط العربي) و (الاصوات اللغوية) مما يدفع بالبعض إلى الظن ان اولئك القدماء لم يميزوا بين الحرف والصوت .....

وذلك ظن لايجد نصيبه من الحقيقة ، فقد أحسن اللغويون الأوائل صنيعاً حين قسّموا الحروف إلى نوعين : حروف معان ، وحروف مبان ، وقد مضى القول في انهم قصدوا بحروف المعاني تلك الألفاظ التي انحرفت عن

خصائص الاسم والفعل ، وعوارضهما كالاستقلال بالمفهومية ، والاعراب ، وقبول علامات معينة ، ودخول حروف الزيادة عليها ، والتصرّف ، الى ماهنالك من خصائص وعوارض الأسماء والافعال ، ولهذا فقد جعلوا «عدم وجود علامة معينة للحرف علامة له.» (٢٥)

أما حروف المباني او (الحروف العربية) فكلّ واحد منها وحدة كتابية ، ورمز صوتي ، مع التأكيد على الفارق بين الكتابة والصوت ، أو بين اللغة في صورة منطوقة مسموعة ، وبين اللغة وقد كتبت بحروف . فالصوت (٢٦) عندهم (لفظ) . حكي به صوت ، او صوّت به لزجر او دعاء . او توجع ، او تحسّر ، وهو يقابل عندهم مصطلح (اللفظ) ، باعتباره صوتاً ايضاً مشتملاً على بعض الحروف الهجائية ، ويقع على كل ملفوظ . حرفاً أو أكثر ، ويشمل (القول) و (الكلمة) و (الكلام) ويطلق على المهمل والمستعمل ، مقدّراً كان كالضمائر المستترة جوازاً أو وجوباً ام ظاهراً .

ومن هنا فقد اشترطوا في (القول) أن يكون (لفظاً) أو (صوتاً) دالاً على معنى (بالوضع) والوضع عندهم تخصيص شيء بشيء . أي جعل اللفظ دالاً على المعنى الذي يقصده المتكلم ولهذا لايسمّى كلام النائم ، وما يُعلّم من الطيور قولاً لانه غير مقصود . ولهذا ايضاً رأى أحد اللغويين القدماء «أن تصدير حدّ الكلمة بالقول أولى من تصديره باللفظ ، لأنّ اللفظ يقع على المهمل والمستعمل ، بخلاف القول فإنه لايتناول إلا المهمل.» (٢٧)

ولما كانت الحروف الفاظاً ، والألفاظ أصوات ، فقد اطلق سيبويه مصطلح الحرف واراد به مايشمل الصوت والحرف (٢٨). وقد بقي هذا المفهوم سائداً عند أغلب اللغويين من بعده ، بل اننا نجد من يطلق الحرف على الصوت المنطوق وعلى الخط المكتوب الذي يقابله والتعويل على الخط كما نعلم وفي اية لغة تمثيل ناقص ، يؤدي إلى الخلط بين مفهومي الحرف والصوت وعدم التمييز بينهما ، ولهذا نجد بعض اللغويين من يعدّ الصوت حرفاً والحرف صوتاً . ويتحدّث عن (مخارج الحروف) قاصداً مخارج الاصوات

ولعل اهتمام هؤلاء بالصورة المكتوبة دون المنطوقة هو الذي أدّى إلى هذا الخلط ، فكثيراً مانجدهم يقررون في نحو (لم ينج) و (لم يسعَ) و (لم يمضِ) أن الفعل مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة ، ولو تأملوا نطق الفعل لرأوا انه مجزوم بتقصير (المصوتات الطويلة)(٢٩)او (الحركات الطويلة)(٣٠)، أو ماسماها سيبويه ومن بعده ابن جني (الحروف الثلاثة اللينــة) (٣١) ، وهي الألف . والياء ، والواو وعوض عنها (بحركات أو مصوتات) (٣٢) قصيرة هي على التوالي : (الفتحة ، والكسرة ، والضمة) باعتبار أن حروف اللين مضارعة للحركات فكرهوا توالي المتشابهات . وفي ذلك يقول ابن جني: «وانما قلت الحركات في حروف اللين لمضارعة هذه الحروف للحركات ، فكرهوا اجتماع المتشابهات» (٣٣) «فالحركات ابعاض حروف المدّ كما ذكر » (٣٤) . فالضمة بعض الواو . والكسرة بعض الياء والفتحة بعض الالف. «وهذه الحروف عن هذه الحركات تنشأ متى كنّ مدّات» (٣٥).

وقد ذهب بعض المحدثين مذهباً بعيداً اذ رأى ان ماذكره الأقدمون عن المضارع المعتل العين في حالة الجزم من نحو : (لم يكن) من هذا الباب . فقد زعم الاقدمون أن هناك ساكنين هما : عين الفعل وآخره . وقد أدّى هذا الالتقاء إلى حذف الاول منهما ، والحقيقة عنده ان الواو ليست ساكنه باعتبارها حركة طويلة ، وما حذفها إلا لتعـــارض مقطعين تشكلا بعد جزم الفعل هما : (يَ/كون) فالثاني أكثر طولاً من الاول . وهذ مالا تقبله العربية ، مما يؤدي إلى تقصير حركة المقطع الطويل فتصير (يَ/كُن) وهذا مايُفسّر به تقصير حركة الفعل الماضي عند اتصاله بتاء التأنيث في مثل : (رمتْ) فأصلها : (رمات) .

وأمثلة ذلك كثيرة على وفق مايرى بعض المحدثين. (٣٦)

وأرى أنّ المقطعين : القصير والطويل في (يَ/كون) موجودان هنا قبل دخول الجازم . ولم يُحذف أحدهما في حالة الرفع .

وعلى هذا يمكن اعتبار رأي الأقدمين في هذه الناحية هو الاصوب ، لأن العرب لاتجمع ساكنين على الرغم من أنّه يمكن اعتبار الواو حركة طويلة وليست صوتاً ساكناً وحينئذ اذن يصح ماذكرناه سابقاً.

أما ماذكره بعض المحدثين مفسراً به تقصير حركة الفعل الماضي عند اتصاله بتاء التأنيث في مثل : رمتْ فاصلها رمات ، فباطل . لانه اذا كان الامر كما ذُكر ، وان الحذف من (رمات) قد تمّ لسبب الذي جاء به ، فلماذا لم تحذف الألف من نحو : قضاة و (دعاة) و (رماة) و (غزاة) ، فقد وقعت حركة طويلة وقبلها حركة قصيرة ؟

وربما يرى المحدثون أن الضمة غير الألف وصوتها مختلفة ، نقول : فما بال مثل (بنات ، وفتاة ، وقناة ، وشتات) اذ لم تحذف منها الألف وكلها مسبوقة بحركة قصيرة .

ومن هنا فان احكام النحاة القدامى في هذه الزاوية هي المعوّل عليها لأنها قامت على استقراء يبلغ حدّ الدقة لكلام العرب .

ولكي لايظن اننا من اولئك الناس الذين يتهمون لغويي العرب المتقدمين بعدم التمييز بين الحرف والصوت ، وان دراساتهم في هذا الميدان انما اعتمدت الحرف الذي هو رمز للصوت ، ولذلك لا يمكن التعويل عليها (٣٧) لانها حديث عن الكتابة التي هي في اية حال ترميز ناقص لما يكتب ويفهم كما اشرنا لابدّ من تأكيد حقيقتين هامتين :

اولاهما : أنّ الخلط الحاصل بين مفهومي (الحرف) و (الصوت) ظاهرة معروفة عند غير العرب ، فعلى الرغم من أنّ الاغريق والرومان كانوا يشعرون بالفرق بينهما ، ومن بعدهم كان اتباع الفلسفة السكولاتية يؤكدون الخصائص الثلاث للحرف : اسمه ، وشكله ، وطاقته ، بيد أنّ تطور هذه المفاهيم في تلك العصور اخذ يشير الى اختلاط متزايد بين الحرف والصوت ، فاضمحل مصطلح الصوت ، وغشاه مصطلح الحرف ، ولم

نجد الاوربيين تمييزاً واضحاً بينها الا في القرن الخامس عشر الميلادي (٣٨) وثانيهما: انه بالاضافة إلى اهتمام العرب بالصوتيات منذ الخليل وسيبويه في القرن الثامن الميلادي اهتماماً واسعاً يتمثل في كتاب (العين) الذي بناه الخليل على اساس النطق بالحروف ، وفي كتاب سيبويه بما فيه من تحليل دقيق للاصوات ، وكيفية نطقها ، وابدالها ، وحذفها ، وغير ذلك مما يهتم به اليوم علم الصوتيات العام ، واضافـــة إلى ما خلّفه الزجاجي ، والزمخشري، وابن يعيش ، وابن الحاجب وغيرهم ممن اهتموا بالدرس الصوتي ، فانّا نجد ابن جني في القرن العاشر الميلادي يتحدث عن السمات المميزة للوحدات الصوتية عن طريق تحديد مخارجهـــا وصفات نطقها ومميزاتها الصوتية، وكان وصفه لنطق الحركات دقيقاً إلى الحدّ الذي يقربه من احدث نظرية في الصوتيات المعاصرة وهي نظرية (الصفات المميزة للصوت) وهي عند ابن جني ثلاث : التمييز بين معاني الكلمات ، وكيفية النطق ، والناحية الصرفيه .

اقول على الرغم من هذا فانّا نجد ابن جني يميّز تمييزاً واضحاً بين الصوت والحرف فالاول على رأيه مشترك بين الانسان والحيوان . والثاني خاص بالانسان ، ثم لابُدّ لكل حرف من صوت ولا ينعكس(٣٨) وقد استطاع طاش كبري زاده(ت.١٥٦٠م) في مفتاح السعادة ان يدُل على الفرق بين الصوت والحرف كما فعل ابن جني ، فلـــم يكتف بملاحظة الكيفية والكميّة والصفـــات العارضـــة للاصـــوات العربيـــة بحسب ما تقضيه طبائع العرب ، بل بلغت عنايته بعلم الاصوات اللغوية حدّ الاشارة بعلم التشريح خاصة والعلم الطبيعي بوجه عام ، حين حصر بانّ علم (مخارج الحروف) « يُستمد من العلم الطبيعي وعلم التشريح» (٣٩) ولعل مصطلح طاش كبري الذي اطلقه على الاصوات وهو مصطلح (علم مخارج الحروف) يُعدّ في نظر بعض الباحثين اول تسمية محددة شاملة لما يطلق عليه (علم الاصوات) في العصر الحديث .(٤٠) وانّا وانْ كنـــا لانعدّ الفارابي

(ت٣٢٩هـ) لغوياً بالمعنى الخاص إلا اننا نجد لهذا الفيلسوف الكبير شغفاً واهتماماً كبيرين بقضايا اللغة ، ويُعدّ كتابه (احصاء العلوم) « اقدم كتاب من نوعه في اية لغة ». (٤١) قدّم لنا فيه صاحبه ترتيباً لعلوم اللغة في نسق واحد ، وخلع على مجموع تلك العلوم لقباً شاملاً هو (علم اللسان). وبغضّ النظر عن تفاصيل ذلك فانّ اهم مايلفت الانتباه في كتاب الفارابي هذا ماذكره عن مفهوم كلمة الحرف . فقد ذكر من بين علوم اللغة علماً سمّاه (علم قوانين الكتابة). ورأي ان هذا العلم « يميز اولاً مالا يكتب في السطور من حروفهم وما يكتب» وفي ذلك اشارة واضحة إلى أنّ الحرف الذي لايكتب انما يقصد به الصوت . وعن (علم قوانين تصحيح القراءة) ذكر انّ هذا العلم « يعرف مواضع النقط والعلامات التي تجعل عندهم لما يكتب في السطور من حروفهم ». فالحركات والشدّة مثلاً رموز تمثل اصواتاً وليس لها حروف مستقلة تكتب . (٤٢)

وفي كلام الاديب العربي الكبير الجاحظ (١٦٠هـ — ٢٥٥ هـ) مايشير إلى أن العرب قد وُفّقوا في بيان الفرق بين الحرف والصوت فعنده انّ كل مايخرج من الفم صوتاً ، فان صدر وصار كلاماً اصبح حرفاً ، سواء أكان منطوقاً ام مكتوباً ، يقول : «الصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به تقطيع ، وبه يوجد التأليف . ولا تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ، ولا منثوراً إلا بظهور الصوت . ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف » (٤٣) وبالاستناد إلى ماعرضناه من اقوال القدماء ، ثم بالاستناد إلى مايدرسه علم الاصوات اللساني الحديث يتحقق امامنا أنّ الحرف وحدة كتابية لاتوجد لها صورة مستقلة ، وهو عنصر يدخل في تركيب الوحدة الحيّة المستعملة وهي الكلمة ، وباختلاف تركيب الحروف تختلف الدلالات ، وتتعدد الكلمات ، وعلى الرغم من انّ كل حرف لفظ ، وكل لفظ صوت ، الاّ انّ الصوت باعتباره عملية حركية ذات اثر سمعي ، وهو من اداء المتكلم في نشاطه اللغوي العادي اليومي قد يطلق على الكلمة ، أو على (المقطع) . (٤٤)

او على الحرف كأقلّ وحدة نطقية (فونيم) تعود إلى جهاز التصويت : وهو ــ اعني الحرف ــ وحدة تصنيفية يقول بها دارس اللغة حين يقسم العدد الأكثر من الاصوات على العدد الاقلّ من الحروف ، وقد يشتمل الحرف الواحد على اكثر من صوت واحد ، كما يشتمل (الميم) مثلاً على اصوات مختلفة ذو الاظهار ، وذو الاخفاء ، وذو الاقلاب « وكما يشتمل (النون) على عدد من الاصوات يأتي كلّ منها في بيئة صوتية خاصة حتى ان بعض اصوات النون كالذي في(ينظر) ينطق باخراج اللسان كاخراجه فيالظاء» (٤٥)، فالحرف كما يقول ارسطو : « صوت لايتجزأ ، وهو صوت معين ومن طبيعته ان يدخل في تركيب صوت معقد » ، (٤٦) وهو وحدة الدراسة اللسانية الصغرى لانه رمز للصوت ، وكل حرف صوت وليس العكس ، لان الاصوات التي يمكن للانسان انتاجها تشكل عدداً لامتناهياً ، ولما كانت قابلية الاستماع عند الانسان محدودة ، ولتلافي الارتباك الذي سيحصل في السمع لو صنّفت جميع الاصوات المنتجة، ومن منطلق رياضي ، استطاع الانسان أن يرمز لذلك العدد اللا متناهي من الاصوات بمجموعة محدودة من الحروف مراعياً في اختيار الاصوات المستعملة والمرموز لها بالحروف امرين هما : سهولة ادائها ، وسهولة استيعابها .

وقد امتلك الانسان قابلية تحويل الاصوات لانتاج اصوات اخرى ، فمن : (ر ج ب) يمكن ان نصوّت بـ (رجب ، جبر ، برج ، بجر، جرب ، ربج) فان اضفنا اليها صوتاً آخر امكن انتاج اضعاف هذا العدد من الاصوات . وهكذا. وهذا التنويع الصوتي عند الانسان تنويع ارادي ، بينما نجده عند باقي الحيوانات تنويعاً غريزياً حيث لايكون الحيوان واعياً عند اصدار الاصوات ، ولهذا تعذّر عليه تعلّم لغة غيره ، وكذلك فانّ الحيوان يصدر اصواتاً لاتتجزأ. ولهذا لانستطيع ان نطلق عليها مصطلح (الحروف) .

الأصوات العربية : ـ

درس اللغويون العرب الاصوات العربية من زوايا متعددة ، فقد وضعوا منذ القرن الثاني الهجرة . الثامن للميلاد أبجدية صوتية للاصوات العربية. باعتبار حركي عضوي وبالنظر إلى مخارجها « وهي اماكن يمكن تعيينها في اعضاء النطق بوسائل مختلفة ، (٤٧) ابتداء من أقصى الحنجرة حتى الشفتين وكانت ابجدية الخليل (ت ١٧٥ هـ) الصوتية أول ماعرف في هذا المجال. ثم تلاه سيبويه (ت . ١٨٠هـ) ، وابن جني (ت. ٣٩٢ هـ) وغيرهما ممن فعلوا فعله ، امثال : الازهري في كتابه تهذيب اللغة وابن سيدة في المحكم والمازني في كتابه التصريف . والفراء في معاني القرآن . ولقد استطاع هؤلاء ـ على تفاوت في المعطيات ـ ان يصنفوا الاصوات من حيث عددها ، ومن حيث حيّزات نطقها ، وسماتها شدةً ، او رخاوة ، جهراً ، او همساً . انطلاقاً من معرفة دقيقة في طريقة انتاج الصوت والتحكم في مجرى الهواء.

واستطاع سيبويه وابن جني خاصة ان يبينا وظائف الاصوات او مايسمّى اليوم بالتعاملية وهي مؤتلفة في بناء لفظي . ومدى ارتباط الاصوات بالدلالات وكذلك وقفا عند كثير من الظواهر الصوتية كالاعلال ، والابدال ، و الادغام، والوقف ، والحذف ، والتخفيف والاستثقال ، والتوافق الحركي وغير ذلك محاولين تقديم العلل لتبرير هذه التحولات الصوتية التي تعتور الالفاظ ، مدركين إلى حدّ بعيد الاسس الفسيولوجية في تكوين الاصوات المختلفة، وذلك بفحص عمليات النطق . وتحديد مواضعها بالنسبة لكل صوت. ودرجة اتصالها ، وغير ذلك من البحوث الصوتية المختلفة التي اكتسبت في اكثر وجوهها اعتراف علم اللسانيات الحديث ، والتي نعدم اكثرها في مباحث اليونانيين والرومانيين ، « اذ قامت الدراسات الصوتية عند هؤلاء في جملتها على بيان الآثار السمعية التي تتركها الاصوات في الاذن». (٤٨)

ولا نكاد نجد فروقاً جوهرية بين دراسات المتقدمين في هذا المجال ، وما توصل اليه الدرس الحديث ، ولاستنباط هذه الحقيقة لابد لنا من الرجوع

إلى بدايات الدرس الصوتي عند العرب ، واول مايطالعنا في هذا الميدان الخليل بن احمد الفراهيدي في ابجديته الصوتية المعروفة ، فقد قسّم الاصوات بحسب مخارجها مبتدئاً بالمجموعة الحلقية ومنتهياً بالمجموعة الشفوية ، وبحسب التقارب او التباعد الحاصل بين هذه المجموعات من حيث مخارجها، وبحسب ماتشترك فيه كل مجموعة من صفات صوتية ، ناظراً إلى جهاز النطق عند الانسان . متعرفاً على حدوده وباجزائه المختلفة . وقد استقر له ترتيب الاصوات العربية بايرادها على مجموعتين اثنتين ، تمثل كل مجموعة صنفاً من الاصوات يختلف في الخواص والسمات عن الاخر .

يقول الليث : « قال الخليل : في العربية تسعة وعشرون حرفاً ، منها خمسة وعشرون حرفاً صحاحاً لها احياز ومخارج ، واربعة هوائية ، وهي : الواو ، والياء ، والالف اللينة ، والهمزة » (٤٩) وقد رتّب الخليل الحروف الصحيحة والهوائية بحسب مخارجها على النحو الاتي :

حلقية وهي : ع ، ح ، هـ ، خ ، غ ، ولهوية (ومبدؤها من اللهاة) وهي : ق ، ك. وشجرية (ومبدؤها من شجر الفم ، اي مفرجه) وهي : ج ،ش. واسلية (من اسلة اللسان وهي مستدق طرفه) وهي : ص ، س ، ز . ونطعية (من نطع —سقف— الغار ، وهو الاخدود بين اللحيين من داخل الفم الاعلى (وهي : ت ، ط ، د. ولثوية (ذلق اللسان) وهي : ظ، ذ، ث. وشفوية . وهي : ف ، ب ، م. وهذه هي الحروف الصحاح امّا الهوائية فهي : ي ، و ، ا ، الهمزة ، وهي «هاوية لايتعلق بها شيء ».

ثم تلاه سيبويه بأن رتبها على النحو الذي يشير اليه قوله : «هذا باب عدد الحروف العربية ومخارجها ، ومهموسها ، ومجهورها ، واحوال مجهورها، ومهموسها ، واختلافها . فأصل الحروف العربية تسعة وعشرون حرفاً : الهمزة ، والالف ، والهاء ، والعين ، والحاء . والغين ، والخاء ، والكاف، والقاف ، والضاد ، والجيم ، والشين ، والياء ، واللام ، والراء ، والنون ،

والطاء ، والدال ، والتاء ، والصاد ، والزاي ، والسين ، والظاء ، والذال ، والثاء ، والفاء ، والباء ، والميم ، والواو . وتكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هنّ فروع ، واصلها من التسعة والعشرين ، وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار ، وهي النون الخفيفة ، والهمزة التي بين بين ، والالف التي تمال امالة شديدة ، والشين التي كالجيم ، والصاد التي كالزاي ، والف التفخيم ...» (٥٠) وقد وزّع سيبويه هذه الحروف بحسب مخارجها على النحو الذي يشير اليه الجدول رقم (١). (٥١) وبالاضافة إلى مايسجله بعض المحدثين (٥٢) على الخليل من اضطراب واضح في ترتيب الاصوات ، وعلى الرغم من أنّ الاساس الذي اعتمده سيبويه في تصنيف الأصوات هو ماجاء به الخليل ، فانا نجد اختلافاً بيّناً بين الرجلين في هذا المجال يمكن تحديده في النقاط الآتية :

أولاً :

جعل الخليل الهمزة آخراً ، وهي عنده (هوائية) ، بينما جعلها سيبويه اولاً ، وهي عنده (حلقية) . ورأي سيبويه معتمد من لدن ابن دريد في جمهرته ، والزمخشري في اساس بلاغته (٥٣) والذي يبدو أن الخليل كان يدرك ماذهب اليه سيبويه من أن الهمزة أعمق مخرجاً ، غير أنّه واجدها تتخير دائماً بأن تكون أولاً ، وثانياً ، وثالثاً ، مما حدا به إلى أن يعدّها ضمن الحروف الهوائية (حروف العلة) . وهي اليوم من الاحرف التي صعب على الباحثين التحقق من طبيعتها من حيث الصحة والاعتدال اضافة إلى أنها لاتمالك صورة كتابية ثابتة . فلم تنسب عند الخليل إلى حيّز أو مخرج معين من اللسان . وفي مقدمة العين مايشير إلى هذا التعليل .

ثانياً :

وقد اختلف الرجلان أيضاً في تقديم وتأخير بعض الأصوات على بعضها . فيذكر الخليل مثلاً القاف قبل الكاف ، والعكس عند سيبويه ، ويقدّم الصاد على السين والزاي ، بينما يجعل سيبويه الزاي أولاً ، والصاد أخيراً .

وغير ذلك مما لايخفى على المتأمل لترتيب كلٍّ منهما . ومع هذا فانّا نجد الخليل قد أتى في الواقع بأهم خاصة من خواص الحروف اللينة ، وهي حرية مرور الهواء حال النطق بها ، فلا يقف في طريقها عائق ، أو((لايتعلق بها شيء)) على حد تعبيره ، انها في الهواء ، ولا يمنع هواءَها شيء ، وانما ينسلّ إلى الخارج طليقاً ، واذا اردنا أن ننسبها إلى حيّز مانسبناها إلى الهواء. ووصفناها بأنها «هوائية» كما صرّح هو بذلك أكثر من مرة. (٥٤)

كما أنّ الخليل ومن بعده سيبويه قد استطاعا أن يقدّما تقسيماً يقترب — كما سنرى — إلى حدّ بعيد مما يقرره علم الأصوات الحديث . وخاصة في ترتيب تلك الأصوات داخل مجموعات معينة ، «ومن يدري لعله لو كان قد أتيح للخليل أن يشتغل في معامل الأصوات التي يسّرها لنا العصر الحديث لكان قد وصل ، ومن بعده سيبويه إلى نتائج أدق من هذا» (٥٦) .ولا يمكن أن نتحدث عن تقسيم الاصوات عند القدماء دون أن نقف عند ابن جني لما له في هذا الميدان من دور بارز ، وتصوّر بارع لطبيعة الأصوات العربية ، وصفاتها المختلفة ، فقد وضع ترتيباً جديداً للاصوات العربية اثبتناه إلى جانب ترتيب سيبويه. ووزع كل منهما هذه الاصوات بحسب مخارجها على النحو الذي يشير اليه الجدول رقم (٢) اما تقسيم مخارج الاصوات العربية كما تفهم وتنطق اليوم وفي ضوء تشريح الجهاز النطقي، واستخدام المناهج الآلية فهي : المخرج الحنجري ومنه مخرج الهمزة والهاء. والحلقي، للعين والحاء. واللهوي القاف. والطبقي للغين والخاء والكاف. والغاري الجيم والشين والياء. واللثوي للام والراء، ويشترك مع الانفي في اخراج النون. والاسناني اللثوي مخرج السين والصاد والزاي والتاء والطاء والدال والضاد. ثم الاسناني مخرج الثاء والظاء والذال. والشفوي الاسناني للفاء. ويأتي الشفوي بعد ذلك للباء والواو. ويشترك مع الانفي في اخراج الميم. وقد يتفرع من بعض هذه المخارج اصوات فرعية بحسب المواقع .

الجدول رقم (١) في ترتيب الأصوات العربية

سيبويه (ت. ١٨٥هـ)	ابن جني (ت ٣٩٢هـ)	الترتيب الحديث	الملاحظات
الهمزة، الالف، هـ،	كذلك	الهمزة، هـ.	
ع، ح، غ، خ.			
ك	ق	ع، ح	
ق	ك	غ، خ، ق، ك	
ض	ج، ش، ي	ج، ش، ي.	
ج، ش، ي	ض	ل، ر، ن	
ل	كذلك	س، ص، ز، ت، ط	
ر	=	د، ظ	
ن	=		يلاحظ ان ابن
ط، د، ت	=	ث، ض، ذ	جني قد ذكر
ص، ز، س	=	ف	هنا النون بعد
ظ، ذ، ث	=	ب، و، م	الراء بعكس ما
ف	=		فعله عند بيان
ب، م، و	=		المخارج إذ
			وضعها قبل الراء
			وهو ما يناسب
			الترتيب الحديث.

وبتأمل هذه التقسيمات مجتمعة يمكن استنباط اوجه الشبه والاختلاف بين القدماء انفسهم، وبينهم وبين المحدثين الذين اسعفتهم الآلة وفتح المغالق امامهم علم التشريح، واول ما يبدو امامنا أن ابن جني وانْ اعتمد ترتيب سيبويه اساساً في وضع ترتيبه إلا انّه قد تفوق على سيبويه في هذا المقام، بالاحتكام إلى ما يقرره علم الاصوات الحديث، ويتضح ذلك مثلاً من تقديم ابن جني القاف على الكاف، بما يتفق والتقسيم الحديث، وتقديم ال (ج ش ي) على الضاد خلافاً لسيبويه، وهو ما يتفق ايضاً والترتيب الحديث. ومع هذا فانا نجد سيبويه ومن بعده ابن جنّي قد استطاعا ان يقدّما تقسيماً للاصوات العربية يكاد أن يتفقا فيه اتفاقاً تاماً، من جهة، ويكاد أن يقتربا فيه مما يقرره علم الاصوات الحديث، على الرغم من انّ ترتيبهما الاصوات داخل المجموعة الواحدة يختلف احياناً عما هو عليه في الترتيب الحديث، ويمكن ردّ ذلك إلى امرين اساسيين :

اولهما : انّه من المحتمل ان يكون قد حدث تطور من نوع ما للاصوات العربية من حيث مواضع نطقها منذ زمن سيبويه ، ومن بعده ابن جني إلى وقتنا الحاضر. «وهذا احتمال على كل حال . فليست لدينا ادلة يقينية تثبت او تنفي هذا التطور، لان التطور في الاصوات بالذات لا يتأكد الا في الاستماع الفعلي ... ولكننا لا نهمل فكرة التطور هذه بحال من الاحوال اعتماداً على ما نعرفه على الشاهد الملموس الان في اللهجات العامية، ففي هذه اللهجات تطورات صوتية ضخمة وواضحة اذا ما قيست بما يقابلها في اصوات اللغة الفصيحة الحالية(٥٨)

وثانيهما :

ان الوصف العلمي الدقيق للاصوات في عصرنا قد تمّ بمعية الالة وعلى ضوء علم التشريح، ولم يتأت للقدماء ذلك، ولو اتيح لهم ذلك لكانوا قد اصابوا كثيراً من اوجه الحقيقة ، ولو إلى نتائج ادق واقرب إلى ما توصل اليه المحدثون.

وعلى الرغم من انّ مجال الاتفاق بين القدماء والمحدثين اوسع من مجال الاختلاف، وعلى الرغم من انّ كثيراً من نقاط الاختلاف بين الطرفين يمكن ان نغضّ الطرف عنها وان نهملها وذلك لشدة التقارب والتداخل بين مخارج النطق ، فليس هناك في الواقع حدود فاصلة فصلاً تاما بين بعض هذه المخارج . ومن ثم فانّه من الجائز ان تنسب مجموعة من الاصوات الى مخرج معين ، وينسبها باحث آخر إلى مخرج قريب منه او متصل به ومتداخل معه . او ربمّا يرجع الخلاف بيننا وبينه (او بين غيره) إلى الملاحظة الذاتية . والخبرة الشخصية. اقول الرغم من هذا ، وغيره من الاختلافات الفردية في الخبرة الصوتية واللغوية بوجه عام بين المتكلمين (٥٩) فانه لايمكن التسليم بما جاء به القدماء في جملته وتفاصيله قياساً إلى ما تأكدّ في عصرنا، اذ نجد هنا وهناك بعض اوجه الاختلاف بين معطيات القدماء والمحدثين . بما يمكن ايجازه بالاتي(٦٠) .

أولاً :

جعل سيبويه خلافاً للخليل الهمزة اول الاصوات العربية مخرجاً ، وهو ما ذهب اليه ابن جنّي، وهذا حكم سليم بالنظر الحديث ، مع فارق واحد هو ان القدماء ، قد جعلوا مخرج الهمزة من (اقصى الحلق) . ومخرجها عند المحدثين من (الحنجرة) . والحنجرة سابقة للحلق ، «ويمكن قبول رايهم — اعني القدماء — بافتراض انهم ربما اطلقوا الحلق على منطقة واسعة تشمل الحنجرة وغيرها، وتكون الحنجرة حينئذ هي المقصودة بـ (اقصى الحلق) على الرغم من ان القدماء لم يشيروا إلى الحنجرة في كلامهم ولم يعدّوها من مخارج الاصوات العربية(٦١).

ثانياً :

عدّ سيبويه ووافقه ابن جني (الالف) من ذوات المخارج ، ومخرجها عندهما من (اقصى الحلق) . ولم يذكرها المحدثون منسوبة إلى مخرج، معين بوصفها حرف مدّ يمثّل في اللغة العربية وفي كل مواضعه حركة

جدول رقم (٢) : مخارج الاصوات العربية قديماً وحديثاً .

ترتيب	موضع المخرج	سيبويه	ابن جني	العصر الحديث	الملاحظات
١–	اقصى الحلق	الهمزة ، ه – الالف	كذلك	الهمزة ، الهاء (حنجرية)	المخارج : ١، ٢، ٣
٢–	وسط الحلق	ع ، ح	=	كذلك (حلقية)	اصوات حلقية مع
٣–	ادنى الفم	غ ، خ	=	ق (لهوية)	اختلاف في الموضع الحلقي بعداً او قرباً .
٤–	مما فوق الثنايا من اقصى اللسان وما فوقه من الحنك الاعلى	ق	=	غ ، خ ، ك ، و	اصوات طبقية في العرف الحديث ومخرجها اقصى الحنك.
٥–	من اسفل من ذلك وادنى الى مقدم الفم	ك	=	— — —	
٦–	من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الاعلى .	ج ، ش ، ي	=	كذلك (غارية)	سماها القدماء (شجرية) نسبة الى شجرة الفم .
٧–	من اول حافة اللسان ومايليها من الاضراس	ض	=	— — —	
٨–	من ادنى حافة اللسان الى منتهى طرفه فما فوق مقدم الاسنان .	ل	=	ل ، ر ، ن	واصطلح عليها حديثاً بـ (اللثوية)
٩–	من طرف اللسان بينه وبين مافوق الثنايا	ن	=	كذلك .	بالاشتراك مع المخرج اللثوي .
١٠–	من مخرج النون غير انه ادخل في ظهر اللسان	ر	=	— — —	
١١–	مما بين طرف اللسان واصول الثنايا	ط ، د ، ت .	=	ز ، س ، ص	من مخرج واحد هو
١١–	مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا	ز ، س ، ص .	=	ض ، ط ، د ، ت	الاسناني اللثوي .
١٣–	مما بين طرف اللسان واطراف الثنايا	ظ ، ذ ، ث .	=	كذلك	اصوات اسنانية. اومما بين الاسنان.
١٤–	من باطن الشفة السفلى واطراف الثنايا العليا.	ف	=	=	صوت اسناني شفوي
١٥–	مما بين الشفتين .	ب ، م ، و	=	=	اصوات شفوية
١٦–	من الخياشيم	النون الخفيفة	=	— —	يشترك في اخراجها اللثوي والانفي.

هي الفتحة الطويلة، وما نطقها الا نتيجة لهيئة حجرة الرنين الفموية ، لا لأقفال ، ولا تضييق في مخرج بعينه ، شأنها في ذلك شان العلل والحركات «فليس للالف نقطة انتاج معينة على طول مجرى الهواء لان اللسان يكون معها في واقع الامر في وضع اراحة اي: ممتداً(٦٢) .

وهذا ماشعر به الخليل كما اشرنا حين تصوّر انها تخرج من مكان لايمكن رصده . اذ وجدها تتغير دائماً بان تكون اولاً ، وثانياً ، وثالثاً . فدفعه ذلك الى اعتبارها حرفاً هوائياً وضمّها الى حروف العلة . وقد يعترض البعض على اعتبار الالف حركة في كل مواضعه بالياء والواو ، وقد ذكرا في تقسيم المحدثين ، وهذا الاعتراض مردود لان الياء والواو جانبين (٦٣) الاول كونهما حركتين طويلتين ايضاً هما : الضمة والكسرة . والثاني كونهما من الاصوات الصامته وهما مذكوران في تقسيم سيبويه وابن جنّي بهذا الوصف الاخير ، بدليل وضع الياء مع الجيم والشين . وهذا ما لا يمكن عمله بالنسبة للياء المديّة (اي : الكسرة الطويلة) .

ثالثاً :

واذا كان حكم سيبويه وابن جني على الهمزة بانها اول الحروف مخرجاً حكماً سليماً لا غبار عليه بالمنظور الحديث، فانما يقع الاعتراض عليهما من جهة جعلهما الواو آخر الحروف مخرجاً، واعتباره حرفاً شفوياً، اذ أنّ البحوث الحديثة تثبت أنّ «الواو في نحو (ولد) تخرج من اقصى الحنك اي من منطقة الكاف او ما يقرب منها مع اتخاذ الشفتين وضعاً معيناً» ولكن ذلك لا يكفي لعدّها شفويّة . واذا اردنا أن نجمع بين هاتين الجهتين يمكن القول بانّ الواو (حنكية ـ قصيّة) اي (من اقصى الحنك) شفوية(٦٤) . وربما يكون وضعها مع الكاف واخوتها ادق من وضعها مع الباء والميم على الرغم من انّ بعض المحدثين قد اعتمدوا راي سيبويه في عدّ الواو شفويه (٦٥).

رابعاً :

أخّر سيبويه وابن جني (القاف) في الترتيب عن (الغين والخاء والكاف) مع أنّ القاف مخرجها عند اللهاة، ومخرج الثلاث الاخريات في الطبق، وهو

الجزء الرخو من سقف امام اللهاة مباشرة، ولهذا السبب يضع المحدثون القاف قبل الغين والخاء سابقة لهما لا تالية، ومنهم من يضمّ القاف الى الغين والخاء، ويسمّي الثلاثة بـ (الاحرف اللهوية) (٦٦) .

خامساً :

قدّم سيبويه وابن جني الضاد في الذكر والمخرج، وحقها اليوم ـ كما سنرى ـ ان تذكر في موضع متأخر، بان توضع مع المجموعة الاسنانية اللثوية، وهي: (ط، د، ت) هذا اذا اغفلنا حقيقة ما اصاب نطق الضاد عبر العصور، فقد فقدنا اليوم نطقه القديم تماماً، وخرجت به كل لهجه عربية مخرجاً جديداً متراوحاً بين الظاء، والدال المفخمة، والطاء، ومن غيرها يرى فريق وجوب التسليم بالوصف القديم للضاد (٦٧) .

سادساً :

جعل سيبويه ووافقه ابن جني مخرج (الصاد، والزاي، والسين) من بين طرف اللسان وفويق الثنايا، فهو على هذا الاساس يلي مخرج (الطاء، والدال، والتاء). ويُعدّ اليوم العكس، فيتقدم (الصاد، والزاي، والسين) مخرجاً ورتبة ثم تليه مجموعة (الطاء، والدال، والتاء). والملاحظ في نطقنا الحالي للزاي، والسين، والصاد، هو وضع طرف اللسان خلف الاسنان العليا مع التقاء مقدّم اللسان باللثة التقاءً خفيفاً من شأنه ان يحدث الاحتكاك الذي نسمعه عند نطقها ومعنى هذا أنّ هذه الاصوات (سنيّه) لو نظرنا الى الوضع الاول. ولكنها (لثوية) بالنسبة الى الوضع الثاني. ومعناه ايضاً صحة تسميتها بـ (اسنانيه ـ لثوية) بالاعتبارين معاً. وهذا هو الذي دفعنا الى ضمّ الضاد والطاء والدال والتاء معها وجعلها من مخرج واحد.

سابعاً :

اما ترتيب بقية الأصوات عند سيبويه وابن جني فهو ترتيب معقول ومقبول بل ان بعضها كما في حالة (الفاء، والباء، والميم) مثلاً، قد بلغ غاية في الدقة، والذي يعكر صفاء الرجلين ومن تابعهما من القدماء هو نسبة بعض هذه الاصوات

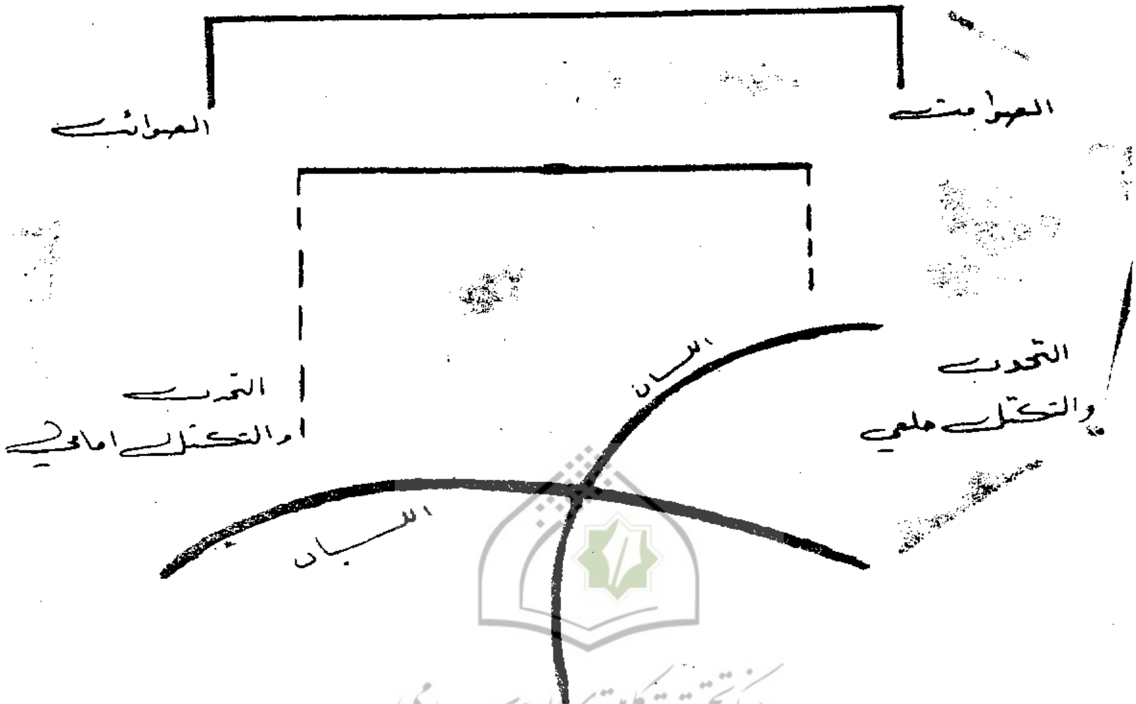
الى مخارج يختلف الدرس الحديث معهم فيها، وسوف تتضح ابعاد هذا الاختلاف وغيره اكثر في موضع لاحق، حيث ستتحدث عن تقسيم جديد للاصوات العربية بالنسبة لصفاتها .

صفات الأصوات : لما كان المخرج الواحد مشتملا على اكثر من صوت واحد، فقد تمّ تقسيم الاصوات تقسيماً جديداً وذلك بحسب صفاتها، ولما كانت البيئة الصوتية اساساً في هذا التقسيم الفينا نوعين رئيسيين من الاصوات هما: الاصوات الصائتة Vowels ، والاصوات الصامتة Consononts (٦٨) ولعلّ الفرق الاساس بينهما هو قوّة الوضوح السمعي أو عدم قوته فيهما، فمن ابرز خصائص الصوائت (الحركات) هو قوّة الوضوح السمعي فيها ، والذي تقرره وتحدده وسائل خاصة معتمدة في تصنيف الاصوات وبيان صفاتها ومن اهمها طبيعة مجرى الاداء الصوتي، ففي الاصوات الصائتة يكون هذا المجرى اوسع مما هو عليه في الاصوات الصامتة، كماأن وضع اللسان من حيث قربه أو بعده من سقف الفم ، وطبيعة تكتله اماماً او خلفاً ، ودرجة تحدّبه (الشكل ١) ووضع الشفتين وطريقة مرور الهواء من الحلق والفم والانف. كلها وسائل يعتمدة في بيان نوع الصوت من حيث كونه صائتاً او صامتاً. كما أن تلك الوسائل تساعد على بيان صفات كلٍّ من الصوائت والصوامت . فمن الصوائت ما يوصف بالضيق close (high) كما في (I) حيث يكون وسط اللسان في (I) في اقصى حالة ممكنة من الارتفاع (دون ان يزيد الارتفاع فيوجد احتكاك يحوّله الى نصف علة (حركة). ومثله (u) دون فقدان علّيته .

ومنها ما يوصف بـ (نصف ضيق) halfclose (mid-high) ، كما في (e) حيث ينزل وسط اللسان معه في اتجاه قاع الفم بنسبة الثلث .

ومنها ما يوصف بـ (واسع open (low)) كما في (a) حيث يكون اللسان معه راقداً وممتداً في الفم في وضع يشبه الاراحة.

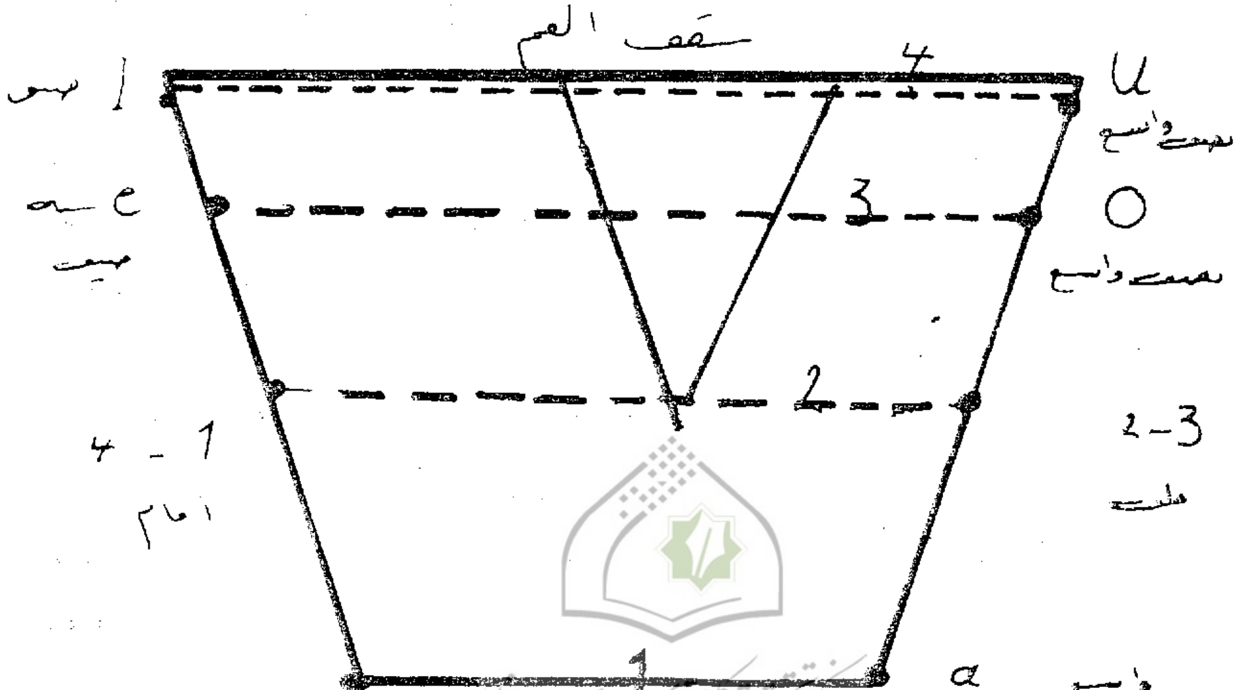
الشكل ١ . الصوامت والصوائت



ومنها ما يوصف بـ (نصف واسع) mid–low half–open كما في (O) وغير ذلك من صفات الصوائت (٦٩) .

وجملة القول ان الصائت صوت يتميز بأنّه الصوت الذي يحدث اثناء النطق به ان يمرّ الهواء حراً طليقاً خلال الحلق والفم، دون أن يقف في طريقه عائق او حائل. ودون أن يضيق مجرى الهواء ضيقاً من شأنه أن يحدث احتكاكاً مسموعاً . وكلّ صوت لا ينطبق عليه هذا التعريف فهو صوت صامت. فالصوت الصامت اذن هو الصوت الذي يحدث اثناء النطق به اعتراض أو عائق في مجرى الهواء. سواء كان الاعتراض كاملاً كما في نطق اصوات (الدال) أو (الطاء) او (التاء)، أم كان الاعتراض جزئياً من شأنه أن يسمح بمرور الهواء ولكن بصورة ينتج عنها احتكاك مسموع . كما في نطق اصوات (الحاء) او (الخاء) او (الغين) .

الشكل "٢" تقسيم الصوائت.



وقد تمّ تقسيم الاصوات الصامتة بدورها الى اقسام عديدة وباعتبارات خاصة بغية تمييزها فقسمت من حيث وضع الاوتار الصوتية الى :

أصوات مجهورة وأصوات مهموسة : او صوتية. وغير صوتية. وفي الاصوات المجهورة تكون الاوتار الصوتية غير مقفلة اقفالاً تاماً. بحيث لا ينبجس الهواء من ورائها يتسرب ابداً كما يحدث من المرء عند رفع حمل ثقيل. وكذلك عند نطق الهمزة مشكلة بالسكون. وانما تتلاصق الاوتار الصوتية بخفة فتدع للهواء فرصة التسرب من بينها. اذ ترتعش او (تتذبذب) الاوتار الصوتية عند النطق محدثة اثراً سمعياً ليناً يسمّى الجهر Voiced . واصواته في العربية اليوم ستة عشر صوتاً هي : (الالف ـ ج ـ ي ـ ع ـ غ ـ ض ـ ل ـ ن ـ ر ـ د ـ ز ـ ط ـ ذ ـ ب ـ م ـ و). ويضاف اليها

الصوائت القصيرة : الفتحة والضمة والكسرة. اما في الاصوات المهموسة، ففيها تتقارب الاوتار الصوتية دون التصاق ،فيحتك الهواء الرئوي بها حين صعوده إلى خارجٍ دون ارتعـــاش او تذبذب محدثاً ما نسميه بالهمس (Voiceless)،واصواته في العربية ثلاثة عشر هي (الهمزة هـ— ح — خ — ك — ش ص — ت — س — ث — ف — ، ق، ط)

ومن الجدير بالذكر أنّ الاصوات المجهورة اقوى جرساً من المهموسة في حين تكون الاصوات المهموسة اقوى نطقاً في مستوى المجهود المبذول لما يصحب بعضها من استطالة كالزاي والسين، والصاد. كما ان من الاصوات ما ينتقل من حالة الجهر الى الهمسّ وبالعكس تحت تأثير الاصوات المجاورة أو حسب موقع الصوت من البنيه اولاً او وسطاً او آخراً ..

وهناك جملة من الاختبارات يمكن ان يجريها أي شخص لمعرفة ما اذا كان الصوت مجهوراً أو مهموساً منها : نطق الحرف المراد اختباره مشكلاً بالسكون ووضع اطراف الاصابع على الحنجرة تحت الذقن (فوق تفاحة آدم) فان احسست باهتزاز وارتعاش تحت اطراف الاصابع فهذا صوت مجهور، وإلا فهو مهموس. ومنها ايضاً : وضع اصابعنا في آذاننا ثم ننطق الصوت فنحس برنّته في رءوسنا علامة الجهر. وإلا فهو الهمس .

ومن خلال درجات انفتاح الاوتار الصوتية او اقفالها امكن تقسيم الاصوات إلى مجموعات رئيسية هي :

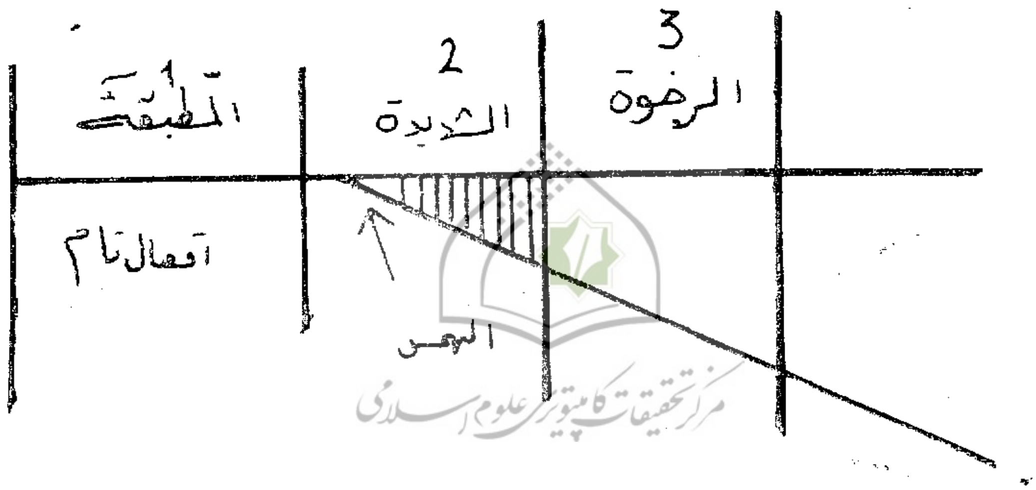
١ — الاصوات الشديدة : وفيها يقفل المجرى الفموي في طريق هواء الرئتين ويبقى مجرى الانف مفتوحاً مما يمنع الصوت من ان يجري حراً. ومن هذه الاصوات (الهمزة — ق — ب — ك — ط — د — ت — والجيم قديماً). وقد كانت تنطق مثل الكاف التركية مثل كلمة (كاء) اي انها كانت مشجرة(٧٠). وما زال كثير من البدو ينطقها كذلك حتى اليوم .

٢ — الاصوات الرخوة : وهي التي يضيق فيها المجرى الفموي قليلاً او كثيراً بحسب درجة الحاجز الذي يعترض الهواء، وهي اصوات اا (هـ —

ح — غ — ش — ص — ض — ز — س — ظ — ذ — ف)التي يحدث عند النطق بها اثر صوتي احتكاكي .

٣— المتوسطة بين الشدة والرخاوة وهي اصوات ال (الالف— ع —ي — ل — ن— ر — م — و). ويمكن التمييز بين الشديدة والرخوة في اننا لا نستطيع في الشديدة أن نطيل النطق، لان الهواء الرئوي الخارج ينبجس مرة واحدة ؛ بينما نستطيع ذلك في الرخوة لمرور الهواء حراً طليقاً.

اما الاصوات المتوسطة فتحددها جزئية المانع وعدم قوته. فنستطيع ان ننطقها في مدّ قصير .



٤ — الاصوات المستعيلة والمنخفضة : والمستعيلة ما يستعلي اللسان عند تلفظها ويُرفع نحو الحنك وهي اصوات ال (غ — خ — ق — ظ — ض — ط) . اما المنخفضة او ما يُسمّى بـ (المستفلة). اي التي يستفل اللسان عند تلفظها ، فهي باقي الحروف .

وتوجد ضمن الاصوات المستعلية اربعة حروف معقدة المخارج، اذ يضاف اليها شبه مخرج ثان تشترك فيه هذه الاربعة. وهو رفع اللسان نحو ما يليه من الحنك مع تقلّص في الحلق واقصى الفم . وهذه السلسلة الصوتية مما تتميز به اصوات العربية عن غيرها. وهي حروف الاطباق (ض — ط — ص — ظ) .

فهذه اصوات مطبقة emphntiques ،ويقابلها في الترقيق ال(ذ ـ ت ـ س). فالاطباق في العربية اذن نوع من الاستعلاء، وعكسه الانطباق. وهذا الضرب من النطق للحروف المطبقة سائد في كلّ اللهجات العربية والارامية المستعملة اليوم .

واذا اردنا الازواج المتقابلة في الاطباق والترقيق وجدناها ثلاثة فقط هي :

ظ ذ// ط ت //ص س// .

امّـا الضاد فلا مقابـل لهـا. لتعقـد مخرجهـا واختلاف القدمـاء والمحدثين حوله(٧٠). ويبدو انها كانت تشبه اللام من بعض الوجود، والفرق بينهمـا هو ان الضّاد من الحروف المطبقة كالصاد، وانهّا من ذوات الدويّ، واللام غير مطبقة صوتية محضة (مجهورة). فالضاد العتيقة تبدو حرفاً غريباً جداً غير موجود في لغة من اللغات الا العربية، ولهذا كني عن العرب بالناطقين بالضاد، ويغلب على النطق ان النطق القديم للضاد لا يوجد الان عند أحد من العرب، غير ان لها نطقاً قريباً جداً منه عند اهل حضرموت وهو كاللام المطبقة .ويظهر أن الاندلسيين كانوا ينطقون الضاد مثل ذلك ،ولذلك استبدلها الاسبان بـال (ld) في الكلمات المستعارة في لغتهم ومثال ذلك ان كلمة القاضي صارت في الاسبانية (alcalde). كما ان في بعض لهجات العرب من يلهج بالضاد لاماً نحو : الطجع في اضطجع .

٥ ـ اصوات الذلاقة والاصمات : والذلاقة حدوث الصوت بين ذلق اللسان اي طرفه ومقدم الغار الاعلى. وهي اصوات ال (ل ـ ر ـ ن ـ ف ـ ب ـ م) ومن هذه الاصوات ثلاثة (شفوية) لا اثر للسان فيها وهي اصوات ال (ف ـ ب ـ م)وثلاثة (لسانية) وهي اصوات ال (ل ـ ر ـ ن). اما بقية الاصوات فمصمتة .

٦ ـ الاصوات الصفيرية : ويحدث عند النطق بها صفير . وهي اصوات ال (ص ـ س ـ ز). واذا كنا قد اطلنا الحديث عن صفات الاصوات فانما نريد بذلك تحديد مدى فهم اللغويين العرب القدماء لهذه الحقائق .

ومدى اوجه الاختلاف بين ما قرره اولئك المتقدمون، وما اثبتته وقائع البحث اللغوي الحديث.

فنقول : إنّ للقدماء في التفريق بين الاصوات، واقسامها، وصفاتها اراء تتفق حيناً، وتختلف حيناً آخر عمّا نعرفه في وقتنا الحاضر، ولعل اول ما يطالعنا في هذا المجال أن القدماء قد اطلقوا مصطلح (الحرف) على كل صوت بسيط في الكلام سواء كان هذا الحرف صحيحاً ام حركة طويلة كحركة المدّ واللين. وأنّ الاصوات الصامتة هي التي استحوذت على اهتمام القدماء وعنايتهم، وانهم قد وجهوا اليها معظم جهودهم، وبحوثهم الصوتية، فهي التي اخضعوها للتصنيف والتقسيم دون الحركات، وهي التي نظروا فيها نظراً جاداً من حيث مخارجها وصفاتها المختلفة. (٧٢) وانهم كذلك قد نظروا إلى الصورة المكتوبة فوجدوا حروفاً تدوّن فوقها (الحركات) او (العلامات) كالفتحة والضمة والكسرة. فوصفوها بانّها (حروف متحركة). فاذْ وجدوا حرفاً لا تدوّن فوقه تلك الحركات وصفوه بـ (الساكن)، دون أن يفرقوا بين المتحرك والساكن. ومن الثابت عندنا ان السكون لا يقابل انعدام الحركة. وان الحرف المتحرك عند المحدثين (صوت صامت). كما انّ الحرف الساكن عند القدماء ما كان خالياً من الحركات. وعند المحدثين غير ذلك، ومن هنا وجدنا للقدماء فهماً آخر للصوت الصامت، فهو عندهم الذي لا يمكن نطقه بدون حركة. وهو تعريف خاطىء ولا شك. اذ انّ من اليسير نطق الصوت الصامت وحده. بل ان هنالك كلمات كاملة في بعض اللغات تتألف الواحدة منها من صوت صامت واحد فقط (٧٣). واذا كان القدماء قد اهتموا بالحروف اكثر من الحركات لوجود رموز مستقلة للحروف دون الحركات التي ليس لها مثل هذه الرموز والعلامات

المعروفة (ـَـــُـــِـ) علامات حديثة نسبياً اذ هي من ابتكار ابي الاسود

الدؤلي (ت ٦٩هـ) على ارجح الاراء (٧٤)، وليست لها بالطبع في نظرهم اهمية الحروف المستقلة، وهذا في واقع الامر منهج خاطىء تابع من النظر في الصورة المكتوبة دون النطق وهو الاساس في الدرس الصوتي، وقد كان اغفالهم له سبباً في صعوبه فهم كثير من النظريات العروضية وما منها من العلل والزحافات التي بُنيت في اكثر وجوهها على طبيعة الخط لا النطق على الرغم من النحاة قد ذكروا ان خط العروض غير قياسي لانه مبني على اللفظ وكان كذلك سبباً في اضطراب بعض اوجه النظام الاعرابي في الجملة العربية كما هو الحال في اعراب الاسماء الستة، والمثنى وجمع المذكر السالم، والافعال الخمسة .

اقول اننا في الوقت الذي نسجّل على القدماء مثل هذه الهفوات فانا لا نَعدم ان نعثر لهم على اقوال واراء تشير في جملتها إلى كثير من الحقائق العلمية التي تتفق مع ما نألفه اليوم من هذه الحقائق. فالحركات انما سميت كذلك — على رأيهم لانها تحرك الحرف وتقلقله، او كما قال بعضهم، لانها تجذبه نحو (الحروف) التي هي اجزاؤها فالفتحة تجذبه نحو الالف، والكسرة نحو الياء، والضمة نحو الواو، وهذا وان كان يعلل تسمية تلك الأصوات بالحركات دون أن يوضح خصائصها الصوتية لكنّه يشعرنا بادراك القدماء لخواص الحركات، وذلك بسبب ربطها بحروف المدّ (الألف — والياء والواو) وعدّها اجزاء منها، متولدة عنها ، بل ان منهم من يرى ان حروف المدّ هذه انما تولدت عن الحركات، بدليل أنّ كل حركة — على رأيهم — اذا اشبعت نشأ منها حرف مدّ يجانسها وعلى هذا فالحركة «سابقة الحرف لتوقف وجود الحرف المبدوء به عليها» (٧٥)، وعلى هذا أيضاً يجب اعتبار الحركات بداية لحروف المدّ ومعنى لها .

وعلى الرغم من انّ اللغويين القدماء قد ادخلوا الحروف المديّة، مع الحروف الساكنة، فوجدنا الخليل لا يربط الحروف المدية تلك بمخرج معين، وانما ينسبها إلى الهواء، فهي (هوائية)، اي انها في الهواء، وفي

حيز واحد، لانها لا يتعلق بها شيء (٧٦) إلا اننا نجد هؤلاء اللغويين وعلى رأسهم الخليل قد حددوا خواص هذه الحروف المديّة تحديداً يتفق تمام الاتفاق مع ما توصل اليه المحدثون ، وبنوا العلاقة بينها وبين الحركات القصيرة.

فاذا كانت الحروف المديّة كما فهمها الخليل «هوائية» فمعنى انه يدرك كونها صنفاً من الاصوات يختلف عن بقية الحروف التي حدد مخارجها، ونسبها إلى احيازها، وقد ادرك ابن جني ذلك ايضاً، فعنده ان حروف المدّ حركات، وان (هواءها) يمرّ حراً طليقاً دون مانع يمنعه، في حين يدرك أن الاصوات الصامتة يقف هواؤها وقوفاً تاماً فلا «تجد للصوت منفذاً هناك» (٧٧)، او لا يقف مطلقاً، وانما يتسرب من خلال طريق ضيّق محدثاً اهتزازاً معيناً ذا اثر سمعي .

وقد نهج الخليل ومن تابعه منهجاً سليماً في بيان حقيقة الصوت، فكان اذا اراد أنْ يحقق صوتاً ليحدد مخرجاً جاء بالصوت ساكناً وقبله الف، فقال : إبْ — إتْ. وقد اشار ابن جني إلى هذا بقوله : «وسبيلك اذا اردت اعتبار صدى الحرف أن تأتي به ساكناً لا متحركاً، لان الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره، وتجذبه إلى جهة الحرف التي هي بعضه، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله، لان الساكن لا يمكن الابتداء به فنقول : إنْ — اقْ — اج ، وكذلك سائر الحروف ...» (٧٨) ويتضح فهم ابن جني العميق لصنفي الأصوات الصامتة وحروف المد وهي الحركات بقوله : «فان اتسع مخرج الحرف حتى لا يقتطع الصوت — يقصد الهواء — عن امتداده واستطالته استمر الصوت ممتداً حتى ينفد، فيفضي حسيراً إلى مخرج الهمزة، فينقطع بالضرورة عندها، إذ لم يجد منقطعاً فيما فوقها، والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة : الالف ثم الياء، ثم الواو» (٧٩) .

ومما يثير الاعجاب أن نجد ابا علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) قد تنبّه إلى العلاقة بين الحركات القصيرة وحروف المدّ (الحركات الطويلة)، واوضح تلك العلاقة بما لا يمكن الاعتراض عليه من لدن المعاصرين، فقد قرر ان

«هذا الذي يسميه اهل العربية حركة حقيقة انه حرف، فالفتحة كالالف، والضمة كالواو، والكسرة كالياء في انهن حروف، كما انهنّ حروفٌ. إلاّ انّ الصوت بهن اقل من الصوت بالالف واختيها، وقلّة الصوت بهن ليس يخرجهن عن أن يكنّ حروفاً، لان من الحروف ما هو اكثر صوتاً من حروف كـ (الصاد) و (النون) الساكنة، فكما أن النون عندنا حرف وان كان اقل صوتاً من الصاد كذلك يجب أن تكون هذه عندنا حروفاً، وانْ كان الصوت بهنّ أقلّ من الصوت بما هنّ منه.

فالمسمّى حركة والحرف الذي معه هما في الحقيقة حركتان للناطق، وكل واحد منهما حرف، ويدلك على ما ذكرناه من هذا قيام كل واحد من الحرف والمسمى حركة مقام صاحبه، ألا ترى ان الحركة في (جَمَزَى) قد قامت مقام الالف عندهم في (حبارى)، فلم يقولوا في الاضافة اليها إلاّ (جمزيّ) كما لم يقولوا في الاضافة الى حبارى إلا (حباريّ)؛ واقاموا الحرف مقام الحركة في الاعراب، في نحو: يضربان، ويضربون.. وهو (يخشى) و (يغزو) و (يرمي). فاذا حذفت عوّض عنها»(٨٠).

وعند ابن جنـّي رأي يتفق الى حد بعيد مع رأي استاذه ابي علي(٨١)، فكلا الرجلين قد حدد العلاقة بين حروف المدّ والحركات القصيرة بالكمية والزمن الذي يستغرقه نطق كل واحد منهما. ففي نطق نحو (ناصر) نستنفد زمناً اطول من نطق نحو (نَصَرَ). وهذه الكمية الزمنية المضافة انما يحددها نطق (الالف) بعد الصاد.

واذا كانت اللسانيات الحديثة قد منحت الحركات وجوداً مستقلاً. باعتبارها وحروف المدّ(٨٢) من طبيعة واحدة لا فرق بينهما إلاّ من ناحية الكم، وما أحرف المد إلا اصوات طويلة وحركات قصيرة مطولة تلحل على الاصـوات المنهوكة صوتياً فتقويها، أو قل ان الحركة حرف مدّ. كما أنّ حرف المدّ حركة فانّ القدماء قد قرروا هذه الحقيقة واوضحوها إيّما توضيح وادركوا الفرق

بين الاصوات صوامتها وحركاتها، وان ما قرروه بالنسبة للحركات ينطبق عليها كلها سواء اكانت قصيرة أم طويلة كما رأينا .

امّا تقسيم الاصوات من حيث الجهر والهمس، والشدة والرخاوة، فانّا واجدون للقدماء اهتماماً خاصاً بهذه الصفات، اقتربوا في جلّ معطياتهم في هذا الشأن من الحقيقة العلمية التي يؤكدها اليوم علم الصوتيات الحديث وان ابتعدوا عن هذه الحقيقة في بعض المواضع. فالصوت المجهور عند سيبويه «حرف أُشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النّفَس أن يجري معه، حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت، فهذه حال المجهورة في الحلق والفم، إلاّ انّ النون والميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشم، فتصير فيهما غُنّةٌ، والدليل على ذلك انك لو امسكت بانفك ثم تكلّمت لرايت ذلك قد أخلّ بهما»(٨٣) . فالجهر في راي سيبويه مرتبط بالجهر الذي يحسّه الناطق في الصدر والذي يتسبب عنه تسليط هواء الرئتين على المخرج، فيحدث الجهر في المخرج نتيجة (لاشباع الاعتماد) اي ضغط الهواء على المخرج. ويتضح هذا اذا عرفنا ان مصطلح (النفس) عند سيبويه انما يريد به الهواء المتسرب تسرباً ملحوضاً حين النطق ببعض الاصوات اللغوية كالفاء والحاء والسين وغيرها .

وعلى الرغم من أن القدماء ومنهم سيبويه لم يعرفوا الاوتار الصوتية بمفهومها العضوي الفسيولوجي(٨٤) ولم يكونوا على بينّة مفصلة بكيفية حدوث الجهر والهمس . لجهلهم طبيعة عمل الاوتار الصوتية . إلا انهم قد عبروا عن هذه الاوتار بمصطلحات توحي بانهم قد ادركوا دور الاوتار الصوتية فيقولون : هو الصوت الذي يجري من الصدر أو (مجرى الصوت)، وفطنوا ايضاً الى أنّ الجهر انما يحدث عند زيادة كمية الجهر الصدري، أو (عند اشباع الاعتماد) على حد تعبير سيبويه. ونا الهمس عنده على هذا الاساس إلا «حرف اضعف الاعتماد في موضعه، حتى جرى النفس معه»(٨٥) . اما الاصوات المجهورة عند سيبويه«الهمزة والالف والعين والغين والقاف والجيم والياء . والضاد واللام والنون والراء والطاء والدال والزاي والذال والباء والميم والواو» والمهموسة

«الهاء، والخاء، والكاف، والشين، والسين، والتاء، والضاد، والثاء، والفاء»

واذا كان سيبويه قد ادرك طبيعة الاصوات مجهورها ومهموسها دون الاستعانة بما يستعين به المحدثون في الدرس الصوتي، كالمخابر والاجهزة المختلفة، فانّما نجد عنده بعض الخلط بين الاصوات واول ما يطالعنا في هذا المجال انه يَعُدّ الهمزة صوتاً مجهوراً، في حين أن نطقها انّما يتمّ بواسطة اقفال الاوتار الصوتية اقفالاً تاماً ثم تفتح هذه الاوتار فتحاً سريعاً مفاجئاً فيحدث بذلك انفجار هو الذي يسمّى (الشدة) التي هي غير (الرخاوة) كما رأينا. ولا يمكن أن يكون مع اقفال الاوتار الصوتية جهر، ومن ثمّ يخطئ سيبويه، ومن نقل عنه في اعتبار الهمزة حرفاً مجهوراً، والذي يبدو أنّ القدماء قد خلطوا بين الهمزة والالف المجهورة لان الاخيرة تحمل الهمزة في الغالب فظنوها مجهورة مثلها، والذي يبدو ايضاً ان احوال نطق الهمزة المتقلّب عند العرب فهي تارة محققة، وتارة مسهلة في صورة مدّ، وتارة ميسرة في النطق مسببة عن اختلاف ضغط الهواء الصاعد اكثر لذا هي مسببة عن حركة الاوتار الصوتية وهي التي (بين بين)، وردوها مرة للوصل ومرة اخرى القطع . هو الذي ادّى بسيبويه ومن بعدها الى عدم وصفها وصفاً دقيقاً، وتحديد صفتها الصوتية تحديد ناجحاً. وقد يكون اعتبار سيبويه الهمزة مجهورة «على سبيل التغليب في فصيلة الاصوات المجهورة»(٨٦) ناسياً انّ الهمزة المسهلة والواصلة والتي بين بين وقد خرجت عن صورة المدة او الحركة اصبحت مجهورة فهيّ في الواقع همزات في صورها الحاضرة، وانما هي مدّ أو حركة، وان وصف الهمزة لا ينطبق إلا على المحققة بينها .

وكما لم ينجح سيبويه في وصف الهمزة وصفاً دقيقاً حين عدّها مجهورة، نجد المحدثين قد اختلفوا في وصفها ايضاً، فهي عند بعضهم(٨٧) لا تكون إلا مهموسة لان الاوتار الصوتية تنطبق عند النطق بها ، ولا تتذبذب (ترتعش)، ووصفها آخرون(٨٨) بانها صوت حنجري انفجاري لا بالمهموس ولا بالمجهور، لان فتحة المزمار معها تكون مغلقة اغلاقاً تاماً، فلا يسمح للهواء بالمرور من الحنجرة

إلا حين انفراج فتحة المزمار فيخرج الهواء فجأة محدثاً صوت الهمزة، وحبس الهواء وراء المزمار ثم فتحه فجأة لنطق الهمزة يمنع جريان النفس معها هو الضابط الذي وضعه سيبويه لمعنى الجهر والهمس، فهي — اعني الهمزة — بهذا الضابط مجهورة لان النفس لا يمكن ان يجري معها، امّا بضابط ارتعاش الوترين الصوتيين فهي مهموسة لانهما يتحركان معهما بل لا يمكن ان يتحركا معها. ولهذا يرى البعض انه ليس موجباً لجعل الهمزة في وصف الجهر والهمس منزلة بين المنزلتين.

ونستنتج مما ذكره الاقدمون والمحدثون بشأن الهمزة أنّ النطق بالعربية قد تطور عبر الزمان بالمقاربة مع نظام الاصوات الذي ذكره سيبويه ونظام الاصوات في العصر الحديث، وذلك بتأثير اللهجات المحلية. ويمكن ان نتبين مثل هذه الفروق والتطورات اذا درسنا ظواهر التجويد والقراءات، ومظاهر اختلاف اللهجات.

اما القاف وهي مهموسة اليوم فقد عدّها سيبويه مجهورة، وهو محقّ في ذلك، اذ قد يكون النطق بها قديماً شبيهاً بنطق القاف الموجود عند بعض العرب، كالسودانيين الذين ينطقون القاف اليوم اقرب ما تكون الى الغين، وما يزال نطق القاف القديم باقياً عند بعض البدو. ولعل سيبويه يتكلم عن اخت هذه القاف التي كانت في ايامه.

واما (الطاء) فقد عدّها سيبويه ومن تابعه مجهورة، وتُعد اليوم (صوتاً اسنانياً لثوياً انفجارياً) فهي بهذا الاعتبار لا تكون إلا مهموسة. ونعدم أن نجد اثراً في العربية لطاء مجهورة، ولو كان مثل سيبويه من العرب طاء تختلف عن طاء اليوم لبقي اثر ذلك ولو في احدى اللهجات المنعزلة غير الهامة، كما هو الحال في القاف كما رأينا. ويبدو أن الطاء كانت قديما دالاً مفخمة، كما كانت في السامية القديمة وما الدال إلا صوت مجهور، ولهذا فالطاء — نظيرها المفخم — صوت مجهور كذلك، ولعل هذا يفسّر قول سيبويه «لولا الاطباق لكانت الطاء دالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، وخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس شيء في موضعها غيرها»(٨٩).

واذا تجاوزنا الاختلاف الحاصل بين القدماء والمحدثين حول طبيعة اصوات (الهمزة والقاف والطاء) من حيث الجهر أو الهمس، لوجدنا ان هناك اتفاقاً يكاد أن يكون تاماً بين ما قرره اولئك وهؤلاء. اما من حيث (شدة الاصوات ورخاوتها) فانا نجد القدماء قد اقتربوا ايضاً فيما ذكروه بهذا الشأن من الحقائق التي توصّل اليها المحدثون، اذا اوجز سيبويه الاصوات الشديدة والرخوة بقوله: «ومن الحروف (الشديد)، وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه، وهو الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء، والتاء، والدال، والباء، وذلك انك لو قلت الْحَجَّ ثم مددت صوتك لم يجر ذلك

ومنها (الرّخوة) وهي : الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضاء، والزاي، والسين، والظاء، والثاء، والذال، والفاء. وذلك اذا قلت الطسُّ وانْقض، واشباه ذلك اجريت فيه الصوت ان شئت.

واما (العين) فبين الرخوة والشديدة تصل إلى الترديد فيها لشبهها بالحاء(٩٠) وراى ابن جني أن مابين الشدة والرخاوة هي «الالف، والعين، والياء، واللام، والنون، والراء والميم، والواو ويجمعهالفظ: «لم يُرَوّعنا (٩١).

وفي الوقت الذي نجد فيه ان الحروف التي ذكرها الاقدمون تحت مصطلحي (الشديدة) و(الرخوة) توافق ماعند المحدثين من حروف (آنية) occlusives وحروف (متواصلة) spinantes، او حروف (الفجارية) phosive وحروف (احتكاكية) fricative، ومع اخذنا بعين الاعتبار ان المحدثين انما يصفون اصواتاً تنطق اليوم. لا كما كانت تنطق في زمن سيبويه ومن تبعه، فانا لا نجد فروقاً اساسية بين ما توصل اليه المحدثون. واذا اردنا ان نقف على اوجه الخلاف الاساسية بين الطرفين فيمكن ايجاز ذلك بالآتي:

١ ــ ان اعتبار (الجيم) شديدة، قول سليم، فهي مجهورة شديدة مثل الجيم المصرية الحالية، لكنها لم تكن مثل الجيم المصرية بعينها لان مخرج الجيم المصرية هو مخرج الكاف، ومخرج الجيم العتيقة هو مخرج الشين والياء. بما يشبه الجيم التي تنطق في العراق كما في (جمل) او (جيكاره)

العامية. اما وصف بعض المحدثين للجيم بانها (انفجارية. احتكاكية) (٩٢). فانما تأثر بالجيم الشامية، وذلك لان حبس الهواء كما يرون لا ينفرج فجأة كما في بقية الحروف الانفجارية و انما يبتعد عن الحنك ببطء يسمح للهواء بالا حتكاك، «ويبدو ان الذي جعل الجيم مع الحروف الاحتكاكية، والذي جعلها انفجارية احتكاكية لم يكن يصف الجيم الفصيحة كما وصفها القدماء وكما تنطق في العراق وانما كان يصف الجيم السورية المشربة صوت الشين بصورة مشبعة او مختلة وهي في الحالين تختلف عن وصف العلماء العرب لها ».(٩٣)

٢ — لم يذكر القدماء (الضاد) ضمن الاصوات الشديدة وتعد بنظرا المحدثين كذلك. وتنطق اليوم عند اكثر اهل المدن على هذا الاساس. ولعل انفراد الضاد بنطق صعب خاص ادى إلى اختلاف واسع بين القدماء والمحدثين حول طبيعتها الصوتية. وادّى ايضاً إلى اضمحلال صورتها الصوتية الاصيلة. ولم يبق من ينطق بها اليوم كما كانت تنطق قديماً . فقد اختلطت عند البعض بالظاء وعند آخرين بالدال المفخمة وعند غيرهم باللام المفخمة. ومن البدو من ينطقها اليوم (رخوة) وهكذا لم تبق العربية كما كانت لغة الضاد حسب خاصية هذا الصوت . يقول سيبويه «لولا الاطباق لصارت الطاء دالاً . الصاد سيناً . والظاء ذالاً. ولخرجت الضاد من الكلام لانه ليس شي من موضعها»(٩٤).

فصعوبة وصف الضاد جعلها تضمحل في النطق الحديث . وان بقيت مجموعة من الاصوات تشير اليها كما هو الحال فيما نجده عند «اهل حضرموت في نطقهم لها كاللام المطبقة كما اشرنا سابقاً.

٣ — اما (العين) فلا غبار على رأي القدماء فيها من حيث كونها متوسطة «بين الرخوة والشديدة» وان كان المحدثون يرونها صوتاً احتكاكياً»(٩٥) . ويتأكد رأي القدماء اذا حكمنا على العين على وفق الضابط الذي ذكروه «وذلك انها يمكن ان يجري الصوت معها عند الوقف عليها. الا انّ في ذلك مشقة وكلفة. ويمكن معرفة ذلك بنطقها في كلمة (ارجع) مثلاً ،ومقارنتها

بصوتي الهمزة والحاء في كلمتي (ارجىء) و (ارجح) ، اذ يمكن ان نحسّ بوقفة الهمزة الاخيرة في (ارجىء) او شدتها او انفجارها كما عبّروا ، ولا يمكن اجراء الصوت بها ونحسّ بسهولة جريان الصوت في حاء(ارجح) الاحتكاكية او الرخوة ، اما عين (ارجع) فيمكن ان يجري النفس بهاء لكن ليس بسهولة جريه في الحاء، فهي بين الهمزة الشديدة والحاء الرخوة، ولذا عبّروا عنها بانها بين الشدّة والرخاوة اي أنّ العين لا هي بالحرف الشديد ولا هي بالحرف الرخو ..» (٩٦)

٤ ــ وقد احسن القدماء صنيعاً حين اخرجوا اصوات (الالف ، والياء، واللام، والنون، والراء، والميم، والواو) من الاصوات الرخوة، على نحو ما فعله المحدثون وتبنوه(٩٧) فالنون والميم يمتازان نغنّة خيشومية، بمعنى انّ الهواء ينحبس في الفم كما هو الحال في نطق الاصوات الشديدة ، غير ان جزءاً من ذلك الهواء يخرج من الانف مما يجعلهما تترددان بين الشدة و الرخاوة، وكذلك اللام والراء فانهما يمتازان بكيفية خاصة في النطق، اذ ان انحراف اللسان باللام و تردده بالراء ، يؤدي إلى التصاق طرف اللسان بالمفارز العليا في نطق اللام ، فيمر الهواء بغزارة من جانبي اللسان بينما يلتصق طرف اللسان بالمفارز العليا ثم ينفتح فيمر الهواء بين الانغلاق والانفتاح غزيراً، وهذا الانفتاح في اللام والراء يجعلهما من الحروف الضعيفة القريبة من حروف العلة (الواو والياء). اما الواو والياء فيمتازان بانفتاح كبير جداً لقربهما من الحركات حيث يكون الانفتاح تاماً، يتسع فيه مخرج كل منهما بما لا يسمح بوقوف الهواء عنده ، ليرى ايجري به أم لا حتى يحكم عليه بالشدة او الرخاوة. ولذلك يقول النحاة العرب فيهما انهما (انصاف حروف) او (انصاف حركات) . ولا يمكن ان نستعمل عبارة (حروف العلة) لانها تشمل الالف في القديم بينما الالف في اللسانيات المعاصره فتحة طويلة ولا يمكن اعتبارها حرفاً وهذه الخاصية في الواو والياء هي التي جعلت هذين الحرفين كثيري الحذف والتغيير وهو ما يعرف بالاعلال.

الصوت والدلالة : يعدّ علم الدلالة اليوم غاية الدراسات الصوتية والنحوية والصرفية والمعجمية ، بل انه «قمة الدراسات اللغوية » (٩٨) . وقد حظيت قضايا الصوت والمعنى منذ القديم بأهمية بالغة عند العرب ، وغيرهم ، فقد بدأ البحث عن طبيعة العلاقة بين جرس الكلمة ومعناها الذي يتسق معها عند العرب في وقت مبكر ومنذ أن واجهوا مشكل الايات القرآنية واعجازها واستخراج الاحكام الشرعية واللغوية منها . سواء عند علماء الفقه والاصوليين ام عند اللغويين ، ادراكاً من هؤلاء، لاهمية قضايا الصوت والمعنى . وقيمتها الدلالية في خدمة القرآن الكريم والشريعة الاسلامية ، وحفظ نقاء العربية وصفائها ، (٩٩) وحلّ كثير من اشكالاتها الصوتية والدلالية ، وبيان القيم التعبيرية للاصوات وهي منتظمة داخل البنيات او التراكيب . وقد اتجهوا في دراساتهم هذه وجهتين :

أولاهما : دراسة الانسجام الصوتي في اللفظة الواحدة . باعتباره يوضح المستعمل من المهمل ، والفصيح من غيره ، وبيان المعايير المعتمدة في الحكم على فصاحة المفردات او التراكيب من خلال اصواتها . وقد ذهبوا في ذلك احد مذهبين :

الاول : يرى أنّ التنافر في الالفاظ انما يكون حيث (تتقارب) الاصوات في المخارج . وكان ابن دريد (ت ٣٢١هـ) وعبد الله سنان بن الخفاجي من اصحاب هذا الرأي (١٠١) .

والثاني : يرى أن التنافر انما يكون حيث (تتقارب) الاصوات في المخارج او (تتباعد) بُعداً شديداً . ومن اصحاب هذا الرأي علي بن عيسى الرماني (ت.٣٨٤هـ) (١٠٢) .

وماقدّمه الاقدمون في هذا الميدان جهد عظيم استهدف الوصول الى ادراك العلاقات بين الاصوات نفسها انسجاماً او تنافراً . والوقوف عند قوانين ذلك الانسجام أو التنافر . وغير ذلك مما يشير الى انّ عناية العرب بالدراسات الصوتية قد كانت قرينة بقضايا الاعجاز القرآني ، اذ ذهب

فريق الى انّ القرآن معجز بالمعاني ، وذهب فريق آخر الى انّه معجز بالالفاظ ثم شرعوا في التنقيب عن اسباب الجودة والتلاؤم ، أو التأخر والتنافر ، وسرعان ماامتد البحث الى عالم الشعر والى عالم اللغة عامة ، وصار الوعاء اللغوي هو الميدان (١٠٣) .

وثانيهما : دراسة القيمة التعبيرية للاصوات ، ومدى اتفاق دقة المعنى مع جرس الحرف المختار ، وهل أنّ هناك اختياراً مقصوداً للصوت ليؤدي المعنى المغاير لمايؤديه الصوت الآخر ، وهل أن مناسبة الصوت للمعنى قد وقع لهم اتفاقاً او عن قصد .

وكان الخليل (ت . ١٧٥هـ) منبع هذا الاتجاه . فقد شغلته تلك الالفاظ المعبرة عن اصوات المسموعات ورأى فيها اصواتاً محاكية للطبيعة ، وحاول اثبات نوع من الصلة الطبيعية بين جرس الحروف ودلالاتها من جهة وبين انغام الالفاظ ومعانيها الكلية من جهة اخرى ، وفي ذلك النظر تبدو الاصوات والصيغ مترابطة مع الدلالة ، وكأنّ هنالك نتيجة ضرورية للايحاء من تتابع الحروف أو بناء الكلمات . فمن حيث ارتباط الصيغ بالدلالة رأى بعضهم ان اكثر الاصول استعمالاً ، واعدلها تركيباً هو الثلاثي . وذلك «لانه حرف يبدأ به . وحرف يحشى به . وحرف يوقف عليه» (١٠٤) ومنهم من يرى انه «ليس اعتدال الثلاثي لقلة حروفه فحسب . ولو كان كذلك لكان الثنائي اكثر منهُ لانه اقلّ حروفاً ، وليس الامر كذلك .» (١٠٥)

امّا من حيث ارتباط الاصوات بالدلالة فقد لاح لنا اول الامر من خلال تفكير اللغويين القدماء في اصل اللغة ومنشئها . وكأنّهم قد تصوروا أنّ هنالك ارتباطا وثيقاً بين الاصوات والمعاني . فقد ذكر الخليل قوله : «كأنّهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا : صر . وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا : صرصر» .

وقد زاد سيبويهُ (ت . ١٨٠هـ) هذا الامر وضوحاً حين قرر قوله : «ومن التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك : النّزوان ؛

والنّقران ؛ وإنّما هذه الاشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع . ومثله العَسَلان والرتكان ... ومثل هذا الغليان ، لانه زعزعة وتحرّك، ومثله الغثيان، لانّه تجيش نفسه وتثور ، ومثله الخطران واللمعان، لانّ هذا اضطراب وتحرّك، ومثل ذلك اللهبان والصخَدان والوهجان. لانّه تحرّك الحر وثؤوره فانّما هو بمنزلة الغليان»(١٠٦)وقد تناول ابن جنّي علاقة الصوت بالدلالة من زوايا متعددة لسنا بصدد الحديث عن تفاصيلها، غير انّ بيان موجزها هنا يساعدنا في الكشف عن تفكير هذا اللغوي العربي الفذّ. وبيان خطورة الاراء التي طرحها منذ اكثر من عشرة قرون، بما يؤكد أن هذه القضية التي تشغل بال الباحثين اليوم، وتتوجه اليها انظارهم بهمة ، قد استحوذت على اهتمام لغويينا القدماء، وعالجوها بنظر ثاقب، وفكر فاحص. وما زالت آراؤها التي طرحوها موضع درس وتمحيص. ويمكن ايجاز ما طرحه ابن جني في هذا المجال بالآتي:

١ — في باب الاشتقاق الاكبر(١٠٧) يتطرق ابن جني الى المعاني الجامعة لتقليبات الاصول الثلاثية، وذلك «بأن تأخذ اصلاً من الاصول الثلاثية، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً تجتمع التراكيب الستة. وما يتصرف منها عليه»، فتقليبات الاصل (ك ل م) و (ج ب ر) للقوة والشدة اينما وقعت. وتقليبات (ق و ل) للخفوف والحركة. وتقليبات (س م ل) للاصحاب والملاينة وهكذا. مما يذكرنا بفعل ابن دريد في جمهرته(١٠٨).

ولكي لايتهم ابن جني بالتكلف والتعسف ممن يريد تطبيق نظريته هذه اكّد لنا أن ذلك وإن كان كثيراً في اللغة فهو غير مطرد في كل اصل ثلاثي « واعلم انّا لاندعي ان هذا مستمر في جميع اللغة»

٢ — وفي باب (امساس الالفاظ اشباه المعاني)(١٠٩). يرى ابن جني أن مزج صوت (الفاء) مع اصوات ال (د — ت — ط — ر — ل — ن) داخل بنية معينة يؤدي الى دلالة معينة خاصة، يقول: «ان ازدحام الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون اذا مازجتهن الفاء — مع التقديم والتأخير — فاكثر احوالها ومجموع معانيها انّها للوهن والضعف ونحوهما» ومن امثلة ذلك نذكر:

الدالف : للشيخ الضعيف: التالف، للشيء التالف. والدنف: المريض. النطف: الضعيف، والطليف والظليف :للشيء المجان، غير الثمين. والفرد : وكل فرد منفرد فهو ضعيف ومعرض للهلاك. الفارط :المتقدم وكل متقدم منفرد معرض للهلاك، والطفل: تقال للصبي لضعفه والنفل: تقال للريح المكروهة المنبوذة. وهكذا .

٣ — وفي باب (تصاقب الالفاظ لتصاقب المعاني)(١١٠)، يتحدث عن التقارب الذي يربط بين الالفاظ حين تتقارب دلالات معانيها، وهذا باب على رأي ابن جني «اكثر كلام العرب عليه وان كان غفلاً مسهواً عنه» وامثلته في الخصائص كثيرة، نذكر منها أن بين الفعل (أزّ) والفعل (هزّ) تقارب صوتي نابع من تقاربهما المعنوي.فالهمزة والهاء من مخرج واحد ، ولما كانت الهمزة أبعد مخرجاً من الهاء، فانّ العرب قد خصوا المعنى القوي للفظ القوي . ولذلك يقول تعالى: «ألم تر انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم ازّاً»، والازّ: القلق والازعاج وهو اقوى في النفس من الهزّ .

والعسف والاسف معناهما متصاقبان لانّ صوتيهما متصاقبان. فالعسف السير على غير هدى، والاسف اغلظ من ذلك لارتباطه بالنفس، ولهذا خصّوه بالهمزة لكونها اقوى من العين مخرجاً. وكذلك الامر في نحو : حبس وحمس. وعلز وعلص، علب وعلم .

٤ — وعن العلاقة بين المباني والمعاني وكيف يوحي صوت اللفظ بمعناه الذي يتسق معه يسوق ابن جني كثيراً من الآراء(١١١). محاولاً أن يربط من خلالها اجراس الحروف بالدلالة. ومن هذه الآراء نذكر الآتي

آ — ان المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو : الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة والجرجرة والقرقرة. وان صيغة الفعل المكرر العين نحو: نشّر، وقطّع، وغلّق لها علاقة بمعناه . ولتفسير هذه العلاقة بين مبنى الفعل ومعناه يرى انه لما كانت الالفاظ دليلة المعاني فقد جعلوا اقوى اجزاء اللفظ مقابلاً لتقوية المعنى، ومن ثمة خصوا عين الفعل بالتقوية عن طريق التكرار « لانها واسطة لهما ومكنونة بهما

فصارا كأنّهما سياج لها ومبذولان للعوارض دونها ».

ب — ان العرب كثيراً ما يجعلون اصوات الحروف على سمت الاحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويمتدونها عليها. فالخضم لأكل الرطب (كالبطيخ والقثاء)، والقضم للصلب اليابس .وتعليل ذلك على راي ابن جني «ان العرب اختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس حذوا لمسموع الاصوات على محسوس الاحداث » .

ومثل ذلك: النضح للماء ونحوه والنضخ لما هو اغلظ واثقل . لانهم جعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف، والخاء لغلظها، لما هو اقوى منه.

ومع التسليم بأن ارتباط الاصوات بالدلالة لا يعني انّ الاصوات جميعاً تتساوى في هذه الدلالة، وانما تختلف باختلاف قوتها وبروزها في الحكاية الصوتية. إذ انّ العبرة كما يقول العقاد: «بموقع الاصوات من الكلمة لا بمجرد دخولها في تركيبها»(١١٢)، ومع التسليم ايضاً بما يشوب آراء ابن جنّي والخاصة بالاشتقاق الاكبر على وجه التحديد هذه الاراء التي فرضت نوعاً من الارهاب على الدلالات المتباينة كي تستكين الى حضيرة عامة يشوبها الغموض وعدم التحديد فدلالات مثل (الشدة والقسوة) أو (الاصحاب والملاينة)، وغيرها تكاد تنبهم حدودها، ولا تقف عند شواطىء دالات معينة، فما اكثر المواد التي تنخرط تحت (الشدة) و (الاصحاب)، ولعلنا لا نبعد هنا عما قاله «سيبه» عن هذه الابحاث : «انها من بين كافة ابحاث علم اللسان ادقها، واقلها يقيناً..»( ) كما انّ ربط الاصول الستة بمعنى مركزي واحد، وبالصورة التي تحدّث عنها ابن جنّي مضيعة لفروق المعاني، وازهاق التفرق الدلالي .

واياً كانت الاعتراضات على ابن جني وغيره من الاقدمين بصدد هذه الدراسات ومع تأكيد صعوبتها وخطورة البحث فيها، فانّا نجد ان ابن جنّي خاصة قد استطاع بما سلكه من منهج تحليلي تطبيقي انفق فيه جهده وصولاً لتقرير تأملاته، وتثبيت آرائه على وفق تعليل قويم، وبراهين سليمة لا تلتزم الجدل

المنطقي أو الافتراضات الميتافيزيقية، ولكنها تركن الى حسّ لغوي سواءمـا تعلق منه بجرس الحروف مستقلاً، او بمضارعة الحروف بعضها بعضاً، او لحوم الصيغ المتقاربة حول محور دلالي جاذب. اقول لقد استطاع ابن جني من خلال هذا كله ان يقدّم للدرس اللغوي اراء وافكاراً طموحه مازال علـــم الدلالة يجري تحت ريحها، ومازال به امل كبير ليقدم لفقه اللغة فرصة رائعة لفك اسرار اللغة وتراكيبها(؟). وتأكيد نظرية القيمة التعبيرية للاصوات في البنيات المعينة .

واخيراً . فاذا اردنا بيان مدى نجاح الاقدمين في دراسة الحروف والاصوات من حيث دلالاتها ، وعدد احياز مخارجها ومواضعها في الجهاز الصوتي ، وملاحظة ما يصيب الاصوات من الصفات العارضة وهي منتظمة داخل البنيات وبيان علل التبدلات والتحولات الصوتية، وما توسلوا به من المبادىء والظواهر الصوتية كالاعلال والابدال والتخفيف والاستثقال والحذف والوقف والادغام والقلب وغير ذلك من التبدلات الصوتية اقول اذا اردنا ذلك، واردنا الكشف عن طبيعة البحث اللغوي عند الاقدمين في هذا الميدان فنحن مدعوون قراءة تراث هؤلاء، قراءة فاحصة متأنية، مما يساعد في ربط الجوانب المضيئة من ذلك التراث بالحاضر وصولاً الى عناصر حقيقية للتطور اللغوي عموماً.

الهوامش

(١) د. مهدي المخزومي، في النحو العربي : قواعد وتطبيق، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٣-١٤.

(٢) د. كمال بشر، دراسات في علم اللغة، القاهرة ١٩٧٣ – ٥٩ – ٦٩ .

(٣) برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، القاهرة ١٩٨١ ٥ .

(٤) جورج مونين، تاريخ علم اللغة. تر. د. بدر الدين القاسم، دمشق ١٩٧٢ ١٠٦ – ١٠٧.

(٥) سيبويه، الكتاب، ت. عبد السلام هارون ١٢/١٠. ومن الجدير بالذكر أن لبعض الاندلسيين تقسيماً رباعياً يتضمن : الاسم والفعل والحرف والخالفة. انظر: شرح اللمحة لابن هشام الجزء الأول .

(٦) اذا وجد من الأسماء مايدل على الزمان ك (امس) و (عند) فبذاته لا ببنيته. لان مثل هذه الاسماء لا تتغير للزمان .

(٧) سيبويه، الكتاب، ١٢/١.

(٨) نفسه: ليس في كتاب سيبويه باب اسمه باب حروف الجر ٣١٨/١، وانظر: ١٤٣/٢، ٤٩٦ .

(٩) انظر: الايضاح. وهو شرح ابن الحاجب على المفصل للزمخشري. مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٨٥٥١. وجه الورقة الثالثة. وشرح التسهيل لابن ام قاسم المرادي. مخطوطة دار الكتب المصرية (٢٣) ظهر الورقة الثانية.

(١٠) الزجاجي، الايضاح في علل النحو، ت. مازن المبارك. مطبعة المدني ١٩٥٩ ص ٥٤.

(١١) شرح الكافية: الرضي الاستراباذي. طبعة تركيا ١٣١٠هـ. ٩/١ – ١٠ .

(١٢) نفسه، ٩/١ – ١٠. وانظر: د. مصطفى جمال الدين، البحث النحوي عند الاصوليين بغداد ١٩٨٠ ص ٢٠٦ .

(١٣) ابن الحاجب، الايضاح. الورقة الثانية .

(١٤) د. مصطفى جمال الدين. ٢٠٣.

(١٥) شرح اللمحة البدرية في علم اللغة العربية. لابن هشام، ت. د. هادي نهر بغداد ١٩٧٨. وهمع الهوامع، جلال الدين السيوطي، مطبعة السعادة ١٣٢٧هـ ٤/١.

(١٦) د. مصطفى جمال الدين. ٢٠٤ – ٢٠٥ .

(١٧) انظر: د. تمام حسان، اعادة رمز اللغة العربية السنياً. من بحوث الندوة العالمية الثانية للسانيات تونس ١٩٧٨. و د. فؤاد حنا ترزي، في اصول اللغة والنحو بيروت ١٩٦٩ ص ١٤٨. وساطع الحصري، اراء واحاديث في اللغة والادب. بيروت ١٩٥٨ ص ١٠١.

(١٨) انظر: د. جعفر دك الباب، الموجز في شرح دلائل الاعجاز في علم المعاني، دمشق ١٩٨٠ ص ١٤ .

(١٩) الزمخشري، المفصل في علم العربية، مطبعة التقدم، مصر ١٩٣٧ ص ٢٨٣.

(٢٠) د. عثمان امين، فلسفة اللغة العربية، مصر ١٩٦٥، ص ١٤٤.

(٢١) دك الباب، ٢٠ — ٢١ .

(٢٢) انظر. المصدر السابق ٢٢ .

(٢٣) د. ريمون طحان، الالسنية العربية (٢) دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٢ ص ١٩ ومابعدها .

(٢٤) د. محمود حجازي، علم اللغة العربية. الكويت ١٩٧٣. ص ٧٠. وانظر: طاش كبري زاده: مفتاح السعادة في موضوعات العلوم. ت. كامل كامل كبري. وزميله القاهرة (١٥٦٠هـ) ص ٩٩.

(٢٥) ابن هشام، شرح اللمحة البدرية. ٢٢٦.

(٢٦) من المعلوم أن الصوت غير الضجيج، فالصوت ما اعتمد على ذبذبات منتظمة، والضجيج تيار نفاذ ليس فيه تحكم بقوة الايعاز الحركي او قلته إلى الجهاز النطقي .

(٢٧) ابن ام قاسم المرادي، شرح التسهيل ١/٢ .

(٢٨) انظر: سيبويه، ٣٣١/٤. و د. رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة. القاهرة ١٩٧٧. ص ٣٥٥ .

(٢٩) د. هنري فليش، التفكير الصوتي عند العرب. مجلة المجمع العربي بمصر العدد (٢٩). القاهرة، ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨ ص ٦٨.

(٣٠) جان كانتينو، دروس في علم اصوات العربية، تعريب صالح القرماوي، تونس ١٩٦٦ ص ١٤٧ .

(٣١) ابن جني: الخصائص. ت. عبد الحليم النجار ١٢٤/٣.

(٣٢) هنري فليش، التفكير الصوتي عند العرب ٦٨.

(٣٣) ابن جني، المنصف في شرح التصريف. ت. ابراهيم مصطفى وزميله، القاهرة ١٩٥٤، ٣٤٣/١. ومن المقرر عند النحاة ان حرف العلة إن كان ساكناً بعد حركة تناسبه فهو حرف علة، ومد، ولين، وان كان ساكناً بعد حركة لا تناسبه فهو حرف علة ولين معاً، وان كان متحركاً فهو حرف علة فقط .

(٣٤) ابن جني، سر صناعة الاعراب. ت. مصطفى السقا وجماعة ١٩٥٤. ٢٠/١.

(٣٥) المنصف: ٢١٣/١ .

(٣٦) د. رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، ٣٥٥.

(٣٧) د. محمد حسن ابراهيم، مفهوم علم اللسان عند الفارابي ومقارنته بمفهومه عند ابن خلدون. محاضرة القيت في الدورة الخامسة للسانيات. دمشق ١٩٨٠ .

(٣٨) ابن جني، سر صناعة الاعراب، ١/٧ — ٨، ٥٠ — ٥٤ .

(٣٩) طاش كبري زاده، ٩٩ .

(٤٠) انظر : د. صبحي الصالحي، اصول الالسنية عند النحاة العرب، مجلة الفكر. العدد (٨ — ٩) بيروت ١٩٧٩ ص ٦٣.

(٤١) د. محمد حسن ابراهيم، مفهوم علم اللسان عند الفارابي ٢١ .

(٤٢) انظر : الفارابي، احصاء العلوم. ت. عثمان امين ص ٤٧ — ٥٠ .

(٤٣) الجاحظ، البيان والتبيين. ت. عبد السلام هارون ١٩١٣. ١/٧٩ .

(٤٤) المقطع: صوت خال من المعنى يتألف من حرفين: صامت وصائت .

(٤٥) د. تمام حسان، مصطلحات سيبويه في اصوات العربية. مجلة الازهر مارس ١٩٦١ ص١٠٧٨.

(٤٦) جورج مونين، تاريخ علم اللغة، ٨٦ .

(٤٧) د. تمام حسان، مصلحات سيبويه ١٠٧٧ .

(٤٨) د. خليل يحيى نامي، علم الصوت عند الامم والعرب. دار المعارف، مصر ١٩٧٤ ص٨.

(٤٩) الخليل بن احمد الفراهيدي، العين. ت.د. عبدالله درويش، بغداد ١٩٦٧ ١/٦٤—٦٥ .

(٥٠) سيبويه، ٤/٤٣١ — ٤٣٢ .

(٥١) المصدر السابق، ٤/٤٣٣ — ٤٣٤ .

(٥٢) د. كمال بشر، علم اللغة العام (الأصوات) القاهرة ١٩٧٠، ١١٣.

(٥٣) انظر مقدمة الجمهرة لابن دريد، والزمخشري في اساس البلاغة ١/٤٧٩ .

(٥٤) الخليل، العين، ١/٦٤ — ٦٥. كمال بشر ، (الاصوات) ٩٨ .

(٥٥) د. كمال بشر، الاصوات. ٩٨.

(٥٦) مقدمة العين، ٣٣.

(٥٧) ابن جني، سر صناعة الاعراب، ٥٢ — ٥٣. وانظر الجدول رقم (١) .

(٥٨) د. كمال بشر. الاصوات، ١١٩. و. د. احمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية المعاصرة في التراث. الباب الثالث (المستوى الصوتي) ليبيا/تونس — ١٣٩٨هـ — ١٩٧٨ ١/٢٣٣ وما بعدها .

(٥٩) انظر: د. كمال بشر (الاصوات) ١١٩ — ١٢٠.

(٦٠) انظر: د. تمام حسان. مصطلحات سيبويه، ١٠٧٩ — ١٠٨٠. د. كمال بشر (الاصوات)١٢٠. د. احمد مختار، دراسة الصوت اللغوي. ط١. الكويت ١٩٧٦ ٢٦٧ وما بعدها .

(٦١) اتضح لبعض الباحثين ان لابن سينا معرفة بالحنجرة ووظيفتها في عملية النطق . ينظر : د. كمال بشر . (الاصوات) ١٤٦ .

م/١٧/ ا.م.س

(٦٢) من المحدثين من يعد الألف من ذوات المخرج ، ومخرجها غاري طبقي لين مع وسط اللسان عن طريق اراحة اللسان في قاع الفم ، مع ارتفاع طفيف جداً لوسطه في اتجاه منطقتي الغار والطبق ، ولو سلمنا بذلك ، اقتربنا من رأي سيبويه وابن جني . مع فارق في موضع المخرج . انظر : د . أحمد مختار ٢٧١ ، ٢٩٧ .

(٦٣) انظر : د. كمال بشر ، الاصوات ، ١٢٢ .

(٦٤) د. محمود السعران ، علم اللغة ، مصر ١٩٦٢ ، ص ١٩٨ .

(٦٥) كانتينو ، دروس في اصوات العربية ، ص ٣٠ .

(٦٦) المصدر السابق ، ٧٣. وانظر : د. عبدالرحمن ايوب ، محاضرات في اللغة ، بغداد ١٩٦٧ ص ٩٨ .

(٦٧) انظر : كانتينو . ٨٥ ، السعران ، ١٧٥ .

(٦٨) تسمى الصوامت ايضاً بالاصوات الساكنة ، ويطلق على الصوائت (الحركات) او (المصوتات) انظر : ابن جني ، سر صناعة الاعراب ١/١٢٤ — ١٢٥ .

(٦٩) تتنوع اللغات في اختيار انظمة الصوائت وصفاتها، واقل عدد لها يأخذ شكلا ثلاثياً هو [$^{i}{}_{a}{}^{u}$]وفي العربية الفصحى يأخذشكلا خماسياً هو من اكثر الانظمة شيوعاً وهو [$e^{i}{}_{a}o^{u}$]

(٧٠) انظر : برجشتراسر ، التطور النحوي للغة العربية ص ١٠. واعلم ان في اللغة التركية نوعين من الجيم احدهما ينطق كما تنطق الجيم في القاهرة وهذه تكتب عند الاتراك بالكاف ، والأخرى تكتب بالرسم التقليدي ((هذا قبل تحويل الحرف العربي في التركية إلى الحرف اللاتيني عام ١٩٢٧. انظر : كمال بشر ١٧٤ .

(٧١) المصدر السابق ، ١٠ .

(٧٢) انظر : د. كمال بشر (الاصوات) ٩٥ .

(٧٣) المصدر السابق ، ٩٤ .

(٧٤) حامد عبد القادر ، دفاع عن الابجدية والحركات العربية ، مجلة مجمع القاهرة ١٩٧٠ ١٢/٩٨ .

(٧٥) أوديت بتي ، بحث في فونولوجيا اللغة العربية ، مجلة الفكر العربي ، طرابلس ١٩٧٩ ، ٨/١٧١ .

(٧٦) الخليل ، العين ، ١/٧٤ — ٧٥ .

(٧٧) ابن جني ، سر صناعة الاعراب ، ١/٧ — ٨ .

(٧٨) المصدر السابق ، ١/٨ .

(٧٩) المصدر السابق ١/٨ .

(٨٠) الفارسي ، ابو علي ، البغداديات ، رسالة جامعية مقدمة للجامعة المستنصرية صيف ١٩٨٠. صلاح الدين عبدالله ، اشراف د. عدنان محمد سلمان ١/٣٣٤ .

(٨١) انظر: ابن جني، سر صناعة الاعراب، ٨/١ .

(٨٢) ريمون طحان، ٣١. ومن الجدير بالذكر أن الحركات نوعان، نوع يتخلل الكلمة جزءاً من تركيبها الصوتي، ونوع يأتي في أواخر الكلم لظروف نحوية خاصة وهذه ابعاض حروف المد .

(٨٣) سيبويه، ٤٣٤/٤.

(٨٤) الاوتار الصوتية، زوجان من الطيات الجلدية في طرف قصبة الرئة .

(٨٥) سيبويه ٤٣٤/٤ .

(٨٦) د. تمام حسان ، مصطلحات سيبويه ١٠٨١ .

(٨٧) من هؤلاء . كانتينو . ص ١٢٣ ، د. تمام حسان ، ١٠٨١ .

(٨٨) د. كمال بشر (الاصوات) ١٤٢ ، السعران ، ١٧١ ، د. ابراهيم انيس ، الاصوات اللغوية القاهرة ١٩٧١ ص ٩١ .

(٨٩) سيبويه ، ٤٣٦/٤ .

(٩٠) المصدر السابق ٤٣٦/٤ — ٤٣٧ .

(٩١) ابن جني ، سر الصناعة ، ٦٩/١ .

(٩٢) د. كمال بشر ، الاصوات ١٤٧٠ . السعران ، ١٨٣ ، تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة ١٩٠ — ١٠٤ .

(٩٣) د. حسام سعيد النعيمي ، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ، بغداد ١٩٨٠ ص ٣١٦—٣١٧ .

(٩٤) سيبويه ، ٤٣٦/٤ .

(٩٥) د. كمال بشر ، الاصوات ، ١٧٠ .

(٩٦) حسام النعيمي ، ٣١٧

(٩٧) السعران ، ١٩٧ .

(٩٨) نفسه : ٢٨٥)

(٩٩) عبدالكريم مجاهد: ، علم الدلالة بين العرب والغرب، مجلة الاقلام ، بغداد ١٩٨١ ٦٠/٥ .

(١٠٠) ابن دريد ، الجمهرة ، ص ٩٩ ، وابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحه . ت . على فوده ، القاهرة ١٩٣٢ ص : ٩٤ — ٩٤ .

ت . محمد خلف الله وجماعة . مصر ١٩٥٤

(١٠١) الرماني ، علي بن عيسى ، ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ، للرماني والخطابي والجرجاني ت . محمد خلف الله وجماعة . مصر ١٩٥٥ ص ١٦٩ .

(١٠٢) انظر : د. مصطفى مندور ، اللغة بين العقل والمغامرة ، الاسكندرية ١٩٧٤ ص ٥٥

(١٠٣) ابن جني ، الخصائص ، ٢/٥٥ .

(١٠٤) نفسه : ٢/١٥٢ .

(١٠٥) سيبويه ، ٤/١٤ .

(١٠٦) ابن جني ، الخصائص ٢/١٣٤ .

(١٠٧) ابن دريد ، الجمهرة ، ١/٢٠٧ .

(١٠٨) ابن جني ، الخصائص ٢/١٥٢ .

(١٠٩) نفسه : ٢/١٤٥ .

(١١٠) نفسه : ٢/١٥٢ — ١٦٨ .

(١١١) عباس محمود العقاد ، اشتات مجتمعات في اللغة والاداب ، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣ ص ٤٨ .

(١١٢) د. مصطفى مندور ، ٩٢ .

الزمن والحدث في العربية والانكليزية

الدكتور يوئيل يوسف عزيز
قسم اللغات الاوربية
كلية الاداب ـ جامعة الموصل

المقدمة :

لقد كتب الكثير عن التركيب الصرفي morphology للفعل العربي ا ـ التركيب النحوي له Syntax فيأتي في الدرجة الثانية في كثير من كتب النحو . ان التركيب الصرفي للفعل العربي مهم ولاشك . فهو يتصف بدرجة كبيرة من التطور والتعقيد . الا ان طريقة استعمال هذا الفعل في الجملة ومعانيه النحوية لاتقل اهمية . لذا فان هذا المقال يؤكد على الناحية النحوية ،والصرفية، ويتناول البحث والمقارنة صفتين اساسيتين من صفات الفعل هما الزمن واسلوب الحدث. ويجرى مقارنة بين الفعل العربي والفعل الانكليزي فيما يخص هاتين الصفتين او يمكن ان يستفيد من مدرسي اللغة العربية لغير الناطقين بها ،ولا سيما اذا كان المتعلم ناطقا باللغة الانكليزية .

الفرضية التي يعتمدها هذا البحث هي ان صيغ الفعل العربي يتميز بتعبيرها عن الزمن واسلوب الحدث ويمكن ان يستعملها مدرس هذه اللغة للسير في بادىء الامر ينبغي أن نحدد المعاني الاساسية للزمن واسلوب الحدث حسب مفهوم علم اللغة الحديث .

الزمن شيء هام يدخل في جميع نواحي الحياة ويقسم عادة الى ثلاثة اقسام : الزمن الماضي والزمن الحاضر والزمن المستقبل . ان السلوك اللغوي للانسان لابد ان تكون له وسائل خاصة يشير بها الى تقسيمات الزمن هذه : وفي مقدمة هذه الوسائل الفعل . فالفعل عنصر مهم من العناصر اللغوية التي تعبر عن الزمن — ولكن ليس العنصر الوحيد الذي يحقق هذه الغاية . ثم ان اللغات تختلف فيما بينها كثيرا او قليلا في اسلوب استغلالها للفعل للتعبير عن الزمن .

وتعرف العلاقة بين صيغة الفعل والتقسيمات الثلاثة بالصيغة الزمنية tense فاذا اخذنا صيغ الفعل في الانكليزية وهي اربع write(n) ، wrote ، written ، writing

وجدنا ان الصيغتين الاخيرتين لا زمن لهما اما الصيغة الاولى والثانية فهما تشيران من حيث الاساس الى الزمن الحاضر والزمن الماضي — على التوالي ومن هنا قيل ان في الانكليزية صيغتين زمنيتين : صيغة المضارع (write(n)) وصيغة الماضي (wrote) اما الزمن المستقبل فليس له صيغة فعلية في الانكليزية تشير اليه . ولكن هذه اللغة تستغل عدداً من الصيغ البسيطة والمركبة للتعبير عنه .

وللفعل في العربية صيغتان : المضارع (يكتب) والماضي (كتب) وتشير الاولى عادة الى الزمن الحاضر والثانية الى الزمن الماضي . اما الامر فليس صيغة زمنية — بل يشير الى اسلوب من اساليب الكلام ويعبر عن وجهة نظر معينة. اذن يمكن القول إن في العربية صيغتين زمنيتين هما المضارع والماضي

يقصد باسلوب الحدث aspect كيفية حدوث الفعل او وقوعه(٣). ويشمل ذلك امورا مثل التكرار والاستمرار واكتمال الحدث وعدم اكتماله وغيرها . والمعروف ان الصيغة الانكليزية الثالثة (writing) والصيغة الرابعة written تستخدمان للتعبير عن اسلوب الحدث . وتسمى الصيغة الاولى التي تتألف

من ing والفعل BE بالصيغة الاستمرارية(او صيغة الاستمرار) Progressive.
والصيغة الثانية التي تتألف من اسم المفعول Past Participle والفعل Have بالصيغة التامة Perfactive . ويكون التميز بين هاتين الصيغتين وصيغة ثالثة — وهي الصيغة البسيطة — كما في المثال الاتي :

He writes (الصيغة البيسيطة)

He is writing (الصيغة الاستمرارية)

He has written (الصيغة التامة)

اما صيغ اسلوب الحدث في العربية فاثنتان : هما الصيغة غير التامة (يكتب) : والصيغة الثانية (كتب) .

والرأي الشائع ان الصيغة الاولى تدل على عدم اكتمال الحدث في حين تدل الصيغة الثانية على اكتمال الحدث . (٤)

تنتقل بعد هذه المقدمة الموجزة الى الكلام عن الصيغة الزمنية واسلوب الحدث في العربية والانكليزية . ونتكلم عنهما بشيء من التفصيل .

٢ — الصيغة الزمنية في العربية والانكليزية

قلنا ان للعربية والانكليزية صيغتين زمنيتين احداهما ترتبط بالزمن الحاضر والاخرى بالزمن الماضي . ولكن هذا التشابه بين اللغتين ظاهري اكثر مما هو جوهري .

فبين الصيغتين اختلاف اساس في اسلوب تعبير الفعل عن الزمن . ويمكن ايجاز هذا الفرق في ان الصيغة الزمنية في العربية ترتبط ارتباط عاما بالزمن من خلال وسائل لغوية وغير لغوية سيأتي الكلام عنها بعد قليل. اماالصيغة الزمنية في الانكليزية فترتبط ارتباطا وثيقا بالزمن

مما يؤيد ارتباط الصيغة الزمنية في الانكليزية ارتباطا وثيقا بالزمن ظاهرة لغوية معروفة تسمى بتعاقب الصيغ الزمنية Sequence of tenses مفادها أن الفعل الرئيسي في الجملة اذا كان في صيغة الماضي وجب على جميع الافعال

التابعة له ان توضع في صيغة الماضي. وتلاحظ هذه الظاهرة كثيراً في الانتقال من الكلام المباشر الى الكلام غير المباشر .مثال ذلك

الكلام المباشر

١- The merchant said: "When will the goods arrive?"
The agent replied: "Th ey have already arrived."

الكلام غير المباشر

٢- The merchant asked when the goods *would arrive*. z
The agent replied that they *had* alroady *arrivod*.

، فيلاحظ تغيير صيغة الفعل waill arrive الى صيغة الماضي would arrive و have arrived الى had arrivod (٥) ويبرز هذا الارتباط الوثيق في استعمال الظروف الزمنية .

ففي الجملة الآتية

My friend is writing a letter

اذا استخدمنا فيها ظرف الزمن الماضي yesterday اقتضى تغيير الصيغة الزمنية من المضارع الى الماضي

٤ — my friend *was writting* a letter yesterday

الامثلة على هذا الارتباط الوثيق كثيرة ولكن ماذكر من الادلة يفي بالغرض .

لنتأمل الصيغة الزمنية في العربية . قلنا ان صيغة الفعل ترتبط ارتباطا عاما بالاطار الزمني . ويصح هذا بدرجة كبيرة على صيغة المضارع ، وعلى صيغة الماضي بدرجة اقل . فالانتقال من الكلام المباشر الى الكلام غير المباشر لايتطلب تغيير صيغة الفعل من المضارع الى الماضي ، كما يتضح ذلك من ترجمة المثالين (١) و(٢) اعلاه .

٥ — قال التاجر : «متى تصل البضاعة ؟»
فأجاب الوكيل : «لقد وصلت البضاعة .»
ونقول في الكلام غير المباشر

٦ — سئل التاجر متى تصل البضاعة ؟
فأجاب الوكيل ان البضاعة قد وصلت .

واذا غيرنا الظرف الزماني بقي الفعل المضارع — على الاقل — على حالته ، كما في الجملة الآتية من العقد الفريد (ج١و٢١٦) .

٧ — انتم بالامس تقاتلون معاوية لتهدّوا سلطانه ، واليوم تقاتلون معه لتشدّدوا سلطانه .

اما صيغة الفعل الماضي فأقل تكييفا وأكثر ارتباطا بالزمن بسبب طبيعة الحدث الذي منه فهي تدل على اكتمال الحدث — كما ذكرنا اعلاه — واكتمال الحدث يرتبط عادة بالزمن الذي يسبق لحظة التكلم . لذا غالبا ماترتبط هذه الصيغة بالزمن الماضي . فلا يصح القول في الظروف الاعتيادية .

٨ — كتب اخي الرسالة غدا

ومع ذلك فان صيغة الماضي ايضا لها اطار زمني عام الى حد كبير كما يستدل من المثالين (٥) و (٦) اعلاه . فلم يحدث اى تغيير في صيغة هذا الفعل نتيجة الانتقال من الكلام المباشر الى الكلام غير المباشر . وثمة ادلة اخرى منها القول الشهير :

٩ — مت وفي نفسي شيء من حتي .
ويقصد النحوي المسكين هنا «اموت» اى الزمن المستقبل . وهذا مثال آخر :

١٠ — فاعطنا الأماز على خلتين : اما انك قبلت ما أتيناك به واما سترت وأمسكت عن أذانا حتى نخرج من بلادك .(١)

وقد يدل الفعل الماضي بعد اذا وان ولو على الزمن الحاضر او المستقبل .

١١ — اذا اجتهدت نجحت
ان اجتهدت نجحت
لو اجتهدت نجحت

فيقترب معنى صيغة الماضي في هذه الامثلة من معنى صيغة المضارع .

١٢ ـ اذا تجتهد تنجح

ان تجتهد تنجح

لو تجتهد تنجح

ويمكن مقارنة هذه الامثلة بما يقابلها في الانكليزية . فتغيير صيغة الفعل تؤدي الى تغيير المعنى والزمن .

١٣ ـ If you work hard...

If you worked hard.

If you had worked hard.

فالجملة الاولى من (١٢) تدل على فرضية محتملة والثانية على فرضية بعيدة الاحتمال ويمكن ان تشير الجملتان الى الزمن الحاضر او المستقبل . اما الجملة الثالثة فالفرضية فيها غير محتملة وهي تشير الى الزمن الماضي .

ان ارتباط الفعل العربي ارتباطا عاما بالزمن ظاهرة مهمة تمنح هذا الفعل مرونة كبيرة وحرية التعبير عن الزمن دون اللجوء الى كثير من التعقيد الذي ينتج عن تغيير صيغة الفعل . ويضفي كثيراً من البساطة على اللغة العربية يمكن ان يستفيد منها المدرس والطالب .

ان مرونة صيغة الفعل في العربية ترجع الى ان هذه الصيغة تعتمد عـلى وسائل لغوية معينة في تحديد الزمن منها :

أ ـ الظروف . حيث يمكن تغيير الدلالة الزمنية للفعل بمجرد تغيير الظرف كما في

| غدا

١٣ ـ يكتب صديقي الرسالة الآن

| بالامس

اما نظام الفعل الانكليزي فيتطلب استخدام صيغة زمنية مختلفة في كل حالة من الحالات اعلاه ـ مع مراعاة ان الاستقبال يحتاج الى افعال خاصة للدلالة عليه .

١٥ — Will write...

My friend is writing...

Was writing (wrote)...

ب— **الحروف** . فبعض الحروف تدل على الزمن الماضي وبعضها تدل على الحاضر وعدد آخر منها يدل على المستقبل . كما في

١ — لم يكتب (الزمن الماضي)

٢ — لايكتب (الزمن الحاضر)

٣ — لن يكتب (الزمن المستقبل)

وفي هذه الحالات ايضا تحتاج الانكليزية الى ثلاث صيغ مختلفة

٤ — He did not write

٥ — He does not write

٦ — He will not write

جـ — **الافعال**. فالافعال التابعة تستمد زمنها من الافعال الرئيسية .

١ — كان يذهب

٢ — اخذ يصرخ

٣ — عاد يسأل

٤ — اكون انتهيت

فالفعل في الموقع الثاني في الجمل اعلاه تابع للفعل في الموقع الاول ومنه يستمد زمنه . فالمضارع في (١) و(٢) و(٣) له اطار زمني يشير الى الماضي. اما الفعل الماضي في (٤) فاطاره الزمني مستقبل .

د — **السياق العام** : وهي وسيلة غير لغوية تتعلق بخبرتنا عن العالم الخارجي . ففي الجملة الاتية

١ — يصدر العراق النفط الى فرنسا

يدل الفعل المضارع «يصدر» على الزمن الحاضر — وهو امر نستنتجه من خبرتنا من الحياة ولعدم وجود ادلة لغوية تشير الى خلاف ذلك .

ان مرونة الفعل العربي واضحة في التعبير عن الزمن المستقبل ايضاً. وان كان هذا الزمن لا يرتبط في الانكليزية وكذلك في العربية بأية صيغة فعلية معينة. فالانكليزية تستخدم اساليب مختلفة للتعبير عن الزمن المستقبل من اهمها.

١ — الصيغة الفعلية البسيطة وتتمثل في استخدام المضارع المجرد مع ظرف زمني مناسب .

٢ — الصيغة الفعلية المركبة كالصيغة الاستمرارية واستخدام shall او Will مع صيغة المصدر .

وتستخدم العربية

١ — المضارع المجرد مع ظرف زمان مناسب.

٢ — بعض الحروف المتخصصة كحرف النفي «لن». وحرف الاستفهام «هل» وحرفي الاثبات والاستفهام» و «سوف»(٧) .

يظهر من هذا ان الاختصاص في العربية هو في الحروف.اما الافعال فلها اطار زمني عام يمنحها كثيراً من حرية التعبير. فجميع الافعال في صيغة المضارع يمكنها ان تشير الى المستقبل اذا استخدمت مع ظرف زمان مناسب. يقابل ذلك تخصص شديد في صيغ الفعل الدالة على الاستقبال وهي صيغ مركبة عادة . اما صيغة المضارع البسيط فيقتصر استعمالها للزمن المستقبل على عدد قليل من افعال الحركة فلا يمكن القول مثلاً (٨)

١ — It rains tomorrow

٢ — I come again next Friday

٣ — All leave is cancelled tomorrow

بل ينبغي استخدام احدى الصيغ المركبة

٤ — It will rain tomorrow

٥ — I'll come again next Friday

٦ — All leave will be cancelled tomorrow

اما في العربية فيصح القول

٧ — تمطر غداً

٨ — اعو ثانية يوم الخميس القادم

٩ — تلغى جميع الاجازات غداً

لان صيغة الفعل المضارع لا يخضع للقيود التي ذكرت اعلاه.

يستدل من الشرح اعلاه ان المضارع خاصة والماضي بدرجة اقل لايتحدد اطارهما الزمني بصورة دقيقة الا اذا استخدما مع غيرهما من الوسائل اللغوية والوسائل غير اللغوية. فالفعل «يذهب» مثلا لايمكن حدس اطاره الزمني الدقيق الا اذا نظرنا الى غيره من الالفاظ. اما حدس الاطار الزمني للصيغة الانكليزية going فأسهل .

ان سهولة عملية الحدس او صعوبتها تدل — حسب نظرية المعلومات (٩) information theory على درجة تركيز المعلومات في اللفظة اللغوية . فكلما سهل حدس هذه اللفظة قلت نسبة ماتحمله من المعلومات . وكلما صعب حدسها زادت نسبة المعلومات فيها .

وعلى ذلك فان صيغة الفعل العربي تحمل درجة في المعلومات اعلى مما تحمله صيغ الفعل في الانكليزية . ولهذا الفرق مغزاه المهم : نجده في الامور الآتية .

١ — يجنح الفعل العربي الى اقتصاد شديد في عدد الصيغ التي يستخدمها .

٢ — مرونة الصيغة العربية وحريتها في التعبير عن الزمن .

٣ — اكتساب الالفاظ الاخرى من ظروف وحروف وغيرهما اهمية كبيرة في تحديد الزمن .

ويقابل ذلك في صيغة الفعل الانكليزي ما يأتي :

١ — تعدد الصيغ الزمنية في الانكليزية .

٢ — خفض مرونة هذه الصيغ الى حد كبير .

٣ — خفض اهمية الالفاظ التي تشترك مع الصيغ الزمنية المختلفة لتحديد الزمن .

وتبدو شدة تعقيد الفعل في ضوء النقاط اعلاه اذا علمنا ان هذه اللغة تميز بين لا اقل من خمس تقسيمات زمنية هي :

جـ - اكتمال الحدث

٥ - قرأ صديقي الرسالة .

وتميز العربية بين (١) و(٣) باستخدام الصيغة غير التامة والصيغة التامة . اما التمييز بين (١) و(٢) فيكون عن طريق وسائل لغوية اخرى غير الفعل .

وتميز الانكليزية بين (١) و(٢) و(٣) باستخدام الصيغة البسيطة والصيغة الاستمرارية والصيغة التامة على التوالي .

ان توزيع الوظيفة النحوية الخاصة بالتعبير عن الزمن بين عناصر مختلفة في الجملة العربية ادى الى تخصص الفعل العربي باسلوب الحدث بالدرجة الاولى . وهذا تبسيط في الوظيفة النحوية للفعل ، يقابله في الانكليزية تعقيد شديد في نظام الفعل سببه ان هذه اللغة تربط بين اسلوب الحدث والصيغة الزمنية وتحصر الوظيفتين في الفعل بالدرجة الاولى. ولاتستخدم احداهما الا بصحبة الاخرى . وقد نتج عن ذلك ان تضاعفت صيغ اسلوب الحدث من ثلاث الى ست : ثلاث منها للزمن الحاضر وثلاث للزمن الماضي ، فضلا عن صيغتين آخريين يجمعان بين نوعين من اسلوب الحدث والزمن . ويبين الجدول الآتي هذه الصيغ .

جدول الصيغ الزمنية واسلوب الحدث في الانكليزية

الزمن	اسلوب الحدث	المثال
١ - المضارع	البسيط	write (s)
	التام	have (has) written
	المستمر	is writing
	التام المستمر	have ('has) been writing

الزمن	اسلوب الحدث	المثال
٢ — الماضي	البسيط	wrote
	التام	had written
	المستمر	was writing
	التام المستمر	had been writing

ان كل صيغة من الصيغ اعلاه متخصصة تخصصا شديدا تبين وظيفتين نحويتين :

الزمن واسلوب الحدث . ولكن هذا التخصص الشديد يفقدها كثيرا من المرونة . وهو في الوقت ذاته على حساب الاقتصاب في الصيغ .

ويمكن مقارنة التخصص الدقيق في صيغ الفعل في الانكليزية بالتخصص العام لصيغ الفعل في العربية : فالفعل يكتب مثلا يشير الى الزمن بشكل عام ، ويتخصص باسلوب معين من اسلوب الحدث (التكرار ، الاستمرارية ، عدم اكتمال الحدث) .ويصح الشيء نفسه على الصيغة الاخرى — كتب ، ويمكن القول ان التخصص في الفعل العربي هو في اسلوب الحدث بالدرجة الاولى .

وتجمع العربية بين فعلين لتحقيق غرضين اساسيين .

أ — تحديد الزمن . ويكون عادة باستخدام صيغة الفعل « كان» في الموقع الاول ، كما في

١ — كان يخرج كل يوم للصيد .

٢ — اكون انهيت من دراستي .

فالصيغة غير التامة في المثال (١) قد تحدد اطارها الزمني بالماضي . والصيغة التامة في المثال (٢) قد تحدد زمنها العام بالمستقبل .

١ ــ الحاضر العام (Write (s))

٢ ــ الحاضر الحقيقي ــ وقت التكلم (is writing)

٣ ــ الماضي العام (has written)

٤ ــ الماضي المحدد (wrote)

٥ ــ الماضي قبل الماضي (had written)

لذا تحتاج الانكليزية إلى خمس صيغ مختلفة للتعبير عنها ، فضلا عن ثلاث صيغ اخرى تتعلق باسلوب الحدث . (لاحظ الجدول في الفقرة ٣).

ان هذا التعقيد قد تخلصت منه اللغة العربية بتوزيع الوظيفة الزمنية بين الفعل وغيره من مفردات الجملة .

٣ ــ **اسلوب الحدث**

تستخدم العربية صيغتين للتعبير عن اسلوب الحدث نطلق عليهما بالصيغة غير التامة (يكتب) والصيغة التامة (كتب) لنميزهما عن الصيغتين الزمنيتين اللتين لهما الشكل نفسه. اما الانكليزية فتستخدم ثلاث صيغ هي : الصيغة البسيطة (write (s)) والصيغة الاستمرارية (is writing) والصيغة التامة (have (has) written)

من المعاني الاساسية التي يشير اليها اسلوب الحدث في اللغتين هي :

أ ــ عدم اكتمال الحدث (ويشمل التكرار والقدرة على القيام بالحدث) كما في

١ ــ يذهب الفلاح كل يوم إلى الحقل.

٢ ــ يتكلم صديقي الفرنسية بطلاقة.

ب ــ الاستمرارية

٣ ــ الولد نائم .

٤ ــ انتم اليوم تحاربون الجهل والتخلف .

ب ـ الانتقال من احد معاني اسلوب الحدث الى معنى آخر. وهذا الاستعمال محدود يقتصر على عدد قليل من الافعال نذكر منها

١ ـ اخذ يسأل

٢ ـ بدأ يسأل .

٣ ـ عاد يسأل .

فالعبارتان (١) و (٢) يقترب معناهما من «سأل»، والعبارة (٢) لها معنى «سأل مرة اخرى» . ولكن هذه الصيغ المركبة انما هي صيغ ثانوية ، حيث ان جميع المعاني الاساسية للزمن واسلوب الحدث يمكن التعبير عنها باستخدام الصيغتين البسيطتين .

٤ ـ نظرة اللغة العربية والانكليزية الى الزمن والحدث

مما يزيد في تعقيد مهمة الدراسات المقارنة ان اوجه التشابه اللغوي قد تكمن وراءها اختلافات جوهرية في تقسيم الخبرة البشرية والتعبير عنها لغوياً ويصح هذا ولا شك على الزمن واسلوب الحدث في العربية والانكليزية .

لنأخذ نوعين من المسند ـ مسند الحالة (١) ومسند الحدث (٢)

١ ـ الولد ذكي .

صديقي مهندس في البلدية .

الحفلة يوم الخميس

٢ ـ يكتب صديقي قصصاً مسلية

كتب صديقي قصصاً مسلية

اما صديقي فيكتب قصصاً مسلية

فالمسند في الامثلة (١) يصف علاقة الحالة بالمسند اليه . وهي في العربية كثيرا ماتخلى من الفعل (اى انها جمل اسمية) تستخدم الانكليزية في هذه الجمل الفعل BE وهو من ابرز افعال الحالة. اما المسند في(٢) فيحتوي على فعل يعبر عن حدث لذا نطلق عليه بمسند الحدث.و اكثر الافعال في اللغة تشير الى الحدث ، فهي من افعال الحدث(١١).

ان التشابه بين الجمل الاسمية العربية المذكورة اعلاه وفعل الحالة في الانكليزية انما هو تشابه ظاهري. يكمن وراءه اختلاف جوهري بين نظرتي اللغتين الى الحالة والحدث . فالعربية كثيراً ما تفضل استخدام فعل الحدث للتعبير عن بعض المعاني في حين تجنح الانكليزية الى استخدام فعل الحالة. كما في الامثلة ادناه :

١ ــ يخاف الاطفال من الحيوانات

Children are afraid of animals

٢ ــ يصعب فهم هذا السؤال

It is difficult to understand this question

٣ ــ ساد الصمت

There was silence

٤ ــ طاب النسيم

The breeze is pleasant

٥ ــ كلت يداه

His hands were tired

٦ ــ غضب صديقي

My friend was angry

٧ ــ انعقد لسانه

He was tongue-tied

٨ ــ لا اعرف هذا المكان

I am not familiar with this place

٩ ــ مات الامير

The prince is dead

وتختلف اللغتان في نظرتهما الى «الاقوال المأثورة » فتعتبرها العربية حدثاً مكتملاً . وتفضل استخدام الصيغة التامة .

١٠ ــ قالت العرب. قال الحكماء . قال المتنبي

اما الانكليزية فتنظر اليها على انها حدث متكرر فتستخدم صيغة المضارع

١١–

The Arabs say...
Wise man say...
M. says...

ويصح الشيء نفسه على بعض الافعال منها:

علم، فهم، سمع وغيرها .فكثيراً ما تعتبرها العربية افعالاً لاكتمال الحدث، في حين تعتبرها الانكليزية افعال التكرار .

١٢ – علمنا انك ستتزوج عن قريب

We know that you are getting married soon.

١٣ – هل فهمت هذا السؤال ؟

Do you understand this question?

١٤ – سمعنا ان صديقك فاز بالجائزة

We hear that your friend has won the arize.

مثل هذه الامثلة لاختلاف وجهات النظر بين اللغتين كثيرة يستطيع مدرس اللغة تشخيصها والاستفادة منها في عمله . وينبغي في الوقت ذاته ان يكون طالب اللغويات المقارنة حذرا لايكتفي بالتشابه او الاختلاف الظاهري ، بل عليه ان يلقي نظرة ثاقبة الى الوظائف النحوية الاساسية (٢) .

الخلاصة

تختلف اللغة العربيـة واللغـة الانكليزية في طريقـة التعبير عن الزمن واسلوب الحدث. فتوزع اللغة العربية هذه الوظيفة النحوية بين عدد من عناصر الجملة منها الفعل والظرف والحرف .ويبتعد الفعل عن التخصص الدقيق ولا سيما في مجال التعبير عن الزمن فيكتسب مرونة كبيرة تساعده على حرية التعبير عن الوظائف النحوية والاقتصاد في الصيغ . اما الانكليزية فتجنح نحو التخصص الدقيق في استخدام الفعل للتعبير عن الزمن واسلوب الحدث. وقد ادى ذلك الى زيادة صيغ الفعل وارتباطها بتقسيمات دقيقة .

ان مرونة الفعل العربي واقتصاده في الصيغ هما عنصران مهمان من عناصر البساطة في اللغة يمكن ان يستفيد منهما مدرس اللغة العربية لغير الناطقين بها . كما يمكن ان يستفيد من كثير من اوجه التشابه والاختلاف بين العربية ولغة الطالب — ولكنه ينبغي ان يستخدم نتائج المقارنة بدرجة كبيرة من الحذر . فكثير من اوجه الشبه قد تكمن وراءها فروق جوهرية . ثم ان عناصر اللغة تكتسب وظائفها النحوية ومعانيها من اللغة نفسها ولا معنى لها خارج تلك اللغة. لذا يفضل في كثير من الاحيان ان تدرس هذه العناصر ضمن الاطار العام لتلك اللغة .

ان اهمية مثل هذه الدراسة لاتكمن في استخدام نتائج المقارنة بصورة مباشرة في عملية التدريس بل في توضيح كثير من جوانب اللغة الثانية . وهذه المعرفة ولاشك ضرورية لمدرس اللغة.

الحواشي والملاحظات

(١) لاحظ التفسير الذي قدمه أحمد عبد الستار الجواري لهذه المسألة في مقدمة كتابه نحو (الفعل)، بغداد مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٧٤م.

(٢) R. Quirk, S Greenbaum, Gleech, J,Sartvik
A Grammar of Conlemporary English, Longman 1972, p. 84.

(٣) المصدر أعلاه

(٤) W. Wright. *Agrammar of The Arabic*, Language
C H P, 1971; 7, 51 ; A. F. L. Beeston
The Arabic *language Today*, Londan, Hutchison, 1970, p-76

(٥) قد لا تشير صيغة الماضي إلى الزمن (الماضي) الحقيقي كما في
He said That the earth was round
ويمكن في هذه الحالة أن يبقى الفعل على حالته الأولى، دون ان يتغير في الكلام غير المباشر.

(٦)

(٧) يرى بعض النحاة أن «س» و «سوف» لا تستخدمان مع حرف الاستقبال كما في هل سيحضر الوزير الاجتماع
ولكن مثل هذا الاستعمال وارد في اللغة العربية الحديثة. كما اننا نجد في الكتابات الحديثة استخدام اداة الاستقبال اعلاه مع اداة النفي، فقد أورد V.Cantarino عدداً من هذه الأمثلة في الجزء الاول من كتابه *Arabic Syntax* .

(٨) R. W. Zandvoort, *AHandbook of English Grammar*, Longman, 1972, PP. 58–59.

(٩) يستطيع القارىء أن يطلع على بعض تفاصيل هذه النظرية في الفصل الثالث والعشرين من كتاب :

H. A. Gleason, *An Introduction to Descriptive Linguistics*, London, New York. Sydney. Toronto, Holt, Rinehart and Winston, 1973.

(١٠) يستطيع القارىء أن يطلع على مزيد من التفاصيل لاستخدام صيغتي «كان» مع صيغ الفعل المختلفة في كتاب

H. Reckendorf, *Arabische Syntax*, Heidelberg, Carl Winter's, 1921, PP. 297–300

(١١) استعمال افعال الحدث وافعال الحالة في هذا المقال يختلف عن استعمال Beeston لهذين المصطلحين في كتابه المذكور في (٤) اعلاه .

(١٢) يمكن للقارىء أن يطلع على مزيد من التفاصيل عن استخدام اللغويات المقارنة في التدريس في كتاب

L. Levin, *Comparative Studies in Foreign Language Teaching* Stockholm, Almquist and Wiksell, 1972.

ظاهرة المقطعات في الشعر العباسي

الدكتور يونس أحمد السامرائي
كلية الآداب – جامعة بغداد

ظهر لي من خلال تدريسي للادب العباسي ولجملة من شعرائه وأدبائه ، ومن خلال ماقمت به من دراسة وتحقيق لعدد من نتاج أدبائه وشعرائه ، أن هناك ظاهرة واضحة كثيرة الشيوع في شعر هذا العصر . وهي ظاهرة (المقطعات الشعرية) . فعزمت على عقد بحث موسع في هذا اللون من الشعر فكان هذا البحث هو الخلاصة لما تهيأ لي من الإلمام بجوانبه ، والاستقراء لنصوصه .

المقطعات بين اللغة والاصلاح :

جاء في المعجمات العربية كلام كثير عن مادة (القطع) . ويبدو ان هناك صلة واضحة بين المعنى اللغوي لهذه المادة ، والمعنى الاصطلاحي الذي عرفت به في مجال الشعر . ففي اللسان :

القطع : إبانة بعض أجزاء الجرم من بعض فصلاً . والقطعة من الشيء : الطائفة منه (وحديثها – كما في التاج – قِطَع).

والقِطع من النصال : القصير العريض ... سواء كان النصل مركباً في السهم او لم يكن مركباً . سُمّي قِطْعاً ؛ لأنه مقطوع من الحديد ، وربما سمّوه (مقطوعاً) . و(المقاطيع) : جمعه . والمقطّعات من الثياب : شبه الجباب

ونحوها (وفي التاج : ومن المجاز : المقطّعة : كمعظّمة ، والمقطّعات : القصار من الثياب) .

ولمقطّعات الثياب والشعر : قصارها . والمقطعات : الثياب القصار (والابيات القصار) وكل قصير مقطّع ومتقطّع . وسمّيت الأراجيز مقطّعات : لقصرها . ويروى ان جرير بن الخطفى كان بينه وبين رؤبة اختلاف في شيء فقال : أما والله لئن سهرتُ له ليلة لأدَعنّه وقلّما تغني عنه (مقطّعاته) يعنَي أبيات الرجز (١) .

(وفي التاج : ومن المجاز : المقطّعات من الشعر : قصاره وأراجيزه سميت الاراجيز مقطّعات لقصرها) .

ومقطّعات الشيء : طرائقه التي يتحلل اليها ويتركب منها ، كمقطّعات الكلام . ومقطّعات الشعر ومقاطيعه : ماتحلل اليه وتركّب عنه من أجزائه التي يسميها عروضيو العرب الاسباب والاوتاد .

فالمقطّعات اذاً هي : الابيات القصار والاراجيز .

وواضح ان اللسان والتاج ذكرا من جملة مفردات هذه المادة القطعة والمقطوع. ومن الجموع : المقطّعات والقِطَع والمقاطيع . وجاءت هذه المفردات والجموع وسواها في المصنفات ودواوين الشعر للدلالة على القطعة او المقطعات الشعـريـة .

جاء في اللزوميات : (وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة او القطعتين) (٢).
وجاء في العمدة : (فانا لانشك أن المطوّل إن شاء جرّد من قصيدته قطعة أبيات جيدة ، ولايقدر الآخر أن يمدّ من أبياته التي هي قطعةٌ قصيدةً) (٣).

(١) من الجدير بالذكر ان ابا الفرج الاصبهاني ذكر أن جماعة من الشعراء اجتمعوا عند عبدالملك ابن مروان او سليمان بن عبدالملك وكان بينهم ابو النجم ، فطلب عبدالملك أن يصبح بقصيدة في الفخر ، فقالوا على ذلك ثم قالوا : (ان ابا النجم يغلبنا بمقطعاته يعنون الرجز) الاغاني ١٥٣/١٠ .

(٢) ٣٢/١ .

(٣) ١٨٧/١ .

وجاء في ثمار القلوب : (ولأبي غلالة ... نيّف وعشرون مقطوعة مضّمنة) (١) . وجاء في العمدة : (وكان عبد الكريم بهذه الصفة ، لايكاد يصنع مقطوعاً) (٢) .

وتقدم أن جريراً قال لرؤبة : ان مقطّعاته لاتعنيه شيئاً .

وجاء في الأغاني : ان حماداً الراوية قال للوليد بن يزيد : (ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى (المقطّعات) من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام ...) (٣) وجاء في العمدة : (والا فالقِطع أطيرُ في بعض المواضع) (٤) .

وجاء في شرح حماسة أبي تمام للمرزوقي : (وهذه المقطوعات بما اشتملت عليه من الفظاظة والقسوة ... دخلت في باب الحماسة) (٥) .

وجاء في العمدة : (ووصف عبد الكريم أبا الطيب ، فزعم أنه أحسن الناس (مقاطيع) . ولو قال ــ بلا ياء ــ قلنا : صدقت ولم نخالفه) (٦) . ويبدو ان اعتراض ابن رشيق على هذا الجمع راجع الى مايعنيه من الدلالة على مايتعلق بالشعر من أسباب وأوتاد كما تقدم . والى أنه لايعني اصطلاح القطعة الشعرية المعروف . ومما ينبغي ذكره أن الطغرائي كتب مقدمة لديوانه ومما جاء فيها : (قد انتهيت الى ما اقترحه الشيخ الامام ... وأثبت طرفاً مما علق بحفظي من المقاطيع المتفرقة والقصائد) (٧) . وذكر البستاني أن مقاطيع الشعر تعني : الأبيات المفردة منه (٨) .

---

(١) ٣٦٦ وانظر ص ٦٠١ .

(٢) ١/١٨٧ وانظر : فوات الوفيات ١/١٧٣ .

(٣) ٦/٧١ ، ١٠/١٥٣ وانظر : معجم الشعراء ١٥٤ ، وزهر الآداب ٥٥٧ ، وتاريخ بغداد ٣/٢٣٦ وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/٣ .

(٤) ١/١٨٦ .

(٥) شرح ديوان الحماسة ١/٢٧٦ .

(٦) ١/١٨٧ ، وانظر : فوات الوفيات ١/٣٢٤ .

(٧) ديوان الطغرائي ٣٩ ، وانظر ص ٨٣ .

(٨) محيط المحيط ٧٤٥ .

وجاء في نزهة الالبّاء : (أبو محمد المقرىء ... وكان له مقتطفات من الشعر فمنها قوله ....) (١) .

ومن الجدير بالذكر ان المقطعات بمعناها الاصطلاحي لاتقتصر على الشعر حسب وانما يشركه فيه النثر ايضاً ، وقد ذكر الجاحظ ذلك فقال : (وقد ذكرنا من مقطّعات الكلام ، وقصار الحديث بقدر ما أسقطنا به مؤونة الخطب الطوال) (٢) . وقال ايضاً : (وذكرنا من مقطّعات كلام النساك ومن قصر مواعظ الزهاد ...) (٣) .

ويظهر أن من تكلم على عمر الشعر أو اوليته لم يتفقوا على تاريخ محدّد موثّق له ، وانما كانت أحكامهم او اقوالهم فيه عامة مطلقة ، فالجاحظ يقول في هذا الصدد : (واما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السنّ ، اول من نهج سبيله ، وسهّل الطريق اليه ، امرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة ... فاذا استظهرنا الشعر ، وجدنا له — الى أن جاء الله بالاسلام — خمسين ومائة عام ، واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام) (٤)

ويروي ثعلب في مجالسه هذا الخبر عن الاصمعي : (اول من تُروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل ، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، حمزة رجل من بني كنانة ، والاضبط بن قريع ، وانشد لذؤيب ابن كعب بن عمرو بن تميم (بيتاً واحداً) وانشد الضمرة (بيتاً) ، وللاضبط (بيتاً) . وقال الاصمعي : هكذا سمعت هذا البيت . قال : وكان بين هؤلاء وبين الاسلام اربعمائة سنة ، قال : وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير) (٥)

ويتحدث المرزباني على اول من قال الشعر ، فيقول في ترجمة عمرو بن قميئة (وكان في عصر مهلهل بن ربيعة ويقول الشعر ، وعمرّ حتى جاوز

---

(١) ص ٢٠٤ .

(٢) البيان والتبيين ١١٧/٢ .

(٣) نفسه ٢٦٨/٣ .

(٤) الحيوان ٧٤/١ .

(٥) ٤١١/٢ .

التسعين وقال ... وتزعم بكر بن وائل أنه اوّل من قال الشعر وقصّد القصيد وكان امرؤ القيس بن حجر استصحبه لما شخص إلى قيصر يستمده على بني أسد ...)(١)

ويبدو أن بعضهم لم يكن يفرّق بين الشعر والرجز فهو يراهما شيئاً واحداً. قال ابن قتيبة وهو يتحدث عن اوائل الشعراء: (لم يكن لأوائل الشعراء الاّ الابيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة. فمن قديم الشعر قول دويد بن نهد القضاعي:

اليومَ يُبنَى لدويـــد بيتُــهُ لو كـان للدهـر بلىً أبليتُـه
أو كـانَ قِـرني واحـداً كفيتُهُ يارُبَّ نَهْبٍ صَالحٍ حَويتُهُ
ورُبَّ عَبْلٍ خشنٍ لَويتُهُ

وقال الآخر:

ألقَى عليَّ الدهرُ رجلاً ويدا والدهرُ ما أصلحَ يوماً أفسدا
يُصلحهُ اليوم ويفسدُه غدا

وقال أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان، واسمه منبّه بن سعد..

قالت عُميرةُ ما لرأسك بعدما نفدَ الشبابُ أتى بلون منكرِ
أعمير إنَّ أباك شيّب رأسه مرُّ الليالي واختلافُ الأعصرِ

وقال الحارث بن كعب، وكان قديماً:

أكلت شبابي فأفنيتـــــهُ وأفنيتُ بعدَ شهورٍ شهـــورا

أربعة أبيات (٢).

وواضح أن المثالين الأولين من الرجز فحسب. وقال ابن رشيق: (وزعم الرواة أن الشعر كله انما كان رجزاً أو قطعاً) (٣).

---

(١) معجم الشعراء ٣ — ٤.

(٢) الشعر والشعراء ١/١٠٤ — ١٠٥.

(٣) العمدة ١/١٨٩.

ويبدو أن أول ظهور الشعر أو الرجز كان على هيئة أبيات أو قطع . وهو، أمر طبيعي فيما نحسب في ابتداء كل عمل فني قبل أن ينمو ويتطور ويكتمل. وقد أشار غير واحد من الادباء وأصحاب المصنفات إلى هذا الأمر ، فقال ابن سلام : (ولم يكن لأوائل العرب من الشعر الا الأبيات يقولها الرجل في حاجته) (١) . وتقدم قول ابن قتيبة في أوائل الشعراء وقول ابن رشيق في الشعر ، ومما جاء في هذا الشأن أيضاً قول ابن رشيق : (وقال أبو عبيدة : انما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك ، إذا حارب ، أو شاتم أو فاخر) (٢) .

ويظهر أن هذا الأمر ليس وقفاً على الشعر العربي ، وانما هو عام في أكثر الآداب ، ولعل ماروى عن ارسطو في كتابه (الشعر) دليل على هذا ، فقد نقل ابن سينا عن كتاب ارسطو قوله : (والأقدم من الأشعار هو الأقصر والأنقص) (٣) ، ونقل هذا القول ووضحه ابن رشد فقال : (والأنقص من الأشعار والأقصر هي المتقدمة بالزمان : لأن الطباع أسهل وقوعاً عليها أولاً ، والأقصر هي التي تكون من مقاطع أقل ، والأنقص هي التي تكون من نغمات أقل أيضاً) (٤) .

وبعد أن بقي الشعر والرجز على هيئة متقطعات أو أبيات قليلة . تقدم بهما الشعراء والرجاز خطوة واسعة فمدوهما وقصّدوهما . وقد اختلف في من كان له فضل السبق في هذا التطويل والتقصيد . وتقدم قول الجاحظ في أن امرأ القيس ومهلهل بن ربيعة اول من نهجا سبيل الشعر وسهلا الطريق اليه ، كما مرّ قول المرزباني ان ابن قميئة اول من قصد القصيد . وذهب ابن سلام

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٦/١ .

(٢) العمدة ٩٠/١ وانظر : الشعر والشعراء ٦١٣/٢ .

(٣) فن الشعر ١٧٤ ، وانظر : ابن المقفع وتراثه في الادب والنقد ٤٥٨ — ٤٥٩ .

(٤) فن الشعر ٢٠٧ والجدير بالذكر ان كتاب الشعر لارسطاطاليس الذي ترجمه متى بن يونس قد خلا من هذا النص ، فهل معنى هذا ان هناك ترجمة أخرى استقى منها ابن سينا وابن رشد؟ .

الى ان المهلهل اول من قصّد القصائد وذكر الوقائع في قتل أخيه كليب بن وائل (١) ثم قال في موضع آخر : (وانما قصّدت القصائد وطوّل الشعر على عهد عبد المطلب ، وهاشم بن عبد مناف ...) (٢) .

وذكر ابن قتيبة أن الأغلب العجلي (أول من شبّه الرجز بالقصيد وأطاله) (٣)، وذكر ذلك أيضاً ابن رشيق (٤) ، ولكنه قال في موضع آخر : (انما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ، ونحو ذلك ... حتى كان العجاج اول من أطاله فقصّده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ، واستوقف الركاب عليها ، ووصف فيها ، وبكى على الشباب ، ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيدة ...) (٥) .

ولكن ما المراد بالمقطعة ؟ ان هناك إشارات كثيرة يستدل منها على المراد بها الأبيات القليلة التي يقولها الشاعر في مناسبة معينة . وقد تقدم شيء من هذه الإشارات ، وسيأتي في موضع آخر مايؤيد هذا المعنى . ومن الإشارات أيضاً ماروا ه الجاحظ في البيان والتبيين . قال : (وقال عمر بن الخطاب رحمه الله : من خير صناعات العرب الأبيات يقدّمها الرجل بين يدي حاجته ، يستنزل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم . وقال شعبة بن الحجاج : كان

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٣٩/١، وانظر : العمدة ٨٧/١، ١٨٩ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ٢٦/١ ، وانظر : العمدة ١٨٩/١ .

يرى محقق الطبقات ان قول ابن سلام وغيره من المتقدمين في قدم الشعر وتقصيده باطل ، فالشعر عنده أقدم مما زعموه وتطويله أعرق مما توهموه ، ويرى أن السبب في هذا البطلان أو الوهم هو ضياع الشعر وذهاب اوليته ٢٦/١ هامش (١).

ويذهب هذا المذهب في النفي أيضاً محقق ديوان امرىء القيس ، وبعد أن يشير الى رواية اشعار قديمة وطويلة يعود فيقول : (وان كنت أرى أن النسخ والمسخ — لعدم ضبط اللغة وإقرار قواعدها في تلك العصور— قد أثر كثيراً في رواية تلك الأشعار ، فهي لم ترو لنا كل ما نطق به أصحابها فيما أرى) ص٩م الهامش .

(٣) الشعر والشعراء ٦١٣/٢ .

(٤) العمدة ١٨٩/١ .

(٥) نفسه ٩٠/١ .

سماك بن حرب إذا كانت له إلى الوالي حاجة قال فيه أبياتاً ثم يسأله حاجته) (١).

وكان بعض الشعراء يقول القصيدة الطويلة ثم يعود اليها فيجرد منها قطعة ، أبيات يستجيدها ، وقد يكون هذا هجيّراه في عامة شعره ، قال ابن رشيق : (فانا لانشك أن المطول إن شاء جرّد من قصيدته قطعة أبيات جيدة ، ولا يقدر الآخر أن يمد من أبياته التي هي قطعةٌ قصيدةً) (٢) ، وقال الأصبهاني (وكان رأي ابراهيم الصولي) يقول الشعر ثم يختاره ، ويسقط رذله ، ثم يسقط الوسط ، ثم يسقط مايُسبق اليه ، فلا يدع من القصيدة إلاّ اليسير ، وربما لم يدع إلاّ بيتاً أو بيتين...((٣) .

واختلف في عدد الأبيات التي تتألف منها المقطعة ، فمنهم : من ذكر أنها دون سبعة الابيات ، أو دون عشرة الأبيات ، قال ابن رشيق : (وقيل إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة ، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس ، ومن الناس من لايعد القصيدة إلا مابلغ العشرة وجاوزها ولو ببيت واحد) (٤) . ومنهم من ذكر ان (القطعة من الشعر ماكان سبعة أبيات فما دون وقيل عشرة) (٥) ، وسرنا نحن في بحثنا على اعتبار القطعة عشرة أبيات فما دون .

ويظهر أن مفهوم القطعة لدى بعض مؤرخي الأدب من القدامى لايقتصر على عشرة أبيات فما دون . وانما يتعدّى ذلك ، جاء في الخريدة قول العماد (وكنت نظمت في كنوز الفُقّاع قطعةً ، لغزاً وأنشدتها إياه ، فأثبتها ثم حضر بجوابها . والأبيات التي هي لي (وذكر واحداً وعشرين بيتاً) (٦). وجاء فيها أيضاً : (ومما أنشد الوزير في آخر عمره قطعة جيمية استحسنتها

---

(١) ٢/٣٢٠ .

(٢) العمدة ١/١٨٧ .

(٣) الأغاني ١٠/٤٣ .

(٤) العمدة ١/١٨٨ – ١٨٩ .

(٥) محيط المحيط ٧٤٥ .

(٦) ج ٤ م ١ ص ٥٠٣ .

فكتبتها)وذكر خمسة وعشرين بيتاً((١). وجاء فيها أيضاً:)ونقلت من خط ابن الفضل الشاعر قطعة كتبها إلى البرهان على الغزنوي الواعظ ، وكان يذكره ويتعرض به ، (وذكر اثنين واربعين بيتاً) (٢) .

ولحظ غير واحد من الادباء هذه الظاهرة لدى الشعراء في العصور الأدبية الجاهلية والاسلامية والعباسية ، فسئلوا عن السبب الذي حملهم على أن يقصّروا في شعرهم ويفضلوا المقطعات على الطوال . ونرى من المستحسن أن نسوق نصوصاً في هذا الشأن لننطلق منها في تفسير هذه الظاهرة المهمة في الشعر العربي .

قال الجاحظ : (وإن أحببت أن تروي من قصار القصائد شعراً لم يسمع بمثله . فالتمس ذلك في قصار قصائد الفرزدق ، فانك لم ترَ شاعراً قطّ يجمع التجويد في القصار والطوال غيره .

وقد قيل للكميت : إن الناس يزعمون أنك لاتقدر على القصار ! قال : من قال الطوال فهو على القصار أقدر ...

وقيل لعقيل بن علّفة : لم لاتطيل الهجاء ؟ قال : يكفيك من القلادة ماأحاط بالعنق . وقيل لجرير : إلى كم تهجو الناس ؟ قال : اني لأبتدىء ولكني أعتدي . وقيل له : لم لاتقصّر ؟ قال : ان الجماح يمنع الأذى) (٣) .

(وقيل لأبي المهوّش : لم لاتطيل الهجاء ؟ قال : لم أجد المثل النادر إلا بيتاً واحداً . ولم أجد الشعر السائر إلاّ بيتاً واحداً) (٤) .

(١) ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) ج ٢ ص ٢٨٢ ، وانظر : معجم الادباء ٣/٤٤ — ٤٦ ، ٤/٩٤ — ٩٨ ، ١٣/١٦٣ — ١٦٤ . وفي هذه الصفحات ذكر للقطع وانها كانت عشرة أبيات فأكثر .

(٣) الحيوان ٣/٩٨ — ٩٩ ، وانظر : عيون الاخبار ٢/١٨٤ .

(٤) البيان والتبيين ١/٢٠٧ ، وانظر : الشعر والشعراء ١/٧٦ .

وقال أبو هلال العسكري :

(وقيل لبعضهم : لم لاتطيل الشعر ؟ فقال : حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق . وقيل ذلك لآخر ، فقال : لست أبيعه مذارعة .

وقيل للفرزدق : ماصيرّك إلى القصائد القصار بعد الطوال ؟ فقال : لأني رأيتها في الصدور أوقع ، وفي المحافل أجول .

وقالت بنت الحطيئة لأبيها : مابال قصارك أكثر من طوالك ؟ فقال : لأنها في الآذان أولج ، وبالأفواه أعلق .

وقال أبو سفيان لابن الزبعري : قصّرت في شعرك ؟ فقال : حسبك من الشعر غرّة لائحة ، وسمة واضحة .

وقيل للنابغة : ألا تطيل القصائد كما أطال صاحبك ابن حجر ؟ فقال : من أنتحل أنتقر . وقيل لبعض المحدثين : مالك لاتزيد على أربعة واثنين ؟ قال : هنّ بالقلوب أوقع ، وإلى الحفظ أسرع ، وبالألسن أعلق ، وللمعاني أجمع وصاحبها أبلغ وأوجز .

وقيل لابن حازم : ألا تطيل القصائد ؟ فقال :

أبى لي أن أطيل الشعر قصدي ... إلى المعنى وعلمي بالصواب
وايجازي بمختصر قريب ... حذفتُ به الفضول من الجواب
فأبعثهن أربعةً وستاً ... مثقّفةً بألفاظ عذاب
خوالد ماحدا ليلٌ نهاراً ... وما حسُنَ الصبا بأخي الشباب
وهنّ إذا وسمتُ بهنّ قوماً ... كأطواق الحمائم في الرقاب
وكنّ إذا أقمت مسافراتٍ ... تَهاداها الرواةُ مع الركاب (١)

وقال ابن رشيق :

(حدثنا الشيخ ابو عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل رحمه الله تعالى . قال : سئل أبو عمر بن العلاء ، هل كانت العرب تطيل ؟ فقال : نعم ليُسمع

(١) الصناعتين ١٧٩ — ١٨٠ انتقر : اختار .

منها ، قيل : فهل كانت توجز؟ قال : نعم ، ليحفظ عنها . قال : وقال الخليل بن أحمد : يطول الكلام ويكثر ليفهم ، ويوجز ويختصر ليحفظ ، وتستحب الإطالة عند الاعذار والإنذار والترهيب والترغيب ، والإصلاح بين القبائل ، كما فعل زهير ، والحارث بن حلّزة ، ومن شاكلهما، وإلاّ فالقطع أطيرُ في بعض المواضع ، والطوال للمواقف المشهورة .

ويحكى أن الفرزدق لما وقع بينه وبين جرير ماوقع وحُكم بينهما قال بعض الحكام : الفرزدق أشعر ، لأنه أقواهما أسر كلام ، وأجراهما في أساليب الشعر ، وأقدرهما على تطويل ، وأحسنهما قطعاً ، فقُدِّم بالقطع كما ترى .

وقال بعض الشعراء : يحتاج الشاعر إلى القطع حاجته إلى الطوال ، بل هو عند المحاضرات والمنازعات والتمثل والملح أحوج اليها منه إلى الطوال .
... وقيل للجمّاز : لم لاتطيل الشعر ؟ فقال : لحذفي الفضول . وقال له بعض المحدثين وقد أنشده بيتين : ماتزيد على البيت والبيتين ؟ فقال : أردتَ أن أنشدك مُذارعة ، وهو القائل :

أقول بيتاً واحداً أكتفي بذكره من دون أبيات

... وهجا محمد بن عبد الملك الزيات ابن ابي دواد بتسعين بيتاً ، فقال ابن ابي دواد يخاطبه :

أحسن من تسعين بيتاً مدى جمعُك معناهنّ في بيتِ
ما أحوجَ الملك الى قطرةٍ تغسلُ عنه وَضرَ الزيتِ (١)

ان النصوص المتقدمة تنطوي على امور كثيرة :

منها ان الطول او القصر قد يكون في القصائد نفسها ، فبعضها طويل ، وبعضها قصير . وهذا لايعني أن القصير من القصائد يقع في عشرة أبيات أو دونها وإنما هو قصير بالقياس الى الطويل منها .

---

(١) العمدة ١/١٨١ – ١٨٨ .

ومنها ، ان هناك شعراء كانوا معروفين بالميل الى الطوال ، كامرىء القيس وزهير بن أبي سلمى والحارث بن حلزة والكميت ، كما ان هناك آخرين عرفوا بالميل الى القصار ، كالنابغة والحطيئة ، وأبي المهوّش وابن الزبعرى والفرزدق وابن حازم (١) .

ومنها ان من اسباب المناضله بين الشعراء او التعريض بهم هي قدرتهم على الطوال او القصار ، كما هي الحال بين النابغة وامرىء القيس ، وجرير والفرزدق .

ومنها ، احتجاج أصحاب القصار والطوال ، وهي حجج كثيرة ، فمن حجج أصحاب القصار ، انها دليل على الاختيار كما قال النابغة ، وانها أكثر سيرورة من سواها كما قال ابو المهوش . وانها كالقلادة التي تحيط بالعنق كما قال ابن علفة ، وانها أولج في الآذان ، وأعلق بالأفواه كما قال الحطيئة ، وأوقع في الصدور ، وأجول في المحافل كما قال الفرزدق وأنها كالغرّة اللائحة والسمة الواضحة كما قال ابن الزبعرى ، وانها اجمع للمعاني ، وأدلّ على بلاغة صاحبها وإيجازه كما قال بعض المحدثين . وانها خالية من الفضول كما قال الجمّار وابن حازم .

أما حجج أصحاب الطوال ، فمنها : انها تدفع عن صاحبها الأذى ، كما قال جرير ، ومنها ان صاحب القصار قادر على الطوال إذا شاء ، كما قال الكميت .

وواضح ان النصوص المتقدمة قد اشتملت على آراء الشعراء في القصار والطوال في العصور الجاهلية والاسلامية والعباسية . كما اشتملت على

---

(١) اشتمل ديوان امرىء القيس على (٢٨) قصيدة تتراوح أبيات (٦) منها بين ٤٠ — ٩٢ بيتاً وديوان زهير على (٢٩) قصيدة تتراوح أبيات (٦) منها بين ٤٠ — ٩٤ بيتاً وديوان النابغة على (٢٥) قصيدة تتراوح ابيات (٣) منها بين ٣٩ — ٥٠ بيتاً وديوان الحطيئة على (٢٨) قصيدة تتراوح ابيات (٣) منها بين ٣٧ — ٤٩. بيتاً وديوان الكميت — عدا الهاشميات على (٥) قصائد واحدة منها من (٤٨) بيتاً .
وديوان الفرزدق على (١٨٧) قصيدة تتراوح أبيات (٣٢) منها بين ٤١ — ١٦٠ بيتاً.

آراء أدباء المحدثين كأبي عمرو بن العلاء والخليل بن احمد . فقد بيّن الأول السبب في تطويل الكلام او تقصيره . كما ذكر الثاني التطويل والايجاز وأسباب قولهما وتفضيل أحدهما على الآخر ، وذكر آخر حاجة الشاعر الى الطوال والقصار والى انه أحوج الى القصار في مناسبات معينة .

فظاهرة تقصير الشعر أو المقطعات الشعرية قديمة . وقد نُظرَ إليها من ناحيتين :

الاولى انها تتصل بقدرة الشاعر على القول ، والثانية انها تتصل بالحاجة اليها او الموضوع الذي يحددها .

ان قول المقطعات يرجع إلى أسباب كثيرة ، نرى أن نقف عندها وقفة طويلة على أنه ينبغي قبل الخوض في هذه الأسباب أن نشير إلى أن ظاهرة المقطعات الشعرية قد بدأت في العصور الادبية السابقة للعصر العباسي كما تقدم في النصوص السابقة . غير أن هذه الظاهرة كثر ميل الشعراء لها ، وزادت رغبة الناس إليها في العصر العباسي . حتى كادت تطغى على القصيد ، وان هناك أسباباً أخرى تضاف إلى الأسباب التي دعت اليها في العصور الادبية قبل العصر العباسي . ذلك أن العصر العباسي بما جدَّ فيه من أمور تناولت مختلف مظاهر الحياة العلمية والادبية والسياسية والاجتماعية كان بحاجة إلى هذا اللون من الشعر كما سنرى . حتى يمكننا القول ان المقطعات الشعرية ظاهرة شعرية عباسية .

أما أسباب قول المقطعات فهي كثيرة . منها :

ابتداء قول الشعر أو أوليته . وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم ، وقلنا إن هذا أمر طبيعي في كل عمل فني فإنه لايكتمل إلاّ بعد أن يمر باطوار وأزمان فينمو ويتطور ويكتمل (١) . ويندرج ضمن هذا السبب أوائل الشعر الذي

---

(١) من الطريف ان نذكر ان من نسب الشعر إلى آدم وأبليس ذكر لهما مقطوعتين ، الاولى من ثلاثة ابيات والثانية من خمسة أبيات (انظر : تاريخ الطبرى ١/١٤٥ ، وتاريخ بغداد ٥/٢٨)

يقوله الشعراء عامة ، وقد وقفنا على أخبار للشعراء ونماذج من شعرهم الذي بدأوا فيه حياتهم الشعرية ، وهذه الأخبار والنماذج دليل واضح على أن الشاعر أول تعاطيه نظم القريض يميل إلى المقطعات ، وهذا أمر طبيعي أيضاً. فقدرته الشعرية ماتزال غضة قليلة الدربة والمراس ، فهي لاتسعفه إلا بقدر ضئيل من الأبيات تتناسب وهذه القدرة الفضة .

جاء في ديوان امرىء القيس ؛ (زعموا أن حجراً أبا امرىء القيس أمر رجلاً يسمى ربيعة أن يذهب بامرىء القيس ، ويذبحه لكراهيته فيه قول الشعر فأتى به ربيعة جبلاً وتركه فيه وامتلخ عيني جؤذر فجاء بها اليه ، فأسف لذلك وحزن عليه. فقال له ربيعة : إني لم أقتله ، فقال له : جئني به ، فرجع ربيعة فوجد امرأ القيس قد قال :

فلاتسلمني ياربيع لهذه — وكنت أراني قبلها بك واثقاً

(خمسة أبيات) (١) .

وجاء في ديوانه أيضاً : (وقال امرؤ القيس وهو أول شعره :

أذود القوافيَ عنّي ذياداً — ذياد غلامٍ جرىء جواد

(ثلاثة أبيات) (٢)

وروى ان (اول ماتكلم به النابغة — يعني الذبياني — من الشعر ، انه حضر مع عمه عند رجل ، وكان عمه يحب أن يحاضر به الناس ، ويخاف أن يكون عيياً ، فوضع كأساً في يده ، وقال :

تطيب نفوسنا لولا قذاها — ونحتمل الجليس على أذاها

فقال النابغة :

قذاها أن صاحبها بخيل — يحاسب نفسه بكم اشتراها ((٣)

وجاء في الشعر والشعراء : (وكان عنترة من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده . وكان لايقول من الشعر الاّ البيتين والثلاثة . حتى سابّه

---

(١) ص ١٤٠ .

(٢) ص ٧٩ — ٨٠ .

(٣) بدائع البدائه ١٨ .

رجل من بني عبس . فذكر سواده وسواد أمه وإخوته ، وعيره بذلك ، وبأنه لايقول الشعر . فقال له عنترة : والله إن الناس ليترانَدون بالطعمة ، فما حضرتَ مرفد الناس انت ولاأبوك ولاجدك قط .... وإني لأحتضر البأس . وأوفي المغنم ، وأعفّ عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدي ، وأفصل الخطّة الصّماء . وأمّا الشعر فستعلم ، فكان اول ماقال قصيدةً :

هـل غـادر الشعراء من متردّم

وهي أجود شعره . وكانوا يسمونها (المُذاهَبة) (١) .

وجاء في أحد مطبوعات ديوانه ثلاث مقطعات قدم لكل منها (وقال في صباه) احدها تتألف من ثمانية أبيات مطلعها :

مازلت مرتقياً الى العليـــــاء حتّى بلغت الى ذرى العلياء (٢)

أما الأخريان فكل منهما من سبعة أبيات) (٣) .

وجاء في ديوان كعب بن زهير :

(قال ابو العباس ثعلب :

وتحرك كعب بن زهير بن ابي سلمى وهو يتكلم بالشعر ، فكان زهير ينهاه مخافة أن يكون لم يستحكم شعره فيروى له مالاخير فيه ، فكان يضربه في ذلك . ففعل ذلك به مراراً يضربه ويزبره ، فغلبه فطال ذلك عليه فأخذه فحبسه . ثم قال : والذي أحلف به لايتكلم ببيت شعر ولايبلغني أنك تريغ الشعر — اي تطلبه — إلا ضربتك ضرباً ينكلك عن ذلك . فمكث محبوساً عدة أيام . ثم أخبر أنه يتكلم به . فدعاه فضربه ضرباً شديداً ، ثم أخبر

---

(١) ١/٢٥١ — ٢٥٢ .

(٢) ص ٦ .

(٣) ص ٩٣ ، ١٢٤ . الجدير بالذكر ان لديوان عنترة عدة طبعات ، وقد رجعنا إلى طبعتين منها وهما مختلفتان في عدد القصائد والمقطعات ، فطبعة شلبي تشتمل على (٧٥) قصيدة و (٧١) منظومة ، وطبعة مولوى تشتمل على (١٠) قصائد و (٣٠) مقطوعة عدا الذيل ففيه قصيدتان و (٢٥) مقطوعة .

أنه يتكلم به ، فدعاه فضربه ضرباً شديداً . ثم أطلقه وسرحه في بهمةٍ وهو غليّم صغير . فانطلق فرعاها ثم راح بها عشية وهو يرتجز :

كأنما أحدو ببهمي عِيـــرا   من القرى موقرة شعيـــرا

«وتمضي الرواية باختبار زهير لابنه في قول الشعر وهي أبيات مفردة» (١)

وفي أخبار الشعراء العباسيين إشارات كثيرة الى ان المقطعات كانت اول ماتفتقت عنه قرائحهم الشعرية ، امثال : الخريمى (٢) . وعلي بن الجهم (٢) والعطوى(٤) والبحتري (٥)، وابن الرومي (٦)، وابن دريد (٧) والمتنبي(٨)، والسلامي (٩) وغيرهم (١٠) .

وقد ينعكس الامر لدى بعض الشعراء في هذا الشأن. فيميلون إلى المقطعات بعد الطوال . ولعل من اسباب ذلك ضعف القدرة الشعرية ، وخمول القريحة وقد لمح بعضهم هذا في احد شعراء القرن الثاني والثالث الهجريين وهو الحسين بن الضحاك، فقال في صدد حديثه عن شعره (وإذا قارنا بين ما ذكره صاحب الفهرست من ان مجموع شعر الحسين (١٥٠) ورقة اي ما بين (٢٥٠٠) إلى (٣٠٠٠) بيت من الشعر، وبين هذا العمر الطويل الذي عاشه . نجده مقلاً ، كما نجد له كثيراً من المقطعات الصغيرة التي لا تبلغ

---

(١) ديوان كعب ص ف — ص .
(٢) ينظر : البيان والتبيين ٢٢٤/١ ، ونور القبس ١٩١ .
(٣) الاغاني ١٠/ ٢١٧ .
(٤) مجلة المورد م ١ ع ١ — ٢ — ص ٧٣ .
(٥) ديوانه ٦٨٧/٢ .
(٦) ديوانه ٥٦٢/٢ .
(٧) تاريخ بغداد ١٩٦/٢ .
(٨) ديوانه : ٢٣٣/١ ، ٢٣٤ ، ٣٢٨ ، ٢٧٩/٣ .
(٩) وفيات الاعيان ٤٠٤/٤ .
(١٠) ينظر :
ديوان بن نباتة السعدي ٢٢٤/١ ، ٢٣١، ٢٣٢ ، وديوان مهيار ٨/١ ، وخريدة القصر ج ٣ م ٢ ص ٤١ وديوان سبط ابن التعاويذي ٧٦ — ٧٧ .

ان تكون قصائد، ولعل هذا او ذاك راجع الى انه لم يكن مكثراً من المدائح، كما لم يكن وقّاعاً في الأعراض . ولعله يرجع أيضاً إلى انه كان شاعر اللهو والمجون والغناء الخاص بالخلفاء والامراء. ولعله فوق هذا وذلك قد انقطع عن الشعر أيام خلافة المأمون وهي فترة طويلة دارت عشرين عاماً ، فلا لهو في مجالس ، ولا مجون في مجتمعات ، وقد تكون خشيته من المأمون جعلته يتجنب مواطن اللهو الخلاعة . حتى لا يأخذه المأمون بذلك ، وهو يعلم انه عليه غاضب ، فلما عادت له الأيام بعد وفاة المأمون ، كان غرامه قد هدأ وتدفقه قد تقاصر ، فأسى شعره نتفاً ومقتطفات في في مجالس الخلفاء الخاصة التي لا تحتاج إلى التطويل)(١). ولعل الطغرائي نموذج آخر ، اذ يبدو انه سلك هذه السبيل ، وفي ديوانه نماذج من المقطعات التي قالها في آخر عمره. جاء في الديوان : (ومن مقاطيعه التي أنشأها في آخر عهده...)(٢)

ومن أسباب قول المقطعات (طبيعة الشاعر) ، او قدرته الشعرية التي رزقها وفطر عليها ، فهو محدود بحدودها مقيّد بطاقتها ، ليس بوسعة تجاوزها إلاّ اذا تكلف ذلك وشقّ على نفسه وعليها، وهو أمر نادر وغير مألوف ولا مستحسن في فن القريض .

وهذه القدرة الخاصة المحدودة ليست وقفاً على الشعراء وعلى ما يقولونه من المقطعات او الطوال وانما الناس عامة مزودون بها على اختلاف منازعهم ، وأصناف علومهم وفنونهم و صناعاتهم . ومن ثَم كان الاختلاف بينهم والتباين في فنونهم.

وسلفت نصوص في تفضيل القصار والطوال من الشعر وما أجاب به من سئل عن تقصيره الشعر او تطويله . ونرى أن نستأنس في هذا الموضع بما ذكره الجاحظ في هذه المسألة . فقد وقف عندها وعلّلها فأحسن

(١) اشعار الخليع ص ١٧ .
(٢) الديوان ٨٣ ، ١٤٧ .

التعليل ، وخرج بحكم صائب في ذلك ، قال : (وقال مسلمة بن عبد الملك لنصيب الشاعر : ويحك يا ابا الحجفاء . أما تحسن الهجاء ؟ قال : أما تراني أحسن مكان عافاك الله : لاعافاك الله ! ولاموا الكميت بن زيد على الإطالة ، فقال : « أنا على القصار أقدر». وقيل للعجّاج : مالك لاتحسن الهجاء ؟ قال : هل في الارض صانع الا وهو على الإفساد أقدر .
وقال رؤبة : (الهدم أسرعُ من البناء) .

وهذه الحجج التي ذكروها عن نصيب والكميت والعجاج ورؤبة ، انما ذكروها على وجه الاحتجاج لهم . وهذا منهم جهل إن كانت هذه الأخبار صادقة. وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام، وتكون له طبيعة في التجارة ، وليست له طبيعة في الفلاحة ، وتكون له طبيعة في الحُداء أو في التغبير ، او في القراءة بالالحان وليست له طبيعة في الغناء. .. ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والاسجاع ولايكون له طبع في قرض بيت شعر . ومثل هذا كثير جداً) (١) .

ان هذه القدرة الخاصة قد تختلف عند الشاعر نفسه. فهو قد يحسن القريض ولايجيد الرجز ، وقد يجيد الرجز ولايحسن القريض ، وهو قد يتعاطاهما معاً فيجيدهما (٢) . بل نجد بعض الشعراء من يحسن فناً من الشعر او أكثر وقد لايحسن فناً آخر منه او أكثر . وهو أمر واضح لدى الكثيرين من الشعراء ومن أجل هذا فحجج من ادعى بقدرته على الهجاء او التطويل او التقصير لو شاء مدحوضة ومرفوضة على هذا الاساس .

وقد لحظ بعضهم سهولة شعر ابي العتاهية ؛ لانه كان وليد طبعه السهل. وشاعريته اللينة . فقال له :

(يا أبا أسحاق. أما يصعب عليك شيء من الألفاظ فتحتاج الى استعمال الغريب كما يحتاج اليه سائر من يقول الشعر . أو الى ألفاظ مستكرهة ؟ قال : لا . فقلت له :

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٧ — ٢٠٨ .
(٢) انظر : المصدر نفسه ٤/٨٤ .

إني لأحسب ذلك من كثرة ركوبك القوافي السهلة . قال : فاعرض عليّ ماشئت من القوافي الصعبة . فقلت : قل أبياتاً على مثل البلاغ . فقال من ساعتـــه .

أيُّ عيشٍ يكونُ أَبلغَ من عيـ ـش كفافٍ قُوتٍ بقَدْرِ البلاغ

الابيات) (١) . ولكن هل بوسع أبي العتاهية الاستمرار على هذا الأمر ، او انه سيرجع عنه الى مارزقه من موهبة شعرية سهلة لينة ؟ .

فالتطويل والتقصير في الشعر مردهما اذاً الى المقدرة الخاصة التي وهبها الشاعر ، ولانُدحة له في غير مافطر عليه ورزقه .

ومن أجلِ هذا فقد تعذّر على بعض كبار الشعراء أن يحسنوا في القصار كما تعذّر على بعض آخر أن يجيد في الطوال ، وتهيأ لآخرين أن يجمعوا بين الضربين ويحسنوا فيهما .

ولمح ذلك الجاحظ فقال : (وقيل لابن المقفع : مالك لاتجوز البيت والبيتين والثلاثة ! قال : إن جُزتها عرفوا صاحبها . فقال له السائل : وما عليك أن تُعرَف بالطوال الجياد ! فعلم أنه لم يفهم عنه) (٢) .

وعاتب بعضهم محمد بن حازم الباهلي وكان يقول المقطعات فيحسن على اختصاره الشعر (٣) .

وقال آخر في ترجمة ابن بسام العبرتائي : (وكان مع فصاحته وبيانه لاحظّ له في التطويل، انما تحسن مقطعاته، وتندر ابياته)(٤)، كما قال في ترجمة ابن لنكك البصري :(... واكثر شعره ملح وظرف ، خفيفة الارواح تأخذ من القلوب بمجامعها وتقع من النفوس أحسن مواقعها ... وما أشبه شعره

---

(١) الاغاني ٤/ ٤٠ .
(٢) الحيوان ٣/١٣٢ .
(٣) انظر : معجم الشعراء ٣٧١ .
(٤) معجم الادباء ١٤/١٤٠ ، وانظر : معجم الشعراء ١٥٤ .

في الملاحة وقلة مجاوزة البيتين والثلاثة إلاّ بشعر كنيّه ابي الحسن بن فارس ، وأقدر أنه في الجبال كهو في العراق وكان يقال في منصور الفقيه إذا رمى بزوجيه قتل، وكذلك ابن لنكك :اذا قال البيت والبيتين والثلاثة، أغرب بماجلب،وأبدع فيما صنع،فاما اذا قصد القصيد فقلّما يفلح وينجح)(١)

وقال آخر عن الميكالي :(وسئل الشيخ والدي عنه قال : اذا قطع الشعر قطع الشعر. ولكنه اذا قصّد فمن كلامه الذي يوشى به الكلم، ويظلم اذا قيس بعذوبة الظالم ...)(٢).

وقال ابن رشيق: (ولا تكاد ترى مقطعاً الا عاجزاً عن التطويل، والمقصّد ايضاً قد يعجز عن الاختصار ، ولكن الغالب والأكثر أن يكون قادراً على ما حاوله من ذلك ...

وكان عبد الكريم بهذه الصفة، لا يكاد يصنع مقطوعاً، ولا اظن في جميع أشعاره خمس قطع او نحوها.

وكان أبو تمام على جلالته وتقدّمه مقصراً في القطع عن رتبة القصائد .
والمشهورون بجودة القطع من المولّدين: بشار ابن برد،وعباس بن الاحنف،والحسين بن الضحاك.وابو نواس.وأبو علي البصير.وعلي بن الجهم.وابن المعذل،والمجّاز وابن المعتز) (٣).

وقلنا في دراستنا شعر خالد الكاتب ــ أحد شعراء القرن الثالث الهجري ــ : (اشتهر الشاعر بالمقطعات حتى غلبت على سائر شعره، وقد عرف ذلك معاصروه ومن جاء بعدهم. ولعل أقدم إشارة الى ذلك قول ابن الزيات حين قرىء بعض شعر خالد في بناء سامراء على المعتصم (ولكن بضاعته لا تزيد على أربعة أبيات) وقول الشابشتي :(ولا يتجاوز الاربعة أبيات).

ان ما قاله ابن الزيات والشابشتي في هذا الشأن يكاد تكون مطابقاً لما أثر عن الشاعر. فهذا ديوانه يشتمل على (٥٧٧) مقطوعة وقصيدة: منها (٥٥٠)

(١) يتيمة الدهر ٢/٣٤٨ وانظر: معجم الأدباء ١٩/٦

(٢) دمية القصر ٢/٨٦ .

(٣) العمدة ١/١٨٨ .

مقطوعة كل واحدة منها في أربعة أبيات ومنها (٢٧) مقطوعة تقل عن هذا العدد ومنها أربع قصائد تتجاوز كل منها عشرة الابيات.

لقد كان معروفاً بقول المقطعات والاختصاص به، وفي أخباره ما يشير الى هذا فقد روى ان الشاعر دخل بعض الديارات فرأى شاباً فسلّم عليه. وحين سأله عن ذاته قال : انه خالد بن يزيد، فقال الشاب: (صاحب المقطعات الرقيقة).

ويبدو ان هذا الانقطاع الى المقطعات هو الذي جعل بعض الشعراء — وقد سمع قصيدة للشاعر — يشك في قدرته على المواصلة في هذه السبيل، كأنه يستكثر عليه أن يقول في غير ما عرف به. أو كأنه وجد نفسَـه الشعري لا يستطيع أن يمتد الى أكثر من هذه المقطعات.

فقد روي انه (لما قال خالد في صفة سرّ من رأى (قصيدته) التي يقول فيها:

اسقني في جرائز وزقاق لتُلاقي السرور يوم التلاق

(اربعة أبيات) وهي (قصيدة)، لقيه دعبل فقال : يا أبا الهيثم كنت صاحب مقطّعات فداخلت الشعراء من (القصائد الطوال) وأنت لا تدوم على ذلك، ويوشك أن تتعب بما تقول وتغلب عليه. فقال له خالد : لو عرفت النصح منك لغيري لأطعتك في نفسي .

ان مالاحظه دعبل في ضعف قدرة امتداد نفس خالد الشعري حق وصواب فهو ليس بمقدوره تجاوز الطاقة الشعرية التي رزقها. ولا باستطاعته المواصلة او الاكثار من نظم القصيد. فقلة ما أثر له من قصائد من جهة وتخلف هذه القصائد فنياً عن المقطعات من جهة أخرى دليلان واضحان على مصداق قول دعبل وحكمه الصحيح.

أما احتجاج الشاعر لقول المقطعات وتفضيلها على القصيد فيوضحه في قوله — وقد سمع بقول ابن الزيات فيه — (اذا بلغت المراد في أربعة أبيات فالزيادة فضل) (١).

(١) ديوان خالد الكاتب ص ٦٩ — ٧١ .

وعلل الجاحظ هذا الامر فقال :

(ونقول ان الفرق بين المولّد والأعرابي : أن المولّد يقول بنشاطه وجمع باله الابيات اللاحقة بأشعار أهل البدو ، فاذا أمعن انحلّت قوّته واضطرب كلامه) (٢) .

ان هذه الملاحظات ، وخاصة ملاحظة ابن رشيق دعتني إلى تصفح دواوين عدد من الشعراء المشهورين في العصور الادبية المختلفة ، وتقدم ذكر قصائد ومقطعات عدد من الشعراء الجاهليين والاسلاميين ، ورأيت من المفيد هنا أن أكمل ما سلف لتكون الصورة أكثر وضوحاً ، وأدق حكماً . وفيما يأتي جدول بعدد القصائد والمقطعات لعدد من الشعراء في العصور المختلفة السابقة للعصر العباسي .

دواوين الشعراء المحققة على نسخ مخطوطة

الشاعر	عدد القصائد	عدد المقطعات	
قيس بن الخطيم	١٠	١٣	اما الملحق فكله مقطعات والجدير بالذكر أن الناشر عدّ ما كان في ستة أبيات قصيدة
جميل بثينة	٢٤	٧٧	
عمر بن ابي ربيعة	١٣٠	٣١٠	
جرير	١٣٩	١٩١	
الأخطل	٥٧	٧٥	
الراعي النميري	٢٣	٢٧	حقق قسم من شعر النميري على نسخة مخطوطة .
المتوكل الليثي	٧	٢٢	والحق به ذيل وهو مقطعات وكذلك ديوان المتوكل .
النعمان بن بشير	٦	١٧	ويندرج ضمنه الملحق
ذو الرمة	٦٢	٢٤	ماعدا الملحق فهو مقطعات .

دواوين الشعراء المجموعة :

تغلب على هذه الدواوين المقطعات، ولعل من اسباب ذلك ، انها بقايا قصائد، او مقطعات، ومن هذه الدواوين :

ديوان عمرو بن قميئة، وذى الاصبع العدواني، وزيد الخيل ، وقيس بن زهير، وأبي زبيد الطائي، والعباس بن مرداس، وخفاف بن ندبة ، والنمر ابن تولب، ومالك ومتمم ابني نويرة، وابن ميّادة، ونصيب، وكثيّر ، والسيد الحميري، وثابت قطنة، وابن الطثرية، وعبد الله بن معاوية .

العصر العباسي :

الدوادين المحققة عن نسخ مخطوطة

الشاعر	عدد القصائد	عدد المقطعات	
بشار	١٩٨	٥٨	ما عدا الجزء الرابع من الديوان فإنه مجموع وتغلب عليه المقطعات ، ينتهي المخطوط بقافية الراء .
العباس بن الاحنف	٦٤	٥٢٥	
ابو نواس	١٩٤	٨٠٦	
ابو العتاهية	١٤٣	٦١٢	
مسلم بن الوليد	٤٧	١٥٨	ويندرج ضمنه الذيل المجموع .
ابو تمام	١٩٦	٢٩٧	
ابن الزيات	٣٣	١٢٠	
ديك الجن	١٣	٧١	
ابراهيم الصولي	٤	٢٠٦	
علي بن الجهم	٣٥	١٣٨	

الشاعر	عدد القصائد	عدد المقطعات	
علي بن الجهم	٢٥	١٣٨	
البحتري	٥٦٧	٤٦٥	
ابن الرومي	٥٩٧	١٠٤٢	ان الديوان لم يكتمل بعد وما صدر منه ينتهي إلى جزء من قافية الميم .
ابن المعتز	٢٥٣	١٤٩٧	
الصنوبري	١٥٤	٣٩٤	
كشاجم	٩٨	٣٩٥	
المتنبي	١٣١	١٢٤	
السري الرفاء	٢١٠	٣٥١	
تميم بن المعز	١٣٧	٤٢٠	
الصاحب بن عباد	٣٤	٢٨٧	
ابن وكيع	١٠	٧٤	
البستي	١١	٥٦٧	
ابن نباتة السعدي	٢٧٧	٥٩	
الشريف الرضي	٣٣٥	٣٣٤	
مهيار	٣٢٨	٣٥	
الشريف المرتضى	٣٢٤	٢٥٦	
ابو العلاء	٢١٩	١٢٦٠	
ابن زيدون	٦٢	١٠٢	
الابيوردي	١٤٢	٢٤٧	
ابن الخياط	٧٤	٨٢	
الطغرائي	٢٤	٥٨	
ابن خفاجة	٦٣	١٩٤	

الشاعر	عدد القصائد	عدد المقطعات
الارّجاني	٢١٢	١٠٣
حيص بيص	٢١٨	٤١٥
ابن الدهان	٣٩	٢٩
القاضي الفاضل	٩٧	٥٨٦
ابن الفارض	٢٤	٥٨

الدواوين المجموعة :

يغلب على هذه المجاميع الشعرية المقطعات منها :

ديوان أو أشعار : صالح عبد القدوس ، والحسين بن مطير ، وبكر بن النطاح ، والشافعي ، وابي الشيص ، وربيعة الرقي وأشجع السلمي والخريمي ، ومحمود الوراق ، والعكوك ، وعمارة بن عقيل ، وعبد الصمد بن المعذل ، واسحاق الموصلي ، ودعبل ، والحسين بن الضحاك ، وسعيد بن حميد ، وأبي عليّ البصير ، والحلاج ، وابي بكر الشبلي ، وابن انكك ، والخباز البلدي ، وأبي هلال العسكري ، والسلامي .

يتضح من هذا الجدول أن جل الشعراء كانوا يقطعون ، وان مقطعات الكثير منهم كانت تطغى على القصائد . واذا أردنا ان نتلمس سبب او أسباب ذلك لوجدنا ان النفس الشعري او الطاقة الشعرية هي الاساس الذي يتحكم في طول الشعر او قصره ، ولو شاء الشاعر الخروج على ما رزقه من مقدرة طبيعية ، فسيظهر تقصيره ، ويبين ضعفه وتكلفه .

ويندرج ضمن من كان يتمتع بقدرات شعرية خاصة من الشعراء المشهورين الذين تفرغوا للشعر وانقطعوا اليه ، وعرفوا به ، وأكثروا منه . أصنافٌ أخرى ممن تعاطى هذا الفن من رجال ونساء .

وقد ظهر من خلال تسقط أخبارهم ، والوقوف على ما أثر لهم من أشعار ، أنهم كانوا يقطّعون في أغلب ما وصل الينا من نتاجهم ، ومعنى هذا ان قدراتهم الشعرية كانت محدودة بحيث لا يستطيعون تجاوز نطاق ما رزقوه من موهبة شعرية .

ان من بين هذه الاصناف : الخلفاء والامراء والوزراء، والمتأدبين، والعلماء والنساء والموسوسين من الشعراء .

فأغلب ما روى للخلفاء والامراء والوزراء من أشعار كان التقطيع هو الطابع العام لها، وبالامكان الرجوع الى المظان التي ذكرت جملة من اشعارهم (١).

كما ان الكثير من المتأدبين الذين كانوا يجمعون بين الشعر وسواه، من كتابة أو غناء او منادمة كالشعراء الكتاب أو الولاة أو القواد ، أو الندماء كانـوا يقطعون ايضا ، وجاء شيء من الاشارات الى ذلك. فقد جاءفي ترجمة نفطويه: (وكان يقول من الشعر المقطعات في الغزل، وما جرى مجراها كما يقول المتأدبون)(٢) وجاء في الاغاني في صدد إطراء شعر المغني والمتأدب عبدالله بن العباس الربيعي في أحد مجالس الواثق من قبل ابن الزيات قول عبد الله : (... فلما كان من الغد جئت محمد بن عبدالملك شاكراً لمحضره ، فقلت له في اضعاف كلامي : وأفرط الوزير - أعزّه الله - في وصفي وتقريظي ، بكل شيء حتى وصفني بجودة الشعر وليس ذلك عندي ، وانما أعبث بالبيتين والثلاثة ...) (٣) .

ان نظرة سريعة في بعض المظان التي عنيت بأشعار هذا الصنف من الناس لتدلنا على مصداق ما قلناه وقدّمناه .

ان من بين اولئك على سبيل التمثيل: ابن الزيات وابراهيم الصولي، وابراهيم بن المدبر، وأخاه أحمد، وآل وهب، وسعيد بن حميد، وأبا عليّ البصير ،وأبا

---

(١) انظر : الاوراق - قسم أشعار اولاد الخلفاء . والجدير بالذكر ان الصولي يقول في ترجمةأبي عيسى بن الرشيد (كان أبو عيسى بن الرشيد أديباً ظريفاً، وكان زاد عمل بيتين او ثلاثة جودهما وملحهما ص ٩٠) . وانظر .
اخبار الراضي ١٥٤ - ١٨٥ ، ويتيمة الدهر ١/ ٤٣ - ٤٤ ، ٢/٢٢٤ - ٢٤١ . والعمدة ١/٣٢-، وفوات الوفيات ٣/٥، ١٧٨-١٧٩، ١٨٠-١٨١ ، ٣١٨، ٤٠١، ٤/٢٢٦، ٢٢٩، ٦/٦٥ - ٦٦، ٦٨، ٦٣، ١٤١ - ١٤٢ ، ومعجم الادباء ١/٢٥٧-

(٢) معجم الادباء ١/٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٣) ١٩/٢٢٠ .

العيناء ، وآل المنجم (١) .

وظهر أن أغلب ما أثر للعلماء من شعر كان على هيئة مقطعات ، والمقصود بالعلماء كل من لم يجعل الشعر وكده وغايته ، وانما كان يتوسل به الى توضيح فكرة ، أو وصف حالة . وقد وردت نصوص صريحة عن بعضهم تدل على انهم كانوا معروفين بالمقطعات .

فقد جاءفي ترجمة الكندي الفيلسوف : (يقول المقطعات ويضمنها أبياتا لغيره ...)(٢) وتقدم الحديث عن شعر نفطويه ، وجاء في الحديث عن ابي علي الفارسي : (وحكى أبو القاسم ابن احمد الاندلسي ، قال : جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي وانا حاضر ، فقال : إني لأغبطكم على قول الشعر ، فان خاطري لا يوافقني على قوله مع تحقيقي العلوم التي هي من مواده ، فقال له رجل : فما قلت قطّ شيئا منه ؟ قال : ما أعلم ان لي شعراً إلاّ ثلاثة أبيات في الشيب وهي قولي ...)(٣) .

وجاء في ترجمة ابي محمد المقرىء (وكان مشهوراً بعلم القرآن والقراءات ، وكان له معرفة وافرة بعلم العربية ... وكان له مقطعات من الشعر ، فمنها قوله...) (٤)

وجاء في ترجمة الركابسلار العضدي (بارع في علم الهندسة والرياضيات .. وله نظم يرق ويروق ، ونثر يدق ويفوق ، وهو مقطع غير مقصد ، فلله درّه من مقتصر على الجيد مقتصد ، فمن ذلك قوله ...)(٥)

(١) انظر :
جدول القصائد والمقطعات ، والاغاني ٢٢/١٥٦ — ١٨٦ ، ويتيمة الدهر ١/١١٧ — ١١٩ ، ٤/٤٠٣ ، ورسائل سعيد بن حميد واشعاره ، رأشعار أبي علي البصير ، ومعجم الادباء ١٨/٢٠٢ — ٢٠٦ ، وفوات الوفيات ١/١٣٢ — ١٣٣ ، وآل وهب من الاسر الادبية في العصر العباسي — وآل المنجم (دراسة لصاحب البحث مازالت مخطوطة)
(٢) معجم الشعراء ٥٠ .
(٣) وفيات الاعيان ٢/٨٠—٨١ .
(٤) نزهة الألبا ٢٠٢ .
(٥) خريدة القصر ج٣م٢ ص٥٥ .

وجاء في ترجمة البديع الاسطرلابي:

(وله مقطّعات مبدعات، وأشعار لها بفضله أسعار ...)(١).

ان من بين العلماء الذين وقفنا على مقطعات لهم، النحاة واللغويين والقضاة والفقهاء، والمقرئين، والاطباء، والفلاسفة، والمؤرخين. وسواهم، كالخليل بن احمد(٢) والكسائي(٣)،وقطرب(٤)، والمازني(٥)، وابي حاتم السجتاني(٦) والمبّرد(٧) .وثعلب(٨). وابن فارس (٩)، وابن جنّي (١٠) . وابـن خالويه(١١) ، وابن الدهان(١٢)،واحمد بن أبي دواد(١٣)،وأبي الفرج سلامة بن بحر أحد قضاة سيف الدولة(١٤)، والشافعي(١٥)، ومحمد بن داود(١٦)، والخليل بن أحمد السجزي(١٧)، وأبي طاهر بن البرخشي الطبيب(١٨).

(١) نفسه ج٣م٢ ص١٣٩ .

(٢) انظر : نور القبس ٥٧–٧٢ ، ونزهة الألبا ٤٦ ، ومعجم الادباء ١١/٧٥–٧٦ ، ووفيات الاعيان ١/٢٤٦–٢٤٧ .

(٣) انظر : وفيات الاعيان ٣/٢٩٥ .

(٤) انظر : معجم الادباء ١٩/٥٤ .

(٥) انظر : نور القبس ٢٢٢–٢٢٣ .

(٦) انظر : نزهة الالبا ٢٩٠ ، والوفيات ١/٤٣١–٤٣٣ .

(٧) انظر : نزهة الالبا ٢٢٢–٢٢٣ .

(٨) نفسه .

(٩) انظر : نزهة الالبا ٣٢٢ ، ومعجم الادباء ٤/٨٠–٩٨

(١٠) انظر : يتيمة الدهر ١/١٢٣–١٢٤ .

(١١) انظر : يتيمة الدهر ١/١٢٤–١٢٥ ، ومعجم الادباء ٩/٢٠٤ .

(١٢) انظر : الخريدة ج٣م١ ص١٩ .

(١٣) انظر : العقد الفريد ٣/١٩٤ والاغاني ٢٣/٥٦ .

(١٤) انظر : يتيمة الدهر ١/١١٦ .

(١٥) انظر : ديوان الشافعي .

(١٦) انظر : شعره المجموع .

(١٧) انظر : اليتيمة ٤/٣٣٨ .

(١٨) انظر الخريدة ج٤م١ ص٤٠٠ .

وابن التلميذ (١) ، وابن نبته (٢) ، والكندي (٣) ، والغزالي (٤) ، والطبري (٥) ، وابن عساكر (٦) ، وابن السكيت (٧) ، والجوهري (٨) والرياشي (٩) ، وابي مسهر المؤدب (١٠) ، والمعافى بن زكريا (١١) ، والخطيب التبريزي (١٢) ، وأبي سليى الخطابي (١٣) وغيرهم .

ومن هذه الاصناف التي ظهر فيها غلبة المقطعات على القصائد في نتاجاتهم الموسوسون، وهم طائفة من الشعراء برزوا في القرنين الثاني والثالث، أمثال: ماني (١٤)، وجعيفران (١٥)، وسعدون(١٦)، وأبي بكر الموسوس(١٧)، ولعل من اسباب غلبة المقطعات على نتاجاتهم، ضعف قدراتهم على مقطّعاتهم وتطويلها . وقلّة تحمل طاقاتهم الشعرية على المعاناة والجهد والصبر .

وظهر لنا ايضاً أن أغلب ما يطبع شعر الشواعر هو المقطعات، وهذه الظاهرة تشمل الشواعر عامة ولا تختص بعصر دون آخر . وان كان العصر العباسي الذي

---

(١) الخريدة ج م م ٢ ص١٢٠
(٢) نفسه ص١٢٢
(٣) انظر ماتقدم .
(٤) انظر : وفيات الاعيان ٤/٢١٨
(٥) انظر : تاريخ بغداد ٢/١٦٤-١٧٦ ، ومعجم الادباء ١٨/٤٣-٤٤ ، والوفيات ٤/١٩١
(٦) انظر : معجم الادباء ١٣/٧٥
(٧) انظر : الوفيات ٦/٣٩٩-٤٩٩
(٨) انظر : يتيمة الدهر ٤/٤٠٧
(٩) انظر : نزهة الالبا ٢٩١
(١٠) معجم الادباء ٥/٦٢
(١١) انظر : معجم الادباء ١٩/١٤٢-١٤٤
(١٢) انظر : نزهة الالبا ٣٧٤
(١٣) انظر : اليتيمة ٤/٣٣٤-٣٣٦
(١٤) انظر : فوات الوفيات ٤/٣٢-٣٤
(١٥) انظر : الأغاني ٢٩/١٨٨-١٩٦ ، وفوات الوفيات ١/٢٩٨-٢٩٩
(١٦) انظر الفوات ٢/٤٨-٤٩
(١٧) انظر : اليتيمة ١/٤٤٩-٤٥٠

شهد أنتشار الجواري انتشاراً لا مثيل له في أيّ عصر، قد امتاز بكثرة الجواري الشواعر اللائي كنّ قد تعلمن وتثقفن، وأصبحت الكثيرات منهن يقلن الشعر ويرتجلنه في المناسبات المختلفة.

ويبدو أن رقّة المرأة، ورهافة حسها، وسرعة تأثرها، وضيق الاغراض التي كانت تقول فيها من اسباب ميلها الى الايجاز او التقطيع، وربما كان من اسباب ذلك ايضاً ضعف قابليتها الشعرية عامة.

ان ما وصل الينا من التراث النسوي في مجال الشعر يغلب عليه الايجاز والمقطعات على ان هناك من كن يطلن ويقصّدن، ولكنهن قليلات معدودات.

لقد جاء في كتاب (أشعار النساء) للمرزباني، عدد كبير من أسماء الشواعر العربيات قبل العصر العباسي، وأغلب ما تمثل به من أشعارهن كان مقطعات، وبالامكان الرجوع الى المصدر المذكور للوقوف على ذلك.

ومن الشواعر المعروفات في العصر العباسي:

علّية (١)، ودنانير (٢)، وعنان (٣)، ومحبوبة (٤)، وفضل(٥)، وخنساء(٦)، وعريب(٧)، وبنان (٨)، وبدعة (٩)، ونبت(١٠)، وسلمى البغدادية(١١)،

---

(١) انظر: الاوراق – أشعار اولاد الخلفاء ص ٥٥– ٨٢، والاغاني ١٠/١٦٢– ١٨٦، وفوات الوفيات ١٢٣/٣)

(٢، ٣) انظر: المرأة في ادب العصر العباسي الملحق.

(٤) انظر: الاغاني ٢٢/٢٠٠– ٢٠٤.

(٥) انظر: الاغاني ١٩/٢٠٩ – ٢١٣، ورسائل سعيد بن حميد وأشعاره ص ١٨ – ٢٩.

(٦) انظر: الأغاني ١٩/٣٠٨.

(٧) انظر: نساء الخلفاء ٤٥– ٦٣.

(٨) نفسه ٩١.

(٩) نفسه ٦٣– ٦٦.

(١٠) نفسه ١٠١ – ١٠٣.

(١١) انظر: الخريدة ج ٣ م ٢ ص ٤١٢.

والنجيبة القحطانية (١) ، وحفصة الاندلسية (٢) ، وحمدة الاندلسية (٣) ، وسواهن (٤)

ومن الاسباب : رغبة الناس في القصار او الايجاز او المقطعات، وقد ذكرنا فيما تقدم ان الشعر بدأ مقطعات يقولها الرجل في حاجته، ويظهر انه بعد أن قطع شوطاً في ذلك المضمار بدأ يجمح بصاحبه أو أن قائله بدا له أن يمده ويرخي من عنانه، فاذا به يطول ويمتد حتى تجاوز أحياناً حداً أصبح الناس ومنهم الممدوحون او الشعراء يضيقون به وبأصحابه. وهناك إشارات كثيرة على البرم بالتطويل والضيق بمن يطيلون .

ان رغبة الناس في القصار او المقطعات لم تكن مقصورة على الشعر وحده وانما تجاوزتها إلى فنون الكلام الأخرى .

قال الجاحظ : (وقد أدركتُ الرواة المسجديين والمربديين، ومَن لم يروِ أشعار المجانين ولصوص الاعراب، ونسيب الاعراب، والارجاز الاعرابية القصار، والأشعار المنصفة، فانهم كانوا لايعدونه من الرواة. ثم استبردوا ذلك كله ووقفوا على قصار الحديث والقصائد والفقر والنتف من كل شيء ...) (٥)

وروي أن الشعبي (دخل على عبد الملك بن مروان فقال له : أنشدني أحكم ما قالته العرب (وأوجزه) فقال : قول امرىء القيس :

صُبّتْ عليه وما تنصبُّ عن أُمَمٍ إنَّ الشّقاء على الأشقَيْن مكتوب

ثم تمثل ببيت واحد لكل من زهير والنابغة وعدي بن زيد وطرفة بن العبد

(١) نفسه ص ٤١٥ .

(٢) انظر : معجم الادباء ، ١٠/٢١٩ - ٢٢٧ .

(٣) نفسه ١٤/٢٧٤ - ٢٧٨ .

(٤) انظر : المرأة في ادب العصر العباسي الملحق .

(٥) البيان والتبيين ٤/٢٣ .

وعبيد بن الأبرص ولبيد بن ربيعة، والاعشى والحطيئة والحارث بن عمرو والشمّاخ (١) .

(ودخل الفرزدق على عبد الرحمن بن أم الحكم، فقال له عبد الرحمن: أبا فراس، دعني في شعرك الذي ليس يأتي آخره حتى يُنسى اوله، وقال: قل فيّ بيتين يعلقان بالرواة، وانا أعطيك عطية لم يعطكها أحد قطّ قبلي، فغدا عليه وهو يقول : (بيتان)، فقال : أحسنت، وأمر له بعشرة آلاف درهم)(٢).

وقال ابو الحسن علي بن محمد العاوي: (كنت واقفاً في السماطين بين يدي سيف الدولة بحلب، والشعراء ينشدونه، فتقدم اليه أعرابيّ رثّ الهيئة، فاستأذن الحجاب في الإنشاد، فأذنوا له فأنشد :

أنت عليّ وهذه حلب ... قد نفد الزاد وانتهى الطلب
بهذه تفخر البلاد وبالأ ... مير تزهى على الورى العرب
وعبدُك الدهرُ قد أضرَّ بنا ... إليك من جور عبدك الهرب

فقال سيف الدولة : أحسنت والله أنت، وأمر له بمائتي دينار) (٢) .

إن تطويل الشعراء لقصائدهم وحديثهم عن ذواتهم ومغامراتهم كان من أسباب هذا الضجر بهم وبشعرهم، ومن ثمّ كانت جوائز الممدوحين لهم تتناسب وهذا التطويل او التقصير . فقد روى ان الشعراء مدحوا أحد القواد في العصر العباسي وكان فيهم ابو العتاهية . فكانت جائزته أكبر كثيراً مما حصل عليه اولئك الشعراء . فغاروا من ذلك . فجمعهم الممدوح وقال :

(يامعشر الشعراء عجباً لكم : ماأشد حسدكم بعضكم بعضاً ! إن أحدكم يأتينا ليمدحنا بقصيدة يشبب فيها بصديقته بخمسين بيتاً فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره . وقد أتانا أبو العتاهية فشبب بأبيات يسيرة .

(١) نور القبس ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) العمدة ٢/١٢٨ - ١٢٩ ، وللوقوف على مثال آخر ينظر : وفيات الاعيان ٢/٢٢٧.

(٣) يتيمة الدهر ١/٣٢ .

ثم قال ... فما لكم تغارون) (١) .

وروى ايضاً أن أحدهم نصح لاشجع السلمي ان يتقرب بشعره الى احد المدوحين ووصاه أن لايطيل شعره لانه اي الممدوح يملّ الإطالة (٢) .

ان بعض الشعراء أحسّ بأهمية القصار او المقطعات ، ورأى انها تنطوي على مميزات لاتتوفر في الطوال . ومن أجل هذا فقد كان يميل اليها والى سماعها من أصحابها . ولعل الخبر الآتي دليل واضح على هذا الامر : فقد روي عن محمد بن امية قوله :

(كنت جالسا بين يدي ابراهيم بن المهدي. فدخل اليه ابو العتاهية: وقد تنسك ولبس الصوف، وترك قول الشعر الاّ في الزهد، فرفعه ابراهيم وسُرّ به، فأقبل عليه بوجهه وحديثه. فقال له ابو العتاهية: أيها الأمير بلغني خبرفتى في ناحيتك ومن مواليك يعرف بابن أمية يقول الشعر. وأنشدتُ له شعراً أعجبني فما فعل ؟ قال: فضحك ابراهيم ثم قال: لعله أقرب الحاضرين مجلسا منك، فالتفت إليّ فقال لي: أنت هو فديتك ؟ فتشورت وخجلت وقلت له انا محمد بن أمية جعلت فداءك ! وأما الشعر فانما أنا شاب أعبث بالبيت والبيتين والثلاثة كما يعبث الشباب . فقال لي فديتك ذلك والله زمان الشعر وإبّانه وما قيل فيه فهو غرره وعيونه، وما قصُر من الشعر وما قيل في المعنى الذي تومىء اليه أبلغ وأملح ...)(٣) .

ومنها :

الارتجال ، وهو كما يقول ابن ظافر الازدي : (أن ينظم الشاعر ما ينظم في اوحى من خطف البارق، واختطاف السارق. وأسرع من التماح العاشق. ونفوذ السهم المارق حتى يُخال ما يعمل محفوظاً، او مرئياً ملحوظاً، من غير حاجة

(١) وفيات الاعيان ١/٢٢٠ - ٢٢١)

(٢) الاغاني ١٨/٢١٨ .

(٣) الاغاني ١٢/١٤٥ - ١٤٦)

الى كتابة، ولا تعلّل بتقفية. وتنفرد عند ذلك قضية الحال باختراع الوزن والقافية ..)(١).

ومعنى هذا ان الشعر الذي ينظم في مثل هذه الحال بعامة سيكون من نوع المقطعات او القصائد القصار(٢)، وهذا ما كان فأغلب ما ذكر من شعر الشعراء المرتجل ينحو نحو المقطعات، ولعل كتاب بدائع البدائه الذي صنف في هذا النوع من الشعر دليل واضح على هذا.

اما المصنفات الاخرى التي وردت فيها أشعار مرتجلة فتكاد تكون امثلتها مقطعات ايضاً(٣).

والجدير بالذكر أن الغالبية العظمى مما تمثل به ابن ظاهر في كتابه كان لشعراء عباسيين. وهو أمر بديهي على ما نظن ؛ لأهمية العصر الذي جدّت فيه أمور كثيرة تناولت جوانب الحياة المختلفة.

ان هذه الامور المتشعبة المستجدة كانت تتطلب من الشاعر او الاديب أن يكون مهيئاً نفسه لما يطلب منه، أو يتعرض له من مفاجآت. ومن أجل هذا فقلّما خلت حياة شاعر عباسي من أمور تستدعي الارتجال.

ان نظرة عجلى على الاسماء الواردة في كتاب «بدائع البدائه» لتبرز بوضوح زحمة هذه الاسماء في هذا المجال، منها على سبيل التمثيل :

بشار، ومطيع بن إياس. وحماد عجرد. وابو الشمقمق. وابو العتاهية. وابو نواس، ومسلم بن الوليد. والعباس بن الاحنف. وسلم الخاسر. والحسين بن الضحاك. ودعبل. وابراهيم الصولي، والرقاشي. واليزيدي. ومحمد بن

(١) بدائع البدائه ٨٠، وانظر : العمدة ١٨٩/١ وفيه ان (الارتجال ما كان انهماراً وتدفقاً لايتوقف فيه قائله).

(٢) قيل ان قصيدتي الحارث بن حلزة وعبيد بن الابرص كانتامرتجلتين (العمدة ١٩٠/١

(٣) انظر : العمدة ١٨٩/١–١٩٦ فقد عقد فصلا على الشعر المرتجل وكانت شواهده في أغلبها مقطعات ايضاً. وانظر على سبيل المثال كذلك : الاغاني ٨٣/١٢، ٢٣٣/٩ – وديوان علي بن الجهم ١٨٧، وديوان خالد الكاتب ٤٣، ٤٤، وديوان المتنبي ٨١/٣.

وهيب. ومروان بن أبي الجنوب وعلى بن الجهم ، وخالد الكاتب ومروان بن أبي حفصة... ولم يقتصر الامر على الشعراء بل كان الى جانبهم عدد من الجواري الشواعر أمثال : عنان، ودنانير وقرّة، والدلفاء، ومتيم، وسلمى اليمانية ، وفضل (١) .

ومن اسباب قول المقطعات ، صعوبة القوافي .

والقوافي — كما يقول المعرى : — « تنقسم ثلاثة أقسام : الذلل ، والنفر ، والحوش ، فالذلل : ماكثر على الالسن وهي عليه في القديم والحديث ، والنفر : ماهو أقل استعمالا من غيره كالجيم والزاي ونحو ذلك ، والحوش ، اللواتي تهجر فلا تستعمل وذلك أن يتفق أن لاتخاو القافية على كل الاوزان...)(٢).

ويبدو ان الشعراء قد أحسوا بصعوبة هذا الأمر فتجنبوا النظم فيما صعب من القوافي او قللوا منه منذ أقدم العصور ، وقد عرف ذلك المعري أيضا فقال في مقدمة لزومياته التي جعلها على حروف المعجم :

(وقد بنيت هذا الكتاب على بنية حروف المعجم المعروفة ... فاما المتقدمون فقلّما ينتظمون بالردوى حروف المعجم ، لأن ماروى من شعر امرىء القيس لانعلم فيه شيئاً على الطاء ولاالظاء ولاالشين ولاالخاء ونحو ذلك من حروف المعجم ، وكذلك ديوان النابغة ليس فيه روى بني على الصاد ولاالضاد ولا الطاء ولاكثير من نظائرهن ، وهذا شيء ليس بخفيّ .

والمحدثون أكثر تحقيقاً بالنظام ، لأن فيهم قوما مستجرين يكون ديوان احدهم في العدة كدواوين كثيرة من أشعار العرب .

---

(١) للوقوف على نماذج يحسن الرجوع إلى البدائع .
(٢) اللزوميات ١/٣٠ .

وهذا ابو عبادة له شعر جم ولاأعلم فيما روى له شيئا على الخاء ولاالغين ولاالثاء الاّ ان يكون شاذاً لم يثبت في أكثر النسخ ...) (١)

ويظهر ان تحاشي النظم على القوافي الصعبة كان بسبب ندرتها من جهة وثقلها او تكلفها من جهة ثانية ، وقد ألمح الى هذا غير واحد من الأدباء والشعراء ، فقد روى الصولي عن ابن البحتري قوله : (لمّا ابتدأ أبي يعمل قصيدته التي يهجو بها احمد بن صالح بن شيرزاد ويمدح أبا الصقر ابتدأها طائية ... قلت له : لم تركب هذه القافية الصعبة مع رجل لاحظّ لك معه وأنت طالب رضاه . اركب قافية سهلة ، فقال لي : يابني لعمرى ان الكلام في القوافي السهلة أطبع وأمكن ، إلاّ ان الحاذق لايقول الاّ جيداً في ايّ شيء أخذ ، ولأي قافية ارتكب . ثم رأيته قد ابتدأ بتشبيبها فقال ... فطابت نفسي وقلت : ليقل بعد هذا ماأحبّ) (٢) .

وقال المعري في رسالة الغفران : (ويعرض له رؤية. فيقول :ياابا الحجّاف ماكان أكلفك بقواف ليست بالمعجبة ! تصنع رجزاً على الغين ورجزاً على الطاء وعلى الظاء وعلى غير ذلك من الحروف النافرة ...) (٣) .

ان هذه الملاحظات حدت بي الى استعراض جملة من دواوين الشعراء في العصور الادبية والوقوف على ماجاء فيها من القوافي النفر والحوش .

والجدول الآتي يشتمل على مجموع قصائد كل شاعر ومقطعاته عامة ثم على مجموع قصائده ومقطعاته على الحروف النفر والحوش والتي نريد بها (الثاء والجيم والخاء والذال والزاي والشين والصاد والضاد والطاء والظاء والغين والواو) :

---

(١) نفسه ١/٢٢ والجدير بالذكر ان ديوان امرىء القيس قد خلا من القوافي التي ذكرها المعرى ، وكذلك ديوان النابغة . جاء في العمدة : (وكان امرؤ القيس مقلا ، كثير المعاني والتصرف ، لايصح له الا نيف وعشرون شعراً بين طويل وقطعة) ١/١٠٥.

(٢) اخبار البحتري ١٢١–١٢٢ .

(٣) ص ٣٧٥ .

الشاعر	عدد قصائد الديوان	عدد المقطعات	القصائد تدل على الحروف النفر والحوش	المقطعات على الحروف النفر والحوش
امرؤ القيس	٢٨	٦٩	٢	—
النابغة الذبياني	٢٥	١٧	—	—
عنترة	٧٥	٧١	١	٢طبعة شلبي
عنترة	١٠	٣٠	—	—طبعة مولوي
زهير	٢٩	٢٥	١	٢
كعب بن زهير	٢١	٢٨	—	—
الحطيئة	٢٧	٩٥	—	١
جرير	١٣٩	١٩١	٣	٨
الأخطل	٥٧	٧٥	—	٢
جميل	٢٤	٧٧	٢	١
ذو الرمة	٦٣	٢٤	٣	١١
عمر بن أبي ربيعة	١٣٠	٣١٠	—	٧
العباس بن الاحنف	٦٤	٥٢٥	٣	٢٤
ابو نواس	١٩٤	٨٠٦	٤	٢٩

ابو العتاهية	١٤٣	٦١٢	١١	١٣
ابو تمام	١٩٦	٢٩٧	١٧	١٨
ابن الزيات	٣٣	١٢٠	١	٥
ابراهيم الصولي	٤	٢٠٦	—	١٠
البحتري	٥٦٧	٤٦٥	٢٤	٣٣
ابن الرومي	٥٩٧	١٠٤٢	٧٠	٩٤ينتهي ديوانه الى جزء من حرف الميم
ابن المعتز	٢٥٣	١٤٩٧	١٨	٨٧
الصنوبري	١٥٤	٣٩٤	٣٢	٥٩ينتهي المخطوط الى حرف القاف
كشاجم	٩٨	٣٩٥	٨	٣٨
المتنبي	١٣١	١٢٤	٤	٣
السري الرفاء	٢٦٠	٣٠١	٥	٢٥
تميم بن المعز	١٣٧	٤٢٠	—	١٣
الصاحب بن عباد	٣٤	٢٨٧	٢	٢٢
البستي	١١	٥٦٧	—	٣٦
ابن نباتة السعدي	٢٧٧	٥٩	٥	٢
الشريف الرضي	٣٣٥	٣٣٤	١٤	١٩

الشاعر	عدد قصائد الديوان	عدد المقطعات	القصائد على الحروف النفر والحوش	المقطعات على الحروف النفر والحوش
الشريف المرتضى	٣٢٤	٢٥٦	١٥	١٣
ابن زيدون	٦٢	١٠٢	٣	٢
الطغرائي	٢٤	٥٨	٥	١٦
الابيوردي	١٤٢	٢٤٧	١٦	١٤
ابن الخياط	٧٤	٨٢	١٠	٦
ابن خفاجة	٦٣	١٩٤	—	٤
الاجارني	٢١٢	١٠٣	١٤	٤
سبط ابن التعاويذي	١٦٦	١٦٧	١٣	٢٤
حيص بيص	٢١٨	٤١٥	—	٢
ابن الفارض	٢٤	٥٨	٢	—

ويتضح من هذا الجدول الأمور الآتية :

١ — ان كل الشعراء كانوا يقطعون الى جانب القصيد ، وان الغالب على شعر الكثير منهم هو المقطعات .

٢ — ان اغلب الشعراء كانوا ينظمون على القوافي الصعبة او التي تسمى بالقوافي النفر والحوش .

٣ — ان كفّة القوافي الحوش والمقطعات راجحة على كفة القصيد منها .

٤ — ان الشعراء العباسيين أكثر نظماً ممن سبقهم من شعراء العصور الاخرى على القوافي النفر والحوش .

وهذا دليل اولا على ان السبب الذي حمل الشعراء على ذلك هو صعوبة القوافي ، مما جعلهم يفضلون او يجبرون على أن يكون شعرهم في هذا الصدد مقطعات في اغلبه .

ومن الاسباب المهمة في الميل الى المقطعات وتفضيلها على القصائد طبيعة الموضوعات ، وهي موضوعات كثيرة كان بعضها قديماً وكان الآخر ممّا استحدث اوجد وطوّر في العصر العباسي .

فمن هذه الموضوعات .

الفتوح العربية الاسلامية ، وهي فتوح اشترك فيها الشعراء والرجال الى جانب سائر المحاربين الآخرين . فكان الراجز يعمد الى الأشطر القليلة يعبر فيها عن شعوره وإحساسه وإقدامه وحثّه الآخرين على الاستبسال والنضال في الحروب التي خاضوها ضد الروم والفرس وقد حفظت لنا المصادر التي تعنى بتسجيل أنباء تلك الفتوح نماذج مما كان يرتجل في حومات الوغى واحتدام المعارك .

جاء في الطبري في صدد الحديث عن معارك ذي قار والقادسية بين العرب والفرس أراجيز كثيرة مما كان يرتجزه فرسان العرب وقادتها في سوح القتال . وهي في جملتها مقطعات حماسية تثير النفوس في الاندفاع والفداء والتضحية .

فقد روى ان (اول شيء سمعه (سعد) ليلتئذ (اى في القادسية) مما يستدل به على الفتح في نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول :

نحن قتلنا معشراً وزائدا أربعة وخمسة وواحدا
نحسب فوق اللبد الأساودا حتّى إذا ماتوا دعوت جاهدا
الله ربّي واحترزت عامدا ((١)

ومنها ، اي الموضوعات . التراسل الشعري . وهو يتناول أموراً كثيرة كالتراسل بين الاحبة. فقد كان المتحابون من الشعراء والشواعر والادباء والمتأدبات يتوسلون بالشعر في وصف حبهم، وبثّ شكواهم، وابداء غيرتهم وتضمين رسائلهم والى ذلك مما تستدعيه العلاقات الوجدانية والصلات العاطفية وكان الغالب على ما تتضمنه تلك الرسائل المقطعات الشعرية.

لقد وصلت إلينا اخبار كثيرة عن المراسلات الشعرية التي كان يتناولها المحبون، منها ما كان قبل العصر العباسي(٢) . والكثير منها كان في هذا العصر ؛ بسبب كثرة الشواعر والمتأدبات من الجواري ، وبسبب سهولة الاتصال بين الجنسين. ولعل ما كان يدور بين سعيد بن حميد وفضل الشاعر من تلك المراسلات خير دليل على هذا. لقد قلنا عن هذه العلاقة في حديثنا عنهما : « ان الاخبار التي تسربت إلينا عن علاقة سعيد بفضل تصور ما كان يجري بينهما من تواصل وتهادٍ وتوادّ، كما تصور ما كان يكتنف هذه العلاقة من الفتور والظنون وتبادل التهم. ومن أجل هذه كثرت بينهما المناقضات حتى كاد الكثير من نتاجهما يكون تصويراً لما كان يقع بينهما من أمور »(٣).

---

(١) تاريخ الطبري ٢٥٦٢/٣ — وانظر : المصدر نفسه ٢ / ٢٠٨ — ٢٠٩ ، ٥٣٦/٣ ، ٥٤٦ — ٥٤٧ ٨٥/٤ .

(٢) انظر : أشعار النساء ٥٢ — ٥٣.

(٣) رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ١٨ — ١٩ ، والمصدر نفسه ٢٠ — ٢٨ ، والموشى ٢٠٢ — ٢١٠ .

او التراسل بين الاخوان والاصدقاء في مجالات شتى كالذي جرى بين الحسن بن وهب وأخيه سليمان حين كان الثاني محبوساً(١)، وكالذي جرى بين ابن المعتز وأصحابه من الشعراء والادباء(٢)، وبين جحظة وأبي الفرج الاصبهاني (٣) وبين ابن سكّرة الهاشمي وابن أبي العصب الشاعر(٤) ، وبين ابن أفلح الشاعر وابن التلميذ المتطبب عندما طلب الثاني أن يمتنع الاول عن الاكل تطبباً (٥) .

او الهدايا بين الكتاب واولي الأمر او بين الاصدقاء أنفسهم. فقد كان بعضهم اذا أهدى هدية لولي أمره شفعها بمقطوعة شعرية. وقد تكون هذه المقطوعة قائمة بنفسها او خاتمة لرسالة نثرية. من ذلك هدية احمد بن يوسف الكاتب الى المأمون في أحد الاعياد (٦) . وهدية عمرو بن مسعدة الى المأمون ايضاً(٧) ، وهدية احمد بن اسماعيل الى بعضهم(٨)، وهدية الصابي ايضاً(٩).

او الاستهداء وطلب حاجة ما: كاستهداء نبيذ(١٠)، اوفحم(١١)، أو ماءورد(١٢).

---

(١) انظر : آل وهب في الاسر الادبية في العصر العباسي ١٦٢ - ٢٨١ .

(٢) انظر : شعر ابن المعتز القسم الثاني ٧٨ - ٨٠ .

(٣) انظر : معجم الادباء ١٣/١١٢ .

(٤) انظر : تاريخ بغداد ١٢/٨٧

(٥) انظر : وفيات الاعيان ٦/٢٧٤

(٦) انظر : الاوراق - اخبار شعراء ٢١٦ - ٢١٧ ، ومعجم الادباء ٥/١٧٢.

(٧) انظر : معجم الادباء ١٦/١٣٠ .

(٨) نفسه ٢/٢٢٩ .

(٩) نفسه ٢/٣٤ .

(١٠) انظر : ديوان البحتري ١/٤٠٧، ٤٩١، ٢/٨٠٣، ٩٦٩ ، ٣/١٤٣٠ ، ١٥٨٩، ١٨٦٠ وديوان ابن الرومي ١/٧٧ - ٧٨ ، ٢/٧٥٠، وديوان الرفاء ١/٣٦٧ ، ٣٩٢، ٢/١٨٣، ٣٠٣ ، ٤١٣، ٤٣٩، ٦٨٥، ٧٦١ ، وديوان كشاجم ٢٣٠، ٣٠٦ ، ٢٨٨- ، وديوان الصنوبري ٧٧، ٢١٢، ٢٨٥، ويتيمة الدهر ٣/٣٦ ، ومعجم الشعراء ١٤٣ .

(١١) انظر : يتيمة الدهر ٤/١٣١ .

(١٢) انظر : معجم الادباء ٥/٢٨ ، وديوان ابن الرومي ١/١٢٣

أو ثلج(١)، أو زيت(٢)، أو ممطر(٣) ،أو برذون(٤)، أو أضحية(٥) ، أو استعارة كتاب(٦) .

او استفتاء الفقهاء والقضاة على سبيل المعرفة او المعابثة والمداعبة(٧) .

ومنها :

اشعار التمثيل والاستشهاد للموضوعات التي يبتدعها اويستخدمها بعض العلماء والشعراء وهي اشعار يغلب عليها طابع التقطيع ،ولعل خير مثال على ذلك لزوميات أبي العلاء المعري . جاء في آخر مقدمة اللزوميات: (وهذا حين أبدأ بترتيب النظم وهو مائة وثلاثة عشر فصلاً لكل حرف أربعة فصول وهي على حسب حالات الروي من ضم وفتح وكسر وسكون ، وأما الألف وحدها فلها فصل واحد لانها لا تكون الا ساكنة وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة او القطعتين ليكون قضاء حق للتأليف وبالله التوفيق) (٨) .

لقد اشتملت اللزوميات على نماذج كثيرة لكل حرف من حروف المعجم ، فبلغت (١٤٧٩) نموذجاً منها (٢١٩) قصيدة، وما تبقى فمقطعات وهو عدد يربي كثيراً على القصائد.

ومما يلحظ فيها أن المعري قد أكثر من المقطعات على القوافي النفر والحوش بالقياس الى القصائد .

---

(١) انظر : ديوان السري الرفاء ٢/٢٣ .

(٢) انظر : ديوان الصنوبري ٤٢٥ .

(٣) انظر : ديوان البحتري ٢/٨٩٢ .

(٤) نفسه ٤/٢٢٤٢ .

(٥) نفسه ٢/١٠٩٦ .

(٦) انظر : معجم الادباء ٧/٣٢ - ٣٣، ١٩/١٨٤ ، وديوان تميم ٤٦٤ ، والتنبيه على حدوث التصحيف ١٠٤ .

(٧) للوقوف على نماذج في أشعار الاستفتاء وأجوبتها انظر : يتيمة الدهر ٤/٣٣٩ ، وتاريخ بغداد ٦/٢٥٧ ، وخريدة القصر ج ٣ م ١ ص ٣٩ - ٤٠، ومعجم الادباء ١٧/٣٠٥- ٣٠٧ .

(٨) ١/٣٢ .

ومنها :

شعر الأحلام: وهو شعر روته المصادر عن أناس رأوا في نومهم من ينشدهم شعراً في غرض ما، وكان الغالب على هذا الشعر المقطعات (١) .

ومنها :

شعر الاستعطاف أو الاسترضاء والمظالم او الشكوى او التنصل من آمراتهم به بعضهم ،ويغلب على مثل هذا النوع من الشعر المقطعات أيضاً (٢)

ومنها :

الغناء الذي كان يحتم على الشاعر والمغني ان يفضلا ويقتصراً على المقطعات لانها أسهل عليهما ، وأكثر قبولاً لدى السامعين ،ولهذا فقلما نجد مغنياً او شاعراً قصد من شعره أن يغنّي به أن يتجاوز هذه المقطوعات.

جاء في الحديث عن الحسين بن الضحاك الذي أكثر من إنشاء الشعر للمغنين من أنه (كان يعاشر الامراء والخلفاء وكان ينشىء لهم الشعر ليتغنى لهم فيه المغنون ، وقد أكثر من ذلك حتى أثر في شعره وأصبح شعره كله موسيقياً. وقلّ أن تجد للحسين شعراً لم يتغن فيه المغنون ، وقلّ أن نجد له شعراً لايصلح للغناء، لا لجودة لفظه ومعناه فحسب، بل لهما ولهذا التنسيق الموسيقي الذي لاتكاد تجده عند غيره، ومن هنا آثر وكاد يؤثر دائما القصار من بحور الشعر ...)(٣) والجدير بالذكر ان كل ما أثر للحسين من شعر في هذا الشأن كان مقطعات .

---

(١) للوقوف على امثلة من هذا الشعر، انظر : العمدة ٦٨/١، وخريدة القصر ج٣ م١ ص ٣٢٩، ج٣ م٢ ص ٢٩٦، ومعجم الادباء ٢٢٩/٨، ووفيات الأعيان ١٧١/٢.
واغلب الظن ان شعر الأحلام أو اغلبه مما لا حقيقة له، وانما كان بعضهم يصفه او ينحله الآخرين لغرض في نفسه .

(٢) انظر : الأغاني ٤٩/٤ — ٥٠، ٢٠٤/٧ — ٢٠٥، ٢٩٨/١٣ ويتيمة الدهر ٣٤٨/٢، ومعجم الادباء ٨٣/١٠ — ٩٤، ٦/١٩ .

(٣) أشعار الخليع ص ١٥.

وجاء في الكلام على المظاهر العامة لشعر اسحاق :

(أكثر اسحاق من نظم المقطعات في شعره، وهذه ظاهرة غزت شعر الفترة، وما وصل الينا من شعر اسحاق كان فيه الكثير من المقطعات التي لم تكن لتتجاوز الاربعة أبيات الا في القليل النادر . هذه الظاهرة تدل على أن اسحاق أخضع حاجته لقول الشعر الى حاجته للغناء ..فطبيعة الغناء العباسي — على مايبدو لم تكن لتطلب من المغني أكثر من هذه المقطعات واورد لنا ابو الفرج خبراً عن اسحاق انه تغنى ببيت واحد، وان هذا البيت استوعب غناءه كله ولم يزد عليه والبيت .

ماعلّة الشيخ عيناه بأربعـــــة تغرورقان بدمع ثم ينسكـب

مما يدل على أن حاجة الغناء الى الشعر لم تزد على البيت او البيتين في بعض المناسبات)(١) وكتاب الاغاني نموذج حي على هذا ايضاً .

ومنها :

المجالس التي كان يعقدها الخلفاء والامراء والوزراء والادباء والشعراء والظرفاء، وكثيراً ماكان يدور فيها مطارحات أدبية ونوادر شعرية ، ومداعبات مجونية. فكان الشعراء والادباء يطالبون بالشعر في مثل هذه المجالس، كأن يطالبوا بوصف حادثة او مداعبة بعضهم لبعض . او التغزل بجارية او غلام ، او دعوة بعضهم لبعض الى غير ذلك من أمور.

فمن تلك المجالس ما روى من اجتماع عدد من الشعراء . في بيت عنان جارية الناطفي . فتناشدوا الى وقت العصر . فلما ارادوا الانصراف قالوا : أين نحن الليلة، فكل قال عندي. فقالت عنان : بالله قولوا شعراً وارضوا بحكمي. فقال كل منهم شعراً من خمسة أبيات . والشعراء هم الحسين بن الضحاك . وداود بن رزين . وابو نواس . وفضل الرقاشي . وعمرو الوراق . وحسين الخياط

---

(١) ديوان اسحاق الموصلي ٤٩.

وعنان(١) .

ومما يمكن أن يندرج ضمن تلك المجالس ايضاً ما ذكره ابن ظافر في بدائع البدائه وهو دليل واضح على ما كان يطالب به الشعراء، وما كانوا يفضلونه من الشعر. قال :(وبرز أمر الملك العزيز — رحمه الله تعالى — الى وزيره الأجل نجم الدين رحمه الله تعالى — ان يصنع غزلاً في جارية صنعت على خدها بالمسك صورة حية وعقرب فصنع أبقاه الله

(ثمانية أبيات)، وصنع ايضاً (ستة أبيات)، ثم أمر الناس بالعمل فأكثروا، وصنع ابن مماتي قطعاً كثيرة، تزيد على العشرين، من احسنها قوله:

نقشت حيّة على ... ورد خد مُرفرف
فبدت آية الكليـ ... ـم على وجه يوسف

وقال ايضاً (بيتان).وقال ابن سناء الملك (بيتان)،فيوقال ايضاً (ثلاثة أبيات) وأخبرني بهاء الدين حسن الخراساني المعروف بابن الساعاتي، قال :أمرني السلطان أن أصنع فيما رسم من ذلك بديهاً على وزن قطعة كانت تغنّى ،في ذلك الوقت فصنعت (أربعة أبيات)، قال :ثم صنعت (ستة أبيات)، وصنع شهاب الدين ابن أخت الوزير النجم من قصيدة، وأنشدنيها لنفسه (خمسة أبيات)، وصنع القاضي ابو الحسن بن النبيه لنفسه (ثلاثة أبيات)، وأنشدني ايضاً لنفسه (بيتان)، وصنع المخلص ابو العباس احمد ابن بنت الفقيه أبي طاهر بن عوف، وأنشدنيه (بيتان)، وقال ايضاً رحمه الله تعالى — (أربعة أبيات)، وأنشد في الرضي بن أبي حفصة الاحدب لنفسه (سبعة أبيات): قال علي بن ظافر: وصنعت (ستة أبيات). قال: وقلت ايضاً: (ثلاثة أبيات)(٢) ومنها:

---

(١) تنظر القصة والابيات التي قالها الشعراء (أشعار الخليع الحسين بن الضحاك) ص ٧٣ — ٧٦ جاء في الصناعتين : (ان مجالس الظرفاء والادباء لا تطيب، ولا تؤنس الا بانشاد الاشعار، ومذاكرة الأخبار، وأحسن الأخبار عندهم ما كان في أثنائها أشعار ...) ص ١٤٤ وللوقوف على شيء من تلك المجالس انظر : الأغاني ١٢/٨١ — ٨٣، ٢٣/٢٠٨ — ٢١٠) والموشح ٤٣ — ٤٤، ومعجم الأدباء ١٥/٨٩، ١٦٦.

اوصاف مظاهر الحياة المختلفة. وهي اوصاف لم تلفت نظر الشعراء — على ما نظن — قبل العصر العباسي.

لقد نظر الشاعر العباسي الى كل شيء يحيط به، ويقع عليه بصره ،ويدخل في حياته اليومية ،فتأثر به وفسح له في شعره مجالاً رحباً، فكان من جراء هذا، الاوصاف الكثيرة لمظاهر الحياة في عصره . كالسمك والقطايف وقصب السكر واللفّاح والباقلاء الأخضر والزلابياء، والرمان والتين والبطيخ ... والمذبة والمعزفة والعود والمضراب والطنبور والمحبرة والاقلام ... ومما يسترعي النظر أن جلّ ما وصل إلينا من أوصاف الشعراء لتلك المظاهر كان على هيئة مقطعات شعرية(١) .

ومنها :

انصراف بعض الشعراء الى أمور تافهة ، ومحاولة وصفها وإبرازها، والاكثار منها حتى غدت نماذج فريدة من نوعها في السخرية والتهكم، احتذاها غير واحد من شعراء العصر. فمن هذه الامور:

حمّار طيّاب، وطيلسان ابن حرب، وشاة سعيد، وهن أبن حكيمة وحبقة وهب. فحمّار طياب — كما ذكر الثعالبي — انه «كان لطياب السقاء حمار قديم الصحبة ضعيف الحملة شديد الهزال ظاهر الانخذال كاسف البال. يسقى عليه ويرفق به، ويرتزق منه مدّة مديدة من الدهر ،وكان عُرضة لشعر أبى غلالة المخزومي ...ولابي غلالة في وصفه بالضعف ، والتوجع له من الخسف (نيف وعشرون) مقطوعة مضمّنة اوردها كلها حمزة الاصبهاني في كتابه (مضاحك الاشعار) على حروف الهجاء ... (٢)

وأما طيلسان ابن حرب فقال فيه الثعالبي ايضاً :

---

(١) للوقوف على نماذج كثيرة جداً يحسن الرجوع إلى ديوان كشاجم في مواضع مختلفة، وديوان السري الرفاء في مواضع مختلفة وخاصة الجزء الثاني، ويتيمة الدهر ترجمة المأموني ١١٩/١، ٢٥١، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٣٧، ٢، ٢٦٤ — ٢٦٥، ٢٧٦.

(٢) ثمار القلوب ٣٦٦ — ٣٦٧ وانظر : التشبيهات ٣٧١.

«كان محمد بن حرب أهدى الى الحمدوني (الحمدوي) طيلساناً خلقاً . وكان الحمدوني يحفظ قول أبي حمران السلمي في طيلسانه، وهو ... فاحتذى حذوه وانثالت عليه المعاني، حتى قال في وصف الطيلسان قرابة (مائتي مقطوعة) ولا تخلو واحدة منها من معنى بديع ..((١)

ويبدو ان مذهب الحمدوي هذا قد أعجب الادباء والشعراء، فقال المبرد :«فأنشدنا (اى الحمدوي) فيه (اى الطيلسان) عشر مقطعات . فاستحلينا مذهبه فيها، فجعلها فوق الخمسين ، فطارت كل مطار وسارت كل مسار» وقد حذا ابن الرومي حذو الحمدوي فنظم عدة مقطوعـات في الطيلسان (٢) .

وأما شاة سعيد، فان سعيد بن حميد البصري أهدى الى الحمدوي شاة هزيلة فاتخذ الشاعر منها وسيلة لينطلق الى نعتها بالهزال والضعف، والاكثار من ذلك حتى قال فيها الثعالبي ايضاً «وكان المثل يضرب بشاة منيع . ثم تحوّل المثل الى شاة سعيد، لكثرة ما قال الحمدوني فيها، وتسيير الملح في وصف هزالها ...» (٣)

وأما هن أبي حكيمة، فذكره الثعالبي قائلاً :«و...أبي حكيمة راشد ابن اسحاق في كثرة ما قال في مدحه سالفاً ،وذمه آنفاً، ووصفه بالضعف والوهن والفشل يجرى مجرى المثل،وينخرط في سلك طيلسان ابن حرب.. وحمار طياب، وشاة سعيد، ولقد استفرغ شعره في ذلك، وأتى بالنوادر والملح السوائر ...» (٤) .

---

(١) ثمار القلوب ٦٠١ — ٦٠٣ وانظر : زهر الآداب ١٠٧٣ — ١٠٧٥ وفوات الوفيات ١٧٣/١ — ١٧٧ والمورد م٢ ع ٣ ص ٧٧ — ٨٩.

(٢) انظر : ديوان ابن الرومي ٢٣٥/١، ٢٥٠ ١٢٢٩/٣.

(٣) ثمار القلوب ٣٧٥ — ٣٧٦، وانظر : المورد م٢ ع (٢) ص ٧٧ — ٨٩.

(٤) ثمار القلوب ٢٢٥ — ٢٢٦.

وأما حبقة وهب، فهي الأخرى قد : «طار خبرُها بالآفاق ، ووقع في ألسن الشعراء، وصارت مثلاً في الشهرة حتى قالوا: أشهر من «حبقة» وهب، وافصح من «حبقة» وهب» (١) .

فممن أثارته هذه الحادثة البحتري فقال فيها تسع مقطوعات، وابن الرومي الذي قال فيها ثماني مقطوعات وقصيدة (٢)، كما أثارت شعراء وكتاباً آخرين، أمثال : ابن بسام، وأبي عليّ البصير، والبلاذري، وعيسى بن القاشاني، واحمد بن أبي طاهر، واحمد بن عبيد وسواهم (٣) .

ان هذه الحوادث على تفاهتها قد شغلت الشعراء رَدَحاً من الزمن، وكأنهم كانوا يحيون حياة الجدب الأدبي والقنوط ، فلم يجدوا في مجال الحياة الواسع مايشغلون به أنفسهم او يلهونها إلاّ بمثل هذه التفاهات السخيفة .

ومنها :

الكتابة على أشياء شتى، كالكتابة على الجدران، تحذيراً، او تشفيّاً، او تغزلاً، او غير ذلك، وقد وردت نصوص كثيرة مما كان يكتب على الحيطان، او على الابواب ،وكلها على هيئة مقطعات شعرية (٤) .

أو الكتابة على أمور أخرى، وخاصة في مجال المجانة واستثارة الشهوة وكوامن الحب ، وكان لانتشار الجواري في هذا العصر دور كبير في العبث والمجون، مما حمل الكثيرين على الانجراف في تياريهما، والانسياق وراء العواطف وطلب اللذة بكل وسيلة ، فعمد اولئك الجواري العابثات الى استخدام كل طريقة مغرية متاحة لجذب الراغبين والمعجبين وذوي الثراء إليهنّ . وقد أفرد الوشاء أبواباً كثيرة لما كان يكتب من مقطعات شعرية على الملابس

---

(١) ثمار القلوب ٢٠٦ وانظر : معجم الادباء ٥/٩٢ – ٩٣.

(٢) انظر : ديوان البحتري : ١/٣٤٨، ٣٩١، ٤٧٩، ٢/٧٨٤، ١٠٨٧، ١٣٣٠، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ٣/١٥٥٩.

(٣) انظر : ديوان ابن الرومي : ١/١٠١، ٣٨٣، ٤١٠، ٥٥٧، ٧٢٥، ٧٤٩، ٣/١٠٧٤

(٤) انظر : ثمار القلوب ٢٠٦ – ٢٠٩، ومعجم الادباء ٥/٩٢ – ٩٣، والوافي بالوفيات ٧/١٦٧.

والخواتيم وسواهما، ونرى الاجتزاء بسرد عنوانات الأبواب كما وردت في كتاب (الموشى) لتكون أدلّة واضحة على هذا الامر .

لقد ضرب صاحب الكتاب أمثلة كثيرة من المقطعات الشعرية على كل باب ذكره في كتابه، وهذه الابواب هي :

باب مايكتب على الفصوص . باب ماوجدعلى القفاح من الالفاظ الملاح ، باب ماوجدعلى الكرازن والمصائب ومشادّ الطرر والذوائب . باب ما وجد على الزنانير والتكك والمناديل . باب ماوجد على السقور والوسائد والبسط والمرافق والمقاعد باب ماوجد على المناص والحجل والأسرّة والكلل. باب مما وجد للمتظرفات والظراف مكتوبا على النعال والخفاف ، باب مايكتب بالحناء في الوطأة والوشاح وعلى الاقداح والراح. باب مايكتب على الجبين والخد ويطرف به ذوو الصبابة والوجد . باب مايفلج به التفاح والاترج والدستنبويات ويعدل به تنضيد الورد والياسمين والخيّريات. باب مايكتب على القناني والكاسات والاقداح والارطال والجامات . باب مايكتب على أواني الفضة والذهب ومدهون الصيني المذهب. باب مايكتب على العيدان والمضارب والسريانات والطبول والمعازف والدفوف والنايات . باب مايكتب على الاقلام من مستظرف الكلام (١) ...

ومنها :

الألغاز : وهو فن يعمد فيه صاحبه الى ان يلغز بشيء ، ويجهد أن يعمّي فيه على الآخرين مقصده ، وقد أكثر منه شعراء العصر العباسي حتى كاد يصبح غرضا قائماً بنفسه. وخاصة في العصر العباسي المتأخر، فان ماوصل الينا من هذا الشعر كاد يطبع بطابع المقطعات. اذ قلما نجد الشاعر يمده الى القصيد .

---

(١) ص ٢١٣ – ٢٥٤، وانظر : دمية القصر ٣١٥/١ – ٣١٦، والخريدة ج٣ م١ ص ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٣٨٤.

من ذلك ماروى من إن جحظة قال : (استهديت من بعض إخواني دواة فأخّرها عني ثم اجتمعنا في مجلس أبي العباس ثعلب ،فقلت لأبي العباس : ما أراد الشاعر بقوله:

أحاجيك: ما قبـر عديـم ترابه   به معشر موتى وان لم يكفنوا
سلوت من التبيان مدّة قبرهـم   فإن نبشوا يوما من الدهر بيّنوا

مكث ساعة ،ثم قال: الدواة ، فلما انصرفت الى منزلي اذا الدواة قد سبقتني اليه (١)

لقد الغزوا في الغيم والبطيخ والقدوس والابرة والميزان ،والخلالة والرمح والجرادة والخيمة والنار والليل والنهار والحجر والمدقة والعقل وغير ذلك (٢) .

ومن اسباب الميل الى المقطعات طبيعة بعض الفنون الشعرية التي كان بعضها قد نشأ منذ ولادة الشعر ، وكان يأتي به الشعراء ضمن الفنون الأخرى، ثم حاول بعض الشعراء أن يستقل به ويفرد له فنا خاصاً منذ العصر الاموي، وكان في مقدمة تلك الفنون التي شهدت هذا الاستقلال: الغزل والشراب، كما طوّرت بعض الفنون وأكثر من النظم فيها حتى أصبحت فناً قائماً بذاته ايضاً، وفي طليعتها فنا الزهد والتصوف.

ولمح بعض الدارسين ظاهرة المقطعات في الشعر العباسي فقال عنها في حديثه عن الموضوعات الجديدة في هذا العصر :

(رأينا موضوعات الشعر القديمة تتجدد تجدداً واسعاً في معانيها. فقد أخذت تعرض بصورة أدق وأعمق. وأخذت تدخل عليها إضافات كثيرة. ولم يقف

---

(١) معجم الادباء ٢/٢٨٠.

(٢) للوقوف على نماذج لكل ما ذكر ، انظر : الخريدة ج٣ م١ ص ٢٥٤، ٣٢٠ ج٣ م٢ ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٦، ١٣١، ٢٤١، ٢٤٢،ج٤ م١ ٤٨، ٢٣٤–٢٤٣، ٤٧٥، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٩٤–٥٩٥.

ويبدو أن شيوع هذه الظاهرة دعا بعضهم إلى وضع كتاب فيها، فقد أشار العماد الى ذلك بقوله: ((وقد طالعت(كتاب الالغار في الأحاجي والألغاز) الذي جمعه صديقنا الفاضل ابو المعالي الكتبي الحظيري، الخريدة ج٤ م١ ص ٤٧٥.

الشاعر العباسي عند ذلك فقد أخذ ينمّي بعض جوانب هذا الشعر حتى لتخرج منه فروع جديدة كثيرة. ونحن نعرضها بترتيب الموضوعات التي تحدثنا عنها واولها مثالية الشيم العربية الرفيعة التي كان يصف بها الشعراء ممدو حيهم، فقد تناولوا هذه الشيم شيمة شيمة، وأخذوا يفردونها بمقطوعات او قصائد يجردونها لها محللين. ومفكرين ملاحظين. فقطعة في تصوير الكرم، وقطعة في تصوير الحلم، وقطعة في تصوير الحياء، وقطعة في تصوير العفة وقطعة في تصوير الصبر والتنفير من اليأس ...)(١)

فالغزل فن قديم صاحب الشعر وواكبه منذ مولده ،وكان الشاعر يستعين به في بث عواطفه وتصوير خلجات نفسه، فكان يقدّم به أغلب فنون قريضة، ولم يكن مستقلاً ولا منفصلاً عن سواه من الفنون الشعرية، ولكن هذا الفن بدأ يأخذ طريقه الى الاستقلال والانفراد، بعد ان كان جزء من سواه، وكان لظهور عدد من الشعراء المحبين في العصر الأموي أثر في استقلاله وتوحده . ولعل في مقدمة اولئك الشعراء جميل بن معمر، وعمر بن أبي ربيعة.

ويظهر مما وصل إلينا من أشعار اولئك الشعراء الذين انقطعوا الى هذا الفن دون سواه .انهم كانوا يكثرون من النظم في المقطعات اوالقصائد القصيرة، وان عدد تلك المقطعات يفوق كثيراً عدد القصائد .

فديوان جميل يشتمل على (٢٤) قصيدة، و (٤٧) مقطوعة، وديوان عمر يتضمن (١٣٠) قصيدة. و (٣١٠) مقطوعات .

ويبدو أن الشاعر العباسي كان أكثر ميلاً في هذا الفن ممن سبقه الى الايجاز فيه المتمثل في المقطعات . فهنالك عدد غير قليل من شعراء العصر، أكثروا من المقطعات بل وكان بعضهم قد أحال عامة غزله الى هذا النوع من التقطيع.

ان نظرة عجلى على دواوين عدد من الشعراء العباسيين تظهر بجلاء رجحان كفة المقطعات على القصائد .

---

(١) العصر العباسي الأول ١٨١ .

لقد قمت بإحصاء عدد المقطعات والقصائد الغزلية في دواوين عدد من اولئك الشعراء، وهذه المقطعات او القصائد لا تشمل الغزل الذي كان يمهد للفنون الشعرية الأخرى، وانما كان فنا قائما بذاته.

وفيما يأتي جدول يبين عدد المقطعات والقصائد في فن الغزل لدى عدد من اولئك الشعراء :

الشاعر	عدد القصائد	عدد المقطعات
ابو نواس	٢٦	٢٨٩
العباس بن الأحنف	٦٤	٥٢٥
خالد الكاتب	٤	٥٧٣
ابن المعتز	١٢	٢٩٢

والجدير بالذكر ان الشاعر العباسي قد أحس بأهمية التقطيع في هذا الفن مما حمله على الاكثار منه او التخصص به. ولعل في نجديات الابيوردي دليلاً على هذا الإحساس والتخصص. فقد جاء في مقدمة ديوانه قول محققه:

(اما النجديات فهي مقطعات غزلية نظمها الشاعر تلبية لرغبة صديقين له كانا (يرتاحان للنسيب الرقيق وينظمهما وطالبي اللهو سلك الطريق. ويختاران من القريض ما رعفت به خياشيم نجد. واهتزمنه لما يرفع دعامتي شرف ومجد. فسألاني أن أنظم في ذلك ما انتهج به هذه المسالك ... ولم أجد بداً من تحقيق آمالهما. وهذه ألف بيت في النسيب وسميناها بالنجديات).

اذاً تتماثل النجديات في كونها مقطعات غزلية خفيفة لا تلتقي مع ما نظمه الشاعر من مطالع غزلية للقصائد العراقيات) (١).

وما قيل عن الغزل يمكن أن يقال عن الخمر. فهو فن قديم. وكثيراً ما كان يأتي في أعطاف الفنون الأخرى . ولكنه بدأ يتخفف من تلك الفنون . حتى كاد يستقل في العصر الاموي ويتحول الى مقطوعات خاصة به . وقد لمح

(١) ديوان الابيوردي ١/٢٧ .

بعض الدارسين هذا الاتجاه لدى بعضهم فقال في حديثه عن الوليد بن يزيد: (ومضى ينميّه ويضيف اليه من مواهبه ومشاعره وملكاته ما أتاح لفن الخمريات أن يأخذ طريقه الى الظهور ، اذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع في ثنايا قصيدة او في مقدمتها كما كان الشأن عندعدى وعند الأعشى ، بل أصبحت تنظم في مقطوعات لها وحدتها الموضوعية والمعنوية ، تنبض بالحياة وتخفق بالجذل والسرور ...) (١) .

ومن غير شك ان فن الخمرية قد وصل الى الاستقلال التام والنضج الكامل على يد أبي نواس الذي القى بكل ثقله الفني وطاقته الشعرية لينفرد به ويجعله فنه الخاص الذي لا ينازعه فيه منازع .

ان من يتصفح ديوان هذا الشاعر يجد أن هذا الفن يحتل جزءاً كبيراً مهماً فيه، وأن ابا نواس قد نظم فيه القصيد كما نظم المقطعات، وأن ما ورد فيه من المقطعات أكثر بكثير مما جاء فيه من القصائد، فقد بلغت قصائده (٩١) قصيدة اما المقطعات فكانت (٣٣٣) مقطوعة .

ويبدوا أن من حذا حذو أبي نواس في هذا الفن، قد سار على طريقته ايضا في الإكثار من المقطعات بالقياس الى القصائد . ولعل ابن المعتز خير نموذج على هذا، فقد بلغت قصائده في هذا الفن (٥٠) قصيدة، اما المقطعات فكانت (١٩٢) مقطوعة .

وهكذا يتبين أن التعبير عن هذا الفن بالمقطعات كان واضحا لدى الشاعر العباسي بصورة عامة .

والزهد والتصوف من الفنون الشعرية التي تطورت واكتملت في هذا العصر . وتهيأ لعدد من الشعراء أن يعرفوا بهما، وأن يفسحوا في شعرهم لها مجالاً واسعا .

---

(١) العصر الاسلامي ٣٨٢ .

ومن ينظر في تراث الشعراء الذي وصل الينا في هذين الفرضين يجد أن الغالب على شعرهم فيهما الميل الى المقطعات . فما أثر للشافعي من شعر كان التقطيع هو الغالب فيه . كما أن ديوان أبي العتاهية قد اشتمل على (١٤٣) قصيدة في الزهد وعلى (٦١٢) مقطوعة منه . كما اشتمل فن الزهد لدى أبي نواس على ثلاث قصائد وست وعشرين مقطوعة . وما جمع من شعر صالح ابن عبدالقدوس ومحمود الوراق يغلب عليه التقطيع .

وفي ديوان ابن المعتز مجموعة كبيرة من المقطعات في فن الزهد، وجاء في دمية الفخر في الحديث عن أشعار الفقيه الأشعر: (مقطعاته حلوة كالشهد ، وإن كانت مقصورة على مرّ الزهد) (١).

وان ما جمع من شعر الملاح وابي بكر الشبلي يغلب عليه المقطعات. بل ان شعر الثاني منهما لايشتمل على قصيدة واحدة.وديوان ابن الفارض يشتمل على (٢٤) قصيدة .و(٥٨) مقطوعة. اما ديوان ابن عربي المسمى ب(ترجمان الاشواق فقد تضمن (٢٢) قصيدة و(٣٧) مقطوعة .

ومما يجدر ذكره أن أغلب ماروى ان لم يكن كل ما روى للزهاد والمتصوفة من شعر سواء ماكانوا قد تمثلوا به او نظموه كان على هيئة مقطعات .

وهناك موضوعات وفنون شعرية أخرى يلمح فيهـــا أثر التقطيـــع . ومن اجل ذلك فهي تندرج في جملة الاسباب التي دعت الشعراء الى الميل نحو تفضيل المقطعات .

منها :

القول في مجالات الآداب والشيب والحكمة . جاء في نزهة الألبا الكلام علي الخليل بن احمد الفراهيدي: (وكان اول من حصر أشعار العرب. وكان يقول البيتين والثلاثة ونحوها في الآداب .مثل ماروى عنه انه كان يقطع العروض. فدخل عليه ولده في تلك الحالة. فخرج الى الناس وقال :

---

(١) ٢٦١/٢ .

ان أبي قد جن . فدخل الناس عليه فرأوه يقطّع العروض. فأخبروه بما قال ابنه. فقال :

لو كنت تعلم ماأقول عذرتني　　او كنت تعلم ماتقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتنــي　　وعلمت أنك جاهل فعذرتكما)(١)

وفي ديوان ابن المعتز فن قائم بذاته هوفن الزهد والشيب والآداب والحكمة، يشتمل على (١١) قصيدة و(١٢١) مقطوعة (٢) ، كما ان في ديوان كشاجم نماذج كثيرة في هذا الفن (٣) .

ومنها :

شعر الشكوى. كشكوى الزمان وأهله، او شكوى حالات صارة لدى بعضهم. ولعل ابن لنكلك خير نموذج لشعراء الشكوى.فقد قيل عنه: (... فكان أكثر شعرة في شكوى الزمان وأهله وهجاء شعراء عصره . وكان أبلغ شعره مالم يتجاوز البيتين والثلاثة)(٤) .

ومنها:

فن الهجاء والذم. ويبدو ان نظرة الشعراء فيه إلى التقصير قديمة . جاء في العمدة: (وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود ، وترك الفحش فيه أصوب، إلاّ جريراً فانه قال لبنيه: اذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة ، واذا هجوتم فخالفوا)(٥). وسلك أكثر شعراء العصر العباسي في هذا الفن مسلك التقصير فيه .فغلبوا جانب المقطعات على الطوال.

لقد أكثر شعراء هذا العصر القول في هذا الفن .وبالغ بعضهم في ذلك حتى استفرغ شعره فيه .

---

(١) ص ٤٦ - ٤٧ .
(٢) انظر : شعر ابن المعتز القسم الأول ٣/١١٧ - ٢١٨ .
(٣) انظر : ديوان كشاجم في مواضع مختلفة .
(٤) معجم الأدباء ١٩/٦ وانظر المصدر نفسه ١٠/٨٣ .
(٥) العمدة ٢/١٧٢ .

جاء في ترجمة ابن بسام العبرتاني: (وأكثر شعره مقطعات ، واستفرغ شعره في هجاء أبيه محمد بن نصر وهجاء الخلفاء والوزراء وجلّة الناس) (١).

وجاء في ترجمة ابن سكرة: (يقال ان ديوان ابن سكرة يربي على خمسين الف ،منها في قينة سوداء يقال لها خمرة ، أكثر من عشرة آلاف بيت، وكان عرُضة نوادره وملحة، كطيلسان ابن طرب، وهن أبي حكيمة ، وحمار طياب و(حبقة) وهب . وحكى ابو طاهر ميمون بن سهل الواسطي ان ابن سكرة حلف بطلاق امرأته — وهي ابنة عمه — انه لا يخلي بياض يوم من سواد شعره في هجاء خمرة، ولما شعرت امرأته بالقضية كانت كل يوم اذا انفتل زوجها من صلاة الصبح تجيئه بالدواة والقرطاس وتلزم مصلاة لزوم الغريم غير الكريم، فلا تفارقه مالم يقرّض من واو (بيتاً) في ذكرها وهجائها) (٢) .

وأكبر الظن ان أغلب ذلك الهجاء ان لم يكن جله كان على هيئة مقطعات وجدير بالذكر ان الثعالبي ذكر له تسعة نماذج من هجائه لخمرة هذه، وكلها مقطعات) (٣) .

وفيما يأتي جدول بعدد القصائد والمقطعات في هذا الفن .العدد من مشاهير الشعراء في هذا العصر.

الشاعر	عدد القصائد	عدد المقطعات
ابو نواس	١٤	٩٩
ابو تمام	١٣	٧٢
البحتري	٢٦	١٧٥
ابن المعتز	١٨	١١٥

(١) معجم الشعراء ٤٥١ .
(٢) يتيمة الدهر ٣/٣ .
(٣) نفسه ٣/١٤ — ١٦ .

ابن الرومي	١٢٨	٣٦٩
المتنبي	٢	١١
كشاجم	١	١٩
الصنوبري	١٧	٣٩

ومنها :

الرسائل المضمّنة : والمراد بها الرسائل التي كان يضمنها اصحابها شيئاً من شعرهم او شعر سواهم ، فقد كان أكثر ما يضمن من الشعر المقطعات ، وهناك نماذج كثيرة في هذا الشأن . ولعل رسائل بديع الزمان وأبي بكر الخوارزمي مثال على ذلك(١) .

. . .

ونرى ان نختتم الاسباب التي دعت الى قول المقطعات او الاكثار فيها ، بسبب أخير وهو يكاد يلتقي بالسبب الاول الذي يحمل الشاعر على التقطيع ، فقد اسلفنا القول بأن من أوائل تلك الاسباب هو ابتداء الشاعر تعاطي هذا الفن ، وعللنا ذلك بان قدرته أو موهبته ما تزال غضّة وغير مدرّبة او ممارسة على التطويل .

ان هذا السبب الاخير هو ضعف حال الشاعر والاديب وعدم قدرته على التطويل بسبب هذا الوهن الذي أصاب كل جزء من جسمه ، وأعني به ساعة الاختصار .

لقد وردت أخبار كثيرة لشعراء وأدباء قالوا شعراً في هذه الساعة او الحال الحرجة من الحياة ، وكان جل ما وصل الينا منه على هيئة مقطعات(٢) ، وهو أمر طبيعي لما سلف تبيينه .

---

(١) انظر : رسائل ابي الفضل بديع الزمان ص ٥٧ – ٥٩ ، كتاب رسائل الخوارزمي ١٩ – ٢٢ ، والاوراق قسم أخبار الشعراء ١٥٦ – ١٥٧ ، ومعجم الادباء ٦٧/٢ ، ٥/١١ – ١٧ .

(٢) روى ان قصيدة مالك بن الريب اليائية قالها ساعة احتضاره ، انظر : شعراء أمويون ٤١ .

أبا عبيد وقع الكتـــــــابُ   واقترب الوعيـد والحســاب

وعند رحلي جمل منجـــاب   احمر في حاركه انصباب (١)

وقول ابن الرومي في اليوم الذي توفي فيه ، لاحد عائديه وهو ابو عثمان الناجـم :

يا عثمان أنت عميد قومـــك   وجودك للعشيرة دون لومك

تمتّعْ مـن أخيك فمـا أراه   يراك ، ولاتراه بعد يومك (٢)

وممن أثر لهم شعر في ساعة الاتضار ايضاً : الحطيئـة (٣) ، وسيبويـه (٤) وابــو حكيمـة راشد الكاتـب (٥) ، ومحمـد بن داود الاصبهـاني (٦) والطغرائي (٧) .

...

يتضح مما تقدم ان ظاهرة المقطعات الشعرية قديمة قدم الشعر ، وان هناك أسباباً كثيرة دعت اليها والى الاكثار منها ، او الاختصاص بها ، وان الشعراء عامة قد نظموا فيها ، وكان بعضهم أكثر ميلاً اليها ، وأقدر عليها من سواه . وان ماورد في الشعر العباسي من هذه المقطعات يفوق كثيراً – كمّاً ونوعاً – ماورد في شعر سواه من العصور الادبية التي سبقته، وذلك بسبب ما استجد من أمور .

لقد ظهر في هذا العصر عدد من الشعراء عرفوا بالقول في المقطعات والاجادة فيها ، وقد تقدم ذكر عدد منهم في غير موضع من هذا البحث ، وممن عرفوا

---

(١) معجم الأدباء ١١/٨٣ – ٨٩ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٥/١٨٨٩ .

(٣) انظر : ديوان الحطيئة ٢٢٨ ، ٢٢٩

(٤) انظر : معجم الأدباء ١٦/١٢١ .

(٥) نفسه ١١/١٢٥ .

(٦) نفسه ١/٢٥٨ – ٢٥٩ .

(٧) نفسه ١٠/٥٩ .

بالاجادة فيها ولم يذكروا في غضون البحث : الخبـــاز البلدي ، الذي قال عنه الثعالبي : (ولاتخلو مقطوعة له من معنى حسن او مثل سائر) (١) وابو علي الدووى الذي قال عنه العماد : (وله المقطعات النادره الدالة على ظرفه ولطفه وحسن معرفته وطيب عرفته) (٢) ، وابن حكينا البغدادي الذي قال فيه ابن شاكر الكتبي : (كان من ظراف الشعراء الخلعاء وأكثر اشعاره مقطعات) (٣) وابو محمد العكبري الذي قال فيه صاحب الخريدة : (أنشدني له في وصف العذار مقطعات ، ارقّ من الاعتذار ، غاص على ابتكار معانيها بالابتكار) (٤) ، وقال فيه ايضاً : (وأنشدني لنفسه أيضاً مقطعات في معان شتى) (٥) .

لقد استهوت هذه الظاهرة الكثيرين فأعجبوا بها وبأصحابها ، ولعل ماروى عن المبرد فى هذا الصدد أوضح دليل على هذا . وكان بعضهم يستحسن المقعطات ويفضلها على القصائد (٦).

لقد تهيأ للشاعر العباسي بهذه المقطعات الوصول إلى الغاية التي كان ينشدها سواه بالطوال ، وتمكن — بما رزقه من مقدرة شعرية عالية — أن يركّز فيها الأفكار ، ويقتضب الصورة ، ويجتبي الالفاظ ، ويستولى المراد ، فكانت من أجل هذا مقطعاته سائرة قوية التأثير في الآخرين .

وقد لحظ غير واحد من الادباء والدارسين أهمية هذه الظاهرة لدى الشعراء ، وميلهم إليها للتعبير عما يجول في أفكارهم ، ويضطرب في نفوسهم ، ويرمون إلى بلوغه من غايات .

---

(١) يتيمة الدهر ٢/٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٢) الخريدة ج ٢/٢٦٠ — ٢٦١ .

(٣) فوات الوفيات ٣١٩/١

(٤) الخريدة ج٤ م١ ص ٣٣.

(٥) نفسه ٣٥ .

(٦) انظر : ديوان الابيوردي ص ج الهامش .

وتقدم القول من فن الشراب لدى الوليد بن يزيد الذي عرف بميله إلى التقطيع . وجاء في الحديث عن شعر ابن لنكك : (ماتوفر لدينا من شعر ابن لنكك يعطينا صورة شاعر متمرد غاضب رافض لأوضاع عصره وتقاليده وعاداته ، لكنه لم يعط شيئاً سوى هذا التمرد والغضب والرفض ... كان ذاتياً شديد الحب لذاته ، شديد الاعتداد بها ، شديد الثقة ، وكان قلقاً عظيم الاضطراب حاداً في تعامله مع الاشياء ، انعكس هذا القلق على شعره فاحاله مقطعات قصيرة لم يكن يصبر فيه على القصائد الطوال ؛ لانه لم يستخدمه للمدح ولا للاتصال بالامراء ، وانما كان الشعر عنده تعبيراً عن أحساسيسه الذاتية وحالاته الفرحة او الحزينة الناقمة ...) (١)

وقال محقق ديوان الصنوبري في مقدمته للديوان : (ولكننا ونحن قد وقفنا على كل حكمة في الديوان ، نرى أن الصنوبري يمتاز على الشعراء كل الشعراء ، سواء الذين قبله او المعاصرين له ، او من جاء بعده بأمور منها :

— سهولة الفاظه وابتعاده عن الغريب بصورة تلفت النظر .

— استيفاؤه المعنى بأوجز عبارة وأسلس لفظ .

— وكنتيجة لذلك طغت المقطعات في شعره على القصائد ، وكانت قصائده قصاراً بحيث يندر أن تجد له قصيدة تجاوزت الثلاثين بيتاً (٢) .

ان كل ماتقدم في هذا الشأن دليل واضح على ان المقطعات الشعرية كثرت وتطورت ونضجت في هذا العصر ، حتى يمكن القول بانها ظاهرة جديدة في الشعر العباسي .

---

(١) شعر ابن لنكك ص ١٢ – ١٣ .

(٢) ديوان الصنوبري ١/١١.

العلوم الاجتماعيّة

سقوط صقلية في يد النورمان وانتهاء السيادة العربية عليها

الدكتور تقي الدين عارف الدوري
المدرس بقسم التاريخ
كلية التربية — جامعة بغداد

زالت السيادة العربية عن صقلية باستيلاء النورمان عليها . وساعد على هذا الاستيلاء اسباب داخلية صقلية واسباب خارجية تخص العالمين الاسلامي والمسيحي في القرن الخامس الهجري. وسبق هذا قيام دولة للنورمان في ايطالية الجنوبية التي كانت في بداية القرن الخامس الهجري — وقبل مجيء النورمان اليها — مقسمة بين البيزنطيين واللومبارديين (١) . والنورمان (Normans) اسم محرف من لفظ الشماليين(Northmen) — أي من بلاد اسكندناوه وخاصة السويد والنروج — الذين استقروا منذ سنة ٢٩٩هـ/٩١١م بفرنسا. واشتق اسم نورمانديا منهم وهي البلاد التي استقروا بها. ونبذوا الوثنية واعتنقوا الديانة المسيحية (٢) .

(١) Tout, the Empire and The papacy, p. 193

(٢) فشر ، تاريخ اوربا العصور الوسطى، حـ١، ص ١٣٠، ١٣٥، جيبون، اضمحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها، حـ٣، ص ١٤١، موريتو، المسلمون في صقلية، ص ١٧ .

وكانوا قد تعلموا الملاحة في بحر الشمال وبحر البلطيق . (١) وعرفوا بحب المغامرة (٢) . وقد بدأ ظهورهم بصورة محدودة في ايطالية الجنوبية بعودة اربعين حاجاً نورماندياً من الاراضي المقدسة في نهاية سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٥م ، ومرورهم بمونتي كَركَانو (MonteGargano) على الساحل الشرقي من ايطالية الجنوبية ، واتصل بهم أحد مواطني مدينة باري واسمه ميلوس (MeLus) الثائر ضد السلطات البيزنطية (٣) . وطلب من رئيسهم التعاون معه ، فلاقت تلك الفكرة قبولاً منهم (١) . وشجعها البابا بندكت الثامن (٤٠٣ــ ٤١٥هـ / ١٠١٢ ــ ١٠٢٤م) (٢) . فاستطاع ميلوس مع حلفائه النورمنديين من تحقيق النصر في معركة ضد البيزنطيين سنة ٤٠٨هـ / ١٠١٧ م (٣) . ثم توجه هؤلاء الحجاج النورمان الى وطنهم نورمانديا الذي كانوا في اشد الشوق اليه ، واخذوا معهم من الهدايا اقمشه ثمينة وحللاً فاخرة وسروجاً ذهبية وفضية زاهية ، ومالم تعرفه فرنسا قبل ذلك الزمن

---

(١) لود فيغ، البحر المتوسط، ص ٤٤ .

(٢) فشر ، تاريخ اوربا الوسطى، حـ١، ص ١٣١، جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، حـ٣، ص ١٤٢.

(٣) جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، حـ٣، ص ١٤٢، لوبون، حضارة العرب، ص ٣٠٣ .

Curtis, Roger of Sicily, PP. 32–34.

Haskins, The Normans in European history, p. 198.

Tout, The empire and the papacy, pp. 104–105

(٤) جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، حـ٣، ص ١٤٢ .

Tout, The empire and the papacy, P. 105

Eyre, European Civilization, Vol. III, P. 129

(٥) Tout, The empire and The papacy, P. 105

(٦) جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، حـ٣، ص ١٤٢ .

Curtis, Roger of Sicily, P. 36

Tout, The empire and the papacy, P. 105

Eyre, European Civilization, VoL. III, P. 129

من البرتقال الناضج ، قاصدين بذلك أن يرى ابناء قومهم النورمان تلك المنتجات ليتشوقوا الى زيارة ايطالية الجنوبية التي تنتج مثلها (١) . وأغرى ذلك نورمان فرنسا على الهجرة لسماعهم أخبار تلك الغنايم القيمة والاراضي الجيدة التي من الممكن الحصول عليها بسهولة في أبوليا (٢) . تلك هي اسباب غارات النورمان الذين كان همهم مصروفاً الى النهب اكثر مما هو مصروف الى الدفاع عن دينهم ، والذين تساوى البيزنطيون والايطاليون والعرب في نظرهم فصاروا يسلبون هؤلاء جميعاً بحماس ، والذين اعتبروا — في مدة خمسين سنة أي حتى تمت لهم السيطرة — ان ايطالية الجنوبية وجزيرة صقلية بلاد يمكن الاغتناء فيها بسهولة (٣) . ثم انتصر ايضاً ميلوس والنورمان على البيزنطيين في معركتين اخريين (٤) ، الا ان البيزنطيين اخيراً استطاعوا الانتصار على ميلوس والنورمان وانتهت بذلك الثورة وهرب ميـلوس الى البلاط الجرماني عام ٤١١هـ ١٠٢٠م(٥) . اما حلفاؤه من النورمان فقد هاموا على وجوههم في تلال ايطالية واوديتها يكسبون قوت يومهم بسـيوفـهم . وإلى هذه السيوف الرهيبة لجأ امراء كابوا وبينفينتوم وساليرنو ونابلي كل بدوره في منازعاتهم الداخلية (٦) ثم حدث سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م أن دوق نابولي منح المرتزقة في جيشه من شجعان النورمان مقاطعة أفيرسا (Aversa) مكافأة لهم على خدماتهم (٧) — بزعامة راينولف (Rainiuf) وهو

---

(١) لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٠٤ .

(٢) Tout, the empire and the papacy, P. 105

(٣) لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٠٤ .

(٤) Curtis, Roger of SiciLy, P. 36

(٥) جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ج٣ ، ص ١٤٢ — ١٤٣ .
Curtis, Roger of Sicily, PP. 36–37

(٦) جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ج٣ ، ص ١٤٢—١٤٣ .

(٧) فشر ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ١٣٣ ، جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ج٣ ، ص ١٤٣ .
Cambridge medieval history, Vol. 3, P. 268
Tout, The empire and the papacy, P. 105

أول زعيم للنورمان (١) –حتى تكون حاجزاً لنابولي ضد هجمات كابوا(٢) وبهذا أصبحت أفيرسا اولى المستوطنات النورماندية في ايطاليــــــة (٣) ؛ ونواة للقوة النورمانية في ايطالية الجنوبية (٤). واعتبر تأسيسها حدثاً ذا أهمية كبرى ،إذ يؤشر إلى المرحلة التي توقف فيها النورمان عن مجرد كونهم رجال سيوف يخدمون هذا او ذاك دون هدف ، بل اصبح هدفهم الرئيس احتلال الارض لانفسهم ، وليس لصالح بيزنطة او المانيا او اللومبارديين . وكانت ظروف ايطالية الجنوبية في واقع يجلب الامتاع إلى قلب كل مغامر، فقد كان النزاع الداخلي بين اللومبارديين ودول المدن،وتصادم الامبراطوريتين البيزنطية والجرمانية ، والثورات المتواصلة في ابوليا ضــد البيزنــطيين جعلت من المؤكد انهم سيستغلون الفرصة السانحة (٥). وقد جذبت أخبار نجاحهم افواجاً جديدة من الحجاج والجنود النورمان كل عام، حيث حفزت الحاجة الفقراء، ودفع الامل الاغنياء، وأصبحت أفيرسا ملجأ لكل طريد أو هارب نورمندي (٦) .

اما عائلة تانكرد هو ثقيل النورمانية التي كان لها نصيب السيطرة على ايطالية الجنوبية وصقلية . فيعود تاريخ هجرتها الى ايطالية الى رسائل راينولف التي ارسلها من افيرسا الى نورماندا يدعو فيها المغامرين للمشاركة في مستقبل زملائهم من وطنهم في ايطالية المتصارعة (٧) . وكانت اخبار الشهرة التي تصل من أفيرسا مغرية أشد الاغراء للنورمان بالهجرة ومنهم ابناء تانكرد

(١) جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ج٣، ص ١٤٣ .
Tout, the empire and the papacy, P. 105
ArCher, the Crusades, P. 23
(٢) Curtis, Roger of Sicily, P. 37
(٣) Tout, the empire and the papacy, P. 105
(٤) Cambridge medieval history, VoL. 3, P. 268
(٥) Curtis, Roger of Sicily, P. 38.
(٦) جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ج٣، ص ١٤٣ .
(٧) Curtis, Roger of Sicily, P. 39

(tancred) (١) الذي كان له اثنا عشر ولداً خمسة من زوجته الاولى وسبعة من زوجته الثانية (٢) وهم ،من الزوجة الاولى: وليم (William) ودروجو (Drogo) وهمفري (Humfrey) وجيوفري (Geoffrey) وسيرلو (SerLo) ومن الزوجة الثانية روبرت (Robert) الذي سمي جسكارد (Guiscard) وموجر (Mauger) ووليم آخر (WiLLiam) والفيريدوس (ALveredus) أو اوفراي (Auvray) وتانكرد (Tancred) وهمبرت (Humert). وروجر (Roger) ومن هؤلاء الاثني عشر بحث ثمانية منهم مستقبلهم في ايطالية . وأثبت خمسة منهم دوراً كبيراً . وكان اول من وصل الى ايطالية الجنوبية من هؤلاء الابناء هما : وليم ودروجو اللذان باعا سيوفهما الى باندلوف (PanduLf) امير كابوا (٣) . وعندما جهز القائد البيزنطي مانيكاكيس (ManiaCes) حملة على صقلية العربية سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨م استخدم عدداً من المحاربين النورمان ومن ابرزهم الاخوان وليم ودروجو . ولمع اسم وليم لشجاعته وقوته (٤) . ثم أحرز الاخوة الثلاثة : وليم ودروجو وهمفري شهرة واسعة كمقاتلين . وبعد ان وجدوا جيشاً فرنسياً تحت قيادتهم رأوا انه من الاصلح لهم المقاتلة من اجل صالحهم . وليس من اجل الآخرين . وطوروا لصوصيتهم غير المنظمة الى غزو منظم (٥) . وأصبح وليم أميراً على أبوليا سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م التي تكونت من اثنتي عشر دوقية نورمانية ، واتخذت مالفي (MaLphi) عاصمة لها . وذلك بعد الانتصار على البيزنطيين . ومن هذه الفترة أصبح

---

(١) Curtis, Roger of Sicily, P. 40

(٢) Curtis, Roger of Sicily, PP. 39-40

Stephenson, Mediaeval history, P. 246

(٣) Curtis, Roger of Sicily, P. 40

(٤) جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ج٣ ، ص ١٤٤

Curtis, Roger of Sicily, PP. 42-43

Ency Clopaedia Britanica, Vol. 20, P. 471

(٥) Stephenson, Mediaeval hisyory, P. 247

بالامكان تأريخ استقرار سلطان النورمان في ايطالية الجنوبية (١) . وعندما توفي وليم سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م تولى اخوه دروجو امارة ابوليا مكانه(٢). وبعد مقتـــل دروجو سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م تولى الامارة المذكوره الاخ الثالث همفري (٣) . ولم يبد القادمون الجدد من النورمان أي احترام او عطف على رجال الكنيسة أو المواطنين العاديين ، فقد دمروا الكنائس وقتلوا المسيحيين قتلاً قاسياً . وبعد فترة من الزمن برز كره كبير للنورمان ممزوج بالخوف والحقد في جميع ايطالية الجنوبية . وكتب رئيس دير للرهبان خطاباً الى البابا يشكو فيه من تعرضه لهجوم من قبل النورمان وهو في طريق عودته من الحج الى روما (٤) . وعندما لم يجد انذار البابا للنورمان نفعاً ، ارسل الى الامبراطور البيزنطي كتاباً يدل على سوء معاملة جيش النورمان المسيحي للبلاد التي استولى عليها في ايطالية الجنوبية . وهذه مقتطفات من هذا الكتاب (يكاد قلبي يتفطر من الاخبار المحزنة التي انبأني بها ... . فعزمت على تطهير ايطالية من ظلم هؤلاء الاجانب النورمان المردة الاشرار الزنادقة الذين لايحترمون شيئاً عند اندفاعهم ، والذين يذبحون النصارى ويسومونهم أشد العذاب غير راحمين ولامفرقين بين الجنسين والاعمار والذين ينهبون الكنائس ويحرقونها ويهدمونها ... ولهذا فقد عزمت على شهر الحرب الدينية المشروعة على هؤلاء الغرباء الثقلاء الذين امعنوا في الظلم وصار امرهم لايطاق . وهذا دفاعاً عن الشعوب والكنائس)) (٥) . وبدأ

(١) جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، حـ٣، ص ١٤٥ - ١٤٧.
Curtis, Roger of Sicily, P. 45

(٢) جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، حـ٣، ص ١٤٧
Curtis, Roger of Sicily, P. 45

(٣) جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، حـ٣، ص ١٤٨
Curtis, Roger of Sicily, PP. 51-52

(٤) Curtis, Roger of Sicily, PP. 49-50

(٥) لوبون، حضارة العرب، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

الصراع بين البابوية والنورمان في ايطالية الجنوبية (١) ، فدخلت البابوية والدوقيات اللومباردية القديمة والبيزنطيون في اتحاد ضد النورمان (٢). وجمع البابا ليو التاسع (٤٤٠ – ٤٤٦ هـ / ١٠٤٨ – ١٠٥٤ م) جيشاً لطرد النورمان في سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م الا ان النورمان بقيادة ثلاثة منهم وهم : الاخوان همفري وروبرت جسكارد ونورماني آخر اسمه ريتشارد ، استطاعوا الانتصار على البابا في معركة كيفيتاتي (Civitate) (٣) ، ووقع البابا نفسه اسيراً في ايديهم . ثم أطلقه همفري النورماني في ذي الحجة ٤٤٥ هـ / مارس ١٠٥٤ م (٤) ، فهجر البابا حلفاً قد دعا اليه (٥) . وكان روبرت جسكارد قد وصل ايطالية الجنوبية في نهاية عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م أو في بداية ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م (٦) .

وبدأ حياته لصاً من لصوص الماشية ، ثم اصبح من فرسان الليل والخيل(٧). وفي عام ٤٤٩هـ/١٠٥٧م مات همفري فخلفه اخوه روبرت جسكارد . (٨) وادركت البابوية الفائدة من التحالف مع زعماء الفئة النورمانية عسى ان

(١) Curtis, Roger of SiciLy, P. 51

(٢) Curtis, Roger of SicLiy, P. 52

(٣) جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، جـ٣ ، ص ٤٩ – ١٥٠ ؛ فشر ، تاريخ اوربا العصور الوسطى ، جـ١ ، ص ١٣٤ .
Curtis, Roger of Sicily, PP. 52–56
ArCher, The Crusades, P. 23

(٤) Curtis, Roger of Sicily, P. 56

(٥) جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، جـ٣ ، ص ١٥٥ .

(٦) Curtis, Roger of Sicily, P. 46

(٧) فشر ، تاريخ اوربا العصور الوسطى ، جـ١ ، ص ١٣٤ .
Curtis, Roger of Sicijy, P. 46

(٨) جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، جـ٣ ، ص ١٥٤ .
Curtis, Roger of Sicily, P. 57
Tout, The empire and the papacy, P. 114

يخلصوا ايطالية من البيزنطيين ويعيدوا صقلية إلى النصرانية . ويجعلوا البابوية مطمئنة على عرشها ، لذلك كله عقد البابا نيقولا الثاني (٤٥١ – ٤٥٣هـ/ ١٠٥٩ – ١٠٦١م) معاهدة مع النورمان سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م . واقطعت البابوية دوقية ابوليا وكلابريا إلى روبرت جسكارد بن تانكرد النورماني (١). واقسم روبرت : بعظمة الله والقديس بطرس دوقاً على ابوليا وكلابريا ودوق المستقبل لصقلية اذا ما سنحت له الفرصة بذلك (٢) . وعهدت إلى اخيه رجار (روجر) مهمة الاستيلاء على جزيرة صقلية . مكافأة له – ولأعقابه من بعده – على طرد المسلمين من الجزيرة . (٣) والتي بوركت كحرب مقدسة (٤). فحصل النورمان بهذا على غطاء شرعي لاحتلالهم (٥) . وكان روجر تابعاً لاخيه روبرت (٦) . إذ سبق ان ارسله اخوه روبرت على رأس قوات إلى كلابريا ، ونصب نفسه هناك سيداً لنصف المقاطعة بالرغم من تبعيته لسلطان أخيه .(٧) ثم تم للاخوين روبرت وروجر احتلال كلابريا احتلالاً كاملاً وأخذها من البيزنطيين سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م (٨). اما روجر وهو الابن الاصغر (الثاني عشر) لتانكرد فقد بقي مدة طويلة

---

(١) فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، حـ١، ص ١٣٤، جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، حـ٣، ص ١٥٠، ١٥٤.

Stephenson, mediaeval history, P. 247

(٢) Curtis, Roger of Sicily, P. 60

Tout, The empire and the papacy, P. 115

Encyclopaedia Britanica, Vol. 20, P. 471

(٣) فشر، تاريخ اوربا العصور الوسطى، حـ١، ص ١٣٤، جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، حـ٣، ص ١٥٠، ١٥٤ .

Stephenson, Mediaeval history, P. 247

(٤) Stephenson, Mediaeval history, P. 247

(٥) Archer, The Crusades, P. 23

(٦) Lncyclopaedia Britan ica, Vol. 20, P. 471

(٧) Tout, The empire and the papacy, P. 114

(٨) Curtis, Roger of Sicily, PP. 61-62

في نورماندیا قبل مجيئه إلى أبوليا في ايطالية الجنوبية (١) سنة ٤٤٩هـ ١٠٥٧م (٢) وبعد مجيئه قام بعمليات سلب وسرقة الدور ، والخيل من اصطبلات مالفي (٣). وكان تطلع روبرت وروجر للاستيلاء على صقلية . واخذها من المسلمين هدفهما منذ وصولهما إلى ريو (Revgio) وقد أثار شغفهما بالجزيرة خيراتها وخصوبتها . وكذلك كان قرب المسلمين يشكل خطراً دائماً لممتلكاتهم (٤) غير ان روبرت جسكارد ، على اية حال ، قد أعاقته خلال السنوات الاولى من الاستيلاء الاحداث في ايطالية ، ولعب نوعا ما دوراً ثانوياً في الاستيلاء على صقلية (٥). وكان روجر طموحاً ..(٦) فوجد في احتلال صقلية مايحقق له شهرته ، فقد كان روبرت جسكارد يحكم الارض الرئيسة في ايطالية الجنوبية . ووجد روجر أن أخاه بطيء في مكافأته بالاراضي والاقطاعات . وفي صقلية هناك عالم جديد للغزو ، فهي اغنى من ايطالية الجنوبية نفسها . وهي آنئذ تحت سيادة المسلمين ، فاذا ماشن عليها حرباً عدوانية فانها لاتحتاج إلى عذر او سبب (٧).

وربط بعض المؤرخين العرب بين فقدان صقلية وبين ضعف العالم الاسلامي فقد عزا ابن خلدون ذلك إلى تدهور كل من الدولة الفاطمية والاموية في الاندلس إذ قال ((حتى اذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الفشلُ والوهنُ وطرقها الاعتلال مد النصارى ايديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية

(١) جيبون، اضمحلال للامبراطورية الرومانية وسقوطها، حـ٣، ص ١٤٩ .

(٢) Curtis, Roger of Sicily. P. 57

(٣) جيبون، اضمحلال للامبراطورية الرومانية وسقوطها، حـ٣، ص ١٤٩ .
Curtis, Roger of Sicily, P. 57–58

(٤) The Cambridge medieval history, Vol. V, P. 176

(٥) Curtis, Roger of Sicily, P. 62

(٦) The Cambridge medieval history, Vol. V, P. 176
Daniel, The Arab Impact on Sicily and Southern Italy · in the middle ages, P. 11

(٧) Curtis, Roger of Sicily, P. 62

واقريطش ومالطة فملكوها)) (١). وقال ابن الخطيب ((ثم تداول ولاية صقلية امراء من هذا البيت (الكلبي) ، إلى أن انقطع عنهم امداد المسلمين، لاشتغال كل جهة بما يخصها من الفتن فكان استخلاص العدو لها في سنة خمسة وثمانين واربعمائة)) ((٢) . وقد حدث غارات العرب الهلالية من المساعدات المبذولة من جانب شمال افريقية إلى صقلية ، فكان الزيريون أحوج مايكونون لجميع مواردهم . وتركت صقلية تدير امور دفاعهـــا بما لديها من وسائل (٣). الا أن هذا لايعني أن الزيريين لم يدافعوا عن صقلية ضد النورمان عندما تهيأت لهم الفرصة (٤). كما ان الانقسامات في العالم الاسلامي التي قطعت الجزيرة عن مركز الخلافة الفاطمية ، دفعت البابا نيقولا الثاني إلى توسيع الحكم النورماندي من ايطالية إلى صقلية (٥) .

اما العوامل الخارجية الخاصة بالعالم المسيحي والتي كان لها أثر في سقوط الحكم العربي الصقلي فترجع جذورها إلى وقوف البابا وبيزا وجنوة ضد مجاهد العامري في ايطالية وسردانية . وكذلك في الدور الذي لعبته كل من بيزا وجنوة في حملاتها على صقلية وافريقية . فالاندلس عندما كان فيها ثلاثة متنافسين يدعون الخلافة الاموية . استقل امراء الاطراف واصبحوا يدعون بملوك الطوائف . وكان نصيب مجاهد العامري دانية (٦) الذي تقلد ولايتها منذ سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م(٧). ثم استطاع ان يفتح جزر البليار سنة

---

(١) مقدمة، طبعة علي عبد الواحد وافي، جـ٣، ص ٦٣٠

(٢) أعلام الأعلام، جـ٣، ص ١٢٩ .

(٣) لويس، القوى البحرية، ص ٣٧٣.

(٤) انظر كتابنا صقلية، علاقاتها بدول البحر المتوسط الاسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورماندي، ص ١٢٢ – ١٢٤ .

(٥) Tout, The empire and the papacy, P. 117

(٦) المقري، نفح الطيب، بيروت، جـ١، ص ٤٢٦ – ٤٢٩ .
Anari, Storia dei Musulmani di Sicilia, Vol. 3, P. 6

(٧) تشركوا، مجاهد العامري، ص ١٤٥ – ١٤٧ .

٤٠٥هـ/١٠١٥م(١) وسردانية سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م(٢) . وقام من سردانية في السنة نفسها بمهاجمة مدينة لوني (Luni) الايطالية على البحر التيراني ، واتخذها مركزاً للهجوم على المدن الايطالية وخاصة بيزا . فافزعت هذه الاعمال البابا بندكت الثامن فدفع كلاً من بيزا وجنوه إلى طرد مجاهد العامري ولا شك ان بيزا وجنوه وجدتا نفسيهما مضطرتين إلى التعاون وايقاف العداوة بينهما لمقاومة مجاهد العامري بايطالية . وكان السبب الحقيقي في اطاعتهما اوامر البابا هو الحرص على مصالحهما التجارية والبحرية . وان الاختلاف في الدين بين الطرفين المتنازعين هو الذي جعل من الحرب السياسية الدوافع حرباً مقدسة .وان المعركة بين بيزا وجنوه من جهة ومجاهد العامري من جهة أخرى تدل فيما تدل على ابتداء الاتجاه الجديد وعلى تغير التوازن البحري بين القوتين المتصارعتين على سيادة البحر المتوسط. وانها كانت تهدف إلى وضع خاتمة للانتشار الاسلامي في الغرب . وفعلاً استطاعت بيزا وجنوة استعادة مدينة « لوني » من مجاهد العامري سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٥م الذي عاد إلى سردانية (٣) . ثم استطاع اسطول بيزا وجنوة انتزاع سردانية من مجاهد سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م (٤) وهكذا يكون لعمل كل من بيزا وجنوة أثر في تأمين جهة الاندلس من أي احتمال لمساعدة اندلسية لصقلية العربية . ولم يقتصر دور بيزا وجنوده على الجبهة الأندلسية، فعندما بدأ روجر بهجومه على صقلية كان في نظر البيزيين ان تقدماته وتحركاته كانت بطيئة . وارادوا منه ان يوجه جهوده نحو بالرمو عاصمة صقلية ومركز الحياة التجارية فيها . لكن روجر كان متردداً في مهاجمتها

(١) تشركوا، مجاهد العامري، ص ١٩٢، ١٩٦ .
(٢) تشركوا، مجاهد العامري، ص ١٩٣، ١٩٧ .
(٣) تشركوا، مجاهد العامري، ص ١٩٥، ١٩٦، ٢٥٢-٢٥٣
(٤) تشركوا، مجاهد العامري، ص ٢٠٤ – ٢٣٩، ٢٥٩، أومان، الامبراطورية البيزنطية، ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

Stephenson, mediaeval history, P. 294

لأن جيشه كان قليل العدد وجزء من قواته مشغول في جهات اخرى . وتوسل اليه البيزيون بدون جدوى أن ينضم اليهم لحصار المدينة . وامام هذا الرفض قرروا سنة ٤٥٤هـ /١٠٦٢م ان يجازفوا بالمغامرة وحدهم . وهاجم اسطولهم ميناء المدينة ونفذ إلى مدخلها واستولى على بعض السفن العربية المحملة ببضائع ثمينة ، وقامت جنود الاسطول بمعارك تحت اسوار المدينة، ولكنهم توقفوا ولم يستطيعوا الاستيلاء على المدينة (١). اضافة إلى الهجوم الذي قام به البيزيون والجنويون مؤخراً في سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨ م على افريقية زمن تميم بن المعز بن باديس (٢) .

وكانت الظروف مواتية للنورمان لاحتلال الجزيرة بسبب تفتت القوى العربية الصقلية والصراع والتنافس والانقسام بين امراء الجزيرة (٣)، إذ ان صقلية أخذت تفقد قوتها واهميتها الدفاعية ، بعدما ظلت لمدة طويلة حصن الاسلام المنيع في البحر المتوسط . وتعود جذور هذا الضعف إلى استمرار الخلافات والمنازعات الداخلية بين مسلميها من العرب والبربر(٤) ،

(١) Heyd, Histoire du Commerce, vol. I, P. 123
انظر ايضاً حسين مؤنس، اثر ظهور الاسلام، ص ١١٩ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل، بيروت، ج١٠، ص ١٦٥-١٦٦، التجاني، رحلة، ص ٣٣١ ، ابن ابي دينار، المؤنس، ص ٨٦ .
Stephenson, mediaecal history, P. 294

(٣) لوبون، حضارة العرب، ص ٣٠٦، زكي محمد حسن، كنوز الفاطميين، ص ١٠٤، احسان عباس، العرب في صقلية، ص ١٢٩ .
The Cambridge medieval history, vol. V, P. 176
EncyClopaedia Britanica, Vol. 20, P. 471
The Cambridge history of Islam, Vol. 2, P. 436
Lot, Les Invasions Barbares, P. 93
Curtis, Roger of Sicily, P. 63 .

(٤) لويس، القوى البحرية، ص ٣٧٣ .

ففي سنة ٤٠٥ هـ/ ١٠١٤م (١) ثار علي بن ثقة الدولة على اخيه جعفر تاج الدولة مستعيناً بالبربر والعبيد، لكن تاج الدولة تمكن من قمع ثورة اخيه وقتله . ونفى جميع البربر مع عوائلهم من الجزيرة إلى أفريقية ، وأمر بقتل العبيد عن آخرهم . وجعل جيشه من الصقليين فقط ، مما كان سبباً في ضعف الجيش . ثم قامت ضده ثورة شعبية اشترك فيها اهل البلد بكبارهم وصغارهم وحاصروه في قصره في محرم سنة ٤١٠ هـ مايو ١٠١٩ — بسبب سوء معاملة كاتبه لاهلها وفرضه ضرائب باهضة عليهم — ولم ينجه منهم الا خروج والد ثقة الدولة المصاب بالشلل في محفة ، والذي كانت له منزلة كبيرة عندهم ، فهدأ من هياجهم . وطلبوا منه عزل تاج الدولة عن الامارة وتعيين أخيه أحمد الاكحل ، فتم لهم ماأرادوا .(٢) ثم اتبع الأمير احمد الاكحل سياسة التفرقة بين الصقليين والافريقيين مما أدى إلى مقتله سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥ م (٣). تبعها حكم الزيريين للجزيرة (٤٢٧ — ٤٣١هـ ١٠٣٥ — ١٠٣٩م).ثم تولى اخو الاكحل وهو الصمصام حسن بن ثقة الدولة الامارة ثم عزل عنها.(٤)وتجزأت الجزيرة إلى ولايات يحكم كلاً منها

(١) بل ان احد الباحثين ارجع تلك الاختلافات إلى أيام ابن حوقل أي الى سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م الذي ذكر ان النزاع والخلاف بين المسلمين لم يصل في بلد من البلاد إلى مثل ما وصل اليه الأمر في صقلية (انظر حسين مؤنس، اثر الاسلام، ص ١٠٣)، ولكن قول ابن حوقل ينبغي ان لا يؤخذ على علاته وذلك لسببين: الاول هو التحامل الذي اشتهر به ابن حوقل على اهل صقلية، والثاني ان صقلية كانت تعيش عصرها الذهبي زمن الكلبيين عند زيارة ابن حوقل لها .

(٢) ابن الاثير، الكامل، بيروت، حـ١٠، ص ١٩٣ — ١٩٤، القاهرة، حـ٨، ص ١٥٧، ابو الفداء، المختصر في أخبار البشر، حـ٢، ص ٩٨، ٢٠٠ — ٢٠١، النويري، نهاية الارب (مخطوط دار الكتب) حـ٢٢، ورقة ١١٩— ١٢٠، ابن خلدون، تاريخ، باريس، ص ٧٧ —٧٨، بيروت، حـ ٤، ص ٢١٠، ابن ابي دينار، المؤنس، ص ٨٧ — ٨٨ .

(٣) انظر ص ١٢٠ —١٢١ من كتابنا صقلية، علاقاتها بدول البحر المتوسط من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي .

(٤) انظر ص ١٣٧ من الكتاب نفسه .

قائد مستقل، فالعاصمة بلرم بالرمو (مرة تكتب هكذا و مرة اخرى هكذا) اصبحت يحكمها مشايخها ؛ واستقل عبدالله بن منكوت بمدن مازد وطرابنش والشاقه ومرسى علي وما حولها، وعلي بن نعمة المعروف بابن الحواس بمدن قصريانة وجرجنت وغيرهما ، والمكلاتي بمدينة قطانية ، ومحمد بن ابراهيم المعروف بابن الثمنة بسرقوسة الذي استطاع قتل المكلاتي واستولى على قطانية (١) . وهنا يبدأ الدور الخياني الذي لعبه ابن الثمنة (٢) في استدعاء روجر لاحتلال صقلية . وتذكر لنا المصادر قصة ابن الثمنة وكيف تم ذلك ، إذ أنه بعد أن قتل المكلاتي — الذي كان زوجاً لأخت القائد ابن الحواس — طلب من ابن الحواس أن يزوجه من ميمونة زوجة القتيل . فكان ذلك (٣). الا أن ابن الثمنه وهو سكران تخاصم مع زوجته وفصد ذراعيها . واعتذر لها بالسكر صباحاً ، فتظاهرت بقبول الاعتذار ، لكنها شكت إلى أخيها ابن الحواس ذلك ، فحلف انه لايعيدها إلى زوجها ، فجهز

(١) ابن الاثير، الكامل، بيروت، ج١٠، ص ١٩٥— ١٩٦، القاهرة، ج٨، ص ١٥٨، ابو الفداء، المختصر، ج٢ ، ص ٩٨، النويري، نهاية الارب (مخطوط معهد مخطوطات جامعة الدول العربية) ج٢٢، ورقه ٢١٤، ابن خلدون، تاريخ، باريس، ص ٧٨، بيروت، ج٤، ص ٢١٠ — ٢١١، ابن ابي دينار، المؤنس، ص ٨٨. واوردت هذه المصادر بعض الاختلافات .

(٢) ذكر كل من سبط ابن الجوزي وابن تغري بردي في حوادث سنة ٤٧٣هـ خبراً مختلفاً اختلافاً كبيراً عما ذكرته المصادر الأخرى عن استدعاء النورمان إلى صقلية، لذا سنكون مضطرين إلى عدم الاعتماد على مايذكرانه. ونص سبط ابن الجوزي هو «وفيها ملكت الفرنج جزيرة صقلية، وسببه انه كان بها وال يقال له ابن البعباع، فبعث اليه صاحب مصر يطلب منه المال، وكان عاجزاً عما طلب منه، فبعث إلى الفرنج ففتح لهم باب البلد فدخلوا فقتلوه وملكوا الجزيرة» انظر مرآة الزمان (مخطوط) ج١٢، ق٢، ورقه ١٣٠. [illegible] ابن تغري بردي [illegible] لم يذكر [illegible] اسم الوالي ابن البعباع [illegible] «وفيها ملكت الفرنج جزيرة صقلية، وسببه انه كان واليها، فبعث اليه المستنصر صاحب مصر يطلب منه المال، وكان عاجزاً عما طلب منه، فبعث إلى الفرنج وفتح لهم باب البلد فدخلوا وقتلوا وملكوا الجزيرة» انظر النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٨٧ .

(٣) النويري، نهاية الارب (مخطوط معهد مخطوطات جامعة الدول العربية) ج٢٢، ورقة ٢١٧.

ابن الثمنه جيشاً إلى قصر يانة وجرجنت لانتزاعهما من ابن الحواس ، الا أن ابن الثمنة حلت به هزيمة منكرة ، وعندئذ استنجد بروجر النورمندي الذي كان في مدينة مليطو بقلورية في ايطالية الجنوبية (١). ويقول في ذلك ابن الاثير : ((فلما رأى ابن الثمنة أن عساكره قد تمزقت ، سولت له نفسه الانتصار بالكفار لما يريده الله تعالى ، فسار إلى مدينة مليطو (٢)... وكان ملكها حينئذ رجار الفرنجي في جمع من الفرنج ، فوصل اليهم ابن الثمنة وقال : انا املككم الجزيرة ! فقالوا : إن فيها جنداً كثيراً ، ولا طاقة لنا بهم ، فقال : انهم مختلفون ، واكثرهم يسمع قولي ، ولا يخالفون أمري. فساروا معه في رجب سنة اربع واربعين واربعمائة» (٣) . واختلفت المصادر في تاريخ بدء الغزو النورمندي ، فابن الاثير وابو الفداء والنويري ذكروا ذلك سنة ٤٤٤هـ كما هو مذكور اعلاه . بينما تذكر المصادر الاوربية أن أول هجوم لروجر النورمندي على صقلية هو سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م (٤). وان اول هجوم ناجح له كان سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م (٥). ونؤيد التاريخ

---

(١) ابن الاثير، الكامل، بيروت، ج١٠، ص ١٩٦، النويري، نهاية الارب (مخطوط معهد مخطوطات جامعة الدول العربية) ج٢٢، ورقة ٢١٤-٢١٥، ابن خلدون، تاريخ، باريس، ص ٧٨-٧٩، بيروت، ج٤، ص ٢١١ .

(٢) وردت مالطة .

(٣) ابن الاثير، الكامل، بيروت، ج١٠، ص ١٩٦-١٩٧. انظر ايضاً ابو الفداء، المختصر في اخبار البشر، ج٣، ص ٢٠٢، النويري، نهاية الارب (مخطوط دار الكتب) ج٢٢، ورقة ١١٧، ابن خلدون، تاريخ، باريس، ص ٧٩، بيروت، ج٤، ص ٢١١.

(٤) Amari, Storia dei Muslmani di Sicilia, Vol. 3, P. 63
The Cambridge medieval history, Vol. V, P. 176
Curtis, Roger of Sicily P. 67
Encyclopaedia Britanica, Vol. 20, P. 471

(٥) Curtis, Roger of Sicily, P. 63
Encyclopaedia Britanica, Vol. 20, P. 471

الاخير مصادر عربية أخرى (١). بينما تذكر مصادر عربية أخرى أن بداية ذلك هو سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م (٢). وبما ان المصادر الاوربية تذكر أن روجر جاء من نورمانديا بفرنسا إلى ايطالية سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م (٣) أي انه في سنة ٤٤٤هـ كان لايزال في نورمانديا ، فالباحث يضطر إلى ترك ماقاله ابن الاثير وابو الفداء والنويري عن بداية الغزو النورمندي. على ان المصادر الاوربية تذكر مؤامرة سرية قام بها نصارى مدينة مسيني باستنجادهم بالنورمان قبل استدعائهم من قبل ابن الثمنة. وذلك ان ثلاثة نبلاء من نصارى مسيني اجتمعوا في ٦ رجب سنة ٤٥٢ هـ / ٦ أغطس ١٠٦٠ م بجزيرة سان جاسينتو (San GiaCinto) وقرروا ان تقدم صقلية للكونت روجر والدوق روبرت اللذين كانا مع البابا في مدينة مليطو (MiLeto) في كلابريا بجنوب ايطالية . وابحر النبلاء الثلاثة المتآمرون الى مليطو متنكرين ومتظاهرين بانهم متوجهون الى مدينة طرابنش (Trapani) بصقلية . وتقابلوا مع البابا وفاتحوه بقدوم روجر الى صقلية فوافق على ذلك . وعندئذ حلف روجر اليمين وقال انه سيكون في مسيني بعد اسبوع . وفعلاً بدأ هجومه في شعبان سنة ٤٥٢ هـ / سبتمبر ١٠٦٠ م بعد مدة قصيرة من احتلال ريو بايطالية ، وقدم له المسيحيون المساعدة من داخل المدينة فقدموا السلاح وفتحوا ابواب المدينة . الا ان روجر لم يستطع السيطرة على المدينة بفعل المقاومة العربية التي واجهها ، فاضطر الى الرجوع الى ريو . ثم انضم الى اخيه روبرت لمواجهة المغتصبين من الرؤساء النورمان

---

(١) الادريسي، نزهة المشتاق ، روما، ص ٢٠ — ٢١، الحميري ، الروض المعطار ، مجلة اداب القاهرة، م ١٨ ، ح١، ص ١٥٨ .

(٢) ابن دحية، المطرب، ص ٥٤. انظر ايضاً السيوطي، بغية الوعاة، ح١، ص ١٧٩ .

(٣) Curtis, Roger of Sicily, P. 57

ويقول لويس ان روجر ظهر في ايطالية الجنوبية اثناء عام ٤٥١هـ/١٠٥٩م. انظر القوى البحرية، ص ٣٧٤ . .

في ابوليا والمدن التي لم تخضع لهم (١) . وحينما كان الاخوان يفكران في مواصلة الحرب في صقلية ، جاء ابن الثمنة يستحثهم على هذا العمل (٢) . ولم تذكر المصادر العربية مزيداً من تفاصيل المقابلة التاريخيه الخيانية التي تمت بين ابن الثمنة وروجر في مليطو (MiLeto) وبعدها في ريو (Reggio) ومعهما روبرت ، بينما ذكرت ذلك المصادر الاوربية ، وقالت ان النورمان عندما وافقوا ، قدم ابن الثمنة ابناً صغيراً له رهينة الى روبرت ، (٣) ليطمئنه ويشجعه على الاستمرار في ذلك العمل . واستعد روجر للهجوم بنفسه مع جنده ، واعطاه اخوه روبرت الفرسان والبحارة الذين كانوا عنده في ريو .وكان روجر بصحبة ابن الثمنة الذي كان يعرف الاماكن الصقلية، مع الادعاء بانه يتباهى باكثر مما يعرف. وفي اوائل محرم سنة ٤٥٣هـ/ اواخر فبراير سنة ١٠٦١م بعد الظهر نزل النورمانديون على لسان ارض بالقرب من البحيرات واخذوا مدينة رمطة (Rametta). ثم توجه روجر الى مبنى، لكنه لقي مقاومة عربية قوية، وكان سور المدينة يدافع عنه حتى النساء، وساءت احوال الغزاة النورمان. ولجأ ابن الثمنة الى قطانية (Catania). وفشل الغزاة في هجومهم هذا . وفهم النورمان انهم لم يكف ان يعتمدوا على عملائهم، او على من معهم من المسلمين والمسيحيين لتحقيق هدفهم، الا اذا كانت عندهم قوة اكبر وخصوصاً قوة

---

(١) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, Vol. 3, PP. 59–60, 62–64

انظر ايضاً جوردن، دائرة المعارف الاسلامية، مادة صقلية .

Encyclopaedia Britanica, Vol. 20, P. 471

Tout, The empire and the papacy, P. 117

(٢) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, Vol. 3, P. 64

(٣) ريتسينانو، النورمنديون وبنو زيري، ص ١٧٤ – ١٧٦ .

Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, Vol. 3, P. 64

بحرية(١)، وقام الاخوان روبرت وروجر في صيف ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م بهجوم ثالث على صقلية تمكنا به احتلال مدينه مسيني(٢). وجعل استيلاء النورمان على مسيني قاعدة لعملياتهم (٣) ، ونقطة بداية لحملات قادمة(٤). هنا قام ابن الثمنة بدور دليل للحملة النورمانية الى داخل صقلية . (٥) فسيطروا على رمطة(Rametta) (٦) واتجهوا نحو الداخل حتى وصلوا الى مقريانه ('Castrogiovanni) ولكنهم اخفقوا في الاستيلاء عليها مع انهم رسخوا اقدامهم في قلعتي تروينا (Troina) (٧) وشنت ماركو ('San MarCo) (٨). واخفقوا كذلك في الاستيلاء على جرجنت (Gergenti) (٩) . وحدثت بعض التطورات ادت الى عجز النورمان من متابعة زحفهم في صقلية (١٠)، فقد حرم مقتل ابن الثمنة في سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م -- بواسطة

(١) Anari, Storia dei musulfflani di sicilia, Vol. 3, PP. 65-68

وعن هذا الهجوم الثاني الفاشل انظر ايضاً :

curtis Roger of Sicily Q. 63

Curtis, Roger of Sicily, P. 63

Encyclopaedia Britaoica, Vdl. 20, P. 471

Curtis Roger of Sicily P.63

(٢) The Cambridge medieval history, Vol. V, P. 177

Curtis, Roger of Sicily, P. 63

Tout, The empire and the papacy, P. 117

Stephenson, Mediaval history, P. 247

Encyclopaedia Britanica, Vol. 20, P. 271

The Cambridge history of islam, Vol. 2, P. 436

(٣) The Cambridge Medieval history, Vol, P. 177

(٤) Tout, The empire and the papacy, P. 117

Encyclopae dia Britanica, Vol. 20, P. 271

(٥) Curtis, Roger of Sicily, PP. 63-64

(٦) Curtis, Roger of Sicily, P. 64

(٧) Curtis, Roger of Sicily, P. 64

The Cambridge Medieval history, Vol. V, P. 177

(٨) Curtis, Roger of Sicily, P. 64

(٩) The Cambridge Medieval history, Vol. V, P. 177

(١٠) لويس، القوى البحرية، ص ٢٤٨ .

كمين وضع له — النورمان من حليف ثمين (١) . ووقع نزاع بين الاخوين روجر وروبرت حول اقتسام الاراضي المحتلة أدى الى الحرب بينهما عند عودتهما الى ايطاليه . وكان التهديد من اندلاع ثورة في كلابريا هو الذي جعل روبرت يوافق على تقسيم كلابريا مع روجر وعقد معاهدة بينهما (٢). وهكذا استؤنف القتال مع مسلمي صقلية في نهاية سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م . واستمر خلال السنة التي تلتها. ونجح النورمان في ترسيخ أنفسهم في مسينى وتروينا . اما بقية الجزيرة فقد ظلت بأيدي المسلمين (٣) . وفي سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م هاجم المسلمون تروينا غير انهم هزموا بقوة بالقرب من سيرامي (Cerami) (٤) . وحاول كل من روبرت وروجر سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م عبثاً السيطرة على بلرم (PaLermo) (٥). وارغما على رفع الحصار عنها بسبب المقاومة التي أظهرها المسلمون المتحدون في غرب صقلية تجاه الغزاة (٦). وخلال السنوات التي تلت كان التقدم بطيئاً باتجاه العاصمة (٧). وسبب ذلك يعود الى وجود الزيديين متمثلاً في أيوب وعلي ابني تميم بن المعز (٨) . الا ان

(١) ريتسيتانو، النورمنديون وبنو زيري، ص ١٧٧، مارينو، المسلمون في صقلية، ص ٤١٨، دائرة معارف البستاني، مادة: ابن الثمنة .
The Cambridge Medieval history, Vol. V, P. 177
Rizzitano, Encyclopaedia of islam ('N.E) Vol. III, P. 956

(٢) The Cambridge Medieval history, Vol. V, P. 177
Curtis, Roger of Sicily, PP. 64-65

(٣) The Cambridge Medieval history, Vol. V, P. 177

(٤) The Cambridge Medieval history, Vol. V, o. 177
Curtis, Roger of Sicily, P. 66
The Cambridge Medieval of islam, Vol. 2, P. 436

(٥) The Cambridge Medieval history, Vol. V, P. 177

(٦) Tout, The empire and the papacy, 117

(٧) The Cambridge Medieval history, Vol. V, P. 177

(٨) انظر ص ١٢٣ من كتابنا صقلية، علاقاتها بدول البحر المتوسط الاسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي .

روجر استطاع ان يهزم ايوب بن تميم في معركة ميسيلمري (MisiLmeri) قرب بلرم سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م مما حمله على العودة الى افريقيه. لذا خلا الجو من وجود شخص يوحد المسلمين في جبهة واحدة ضد الغزاة، وتبعثرت جهود المسلمين في الجزيرة(١). وفي هذا الحين كان خط تقدم النورمان على طول الساحل الشمالي باتجاه العاصمة بلرم. وكان احتلالها مهماً جداً بالنسبة للغزو النورماني لغناها ولموقعها العسكري من خلال مينائها (٢). وكان حصار روبرت لمدينة باري البيزنطية في ايطالية قد جمد المعارك في صقلية (٣)، لكن استيلاءه عليها سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م وفرله الاسطول اللازم لمعاودة الهجوم على صقلية (٤). فتمكن النورمانويون اولاً من الاستيلاء على قطانية (Catania) (٥). ثم تقدموا لحصار بلرم في ربيع الثاني — جمادى الاولى سنة ٤٦٤هـ/يناير ١٠٧١م، واشترك في حصارها كل من روبرت وروجر، فقاومت المدينة، ولكنها اضطرت بعدها الى الاستسلام (٦).

---

(١) The Cambridg Medieval histovy, Vol. V, P. 177
Curtis, Roger of Sicily, P. 66
The Cambridge history of islam, Vol. 2, P. 436

(٢) Curtis, Roger of Sicily, P. 66

(٣) The Cambridge Medieval history, Vol. V, P. 177

(٤) لويس ، القوى البحرية ، ص ٣٧٥
The Camridge Medieval history, Vol. V, P. 177
Curtis, Roger of Sicily, P. 67
Tout, The empire and the papacy, P. 117

(٥) The Cambridge Medieval history, Vol. V, P. 177

(٦) Curtis, Roger of Sicily, P. 67
The Cambridge Medieval history, Vol. V, P. 177
Tout, The empire and the papacy, P. 117
Stephenson, Mediaeval history, P. 247
Encyclopaedia Britaoica, Vol. 20, P. 471
The Cambridge histoay of islam, Vol. 2, PP. 436-467

وكان لامتناع المساعدات من شمال افريقية أثر في سقوطها . وتحولت الى قاعدة حربية كبرى للنورمان . (١) وبالسيطرة على بلرم انتهت المرحلة الاولى في الاستيلاء على صقلية (٢). وحصل روبرت على حصة الاسد من الغنائم . وارغم روجر على تسليمه سيادة الجزيرة بكاملها، ووضع كذلك قسماً منها تحت سلطته المباشرة بضمنها بلرم ونصف مسيني وقال ديمون (VaL Demone)، بينما خصص القسم الباقي الى روجر (٣). وأدى سقوط بلرم الى استسلام مدينة مازر (MaZara) (٤). لكن خلال الاثنتي عشرة سنة التالية كان النورمان لايملكون الا قوة ضعيفة تحت امرتهم ،لذا كان تقدمهم بطيئاً في الجزيرة.فبالرغم من ان النورمان احتلوا كلاً من مسيني وقطانية وبلرم ومازر (٥)، فانه لا زالت هناك عشرون سنة من الغزو امام روجر، فالمسلمون لايزالون في المنطقة الجبلية بين مسيني وطبرمين. وامراء وطنيون آخرون في كل من سرقوسة وطرابنش وقصريانة (٦)، نجحوا في استمرار القتال لفترة طويلة (٧). وفي هذه اللحظة بدأت حرب العصابات بين جنود روجر والمسلمين (٨). واستطاع المسلمون قتل احد قواد روجر المسمى

(١) لويس ، القوى البحرية ، ص ٢٧٥

(٢) The Cambridge Medieval histoay, Vol. V, P. 177

(٣) The Cambridge Medieval history, Vol. V, P. 177
The Cambridge Medieval of islam, Vol. 2, P. 437
Tout, The empire and the papacy, P. 117
Curtis, Roger of Sicily, P. 68

(٤) The Cambridge Medieval history, Vol. V, P. 117
Curtis, Roger of Sicily, P. 68

(٥) The Cambridge Medieval history, Vdl. V, P. 117

(٦) Curtis, Roger of Sicily, PP. 68-69

(٧) The Cambridge Medieval history, Vol. V, P. 177

(٨) ريتسيتانو ، النورمنديون وبنوزيري ، ص ١٧٨

سيرلو (SerLo) (١)، وهو ابن اخيه وشريكه في الغزو (٢) .

واتخذت الحرب في سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م طابع الشمول والقوة التي كان ينقصها في البداية، إذ ان مسلمي سرقوسة وجدوا جندياً شجاعاً في شخص اميرهم بينفاريت (Benavert) (٣) الذي استطاع ان يهزم جوردن (Jordan) الابن غير الشرعي لروجر ، وأدى هذا إلى استدعاء الكونت روجر نفسه ، وأصبحت الحرب الآن حرباً صليبية حقاً (٤). واستطاع روجر احتلال مدينة طرابنش (Trapani) سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م (٥) . ثم طبرمين (Taormina) سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م (٦) . ولم يبق بيد المسلمين الاجرجنت وسرقوسة وقصريانة ونوطس وبثيرة(٧).ثم توقفت اعمال الغزو النورمندي سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م، عندما رأى روجر أنه من الضروري أن يحل قواته محل قوات اخيه روبرت التي تحتل مسيني . وقد يرجع ذلك إلى حاجة روبرت إلى قوات لتنفيذ مشروعاته في الادرياتي (٨) .

وكان بينفاريت امير سرقوسة لا يزال قادراً على اداء مقاومة باسلة، بل واكثر من ذلك، ففي عام ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م تمكنت سفنه من الهجوم على ريو (Riggio) ونقطره (NiCotera) على الساحل القلوري بايطالية . ولكنه هزم

---

(١) Curtis, Roger of Sicily, P. 69

(٢) Curtis, Roger of Sicily, P. 65

(٣) اعتقد احسان عباس انه ابن عباد (انظر العرب في صقلية، ص ١٣١) ولكن المعروف ان محمداً بن عباد عاش في فترة متأخرة عن هذه ،إذ قاد ثورة في صقلية ضد فردريك الثاني في حدود سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩ (انظر الحميري ، الروض المعطار ، مجلة آداب القاهرة ، م ١٨ ، ج١ ، ص ١٤٢ — ١٤٣

(٤) Curtis, Roger of Sicily, P. 69

(٥) لويس ، القوى البحرية ، ص ٣٧٥
Curtis, Roger of Sicily, P. 69

(٦) Curtis, Roger of Sicily, P. 69

(٧) Curtis, Roger of Sicily, PP. 69-70

(٨) لويس ، القوى البحرية ، ص ٣٧٥

اخيراً بواسطة الجيوش التي جمعها الكونت روجر أخيراً في سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ثم ابحر روجر في صفر سنة ٤٧٩هـ/ نهاية مايو ١٠٨٦م على رأس اسطولـــه ونزل ميناء سرقوسة، وعندما التقى معه في معركة بحرية، انتصر روجر وغرق بينفاريت نفسه خلالها، فاستسلمت المدينة في جمادي الاخرى سنة ٤٧٩هـ/ اكتوبرمن السنة نفسها (١). ثم فرض روجر حصاراً صارماً على كل من جرجنت وقصريانه حتى اضطر اهلهما من المسلمين الى اكل الميتة، فاستسلمت جرجنت سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م .وصمدت قصريانه بعدها ثلاث سنين، فاضطرت الى التسليم بعد أن اشتد عليها الحصار سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م(٢).ثم سقطت بثيـرة (Butera) (٣) ونوطس (Noto) في السنة نفسها(٤). واعتبرت هذه السنـة نهايـة الاستيلاء النورمـاني على جميع جزيـرة صقليـة(٥). وعلى ما تقـدم يكون النورمان قد استغرقوا في غزوهم التدريجي حوالي ٣١ سنـة (٤٥٣ ـ ٤٨٤ هـ / ١٠٦١ ـ ١٠٩١م) منذ ان بدأوا بهجومهـم الاول حتى تمكنوا من السيطرة النهائية على الجزيرة . وكان لبعض المقاومة التي لقيها النورمان مضافاً اليها قلة

(١) Curtis, Roger of Sicily, PP. 69–70.

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، بيروت ، حـ١٠ ، ص١٩٨ ، ابن الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، حـ٢ ، ص٢٠١ ، النويري ، نهاية الارب (مخطوط دار الكتب) حـ٢٢ ورقه ١١٧ ، ابن ابي دينار ، المؤنس ، ص٨٩

(٣) Cirtis, Roger of Sicily, P. 70
The Cambridge history of islam, Vol. 2, P. 437

(٤) مورينو ، المسلمون في صقلية ، ص١٨
Curtis, Roger of Sicily, P. 70
Encyclopaedia Britaoica, Vol. 20, P. 471
The Cambridge history of islam, Vol. 2, P. 437

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، القاهرة ، حـ٨ ، ص١٨٥ ، الذهبي ، العبر ، حـ٣ ، ص٣٠٤ ابن الوردي ، تتمه المختصر ، حـ٢ ، ص١١ . ذكر ابن الخطيب ان ذلك كان سنة ٤٨٥هـ . انظر اعمال الاعلام ، حـ٣ ، ص١٢٩

عساكرهم وضعف اسطولهم هي العوامل التي اطالت فترة الغزو(١) . وبالرغم من ان مساعدة روبرت كانت مهمة في بداية الغزو ، الا ان روجر أخذ دور القيادة. واحتفظ روبرت بعد الاحتلال ببلرم (PaLermo) فقط تحت سلطته — بعيداً عن السيطرة الكاملة على الجزيرة — والتي اصبحت خاضعة لسلطة روجر بورسا خليفة روبرت الضعيف ، وهو دوق ابوليا (٤٧٨هـ — ٥٠٥هـ/ ١٠٨٥ — ١١١١م) والذي سلم نصف بلرم الى عمه روجر. واذا كان روجر هو المستولي الحقيقي على صقلية، فانه في ذات الوقت المؤسس للدولة النورمانية في صقلية(٢) .

وتجدر الاشارة الى ما قاله احد الباحثيـن عن مسؤولية سقوط صقلية في يد النورمان، إذ تساءل فقال على من تقع تلك المسؤولية ؟ أعلى الفاطميين اصحاب السيادة الاسمية الشرعية عليها ؟ام على حكام صقلية انفسهم ؟ ام على بني زيري اصحاب افريقية الذين استنجد بهم اهل صقلية ؟ .ثم قال: وفي الواقع اننا لم نصادف ادنى اشارة الى ان الفاطميين حاولو نجدة صقلية اثناءتعرضها للغـزو النورمندي الذي استمر اكثر من ثلاثين سنة. واذا كانت صقلية «ملكاً لسلطان مصر تغادرها كل سنة سفينة تحمل المال الى مصر» على قول الرحالة المعاصر ناصر خسرو .فلماذا تقاعـس هذا السلطـان عن الدفـاع عنهـا؟ وعلى هـذا فالفاطميون مسؤولون مسؤولية كبيرة عن سقوطها. ومن ناحية اخرى فـان حكام صقلية وهم الذين مزقهم الحقد والتنافس كانوا سبب استثارة طمـع النورمان في جزيرتهم. الم يكن ابن الثمنة هو الذي استدعى النورمان لامتـلاك صقلية ؟ بالاضافة الى عدم الوفاق بين العرب والبربر الذي ادى الى رفض حكام صقلية لمساعدات تميم بن المعز بن باديس . ولذلك يتحمل حكام صقلية جانباً كبيراً من مسؤولية ضياع الجزيرة. اما من ناحية بني زيري، فالتأريخ يشهـد بأنهم لم يتقاعسوا عن مد يد المساعدةلصقلية اثناء الغزو النورماني، لولا ان اهل

---

(١) احسان عباس ، العرب في صقلية ، ص١٣٣

(٢) Encyclopaedia Britanica, Vdl. 20, P. 471

صقلية انفسهم اساءوا معاملتهم مما دفع الاسطول الزيري الى ان يعود ادراجه الى المهدية(١) .

ان اهم النتائج التي تمخضت عن سقوط صقلية في ايدي النورمان هي : خروجها من السيادة العربية واصبحت في قبضة العناصر اللاتينية والكاثوليكيه. كما ان العرب ولمدة ما يقارب القرون الثلاثة من حكمهم لها كانوا لايسيطرون على الجزيرة فقط ،بل كانوا يحاربون منها ايطاليه السفلى والبيزنطيين والالمان واللمبارديين. وبسقوط صقلية انتهى هذا الدور (٢) .

وان استيلاء النورمان على صقلية اعاد للمسيحية السيطرة على البحر المتوسط. ولم نعد نرى الوقت الذي وصف ابن خلدون فيه النصارى انهم لايستطيعون ان يطفوا لوحاً من الخشب في هذا البحر، بل اصبحت السيطرة فيه لهم ، كما ذكر الشاعر الصقلي ابو العرب عندما استدعاه المعتمد ابن عباد إلى الاندلس(٣). واعتبر ذلك الاحتلال ضربة قاضية على المسلمين (٤) . ويقول احد الباحثين : «وما زالت قوة الاسلام في البحر غالبة وكلمته هي العليا حتى خرجت صقلية من يدي الاسلام» (٥). وان تكوين دولة نورمانية في ايطالية ثم صقلية. مكن النورمان من السيطرة على مالطة، فكسب غرب اوربا السيطرة على المضايق الحيوية بين افريقية وصقلية (٦). وبتمام سقوط صقلية وزوال السيادة السياسية للعرب عنها، فقد «الرباط الكبير»الذي كان محرساً يحمي الشواطىء

---

(١) حامد زيان ، العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام أبان الحروب الصليبيه (رسالة دكتوراه) ص٧٣ — ٧٤ ، تاريخ الحضارة الاسلامية في صقليه واثرها على اوربا ، ص٧٤ — ٧٥

(٢) Curtis, Roger of Sicily, P. 68

(٣) Brunschviv, La Tuoisie dans Le moyen age, P. 22

(٤) Curtis, Roger of Sicily, P. 68

(٥) عبد الفتاح عبادة ، سفن الاسطول الاسلامي وانواعها ومعداتها ، ص٢٧ — ٢٨

(٦) لويس ، القوى البحرية ، ص٣٧٦ ، علي الخربوطي ، البحر المتوسط ، ص١٠٧

الافريقية من غزو الشماليين ، وتضعضعت احوال دولة بني زيري لانقسام جهودها بين الاعداد البحري لمواجهة الاساطيل النورمانية والأعداد البري للقضاء على الفتن التي يستغلها الطامعون والمغامرون بمعونة القبائل العربية في مناطق مختلفة من افريقية (١). وتمكن النورمان من صقلية مرتين من تهديد افريقية العربية (٢).

واعتبر كل من ابن الاثير وابن العبري سيطرة النورمان على طليطلة في الاندلس وجزيرة صقلية هي بداية تاريخ الحروب الصليبية (٣). ويقول كورتس : ان احتلال النورمان لصقلية قد وضع اسفيناً في جمهرة الدول الاسلامية التي تمتد من دجلة إلى أبرو، وبهذا اصبحوا المنفذين الحقيقيين للحروب الصليبية (٤). والمعروف ان عوامل مجتمعة أدت إلى الحروب الصليبية كان ابرزها هو الاحتلال النورمندي لإيطالية وصقلية (٥). فمن الأحداث التي جعلت الحروب الصليبية ممكنة هو تحطيم القوة البحرية العربية وسط البحر المتوسط، فاستيلاء النورمان على صقلية جعل الرحلة من مرسيلية وجنوة إلى الشرق آمنة مؤكدة. وان التوصل إلى الدخول إلى الشرق براً وبحراً بشكل لم يحدث من قبل ابداً هو الذي اوجد الحروب الصليبية (٦).

وعن النتائج الاقتصادية يقول هيد ان الغزو المسيحي لصقلية ترتبت عليه نتائج كبيرة لدول اوربا البحرية، فعوضاً عن انه فتح لهم طريق دخول البلد الشهير بخصوبة ارضه منذ زمن بعيد، فانه وضع في متناول تلك الدول

---

(١) احسان عباس ، تاريخ ليبيا ، ص١٧٢ .

(٢) Curtis, Roger of Sicily, P. 68

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، القاهرة ، ج٨ ، ص١٨٥ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص١٩٩ . انظر ايضاً فشر ، تاريخ اوربا العصور الوسطى ، ج١ ، ص١٣٢ ، عادل زيادة ، تاريخ الحضارة ، ص٩٧ .

(٤) Roger of Sicily, P. 68

(٥) لويس ، القوى البحرية ، ص٢٧٩ — ٢٨٠ .

(٦) اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص٢٠٤ — ٢٠٥ .

عديداً من المنتجات الطبيعية والمصنعة التي تمكن العرب من اقلمتها مدة حكمهم الطويل كالسكر والبلح والقطن والحرير . وان اهل أمالفي والبندقية وجنوة تمكنوا من الحصول سريعاً من الملوك النورمان على حق الاقامة في الجزيرة وفتح مكاتب لهم. وتمكنوا عندئذ ملء مخازنهم من هذه المنتوجات واحضارها على سفنهم (١) .

ومهما قيل عن المعاملة الحسنة التي عامل بها روجر العرب في صقلية ، واستفادته من خدماتهم العسكرية والادارية ، فان اكثر العرب غادروا البلد بعد الغزو (٢) . وغدا اعتقاد عرب صقلية بجزيرتهم يتمثل بقول احد شعرائهم عبد الحليم الصقلي :

عشقت صقليــــــة يافعـــاً ٭ وكانت كبعض جنــان الخلود
فما قدّر الوصــل حتـى اكتهلت ٭ وصارت جهنم ذات الوقود (٣)

Histoire du Commerce du Levant au Moyen-age, Vol. I, P. 123 (١)

Encyclopaedia Britaoica, Vol. 20, P. 471 (٢)

(٣) الخفاجي ، طراز المجالس ، ص١٧٤

مصادر البحث

اولاً: المخطوطات العربية

سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) يوسف قزاوغلي بن عبدالله

١ ــ «مرآة الزمان» مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم : ٥١ تاريخ، ج١٢، ق٢ (من اثناء سنة ٤٥٩ ــ اثناء ٤٨٥هـ) .

النويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م) احمد بن عبدالوهاب .

٢ ــ «نهاية الأرب في فنون الأدب» مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم: ٥٤٩ معارف عامة، ج٢٢. ونسخة اخرى من الجزء نفسه مخطوط في معهد مخطوطات جامعة الدول العربية برقم ٣٩ معارف عامة.

ثانياً: المصادر العربية القديمة

ابن الاثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) عزالدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني .

٣ ــ «الكامل في التاريخ» دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، الجزء العاشر وطبعه مطبعة الاستقامة، القاهرة، بدون تاريخ، الجزء الثامن.

الادريسي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م) ابو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن ادريس .

٤ ــ «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» يشتمل على المقدمة وصفة البلاد التي هي الآن ايطالية، تحقيق أماري وسيكاباريللي . روما، ١٨٧٨ ــ ١٨٨٣ م .

التجاني (قام برحلته من سنة ٧٠٦ – ٧٠٨هـ/١٣٠٦ – ١٣٠٨م)
ابو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد
٥ – «رحلة التجاني» تقديم حسن حسني عبدالوهاب ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م .
ابن تغري بردى (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): جمال الدين ابو المحاسن يوسف الاتابكي
٦ – «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» مطابع كوستاتسوماس ، القاهرة ،بدون تاريخ، الجزء الخامس
ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني
٧ – «أعمال الاعلام» تحقيق الدكتور احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني. الدار البيضاء، القسم الثالث
الخفاجي (ت١٠٦٩هـ/١٦٥٨م) شهاب الدين أحمد بن محمد
٨ – «طراز المجالس» المطبعة الوهبية. مصر، ١٢٨٤هـ.
ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) عبدالرحمن بن محمد
٩ – «مقدمة ابن خلدون» تحقيق الدكتور علي عبدالواحد وافي ، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٣٧٦ – ١٣٨٨هـ/ ١٩٥٧ – ١٩٦٨م ، أربعة اجزاء .
١٠ – «تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر .» منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، الجزء الرابع. وطبعة منه بعنوان «أخبار دولة بني الأغلب بافريقية وصقلية وبقية أخبار صقلية إلى حين استيلاء الأفرنج عليها من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر» مطبعة الأخوين فرمين ديدوت. باريز. ١٨٤١ م.
١١ – ابن دحية (ت ٦٣٣هـ/١٢٣٥م) ذو النسبين أبو الخطاب عمر بن حسن الكلبي

«المطرب من أشعار أهل المغرب» تحقيق ابراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوي، راجعه الدكتور طه حسين، المطبعة الاميرية، القاهرة، ١٩٥٤م.

ابن أبي دينار (كان حياً ١١١٠هـ/١٦٩٨م) ابو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني .

١٢ — «المؤنس في أخبار افريقية وتونس» تحقيق محمد شمام، الطبعة الثالثة، مطبعة ٢٠ مارس، تونس، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ابو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز

١٣ — «العبر في خبر من غبر» تحقيق فؤاد سيد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٦١، الجزء الثالث.

السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.

١٤ — «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، الطبعة الاولى، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٤ . الجزء الاول .

ابن العبري (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) غريغوريوس أبو الفرج بن هرون الطبيب الملطي .

١٥ — «تاريخ مختصر الدول» تحقيق الأب انطوان صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٥٨م.

ابو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) الملك المؤيد اسماعيل بن الملك الأفضل

١٦ — «المختصر في أخبار البشر» المطبعة الحسينية، مصر، ١٣٢٥هـ، الجزء الثاني .

المقري (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م) : أحمد بن محمد التلمساني

١٧ — «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» تحقيق الدكتور احسان

عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، الجزء الأول.
ابن الوردي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) زين الدين عمر بن المظفر.
١٨ — «تتمة المختصر في أخبار البشر» أو «تاريخ ابن الوردي» تحقيق أحمد رفعت البدراوي (نشر: دار المعرفة، بيروت) الطبعة الأولى، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م.

ثالثاً — المراجع الحديثة

احسان عباس
١٩ — «العرب في صقلية» دراسة في التاريخ والادب، مطابع دار المعارف بمصر، ١٩٥٩م.
٢٠ — «تاريخ ليبيا من الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري» الطبعة الأولى، مطابع دار صادر، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
اومان
٢١ — «الامبراطورية البيزنطية» تعريب الدكتور مصطفى طه بدر، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٩٥٣م.
تشركوا، كاليليا سارنللي:
٢٢ — «مجاهد العامري قائد الاسطول العربي في غربي البحر المتوسط في القرن الخامس الهجري» الطبعة الأولى، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦١م.
تقي الدين عارف الدوري
٢٣ — «صقلية، علاقاتها بدول البحر المتوسط الاسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي» (منشورات وزارة الثقافة والاعلام — الجمهورية العراقية، سلسلة دراسات — رقم ٢٤٠) دار الطليعة

للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م .
جيبون، إدوارد
٢٤ – «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها» ترجمة د. محمد سليم سالم، مراجعة محمد علي ابو درة، مصر، ١٩٦٩م، الجزء الثالث.
حامد زيان غانم
٢٥ – «تاريخ الحضارة الاسلامية في صقلية وأثرها على أوربا» (دار الثقافة للطباعة والنشر) مطبعة دار نشر الثقافة، القاهرة، ١٩٧٧م.
زكي محمد حسن
٢٦ – «كنوز الفاطميين» مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٣٥٦هـ ١٩٣٧م .
عبد الفتاح عبادة
٢٧ – «سفن الاسطول الاسلامي وانواعها ومعداتها في الاسلام» مطبعة الهلال، مصر، ١٩١٣م .
علي حسني الخربوطلي
٢٨ – «البحر المتوسط بحيرة عربية» (دار المعارف، سلسلة اقرأ – ٢٤٧) القاهرة، ١٩٦٣م .
فشر
٢٩ – «تاريخ اوربا في العصور الوسطى»
لوبون، غوستاف
٣٠ – «حضارة العرب» نقله الى العربية عادل زعيتر. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٩ .
لو دفيغ، اميل
٣ – «البحر المتوسط، مصاير بحر» ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف بمصر، ١٩٥٢
لويس، أرشيبالدر :

٣٢ — «القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط» (٥٠٠ — ١١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال مطبعة مصر، القاهرة، بدون تاريخ.

موريتو، مارتينو مارينو

٣٣ — «المسلمون في صقلية» (منشورات الجامعةاللبنانية — قسم الدراسات التاريخية — ٤ —) المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٧م.

رابعاً — دوائر المعارف والمجلات والبحوث العربية

جوردن، كرواثر (T. Crouther Gordon).

٣٤ — «دائرة المعارف الاسلامية» الطبعة القديمة، مادة صقلية

حامد زيان غانم زيان

٣٥ — «أثر ظهور الاسلام في الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر الابيض المتوسط أو المسلمون في حوض البحر الابيض المتوسط إلى الحروب الصليبية» المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الأول، مايو ١٩٥١م، من ص ٤٥ — ١٧٤.

الحميري (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م أو ٧٢٧هـ/١٣٢٦م) ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم

٣٧ — «الروض المعطار في خبر الأقطار» خاص بالجزر والبقاع الايطالية. تحقيق الدكتور أومبرتو ريتزيتانو، مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة، المجلد الثامن عشر، الجزء الاول، مايو، ١٩٥٦م، من ص ١٢٩ — ١٨٢

ريتزيتانو، أومبرتو

٣٨ — «النورمنديون وبنو زيري من الفتح النورمندي لصقلية حتى وفاة روجيرو الثاني (رجار) ٤٥٣ — ٥٤٨هـ/١٠٦١ — ١١٥٤م» مجلة،

كلية الآداب — جامعة القاهرة، المجلد الحادي عشر ، الجزء الاول
مايو، ١٩٤٩م .
مورينو، مارتينو مارينو
٣٩ — «دائرة المعارف» بادارة افرام البستاني، بيروت، ١٩٥٨م ، المجلد
الثاني، مادة ابن الثمنه

خامساً — المراجع باللغات الاجنبية :

1- Amari MicheLe
Storia dei MusuLmani di SiciLia, VoL 3, Seconda EdiZione Mondificata, Catania, 1939.

2- ArCher. T. A
The Crusades, the Story of the Latin Kingdom of JerusaLem, London, 1919.

3- Curtis, Edmund
Roger of Sicily and Normans in Lower Italy, New York and London, 1912.

4- Daniel, Norman *Rhe Arab Impact on Sicily and Southern Italy in the Middje Ages,* Cairo, 1975.

5- Eyre, Edward
European Civilization its origin and deveLopment, Volume III (tha middle ages) oxford university press, London, 1935.

6- HasKins, Charles Homer
The Normans in European History, Boston and New york, 1915.

7- Heyd, W.:
Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, Amsterdam, 1959, VoL. I

8- Lot, Ferdinand
Les Invasions Barbares et Le peupLement de L' Europe paris, 1942

9- Steohenson, CaL:
MediaevaL History, 1943

10- Tout. T. F
The Empire and the papacy 918-1273, period II, London, 1924

سادساً — دوائر المعارف الاجنبية :

1- The Cambridge Medieval History, Cambridge, 1923, 1936 1957, New york, VoLs. II, III, V.

2- N. R.
Sicily, Encyclopaedia BritaniCa, 1973, Volum. 20, PP. 470-471 .

3- Rizzitano, umberto:
Ibn AL-Thumna, Encyclopaedia of Islam, New Edition, Leiden, London, VoL. III, P. 956.

الفتوحات العربية والاسلامية في بلاد فارس

الدكتورة رمزية الخيرو
كلية الآداب / جامعة بغداد

بعد ان حرر العرب المسلمون العراق من السيطرة الاجنبية — الفرس الساسانيين — كانت رغبة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في بداية الامر التوقف عند حدود العراق الشرقية، ايماناً منه بعروبة الاراضي العراقية وقال كلمته المشهورة: « ...لوددت ان بيننا وبين خراسان جبالاً من حديد وبحاراً وألف سد كل سد مثل سد ياجوج وما جوج(١).

ولكن هروب الملك الساساني يزدجرد بعد معركة نهاوند ومحاولته اعادة سيطرته على العراق العربي دفع العرب اعادة سياستهم في التوسع لحماية الحدود الشرقية(٢) اولاً ولتحرير بلاد فارس من الدكتاتورية الساسانية ونشر مبادىء الاسلام في الاخاء والمساواة .

فتح الري :

تعد قصبة الري من قصبات اقليم الجبل(٣). اذ تقع في الطرف الشمالي

---

(١) ابن اعثم : الفتوح ج٢ ص٧١ — ٢ .

(٢) اذ يخاطب الاحنف بن قيس الخليفه عمر بن الخطاب حيث قال له : ياامير المؤمنين نهيتنا من الانسياح في البلاد وان فارس لايزالون يقاتلوننا مادام ملكهم فيهم فلايزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا في الانسياح فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم فهنالك ينقطع رجاء اهل فارس فأذن لهم في الانسياح . رحلات : الفتوحات الاسلاميه ج١ ص١٣٧ — ٣٨ .

(٣) ياقوت : معجم ج٣ ص١١٦ . لسترنج : بلدان الخلافة الشرقيه ص ٢٤٩ . دائرة المعارف الاسلاميه ص ٢٨٥ .

الشرقي من اقليم الجبل(١)، وتشاهد في الوقت الحاضر اطلالها على مسيرة خمسة اميال تقريباً الى الجنوب الشرقي من طهران، وترجع الاهمية الجغرافية لهذه المدينة الى وقوعها في المنطقة الخصبة بين الجبال والصحراء، كما كانت منذ اقدم الازمنة طريقاً للمواصلات بين غرب ايران وشرقها، وتتجه عدة طرق من مازندران الى الري عند طرفها الشمالي(٢)، ومن اشهر رساتيق الري رستاق روذه وفيه قرية كبيرة بهذا الاسم، ورامين ولشادية وقوسين وهي عبارة عن مدن صغيرة ، ومن اهم الانهار التي تسقي الري نهر موسى وهو واد عظيم يأتي من بلاد الديلم ونهر كرجه(٣)

وبعد ان فتح العرب نهاوند واستقروا فيها كتب الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الى عمار بن ياسر وكان والياً على الكوفة :

«اما بعد فالحمد لله الذي انجز وعده وهزم الكفار وحده، فاحمدوا الله عباد الله على ما رزقكم من غنائم عدوكم، واعتصموا به، فنعم المولى ونعم النصير ......» وأمره ان يقرأ كتابه هذا على المسلمين وأن ينتخب من اهل الكوفة عشرة آلاف رجل من اخلاط القبائل وعلى رأسهم عروة بن زيد الخيل الطائي لفتح الري والدستبى فانتخب ياسر عشرة آلاف في البلاذري ثمانية آلاف شخص من جميع القبائل، وأمر عروة بن زيد بالمسير نحو الري، فخرج عروة متوجهاً

---

(١) لسترنج : بلدان الخلافه الشرقيه ص٢٤٩ .
يتألف اقليم الجبل من الري واجهات ، قومس ، طبرستان ، جرجان ، سجلستان ، كرمان ، قزوين ، الديلم ، البير ، الطيلسان . انظر ابن قتيبه : البلدان ص٢٠٩ .
بينما يذكر القدسي : احسن التقاسيم ص٣٨٤ ان اقليم الجبل يتألف من الري ، همدان اصبهان الدينور ، كرمان .

(٢) مينورسكي : « ماده الري » دائرة المعارف الاسلاميه .

(٣) اليعقوبي : البلدان ص٤٠ . ياقوت : معجم ج٢ ص ٨٥٤ . لسترنج : بلدان الخلافه الشرقيه ص٢٥١ — ٣
دل — ٤٤

(*) دستبى : كوركبير قسم بين الري وهمدان . انظر ياقوت : معجم ج٤ ص٥٨٠

الى حلوان ثم الى همدان(١)وكان بها يومئذ حاكم من عظماء الأعاجم يقال له كفتار فلما شعر بقوة المسلمين واحس خيلهم رحل من همدان الى قم ودخل المسلمون الى حصن همدان واستولوا عليه واقاموا به اياماً (٢) ثم توجه الجيش العربي بعد ذلك الى الري * وبساده ** ،وكان في الري أميرا من الاعاجم يدعى داروى ازدهار وكان على رأس جيش يتألف من عشرة آلاف ..... ، خمسين ألف من اهل بساوه وعشرين الف من الري ومثلها من الديلم وعندما وصل المسلمون الري نزلوا على بعد ثلاثة فراسخ منها . دعى عروه بن زيد اصحابه فجعل على ميمنته أخاه حنظلة بن زيد الخيل وعلى ميسرته سماك بن عبيد القبيس وعلى الجناح سويد بن مقرف المزني واخذ عروة يشجعهم ويحثهم على الجهاد لعدوهم(٣) اذ قال لهم :

«.... ان يجزع من كثرة هؤلاء الاعاجم، فوالله : إنكم لانتم الذين فتحتم القادسية، والمدائن، وجلولاء، وحلوان. وانتم الذين فتحتم ارض الاحواز بأجمعها قلعة قلعة ونهراً نهراً وانتم اصحاب نهاوند بالامس وقد اجتمع بها اضعاف هؤلاء فقد عرفتم حرب القوم انما لهم ساعة واحدة ما دامت مهامهم في كنائنهم فاذا نفذت فقد اهلكهم الله عز وجل وبدد شملهم(٤)»

وحمل المسلمون بأجمعهم على اهل الري والديلم فقتل من جيشهم في المعركة زهاء سبعمائة وفر الباقون فبعث ملك الري يطلب الصلح على جزية سنوية

(١) ابن اعثم : كتاب الفتوح جـ٢ ص٦٢ — ٣ . ياقوت : معجم جـ٣ ص١١٨ . بينما يذكر البلاذري : فتوح ص٣١٧ ، ابن الفقيه : البلدان ص٢٦٨ — ٩ ان عدد جيش عروه ابن زيد كان ثمانيه الاف مقاتل .

(٢) ابن اعثم : فتوح جـ٢ ص٦٤ — ٥ . البلاذري : فتوح ص٣١٧ .

(*) الري يعتبر المكان المقدس الثاني عشر الذي خلقه اهورمزدا ويطلق عليه راغا الزرادشتيه اي ان زرادشت من اهل راغا . انظر : دائرة المعارف الاسلاميه ص٢٨٦ .

(**) بساوه مدينه بين الري وهمدان . معجم البلدان جـ٥ ص٢١ .

(٣) ابن اعثم : فتوح جـ٢ ص٦٥ .

(٤) ابن اعثم : فتوح جـ٢ ص٦٥ .

قدرهـــا ثلاثون الف درهـــم وعلى ان يدفع مقدمة مائتى الف درهم فوافق عروة على ذلك سنة احدى وعشرين هجرية(١) .

وبعد ان اتم عروة فتح الري ابقى رجلا من عبد القيس يقال له ذكاء بن مصعب فيها لاخذ الجزيه كما ابقى معه ثلاثمائة فارس من اهل الكوفة لحفظ الأمن في المدينة (٢) .

ويظهر ان الري انتفضت عدة مرات وفتحت حتى كان آخر من فتحها قرظة بن كعب الانصاري في ولاية ابي موسى الاشعر في عهد الخليفة عثمان بن عفان «رض» (٣)

سار عروة بعد فتح بالمسلمين الى قم وقاشان وكان حاكم قم يومئذ وسنان فانهزم الى قاشان واقام بها ساعة من النهار ، ثم رحل عنها الى اصفهان وبها يومئذ ملك الفرس يزدجر فدخل عليه وسنان فقال : «ايها الملك انه قد اخذت العرب همدان والري وقد توجهوا الى قم وقاشان وكأنك بهم قد وافوك فاعمل على رأيك ... » فتقدم المسلمون واحتلوا قم وقاشان دون مقاومة (٤) .

ويذكر البلاذرى عن ابي مخنف انه بعد ان انتصر عروه بن زيد الخيل على الرى واهل الديلم ترك محله حنظلة بن زيد الخيل . أخاه ورجع هو إلى الكوفة واستأذن عمار بن ياسر ان يتوجه إلى الخليفة عمر بن الخطاب «رض»

---

(١) البلاذرى : فتوح ص٣١٧ . انظر بن اعثم : فتوح ج٢ ص٦٦ .
ابن الفقيه : البلدان ص٢٦٩ .
بينما يذكر الواقدى ان فتح همدان والري كان سنه ثلاث وعشرين والذي فتحها قرضه بن كعب . انظر اليعقوبي : البلدان ص٠٤ الطبري : ١ / ٢٦٥ . ابن الاثير ج٣ ص٢٤
بينما يذكر ابن خياط : تاريخ ج١ ص١٥١ ان الذي فتح الري وهمدان خذيعه

(٢) ابن اعثم : فتوح ج٢ ص٦٧ .

(٣) البلاذري : فتوح ص٣٩١ .

(٤) ابن اعثم : فتوح ج٢ ص٦٧ .

ليخبره بالنصر لان عروه سابقاً اتى الخليفة عمر بخبر واقعة الجسر فاحب ان يأتيه هذه المرة بخبر النصر فلما بشره بالنصر سماه البشير «١»

يظهر ان رواية أبي مخنف اختصرت الحوادث ولم تشر إلى فتح قم وقاشان. اذ يفهم من الروايات ان عروة بعد ان فتح قم وقاشان رجع إلى الكوفة واستاذن ياسر بن عمار بالسفر إلى المدينة لاخبار الخليفة عمر «رض» عن الفتح العظيم .

بينما يذكر الطبري ان نعيم بن المقرن كان في همدان وعندما سمع ان اهل الري واذربيجان والديلم قد جمعوا جيشاً كبيراً لقتال العرب «٢» ، خرج نعيم على رأس جيش من واج* روذ مددة* اثنى عشر الف جندي والتقى مع ابي الفرخان الزينبي احد امراء الفرس الذي كان تحت امرته جيش من اهل الري واقبل اسفندياذ اخو رستم على رأس جيش من اهل اذربيجان وخرج هوثا على رأس جيش من الديلم وملك الري يومذاك سياوخش بن مهران بن بهرام شوبين. واشتبك الجيشان في سفح جبل الري واقتتلوا قتالا شديداً وكان الزينبي في خلاف مع الملك فقال الزينبي لنعيم : « ان القوم كثيرون وانت في قلة ، فابعث معي خيلا ادخل بهم مدينتهم في مدخل لا يشعرون به ، وناهدهم انت فانهم اذا خرجوا عليهم لم يثبتوا لك. فبعث نعيم خيلا عليهم ابن اخيه المنذر بن عمرو فدخلوا المدينة عبر المسالك الجبلية ليلا مباغتاً فلم يشعر اهل الري الا بالتكبير من ورائهم (٣) ، وهكذا تمكن العرب من فتحها واعطى نعيم بن المقرب الزينبي الامان لاهل الري ومن معهم على ان

---

(١) البلاذري : فتوح ص٣١٧ .

(٢) الطبري : ١/٢٦٥٤-٢٦٥٥-٢٦٥٦ .

(*) واج روز : مدينة كانت تقع بين همدان وقزوين . انظر الطبري : ١/٢٦٥١ ، بسام العسلي : فن الحرب ص٢٩٠ .

(٣) البلاذري : فتوح ص ٣١٧-٣١٨ .

يدفعوا مائتي الف درهم سنوياً ؛ وخرب نعيم بن المقرن مدينتهم القديمة وهي التي يقال لها العتيقة (١) .

بينما يذكر البلاذري ان حذيفة اعطى الامان للزينبي على اهل الري وقومس على ان يكونوا ذمة يؤدون الجزية والخراج ويدفعون خمسمائة الف درهم على ان لا يقتل منهم احداً ولا يسبيهم ولا يهدم لهم بيت نار وان يكونوا اسوة اهل نهاوند في خراجهم ، وصالحه ايضا على اهل دستبي الرازي وكانت دستبي قسمين قسماً رازياً وقسماً همدانياً ووجه سليمى بن عمر بن ضرار الضبي ويقال البراءُ بن عازب إلى قومس خيلا فلم يقتنعوا وفتحوا ابواب الدامغان (٢) .

ويمكن التوفيق بين رواية الطبري والبلاذري اذ أن خذيفة ارسل نعيم بن المقرة على رأس مدد لمساعدة عروة بن زيد الطائي او جاء لفتحها مرة أخرى بعد أن نكث العهد لان الري انتفضت عدة مرات .

وبعد أن عزل الخليفة عمر بن الخطاب «رض» عمار بن ياسر عن الكوفة وولى المغيرة بن شعبة سنة اثنتين وعشرين ، عين المغيرة كثير بن شهاب الحارثي الري ودوستبي فلما وصل وجد اهلها قد نقضوا العهد فقاتلهم حتى رجعوا إلى الطاعة ودفعوا الجزية والخراج ، وغزا الديلم واخضعهم وغزا البير والطيلسان . (٣)

وفي ولاية سعد بن ابي وقاص الكوفة في المرة الثانية اتى الري وكانت

---

(١) الطبري : ١/٤٥٩٦٢-٥ . ابن خلدون : العبر ج٢ ص٩٨٠-١ . بسام العسلي : فن الحرب ص ٣٩١-٢ .
دحلان : الفتوحات الاسلامية ج١ ص١٤٩ .
والظاهر أن العرب استغلوا المنازعات التي قامت بين الاسر الفارسية فقد كان الرة اقطاعاً في يد اسرة مهران انظر دائرة المعارف الاسلامية ص٢٨٧ .

(٢) البلاذري : فتوح ص٣١٧-١٨ .
بينما يذكر ابن خياط : تاريخ ج١ ص٥١ أن حذيفة غزا الري سنة اثنتين وعشرين هجرية وفتحها عنوة .

ثائرة فاصلحها وغزا الديلم وذلك في اول سنة خمس وعشرين ولم تزل الري منذ ان فتحت ايام حذيفة تنتفض وتفتح كما ذكرنا سابقاً حتى آخر من فتحها قرضة بن كعب الانصاري في ولاية ابي موسى للكوفة على عهد عثمان بن عفان «رض» فاستقامت ، ويظهر انه بقي فيها إلى ان مات ، في عهد الخليفة علي بن ابي طالب «رض» فأولى علي على الري يزيد بن حجبة بن عامر بن تيم الله بن ثعلبة بن عكابة فكسر الخراج فحبسه الامام علي ولما خرج من السجن لحق بمعاوية . ولما استتب الامر لمعاوية ولى الري كثير بن شهاب مرة ثانية .(١) ولما ولى زياد الكوفة ابقى كثيراً على الري فغزا الديلم وكان معه عبدالله بن الحجاج التغلبي .

وبما ان مقاتلة الكوفة هم الذين فتحوا الري لذا فهي مرتبطة بالكوفة اداريا .

ومن الجدير بالذكر ان في خلافة المنصور وصلها المهدي وبنى مدينة الري واحاطها بخندق وبنى فيها مسجدا جامعاً وكان بنائها سنة ١٥٨هـ وسماها المحمدية وبنى دار الامارة المطل على المسجد ونزل الري بنو الحريش بعد بناء المدينة . ويقال ان مدينة الري كانت قبل الاسلام تسمى ارازى (٢)

فتح اذربيجان:

ان اقليم اذربيجان جبلي ، بارد كثير الامطار والثلوج يجري فيها ثلاث انهار ، نهر الرس ، ونهر الملل ، ونهر الكر (٣) . وفي وسطها بحيره كبيره تسمى بحيره ارميه «جيجن» تكثر فيها الاسماك وفي وسطها جزيرة كبوذان فيها مدينه صغيرة يسكنها الملاحون وحول البحيره قرى ورساتيق .

---

(١) البلاذري : فتوح ص٣١٩ . ابن الاثير ج٣ ص١٢٣–٤ .

(٢) البلاذري : فتوح ص٣٢٢ . ياقوت : معجم ج٣ ص١١٨ .

(٣) المقدسي : احسن التقاسيم ص ٣٧٨–٩. ابن حوقل: صوره الارض ص ٢٨٩. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ١٩٣ .

تستعمل هذه البحيرة للنقل التجاري بين مدينتي ارميه والمراغه وفي الشتاء تكثر فيها الامواج فلاتصلح للملاحة في هذه الفترة .

ومن اشهر مدنها : اردبيل ، المراوغه ، وتبريز ، وارميه وكانت المراوغه هي العاصمه القديمه للاقاليم (١) . وهي مركز للزردشتيه لان المجوس يعتقدون ان صاحبهم زردشت منها وبها بيت نار آذرجشنس وهو عظيم القدر عند المجوس (٢) .

ومنطقة اذربيجان واسعه اذ يمدها من الشرق بلاد الجبل والديلم وبحر الخزر «قزوين» ومن الجنوب العراق والجزيره ومن الغرب حدود الارمن والبلان وقسم من الجزيره ومن الشمال اللان وجبل القبق (٣) ، ويكثر فيها الابريسم لكثره دود القز ، والكتان ، والرقيق ، والزعفران ، والبغال والفاكهه وخاصه البلوط لكثره الغابات (٤) .

وتظهر اهمية اذربيجان الاقتصاديه اذ كان خراج اذربيجان الف الف درهم في العصر العباسي الاول (٥) .

---

(١) اليعقوبي: البلدان ص ٣٦. ابو الفداء: تقويم ص ٣٨٦.
ابن حوقل: صوره الارض ص ٢٨٧. الدمشقي: غبر الدهر ص ١٨٧. العسلي: فن الحرب ص ٣٧٧ .

(٢) ابن الفقيه: البلدان ص ٢٨٥ — ٦ .
ذكر المقدسي ص ٣٧٣ — ٤ ان اذربيجان والران وارمينية اقليم كبير واحد سماه اقليم الرحاب تميزاً عن اقليم الجبل .
كذلك ابو الفداء: تقويم البلدان ص ٣٨٧. وابن حوقل: صوره الارض ص ٢٨٥ . جعلاه اقليماً واحداً لتداخل بعضها بالبعض ولان في زمن ابن حوقل كانت مملكة واحدة.

(٣) ابن حوقل: صورة الارض ص ٢٨٩. ابو الفداء: تقويم البلدان ص ٣٨٦.

(٤) المقدسي: احسن التقاسيم ص ٣٨٠. ابو الفداء: تقويم البلدان ص ٣٩٠ — ١. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ١٩٤ .

(٥) ابن الفقيه: البلدان ص ٢٨٦ .
بينما يذكر اليعقوبي في كتابه البلدان ص ٣٦، ان خراجها اربعة الاف الف درهم يزيد في سنة وينقص في أخرى .

وقد احتلها المسلمون بدافع توسيع رقعه الاسلام والمحافظه على حدودهم ونشر الدين في تلك الربوع ، فبعد ان احتلوا الري ونهاوند اصبح ضروريا ان يحتلوا اذربيجان لان الفرس بعد انسحابهم من الري تجمعوا بها ، وكما اشرنا سابقا تعد مركز مهماً للزردشتيه لان المجوس يعتقدون ان زردشت منها وبها بيت نار للمجوس (١) فلابد من فتحها لانها تكون مركزا خطراً للمجوس على حدود الدولة الاسلامية .

وبعد ان فتح العرب الري واستقروا فيها وبعد عزل الخليفه عمر بن الخطاب (رض) عمار بن ياسر عن الكوفه بطلب من اهلها وتعيين المغيره ابن شعبه واليا عليها (٢) .

جاء المغيرة الى الكوفة ومعه كتاب من الخليفه موجه الى حذيفه بن اليمان يأمره بالسير نحو اذربيجان لفتحها ، وكان ذلك سنه اثنتين وعشرين للهجرة وكان حذيفة يومئذ في نهاوند فسار الى اذربيجان وكان مرزبانها قد جمع اليه المقاتله من اهل باجروان وميمذ والنرير ، وسراه ، والشيز ، والميانج وغيرهم وقاتلوا المسلمين قتالا شديداً ، ثم طلب المرزبان الصلح من حذيفه على ثمانمائة الف درهم واشترط ان لايقتل احد منهم ولايسبى وان يترك لهم حرية العباده ولايهدم لهم بيت نار ولايتعرض لاكراد ابيلاسجان وسبلان وساترودان فصالحه حذيفه على هذه الشروط (٣) .

ثم عزل الخليفة عمر ، (رض) حذيفة وولى عتبه بن فرقد السلمى فلما وصلها وجد اهلها قد نقضوا العهد فغزاها واخضعها مرة اخرى وغنم وكان

---

(١) ابن الفقيه: البلدان ص ٢٨٥ — ٦ .

(٢) البلاذري: فتوح ص ٣٢٤ — ٦. اليعقوبي: تاريخ ج٢ ص ١٤٤. الطبري: ١/٢٦٧١.

(٣) البلاذري: فتوح ص ٣٢٤ — ٦. ابن خياط: تاريخ ج١ ص ١٥١.
بينما يذكر ابو عبيدة في تاريخ ابن خياط ج١ ص ١٤١. افتتح اذربيجان حبيب بن مسلم الفهري باهل الشام ومعهم اهل الكوفة في خلافة عمر ومعهم حذيفة بعد قتال شديد ويقال افتتحها عتبة بن فرقد .

معه عمرو بن عتبه الزاهد .(١)

بينما يذكر الطبرى ان الخليفة عمر كتب إلى نعيم بن مقرن في الري ان يرسل سماك بن خرشه الانصاري مع مدد إلى بكير بن عبدالله من اذربيجان فخرج سماك ومعه عتبه بن فرقد ، واشتبك العرب مع الفرس وكان الفرس بقيادة مهران ، ومعه اسفندياذ ، فانهزم مهران واسر اسفندياذ .

ويظهر ان سماك بن حرشة ومعه عتبه بن فرقد ذهبا مع مدد ـ بامر الخليفة عمر(رض) او المغيرة وإلى الكوفة ـ إلى ابن بكير بن عبدالله إلى جانب القوه التي ارسلت من نهاوند بقيادة حذيفة بن اليمان وعندما عزل الخليفة حذيفة وعين عتبه بن فرقد بعد ان انتفضت اذربيجان ، مرة اخرى فاستطاع عتبه ان يهزم مهران .

بينما يذكر الواقدى : ان المغيرة بن شعبة غزا اذربيجان من الكوفة سنة اثنتين وعشرين وفتحها عنوه ووضع عليها الخراج (٢)

ويظهر ان الواقدي اعتبر المغيرة مسؤولا عن فتحها لانه كان والياً على الكوفة ومقاتله الكوفه هم الذين فتحوها وفتحت في عهده .

لما ولى الخليفة عثمان بن عفان (رض) عزل عتبه عن اذربيجان وعين محله الوليد بن ابي معيط فنقض اهل اذربيجان العهد فحاربهم الوليد سنة ٢٥ هـ وعلى مقدمة جيشه عبدالله بن شبل الاحمس فاغار على اهل حوقان والبير والطيلسان فغنم وسبي وطلب اهل اذربيجان الصلح نصالحهم على صلح حذيفة(٣) .

(١) البلاذري: فتوح ص ٣٢٦. ابن خلدون: العبر جـ٣ ص ٩٨٢.
رحلات: الفتوحات الاسلامية جـ١ ص ١٥١.

(٢) الطبري: ١/٢٦٦١ ـ ٢. ابن الاثير: جـ٣ ص ٢٧. ابن خلدون: العبر جـ٢ ص ٩٨١.
العسلي: فن الحرب: الفتوحات الاسلامية جـ١ ص ١٥٠ ـ ١.

(٣) ابن الفقيه: البلدان ص ٢٨٤. البلاذري: فتوح ص ٣٢٧.
اليعقوبي: البلدان ص ٣٦. سامي: المعجم الجغرافي ص ١٤٦.

(٤) البلاذري: فتوح ص ٣٢٧. رحلات: الفتوحات الاسلامية جـ١ ص ١٦٧.

فتح فارس :

سميت فارس باسم ملكها فارس بن طهر مرت . (١) وتقع فارس شرق العراق وتحيط ببلاد فارس من جهة الغرب خوز ستان ومن الشمال اصفهان والجبال ومن الجنوب البحر العربي ومن الشرق كرمان .(٢) ويجري فيها عشرة انهار ويتخللها خمس بحيرات مالحة(٣). وتتألف من خمس كور : اصطخر ، وسابور، وار دشير خده ،ارحاب ، دارابجرد(٤)

وكانت موطن الدولة الاخمينية وقاعدة حكومتها ، (٥) والدولة الساسانية ظهرت بها واعتمدت عليها وركزت الدين الزردشتي بها فهو الاقليم الرئيس الذي تعتمد عليه السياسة الساسانية واهلها موالين للدولة الساسانية ، فلما فتحها المسلمون بقيت متعصبة للساسانيين فثارت عليهم عدة مرات .

ويذكر خليفة بن خياط ان الوليد حارب اهل اذربيجان سنة ٢٥هـ ، وانها ثارت مرة اخرى سنة ثمان وعشرين فارسل امير الكوفة الوليد بن عقبة بن ابي معبط عبدالله بن شبل فصالحهم على شروط حذيفة نفسها (٦). ويظهر ان الوليد ارسل عبدالله بن شبل الاحمس مع مدرد للاشعث بن قيس فاخضعهم وصالحهم على نفس شروط حذيفة وعقبة بن فرقد واسكنها ناساً من العرب وامرهم بنشر الاسلام (٧) .

---

(١) ابن الفقيه: البلدان ص ١٩٥-٦٠-٦.

(٢) ابو الفداء: تقويم البلدان ص ٣٢١. ابن حوقل: صورة الارض ص ٢٣٤.
سليم: المعجم الجغرافي ص ٢٣٢ — ٣.

(٣) الدمشقي: نخبة الدهر ص ١٧٩ .

(٤) البلاذري: فتوح ص ٣٧٩. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٨٤. بينما يعتبرها المقدسي ست كور فيضيف اليها شيراز ص ٤٢١ .

(٥) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٨٤.

(٦) ابن خياط: تاريخ جـ١ ص ١٣٢، ١٣٥ .

(٧) ابن خياط: تاريخ جـ١ ص ١٩٠. البلاذري: فتوح ص ٣٣٨.

وفي خلافة الامام علي عين سعيد بن سارية الخزاعي على اذربيجان ثم عزله ، وعين الاشعث بن قيس فلما قدمها وجد اهلها قد اسلموا وهدأت الحالة بها فبنى مسجدها واسكنها عرب من المصرين ومن أهل الشام مامتلكوا الارض واشتغلوا بالزراعة .(١) اما وارداتها فمقدارها الف الف درهم . (٢)

وعندما سمع الفرس ان العرباً احتلوا اصفهان فزعوا فزعاً شديداً وهالهم امر العرب ، ودعا يزدجر برجل من ابناء ملوك العجم يقال له شهرك بن ماهك ، فقال : «ويحك ياشهرك اني ارى هؤلاء العرب مايطلبون احداً غيري ، وذلك اني كلمـا رحلت الى بلدة رحلوا في اثرى غير اني رأيت من الرأي ارجع عن جميع ارض فـارس واصير الى كرمان ولكن انظر كيف تقاتل عن دينك وتنـاضل عن حرمك ودار مكدك . » (٣) ثم رحل يزدجر عن مدينه احطخر ومض حتى صار الى كرمان .

استعد الفرس لقتال العرب فجمع شهرك مائه وعشرين الفاً لقتال العرب .

علم بذلك ابو موسى الاشعري وكان يومئذ مقيما في اصفهان فنادي في المسلمين فاجتمعوا اليه وكان عددهم سبعه عشر الف مابين فارس (٤) وراجل وسار بهم نحو اصطخر حتى اذا اشرف عليها نظر جموع الفرس فأمـر المسلمين أن يكبروا فلما كبر المسلمون وقع الرعب في قلب شهرك وأخذ وزيره يشجعه ويقول له: «ايها الملك اثبت ولا تخف فان هؤلاء العرب قليلون ونحن في جمع عظيم» : وامر ابو موسى اصحابه بالتكبير ثانية انخلعت قلوب الفرس وولوا منهزمين وولى معهم شهرك فلحق به رجل من المسلمين

---

(١) البلاذري: فتوح ص ٣٢٣ — ٣٢٥ .

(٢) ابن الفقيه: البلدان ص ٢٨٦ .

بينما يذكر ابن قدامة : الخراج ص ٢٤٠. ان خراج اذربيجان اربعة الاف الف وخمسمائة الف درهم. ويذكر اليعقوبي: البلدان ان خراج اذربيجان اربعة الاف الف درهم ص ٣٦.

(٣) ابن اعثم: الفتوح جـ٢ ص ٧١ .

(٤) البلاذري: فتوح ص ٣١٥. ابن اعثم : الفتوح جـ٢ ص ٧٣ .

يقال له جنيد بن مسلم الأزدي فضربه ضربة اردته قتيلاً وأخذ تاجه وفرسه (١) .

وهكذا انهزم الفرس من بين أيدي المسلمين فدخل بعضهم مدينة اصطخر وفر الباقون مشردين من البلاد. ولما علم ملك الفرس يزدجر ان البلاد قد أخذت وان شهرك قد قتل ، خرج من ساعته نحو بلاد خراسان (٢).

وأقام ابو موسى الأشعري على اصطخر شهراً كاملاً حتى فتحها صلحاً على مائتي الف مقدمة والجزية بعد ذلك ثم سار أبو موسى إلى بلاد كرمان فجعل يفتحها موضعاً ولا أحد يناويه حتى بلغ اول مفازه خراسان فنزل هناك وأمر باموال فارس وكرمان فأخرج منه الخمس وبعث به إلى الخليفة عمر «رض» مع كتاب يخبره فيه بما فتح الله عز وجل على يديه في أرض فارس وكرمان (٣) وانه يريد التقدم إلى خراسان، وقسم أبو موسى الأشعري باقي الغنائم بين المسلمين فاصاب الفارس زيادة على ثمانية آلاف درهم والراجل زيادة على أربعة آلاف درهم (٤) .

بينما يذكر البلاذري أن توج فتحت قبل اصطخر (٥) ، لما ولي عمر بن الخطاب «رض» عثمان بن ابي العاص الثقفي البحرين وعمان وجه أخاه الحكم بن ابي العاص عن طريق البحر إلى فارس في جيش من عبد القيس

(١) اليعقوبي: تاريخ حـ٢ ص ١٥٧ .

(٢) ابن اعثم: الفتوح حـ٢ ص ٧٣ — ٤ .

(٣) وصل يزدجر إلى مرو في خراسان وهناك استقبله ماهويه مرزبانها معظماً مبجلا. ولما سأله عن الأموال غضب ماهويه وكتب إلى نيزك طرخان ملك الترك يحرضه عليه ولما شعر ان ماهويه يريد قتله لجأ إلى بيت طحان على المرغاب ويقال ان ماهويه ارسل اليه رسله فقتلوه في بيت الطحان، ويقال ان الطحان قتله طمعاً في تاجه وهكذا انتهت حياة يزدجر .
البلاذري: فتوح ص ٣٨٧ — ٨ .

(٤) اليعقوبي: تاريخ حـ٢ ص ١٥١. ابن اعثم: الفتوح حـ٢ ص ٧٦ — ٧ .

(٥) ابن اعثم: الفتوح حـ٢ ص ٧٧.

(٦) البلاذري: فتوح ص ٣٨٦. الطبري: ١/٢٦٩٥ .

والازد وتميم وبني ناجيه ففتح جزيرة ابركاوان ثم تقدم نحو توج من ارض اردشير خره ، ولكن ابا مخنف يذكر أن عثمان بن أبي العاص نفسه قطع البحر إلى فارس ففتح توج وبنى فيها المساجد وجعلها داراً للمسلمين وأسكنها عبد القيس وغيرهم وكان يغير منها على ارجان (١) وبعدها رجع عثمان بن أبي العاص إلى عمان والبحرين لكتاب عمر «رض» اليه في ذلك فاستخلف عندئذ أخاه الحكم وكان ذلك سنة ١٩هـ (٢) .

ولما سمع شهرك مرزبان فارس قدوم العرب ، جمع جمعاً عظيماً وسار بنفسه إلى راشهر من أرض سابور وهي قريبة من توج فخرج اليه الحكم بن أبي العاص وعلى مقدمة جيشه سوار بن همام العبدي فاقتتلوا قتالاً شديد فقتل شهرك قتله سوار بن همام ولكن ابن شهرك حمل على سوار فقتله ، ولكن هزم الله المشركين وفتحت راشهر عنوة وكان يوم عظيم النعمة على العرب كيوم القادسية ، وتوجه عمرو ابن الاهثم التميمي إلى المدينة لاخبار الخليفة عمر «رض» بالنصر .

وكتب عمر إلى أبي موسى وهو وال على البصرة أن يساعد عثمان بن أبي العاص فصار يغزو فارس من البصرة ثم يعود اليها (٣) .

أرسل عثمان بن أبي العاص هرم بن حيان العبدي إلى قلعة الستوج ففتحها عنوة وتقدم إلى جره في سابور ففتحها صلحاً على اداء الجزية والخراج ثم فتح عثمان كازرون من سابور والنوبندخان ثم تقدم إلى ارجان ففتحها صلحاً ثم توجه نحو درابجرد ففتحها صلحاً ثم تقدم إلى فسا فصالحه مرزبانها مثل صلح درابجرد ثم تقدم عثمان نحو سابور في سنة ٢٣هـ وكان مرزبانها

---

(١) البلاذري: فتوح ص ٣٨٦. ابن خياط: تاريخ جا ص ١٤٩ .
بينما يذكر الطبري ان قائد المسلمين في فتح توج هو مجاشع بن مسعود ص ١/٤/٢٦٩٩ .

(٢) البلاذري: فتوح ص ٣٨٦ .

(٣) البلاذري: فتوح ص ٣٨٦ – ٧. ابن خياط: تاريخ جا ص ١٤٩.

أخو شهرك فطلب الأمان فصالحه عثمان على أن لايقتل أحداً وأن يكونوا ذمة (١) .

ويظهر أن الفرس دخل في قلوبهم الرعب والخوف من العرب فكانوا يطلبون الصلح ويؤدون الجزية والخراج حال تقدم الجيش العربي .

وفي سنة ٢٦هـ نقضت سابور العهد وغدرت فتقدم اليها أبو موسى الأشعري وعلى مقدمة جيشه عثمان بن أبي العاص ففتحها عنوة (٢) .

ولما ولى عبد الله بن عامر البصره من قبل عثمان بن عفان «رض» سار بجيشه الى اصطخر في سنة ٢٨ هـ فصالح ماهك على اهلها ثم خرج الى جرر فلما فارقها نكثوا وقتلوا عامله عليها (٣) . فلما فرغ من فتح جرر رجع الى اصطخر وفتحها عنوه بعد قتال شديد ورماها بالمنجنيق وقتل بها من الاعاجم اربعين الف وافنى اكثر البيوتات ووجوه الاساور ثم فتح درابجرد وكانت قد نقضت العهد ايضاً ثم توجه الى كرمان وهكذا اكمل فتح فارس على يد العرب في عهد الخليفة عثمان بن عفان «رض» (٤)

ومن خلافه علي بن ابي طالب«رض» عندما قتال الحضرمي من البصره واختلاف الناس على علي طمع اهل فارس وكرمان في كسر الخراج واخرجوا سهل بن حنيق من فارس وكان عاملا عليها لعلي «رض»فولى عبد الله بن العباس بأمر علي زياد على فارس فضبط فارس وكرمان (٥) .

وهكذا فتح العرب بلاد فارس ودكوا عرش كسرى مندفعين شرقا حاملين راية الاسلام ومبادئه السمحه فكانت هذه الحروب «فتحاً» لنشر الدعوه ولاقرار السلام فهي حروب خير وبركه وتحرير وانطلاق .

---

(١) البلاذري: فتوح ص ٣٨٨. ابن خياط : تاريخ جـ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٢) البلاذري: فتوح ص ٣٨٩ .

(٣) البلاذري: فتوح ص ٣٨٩ — ٩٠. اليعقوبي: تاريخ جـ٢ ص ١٦٦ .

(٤) البلاذري: فتوح ص ٣٩٠. الطبري: ٢/٢٧٠. ابن خلدون: العبر جـ٢ ص ١٨٩.

(٥) اليعقوبي: تاريخ جـ٢ ص ٢٠٤. البلاذري: فتوح ص ٣٨٠. الطبري: ١/٣٤٤٩.

المصادر

ابن الاثير : عزالدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢ م) .
١ — الكامل في التاريخ ، ١٠ اجزاء بيروت ١٣٨٥ هـ.
الاصطخرى : ابراهيم بن محمد (ت نهاية القرن الرابع / القرن العاشر).
٢ — مسالك الممالك ، مطبعة ليدن ، ١٩٢٧.
ابن اعثم الكوفي : أحمد بن عثمان (ت ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م)
٣ — كتاب الفتوح ، ٣ اجزاء حيدر اباد ١٣٨٨.
البلاذرى : احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)
٤ — فتوح البلدان ، ١٩٥٩ .
ابن حوقل : ابو القاسم بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٩م).
٥ — صورة الارض ، بيروت بلا تاريخ .
ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٤٠هـ/ ١٤٠٦ م).
٦ — كتاب العبر ، بيروت ١٩٥٦.
خليفة بن خياط : (ت ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م .)
٧ — تاريخ ابن خياط ، بغداد ١٩٦٧.
الدمشقي : شمس الدين ابو عبيدالله محمد بن ابي طالب الانصاري (ت٦٥٤هـ)
٨ — نخبة الدهر من عجائب البر والبحر ،ليبزك ١٩٢٣ .
الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ ٩٢٣م) .
٩ — تاريخ الرسل والملوك ، مصر ١٩٦٢م.
ابو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) .
١٠ — المختصر في اخبار البشر ، ١٤ جزء ،بيروت.
ابن الفقيه : احمد بن ابراهيم الهمداني (ت ٢٨٩هـ/٩٠٢م)
١١ — مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٣٠٢ .

المقدسي : محمد بن احمد (ت القرن الرابع /العاشر) .
١٢ — احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ط ، ليدن ١٩٠٦م.
ياقوت الحموي : شهاب الدين (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م).
١٢ — معجم البلدان ، ٦ اجزاء ، بيروت ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.
اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) .
١٤ — تاريخ اليعقوبي ، ٣ أجزاء ، النجف ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
١٥ — البلدان ط٣ النجف ١٣٧٧هـ/١٩٥٧.

المراجع : —

١ — دحلان : احمد بن زيني . مفتي مكة . الفتوحات الاسلامية جزءان.مصر.
٢ — سليم : محمد شريف ، المعجم الجغرافي ، مصر ، ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م.
٣ — العسلي : بسام : فن الحرب في عهد الخلفاء الراشدين والامويين ، دار الفكر ١٣٩٤ هـ.
٤ — ابن الغملاس : ولاة البصرة ومتسلموها ١٤هـ — ٣٣٣هـ ، بغداد ١٩٦٢
٥ — لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ١٩٥٤ .
٦ — مينورسكي « مادة الري » دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية.

العناصر السكانية في مدينة فاس

من خلال كتاب "بيوتات فاس الكبرى"

الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي
كلية الاداب جامعة بغداد

وانا اتصفح كتاب «بيوتات فاس الكبرى» جالت في خاطري اسئلة كثيرة تدور كلها حول التركيب السكاني للمجتمع في مدينة فاس ، فوجودتني اندفع لأقرأ هذا الكتاب عدة مرات محاولة أن أصنف الأسر العربية والبربرية في فاس والتعريف بتفرعاتها المختلفة . وأثارت هذه المحاولة رغبتي في دراسة طبيعة الاختلاط والاندماج الذي حدث بين العرب والبربر في فاس ، بل ونتائج ذلك في خلق بيوتات واسر تحمل النسب العربي — البربري .

وقبل الخوض في ذلك كله ، لابد لنا من كلمة تعريف بكتاب «بيوتات فاس الكبرى» ومؤلفه الذي اعتمدناه في دراستنا. (١) فالكتاب كما جاء في

---

(١) لقد اعتمدنا في تعريف كتاب « بيوتات فاس الكبرى » على ماتوصل اليه الباحث عبدالقادر زمامة في مقدمته لهذا الكتاب عندما نشره في عام ١٩٦٤ في ، مجلة البحث العلمي: الصادرة في الرباط في اعدادها الثالث والرابع والخامس، وكذلك على ماجاء في مقدمة هذا الكتاب في طبعته للعام ١٩٧٢ التي نشرتها دار المنصور للطباعة.

صدر المخطوط هو «ذكر بعض مشاهير اعيان فاس في القديم» ولكن الباحثين والمؤرخين الذين نقلوا عنه اسموه بـ «بيوتات فاس الكبرا» مقلدين في ذلك السيد عبد الرحمن الفاسي الذي اطلق عليه هذا الاسم بعد ان اختصره وحذف منه واضاف اليه .

أما شخصية مؤلف هذا الكتاب ، فهي مثار حيرتنا ، ذلك لاننا لم نعثر على اسم المؤلف مكتوباً على نسخة المخطوطة التي وصلتنا ، الامر الذي دفع عدداً من الكتاب الى الحدس والتخمين (١) . واخيراً اهتدوا الى مؤلف الكتاب وهو الأمير الاديب الغرناطي ابو الوليد اسماعيل بن يوسف بن الأحمر (ت ٨٠٧ هـ) ، صاحب «روضة النسرين في اخبار بني مرين» و «نثير فوائد الجمان » وغيرهما . ونسبة الكتاب كله الى ابن الاحمر لم تصح لدى الباحثين لاسباب كثيرة (٢) ، اهمها ان فيه تواريخ متأخرةً عن وفاة المؤلف بنحو مئة سنة ، يضاف الى ذلك اسلوب ولغة الكتاب وبعض معلوماته التي لايمكن ان ننسبها الى ابن الأحمر . ولكن الرأي الذي اتفق عليه ان ليس هناك مايمنع من الافتراض بان هذا الكتاب هو مشروع ابتداه ابن الأحمر ثم أضاف اليه من اطلعوا عليه من رجالات القرن التالي لعصر المؤلف (ق ٩ هـ) وتصرفوا فيه بالزيادة والنقصان . والذي يبدو ان مشروع هذا الكتاب لم يوضع في صيغته النهائية ولم يصلنا كتاباً سوياً ، ودليلنا على ذلك خلوه من مقدمة ومدخل فالكتاب يبدأ هكذا «فمنهم بيت بني فذّة ... ثم يتابع المؤلف حديثه عن مشاهير البيوتات والأسر في فاس من القديم من دون فصل بين بيت وآخر

(١) فقد نسبه البعض إلى أحد تلاميذ الامام القوري (ت ٨٧٢ هـ) انظر : أبو عبدالله محمد بن جعفر الكتاني ، سلاة الانفاس ومحادثة الأكياس ممن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس (فاس ، ١٨٩٨/١٣١٦) ج٢ ص ٢١٩ .

(٢) احمد المكناسي ابن القاضي ، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس (الرباط ، ١٩٧٤) ، ج١ ص ٩٩ .

(٣) ناقش عبدالقادر زمامة هذه الاسباب بصورة مفصلة في بحثه الموسوم « ذكر مشاهير فاس في القديم » ، مجلة البحث العلمي ، العدد الثالث (١٩٦٤) ص ٣٧ .

ومن دون اتباع ترتيب معين . يضاف الى ذلك عدم التوازن في الكلام على الأسر ، فهناك أسرة لاتستحق من المؤلف غير سطر او سطور قليلة لاتكفي القارىء في معرفتها ، وهناك أسر قد حشر فيها معلومات تاريخية وحكايات واسماء اشخاص كثيرة . كما ان لغة الكتاب ليست في مستوى واحد فأحياناً نظن كـاتبه اديباً بليغـاً ، واحياناً اخرى نجدها قد كتبت باسلوب اقل من المتوسط . ومع ذلك فان الكتاب بوصفه الحالي مهم ومفيد للباحثين في تاريخ بلاد المغرب الوسيط (١) .

بعد هذا التعريف البسيط بكتاب «بيوتات فاس الكبرى» ومؤلفه نعود لنتعرف على العناصر السكانية في مدينة فاس من خلاله . ولابد لنا ان نشير الى ان الكتاب المذكور بالرغم من انه مكرس للتعريف ببعض البيوتات الناسية الشهيرة ، فانه ، ومع الاسف ، يخلو عن مقدمة ضرورية عن بناء مدينة فاس وعن مؤسسها ، عدا نصاً صغيراً جاء في ترجمته لبيت بني الملجوم حيث يذكر انه «لما بويع أمير المؤمنين إدريس بنى فاس المدفون فيها ابن ادريس الاكبر دفين وليلي في جبل زرهون ابن عبد الله الكامل واستقر في الخلافة وقدمت عليه الوفود قدم عليه عمير بن مصعب مع قومه من الازد فيمن وفد عليه من الاندلس ... ولما بنى ادريس مدينة فاس انزله بالعين المعروفة الان بعين عمير ...» (٢) .

والباحث عن نشأة وتاريخ مدينة فاس ، يجد في الكتب الجغرافية والمصنفات التاريخية العربية تفاصيل كثيرة (٣) ، والملاحظ ان هذه الكتب والمصنفات

(١) في الكتاب استطرادات مفيدة جداً ، حيث يحتوي على معلومات تاريخية فريدة عن بلاد المغرب الاقصى ، منها عن الحركة المرابطية ، وعن الموحدين ، والمدينيين وغير ذلك انظر بيوتات فاس ص ٢٧ — ٣٤ ، ٤٤ ، ٥٣ ، ٦٢ — ٦٣ .

(٢) بيوتات فاس ، ص ١٣ .

(٣) انظر اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٥٧ — ٥٨ ؛ ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٩٠ ؛ البكري ، المسالك والممالك ، ص ١١٤ ؛ محمد بن عبدالعزيز الادريسي ، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس)=

تتفق على ان ادريس بن ادريس بن عبد الله ، الحاكم الادريسي الثاني هو مؤسس مدينة فاس ، المتكونة من حيين الاول عدوة (حي) الاندلسيين الذي شرع ادريس في بنائه عام ١٩٢ هـ ، وعدوة القرويين التي أسسها عام ١٩٣ هـ ومن الطريف الاشارة هنا ، الى ان المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال اثار تساؤلات مهمة حول تأسيس فاس ، خرج منها بافتراض مفاده ان ادريس بن عبد الله الاول هو الذي أسس مدينة فاس عام ١٧٢ هـ في الموضع الذي تقوم عليه عدوة الاندلسيين ، وان ادريس بن ادريس بن عبد الله اسس عدوة القرويين عام ١٩٢ ، على الضفة اليسرى من وادي فاس . وقد دعم نظريته هذه بادلة مادية ونصوص تاريخية (١) . ومهما يكن الامر ، فان الذي يهمنا في هذا المجال هي العناصر السكانية التي استقرت في مدينة فاس ومقاسمتها احياناً ، كما سنشير الى ذلك أدناه .

هناك اتفاق عام بين المصادر العربية الوسيطة ، ومن بينها كتاب « بيوتات فاس » ايضاً ، ان الوفود العربية التي قدمت على الحاكم الادريسي ادريس بن ادريس من الاندلس والمشرق وبلاد المغرب — لاسيما القيروان— بعد ان قوي مركزه وذاع صيته ، قد استقرت في مدينة فاس منذ تأسيسها.(٢) أما هؤلاء العرب الوافدين فقد كانوا من العدنانية والقحطانية واشتملوا على

= تحقيق دوزي R.dosy ردي غويه M.jde Goege (امستردام ، ١٩٦٩) ، ص ٧٥ — ٦ ؛ علي بن عبدالله الفاسي ابن زرع ، الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (ابسالا ، ١٨٤٣) ، ص ١٤ — ٢٠ ، ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ج١ ص ٣٠ — ٣٧.

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس، ترجمة السيد عبدالعزيز سالم ومحمد صلاح حلمي (القاهرة ١٩٥٨) ص ١ — ٥٠ .

(٢) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ١٢ ؛ ابن القاضي ، جذوة ، ج١ ص ٣ ؛ بيوتات فاس ، ص ١٣ .

عناصر من الازد ، والخزرج ، ويحصب ، مصدف ومذحج ، (١) كما اشترك مع هؤلاء العرب في سكنى مدينة فاس وضواحيها قبائل من البربر من صنهاجة ، وهوارة ، وزناته ، ومعمودة واورية (٢) . وهكذا سرعان ما أصبحت فاس مركزاً مهماً لاختلاط العرب والبربر في المغرب الاقصى منذ ايام الاسرة الادريسية وما تلاها كما سنرى .

ومن تصفحنا للكتاب «بيوتات فاس» يمكننا ان نتبين الحقائق الاتية عن طبيعة الأسر العربية والبربرية التي استقرت في مدينة فاس منذ تأسيسها ، والتي كان مجموعها ، حسبما ورد في الكتاب المذكور ، ثلاثاً وثمانيين بيتاً (اسرة) :

١ — ان نسبة العرب إلى البربر هي نسبة ١ : ٢ . (٣)

٢ — كانت البيوتات العربية المؤلفة من اثنتين وعشرين عائلة تضم اسراً قحطانية . وعدنانية . فالاسر القحطانية معظمها من الازد والخزرج ، والأسر العدنانية أغلبها من قريش ، كنانة ، قيس ، تغلب وفزارة .

٣ — كان عدد الأسر البربرية في مدينة فاس هي خمسون اسرة ، تتألف من قبائل البربر المختلفة مثل صنهاجة ، معمودة ، زناتة واورية .

٤ — وهناك بيوتات صنهاجية ينسبها صاحب كتاب « بيوتات فاس» إلى النسب العربي : الحميري : وبذلك يؤكد هذا الكتاب روايات الكثير من الكتاب

---

(١) ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، ص ١٣ ؛ ابن القاضي ، جذوة ، ج ١ ص١٣

(٢) ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، ص ١٣ — ١٤ ؛ ابن القاضي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧ ؛

J. O. Lath.am. Prolegomena to astudy of And alusian influeuces in the Social Life of Novth Afviqq, wnpublished ph. u Thesis (Oxford, 1956), p. 2-3.

(٣) ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، ص ٢٤ — ٥ ؛ محمد الذكي السلجماسي الدغري ، تأليف في الانساب ، مخطوط في الخزانة العامة في الرباط ، برقم ج ٥٣٧ ، ورقة ١٠٨ — ٩ .

هناك قائمة في هذه المقالة توضح اسماء هذه البيوتات وانسابها واصولها .

العرب الوسيطين في ارجاع قبائل صنهاجة البربرية إلى اصل عربي قحطاني.

٤ — كما ان قبائل صنهاجة في فاس ترجع إلى اصلين: احداهما صنهاجة الشمال ، والاخرى صنهاجة الجنوب اي الصحراء. ويبدو ان وجود الصنهاجيين العمراويين في فاس يرجع إلى أيام الدولة المرابطية ، عندما تقدمت القبائل الصنهاجية من الصحراء إلى الشمال (المغرب الاقصى) وانتشرت واستقرت في مدنه المختلفة ومنها مدينة فاس (١) .

٥ — وهناك عشر أسر لم يشر كتاب « بيوتات فاس » إلى نسبها .

٦ — واخيراً هناك أسرة فارسية واحدة منقرضة ولا عقب لها .

تقع اهمية كتاب « بيوتات فاس الكبرى » لابكونه الكتاب المهم الذي أدرج أسماء الاسر العربية والبربرية التي استوطنت مدينة فاس فحسب ، بل أنه ضم بين طياتة اشارات خفيّة عن طبيعة اللقاء العربي — البربري الذي تم في هذه المدينة ايضاً ، وما نتج عنه من الاختلاط والتزاوج بين سكانها من عرب وبربر . ولعل من الجدير بالملاحظة ان هذا الاختلاط كان عميقاً وطويلاً وقد أدى إلى اختلاط النسب العربي بالبربري في مدينة فاس ، وسوف نورد فيما يلي أمثلة على ذلك من الكتاب موضوع البحث .

ان أسرة بني الملجوم العربية المشهورة في فاس الوسيطة ، كما وصفت في كتاب «بيوتات فاس» والتي كانت قد انحدرت من عمير بن مصعب الأزدي أحد ابناء العرب الذين استقروا في الاندلس ايام الفتح الاول . وكان عمير هذا من ضمن العرب الوافدين على الحاكم الادريسي ادريس بن ادريس ، فاستوزره الاخير وزوجه ابنته ، كما ان عميراً واسرته من الازد

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ج١ ص ٤٢٢ ؛ ابن خلدون العبر ، ج١ ص ٣٠١ ؛ مؤلف مجهول الحلل الموشيه في ذكر الاخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامه (الدار البيضاء ، ١٩٧٩) ص ١٧ — ١٩٠ .

(٢) ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، ص ٨٥؛ عذارى المراكشي ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب (بيروت ، ١٩٦٧) ٤ ج ص ٢٨.

كانوا من بين العرب الاوائل الذين استقروا في مدينة فاس بعد ابنائها في مكان يدعى عين عمير في ضواحي عدوة الاندلسين (١). والاكثر أهمية بالنسبة لناهي الصورة التي تخص تزاوج بني عمير مع البربر من زنانة في فاس والذي رسمه لنا بوضوح كتاب «بيوتات فاس» . فعمير بن مصعب الازدي كان له ثلاثُ نسوة الاولى كما أشرنا بنت ادريس بن أدريس التي تدعى عاتكة . اما الاثنتان الاخريان فهما من البربر « الاولى من بني الخير الزواغيين الزناتيين وكان ساكناً بها مع قومه في الازد وقومها الزواغيين بعين عمير . والثانية من بني بهلول الزناتيين وكان ساكناً بها مع قومها بني بهلول ... نحو فرسخ من مدينة فاس ». (٢)

ان مثل هذا التزاوج كان لابد ان يحدث في فاس بسبب سكنى العرب والبربر جنباً إلى جنب فيها ، وقد أدى هذا إلى اختلاط بعضهم بالبعض الاخر بحيث لم يمض وقت طويل حتى ظهرت نتائج هذا الاختلاط إلى العيان . وفي الواقع ان الجغرافي العربي الادريسي (القرن ٦هـ/ ١٢م) قد لاحظ انه كان « يسكن حولها (فاس) قبائل من البربر ولكنهم يتكلمون العربية وهم بنو يوسف وفندلاوة وبهلول وزواوة ومجاصة وخياته وسلالجيون »(٣). ومن دراسة دقيقة لهذا النص يمكن القول : ان اختلاط القبائل العربية والبربرية في منطقة فاس واضح واكيد . فالقبائل السلالجية على سبيل المثال ، اعتبرت من قبل الادريسي قبائل بربرية متعربة ، ولكنهم في الحقيقة كانوا عرباً قيسيين قطنوا مدينة فاس منذ أيام الادراسة ، كما كشف لنا ذلك كتاب « بيوتات فاس» في قوله : « بيت بني السلالجي ، بيتهم بيت ثروة وفقه ، وهم من العرب القيسيين ، منهم الفقيه الامام المعروف بالسلالجي ... توفي في فاس عام اربعة وتسعون وخمسمئة » (٤) .

---

(١) بيوتات فاس ، ص ١٠ - ١٣ .

(٢) بيوتات فاس ، ص ١٣ .

(٣) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٤) بيوتات فاس ، ص ٤٥ ؛ انظر ايضا الكتاني ، سلوة الانفاس ، ج٢ ص ١٨٣.

وعلى اية حال ان اندماج القبائل العربية مع القبائل البربرية في المنطقة لمدة طويلة، كان السبب في عدم تمكن الادريسي من تمييز نسبهم القيسي — العربي . وعلاوة على ذلك نستطيع ان نتوصل من نص الادريسي ايضاً على التأثير العميق للاختلاط العربي — البربري في فاس ، والذي ينعكس بصورة واضحة في هيمنة اللغة العربية بين القبائل البربرية في هذه المنطقة. فقبيلة بني بهلول التي كانت تتكلم العربية على أيام الادريسي (ق ٦هـ/١٢م) هي في الحقيقة ، كما يذكر كتاب «بيوتات فاس» ، وكما أشرنا سابقاً ، قبيلة بربرية عاشت في فاس مع العرب الازد منذ أيام الأدراسة ، ودخلت في علاقات زواج مع القبائل العربية الموجودة هناك .

ومن مظاهر الاختلاط بين العرب والبربر والتي يعكسها لنا الكتاب، موضوع البحث ، ماأورده مثلاً عن وجود بيتين يرجع نسبهما إلى قبيلة لواته (١) ؛ الاول هو بيت بني دجانة « وهم من قبيلة لواته ، ولواته من البربر الداخلين مع العرب إلى المغرب ، انقرض عقبهم» (٢). اما الثاني فهو «بيت بني لواته ، ولواته من العرب الداخلين مع البربر إلى المغرب لهم زقاق بفاس يقال له حارة لواته ، ومنهم الفقيه الحسن اللواتي ، كان على عهد مغراوة ، ومنهم ولده الفقيه علي بن الحسن اللواتي كان على عهد لمتونة وفيهم الولي الصالح علي اللواتي كان على عهد الموحدين (٣). ولذلك نجد في فاس اسرتين من قبيلة لواته البربرية احداهما عربية والاخرى بربرية ، وان هذا ليقوم خير دليل على الاختلاط النسبي الذي حدث في هذه المدينة .

ويبدو أن الامتزاج العربي — البربري في فاس أصبح بمرور الزمن أكثر [illegible]

---

(١) لواته قبيلة بربرية كبيرة من البتر ولها تفرعات كثيرة .

(٢) بيوتات فاس ، ص ٣٥ .

(٣) ن . م . ص ٣٦ .

عدد من البيوتات الشهيرة في فاس . فهو في كثير من الأحيان لم يسجل نسبها ، مثل بيت بني صوال ، بيت بني عبد الرزاق وبيت الحضرميين وغيرهم(١) . أو انه يشك في نسبهم بالقول « أظن أن نسبهم يرجع إلى قوم كذا » . فعلى سبيل المثال ، وفي معرض حديثه عن أسرة بني قوري يقول : « بيت بني قوري ، وهم من العرب ، وأضنهم من صنهاجة وبيتهم بيت علم وفقه وعدالة وثروة وحسب ، ولهم املاك كثيرة داخل فاس وخارجها» (٢). وكذلك الحال بالنسبة لاسرة بني فلّة حيث يقول عنهم «بيت قديم بفاس وأظنهم من البربر» (٣) وغيرهم (٤) .

ومما تقدم ، يمكن القول ، ان كتاب «بيوتات فاس» يكشف لنا طبيعة تطور الوجود العربي في المغرب الأقصى والاختلاط والامتزاج الذي حصل في مدينة من أهم مدنه، الاوهي مدينة فاس ، وهو امر لم يتناوله أي مؤلف تاريخي آخر بهذه الصورة .

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) ن . م . ، ص ٨٩ .

(٤) انظر القائمة أدناه .

قائمة تفصيلية باسماء البيوتات الفاسية ، اصولها وانسابها كما وردت في كتاب «بيوتات فاس الكبرا »

البيوتات العربية :

١ — بيت بني الملجوم ، عرب من الازد (قحطانية) قدموا من الأندلس أيام الحاكم الادريسي أدريس ابن أدريس .

٢ — بيت الشرفاء الصقليين ، من احفاد الحسين بن علي (ع) قدموا من الأندلس ، ويدعون بالطاهريين نسبة إلى جدهم طاهر الصقلي .

٣ — بيت بني أبي منديل يعرفون بالانصاريين ، وعلى مايبدو، انهم قدموا من القيروان .

٤ — بيت بني عمر ، من قبيلة فزارة العربية (عدنا نيين) .

٥ — بيت بني حزب الله ، من العرب الخزرج ، وقد قدموا من الأندلس .

٦ — بيت بني عشرين من الخزرج (قحطانيون)، .

٧ — بيت بني اللواتي من واته من العرب الداخلين مع البربر، إلى المغرب .

٨ — بيت بني بكّار ، من بني كلب من قبيلة كنانه العدنانية . . وقد قام جدهم راشد الى المغرب الأقصى مع أدريس بن عبد الله موسى الاسرة الادريسية .

٩ — بيت بني فرقاجة من الخزرج، .

١٠ — بيت بني جنين من العرب من كنانة، .

١١ — بيت بني بكار قيسية (عدنانية)، .

١٢ – بيت بني يسكر ، كنانيون وفد جدهم من المشرق إلى فاس على أيام الحاكم الادريسي أدريس بن عبد الله .

١٣ – بيت بني وشون هذيلون عرب .

١٤ – بيت بني أبي حاج قرشيون ، وهم بيت أبي عمران الفاسي ، الفقيه المشهور

١٥ – بيت بني السلاجي مـن العرب القيسيين .

١٦ – بيت بني البان من الازد .

١٧ – بيت بني الملجوم من العرب الازد .

١٨ – بيت بني حذور عرب انصار من الخزرج قدم جدهم مع وفود المشرق التي جاءت إلى إدريس ابن أدريس بن عبد الله .

١٩ – بيت بني عتيق المعروفين بالعبدريين من بني عبد الدار ، من قريش .

٢٠ – بيت بني الفرديس عرب من تغلب (عدنانية) ، .

٢١ – بيت بني رضوان يعرفون بالنجاريين من الخزرج الانصار ،

٢٢ – بيت بني السراج حميريون .

البيوتات البربرية :

١ – بيت بني قذّة بيت قديم في فاس يظنهم من البربر ، .

٢ – بيت بني المزدغي من مزدغة قبيلة من البربر ، .

٣ – بيت بني الاوربي من البربر من أوربة (من قبائل البرانس) ،

٤ – بيت بني المكودي بربر من بني مكود .

٥ – بيت بني الزواوي من البربر من قبيلة زواوة ، أصلهم من مدينة بجاية في تونس .

٦ — بيت بني المغيلي من قبيلة مغيلة من البربر .

٧ — بيت بني الزرهوني من برابرة جبل زرهون (بالقرب من، من فاس) .

٨ — بيت بني أبي الفضل من البربر .

٩ — بيت بني شيبون من البربر .

١٠ — بيت بني علي من البربر .

١١ — بيت بني دبوس بربر من بني يفرن (من قبائل زناتة) .

١٢ — بيت بني حمد من البربر من بني يفرن .

١٣ — بيت بني ياسين من قبائل جزولة البربرية، وهم من بني عبدالله بن ياسين مؤسس الحركة المرابطية.

١٤ — بيت بني عزانة من البربر من قبيلة عزانة .

١٥ — بيت بني دجانة من قبيله لواته من العرب الداخلين مع العرب الى المغرب .

١٦ — بيت بني شلوش من البربر .

١٧ — بيت بني الودون من قبيلة زواغة البربرية (من البربر البتر)، ومنهم بنو الخير الزواغيون اصحاب مرضع حي الاندلسيين بفاس قبل ان يشتريها منهم ادريس بن ادريس .

١٨ — بيت بني الاوربيين من أوربة من البربر .

١٩ — بيت بني الولي من قبيلة مغراوة وهي فرع من زناتة من البربر .

٢٠ — بيت بني المعمودي من البربر من قبيلة معمودة .

٢١ — بيت بني حنون من البربر .

٢٢ — بيت بني زكون، بيت فقه وثروة وترف في فاس ويظنهم من البربر.

٢٣ – بيت بني خنوسة	من معمودة من السوس (جنوب غربي، المغرب الاقصى).
٢٤ – بيت بني الغازي	بربر .
٢٥ – بني بني العجوز	بربر .
٢٦ – بيت بني الاوربيين	من اوربة من البربر .
٢٧ – بيت بني مليل	من البربر ،.
٢٨ – بيت بني هشام	بيت فقه وعدالة يظنهم من البربر .
٢٩ – بيت بني الجزولي	من قبيلة جزولة من السوس.
٣٠ – بيت بني عبد الحق	من البربر .
٣١ – بيت بني القبّاب	بيت فقه وعداله يظنهم من البربر، قدموا من الاندلس على ادريس بن ادريس .
٣٢ – بيت بني الملياني	بيت عدالة وثروة وكتابة في فاس يظنهم من البربر .
٣٣ – بيت بني الغماري	من قبيلة غمارة من البربر .
٣٤ – بيت بني الخبّا	من البربر .
٣٥ – بيت بني عبودة	بربر .
٣٦ – بيت الموحدين	بربر من الصامدة، وهم مؤسسوا الدولة الموحدية .
٣٧ – بيت بني أبي مدين	من قبيلة زواوة من من بجاية في تونس.
٣٨ – بيت بني الورياغلي	بربر من زناتة .
٣٩ – بيت بني السكان	من مكناسة من قبائل زناتة .
٤٠ – بيت بني مسوفه	بربر من بني يفرن (من زناتة).

٤١ — بيت بن ابي العافية من مكناسة بربر (من زناتة) .
٤٢ — بيت بني المسونيين من بني يفرت بربر (من زناتة) .

البيوتات الصنهاجية «عرب حميريون» في فاس:

١ — بيت بني الغديري من صنهاجة الغرب من حمير عرب .
٢ — بيت بني المليلي من صنهاجة الذين بجور مدينة أزمور ، (في وادي أم الربيع في المملكة المغربية)
٣ — بيت بني الخلُوف بيت ثروة ونسب بفاس ، عرب صنهاجيون ، من ضهاجة الصحراء .
٤ — بيت بني المليلي صنهاجيون حميرون .
٥ — بيت بني القوري — وهم من العرب ويظنهم من صنهاجة .

البيوتات التي لم يذكر نسباً لهم:

١ — بيت بني صوال .
٢ — بيت بني زنّوبة .
٣ — بيت بني زنُبق .
٤ — بيت بني عبد الرزاق .
٥ — بيت بني جشار .
٦ — بيت بني يزناسن .
٧ — بيت النشتالي .
٨ — بيت بني الجنياري .
٩ — بيت بني الحضرميين .
١٠ — بيت بني الحُميدنيين .

كما ارجع كتاب« بيوتات فاس» بيت بني مُلوُله الى أصل فارسي .

الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية لسبط المارديني

تحقيق وتعليق
الدكتور صباح محمود محمد
معهد الدراسات الاسيوية والأفريقية — الجامعة المستنصرية

مقدمة

هذه رسالة في الربيع المجيب لبدر الدين محمد سبط المارديني موسومة بـ (الرسالة الفتحية في الاعمال الجيبية) تبرز فيها عبقرية العرب وانجازاتهم في الفلك والرياضيات وبشكل خاص في علم المثلثات. فالعرب «أول من اكتشف حركة الشمس في الاوج وعينوا مبادرة الاعتدالين تعييناً دقيقاً واكتشفوا النقص المستمر في انحراف سمت الشمس والاضطرابات التي تعرض للقمر وهو في عرضه الاقصى واضطرابات السيارات في افلاكها وجروا شوطاً طويلاً في حساب الاختلاف الثالث في حركة القمر ورأوا الكلف على سطح الشمس وحسبوا بالضبط عبور عطارد على سطحها. واصلحوا قيمة مبادرة الاعتدالين وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء وتناقصها التدريجي البطيء وطول السنة الاعتيادية والسنة النجمية وأول من وجد مباشرة بطريقة علمية قانونية كاملة طول درجة من خط الهاجرة او خط نصف النهار وانشأوا عدة مراصد متقنة وصححوا جداول حركات القمر وعرفوا استدارة الارض وعملوا بموجب هذه المعرفة»(١) .

(١) منصور حنا جرداق : القاموس الفلكي . بيروت ١٩٤٩ ص ١٩

ان معرفة موضع الكعبة وتحديد مواقيت شروق الشمس وطلوع القمر وتنظيم صوم رمضان ومسح الاراضي لتقسيم الضياع الموروثة وغير ذلك من العوامل دفعت العرب الى انشاء طرق رياضية بسيطة وعاملية ودقيقة(١)، ان العالم مدين للعرب بما يعرف بـ(النسب المثلثية Trigonometrical Ratios) على الوجـه الذي لا تزال تستعمل به حتى يوم الناس هذا وباحلال الجيب Sine محل الوتر Chord وباصطناع الظلال Taugents وظلال التمام Cotangents (٢) كما تشير المستشرقة الالمانية الدكتورة زيغريد هونكـة ، الى ان العرب قد صنعوا آلات فلكية دقيقة بها الربع الحائطي والربع السمتي والربع المتنقل كما اخترعوا مسدسات Hexagoo ومثمنات octogon السطوح (٣) وفي علم المثلثات وضع العرب مبدأ الجيب Sinus والمماس Tangent والاشكال الاساسية في حساب المثلثات فخلقوا بذلك ميداناً ذا اهمية عظمى في الملاحة البحرية وتسوية ومسح الاراضي حيث (استعملوا مكان اوصال الاقواس في الربع الدائري، جيب الاطراف والزوايا في المثلث الدائري، واضافوا وظائف جيب تمام الزاوية Cosinhs والمماس Tangeus ومماس التمام Cotangens وحسبوا اجداول الجيب والمماس)(٤)

ان رسالة المارديني هذه تبرز بشكل قاطع ، من خلال ما عرضه من اعمال ومسائل تخص حساب المثلثات الفلكية وغيرها ، الابداعات والاكتشافات العلمية العربية التي تشكل حلقة اساسية ومتقدمة في تطور العلوم على سطح البسيطة.

---

(١) روم لاندو : الاسلام والعرب . ترجمة منير البعلبكي . بيروت ١٩٧٧ وعبد الحميد محمود سماحة : مقدمة في علم الفلك . القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٢٦ — ٢٣٠ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ وميخائيل عبد الاحد : الموسوعة الفلكية — الموصل ١٩٧٧ص ١٨ — ٢٥.

(٢) لاندو ، المصدر السابق ص ٢٥٢ .

(٣) د. زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب — ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت ١٩٨٠ ص ١٤١ .

(٤) المصدر السابق ص ١٦٠ — ١٦١ .

سبط الماردیني (٢)

ابوعبد الله جمال الدين محمد بن محمد بن احمدبن محمد بن احمد بن محمدٌ بن احمد بن محمد الغزالي، الدمشقي الاصل . القاهري المولد، الشافعي ، المعروف بـ(سبط الماردیني)(١). ولد في ١٤ ذي القعدة سنة ٨٢٦هـ وتوفي بالقاهرة سنة ٩٠٢هـ. حفظ القرآن وأخذ ألفية النحو وبعض المناهج في الجامع الأزهر، وتتلمذ على يد ابن المجدي لينهل الفرائض والحساب والميقات، ولازم العلاء القلقشندي في الفرائض والفقه وأخذ عنه الفصول لابن الهائم وتقسيم الحاوي ومهجته والمناهج والمهذب وقرأ عليه البخاري والترمذي. وحضر دروس القاياتي والبوتيجي والكريم العقبي والرشيدي وغيرهم في القاهرة. كما سمع على ابي الفتح الراغي بمكة الشريفة وابن الفقيه بدمياط. وقال السخاوي بأنه تصدى للاقراء وانتفع به الفضلاء في الفرائض والحساب والميقات

(١) انظر في ترجمته المصادر التالية : السخاوي ؛ الضوء اللامع لاهل القرن التاسع . الجزء التاسع بيروت ص ٣٥ — ٣٦ ، الشوكاني ؛ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. القاهرة ١٣٤٨ هـ . الجزء الثاني ، ص ٢٤٢ . اسماعيل باشا البغدادي ؛ هدية العارفين. طهران ١٩٤٧ الجزء الثاني ص ٢١٩ . رضا كحالة : معجم المؤلفين ، دمشق ١٩٦٠ ج ١١ — ١٢ ص ١٨٨ . الزركلي : الاعلام . ج ٧ ط ٢ ص ٢٨٢ .

(٢) ماردين : يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان (دار الكتاب العربي . بيروت . المجلد الخامس ما نصه) قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وذلك الفضاء الواسع وقدامها ربض عظيم فيه اسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخانقاهات ودورهم فيها كالدرج كل دار فوق الاخرى وكل درب منها يشرف على ما تحته من الدور ليس دون سطوحهم مانع وعندهم عيون قليلة وجل شربهم من صهاريج معدة في دورهم ..... وقد ذكرت في الشرح ... قالوا : وكان فتحها وفتح سائر الجزيرة في [illegible] الادريسي في نزهة المشتاق انه بالقرب من نصيبين (جبل ماردين .. وعليه قلعة بناها حمدان [illegible] الباري الاشهب) د. ابراهيم شوكة : تحقيق الجزيرة والعراق من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي . مستل من المجلد الثالث والعشرين من مجلة المجمع العلمي العراقي — بغداد ١٩٧٣ ص ١٤ — ١٥ والنظر : الاصطخري المسالك والممالك . تحقيق د. محمد جابر . دار القلم ١٩٦١ ص ٥٢ — ٥٣ .

والعربية وغيرها ... وباشر الرياسة في اماكن بل تصدر جامع طولون وعمل فيه اجلاساً((١) واشتهر بعمله موقتاً بالجامع الازهر «وعرف بالذكاء مع حسن العشرة والتواضع والرغبة في الممازحة والنكتة والنادرة وامتهان نفسه وترك التأنق في امره واشير اليه بالفضيلة»(٢). زار الماردينى مكة حاجاً واتصل بعلمائها، كما زار القدس الشريف غير مرة وعرج على دمشق مرتين وحماه والمناطق المجاورة لها .

تآليفه وتصانيفه:

كان الماردينى، رياضياً، فرضياً، فلكياً، ونحوياً، ولذلك فهو قد وضع تصانيف وتآليف وشروحاً في الرياضيات والفرائض والفلك والنحو، نذكر منهـا :

١ ــ ارشاد الطلاب الى وسيلة الحساب: وهي شرح لوسيلة الحساب لابن الهائم

٢ ــ تحفة الاحباب في علم الحساب .

٣ ــ اظهار السر الموذوع في العمل بالربع المقطوع.

٤ ــ فتح الوهاب في حل (حاوي تلخيص الحساب) لابن الهائم .

٥ ــ رسالة في نصب الخيط .

٦ ــ كفاية القنوع في العمل بالربع الشمالي المقطوع .

٧ ــ المطلب في العمل بالربع المجيب.

٨ ــ مقدمة في العمل بالربع المستتر.

٩ ــ هداية السائل في العمل بالربع الكامل.

١٠ ــ رسالة الورقات (الاشارات) في العمل بربع الدائرة الموضوع عليه المقنطرات .

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع، مصدر سبق ذكره ص ٣٦.
(٢) المصدر السابق ص ٣٦ .

١١ — وسيلة الطلاب ونزهة الالباب إلى معرفة الاوقات بالحساب.
١٢ — تدريب العامل بالربع الكامل.
١٣ — رقائق الحقائق في حساب الدرج والدقائق.
١٤ — زبد الرقائق في حساب الدرج والدقائق.
١٥ — (القول المبدع في شرح المقنع) او (الممتع في شرح المقنع).
١٦ — الدر المنثور في العمل بربع الدستور.
١٧ — لقط الجواهر في تحديد الخطوط والدوائر
١٨ — حاوي المختصرات في العمل بربع المقنطرات.
١٩ — تحفة المختصرات في معرفة القبلة واوقات الصلوات.
٢٠ — جداول رسم المنحرفات على الحيطان.
٢١ — الملق الماردينيه في شرح الياسمينية (في الجبر والمقابلة)
٢٢ — نظم الجوهر الغالي في العمل بالربع الشمالي
٢٣ — الطراز المذهب في العمل بالربع المجيب.
٢٤ — المنصورية في علم الميقات.
٢٥ — رسالة في علم الوقت في العمل بربع الدائرة.
٢٦ — الطرق السنية في العمل بالنسبة الستينية.
٢٧ — تصحيح الساعة
٢٨ — رسالة في المنحرفة والشاخص.
٢٩ — رسالة الاستيعاب للعمل بصدر الوزة وجناح الغراب (في الميقات)
٣٠ — قرة عين الناظر في معرفة وضع خطوط فضل الدائر.
٣١ — الرسالة الفتحية في الاعمال الجيبية.
٣٢ — كشف الغوامض في الفرائض.
٣٣ — شرح القطر لابن هشام في النحو.

٣٤ ــ شرح الرحبية (في الفرائض) .
٣٥ ــ المواهب السنية في أحكام الوصية (في الفقه) .
٣٦ ــ ارشاد الفارض إلى كشف الغوامض (وهو شرح لكتابه) .
٣٧ ــ قرة العين في بيان المذهبين (في الفرائض) .
٣٨ ــ السر المودوع في ترتيب الجموع (مجموع الكلائي) (فرائض) .
٣٩ ــ شرح شذور الذهب (في النحو) .
٤٠ ــ شرح فرائض الحوفي .
٤١ ــ شرح فرائض السراحية .
٤٢ ــ شرح الفصول المهمة في علم ميراث الامة .
٤٣ ــ القول المجتبي .
٤٤ ــ اللمعة الشمسية على التحفة القدسية .
٤٥ ــ مقاصد الطلاب في معرفة مسائل الحساب .
٤٦ ــ شرح التوضيح (في النحو) .
وغير ذلك من المؤلفات والمصنفات (١)

الرسالة الفتحيــه في الأعمال الجيبيه

تعتبر الرسالة الفتحية من أعمال وتصانيف المارديني المهمة التي تعالج مسائل العمل بالربع المجيب ، اشتملت على مقدمة وعشرين باباً ، تضمنت المقدمة تسمية رسوم الربع كالمركز والمرى والشاقول والشظيتان وقوس الارتفاع وخيط الزوال وجيب الستيني وغير ذلك . كما تناولت الابواب ، معرفة جيب القوس وقوس الجيب ومعرفة الميل الاول وغاية الارتفاع لكل

(١) إنظر في تصانيفه الفلكية والرياضية بشكل تفصيلي كتاب المرحوم عباس العزاوي : تاريخ علم الفلك في العراق وعلاقته بالاقطار الاسلامية والعربية في العهود التالية لايام العباسيين . بغداد ١٩٥٨ ص ١٨٧ – ١٩٦ . وانظر ايضا الضوء اللامع للسخاوي ص ٣٦ وهدية العارفين البغدادي ص ٢١٩ .

يوم ومعرفة عرض البلد والقبلة وغير ذلك من الامور الفلكية والجغرافية .

وبالنظر لاهمية وشهرة هذه الرسالة فقد نظمت شعرا وشرحت من اكثر من واحد من علماء الهيئه والفلك كما يلي :

١ – النسمه النفحيه (١) : للشيخ علي بن محمد بن علي بن غانم، وهي نظم للرسالة الفتحيه مطالعها

قال علي وهـو ابن غانـــم   كان مــن الخيــرات خير غانم

٢ – توضيح نظم الرساله الفتحيه: للشيخ علي بن محمد بن علي بن غانم، وهو شرح لنظمه الرسالة

٣ – التحفه السنيه في نظم الرساله الفتحيه: مجهول الناظم (٢).

٤ – شرح على رسالة الشيخ بدرالدين، محمد بن محمد بن احمد سبط المارديني (٣).

٥ – الشمس المضيه على الرساله الفتحيه في العمل بالربع المجيب: ليوسف بن محمد المالكي (ت١١٧٣هـ) (٤).

٦ – شرح رسالة العمل بالربع المجيب لبدر الدين المارديني: لاحمد بن عبد الحق السنباطي (ت – ٩٩٥هـ) (٥).

(١) ضمن مخطوطات المرحوم قاسم محمد الرجب مجموعة منها : النسجة النفحية في نظم الرسالة الفتحية وهي منظومة في علم الجيب . انظر : كوركيس عواد : فهرست المخطوطات العربية في خزانة قاسم محمد الرجب ببغداد مستلة من المجلد ١٢ من مجلة المجمع العلمي العراقي . بغداد ١٩٦٥ ص ١٩ .

(٢) – نسخة خطية في خزانة الحجار في حلب . العزاوي ص ١٩١ .

(٣) نسخة خطية في خزانة المجمع العلمي العراقي . ابراهيم خورشيد ارسلان : فهارس الرقيقات لمكتبة مخطوطات المجمع العلمي العراقي . بغداد ١٩٨١ ص ٤٧.

(٤) نسخة خطية في خزانة المجمع العلمي العراقي . ارسلان ص ٢٩ .

(٥) ثلاث نسخ خطية مكتبة الاوقاف العامة ببغداد برقم ١/١٤١٢١ ، ١/٩٤٢٨ ، ٥/٥٠٠٥ مجاميع انظر د. عبدالله الجبوري . فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الاوقاف العامة. ج ٤ ص ١٤٨ ونسخة في خزانة الازهر ونسختان في دار الكتب المصرية . العزاوي ص ١٩٢ .

٧ — شرح لم يعرف مؤلفه . (١)
٨ — شرح آخر لم يعرف مؤلفه (٢) .
٩ — شرح ايضا طبع في مطبعة الترقي الماجديه بمكه المكرمه سنة ١٣٢٩هـ وبهامشه رساله للشيخ ابراهيم الرباطي (٣) .
١٠ — الفتوحات الوهبية بشرح الرسالة الفتحية : للشيخ علي البنتيتي الموقت بالجامع الازهر (٤).
١١ — رسالة مختصرة في معرفة العمل بالربع المجيب وهي اختصار للرسالة الفتحية لمؤلف مجهول (٥) .

تحقيق الرسالة :

تتوفر نسخ خطية من الرسالة الفتحية في الأماكن التالية :
١ — نسخة في خزانة رئاسة المطبوعات في كابل بأفغانستان (٦).
٢ — نسخة في خزانة الازهر.
٣ — نسخة في دار الكتب المصرية
٤ — نسخة في خزانة المرحوم عباس العزاوي .
٥ — نسخة في خزانة الاستاذ كوركيس عواد
٦ — نسخة في خزانة مكتبة الاوقاف العامة ببغداد كتبها عبد الله بن الحاج حسن النورقولي سنة ١٠٩٢هـ. وقد رمزنا لها بالحرف (أ) (٧).

(١) نسخة خطية في خزانة الازهر ضمن مجموعة . العزاوي ص ١٩١ .
(٢) نسختان خطيتان في خزانة الازهر . العزاوي ص ١٩٢ .
(٣) العزاوي ص ١٩٢ .
(٤) نسخة خطية في دار الكتب المصرية . العزاوي ص ١٩٢ .
(٥) نسخة خطية في خزانة الازهر . العزاوي ص ١٩٢ .
(٦) ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ : العزاوي ص ١٩٠ — ١٩١ .
(٧) برقم ٥٥٠٠/٤ مجاميع . الجبوري — ص ١٤٢ .

٧ ــ نسخة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الاداب بجامعة بغداد برقم ١/٣٣ ضمن مجموعة فيها ايضاً رسالة في العمل بالربع المجيب بالتركية لسليمان الشهري المعروف بشيخي، كتب في الورقة الاخيرة ان «الناسخ ابراهيم ونجاتي من تلاميذ ابراهيم دده سنة ١١٧١هـ» وقد رمزنا لها بالحرف (ب) .

٨ ــ نسخة في خزانة الاوقاف العامة ببغداد ضمن مجموعة كتبت سنة ١٢٠٥هـ وقد رمزنا لها بالحرف (ج) (١) .

٩ ــ نسخة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الاداب بجامعة بغداد برقم ٣٨٥، كتبت سنة ١٢٤٠هـ وناسخها هو مصطفى النبهاوي. وقد رمزنا لها بالحرف (د) .

١٠ ــ صورة لنسخة خطية عند الاستاذ الدكتور ابراهيم شوكت حسنة الخط، لم يذكر ناسخها وتاريخ نسخها وقد رمزنا لها بالحرف (هـ) .

لقد اعتمدت في تحقيق الرسالة على النسخ الخمس الاخيرة واتخذت من نسخة مكتبة الاوقاف رقم ٥٥٠٠/٤ مجاميع اساساً للتحقيق والنسخ الاربع الأخرى لتكملة النقص او عدم الوضوح في النسخة الاولى والاشارة إلى الزيادات الواردة ايضاً .

عسى أن اكون قد وفقت في اخراج هذا الاثر الرياضي الفلكي الرائع.

....

(١) برقم ٢٣٥٦/٧ مجاميع . الجبوري ص ١٤٢ .

الرّسالة الفتحية في الأعمال الجيبيّة

لبدر الدين محمد سبط المارديني

بسم الله الرحمن الرحيم (وبه ثقتي) (١)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله اجمعين (٢) .

وبعد فهذه رسالة في العمل بالربع المجيب (٣) مشتمله على مقدمه وعشرين بابا (سميتها الرساله الفتحيه في الاعمال الجيبيه)(٤) فالمقدمه في تسمية رسموسة واولها المركز (٥) وهو الخرم الذي فيه الخيط وقوس الارتفاع (٦) .

هو المحيط بالربع مقسوم تسعين قسما متساويه مكتوبه اعدادها طرداً او عكسا ،

---

(١) زيادة في نسخة (د) .

(٢) اما نسخة ب فتبدأ (قال الشيخ الامام العلامه فريد دهره بدر الدين محمد بن احمد سبسط الماردني رحمة الله عليه وغفر له وللمسلمين، الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم) بينما تبدأ نسخة (د) بـ(يقول الشيخ الامام العالم العلامه امام الفرضيين والموقتين بدر الدين محمد سبط الماردني : الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى اله وصحبه اجمعين)

(٣) الربع المجيب : «آلة فلكيه رياضيه استعمل الى جانب الاسطرلاب لبساطته ولسهولة العمل به وهو ربع دائره اقتطع منها وسمي بالربع المجيب المقطوع والربع المقنطر ، نقشت عليه الرسوم التي يتطلبها الفلكي والرياضي في اعماله الفلكيه والرياضيه ..... والربع المجيب يستعمل لاغراض كثيره متعددة ووجوه مختلفه في المجالات الفلكيه والرياضيه والجغرافيه واعمال المثلثات وجيوبها واللوغاريتمات ومعرفة البروج ...وعرض البلد واتجاه القبله.. ومطالع الغروب والزوال ....وعمق الابار وسعة الانهر» وغير ذلك . انظر : ناصر النقشبندي «الربع المجيب والمقنطر» .

مجلة سومر، ج١ — ٢، المجلد ١٨، ١٩٦٠، ص٢٤ — ٤٣ .

(٤) زيادة في نسخة ب و د .

(٥) المركز : «هو الخرم الكائن في رأس الزاويه القائمه من الربع ويسمى القطب ايضاً » النقشبندي ص٢٤ والقطب في الاسطرلاب هو الذي في مركز الصفائح والعنكبوت. عبدالرحمن الصوفي : كتاب العمل بالاصطرلاب . حيدر آباد الدكن ص٣

(٦) قوس الارتفاع : (هو القوس المحيطه بالرسوم اى وتر الربع المقوس مقسومه الى تسعين درجه متساويه مكتوب عليها اعدادها بالحروف الابجديه) النقشبندي ص٤٤ .

واولها من جهة يمين الناظر اليه، الخط الايمن الواصل من المركز الى اول قوس الارتفاع يسمى جيب التمام ، والخطوط المستقيمه النازله منه الى القوس تسمى الجيوب المنكوسه (٧) والخط الايسر النازل من المركز الى آخر القوس يسمى الستيني (٨) والخطوط المستقيمه النازله منه الى القوس تسمى الجيوب المبسوطه (٩) وابتداء عدد الجيوب من المركز ولا يحتاج لغير ذلك واما الهدفتان (١٠) والخيط والمرى(١١) والشاقول(١٢). فمعلوم كله .

(٧) الجيوب المنكوسة : هي الخطوط النازلة من المركز إلى أول قوس الارتفاع .

(٨) الستيني : أي جيب الستيني وهو الخط النازل من المركز إلى آخر قوس الارتفاع.

(٩) الجيوب المبسوطة : وهي الخطوط المستقيمة النازلة من المركز إلى آخر القوس.

(١٠) الهدفتان : او الدفتان او اللبنتان المثقوبتان الخارجتان على شكل الربع وتكونان في طرفي خط المشرق والمغرب وقد توضعان في طرفي خط نصف النهار . وفي الاصطرلاب قال الصوفي(هما الشظيتان المركبتان على العضادة في كل واحد منها ثقب صغير ليرصد به الشمس عند أخذ الارتفاع ليدخل شعاع الشمس من ثقب الشظية العليا وينفذ في ثقب الشظية السفلى) ص٢ .

(١١) المرى: ((هو الخيط المثبت بالخرم والنازل إلى القوس وقد يكون من الوجهين اذا كانت الرسوم على وجهي الربع)) النقشبندي ص٤٣ . المرى في الاصطرلاب هي الزيادة التي تكون في رأس الجدي ، كما توجد مايسمى ((مريات الكواكب)) والتي هي الرؤوس المدببة في العنكبوت وقد كتب عليها اسماء الكواكب الثابتة المظروفة ورأسها يشير إلى موقع الكواكب ، كما توجد أيضاً مايسمى ((مريات العادة)) والتي هي الرؤوس المدببة في نهايتي العضادة وتشير الارقام الموجودة على حافة الاصطرلاب او تشير إلى الزوايا في سبيل أخذ الارتفاع او الظلال او الجيوب .
انظر : د . ابراهيم شوكة : تيسير العمل بالاصطرلاب مستل من المجلد ٢٢ من مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٧٣ ص١٢ والصوفي ص٣ .

(١٢) الشاقول : هو الثقل المربوط في نهاية المرى . النقشبندي ص٤٣ .

الباب الاول : في معرفة اخذ الارتفاع

وطريقة ان تمسك الربع بيديك وتعلق في خيطه شاقولا وتجعل طرفه الخالي عن الهدفتين في جهة الشمس حرك الربع بيدك حتى يستتر ظل الهدفه العليا السفلى فما جازه الخيط من قوس الارتفاع من جهة الخيط الخالي عن الهدفتين فهو الارتفاع .

الباب الثاني : في معرفة جيب القوس وقوس الجيب

عدّ من اول قوس الارتفاع بقدر القوس المطلوب جيبها، وادخل من نهايته في الجيوب المبسوطه الى الستيني فما وجدته من اعداده المستويه جيب تلك القوس. واعلم ان تلك الجيب لايزيد على ستين وان (عددت) (١) من مستوى الستيني بقدر الجيب المطلوب قوسه ونزلت من نهايته في الجيوب الى القوس فما وجدت من اوله ذلك الجيب .

الباب الثالث : في معرفة الميل (٢) الاول وغاية الارتفاع لكل يوم فرض

ضع الخيط على الستيني وعلّم بالمرى على اربعة وعشرين من اجزائه المستويه ثم انقل الخيط الى بعد الدرجه عن اقرب الاعتدالين اليها من اول القوس ثم انزل من المرى في الجيوب المكبوسه الى القوس تجد من اوله الميل الاول وان شئت فضع الخيط على الستيني وعلم على جيب بعد الدرجه عن اقرب الاعتدالين اليها ثم انقل (الخيط (٣) الى الميل الاعظم (٤) من اول القوس

---

(١) (عددت) في نسخة أ .

(٢) الميل هو بعد الشمس او الكوكب من معدل النهار . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ١٢٦

(٣) زيادة في ب وج

(٤) الميل الاعظم : او الميل الكلي او غاية الميل هو زاوية الميل التي تصنعها دائرة البروج مع خط الاستواء وهي مقدار ٢٣ درجة و٣٥ دقيقة .

وهو ((كج) درجه و(له) دقيقه) (١٧).

وانزل من المرى في الجيوب المبسوطة إلى القوس تجد الميل الاول كما تقدم، زده على تمام عرض البلد ان كان الميل شمالياً وانقصه منه ان كان جنوبياً فما كان فهو الغاية في ذلك اليوم .

تنبيه : فان جمعت وزاد الجمع على (ص١٨) فتمام الزائد هو الغاية وتكون موافقة لجهة العرض في هذه الحالة فقط وان شئت فاجمع الميل والعرض ان اختلفا في الجهة وخذ الفضل بينهما ان اتفقا يحصل تمام الغاية.

الباب الرابع : في معرفة عرض البلد

استخرج الغاية بالرصد ثم ان لم يكن ميل فتمامها إلى تسعين هو عرض البلد وان كان ميل فزده على تمامها ان كان مخالفاً للغاية في الجهة وخذ الفضل بين الميل وتمام الغاية إن كان موافقاً لها فما كان فهو عرض البلد.

الباب الخامس : في معرفة بُعد القطر

ضع الخيط على الستيني وعلّم بالمرى (على جيب العرض ثم انقل الخيط

(١٧) كج له : اي ٢٣ درجة و٣٤ دقيقة وفق حساب الجمل عند العرب وهو الحساب بواسطة الحروف المقطعة من ابجد ، هوز ، حطي .... وكل حرف يقابل رقما كالاتي

أ	١	ح	٨	س	٦٠	ت	٤٠٠
ب	٢	ط	٩	ع	٧٠	ث	٥٠٠
ج	٣	ى	١٠	ف	٨٠	خ	٦٠٠
د	٤	ك	٢٠	ص	٩٠	ذ	٧٠٠
هـ	٥	ل	٣٠	ق	١٠٠	ض	٨٠٠
و	٦	م	٤٠	ر	٢٠٠	ظ	٩٠٠
ز	٧	ن	٥٠	ش	٣٠٠	غ	١٠٠٠

انظر : البوزجاني . علم الحساب العربي . تحقيق د. احمد سعيدان . عمان ١٩٧١ ص ٤٤ — ٤٦.

(١٨) ص : اي ٩٠ وفق حساب الجمل عند العرب .

إلى الميل الاول من اول القوس تجد المرى) (١) على بعد القطر من الجيوب المبسوطة وان شئت فعلم في الستيني على جيب الميل ثم انقل الخيط إلى العرض تجد المرى على بعد القطر كما سبق .

الباب السادس : في معرفة الاصل (المطلق) (٢)

ضع الخيط على الستيني وعلم بالمرى على جيب تمام العرض ثم انقل الخيط إلى تمام الميل الأول من اول القوس فما جازه المرى من الجيوب المبسوطة فهو الاصل المطلق. وان شئت فعلم في الستيني على جيب تمام الميل ثم انقل (الخيط) (٣) إلى تمام العرض تجد الاصل (المطلق) (٤)

الباب السابع : في معرفة نصف الفضلة(٥) ونصف القوس (٦) [وقوس النهار (والليل (٧)] (٨)

ضع الخيط على الستيني وعلّم بالمرى على الاصل المطلق ثم حرك الخيط حتى يقع المرى على بعد القطر من الجيوب المبسوطة فما جازه الخيط من اول القوس فهو نصف الفضلة ويسمى نصف التعديل (ايضا) (٩) وما جازه

---

(١) ناقص في نسخة — أ — .

(٢) (الحقيقي) في — د — .

(٣) ناقصة في أ — ب — د .

(٤) زيادة في — هـ — .

(٥) نصف الفضلة : الفرق بين مدة النهار و (١٢) ساعة ويسمى ايضا نصف التعديل ، زيادة النهار او الليل ان كانت هنالك زيادة او نقصان النهار او الليل . د شوكة : تيسير العمل ص ١٤ .

(٦) نصف القوس : اي نصف قوس الليل والنهار .

(٧) زيادة في ب ، ج ، د ، هـ .

(٨) قوس النهار والليل : ومعناه ايجاد طول النهار وطول الليل لاى يوم شئت — انظر د شوكة : تيسير العمل ص ٤ والخوارزمي ص ١٢٨ والصوفي ص١٨— ١٩ وص ٢٠.

(٩) زيادة في ب .

من اخر القوس هو نصف قوس النهار ان كان الميل مخالفا (للعرض) (١) والا فهو نصف قوس الليل فزد نصف الفضلة على تسعين يحصل نصف قوس النهار وان شئت فضع الخيط على قوس الاصل المطلق وعلّم بالمرى على بعد القطر من الجيوب المبسوطة وانقل الخيط إلى الستيني وانزل من المرى إلى القوس تجد من اوله نصف الفضلة ومن آخره نصف القوس بشرطه) (٢) أضعفه يحصل قوس النهار كاملا اسقطه من (شمس) (٣) يفضل قوس الليل كاملا .

الباب الثامن : في معرفة الاصل المعدل (٤) و(٥) (الدائر وفضله) (٦)

اعرف الارتفاع ثم تزد على جيبه بعد القطر في الجنوب وخذ الفضل بينهما في الشمال فما كان فهو الاصل المعدل وضع الخيط على قوس الاصل المطلق وعلّم بالمرى على الاصل المعدل من الجيوب المبسوطة (وانقل الخيط

(١) زيادة في ج ، د ، هـ .
(٢) زيادة في ب ، ج ، د ، هـ .
(٣) ش س اى ٣٦٠ درجة .
(٤) زيادة في ب ، ج .
(٥) زيادة يقتضيها سياق الجملة .
(٦) الدائر وفضله : يقول البيروني عن الدائر من الفلك « اذا عرف مامضى من النهار ثم ضرب ان كانت الساعات مستوية في خمسة عشر وان كانت الساعات معوجة ففي اجزاء ساعات نهار الشمس وهي نصف سدس قوس نهارها » ، التفهيم لاوائل صناعة التنجيم . لندن ١٩٣٤ . ص ١٤٩ .
وجاء في رسالة احمد بن احمد عبد الحق الشافعي شرحا للرسالة الموضوعه في العمل بالربع المجيب للماردني (مخطوطه في خزانة مكتبة الاوقاف العامه ببغداد وبرقم ٥٤٤٤/١) مانصه »وهو اي فصل الدار اصطلاحا الباقي للزوال ان كنت قبله والماضي ؛ ان كنت بعده فضل الداير في الاول بمعنى مادار في الفلك وفي الثاني فضل مايدور منه (والداير اصطلاحا الماضي من الشروق ان كان الارتفاع شرقيا بان كان قبل الزوال والباقي للغروب ان كان الارتفاع غربيا بان كان بعد الزوال فالداير في الاول بمعنى مادار من الفلك وفي الثاني بمعنى مايدور منه) ورقه ٩/ب

إلى الستيني وانزل من المرى في الجيوب المبسوطة (١) إلى القوس تجد في اخره فضل الدائر وهو الباقي للزوال ان كنت قبله والماضي منه ان كنت بعده وما وجدته من اوله زد عليه نصف الفضلة في الشمال وانقصها منه في الجنوب فما كان فهو الدائر وهو الماضي من الشروق ان كان الارتفاع شرقيا والباقي للغروب ان كان غربيا وان شئت فضع الخيط على الستيني وعلّم (بالمرى) (٢) على الاصل المطلق ثم حرك الخيط حتى يقع المرى على الاصل المعدل من الجيوب المبسوطة فما قطعه الخيط من معكوس القوس فهو فضل الدائر وما قطعه من اوله فهو الدائر بشرطه كما تقدم .

تنبيه : متى كنت في الشمال وكان جيب الارتفاع مساويا لبعد القطر ففضل الدائر (ص) (٣) والدائر هو نصف الفضلة ، ومتى اخذت الفضل وكان أقل من بعد القطر (ففضل الدائر) (٤) اكثر من (ص) فزد ماقطعه الخيط من اول القوس على تسعين يحصل فضل الدائر وانقصه من نصف التعديل يحصل الدائر .

الباب التاسع : في معرفة الارتفاع من فضل الدائر

ضع الخيط على الستيني وعلّم على الاصل المطلق ثم انقل الخيط إلى قدر فضل الدائر من معكوس القوس فما وقع تحت المرى من الجيوب المبسوطة فهو الاصل المعدل اجمعه مع بعد القطر في الشمال وخذ الفضل بينهما في الجنوب فما كان فهو جيب الارتفاع .

تنبيه : متى كان فضل الدائر (ص) (٥) فبعد القطر هو جيب الارتفاع

(١) زيادة في ب ، ج ، د ، هـ . —
(٢) زيادة في ب ، ج .
(٣) ص = ٩٠ درجه .
(٤) زيادة في ب ، ج ، د ، هـ .
(٥) ص = ٩٠ درجه

ومتى كان فضل الدائر اكثر من تسعين فضع الخيط على الستيني وعلّم على الاصل المطلق ثم انقل الخيط إلى الزائد على تسعين من اول القوس فما وقع تحت المرى من الجيوب المبسوطة اطرحه من بعد القطر يحصل جيب الارتفاع .

الباب العاشر : في معرفة الظل من الارتفاع والارتفاع من الظل

ضع الخيط على قدر الارتفاع من اول القوس ثم انزل من الستيني بقدر القامه المفروضه الى الخيط وارجع من التقاطع في الجيوب المنكوسة الى جيب التمام تجد من اوله الظل المبسوط (١) وان اردت الظل المنكوس (٢) فانزل من جيب التمام بالقامه المفروضه الى الخيط حال وضعه على قدر الارتفاع من اول القوس وارجع من التقاطع الى الستيني تجد من اوله الظل المنكوس .

تنبيه : فان نزلت بالقامه ولم تلق الخيط فانزل بجزئها الممكن الى الخيط وكمل العمل تجد جزء الظل الموافق للجزء المنزول به من المخرج واما الارتفاع من الظل فانزل بالقامه من الجيوب الموافقه للظل وبالظل من الجهة الاخرى وضع الخيط على تقاطع الجيبين فما جازه الخيط من اول القوس فهو الارتفاع .

تنبيه : فان لم يتقاطع القامه والظل فانزل (بجزئيهما) (٣) المتفقين في المخرج وضع الخيط على التقاطع تجد الخيط على الارتفاع من اول القوس كاملا.

الباب الحادي عشر : في معرفة الدائر بين الظهر والعصر والدائر بين العصر والغروب

استخرج ظل الغايه المبسوط وزد عليه قامته يحصل ظل العصر. استخرج ارتفاعه فهو ارتفاع العصر . اعرف فضل دائرة كما تقدم فما كان فهو الدائر بين الظهر

---

(١) الظل المبسوط : او الظل المستوي والذي يقابل في المثلثات (الظل التمام . ظتا)
د. شوكة : تيسير العمل ص ٩٠ . البيروني : التفهيم ص ١٣٣ .

(٢) الظل المنكوس : او الظل المعكوس او المقبوض والذي يقابل في المثلثات (الظل . ظا).
د . شوكة : تيسير العمل ص٩٠

(٣) في ب ، ج ، د . و (بجزئيها) في أ ، هـ .

والعصر . اسقطه من نصف القوس يبقى الدائر (ما (١) بين العصر والغروب .

الباب الثاني عشر : في معرفة مقدار حصة الشفق (٢) وحصة الفجر (٣) .

زد بُعد القطر على جيب سبعة عشر في الشمال وانقصه من جيب سبعة عشر (في الجنوب(٤) فما كان فهو الاصل المعدل لحصة الشفق، فضع الخيط على الستيني وعلّم على الاصل المطلق وانقل المرى بالخيط (إلى الاصل) (٥) المعدل فما قطعه الخيط من معكوس القوس اسقطه من نصف قوس الليل (فالباقي) (٦) . حصة الشفق الاحمر . وان شئت فزد ما قطعه الخيط من اول القوس على نصف الفضله في الجنوب وخذ الفضل بينهما في الشمال فما حصل او بقي فهو مقدار حصة الشفق وهو مابين غروب الشمس وغروب الشفق الاحمر، وان فعلت ذلك بجيب تسعة عشر حصل مقدار حصة الفجر وهو مابين طلوع الفجر الصادق وطلوع الشمس .

الباب الثالث عشر : في معرفة سعة المشرق والمغرب .

ضع الخيط على الستيني وعلّم بالمرى على جيب تمام العرض ثم حرك الخيط حتى يقع المرى على جيب الميل فما جازه الخيط من اول القوس فهو سعة المشرق وهي مساوية لسعة المغرب وان شئت فضع الخيط على تمام

(١) زيادة في ج ، د .

(٢) الشفق : الشفق الاول هو الحمرة الباقية بعد الشمس في افق المغرب والشفق الثاني هو البياض الباقي بعد الحمرة وهو يغيب عند مضي ثلث الليل وقيل : انه يغيب في نصف الليل . انظر : ابن الاجدابي الازمنه والانواء — تحقيق د . عزة حسن دمشق ١٩٦٤ ص ١١٨ .

(٣) الفجر : اول ضوء يبدو من الصباح ، وهما فجران . فالاول منهما يسمى ذنب السرحان لدقته ، وهو بياض يرى من الافق طويل معترض ويسمى الفجر الكاذب ..... واما الفجر الثاني نور البياض المستطير المعترض في الافق ويسمى الفجر الصادق وهو الصبح وبه يحل وقت الصلاة . ابن الاجدابي ص ١١٢ — ١١٣

(٤) في ب ، ج ، د ، هـ . و (من الجنوب) في أ .

(٥) في ب ، ج . (الأصل) في أ ، د ، هـ .

(٦) في د ، هـ . و (الباقي) في أ ، ب ، ج .

العرض من اول القوس وعلّم بالمرى على جيب الميل ثم انقل (الخيط) (١) إلى الستيني تجد جيب السعة.

الباب الرابع عشر : في معرفة الارتفاع الذي لاسمت له ولا توجد الا بشرطين ، ان تكون الشمس في الشمال وأن يكون الميـل اقـل من العـرض :

ضع الخيط على الستيني وعلّم بالمرى على جيب العرض ثم حرك الخيط حتى يقع المرى على جيب الميل، فما قطعه الخيط من اول القوس فهو الارتفاع الذي لاتسمت (له) (٢) وان شئت فضع (الخيط) (٣) على العرض وعلّم (بالمرى)(٤) على جيب الميل وانقل (الخيط)(٥)إلى الستيني تجد جيب(المطلوب(٦)

الباب الخامس عشر : في معرفة حصة السمت (٧) وتعديله :

ضع الخيط على تمام العرض وادخل من اول (٨) القوس بقدر الارتفاع

(١) زيادة في ب
(٢) زيادة في ب ، ج ، د .
(٣) زيادة في ب ، هـ .
(٤) زيادة في ب .
(٥) زيادة في ب .
(٦) في ب ، ج ، د . و (الخيط) في أ .
(٧) السمت : في الفلك Azimurh هي الزاوية بين الهاجرد والدائرد العظيمه او الكبيره لجرم من الاجرام السماويه او قوس من الافق محصوره بين الدائرتين المذكورتين انظر منصور حنا جرداق : القاموس الفلكي . بيروت ١٩٥٠ ص ١٢٦ . وسمته الرأس Zenith هو نقطه على الكره السماويه (او في السماء) تقع فوق رأس الراصد الثقافة العلمية . دار الكتاب الجديد . مصر ص ١٩٧ والسموات في الاصطرلاب هي القسي أي خطوط الطول الفلكيه المرسومه على الصفيحه . وام السموات او السمت الاول في الاصطرلاب فهو ذلك القوس الذي يلتقى بسمت الرأس من جهة وملتقى دائرة الاستواء وخط الافق وخط المشرق والمغرب . وام السموت هذه تحدد لك شرق افقك وغربه. اما سمت الرؤوس في الاصطرلاب فهي النقطه التي تكون في مركز المقنطرات (خطوط العرض) ، وهي ملتقى كل خطوط السموات (خطوط الطول) انظر : د شوكة ص ٨
(٨) زيادة في ب ، ج .

في الجيوب المبسوطة إلى الخيط وارجع من التقاطع في الجيوب المنكوسه الى جيب التمام تجد من اوله حصة السمت ،اجمعها مع جيب السعة في الجنوب وخذ الفضل بينهما في الشمال فما حصل او بقي فهو تعديل السمت.

تنبيه: فان كان الارتفاع اكثر من تمام العرض كما سبق، انزل من الستيني بنصف جيب الارتفاع او ثلثه او ما امكن (من)(١) الخيط وارجع من التقاطع إلى جيب التمام واضرب ماوجدت في مخرج الكسر المنزول به يحصل حصة السمت.

الباب السادس عشر : في معرفة السمت لكل ارتفاع :

ضع الخيط (على الستيني وعلّم بالمرى على جيب تمام الارتفاع ثم حرك الخيط)(٢) حتى يقع المرى على مثل تعديل السمت من الجيوب المبسوطة فما جازه الخيط من اول القوس فهو السمت وجهته جنوب ان كان الميل جنوبا او كان شماليا والارتفاع اكثر من الارتفاع الذي لاسمت له والا فشمال وان شئت فضع الخيط على تمام الارتفاع وعلّم على تعديل السمت ثم انقل الخيط إلى الستيني تجد المرى على جيب السمت، إنزل منه إلى القوس تجد من أوله السمت.

الباب السابع عشر : في استخراج سمت القبلة : (٣)

استخرج الاصل المطلق وبُعد القطر بالميل المساوي لعرض مكه وهو احدى وعشرون درجه ثم ضع الخيط على الستيني وعلّم بالمرى على الاصل

(١) في ه . و (الى) في بقية النسخ

(٢) زيادة في ب ، جـ ، د ، هـ .

(٣) سمت القبلة : هو ملتقى افق البلد والدائرة التي تمر على سمت رؤوس اهل ذلك البلد وبعده عن خط الاستواء او خط الزوال هو مايجب ان ينحرف به المصلي عنها . انظر البيروني ، التفهيم ص ١٣٧ ابن الاجدابي ص ١١٩ — ١٢٥د . شوكة ص ٥٥ — ٦١ مؤلف مجهول : رسالة في معرفة سمت القبله . مخطوطه في خزانة مكتبة الاوقاف العامه ببغداد برقم ١٠/٤٤٤٤د مجاميع . الصوفي ص ٢٩٧ . الاعرج الموصلي : سوانح القريحه في شرح الصفيحه . تحقيق د . صباح محمود محمد . بغداد ص ٣٤ — ٣٥

(المطلق) (١) وانقل الخيط (لفضل) (٢) الطولين من معكوس القوس وهو في مصر اثنا عشر درجه ثم زد على ماجازه المرى من الجيوب المبسوطه بعد القطر يحصل جيب ارتفاع سمت مكه ، فضع الخيط على تمام ارتفاع سمت مكه وعلّم بالمرى على جيب فضل الطولين من الجيوب المبسوطه ثم انقل الخيط الى عرض مكه من اول القوس وانزل من المرى في الجيوب المنكوسه الى القوس تجد من اوله سمت مكه وهو شرقي (ان كانت مكه اطول من بلدك والافهو غربي وشمالي) (٣) ان كانت مكه اعرض من بلدك (او مساويه لها)(٤) وان كانت اقل عرضا من بلدك فاستخرج الارتفاع الذي (لاسمت له)(٥) بالميل المساوي لعرض مكه فان كان اكثر من ارتفاع سمت مكه فسمتها شمالي ايضا وان كان اقل من ارتفاع سمتها فهو جنوبي.

الباب الثامن عشر : في معرفة استخراج الجهات الاربع والقبلة

استخرج سمت الوقت فان كان شرقيا جنوبيا او غربيا شماليا فضع الخيط على قدره من اول القوس والا فمن اخر القوس وثبت الخيط عليه بشمعة او نحوها ثم ضع الربع على الارض مستوية وعلق شاقولا في خيط وساتر بظله خيط الربع من المركز الى المحيط بشرط ان يكون مركزه نحو الشمس فاذا انطبق الظل على خيط الربع كان الربع موضوعا على الجهات وخطه

(١) زيادة في ب ، ج ، د .

(٢) في ب ، ج ، هـ . و (الفضل) في أ

(٣) زيادة في ب ، ج ، د .

(٤) زيادة في ج ، د ، هـ .

(٥) زيادة في ب ، ج ، د .

القلقشندي ص ٤٤ وفي الاصطرلاب هو خط يكون عمودا على خط وتر الارض (خط نصف الليل وهو النصف السفلي من القطر في الاصطرلاب) ونصف النهار (خط وسط السماء او خط الزوال) الذي ينزل عمودا من وسط العلاقه . وهذا هو خط مشرق الاعتدال ومغرب الاعتدال . انظر : د . شوكة ص ١٨ الصوفي ص ٦ ابن الاجدابي ص ١٠٧

الذي ابتدأت منه بعدد السمت هو خط المشرق والمغرب (١) فخط الى جانبي الربع خطين مستقيمين (ومدهما) (٢) الى ان يتقاطعا ويحدثا اربعة ارباع ثم ضع الربع في الربع الذي فيه سمت مكه وابعد عن خط الربع الموازي لخط المشرق والمغرب بقدر سمت مكه وضع الخيط عليه فيكون منطبقا على سمت القبله وطرفه الذي يلي الخيط هو القبله .

الباب التاسع عشر : في معرفة (٣) المطالع الفلكية والبلدية ومطالع الوقت :

المطالع الفلكيه (٤) هي (الماضي) (٥) من الزمان من (حين) (٦) توسط رأس الجدي الى توسط الشمس وتسمى ايضا مطالع الزوال . والمطالع البلديه (٧) هي الماضي من الزمان من حين يطلع رأس الحمل الى طلوع الشمس وتسمى ايضا مطالع الشروق وطريق ذلك ان تضع الخيط على الستيني وتعلم على جيب تمام الميل وتحرك الخيط حتى يقع المرى على جيب بعد الدرجه من اقرب الانقلابين (٨) اليها فما قطعه الخيط من اول القوس هو

---

(١) خط المشرق والمغرب : هو الخط المستقيم النازل من المركز إلى أول قوس الارتفاع . النشجبادي ص٤١ وفي الاسطرلاب هو خط يكون عموداً على خط وتد الارض (خط نصف الليل وهو النصف السفلي من القطر في الاسطرلاب) ونصف النهار (خط وسط السماء أو خط الزوال) الذي ينزل عموداً من وسط العلاقة . وهذا هو خط مشرق الاعتدال ومغرب الاعتدال . انظر : د . شوكة ص١٨ الصوفي ص٦ أبن الاجدابي ص١٠٧

(٢) زيادة في ب ، د .

(٣) ناقص في أ ، جـ .

(٤) المطالع الفلكيه : او مطالع الزوال او المطالع الاستوائيه او مطالع الفلك المستقيم ، وهي مواضع التي تطلع من فلك البروج مع مدار النهار في خط الاستواء.الخوارزمي ص ١٢٧ ، او العدد الذي يقع عليه المرى عند وضع الجزء على خط وسط السماء. د. شوكة ص١٥٠ .

(٥) ناقص في أ ، د .

(٦) ناقص في أ ، جـ ، د .

(٧) المطالع البلديه : او الافقيه هو العدد الذي يقع عليه المرى عند وضع الجزء على الافق المشرق د. شوكة ، ص ٢٦

(٨) الانقلابان : الانقلاب الربيعي ، يكون عندما تحل الشمس بأول برج الحمل . والانقلاب الخريفي يكون عندما تحل الشمس بأول برج الميزان . وعندما يتساوى الليل والنهار . ابن الاجدابي الهامش (١) ص ٧٩

المطالع الفلكيه ان كانت الشمس في ثلاثة الجدي وان كانت في ثلاثة الحمل فانقصه من مائه وثمانين وزد عليها في ثلاثة السرطان واطرحه من الدور في ثلاثة الميزان فما كان فهو المطالع الفلكيه . انقص منها نصف القوس يبقى المطالع البلديه وان زدت على الفلكيه نصف القوس حصل مطالع (النظير) (١) وهي مطالع الغروب وان زدت الماضي من الشروق على مطالعه او الماضي من الغروب على مطالعه حصل (مطالع) (٢) الوقت .

قاعده: (لجميع الاعمال متى طرحت عددا من عدد اقل منه فزد عليه دورا كاملا ثم اطرح من الحاصل فالباقي هو المطلوب ومتى جمعت عددا لعدد فزاد مجموعهما على الدور فالزائد هو المطلوب) (٣) .

الباب العشرون : في معرفة العمل بالكواكب :

اقم بعد الكوكب مقام ميل الشمس واستخرج منه سعة مشرقه وغايته وكذا ارتفاعه الذي لاسمت له ان كان بعده شماليا وهو اقل من العرض ونصف فضلته ونصف قوسه وكرسي ظهوره وخفائه وفضل ظهوره وفضل دائره وسمته كما في الشمس واذا توسط ليلا فالق مطالع الغروب من مطالعه فالباقي هو الماضي من الليل عند توسطه فان ساوى الباقي حصة الشفق توسط اول وقت المساء وان القيت مطالعه من مطالع الشروق المستقبل بقي الباقي من الليل عند توسطه فان ساوى الباقي حصة الفجر توسط اول (وقت) (٤) الفجر .

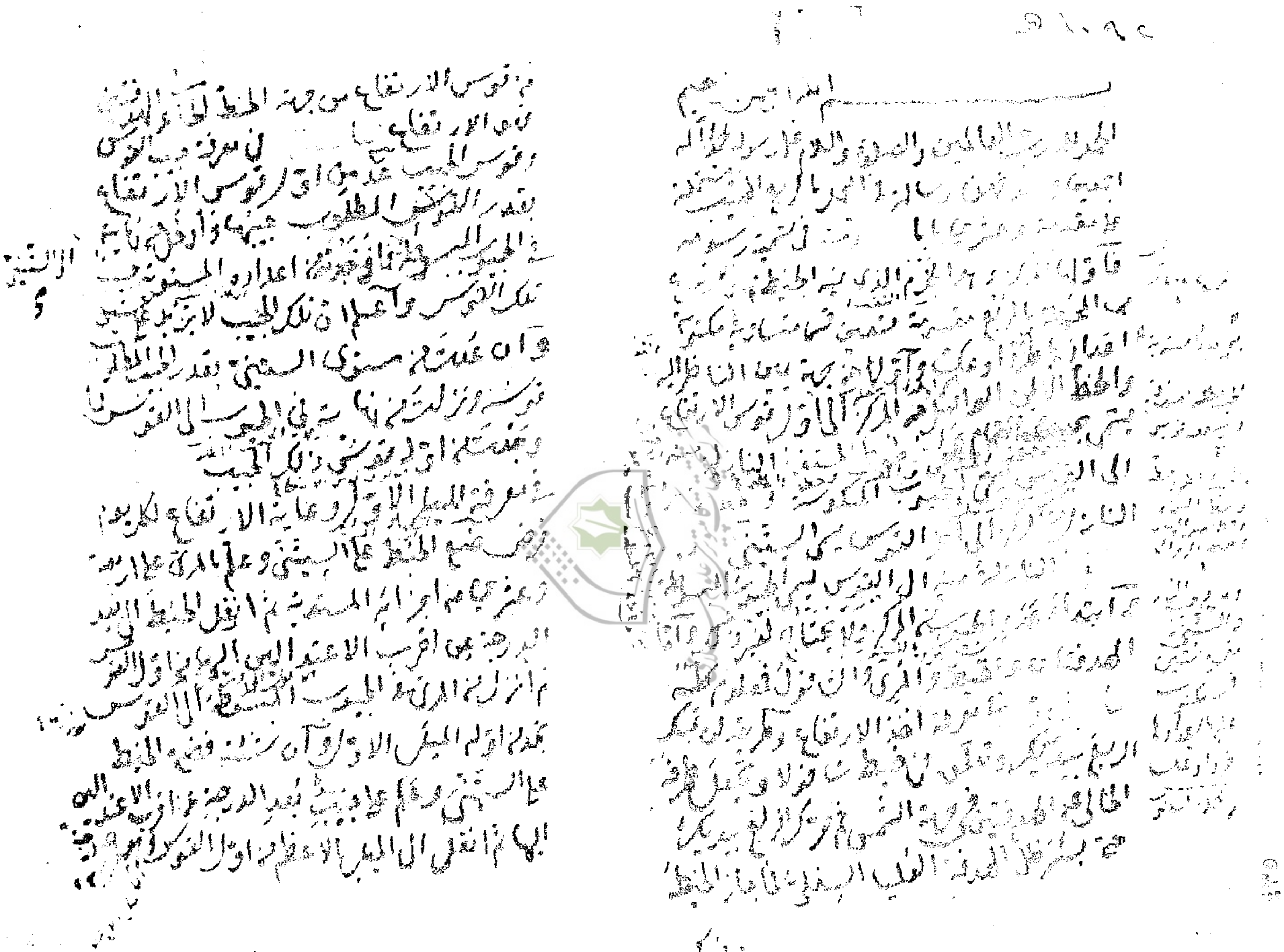
---

(١) النظير : ونظير البرج هو ذلك البرج الذي يقابله وهو السابع فمثلا في يوم ٢٠ مارت تقع الشمس على ٤ درجات من الحمل فيكون ٤ درجات في برج الميزان هو نقطة نظير الشمس اي ان نعد على توالي البروج الى البرج السابع فيكون هو النظير . ه . شوكة س ٤

(٢) ناقص في أ .

(٣) في أ ، ب ، د . أما في النسخ جـ ، د فيظهر انه شرح للقاعده .

(٤) زيادة في ب ، جـ ، هـ .



ملحق (١) صفحتان في مخطوطة الاوقاف برقم ٤ / ٥٥٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام العلامة فريد دهره بدر الدين محمد بن احمد سبط

الماردني رحمة الله عليه وغفر له وللمسلمين الحمد لله رب العالمين

والصلوة والسلام على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم

وبعد فهذه رسالة في العمل بالربع المجيب مشتملة على مقدمة و

عشرين بابا وسميتها الرسالة الفتحية في الاعمال الجيبية

فالمقدمة في تسمية رسومه فالمركز هو الخرم الذي فيه الخيط

وقوس الارتفاع هو المحيط بالربع مقسوم بتسعين قسما

متساويا مكتوب عليها اعدادها طردا وعكسا وارلها

من جهة يمين الناظر اليه والخط الايمن الواصل من المركز

الى اول قوس الارتفاع يسمى جيب التمام والخطوط المستقيمة

النازلة منه الى القوس تسمى الجيوب المنكوسة والخط الايسر

النازل من المركز الى آخر القوس يسمى الستيني والخطوط المستقيمة

النازلة منه الى القوس تسمى الجيوب المبسوطة وابتداء عدد

الجيوب من المركز والمري والثاني [illegible] الباب الاول

في معرفة [illegible] الارتفاع [illegible] الربع [illegible]

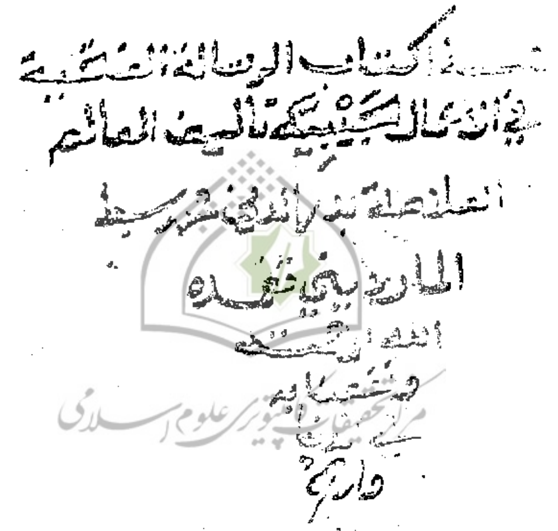
و[illegible] خيط [illegible] الارتفاع [illegible] الخالص [illegible]

من

الصفحة الاولى في مخطوطة مكتبة الدراسات العليا رقم ٣٢٣ / ١ ملحق رقم (٢).



ملحق رقم (٣) الصفحة الاولى من مخطوطة الاوقاف برقم ٧ / ٢٣٥٩


هذا كتاب الرسالة الشمسية
في الاعمال الجيبية تأليف العالم
العلامة بدر الدين سبط
المارديني

ملحق رقم (٤) الصفحة الاولى من مخطوطة مكتبة الدراسات العليا رقم ٣٨٥


بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام
على رسوله محمد واله واصحابه اجمعين وبعد فهذه
رسالة في العمل بالربع المجيب مشتملة على مقدمة
وعشرين بابا فالمقدمة في تسمية رسومه
فاولها المركز وهو الثقب الذي فيه الخيط وقوس
الارتفاع هو المحيط بالربع مقسوم ستين
قسما متساوية مكتوب اعداده طردا وعكسا
واولها من جهة يمين الناظر اليه والخيط الابيض
الواصل من المركز الى اول قوس الارتفاع يسمى
جيب التمام والخطوط المستقيمة النازلة منه
الى القوس تسمى الجيوب المنكوسة والخيط الابيض
النازل من المركز الى اخر القوس يسمى الستيني و
الخطوط المستقيمة النازلة منه الى القوس تسمى

تسمى جيوب المبسوطة واتدا اعداد جيوبه
من المركز ولا يحتاج لغير ذلك واما الهدفتان
والخيط والمري والشاقول فمعلوم الباب الاول
في معرفة اخذ الارتفاع وطريقه ان تمسك الربع
بيديك وتعلق في خيطه شاقولا وتجعل حرفه المائل
عن الهدفتين من جهة الشمس ثم تحرك يديك
حتى يستر الهدفة السفلى بظل العليا فاما الخيط
من قوس الارتفاع من جهة الخط المائل عن الهدفتين
فهو الارتفاع الباب الثاني في معرفة جيب القوس
وقوس الجيب عد من قوس الارتفاع اي جزء اردته
القوس المطلوب جيبها واخرج منها ... في الجيوب
المبسوطة الى الستيني تجد ما اعداده المستوية
جيب ذلك القوس واعلم ان الجيب لا يزيد على الستين
وان عددت من مستوي الستيني بقدر الجيب المط
قوسه وتركت ... نهايته في الجيوب المبسوطة الى
القوس ... ذلك القوس ذلك الجيب الباب
الثالث في معرفة الميل الاول وغاية الارتفاع ...

صفحتان من مخطوطة الاستاذ الدكتور ابراهيم شوكة ملحق رقم (٥)

قصر الحمراء
" عمارته وزخارفه "

الدكتور صلاح حسين العبيدي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

عرفت اسبانيا باسم ابيريا عند اليونان ، واسبانيا عند الرومان ، وقد كانت احدى مقاطعات الدولة الرومانية ، التي حكمتها الدولة حقبة من الزمن ، ثم تعرضت لغارات القبائل المتبربرة التي اهمها قبيلة الغاندال التي حكمت البلاد مدة طويلة ، واطلقوا عليها الوندال او فندلوسيا ثم تعرضت البلاد مرة ثانية لغارات القوط ، وهي احدى القبائل المتبربرة التي أغارت على الدولة الرومانية وقد نجح القوط في طرد الوندال واسسوا في اسبانيا دولـة قويـة ثم اضمحلت هذه الدولة وضعفت واستطاع العرب بعد الاستيلاء عليها ان يؤسسوا بها ملكا عظيما استمر مايقرب من ثمانية قرون ، واطلق العرب على هذه البلاد عندما استقروا فيها اسم الاندلس . اليوم هي الجزء الجنوبي من اسبانيا وهو يضم سبع مديريات هي قرطبة واشبيلية وقاوش وجبان وغرناطة ومالقة ودلبه (اويلبا) . ولكنها كانت في العصور الوسطى تعني جميع البلاد التي فتحها العرب في شبه جزيرة ابيريا . وقد اخذ مدلولها منذ ذلك الوقت يتقلص بالتدريج كلما ضاعت من العرب ولاية . وكاد حكم العرب ان ينتهي في تلك البلاد الا أن فارسا عربيا هو محمد بن يوسف المعروف بابن الاحمر استطاع ان يقاوم العدو المتقدم في بسالة وحزم وان

م/٢٨/١م.س

يعتصم في غرناطة ومن حولها ، وفي خلال هذه الفترة تجمع في غرناطة بقايا رجال القوة العربية الاندلسية ، وتشبثت بارض الاندلس تثبت الابطال فارتدت الاطماع وصمدت الارادة العربية تجاه الطامعين والحاقدين ، وهكذا انجح ابن الاحمر في اقامة مملكة غرناطة سنة ١٢٣٢ م.

ورغم مابذله خلفاء ابن الاحمر من جهود لم يستطيعوا الثبات امام الضغط المتصل استسلمت غرناطة في ٢ يناير ١٤٩٢ م كانون الثاني . على يد فرناند وايزابيلا .

واذ كنا قد فقدنا غرناطة فهذا لايقلل من بطولة اهلها لان العبرة في معارك التاريخ بالتضحية والعزيمة والثبات ، وفي التاريخ هزائم هي أمجد من عشرات الانتصارات .

وخلال فترة بني الاحمر بلغت غرناطة الذروة في الحضارة الانسانية ، فازدهر العلم والادب والفن ، ومن ابرز اعمالهم المعمارية والفنية قصر الحمراء ، وهو ماسنتناوله في هذا البحث .

والحمراء نفسها تتكون من قصبة وقصر وهما يقعان على ربوة عالية ، ولقد كان في موضع القصر حصن صغير يسمى القصبة القديمة او الحمراء القديمة وعندما اتخذ محمد بن الاحمر هذا الحصن مقرا له احكم اسواره وبنى على الاسوار ابراجاً حصينة عالية وبنى لنفسه قصرا في المكان الذي يقوم فيه قصر شارل الخامس اليوم ، سميت مبانيه بالقصبة الجديدة .

يفضي باب الرمان إلى الحمراء ، وهذه الباب ليست من ابواب الحمراء الاندلسية وانما شيدت على عهد الامبراطور شارل الخامس ، وقد استمد هذا الباب اسمه من صور الرمان المرسومة عليه . وهو شعار غرناطة التاريخي المشتق من اسمها ، والباب عبارة عن عقد حجري ضخم يقوم طرفاه على عمودين كبيرين وقد نصبت في اعلاه ثلاث رمانات على هيئة مثلث .

وبعد باب الرمان تنتقل إلى غابة عظيمة من الأشجار تتفسح امامنا ثلاثة

طرق ، يفضي اولهما وهو الايمن إلى ابراج الحمراء والاوسط إلى جنة العريف والثالث وهو الايسر يفضي إلى باب الشريعة اول ابواب الحمراء ، وهو مدخلها الرئيسي ، وتمتاز باب الشريعة بضخامتها وارتفاعها الذي يبلغ نحو خمسة عشر مترا ، وقد نقش على قوسه سطران كتب فيهما بخط مغربي متشابك اسم بانيه وتاريخ انشائه امر ببناء هذا الباب المسمى بباب الشريعة سدد الله به شريعة الاسلام ، كما جعله فخرا باقيا على الايام ، مولانا امير المؤمنين السلطان المجاهد العادل ابو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس ابي الوليد ابن نصر كافأ الله في الاسلام صنائعه الزاكية وتقبل اعماله الجهادية شيد ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة واربعين وسبعمائة جعله الله عزة راقية وكتبه في الاعمال الصالحة الباقية (١) .

ويفيدنا هذا النص ان ولاة الامر في المملكة كانوا اذا عزموا على تشييد بناء جعلوا للجانب الديني او العقائدي مكانا في اسم هذا البناء كالذي نلاحظه في الاسم باب الشريعة ، ومن مناسبة تشييده الذي صادف في شهر المولد المعظم ، وواضح انه اراد به مولد الرسول الاعظم (ص) يضاف الى ان قضاة الاندلس كانوا يتخذون مجالسهم عند هذا الباب لينظروا في قضايا المسلمين ويفصلوا فيها . وبجانب هذا النص نرى رسما مكونا من كف ومفتاح .

يلي باب الشريعة باب آخر يعرف اليوم باسم باب الخمر او باب النبيذ او باب الشراب ، ولانعرف سبب تسميته بهذا الاسم ، ومما هو جدير بالذكر ان معظم الاسماء التي تطلق اليوم على اجزاء من الحمراء اسماء حديثة من ابتكار الاسبان او من ابتكار اولاء القصر التي لاتطابق فيها الاسماء الاصلية سوى القليل . ولانستبعد ان تكون هذه الاسماء من الاضافات التي ادخلت على المباني العربية الاسلامية بعد الاستيلاء عليها من قبل الاخرين فقد عمدوا الى تغيير اشياء جذرية كتحويل المسجد الى كنيسه فليس غريبا ان يوضع مثل هذا الاسم الذي لايناسب الشرع الاسلامي ، وسيتضح لنا

ذلك من ان الاسبان انفسهم عند إستيلائهم على الحمراء حولوا (مشوار الحمراء) الى كنيسة .

ويتوج هذا الباب نص تاريخي يتضمن اسم السلطان الغني بالله ابن السلطان ابي الحجاج الذي شيد باب الشريعة ، ونشاهد على الصنجة الوسطى لعقد هذا الباب صورة مفتاح يشبه الذي رأيناه منقوشا على باب الشريعة .

والعقد في هذه الواجهة الداخلية يزدان بقراميد مختلفة الالوان فيها زخارف محزوزة من النوع المسمى في الاندلس باسم «الكسورداسيكا» (٢).

يلي باب الخمر ساحة يطلق عليها الاسبان اليوم اسم ساحة (الجب) او ميدان (الجب)او ميدان صهريج الماء ، ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان الصهريج لايزال باقيا الى اليوم ، ونجده في نهاية هذا الميدان وتحت الارض .

وعلى الجهة اليمنى نجد مبنى حديثا وهو قصر شارل الخامس الذي تم تشييده بعد ان استرد الاسبان بلاد الاندلس من العرب ، والى جانب هذا القصر يوجد ممر قصير ، وعن طريق هذا الممر يمكن الوصول الى القصر ، والممر اشبه بالمنزل يؤدي بعد دهليز إلى قاعة المشوار ، وعلى الرغم من التغيير الذي اصاب هذا الجزء من قصر الحمراء فلايزال يحتفظ — بسماته العربية المتمثلة في زخارفه الجصية العربية ، وفي فسيفسائه الرخامية ، وفي شعار بني الاحمر .

ومشوار الحمراء كان مخصصا لاجتماع السلاطين برعاياهم ، ويذكر ابن فضل الله العمري ان السلطان كان يعقد للناس فيه يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع ، وكان يحضر هذا المجلس معه اولاده ونفر من قرابته ورجال حاشيته .

لقد تم انشاء هذه القاعة سنة ١٣٦٥ م، كما تشهد بذلك قصيدة لابن زمرك شاعر الحمراء مهنئا السلطان محمد الغني بالله بالفراغ منها . ونجد نصا لهذه القصيدة في كتاب ازهار الرياض لشهاب الدين احمد بن محمد المقرى(٣)

وقد استعان فنان الحمراء بابيات كثيرة من هذه القصيدة نقشها على جدران الحمراء واعمدتها ومطلع القصيدة وابياته التي يصف فيها قاعة المشوار هي:

به البهو قد حاز البهاء وقد غدا   به القصر افاق السماء مباهيا
وكم خله حللقه بحليها   من الوشي تنسى السابرى اليمانيا
وكم من قسى في ذراه ترفعت   على عمد بالنور بانت حواليا
فتحسبها الافلاك دارت قسيها   تظل عمود الصبح اذ لاح باديا
سوارى قد جاءت بكل غريبة   فطارت بها الامثال تجرى سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره   فيجلو من الظلماء ماكان داجيا
اذا ما اضاءت بالشعاع تخالها   على عظم الاجرام منها لآليا (٤)

ومن هذه الابيات يمكن ان نستنتج ان قاعة المشور عند تشييدها كان فيها قبة تقوم على عمد من المرمر ذات اقواس تتخللها شبابيك من الزجاج الملون الذي اشتهرت به الفنون العربية الاسلامية.

لقد تغيرت معالم هذه الجزء من القصر في الوقت الحاضر تغييراً يكاد يكون شاملاً ولم يبق منه إلا الجدار الأيسر وجزء من سقف القاعة لأن الذين استولوا على الحمراء من الاسبان حولوا المشوار إلى كنيسة صغيرة وذلك في القرن السابع عشر الميلادي فازالوا القبة ووضعوا منضدة معترضة على عمد ليقف القس فوقها وازالوا كل قطع القاشاني من النقوش التي كانت تزين جدران هذه القاعة.

وخلف هذه القاعة يوجد المصلى الذي لايزال حتى اليوم يحتفظ بمحراب جميل تتوجه عبارة مكتوبة بخط كوفي جميل نصها «اقبل على صلاتك ولا تكن من الغافلين» (٥).

وإلى اليمين من قاعة المشوار والمصلى نرى ساحة تعرف اليوم باسم ساحة المسجد تتوسطها نافورة صغيرة.

ومن المشوار ندخل إلى قاعة تسمى اليوم القاعة المذهبة وهي تسمية حديثة ظهرت منذ القرن السادس عشر الميلادي، ومدخل هذه القاعة يتألف من بوابة تقوم على عمودين من الرخام يليها باب القاعة، وفي الاعلى باكيتان في كل منهما مشربيتان من الجص المخرم وزخارف هذا الباب منقوشة بالذهب، كما أن جدران هذه الغرفة هي الأخرى مزينة بزخارف مذهبة، ومن هنا جاءت تسمية القاعة المذهبة (٦) .

وإلى الجنوب من ساحة المسجد نرى سقيفة تحتها بابان، الايسر منها يفضي إلى قاعة صغيرة تقودنا إلى ساحة الريحان، والباب الايمن يقودنا إلى القسم الثاني من القصر الذي كان يعرف في الغالب «بالديوان». وهو يشمل «ساحة البركة» و«قاعة البركة» ثم «قاعة العرش» أو «قاعة السفراء» كما يطلق عليها أحياناً .

ان مدخل هذا القسم من القصر يقع في الجدار الجنوبي ، وهو مستطيل وتظله سقيفة محمولة على عقود جميلة تقوم على أعمدة رشيقة ، ويبدو أن السقيفة كان فوقها طابق علوي زالت معظم معالمه ولم يبق منه الا جدار واحد، ومما يلاحظ في الجدار المتبقي وجود سبع نوافذ سدت بستائر من الخشب المخروط المعروف باسم المشربية *

وتمتد امام هذا المدخل ساحة كبيرة مستطيلة الشكل تتوسطها بركة من الماء وتظلله اشجار الريحان . وفي طرفيها الجنوبي والشمالي نافورتان صغيرتان يحف بها من جانبها صفان من اشجار الريحان .

والجدران المحيطة بهذه الساحة التي تعرف بساحة البركة او ساحة الريحان تزينها زخرفة في غاية الجمال لم يبق منها إلا القليل .

وإلى جانب هذه الزخرفة نقشت أبيات من الشعر لابن زمرك منها أبيات نقشت على الافريز الرخامي الاوسط لهذا الفناء وهي :

تبارك من ولاك أمر عبـــاده فأولى بك الاسلام فضلا وانعما
فكم بلدة للكفر صبحت اهلهـا وامسيت في اعمارهـا متحكما
وطوقتهم طوق الاسار فاصبحـوا ببابك يبنون القصور تخدمـا
وفتحت بالسيف الجزيرة عنـوة ففتحت بابا كان للنصر مبهما
ومن قبلها استفتحت عشرين معقلا وصيرت مافيها لجيشك مغنما
فلو خير الاسلام فيمـا يريـده لما اختار الا ان يعيش وتسلما
طلعت بافق المالكيـة رحمـة ليجلو ماقد كان بالظلم اظلما
فأمنت حتى الغصن من نفحة الصبا وارهبت حتى النجم في كبد السما
فان رعشت زهر النجوم فخيفـة وان مال غصن البان شكرك يمما (٧)

وقد نقشت فوق الابيات المذكورة وتحتها عبارة ولا غالب الا الله بتكرار (٨) وإلى شمـال ساحة الريحان تقع قاعة تعرف باسم قاعة البركة ،وتتقدم هذه القاعة سقيفه تتكون من عقود غاية الدقة والجمال ،وهذه العقود تقوم على ثمانية اعمدة رقيقة من الرخام يتوسطها عقد كبير ،وفي كل من ساقيه حنية ذات عقد صغير من الرخام تزينه ابيات من شعر ابن زمرك من قصيدة قالها بمناسبة المولد النبوي ، وقد نقش في الحنية اليمنى الابيات التالية :

انـا مـجـلاة عروس ذات حـســن وكمـال
فانظـر الابـريق تعـرف فضـل صدقـي في المقـال
واعتـبـر تـاجـي تـجـدد مشـبهـا تـاج الهـلال
وابـن نصـر شمس ملـك فـي ضيـاء وجـلال
دام فـي رفعـة شـان آمنـا وقت الـزوال (٩)

بينما نقش في الحنية اليسرى الابيات التالية :

وانا فخر لصلاة سمته سمت السعادة
تحسب الابريق فيها قائماً يقضي عبادة
كلما يفرغ منها وجبت فيه الاعادة
ان مولاي ابن نصر شرف الله عباده
كان سعد الحي حي سعد بن عبادة (١٠)

ويقوم وراء قاعة البركة برج عظيم يعرف ببرج قمارش الذي يضم بداخله قاعة « العرش» او «قاعة» السفراء او قاعة «قمارش» او قاعة «الحنايا»ومدخلها يتألف من عقدين جميلين يفصل بينهما قبو ،وقد نقشت في عقد باب هذه القاعة العبارة الاتية « الحمد لله على نعمة الاسلام »و «عز لمولانا ابو الحجاج عز نصره » .

ونجد على جانب هذا القبو من الداخل حنيتين تشبه الحنيتين السابقتين اللتين شاهدناها في الغرفة السابقة كما تزين الحنية اليمنى والحنية اليسرى ابيات من الشعر تقرأ في الحنية اليمنى الابيات الاتية :

فقت الحسان بحليتي وبتاجي وهوت الي الشهب في الابراج
يبدو اناء الماء فيّ كعابد في قبلة المحراب قام يناجي
ضمنت على سر الزمان مكارمي رى الاوام وحاجة المحتاج
فكانني استقريت اثار الندى من كف مولانا ابي الحجاج
لازال بدرا في سمائي لائحا مالاح بدر في الظلام الداجي (١١)

ونقشت الابيات الاتية في الحنية اليسرى بعد عبارة «الحمد لله» .

رقمت انامل صانعي ديباج عن بعد مانظمت جواهر تاجي
وحكيت كرسي العروس وزدته اني ضمنت سعادة الازداج
من جاءني يشكو الظما فموردي صرف الزلال العذب دون مزاج

فكأنني قوس الغمام اذا بـــدا   والشمس مولانا ابو الحجاج
لازال محروس المثابة ماغـــدا   بيت الولاة مثابة الحجاج (١٢).

وفي الدائرة العليا للبهو نقش الفنان النص الاتي مكرر «عز لمولانا السلطان ابي الحجاج» . وهذه القاعة تعتبر من افخم واوسع واروع قاعات قصر الحمراء .

ووصف كتابات القاعة ونقوشها يدعونا الى الحديث عن التسميات التي اطلقت عليها ، وهي كما قلنا قبل قليل تسميات حديثة اجتهد فيها الباحثون والمختصون في ميدان الآثار والتاريخ والفنون وغيرهم . واغلب الظن انها مستمدة من طبيعة القاعة نفسها وماتزينها من زخارف وعناصر معمارية مختلفة ، فهي قاعة العرش لان عرش سلاطين بني الاحمر كان فيها كما تدل على ذلك ابيات الشعر التي تزين القاعة المذكورة ، وهي قاعة السفراء لان سفراء الدول الأجنبية كانوا يستقبلون فيها وهي قاعة الحنايا لكثرة مابها من الحنايا ، وهي قاعة قمارش أو قاعة القمريات ، وهي المناور الصغيرة المزينة بالزجاج الملون (١٣).

ونعود الى القاعة التي لاتزال تكشف لنا عن عظمة العرب في ميدان الهندسة المعمارية والفنون الزخرفية ، فالقاعة مربعة الشكل جدرانها تزدان بنقوش شتى ، ويشاهد المرء في الجدران الداخلية لهذه القاعة عدداً من الحنايا أهمها تلك التي تتوسط الجدران المقابل للمدخل الرئيسي للقاعة ، وقد تعرفنا من خلال الابيات الشعرية التي تزين الحنية المذكورة انه كان فيها عرش السلطان حيث يقول فيها الشاعر

نحييك من حين تصبح أو تمســي   ثغور المنى واليمن والسعد والانس
هي القبة العليا ونحن بناتهـــــا   ولكن لي الفضل والعز في جنـــسي
بوارح كنت القلب لاشك بينهـــا   وفي القلب تبدو قوة الروح والنفس
وان كان اشكالي بروج سمائهـــا   ففي عدا مابينهـــا شرف الشمـــس
كساني مـولاي المؤيـــد يوسـف   ملابس فخر واصطناع بلا لبس

وسيرني كرسي ملك فأبدت   علاه بحق النور والعرش والكرسي(١٤)

وتغطي هذه القاعة قبة عظيمة تعد من أروع القباب العربية كانت في الأصل من الخشب الذي تزينه زخارف هندسية شتى ، وتعد زخارف هذه القبة من اروع مافي قاعة السفراء .

ويتضمن أسفل مدار القبة نصا لسورة تبارك وأولها «بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملاً وهو العزيز الغفور الذي خلق سبع سموات طباقاً ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير» (١٥).

ونهايتها «قل أرأيتم أن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب اليم. قل هو الرحمان آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين . قل أرأيتم أن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » .

وفي الجدار الشمالي للقاعة نقشت هذه العبارة «النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا ابي الحجاج امير المسلمين نصره الله» (١٦) مكررة مرارا .

ونقش في محيط البهو وبكثرة شعار بني نصر «ولاغالب الا الله» (١٧)

وفي الجانب الشرقي من ساحة الريحان يوجد مدخل قاعة يطلق عليها اسم «قاعة المقرنص» * . ومما يؤسف له زوال المقرنصات من هذه القاعة بسبب انفجار مصنع للبارود الذي كان بالقرب من هذه القاعة .

ولاشك ان تسمية هذه القاعة بقاعة المقرنص يرجع الى انها كانت تحتوي على امثلة رائعة من هذا العنصر المعماري الزخرفي .

ومن هذه القاعة تتصل الى ساحة مشهورة في القصر وهي ساحة الاسود

او ساحة السباع وقد قام بانشاء هذا الجناح من قصر الحمراء السلطان محمد الغني بالله ، ولايزال اسم هذا السلطان منقوشا في مواضيع متعدده من هذا الجناح .

والساحة المذكورة مستطيلة الشكل طولها ٢٨,٥ مترا وعرضها (١٥,٧٠) مترا (١٨) تحيط بها من الجوانب الاربعة اروقة ذات اعمدة تحمل عقودا نصف دائرية مفصصة الشكل. وتقوم على جانبيه القصيرين جوسقان مقببان يبرزان الى الساحة تحملها اعمدة ذات عقود رشيقة مدببه اشبه ماتكون بثمرة الكمثرى ، ويتوج هذه العقود ستائر من الجص المخرم على شكل معينات متصلة مع بعضها ، وقد بلطت ارضيتها بالرخام وتتوسط كلا منهما نافورة صغيرة .

وفي ساحة الاسود فوارة تستند على عقود مدببه ، وتمتد من الفوارة قنوات طويلة تنحدر الى اربع برك الى الجهات الاربع الاصلية .

وتتكون هذه الفوارة من ثلاثة اقسام ، نافورة وحوضين من الرخام الأزرق ، العلوي صغير والسفلي كبير محمول على اثني عشر اسدا تمج المياه من افواهها عملت من الحجر ينقصه الدقة والاتقان في النحت ، ويزدان الحوض الكبير بطائفة من النقوش الكتابية بالخط النسخي والكوفي يتضمن شعار بني نصر وعبارات دعائية ، الا أن اهم مافي هذه النقوش تلك القصيدة التي نضمها ابن زمرك في مدح السلطان الغني بالله ووصف النافورة اذ يقول :

تبارك من اعطى الامام محمدا ... مغاني زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الروض فيه بدايع ... ابى الله ان يلقى لها الحسن ثانيا
ومنحوته من لؤلؤ شق نورها ... تحلى بمرفض الجمان النواعيا
يذوب لجين سال بين جواهر ... غدا مثلها في الحسن ابيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد ... فلم ندر ايا منهما كان جاريا
الم تر ان الماء يجري بصفحها ... ولكنها سدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدفع جفنه ... وفص بذاك الدمع اذ خاف واشيا

وهل هي في التحقيق غير غمامة ... تفيض إلى الآساد منها السواقيا
وقد اشبهت كف الخليفة اذ غدت ... تفيض إلى اسد الجهاد الايادیا
فيا من رأى الاساد وهي روابض ... عداها الحياة عن أن تكون عواديا
ويا وارث الانصار لا عن كلالة ... تراث جلال يستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلدا ... تجدد اعيادا وتبلى اعاديا (١٩)

نترك ساحة الأسود إلى قاعة مشهورة من قاعات قصر الحمراء ، وهي قاعة بني سراج، ومدخل هذه القاعة يقع في منتصف الناحية الجنوبية من ساحة الأسود .

والقاعة المذكورة مربعة الشكل مرتكز على أعمدة ذات تيجان زرقاء اللون وقواعد مزينة بالقراميد اضيفت الى القاعة بتاريخ لاحق ربما ترجع الى عصر النهضة في اوربا وجدران القاعة مؤلفة من حنايا ترتكز على أعمدة غاية في الجمال والروعة وتوجد في هذه القاعة ست عشرة نافذة وهي التي تمد القاعة بالضوء ، وقد نقشت في دائرة القبة الوسطى عبارة «ولا غالب إلا الله» بالخط النسخي والكوفي .

ونقش في جدران الصدر في الداخل هذان البيتان

فبيت له خنس الثريا معيذة ... ويصبح معتل النواميم روافيا
وتهوى النجوم الزهور لو ثبتت به ... ولم تك في افق السماء جواريا (٢٠)

ويتوسط أرض القاعة حوض مرمري مستدير الشكل ، وتذكر بعض الروايات أن السلطان الغالب بالله قتل بني سراج جميعاً في هذه القاعة (٢١). ولهذا سميت هذه القاعة بهذا الاسم . وهذه الرواية لاتستند على الحقائق التاريخية الثابتة . ومن المعروف أن اسرة بني سراج من الاسر الغرناطية الشهيرة .

وأمام قاعة بني سراج قاعة أخرى يطلق عليها «قاعة الأختين» ويقال إن سبب تسميتها بهذا الاسم يعود الى لوحتين من الرخام نقشت على أرضها

على جانبي نافورة صغيرة متماثلتين في الشكل وفي الحجم وفي اللون فهما أختان توأمتان ، ومن أجلهما سميت القاعة بهذا الاسم ، كما هو شائع لدى الاسبان اليوم (٢٢) .

وقاعة الأختين تعتبر من روائع العمارة العربية الأندلسية ، لما تحتويه من زخارف ونقوش وتغطي جدران القاعة زخرفة من الفسيفساء ذات الالوان المختلفة . ومما يزيد في روعة وجمال هذه القاعة تلك النقوش الكتابية والأبيات الشعرية التي نجدها منقوشة على جدران هذه القاعة ، فعند مدخلها كتابة بالخط الكوفي نصها «ولا غالب الا الله» مكررة . ونقش تحتها هذه الأبيات الشعرية وهي من قصيدة لابن زمرك يقول فيها :

انا الروض قدأصبحت بالحسن حاليا ... تأمل جمالي تستفد شرح حاليا
اباهي من المولى الامام محمد ... باكرم من يأتي ومن كان ماضيا
ولله مبناه الجميل فأنه ... يفوق على حكم السمو المبانيا
فكم فيه للابصار من متنزه ... تجد به نفس الحليم الامانيا
بنيت له خمس الثريا معيدة ... ويصبح معتل النواسم راقيا
به القبة الغبراء قل نظيرها ... ترى الحسن فيها مستكنا وباديا
تمد لها الجوزاء كف مصافح ... ويدنو لها بدر السماء مناجيا
وتهوى النجوم الزهر لوثبتت بها ... ولم تك في افق السماء جواريا
ولو مثلث في ساحتيها وسابغت ... الى خدمة ترضيه فيها الجواريا
ولاعجب ان فاتت الشهب في العلى ... وان جاوزت فيها المدار المتناهيا
فبين يدي مولاي قامت لخدمة ... ومن خدم الاعلى استفاد المعاليا
بها البهو قد حاز البهاء وقد غدا ... به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم قد حلة جللته بحليها ... من العرش تنسى السابرى اليمانيا
وكم من قسى في دراه ترفعت ... على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الافلاك دارت قسيها ... تظل عمود الصبح اذ لاح باديا
سوارى قد جاءت بكل غريبة ... فطارت بها الامثال تحدى سواريا

بةَ المرمر المجلو قد شف نـــوره ... فيجلو من الظلماء ماكان داجيا
اذا ما اضاءت بالشموع تخالهـــا ... على عظم الاجرام منها لآليـــا
ولم تر قصرا منه اعلى مظاهـــرا ... واوضح آفاقـــا وافســح ناديـــا
ولم نر روضا منه انعم نضـــرة ... واعطر ارجــاء واجلى مجانيـــا
مصارفة النقدين فيه بمثلهـــــا ... اجاز بها قاض الجمال التقاضيا
فان ملأت كف النسيم مع الضحى ... ديارهم نور ظل عنها مكانيـــا
فيملو حجر الروض خول غصونها ... دنانير شمس تترك الروض حاليـــا
تمد له الجوزاء كف مصافـــح ... ويدنو لها بدر السماء مصافيـــا
وبيني وبين الفتح اشرف نسبـــة ... فاحسن منها نسبة هو ماهيا (٢٣)

ومن قاعة الاختين ننفذ الى قاعة تقع الى شمالها تعرف بقاعة «ستائر الخشب المخروط» او «قاعة المشربية» (٢٤) وفي تعليل لهذه التسمية يقولون ان نافذتيها المطلتين على حديقة القصر قد سدت كل منهما بستارة شبكية من الخشب المخروط المكونة من قطع صغيرة قد جمعت معا على هيئة خاصة ونشأ عن تجميعها زخارف جميلة تدل على مهارة الصانع وعبقرية الفنان .

والى جانب قاعة المشربية هناك قاعة اخرى تقع الى شرق ساحة الاسود وفي الوجهة القبلية ، والقاعة شكلها مستطيل اشبه بدهليز ، واهم مايميز هذه القاعة هي تلك التصاوير الملونة التي تزين سقف القاعة المذكورة والصورة تمثل عشرة رجال جالسين على وسائد في هيبة ووقار . وقد كانت هذه الصور مثار نقاش واستنتاجات من قبل الباحثين الذين درسوا هذه الصور فوردت التسميات غير متفقة ، كل ينظر اليها من وجهته الخاصة . فبعضهم اطلق عليها اسم «قاعة الملوك» منطلقا من كون غرناطة حكمت من قبل عشرة ملوك سبقوا ابا عبد الله احد سلاطين بني الاحمر . اولهم محمد الغني بالله وآخرهم السلطان ابو الحسن والد ابي عبد الله بينما اطلق عليها آخرون اسم قاعة الصور نسبة للصور (٢٥) وهو استنتاج ضعيف لايمكن ان نقره لوجود صور اخرى في القصر فهي ليست الظاهره الوحيدة لكي تأخذ هذه

التسمية واما من ذهب الى انها «قاعة العدل» فلعلهم نظروا الى طبيعة جلسة الاشخاص الذين يظهرون في سقف القاعة . فكأنها بهذه الهيئة «قاعة محكمة» وهذا امر مستبعد ايضا وان جاز لنا نستنتج من طبيعة الصور والجلسة وهيئة الجالسين ومايحملون من سلاح وعلى وجوههم الوقار والهيبة فان الصورة تعبر عن مجلس لرجال مرموقين في الدولة يجلسون للتشاور في شؤون المملكة العليا وكأنهم «مجلس شورى الدولة» .

وإلى جانب هذه الصورة ، نقشت في سقفي حنين القاعة صور ومناظر فروسية ومشاهد صيد مختلفة .

وفي شمال ساحة الاسود وشمال قاعة الأختين يقع البهو المسمى «دار اشا» أو «اللندر اشا» والكلمة الاولى يقال انها تحريف «لدار عائشة» والثانية «لعين دار عائشة» وعين هنا معناها المنظرة ، والمكان الذي ينظر منه الانسان (٢٦).

أما عائشة فانها كما يتصور للباحثين والدراسين انها السلطانة عائشة الحرة زوجة السلطان علي ابن الحسن الملقب بالغالب بالله ويميل هؤلاء إلى الاعتقاد ان هذه الدار كانت خاصة لسكن اميرات ابن الاحمر ومن بينهن السلطانة عائشة (٢٧) .

أما دار عائشة فاننا نجد عند عقد المدخل فجوتان نقشت بينهما عبارة «ولا غالب الا الله» كما يزين جدران هذه القاعة وعقودها كتابة بالخطين الكوفي والنسخي تتضمن ابياتاً من الشعر تقرأ حول عقد المدخل .

كل صنع اهدى الي جماله   وحباني بهاءه وكماله
فاذا مبصري تأمل حسني   اكذب الحسن بالعيان خياله(٢٨)

ونقرأ في الجانب الايسر

لست وحدي قد اطلع الروض مني   عجبا كم تر العيون مثاله
ذاك بصرح الزجاج من قد رآه   ظنه لجة تروح وهاله
كل هذا صنع الامام ابن نصر   حرس الله للملوك جلاله
آله في القديم حازوا المعالي   وهم آزوا النبي وآله (٢٩)

كما نجد نقشاً في العقد الأعلى للنافذة الامامية بالخط الكوفي نقرأ كالآتي «عز لمولانا السلطان ابي عبد الله الغني بالله ، ايد الله امره وأدام سعده» ..

ويدل هذا النص على أن هذه المنظرة قد أنشئت في عصر السلطان محمد الغني بالله (١٣٥٤ - ١٣٩١م) .

ومن دار عائشة منفذ الى حديقة يطلق عليها حديقة دار عائشة التي تسمى ايضا بحديقة البرتقال (٣٠). وتتوسط هذه الحديقة نافورة يعتقد انها اقيمت في هذا المكان بعد خروج العرب من القصر.

ومن حديقة البرتقال ننتقل إلى برج ابي الحجاج ولهذا البرج باب تعد في غاية الروعة والفخامة، ويزين عتبة الباب النص التالي «... الباسل ابي عبد الله الغني بالله ابن مولانا امير المسلمين السلطان الجليل ، الملك الاصيل ذو المحامد والمناقب والعطايا الجزيلة والمواهب، الحامي الديار القامع اعداء الله الكفار ابي الحجاج ابن مولانا السلطان المعظم»(٣١).

واستنادا الى هذا النص يمكننا القول بان هذا البرج شيد على عهد السلطان ابي الحجاج. ويضم البرج المذكور قاعة تتألف من قسمين احدهما مستطيل والاخر مربع، والقسم الثاني يعرف «مخدع الملكة» وقد تغيرت الاجزاء العليا منه في القرن السادس عشر وازدانت بفن التصوير الايطالي ، وقد أعيد الى هذه القاعة مظهرها القديم .

ويتصل بهذه القاعة مسكن الامبراطور فرديناند وفي الغرفة المستطيلة نلاحظ كتابة تتضمن الآيات الكريمة «انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم» .

وإلى شرف قاعة قمارش وبهو الريحان تقوم الحمامات، وهي من اقدم ابنية القصر وتؤلف هذه الحمامات مجموعة كاملة من الابنية . وترجع إلى

عهد يوسف الاول ، الذي سجل اسمه في نقش كتابي. وقد احتفظ الحمام بشكله وتخطيطه الذي كان عليه يوم انشىء وقد ظل محتفظا بالمراجل النحاسية التي كان يسخن بها الماء حتى القرن التاسع عشر الميلادي . والجدران الاساسية من ملاط شديد الصلابة .اما الحواجز والعقود والقباب فمن الاجر مع ملاط من الجير عدا حائطا واحـــــدا يتبادل في صفوفه من قطعتين من الاجر. وبقيت في القاعة الوسطى اثار دهانات باللون الاحمر فوق طبقة جيريـة بيضاء (٣٢).

يتألف الحمام من اربعة اجزاء، الاستراحة والغرفة الدافئة والغرفة الساخنة ثم الموقد او بيت النار .

اما الاستراحة او قاعة السريرين او المصطبتين. كما يسمى الاسبان اليوم، فقد استحدث هذا الاسم من سريرين قد شيدتا في جانبي القاعة من الطابوق كسيا بالقراميد المختلفة الالوان، وتوج كل من السريرين بعقدين صغيرين متجاورين يتكئان على اعمدة ثلاثة غاية في الدقة والجمال واحد منها في الوسيط والاخيران في الجانبين يلتصقان بالجدارين وبين هذين السريرين نشاهد نافورة صغيرة ينبعث ماؤها من صنبور يتوسطها.

وتؤدي هذه الاستراحة في الحمام وظيفة هامة اذ تتخذ محلا لحفظ الملابس قبل الدخول مباشرة للاغتسال وفيها يستريح الانسان بعد الاستحمام وفيها يقدم الشراب الدافىء المنعش.

اما الحجرة الثانية او الغرفة الدافئة فهي اكثر حرارة من غرفة الاستراحة من الغرفة الثالثة. وفي هذه الغرفة حوض كبير متصل به انابيب تجري تحت الارض، وفي داخل الجدران تحمل الهواء الساخن والماء الفاتر من بيت النار .

واما البيت الثالث او الحجرة الساخنة فهو محل الاغتسال، وفيها حوض كبير تعلوه كوة في الجدار بها فتحتان كان بهما وقت انشاء القصر صنبوران

كل منهما علـــى هيئة الاسد ، واحد يمج الماء البارد والآخر يمج الماء الساخن، لم يبق لهما وجود ولكنهما بقيا في ابيات من الشعر تزين هذا الحمام في الوقت الحاضر.

اعجب شيء حادث أو قديم مرابض الاسد ببيت النعيـــم
من اسـد قابلـــــه مثلـــــه قاما لدى المولى مقام الحديم
تقاسما وصفى عـلاه فمـــن باس له جام وجود عميـــم
يفيض ذا عذبــا برودا وذا ضدله فهـو يفيـض الحميـم
هذا وكم مـن عجب حاجب يسره سعـد المقـام الكريـــم
من ٭كأبي الحجـاج سلطاننـا لازال في نصر وفتح عظيم (٣٢)

أما الجزء الرابع فهو لايزن أي المستوقد أو بيت النار حيث يسخن الماء ثم يري في انابيب إلى الغرفة الساخنة .

أما الواجهة الداخلية للحمام فتزدان بقراميد مختلفة الالوان ، بينما تقوم سقوفه على عقود من النوع المعروف بحدوة الفرس ، وتتخلل سقف الحمام فتحات نجمية الشكل مغطاة بزجاج ملون تجلب الضوء خلاله إلى داخل الحمام .

زخارف قصر الحمراء

يعتبر قصر الحمراء من أهم الآثار التي تفتخر بها العمارة العربية الاسلامية، فبالاضافة إلى تخطيطه المعماري ، فأن زخارفه التي تزين جدرانه وسقوفه وساحاته هي الاخرى صفحة رائعة من صفحات الفن العربي في الاندلس .

أما زخارف قصر الحمراء فقد تنوعت ، منها ماهو منقوش في الجص أو محفور في الرخام ومنها الفسيفساء ومنها القراميد الخزفية المختلفة .

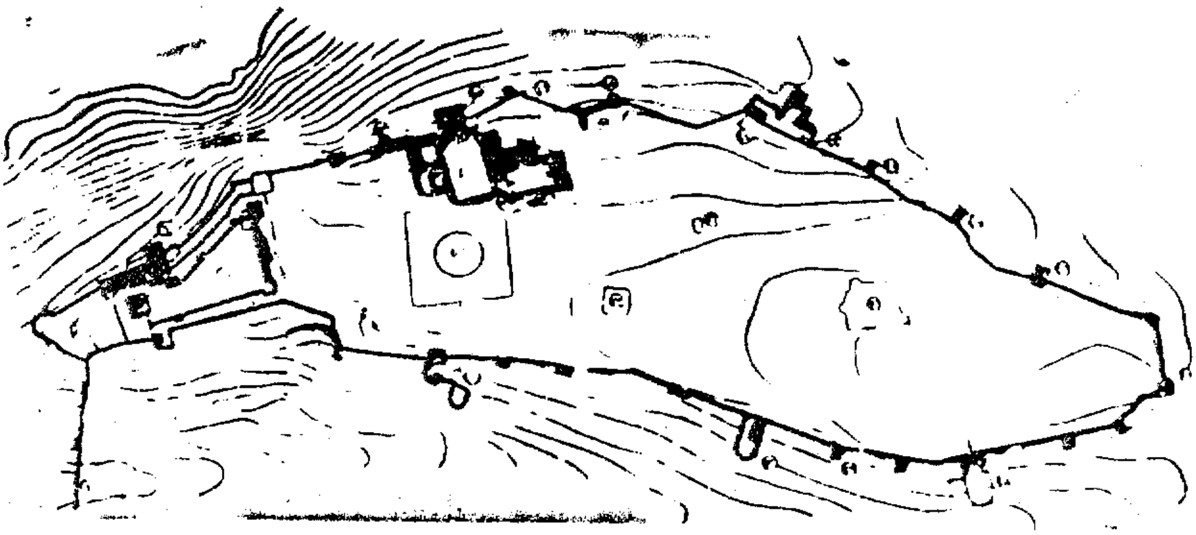
وننتقل الآن إلى استعراض الزخارف الجدارية التي تزين قصر الحمراء وهي الزخارف النباتية والهندسية والزخارف الادمية والحيوانية فضلا عن الزخارف الكتابية الزخارف القباقية .

لعل من ابرر مايستلفت النظر في زخارف قصر الحمراء ان بناة القصر افرطوا في زخرفة الجدران بأنواع مختلفة من الزخارف البنائية . واستخدم الفنان هذا النوع من الزخرفة كعنصر اساسي او كخلفية لرسومه وكتاباته.

وقد استعمل الفنان عناصر نباتية متنوعة من هذه العناصر الزهور المركبة وهي تظهر على جدران قاعة دار عائشة حيث زخرفت بفروع نباتية حلزونية تتوسطها ازهار رباعية وخماسية الاوراق . وكانت ورقة وعناقيد العنب من العناصر التي اهتم الفنان بتسجيلها على الجدران حيث نجد ان الفنان استعمل في الزخرفة فرعاً نباتياً حلزونياً تخرج منه اوراق من العنب وإلى جانبها عناقيد العنب موضوعة بالتبادل على يمين وشمال الفرع .

وقد عمد الفنان في بعض الاحيان إلى استعمال وحدات نباتية تتألف من خمسة فصوص تشبه ورقة العنب محصورة داخل اشكال لوزية الشكل . ونلمس في هذه الزخرفة الدقة والاناقة .

وتعرض لنا قاعة الاختين نموذجاً آخر من الزخارف النباتية تتألف من زهور واوراق نباتية موضوعة داخل اشكال هندسية (شكل ١) تجاورها



شكل (١)

زخرفة نباتية أخرى ذات تصاميم مختلفة مؤلفة من اوراق وزهور وفواكه (شكل ٢) بالاضافة إلى نوع من الزخرفة النباتية المعروفة بالنخيلية ، وهى مرسومة بدقة متناهية تدل على مقدرة الفنان ودقته.

أما في قبة العدل ففيها زخرفة نباتية تتألف من نوع نباتي متموج يتسم بالرشاقة . ينتهي طرفاه بخمسة أوراق نباتية إلى جانب عناقيد العنب موضوعة بالتبادل .

وتلمح الزخرفة النباتية ايضاً في ساحة الاسود والمتمثلة في افريز يضم اشكالا دائرية تتوسطها زخرفة نباتية تحيطها اربعة وحدات ممدينات الصنوبر (شكل ٣) .

وفي قاعة قمارش ودار العروسة زخرفة قوامها فرع نباتي تخرج منه وريدات بعضها ذات اربع اوراق والبعض الآخر ذات خمس اوراق يتوسطها شكل هندسي وهي مرسومة بأسلوب أقرب مايكون إلى الطبيعة (شكل ٤).

الزخارف الادمية والحيوانية .

لم تلعب الرسوم الادمية والحيوانية دوراً كبيراً في زخارف قصر الحمراء مثلما لعبته الانواع الاخرى من نباتية وكتابية ، وابرز مافي قصر الحمراء

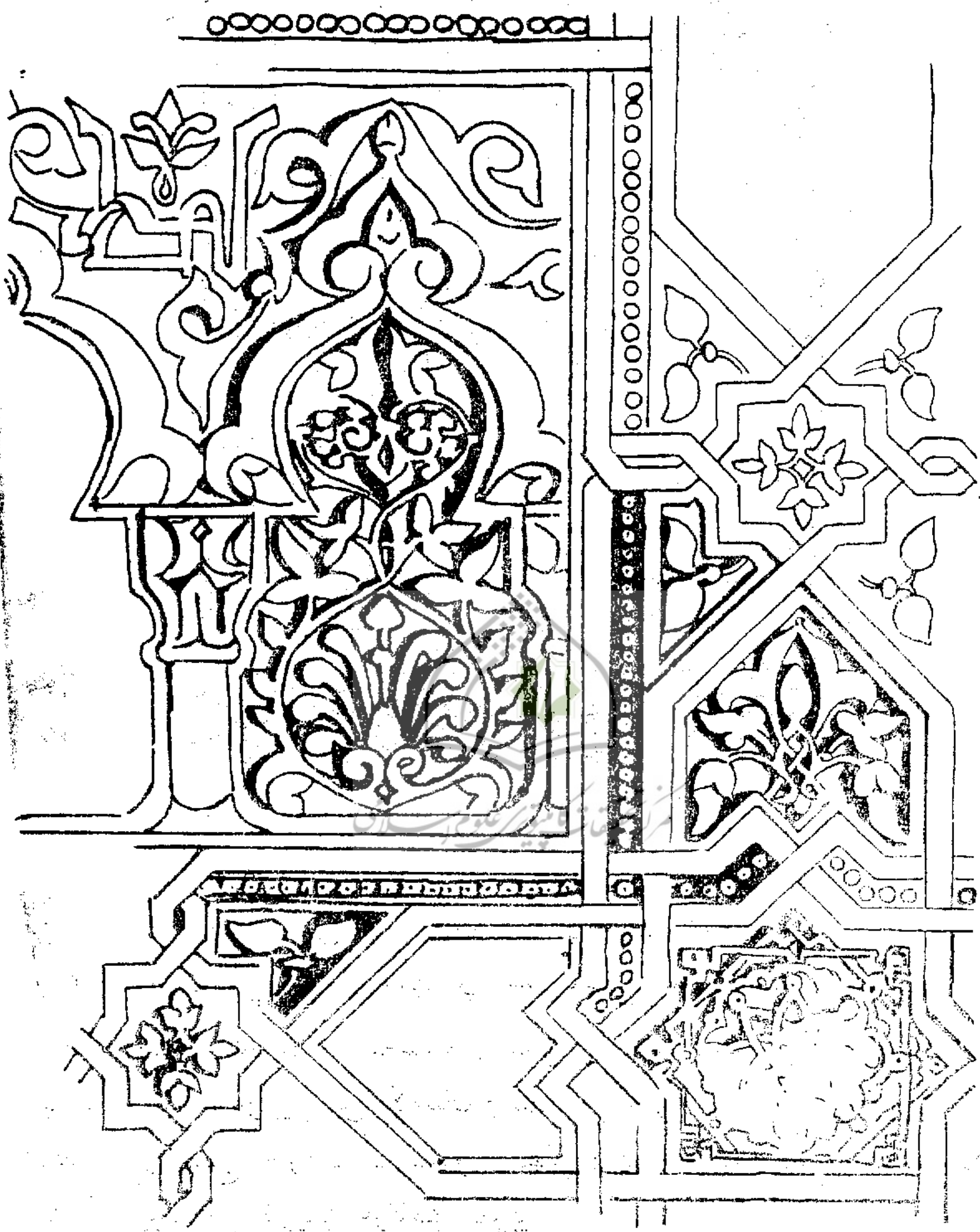


شكل (٢)

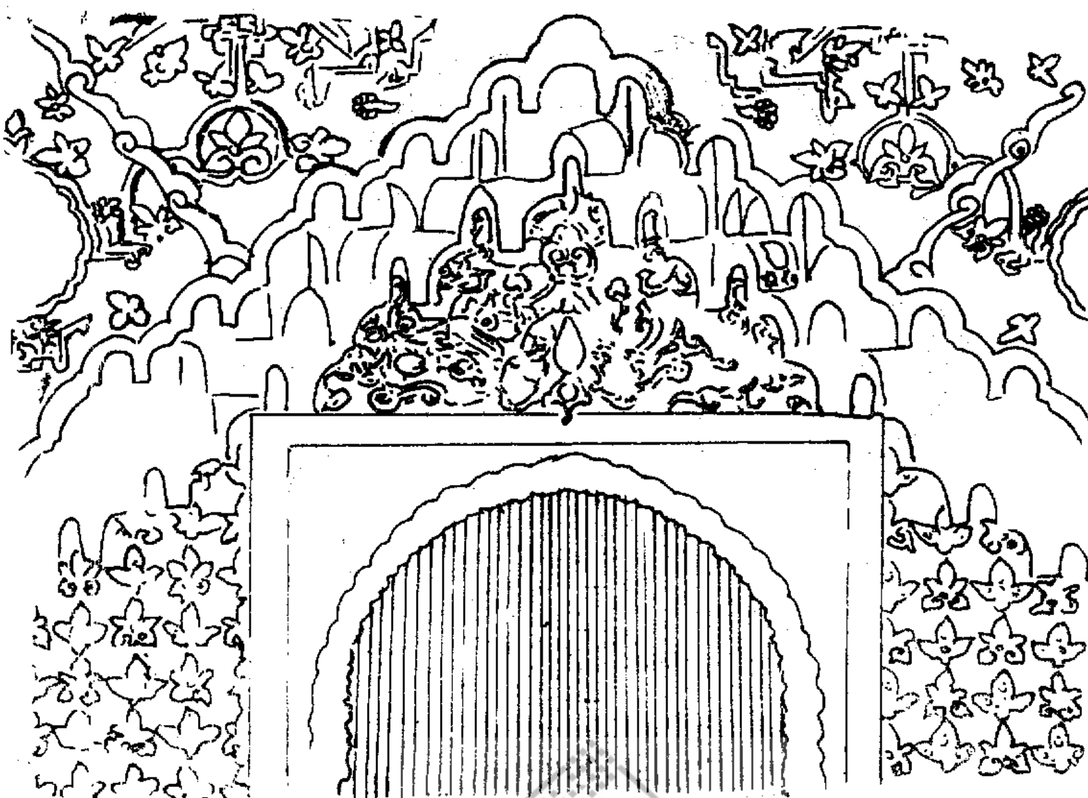
من رسوم ادمية تلك التي نجدها مصورة في سقف قاعة الصور او قاعة الملوك او قاعة العدل التي مررنا عليها في صفحات سابقة (شكل ٥).

وقد إختلف الباحثون والمختصون فيمن رسم هذه الصورة فمنهم من يعتقد انها من رسم مصورين من الاسبان ومنهم من قال انها من رسم مصورين من الاندلس واستنتج آخرون أن المصور ايطالي وانه قام بهذا العمل خلال الثلاثين سنة الاخيرة من تاريخ غرناطة العربية .

ويجمع هؤلاء على ان هذه الصور قد رسمت في القصر قبل خروج العرب منه . . وهذه الصور تعتبر خير وثيقة في التعرف على ملوك الاندلس وملابسهم وأزيائهم وأنواعها وألوانها، وكذلك التعرف على جانب من الاسلحة شكل (٦)



شكل رقم (٣)

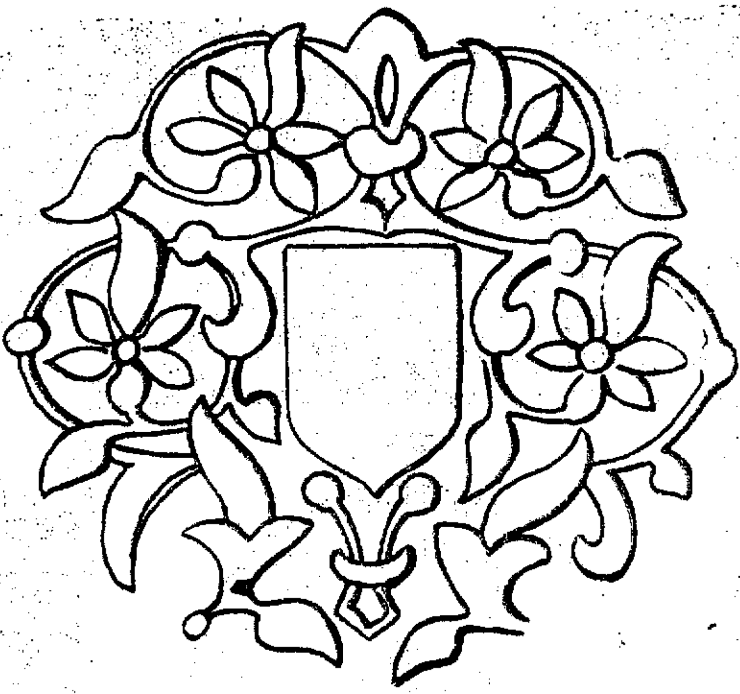


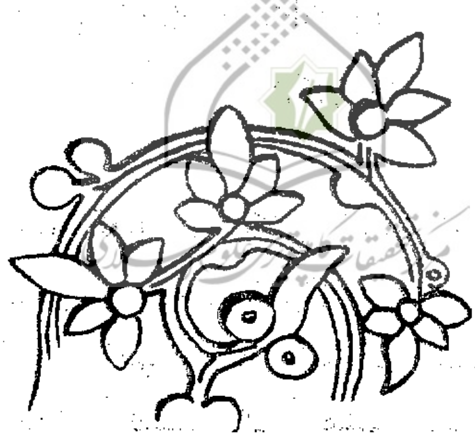
شكل (٤)

التي كانت معروفة آنذاك واشكالها وزخارفها بطريقة قد لاتتمكن من تحقيقها عن طريق النصوص التاريخية والادبية التي جاء على ذكرها المؤرخون.

وصورت الحيوانات والطيور على جدران الحمراء إلى جانب الزخارف الاخرى ومن الحيوانات والطيور التي نقشها الفنان هي كما في (الشكل ٧) تزدان بشجرة وارنب بري وثعـالب ومشاهد لصيد الحيوانـات ، وهي تحتل القسم الاسفل من الصورة حيث يُرى فيها دب وكلب وخنزير جبلي واسود وصيادون يرمون رماحهم نحو هذه الحيوانات .

وبالاضافة إلى هذه الصور ، فقد وصلت الينا من قصر الحمراء صور أخرى منها صورة مفتاح وكف نقشت في اماكن متفرقة من جدران القصر ، وقد اختلف الباحثون في اعطاء تفسير مقبول لهذه الصور وكلها تستند على التخمين والتعليلات التي لايمكن الاخذ بها والاعتماد عليها .





شكل (٥)

الزخارف الهندسية : —

أما العناصر الهندسية فقد كانت من الانواع التي اقبل عليها فنانو قصر الحمراء . وأساس الرسوم الهندسية المثلث والمربع والدائرة ، كما ابتكروا من الاشكال الهندسية الواناً وانواعاً جديدة الفوا بينها وانتجوا منها اعداداً لاحصر



شكل (٦)

لها من الوحدات والتكوينات الزخرفية مثل الاطباق النجمية والمعينات والمثلثات التي تضم بداخلها اشكالاً متعددة الاضلاع ، وقد استطاع الفنان ان يبدع في وصل هذه الزخارف وشبكها وادخال بعضها في بعض ليخلق منها اشكالاً معقدة تقوم على اساس تفكير رياضي وهندسي دقيق ، ويبدو أن تلك التصاميم لم تكن تأتي بصورة عفوية بل كانت تخضع دائماً إلى فحص ودراسة عميقين لتأتي التراكيب في غاية الدقة .

كما استخدم الفنان ايضا في الزخرفة اشكالا هندسية مؤلفة من نجوم ذات اربعة اطراف واحيانا يستعمل اشكالا نجمية تعتبر من مميزات الفن الاندلسي ومن تلك الكتابات معلومات قيمة عن بعض جوانب القصر من حيث تخطيطه ووحداته المختلفة ووظائفها ، وقد كان للشعر دور كبير في ذلك . وقد استعملت الالوان الزرقاء والحمراء والصفراء وكلها تنسجم مع اللون الابيض الجصي .

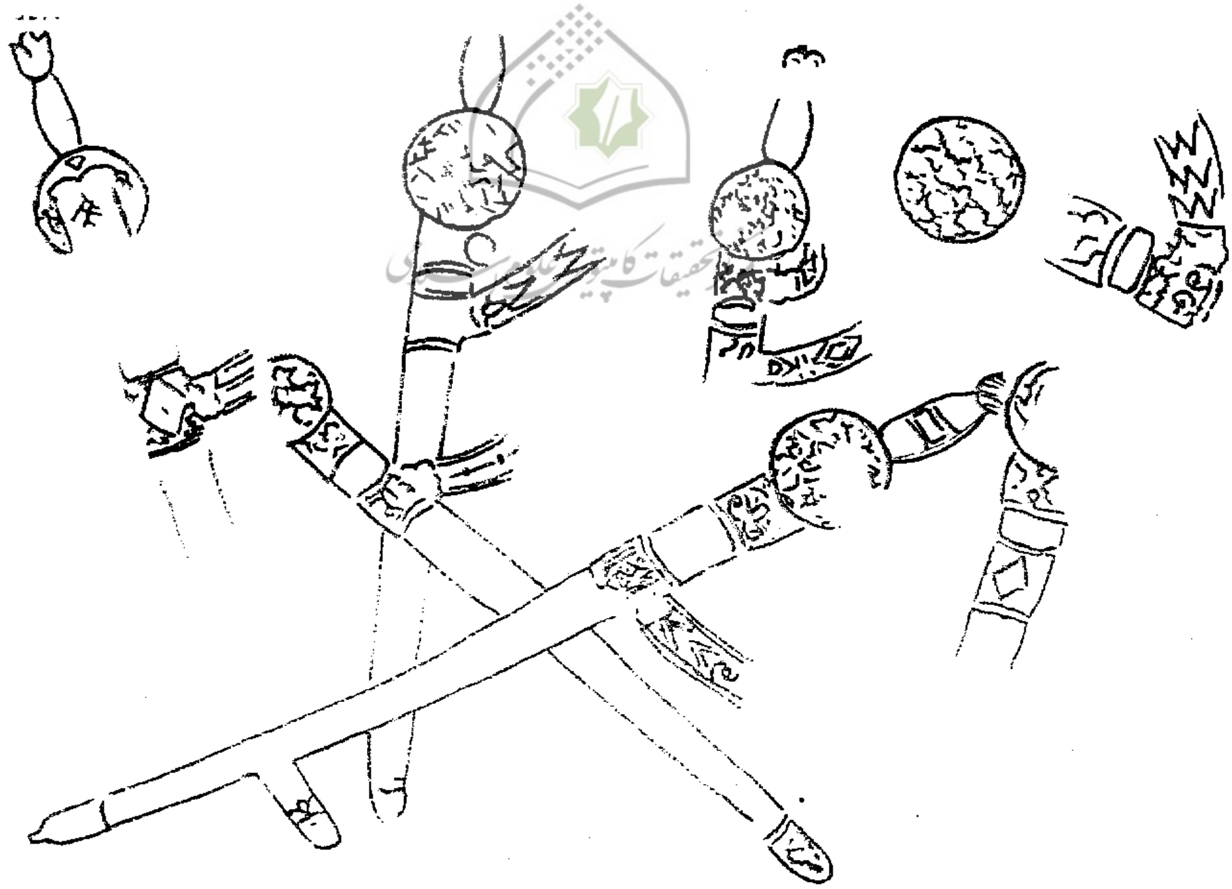
ومن العبارات التي يتكرر ظهورها في كل شبر من البناء شعار بني الاحمر وهو «لاغالب الا الله» (شكل ٨) .

ومما يستلفت النظر ان الفنان قد استعار ابياتاً كثيرة من الشعر لنقشها في معظم اقسام قصر الحمراء ، وهي من شعر ابن زمرك ، شاعر الحمراء .

وبالاضافة الى اتخاذ الابيات الشعرية لتزين القصر وزخرفته فاننا نستفيد من هذه الابيات في التعرف على بعض جوانب القصر نذكر منها على سبيل المثال تلك الحنايا في الجدار الداخلي لقاعة العرش ، حيث يعتقد بعض المختصين من علماء الاثار الاوربيين ان هذه الحنايا قد اعدت لكي توضع بها الاحذية بعد خلعها توطئه للدخول الى قاعة العرش ، بينما اوضحت بعض الابيات الشعرية المنقوشة هنا ان هذه الحنايا اعدت لكي توضع بها اباريق الماء . ومما يؤيد صحة هذا الاستنتاج كون البركة التي يؤخذ منها الماء باستمرار قريبة .



شکل (۷)



شکل (۸)

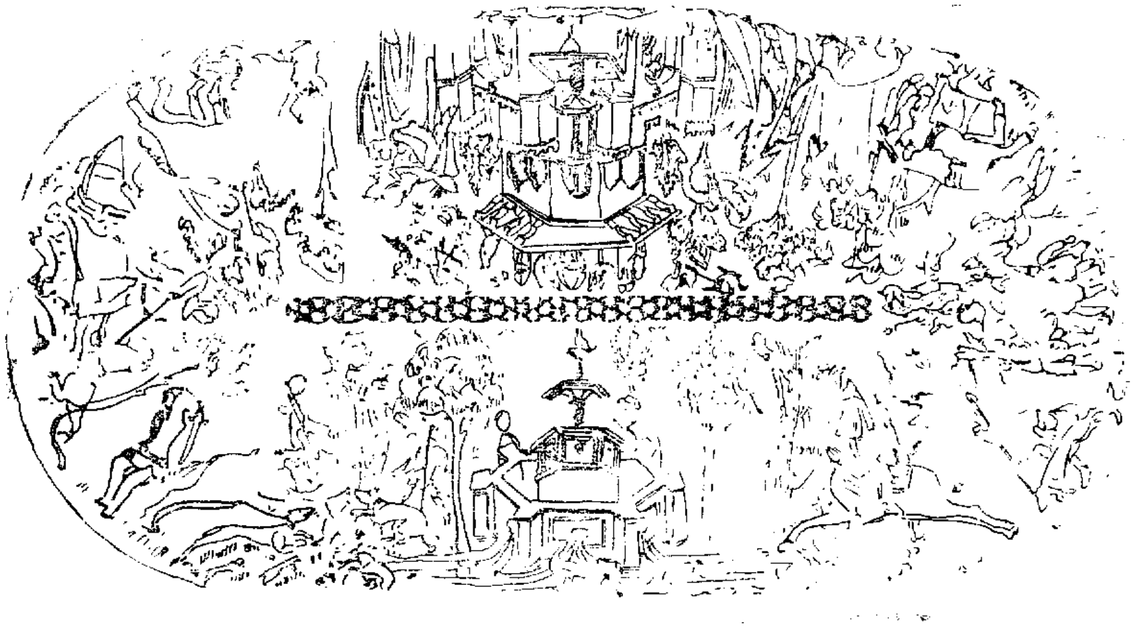
وتدون ابيات اخر من شعر ابن زمرك على المكان الذي كان يقوم فيه العرش ، وذلك من خلال عدد من الابيات الشعرية المنقوشة حول الحنية الوسطى المواجهة للداخل الى قاعة العرش التي وصفها الشاعر على لسان العرش وجعله يتحدث بها الى السلطان .

وهكذا يؤكد الشعر مرة اخرى مدى العلاقة الدقيقة بين الاثار والادب والدور الذي يمكن ان يليه في تسليط الضوء للكشف عن امور قد تفيد الباحث الاثري في مجال تخصصه .

وقد استعمل الفنان في كتابة وزخرفة قصر الحمراء انواعا من الخطوط مثل الخط الكوفي وخط النسخ .

ومن الملاحظ في النقوش الكتابية ان الصانع او الفنان كان يهدف من ورائها توضيح تلك النقوش وسهولة قراءتها الامر الذي دفعه ان يجعل حروف الكتابة كبيرة الرسم خالية من التعقيد واضحة البدايات والنهايات في معظم الاحيان .

ويلاحظ ان الفنان قد استعان ببعض ابيات من قصيدة ابن زمرك فكان يعيد نقشها مكررة على جدران غرف وقاعات القصر اكثر من مرة .



شكل (٩)



شكل (١٠)

الهوامش

(١) محمد عبد الله عنان في الاثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٢) (١٣٨١هـ ١٩٦١ ص ١٨٦) .

(٢) محمد عبد العزيز مرزوق : قصر الحمراء (المكتبة الثقافية (٩١) ١٩٦٣ ص ٣٥

(٣) شهاب الدين احمد بن المقرىء : ازهار الرياض حـ ٢ ص ٦٥

(٤) حسين مؤنس : رحلة الاندلس . الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر ط ١٩٦٣ ص ١٨٥ .

(٤) مرزوق : المصدر السابق ص ٤٢

(٦) مؤنس : المصدر السابق ص ١٨٦

(٧) مرزوق : المصدر السابق ص ٤٧ — ٤٨

(٨) عنان : المصدر السابق ص ١٩٤

(٩) المصدر السابق ص ١٩٤ ، مرزوق : المصدر السابق ص ٥٣

(١٠) عنان ، المصدر السابق ص ١٩٤ ، مرزوق المصدر السابق ص ٥٣

(١١) مرزوق : المصدر السابق ص ٥٤

(١٢) عنان ، المصدر السابق ص ١٩٦ — ١٩٧

(١٣) مؤنس ، المصدر السابق ص ١٨٩

(١٤) عنان ، المصدر السابق ص ١٩٧ ، مرزوق : المصدر السابق ص ٥٧ — ٥٨

(١٤) عنان ، المصدر السابق ص ١٩٧

(١٦) المصدر السابق ص ١٩٧

(١٧) المصدر السابق ص ١٩٧

(١٨) محمد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور . سلسلة اقرأ (١٩٠) دار المعارف بمصر ص ١٢٢

(١٩) مرزوق : المصدر السابق ص ٧٢

(٢٠) عنان ، المصدر السابق ص ٢٠٣

(٢١) مرزوق : المصدر السابق ص ١٩٠

(٢٢) المصدر السابق ص ٨٤

(٢٣) المصدر السابق ص ٨٥ — ٨٨

(٢٤) مرزوق : المصدر السابق ص ٩٢

(٢٥) مرزوق : المصدر السابق ص ٨٥ — ٨٨
(٢٦) مؤنس : المصدر السابق ص ١٩٠
(٢٧) مرزوق : المصدر السابق ص ٩٥
(٢٨) المصدر السابق ص ١٠١
(٢٩) المصدر السابق ص ١٠١
(٣٠) المصدر السابق ص ١٠٤
(٣١) المصدر السابق ص ١٠٤
(٣٢) مانويل جوميت مورينو : الفن الاسلامي في اسبانيا . ترجمة د . لطفي عبد البديع ود . محمد عبد العزيز سالم (الدار المصرية للتأليف والترجمة) ص ٣١٠
(٣٣) مرزوق : المصدر السابق ص ٢٧٩ ، مؤنس المصدر السابق ص ١٩١ ، عنان المصدر السابق ص ٢٠٤ .

السرقة في القانون العراقي القديم

«دراسة مقارنة»

الدكتور عامر سليمان ابراهيم
استاذ في التأريخ القديم
كلية الآداب / جامعة الموصل

السرقة من الجرائم الخطيرة التي عرفتها المجتمعات البشرية منذ اقدم الازمنة التي عرفت فيها التنظيمات الاجتماعية ، حرمتها وقاومتها جميع الشرائع والقوانين والديانات وشددت في عقوبتها وعدتها من الجرائم القليلة الكبرى التي لايمكن التسامح معها ، كالقتل والزنا ، لما لها من اثر كبير وخطير على امن ورفاهية الفرد والمجتمع ، فاثارها تنعكس وبشكل مباشر على انفس مايسعى الانسان الحصول عليه وهو المال ، وبالنسبة لبعض القوانين القديمة ومنها القوانين العراقية القديمة ، والولد .

معلوماتنا عن احكام السرقة في المجتمعات البدائية القديمة التي لم تعرف القوانين المدونة قليلة جدا وتعتمد الحدس والتخمين والقياس يضاف الى ذلك ماهو معروف في المجتمعات البدائية المتأخرة زمنيا او المعاصرة . وتتوفر لدينا معلومات وافية وغزيرة عن احكام السرقة باشكالها المختلفة منذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد فصاعدا عندما اخذت القوانين طريقها الى التدوين ، وكان ذلك في القسم الجنوبي من العراق . ثم اصبح تدوين

القوانين من بعد ذلك من الامور المألوفة في المجتمعات المدنية المتقدمة بعد ان شاع استخدام الكتابة .

وقد اختلفت الشرائع والقوانين في تحديدها لمفهوم السرقة التي تستوجب العقوبة ، كما اختلفت في تحديد العقوبة على من يرتكب هذه الجريمة وفي كيفية تنفيذ تلك العقوبة وانزالها في المجرم ، غير انها اتفقت جميعا على التشديد في معاقبة مرتكبي جريمة السرقة بما يتناسب ويوازى الضرر الناتج عن الجريمة ، فتفاوتت العقوبة مابين رد الشيء المسروق او ضعفه او اضعافه الى المسروق منه ومابين قتل السارق او طرده ونفيه من المجتمع او ايقاع المثلة فيه او بيعه رقيقا او ضربه وايلامه .

وفي هذا البحث محاولة لتقديم تعريف محدد لجريمة السرقة في القانون العراقي القديم يعتمد على ماهو متوفر من نصوص قانونية قديمة ، ومستفيد من تعريف السرقة في القوانين الاخرى القديمة منها والمعاصرة . ولبيان موقع القوانين العراقية القديمة من القوانين الاخرى ومدى تشابهها او اختلافها عنها في تحديد مفهوم السرقة فقد تطرقنا بايجاز الى تعريف السرقة في كل من العهد القديم والقانون الروماني والشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية مبتدئين بالاحدث فالاقدم من حيث الفترة الزمنية لننقل القاريء من احدث القوانين ، ومنها القوانين العراقية ،الوضعية الى اقدم القوانين المدونة المعروفة ، وهي القوانين العراقية القديمة . ونفيد في وضع الصورة عن القوانين العراقية القديمة مما ورد في القوانين الاخرى ولاسيما الوضعية منها لخصوصية القوانين العراقية القديمة واختلافها عن القوانين الوضعية في اسلوب صياغتها ومعالجتها للقضايا المختلفة كما سيتبين ذلك من خلال البحث . وفي الاجزاء اللاحقة لهذا البحث ستناقش اركان جريمة السرقة والظروف المشددة والمخففة والعقوبات المفروضة على كل حالة وفق الاسلوب نفسه وبالمقارنة مع القوانين الاخرى المذكورة ، آملين ان يكون لمثل هذا البحث فائدة للمتخصصين في دراسة تاريخ القانون ، ولاسيما القانون العراقي ، الى جانب فائدته في القاء الضوء على جانب من جوانب تراثنا العربي القديم المشرق .

تعريف السرقة :

السرقة لغة «أخذ الشيء من الغير خفية» ومنها استرق السمع اذا سمع مستخفيا ويقال وهو يسارق النظر اليه اذا انتظر غفلته لينظر اليه» (١) .

والسارق اسم فاعل من سرق وهو من يأخذ مال الغير على طريق السرقة .

السرقة في القوانين الوضعية :—

عرفت القوانين الوضعية ، ومنها القانون الفرنسي ، السارق بانه «كل من اختلس منقولا مملوكا لغيره » (٢) . واخذت بعض القوانين في الاقطار العربية بهذا التعريف ومنها القانون العراقي حيث جاء في قانون العقوبات البغدادي في تعريف السارق بانه «كل من اختلس مالا منقولا مملوكا للغير بدون رضاه» (٣) .

اما القانون المصري فعرف السارق بانه « كل من اختلس منقولا مملوكا للغير » (٤) .

والملاحظ في هذه التعاريف انها اغفلت الاشارة إلى الركن الادبي ، اي القصد الجنائي ، وتضمنت لقيام السرقة ضرورة توفر الركن المادي فحسب .

وجاء قانون العقوبات العراقي الجديد (١٩٧٣) معدلا لتعريف السرقة حيث نصت المادة ٤٣٩ منه على تعريف السرقة بانها «اختلاس مال منقول مملوك لغير الجاني عمدا» .

فاشار القانون بذلك إلى ضرورة توفر الركن الادبي بنصه على العمد في السرقة . ويضيف القانون العراقي في تحديد معنى السرقة مانصه :

---

(١) : ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٢ ، صفحة ٢١ .

(٢) : القانون الفرنسي ، مادة ٣٧٩ (حسبما جاء في ترجمة جندي عبد الملك في الموسوعة الجنائية) .

(٣) : قانون العقوبات البغدادي ، مادة ٢٥٨

(٤) : جندي عبد الملك ، الموسوعة الجنائية ، القاهرة ، ١٩ ، ج / ٤ صفحة ١٩٠ .

«ويعتبر مالا منقولا لتطبيق احكام السرقة النبات وكل ماهو متصل بالارض او مغروس فيها بمجرد فصله عنها والثمار بمجرد قطعها والقوى الكهربائية والمائية وكل طاقة او قوة محرزة اخرى».

ويعد في حكم السرقة اختلاس المنقول المحجوز عليه قضائيا او اداريا او من جهة مختصة اخرى والمال الموضوع تحت يد القضاء بأي وجه ولو كان الاختلاس قد وقع مع مالك المال ، وكذلك اختلاس مال منقول بحق انتفاع او بتأمين عيني او بحق حبس متعلق به حق الغير ولو كان ذلك حاصلا على مالكه.

السرقة في الشريعة الاسلامية : —

السرقة شرعا هي «اخذ المال من الغير على وجه الخفية» (١) ف «الاخذ» جنس يتناول اخذ الشيء من النفس ومن الغير ، مالا كان الماخوذ او غير مال ، خفية او جهرا.

و«المال» قيداول خرج به ماليس بمال فلا يسمى اخذه سرقة ، كالرجل الحر.

و«الغير» قيد ثان ، خرج اخذ المال من النفس ، كالاستيلاء على الوديعة او العارية. فان هذا النوع من الاخذ : خيانة وليس سرقة. و«على وجه الخفية» قيد ثالث ، خرج به اخذ المال من الغير جهرة ، كالنهب والغصب والحرابة» (٢)

ويتضح من هذا التعريف بان هناك افعالا كثيرة قد تقع تحت حكم السرقة او لاتقع لذا وجب التمييز بين السرقة وبين غيرها من انواع اخذ مال الغير ووجب تحديد قيود وشروط السرقة الموجبة لقطع اليد تطبيقا لما جاء في قوله تعالى :

«السارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز

---

(١) : الكبيسي ، احكام السرقة ، صفحة ١٩ ، هامش ٣ الذي يشير الى شرح فتح الغدير ٢١٩/٤ وعقود الجواهر المنيفة صفحة ١٤٣ والدار المختار بهاش امين عابدين ١٩٨/٣

(٢) : المصدر السابق صفحة ١٩

وكان اختلاف الفقهاء في تحديد وتعريف السرقة الموجبة للقطع على الرغم من اتفاقهم جميعا في بيان حقيقة السرقة كما جاء في التعريف اعلاه . فاضاف البعض قيوداً او شروطاً يجب توفرها لوجوب القطع معتمدين في ذلك على ماجاء في الاحاديث النبوية الشريفة بهذا الخصوص وعلى التفسير اللغوي للتسميات والمصطلحات التي تطلق عادة على مختلف انواع اخذ مال الغير .

فجاء في تعريف بعض الشافعية للسرقة التي توجب القطع بانها «اخذ البالغ العاقل ، المختار ، الملتزم لاحكام الاسلام (١)نصابا من المال بقصد سرقته ، من حرز مثله ، لاشبهة له فيه» (٢) .

بينما عرفها بعض الحنفية بانها : «اخذ البالغ العاقل عشرة دراهم ، او مقدارها ،خفية ممن هو مقصّد للحفظ ،مما لايتسارع اليه العشار ،من المال المتمول للغير من حرز وبلا شبهة » (٣) .

وعرفها بعض المالكية بانها : «اخذ مكلف حرا لايعقل لصغره ، او مالا محترما لغيره نصابا اخرجه بقصد واحد ، لاشبهة له فيه» (٤) .

اما الحنابلة فانهم يتفقون مع بقية المذاهب في جملة القيود التي نصوا عليها الا انهم اقتصروا في تعريفهم للسرقة على المعنى اللغوي لها فقالوا انها « أخذ المال على وجه الخفية والاستتار» (٥) .

وقريب من تعريف الحنابلة للسرقة تعريف الشيعة لها حيث قالوا : «أخذ مال الغير المحرم خفية من غير ان يؤتمن» (٦) .

(١) سورة المائدة ، اية ، ٤١

(٢) الكبيسي المصدر السابق ، صفحة ٢٣ الذي يشير الى شرح فتح الغدير ٢١٦/٤

(٣) شرح فتح الغدير ، ٢١٦/٤ (هامش الكبيسي ، صفحة ٢٣) .

(٤) شرح حدود ابن عرفة صفحة ٥٠٣ وشرح الخرشي ١٩/٨ (هامش الكبيسي صفحة ٢٤)

(٥) المغنى لابن قدامه ، ٧٩/٩ (هامش الكبيسي ، صفحة ٢٤)

(٦) التاج المذهب ٢٣٥/٤ ، الروض النظير ٢٨٨/٤ ، شرائع الاسلام ٢٥٤/٢ (هامش الكبيسي ، صفحة ٢٤) .

ومن مجمل ماجاء في التعاريف السابقة يتوجب ثلاثة أركان رئيسية لتحقق السرقة الموجبة للقطع هي :

الأخذ ، وشرطه هتك الحرز والاخراج منه وان يكون على سبيل الخفية وان يكون بقصد الاعتداء . والمال المأخوذ ، وشرطه الاحراز والنصب والتقوم ، والتمول . والمأخوذ فيه ، وشرطه أن تكون ملكيته تامة .

وجميع التعاريف السابقة ذات علاقة بالسرقة الصغرى ، أما السرقة الكبرى، وهي قطع الطريق والتي يطلق عليها مجازاً اسم (الحرابة) فالاصل فيها قوله تعالى :

«انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ، ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . الا الذين تابوا قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم» (١) .

وواضح أن الفرق بين السرقة والحرابة أن السرقة ، ماتمت في الخفاء كما يدل على ذلك معنى اللفظ في حين أن الحرابة تقع مجاهرة الا أن فيها وجه خفية من حيث اختفاء المحارب عن الامام ، أو من اقامه لحفظ الأمن. لذا لاتطلق السرقة على قطع الطريق الا مقيدة فيقال السرقة الكبرى .

ويعتبر السارق محارباً اذا خرج لأخذ المال على سبيل المغالبة ، فأخاف السبيل أو أخذ مالا ، أو قتل أحداً ، أو فعل ذلك كله (٢) .

السرقة في القانون الروماني : —

يختلف مفهوم السرقة في القانون الروماني باختلاف العهود الرومانية ، ففي القانون الروماني القديم ، عُرفّت السرقة بأنها «كل عمل مخالف للقانون يراد به تملك مال منقول مملوك للغير» . فالسرقة ، استناداً إلى هذا

(١) سورة المائدة ، اية ٣٣ — ٣٤

(٢) الكبيسي ، المصدر السابق ، صفحة ٢٦ .

التعريف ، هي اختلاس الشيء أو نقل الشيء المسروق أو أخذه بغير رضا صاحبه بقصد اضافته إلى ملك السارق . وتتحقق السرقة وفق القانون الروماني القديم في حالة الاستيلاء على شيء ضائع مملوك للغير أو رقيق أو حيوان هارب ، كما تقع أيضاً على الأموال المنقولة والأشخاص الخاضعين لسلطة غيرهم كالابن والرقيق والزوجة في حالة الزواج مع السيادة . ولا تقع السرقة على الصغار ولا على الاشياء غير المملوكة لاحد .

يتضح من هذا ان القانون الروماني القديم لم يفرق بين نقل الشيء المسروق خفية أو بالقوة أو الاكراه بل اكتفى بأن يكون الفعل مخالفاً للقانون .

وفي العصر العلمي ، إصبح مفهوم السرقة يتسع لحالات جديدة عدا حالة الاختلاس فاصبحت السرقة تشمل: (١) .

١ : سرقة الشيء ذاته ، ويراد بها اختلاس مال الغير .

٢ : سرقة الاستعمال وتقع عند استعمال الحائز للشيء العائد للغير استعمالا بغير حق او بطريقة مخالفة للاتفاق الذي تم بمقتضاه حيازته للشيء ، كالوكيل المودع او المستعير . ويسمى ذلك في القوانين الحديثة بخيانة الامانة . وقد اشار جوستنيان اليها في كتابة النظم بقوله : «لاتتحقق السرقة في صورة اختلاس الشيء على خلاف رغبة صاحبه. فالدائن المرتهن اذا استعمل الشيء المرهون، والوديع اذا استعمل المستعير الشيء استعمالاً مخالفاً لما اعير له من أجله كمن استعار اواني فضية بحجة استعمالها في مأدبة لاخوانه ، فسافر وأخذها معه . ومن استعار فرساً ليركبه في نزهة قاصدة . فاقتاده إلى مكان قصي بعيد الشقة .

وهذا ماكتبه المتقدمون فيمن استعار حصاناً فخرج إلى ميدان القتال»(٢).

---

(١) انظر د . صبيح مسكوني ، تاريخ القانون في العراق القديم ، بغداد ، ١٩٧١ ، صفحة ٤٢١ .

(٢) مسكوني ، المصدر السابق ، صفحة ٤٢٢ مشيرا الى كتاب النظم صفحة ٢٤٨ .

٣: سرقة وضع اليد وتقع عند أخذ شخص شيئاً لم يكن له عليه حق وضع اليد من شخص آخر له حق الاحتفاظ به كالمدين الراهن ، الذي يسترجع الشيء المرهون من الدائن المرتهن قبل الوفاء (١) .

من هذا يتضح أن القانون الروماني كان أكثر توسعاً من حيث الركن المادي من القوانين الوضعية ولكنه اشد تضيقاً من حيث الركن الأدبي وهو القصد الجنائي . فلم تكن السرقة قاصرة على اختلاس الشيء نفسه بل كان يجوز ان تتناول منفعة الشيء او سلب حيازته غير انه كان يشترط كركن اساس للجريمة ان يكون الباعث عليها هو نية التملك أي الكسب بدون سبب ، فلا سرقة اذا كان باعثها مجرد الانتقام من المجني عليه دون الاستفادة من الشيء المسروق .

وعلى هذا فالسرقة في القانون الروماني Furtum تضم السرقة والاحتيال وخيانة الامانة وقبض مبلغ بسوء نية على انه سداد لدين لاوجود له .

السرقة في العهد القديم (٢) :ــ

لم يرد في العهد القديم تعريف عام للسرقة كما لم يرد تحديد دقيق لمفهومها

(١) مسكوني ، المصدر السابق ، صفحة ٤٢٦ .

(٢) : العهد القديم او العتيق : وهو كتاب اليهود المقدس ويتألف من تسع وثلاثون سفرا ويطلق احيانا على الاسفار الخمسة الاولى ، وهي اسفار التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية ، مصطلح التوراة ، او ,,كتب موسى الخمسة" وسميت باليونانية بنتاتيك Pentatichus اي الكتاب ذو الاسفار الخمسة ويظن بعض اليهود ان الاسفار الخمسة الاولى هي بقايا التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام . وعلى هذا فهنالك فئة قليلة من اليهود لا تعترف بغير الاسفار الخمسة الاولى وتعرف هذه الفئة بالسامريين نسبة الى السامرة وبقايا هذه الفئة كانت والى عهد قريب تسكن في مدينة نابلس ولديها نسخة قديمة من الاسفار الخمسة تعتقد بانها ترجع الى ماقبل العهد الميلادي .

اما الاسفار الاربع والثلاثون الاخرى فتنقسم بدورها الى مجموعتين رئيسيتين الاولى تسمى «نبييم» اي الانبياء والثانية تسمى «كتوبييم» اي الكتابات والاسفار وتتألف مجموعة النبييم من اثنين وعشرين سفرا في حين تتألف مجموعة الكتوبييم من اثني عشر سفرا هي البقية الباقية من العهد القديم .

شأنه في ذلك شأن القوانين العراقية القديمة . غير انه من الممكن استنتاج تعريف السرقة ومفهومها العام من خلال تحليل ماورد في اسفار العهد القديم من نصوص تخص هذه الجريمة وعقوبة كل حالة من الحالات المذكورة في هذه النصوص .

فقد جاء في سفر التثنية ، الاصحاح الرابع والعشرين ، مانصه :

«اذا وجد رجل قد سرق (١) نفسا من اخوته بني اسرائيل واسترقه وباعه يموت ذلك السارق فتنزع الشر من وسطك»

ويستدل مما ورد في سفر الخروج ان المقصود بسرقة الانسان واسترقاقه سرقة اي انسان دون اشتراط كونه من بني اسرائيل حيث نصت الفقرة الخامسة عشرة من السفر المذكور :

«ومن سرق انسانا وباعه او وجد في يده يقتل قتلا» وبالنسبة لسرقة الاموال المنقولة جاء في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر الخروج (فقرة ١ — ٤) :

«اذا سرق انسان ثوراً او شاةً فذبحه او باعه ، يعوض عن الثور بخمسة

= يرجع تاريخ اقدم نص مدون من العهد القديم الى القرنين الاول والثاني قبل الميلاد التي تسمى عادة بنصوص ام قرمان المكتشفة عند الساحل الشمالي الغربي من البحر الميت قرب اريحا في حين كانت اول ترجمة للعهد القديم الى اللغة اليونانية والتي تعرف عادة بالترجمة السبعينية في اواسط القرن الثالث قبل الميلاد وترجع اقدم ترجمة عربية للتوراة الى القرن الثامن الميلادي : وتشير المعلومات المتوفرة لدينا الى ان اول تدوين اجزاء العهد القديم كان في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد عندما كان اليهود في بلاد بابل بعد ان سباهم نبوخذ نصر وجاء بهم الى بلاد بابل ، لذا جاءت الاخبار فيها محرفة ومزيفة بما ينسجم واهداف اليهود ونظرتهم الى البابليين والاشوريين الذين قضوا على مملكتهم وكانت علاقتهم بهم علاقة عدائية طوال الوقت .

(١) سفر التثنية ، الاصحاح ٢٤ فقرة ٧ وقد استخدم النص العبري الفعل جنب (ويقابله بالعربية جنب) للدلالة على فعل السرقة واستخدمت صيغة اسم الفاعل من الفعل نفسه (جناب) للدلالة على السارق (انظر Brown, Driver and Briggs, Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, Oxford, 1959, P. 170.

٣/١٩

ثيران وعن الشاة باربعة من الغنم . ان وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم. ولكن اذا اشرقت عليه الشمس فله دم . انه يعوض ان لم يكن له يبع بسرقته. ان وجدت السرقة في يده حية ثوراً اكانت ام حمارا ام شاة يعوض باثنين» كما جاء في الاصحاح السابع من سفر يشوع (الفقرة ٢١ ــ ٢٥) ان غجان سرق من الغنائم :

«رايت في الغنيمة رداء شنعارياً نفيسا ومئتي شاقل فضة ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلا فاشتهيتها واخذتها وهاهي مطمورة في الارض في وسط خيمتي والفضة تحتها . فارسل يشوع رسلا فركضوا الى الخيمة واذا هي مطمورة في خيمته فضة تحتها . فاخذوها من وسط الخيمة واتوا بها الى يشوع والى جميع بني اسرائيل وبسطوها امام الرب فاخذ يشوع غجان بن دارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم الى وادي عخور . فقال يشوع كيف كدرتنا . يكدرك الرب في هذا اليوم . فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة واحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة واقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة الى هذا اليوم».

كما يمكن ان نورد في هذا المجال النص الوارد في سفر الخروج (الاصحاح الثاني والعشرين ، فقرة ٧ ــ ٢) الذي تتضمن سرقة الوديعة من قبل المودع لديه والتي كانت تعتبر سرقة . فقد جاء في النص انه : «اذا اعطى انسان صاحبه فضة او امتعة للحفظ فسرقت من بيت الانسان فان وجد السارق يعوض باثنين . وان لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت الى الله ليحكم هل لم يمد يده الى ملك صاحبه في كل دعوى جناية من جهة ثور او حمار او شاة او ثوب او مفقود ما يقال ان هذا هو تقدم الى الله دعواهما فالذي يحكم الله بذنبه يعوض صاحبه باثنين» .

ان القسم الاول من النص الاخير خاص بحدوث سرقة في بيت المودع لديه وتغريم السارق دفع ضعف ماسرق الى صاحب الوديعة . اما القسم

الثاني من النص فيشير الى حالة لم يعثر فيها على السارق الذي ادعى به ، كما يفهم من النص ، المودع لديه . في مثل هذه الحالة يقدم المودع لديه الى القضاة فان ثبت بأن المدعي ، اي صاحب الوديعة ، هو المذنب ، اي انه هو السارق ، فعليه ان يدفـــع ضعف ماكان سودعاً في حالة ثبوت ذنبه وهي العقوبة نفسها المفروضة على السارق في القسم الاول من النص كما نصت الفقرة ١٢ من الاصحاح نفسه :

«أن سرق من عنده يعوض صاحبـــه»

اي ان سرقت الوديعة فعليه ان يعوض صاحب المال بان يقدم له مايقابل ماله وليس ضعف المال ، كما في النص السابق .

نستخلص مما سبق من نصوص وردت في العهد القديم ان السارق من وجهة نظر العهد القديم هو :

«كل من اخذ خفية ، اوباع ، مالا منقولا مملوكا للغير او انسانا ، او تصرف بوديعة بقصد التملك» .

السرقة في القوانين العراقية القديمة :ـ

ان قراءة سريعة لما ورد في القوانين العراقية القديمة المكتشفة حتى الان تبين بان تلك القوانين لاتتضمن احكاما عامة للجرائم المختلفة بل انها تتحدث عن حالات وفرضيات معينة تنص على احكامها. فليس هناك مثلا تحديد دقيق وواضح للمفهوم القانوني لجريمة القتل او الزنا او السرقة او غيرها بل هناك حالات خاصة ذات علاقة بمثل هذه الجرائم أوردها المشرع وبين احكامها ويمكن اعتبارها قياساً نماذج للحالات المشابهة. وينطبق هذا على ماورد في العهد القديم من احكام خاصة بالجرائم كما هي الحال بالنسبة لاحكام السرقة.

وعلى الباحث في القانون الجنائي في العراق القديم ان يستخلص تعريف واحكام الجرائم المختلفة مما ورد في الحـــالات المذكورة في القوانين

وقد تم حتى الان العثور على عدة مجموعات قانونية عراقية قديمة ترقى بتاريخها إلى فترات مختلفة تعد من اقدم المجموعات القانونية المدونة المكتشفة في العالم حتى الان(١). ولتحديد مفهوم السرقة في القانون العراقي القديم لابد من دراسة وتحليل جميع المواد القانونية ذات العلاقة بالسرقة الواردة في هذه القوانين للوصول إلى تعريف عام لجريمة السرقة وبيان احكامها. وحيث ان هناك العديد من المواد القانونية المتشابهة من حيث المعنى العام والمختلفة في التفاصيل، لذا فقد اختير نموذج واحد من كل مجموعة من المواد القانونية المتشابهة واشير فقط إلى المواد الاخرى التي لاتضيف إلى مفهوم السرقة المستخلص من تلك النماذج شيئا جديدا.

وعلى الرغم من التفاوت الزمني الكبير بين القوانين العراقية القديمة المعروفة حتى الان ،الا ان المبادىء والاحكام العامة التي تضمنتها تلك القوانين جاءت متشابهة إلى حد كبير وان اختلفت في التفاصيل. ومن اسباب هذا التشابه اصل الاقوام العراقية القديمة (الاكدية والبابلية) (الامورية) والاشورية والكلداية(المشترك، وانتماؤها الى الاقوام العربية القديمة التي خرجت في فترات مختلفة من شبه الجزيرة العربية وانتشرت في بلاد الشام وبلاد وادي

(١) : يعتبر قانون اور – نمو (٢١١٣ – ٢٠٩٦ ق .م) مؤسس سلالة اور الثالثة اقدم القوانين المدونة المكتشفة حتى الان ويليه من حيث الفترة الزمنية قانون لبت – عشتار (١٩٣٤ – ١٩٢٤ ق . م) خامس حكام سلالة ايسن وقانون مملكة اشنونا (القرن التاسع عشر قبل الميلاد) وقانون حمورابي (١٧٩٢ – ١٧٤٩ ق . م) سادس ملوك سلالة بابل الاولى والقوانين الاشورية الوسيطة (١٤٥٠ – ١٢٥٠ ق .م) والقوانين البابلية الحديثة حول القوانين العراقية القديمة بصورة عامة انظر :

G. R. Driver and J. Miles, The Assyrian Laws, Oxford, 1935
The same auther, The Babylonian Laws, Oxford, 1955,
A. Goetze, The Laws of Eshnunna, AASOR,31 (1956/;
A. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts.

د . فوزي رشيد ، شرائع العراق القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣ ، عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، موصل ، ١٩٧٧ .

الرافدين ،وكذلك العلاقات الوثيقة التي ربطت بلاد بابل وبلاد اشور ووقوعهما في معظم الاحيان تحت سلطة مركزية واحدة في بابل او اشور وخضوعهما للعادات والتقاليد والنظام والقوانين نفسها.

ولاعطاء صورة واضحة ودقيقة عن القوانين العراقية القديمة، لغتها واسلوب صياغة موادها، فقد اوردنا الترجمة الحرفية للمواد القانونية المنتخبة من بين مجموع المواد القانونية ذات العلاقة بجريمة السرقة كما نقلنا وبالحرف العربي ايضاً اصوات اللغة الاكدية التي كتبت بها تلك المواد لنبين الشبه الكبير بين اللغة الاكدية واللغة العربية(١).

(١) دونت جميع القوانين العراقية القديمة المعروفة حتى الان ، باستثناء قانوني اور – نمو ولبت – عشتار ، باللغة الاكدية.واللغة الاكدية مصطلح يشير الى جميع اللهجات العربية القديمة (السامية) التي انتشرت في العراق القديم منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد وحتى آخر استخدام اللهجة البابلية المتاخرة . اي ان المصطلح يشمل اللهجات البابلية والاشورية المختلفة . وترجع اللغة الاكدية باصولها القديمة الى اللغة الام نفسها التي ترجع اليها اللغة العربية ، لذا كان الشبه كبيرا بين اللغة الاكدية واللغة العربية وبقية اللغات من هذه المجموعة سواء من حيث المفردات او التراكيب او الاساليب اللغوية .

اما قانون اور – نمو وقانون لبت – عشتار فقد دونا باللغة السومرية التي لا تمت الى اللغة الاكدية او العربية بعلاقة قربى.

وقد استخدم العراقيون القدماء الخط المسماري ، وهو خط ابتدعه السومريون لتدوين اللغة السومرية ، لتدوين اللغة الاكدية ، لذا اضطروا الى تكييف اللغة الاكدية وحذف عدد من اصواتها او تبديلها لتتلائم والخط المسماري الذي وجد اصلا لكتابة لغة تختلف عن اللغة الاكدية اختلافا كبيرا . فاهملت كتابة معظم الحروف الحلقية والحروف المفخمة التي كانت موجودة في اللغة الاكدية ، كما هي في اللغة العربية ، واستعيض عنها بحروف علة او حروف ذات اصوات قريبة منها . وبعد حل رموز الكتابة المسمارية من قبل العلماء الغربيين وبغية نقل اصوات هذه اللغة الى القارىء المعاصر استخدم الخط اللاتيني ، بعد اضافة عدد من العلامات والاشارات التي اصطلح عليها ، لنقل اصوات اللغة الاكدية . ففقدت اللغة الاكدية ثانية كثيرا من اصواتها وصفاتها نتيجة ذلك . وحيث اننا نعتقد بان الحرف العربي هو اكثر الحروف الحديثة ملائمة لنقل اصوات اللغة الاكدية ، باعتباره وجد اصلا لتدوين لغة تنتمي الى المجموعة اللغوية نفسها التي تنتمي اليها اللغة الاكدية ، لذا قمنا باستخدام الحرف العربي لنقل اصوات الاكدية التي دونت بها المواد القانونية المنتخبة اضافة الى نقلها بالحرف اللاتيني زيادة في الفائدة ولتيسير قراءتها لغير المتخصصين باللغات القديمة.

نماذج من المواد القانونية ذات العلاقة بجريمة السرقة مسلسلة زمنياً بالنسبة إلى تاريخ القوانين العراقية القديمة المكتشفة :ـ

نموذج (١)

المادة ٩ من قانون لبت ـ عشتار (١)

الترجمة الحرفية :ـ

«اذا دخل رجل بستان رجل (آخر) (و) قبض عليه بقصد السرقة،يدفع(٢)

---

(١) صدور قانون لبت ـ عشتار خامس ملوك سلالة ايسن الذي حكم في الفترة (١٩٣٤-١٩٢٤ ق. م) وقد دون القانون باللغة السومرية التي كانت سائدة انذاك على الرغم من ان لبت عشتار يحمل اسما ذا صياغة اكدية وينتمي إلى سلالة امورية.
حول ترجمة مواد هذا القانون . انظر :

(2) S. N. Kramer, The Sumerians, Chicago, 1963, pp. 330-340.

د. فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣، ٣٧ـ ٥٥ .
تجدر الاشارة الى أننا لم ننقل اصوات اللغة السومرية التي كتبت بها هذه المادة ، كما سنحاول بالنسبة للمواد المكتوبة باللغة الاكدية ، حيث ان الهدف من نقل اصوات اللغة هو لبيان اوجه الشبه بين اللغة الاكدية واللغة العربية باعتبارهما لغتين ترجعان إلى اصل واحد في حين ان اللغة السومرية لا ترتبط باللغة العربية بصلة قربى .

(٢) استخدم الفعل (دفع) للدلالة على التعويض .

١٠ شيقلات (١) فضة» (٢) .

(١) يساوي الشيقل ٨/٤ غم . والشيقل أو الشاقل ، وحدة وزن تلفظ بالسومرية گن gin وفي الأكدية شقل . والكلمة مشتقة من الفعل شقال بمعنى وزن الذي يقابله بالعربية الفعل ثقل الذي يحمل المعنى العام نفسه .
واستكمالا للفائدة ندرج أدناه وحدات الوزن السومرية – الأكدية وما يقابلها من اوزانها الحديثة لاعطاء فكرة واضحة عن ماهية العقوبات المفروضة .

اللفظ باللغة السومرية		اللفظ باللغة الأكدية		العربيـــــــة	مايعادل ذلك بالمقاييس الحديثة
شي	še	اطيتم (شي)	uttētu(m) (seum)	حبة = 1/180 شيقل	= ٤٦/٧٩ ملغم
گن	gin	شقلم	šiqlu(m)	شيقل = 1/60 مانا	= ٨/٤ غم
منَ	mana	منوم	manû(m)	مانا = 1/60 بلت	= ٥٠٥ غم
گن	gun	بلتم	biltu(m)	تالن	= ٣٠/٣ كغم

للاطلاع على مختلف الاوزان والمكاييل والمقاييس ومايقابلها من الاوزان الحديثة انظر :
A, Goetze, The Laws of Eshn unna, AASOR, 31(1955), p.185.
وكذلك : الدكتور فوزي رشيد المصدر السابق ، صفحة ٣ – ٣٠ .

(٢) من المعروف ان النقود كوسيلة لتقييم الاثمان والتبادل لم تكن معروفة في العصور السومرية والبابلية حيث لم تعرف طريقة ضرب النقود وسكها الا في القرن السابع قبل الميلاد حينما بدأ الليديون يستخدمون النقود المضروبة . وفي العراق القديم ، وعلى الرغم من عدم معرفة النقود ، الا ان العراقيين القدماء استخدموا مختلف المعادن كوسيلة لتقييم الاثمان والاجور إلى جانب بعض الحبوب الثابتة كالحنطة والشعير . وقد استخدم النحاس في العصور المبكرة ثم اعقبه الذهب والفضة وكانت الفضة والفضة اكثر المواد شيوعا منذ العهد البابلي [illegible] الالف الثالث قبل الميلاد .
ومنذ وقت مبكر ايضا كانت الفضة تصب او تصاغ بهيئة حلقات او صفائح او اقراص ذات اوزان معينة مثبتة احيانا على القطعة ولا يمكن مع ذلك اعتبارها نقودا طالما لم تكن تلك القطع الموزونة صادرة عن سلطة معترف بها وواجهة القانون .

نموذج (٢)

المادة ١٢ من قانون اشنونا (١) :

لفظ النص بالحرف العربي :

آويلُم (٢) شَ اِ ـ نَ إقِل (٢) مُشكينِم (٤) اِ ـ نَ كُـ ـ رُ ـ لِيم اِنَ مُـ ـ اُـ صـ ـ لَ ـ لِيم اِصـ ـ صَـ ـ بَـ ـ تُ (٥) ١٠ شقِل كَسبِم اِشقَل (٦) [شَ اِ ـ نَ مُـ ـ شِ] ـ ـ اِم (٧) اِ ـ نَ كُـ ـ رُ ـ لِيم اِصـ ـ صَـ ـ بَـ ـ تُ اِ ـ مَـ ـ آ ـ [آتَ] (٨) اُ (٢) ـ اُل اِ ـ بَـ ـ لُ ـ اُط

---

(١) قانون اشنونا أقدم القوانين العراقية المدونة باللغة الأكدية يعود تاريخه الى ماقبل حكم حمورابي بفترة يصعب تحديدها في الوقت الحاضر . عثر على نسخ من القانون في موقع تل حرمل (شاديوم) القريب من بغداد من قبل مديرية الآثار العامة وذلك عام ١٩٤٥–٩٤٧ . حول ترجمة وتحليل مواده أنظر :
د . فوزي رشيد الشرائع العراقية القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣ .

(٢) يقصد بمصطلح اويلم في القوانين العراقية القديمة الفئة العليا من طبقة الاحرار في حين يقصد بالمشكينم الفئة الدنيا أو الفقيرة من طبقة الاحرار . وكان المجتمع العراقي القديم يتألف من هاتين الفئتين ، وهما من الاحرار ، ومن طبقة العبيد . حول هذا التفسير والمصادر التي تناولت هذه المصطلحات بالشرح والتفصيل انظر : د . عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، موصل ، ١٩٧٧ ، صفحة ٦٣–٨٣ . وقد استخدمنا المصطلحات هذه بصيغتها الأكدية زيادة في الدقة .

(٣) أي حقل ، ويلاحظ أن صوت الحاء قد اختفى واستعيض عنه بحرف العلة وذلك لعدم وجود علامة مسمارية تعبر عن هذا الصوت الحلقي .

(٤) ويقابل المصطلح في اللغة العربية كلمة مسكين التي انتقلت إلى كثير من اللغات الاوربية.

(٥) من الجذر (صبت) بمعنى مسك أو ضبط . لاحظ تخفيف الطاء إلى التاء والضاد إلى صاد حيث ان الجذر يقابل الجذر الثلاثي العربي ضبط .

(٦) فعل مضارع من الجذر الثلاثي شَقالُ بمعنى وزن–يزن .

(٧) ويقابلها في العربية مساء حيث يقابل الشين الأكدية صوت السين في العربية غالباً

(٨) إماته فعل مضارع من الجذر (موت) . بمعنى يموت .

لفظ النص بالحرف اللاتيني :

awēlum ša i-na eqel muškēnum i-na ku-ru-lim i-na mu-uṣ -la-lim iṣ-ṣa-ba-tu 10 šiqil kaspam išaqqal [ša i-na mu-š] i-im i-na ku-ru-lim iṣ-ṣa-ba-tu i-ma-a-[at] u-ul i-ba-lu-uṭ

الترجمة الحرفية :-

«اذا قبض على رجل في حقل مشكينم داخل السياج (١) (؟) نهارا يدفع ١٠ شيقلات فضة ، ومن يقبض عليه داخل السياج (؟) ليلا يموت ولايخرج حيا» .

نموذج (٣)

المادة ١٣ من قانون اشنونا :

لفظ النص بالحرف العربي :

(اَويلُم شَ) اِــ نَ بيتِم (٢) شَ مُشكينِم اِــ نَ بيتِم اِــ نَ مُــ اُصــ لَ ــ لِم اِصــ صَــ اَبــ بَــ تُ . (١٠) شِقِل كَسبَم اِشقَّل شَ اِــ نَ مُــ شِــ اِم اِــ نَ بيتِم اِصــ صَــ اَبــ بَــ تُ اِــ مَــ اَــ آت اُــ (٢) اُل اِــ بَــ اَلــ لُــ اُط

لفظ النص بالحرف اللاتيني :

[awēlum š] a i-na bitim ša muškēnum i-na bitim i-na mu-uṣ-la-lim iṣ-ṣa-ab-ba-tu 10 siqil kaspam i-šaqqal ša i-na mu-ši-im i-na bitim iṣ-ṣa-ab-ba-tu i-ma-a-at u-ul i-ba-al-lu-uṭ

---

(١) العلامات المسمارية غير واضحة وتبدو الترجمة (سياج) منطقية وتعطي معنى كاملاً ومنسجماً مع ماجاء في المادة الثالثة والمقصود ان يقبض على السارق متلبساً بجريمته (د. فوزي رشيد ، المصدر السابق ، صفحة ٦٣).

(٢) في العربية بيت .

الترجمة الحرفية :

«اذا قبض على رجل في بيت مُشكينم في داخل البيت نهارا يدفع ١٠ شيقلات فضة ، ومن يقبض عليه في داخل البيت ليلا يموت ولايخرج حيا» (١)

نموذج (٤)

المادة ٤٠ من قانون اشنونا :

لفظ النص بالحرف العربي :

شَـ‍ـم آوِيلُم وَرْدُم آمتُم (٢) آليتُم اُ (٣) شَـ‍ـمـ‍ـام تَـ‍ـلَ ا ـ بِـ‍ـشُـ‍ـا (٢) ا ـ شَـ‍ـآمـ‍ـم (٣) نَـ‍ـدِـ‍ـنَـ‍ـتُم لَ (٤) اَ‍كَـ‍ـاِن (٥) شُـ‍ـمَ شَرَ ـ‍ـرَـ‍ـاَق (٦)

لفظ النص بالحرف اللاتيني :ـ

---

(١) للمقارنة انظر : لبت ـ عشتار : م/٩ ، حم : ٢١ ، ٢٥ ، الآشورية الوسيطة : ٣/١ ، ٥/١ .

(٢) في العربية امة

(٣) من الجذر شامُ بمعنى سام يسوم او ابتاع

(٤) أداة النفي لا .

(٥) من الجذر الثلاثي كان وهو فعل الكينونة

(٦) اشتق الاسم شَرّاقُم من الجذر الأكدي الثلاثي (شرق) وهو الجذر الثلاثي نفسه في العربية الذي يشتق منه اسم السارق . والصيغة هنا هي صيغة اسم الفاعل وهناك صيغة أكدية أخرى استخدمت في غير هذه المادة على هيئة شرّاقانُ وربما استخدمت الصيغة الاولى للدلالة على السارق المحترف في حين استخدمت الثانية للاشارة إلى السارق بصورة عامة (انظر

G. R. Driver and J.Miles, The Babylonian Laws, Oxford, 1955, vol. II, p. 407) .

الترجمة الحرفية :

«اذا اشترى رجل عبداً(او) امةً (١) (او) ثوراً او اي شيء ثمين آخر، ولم يتمكن من ان يعين البائع (٢) فانه سارق (٣)» .

نموذج (٥)

المادة (٦) من قانون حمورابي (٤)

لفظ النص بالحرف العربي :

شُمــمَ آـــوِيـــلُم مَكُرْ اِلِـم (٥) اُ (٢) إِكَلِّم (٦) اِشْـــرِ-
اِق آـــوِيـــلُم شُــاُ(٢) اِدِـــدَـــآك اُ (٧) شَ شُـــاُرـ
قَ(٢) ـــآم اِـــنَ قَ (٢) ـــتِـــشُ اِمـــخُــرُ اِدـــبـــدَـــآك

(١) حول مركز الرقيق الاجتماعي والقانوني انظر : د . عامر سليمان ، المصدر السابق ، ٤٣-٦٢ .

(٢) أي أن المشتري لم يتمكن من اثبات شرعية حصوله على الاموال عن طريق الشراء .

(٣) انظر : اشنونا : م : ٥٠ ; حمو : ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٢ ، ١٩ ، ١٩ الآشورية الوسيطة : ٣ ، ٤ ، ١/٦ ، ٣/٦-٢ .

(٤) يعد قانون حمورابي أكمل وانضج قانون قديم مكتشف حتى الآن ويرقى بتاريخه إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد . حول ترجماته والتعليق عليه انظر :

Driver and Miles, op. cit.

اما الترجمة العربية المقدمة فقد اعتمدنا فيها على ترجمة النص المسماري كما وردت في

E. Bergmanius S.J., Codex Hammurabi, Textus Primigenius (SPIS, 51), Roma, 1953.

(٥) اسم في حالة الجر مضافاً اليه التعبير ويعني في العربية «قصر» .

(٦) إكلم وهي كلمة سومرية الأصل تعني «البيت العظيم» او «القصر» مؤلفة من الكلمتين (إي) بمعنى بيت و (گال) بمعنى عظيم ثم انتقلت إلى الأكدية بهيئة إكلّو وأخيراً دخلت العربية على هيئة (هيكل) .

(٧) حرف العطف (و) ويلفظ كما يلفظ حرف العطف هنا في اللهجة العامية العربية .

لفظ النص بالحرف اللاتيني :

šum-ma a-wē-lum makkur ilim ú ekallim iš-ri-iq a-wē-lum šu-ú id-da-ak ù ša šu-ur-qá-am i-na qá-ti-šu im-hu-ru id-da-ak

الترجمة الحرفية :

« إذا سرق رجل مالا يعود للاله أو للقصر (١) ، فإن ذلك الرجل يقتل ، كذلك يقتل من تسلم المسروقات من يده» (٢) .

نموذج (٦)

المادة (٧) من قانون حمورابي

لفظ النص بالحرف العربي :

شُـ ـ مَ آ ـ وِ ـ لُم لُ كَسِپتَم لُ خُراصَم لُ وَردَم لُ آمتَم لُ آلپَم لُ اِمِيرَم لُ اِميرَم(٣) أُ(٣) لُ مِـ ـ اِ مِـ ـ مَ شُـ ـ شُ(٤) اِ ـ نَ قَـ ـ آت(٢) مار آ ـ وِ ـ لُم أُ(٣) لُ وَرَد آ ـ وِ ـ لِم بَـ ـ لُم(٥) (١)شِـ ـ ب اُ(٣) رِ ـ اِ كِـ ـ صَ ـ تِم اِشـ ـ تَـ ـ آم(٦) أُ(٣) لُ آنَ مَـ ـ صَـ ـ رُ ـ تِم(٧) اِ مَـ ـ خُـ ـ ار آ ـ وِ ـ لُم شُـ ـ اُ (٢) شَرِ ـ رَ ـ آق اِ دِ ـ دَ ـ آك

---

(١) يقصد بمصطلح القصر في النصوص البابلية القديمة قصر الملك في عاصمته والحاكم في مدينته أو منطقته .

(٢) للمقارنة انظر حمورابي : مادة٨ ، القوانين الاشورية الوسيطة ١/١

(٣) اميرم بمعنى حمار — وقد قلبت الحاء ياء مائلة بسبب عدم وجود مايمثل صوت الحاء في الكتابة المسمارية .

(٤) لنا شم — شي اي مهما كان اسمه .

(٥) [illegible]

(٦) من الفعل شام وقد دخلت عليه التاء .

(٧) اسم صيغ من الجذر الثلاثي نصر بمعنى حافظ على ويقابل الفعل نصر بالعربية وقد ادغمت النون مع ميم الاسم فاصبح الاسم على هذه الهيئة .

لفظ النص بالحرف اللاتيني

šum – ma a – wē – lum lu kaspam lu ḫuraṣam lu wardam lu amtam lu alpam lu immēram lu imēram u lu mi–im – ma šum–šu i–na qá–at mār a – we–lim ba–lum ši – bi ù ri–ik– sa – tim iš–ta–am ù lu a – na ma–ṣa–ru–tim im–ḫu–ur a–we – lum šu–ú šar–ra–aq id–da–ak

الترجمة الحرفية :

«اذا اشترى رجل ، او استلم على سبيل الامانة ، اما فضةً او ذهباً او عبداً او امةً او ثوراً او شاةً او حماراً او اي شي. آخر من يد ابن رجل او رقيق رجلٍ بدون شهود وعقود فان ذلك الرجل سارق ويقتل» .

نموذج (٧) :

المادة ٨ من قانون حمورابى :

لفظ النص بالحرف العربي :

شُمـَ آ ـ وِ ـ لُم لُ آلپَم لُ اِمّيرَم لُ اِميرَم لُ
شَخام (؟) اُ (٣) لُ (اِصْ) اِلِپَّم اِشْـرِ ـ اِق شُمـَ شَ
إكَلِّم (آ ـ رَ) (٢) ـ ٣٠ ـ شُ اِنَ ـ آدـ دِ ـ اِنْ شُمـَ
شَ مُشكينِم (آ ـ رَ) (٢) ـ ١٠ ـ شُ اِ ـ رِ ـ آـ آب شُمـَ
شَرَ ـ رَ ـ قَ (٢) ـ نُ ـ اُم شَ نَ ـ دَ ـ نِم لَ اِ ـ شُ (١)
اِدـ دَ ـ آك

لفظ النص بالحرف اللاتيني

šum–ma a –we–lum lu alpam lu immēram lu imēram lu šaḫam (?)
ù lu (iṣ) elippam iš – ri–iq šum–ma ša ilim šum –ma
ša ekallim A. RA–30–šu i–na–ad–di–in–šum–ma ša muš-
kēnim A.RA–10–šu i–ri –a–ab šum–ma šar–ra–qá –nu–um
ša na–da –nim la i – šu id–da–ak

---

(١) ل اداة نفي و (إيش) فعل بمعنى « يملك » أي بمعنى « لايملك» وقد انتقلت العبارة إلى العربية على هيئة ليس .

الترجمة الحرفية :

«اذا سرق رجل اما ثورا او شاة او حمارا او خنزيرا او قاربا ، فاذا كان يعود للاله ، او للقصر ، يدفع ثلاثين ضعفا ، اذا كان يعود لمشينكم فيعيد عشرة (اضعافه) اذا لم يكن للسارق مايدفعه (١) يقتل (٢)» .

نموذج (٨) :

المادة (١٠) من قانون حمورابي :

لفظ النص بالحرف العربي

شُـم شَـآ ـآ ـمَـنُـاُم نَـدِ ـاِن اِد ـدِ ـنُـشُم
مَخـرِ ـشُـنُ اِ ـشَـمُ لَ اِتَ ـبَ ـلَم بِـإِل (٣) خُـ
الْـقِ (٢) ـاِمـمَ شِـبِ مُـدِ خُـالْـقِ (٢) ـشُ
اِتَ ـبَ ـلَم شَـآ ـآمَـنُـاُم شَرَ ـرَ ـآق اِد ـدَ ـآك
بِـإِل خُـالْـقِ (٢) ـاِم خُـلُ ـاُقَـشُ اِ ـلِ ـقِ (٢)

لفظ النص بالحرف اللاتيني

šum-ma ša-a-a-ma-nu-um na-di-in id-di-nu-šum ù ši-bi
ša i-na mah̬-ri-šu-nu i-ša-mu la it-ba-lam be-el h̬u-ul-qi-
im-ma ši-bi mu-di h̬u-ul-qí-šu it- ba-lam ša-a-a-ma-nu-um
šar-ra-aq id-da-ak be-el h̬u-ul-qí-im h̬u-lu-uq-šu i-lí-qí

الترجمة الحرفية

« فاذا لم يجلب المشتري البائع الذي باعه ولا الشهود الذين اشترى بحضورهم

---

(١) أي ليس لديه مايمكن دفعه لسد التعويض المطلوب .
(٢) للمقارنة انظر سم / ٩٠، الاشورية الوسيطة ١/١ .
(٣) بيل تعني سيد او صاحب ويقابلها بالعربية كلمة بعل .

وقدم صاحب المفقودات الشهود العارفين مفقوداته فالمشتري سارق ويقتل ويسترجع صاحب المفقودات مفقوداته» (١)

نموذج (٩)

المادة ١٤ من قانون حمورابي

لفظ النص بالحرف العربي :

شُـمَّ آ ـ وِـ لُم مار آ ـ وِـ لِم صِـ اِخـ رَ ـ آم(٢) اِشْـ تَـ رِ ـ اِق(٣) اِد ـ دَ ـ آك

لفظ النص بالحرف اللاتيني :

šum–ma a–we–lum mar a–we–lim ṣi–iḫ–ra–am iš–ta–ri–iq id–da–ak

الترجمة الحرفية :

«اذا سرق رجل ابناً صغيراً لرجل يقتل»

نموذج (١٠)

المادة (٢١) من قانون حمورابي :

لفظ النص بالحرف العربي :

شُـمَّ آ ـ وِـ لُم بِـ تَم اِبـ لُـ اُش اِـ نَ پِـ ٹِ ـ إِ(٢) ـ اِـ شِـ اِم شُـ آ ـ تِ ـ اِـ دُ ـ اكـ كُـ شُـ م اِـ خَـ آ ـ آ ـ آ ـ شُ

---

(١) انظر التوراة : [illegible] الاشورية الوسيطة : [illegible]

(٢) ويقابل الكلمة بالعربية الصفة «صغير» .

(٣) لاحظ استخدام التاء الداخلة إلى الفعل كما هي في العربية في صيغة « افتعل » .

لفظ النص بالحرف اللاتيني :

šum-ma a-we-lum bi-tam ip-lu-uš i-na pa-ni pí-il-ši-im šu-a-ti i-du-uk-ku-šu-ma i-ḫa-al-la-lu-šu

الترجمة الحرفية

«اذا نقب (١) رجل بيتاً فسيقتلونه امام تلك الحفرة ويعلقونه(٢)»(٣)

نموذج (١١)

المادة (٢٢) من قانون حمورابي :

لفظ النص بالحرف العربي :

شُمـ ـ ـمَ اَ ـ ـوِ ـ ـلُم خُ ـ ـاُبْ ـ ـتَم اِخـ ـبُ ـ ـاُتْ ـ ـمَ اِتْ ـ ـتَ ـ ـ اَصـ ـ ـبَ ـ ـآت اَ ـ ـوِ ـ ـلُم شُ ـ ـاُ اِدْ ـ ـدَ ـ ـاَك

لفظ النص بالحرف اللاتيني :

šum-ma a-we-lum ḫu-ub-tam iḫ-bu-ut-ma it-ta-aṣ-ba-at a-we-lum šu-ú id-da-ak

الترجمة الحرفية :

«اذا قام رجل بالسطو وقبض عليه ، يقتل ذلك الرجل (٤) »

---

(١) يعني الفعل المستخدم هنا احدث ثغره او منفذا في البيت للدخول فيه .

(٢) يعني الفعل المستخدم « تعليق المجرم» وقد استخدم في النصوص الاخرى للدلالة غالبا على تعليق جثث أسرى الحرب او المجرمين على اسوار المدن وفي محلات معينة اخرى ويبدو ان المقصود من تعليق الجثة امام الحفرة او الثغرة ان يكون ذلك عبرة لغيره .

(٣) انظر لبت - عشتار : ٩، اشنونا : ١٢، ١٣، حم : ٢٥ ، الاشورية الوسيطة ٨/١ - ٣ استخدم الفعل خبات للدلالة على السطو خلافا للمواد الاخرى الخاصة بالسرقة والتي استخدمت الفعل (شراق) . ويعني الفعل خبات الاخذ بالقوة او خطف الشيء او السلب او النهب كنهب الغنائم كما ورد في عدد من النصوص للدلالة على السطو بصورة عامة انظر تفصيل النصوص التي ورد فيها هذا الفعل في CAD,Vol.6PP.q-11 كذلك قارنه الفعل العربي خبط .

(٤) انظر : حم ٦، ٢٣، ٢٤، المتممة للمادة اعلاه .

نموذج (١٢)

المادة (٢٣) من قانون حمورابي

لفظ النص بالحرف العربي :

شُـ ـمَ خَـ ـاَبْـ ـبَـ ـتُم لَ اِتْـ ـتَـ ـاَصْـ ـبَـ ـاَت اَـ ـوِيـ ـلُم
خَـ ـاَبْـ ـتُم مِـ ـاِمْـ ـمَـ ـشُ خَلْـ ـقَ (٢)ـ ـاَم مَـ ـخَـ ـاَر
اِـ ـلِم اُ (٢) ـ ـبَـ ـاَرْ ـ ـمَ اَلُمُ اُ (٣) رَـ ـبِـ ـآ ـ ـنُـ
اُم (١) شَ اِـ ـنَ اِرْ ـ ـصِـ ـتِـ ـشُـ ـنُ (٢) اُ (٣) بَـ ـطِـ
شُـ ـنُ خُـ ـاِبْـ ـتُم اِخْـ ـخَـ ـاَبْـ ـتُ مِـ ـاِمْـ ـمَـ ـشُ
خَلْـ ـقَ (٢) ـ ـاَم اِـ ـرِـ ـاَـ ـاَبْـ ـبُـ ـشُم .

لفظ النص بالحرف اللاتيني :

sum–ma ha–ab–ba–tum la it–ta–as– ba–at a–we–lum ha–ab–tum mi–im–ma–su hal–qa–am ma–ha–ar i–lim u– ba–ar–ma alum u ra–bi–a–nu–um sa i–na ir–si– ti–su–nu u pa–ti–su–nu hu–ub–tum ih–ha–ab–tu mi–im–ma–su hal–qa–am i–ri–a–ab–bu–sum

الترجمة الحرفية : ـ

«اذا لم يقبض على السارق (حرفيا : الذي قام بالسطو) فعلى الرجل المسروق (الذي وقع عليه السطو) ان يشتكي امام الاله على كل مافقده وعلى المدينة والحاكم الذي وقعت السرقة (اللصوصية) في أرضه ومنطقته تعويضه عن كل مافقد منه» .

واذا ماقمنا بتحليل معاني نصوص المواد القانونية المنتخبة مع الاخذ بنظر الاعتبار المواد القانونية الاخرى المتعلقة بالسرقة تبين لنا ان النموذج الخامس

---

(١) اي حاكم المدينة (ربها) او رئيسها وهو لقب وظيفي .

(٢) اي ارضهم ويلاحظ . تغير صوت الضاد إلى صوت الصاد في الاكدية.

م/٣٢/م.١٠س

والسابع ينصان صراحة على تمام تحقق الاختلاس واخذ المال حيث نص الشطر الثاني من النموذج الخامس على عقوبة من «تسلم المسروقات من يده» اي من يد السارق مشيرا بذلك إلى تحقق جريمة السرقة واخراج المال و تسليمه إلى الغير . وكذلك يفهم من النموذج السابق الذي ينص على معاقبة السارق بالقتل ان لم يكن لديه من المال مايدفعه للمسروق منه تعويضا عما سرق مشيرا بذلك إلى ان جريمة السرقة قد تحققت تماما.

اما النماذج الثلاثة الاولى فتتحدث عن حالات الشروع بجريمة السرقة والقبض على السارق اثناء قيامه بالسرقة فعدت كل من يقبض عليه وقد دخل بستان او حقل او بيت الغير بقصد السرقة سارقا غير انها فرقت في العقوبة بين من يقبض عليه داخل البيت او البستان ليلا عمن يقبض عليه نهارا ، فشددت في تحديد العقوبة في الحالة الاولى وخففت في الثانية آخذة بنظر الاعتبار الظروف المحيطة بالجريمة شأنها في ذلك شأن احدث القوانين الوضعية

ويحدد النموذجان الخامس والسابع ماهية المال المسروق ويشترطان ملكيته للغير . وقد عد مايسرق من داخل المعبد او القصر (النموذج٥) و كذلك الحيوانات، كالثيران والاغنام والحمير والخنازير ، والقوارب المملوكة من قبل المعبد او القصر او الاشخاص ، مالا منقولا مملوكا للغير وتفرق المواد القانونية هذه عند تحديد العقوبة بين من يسرق مالا تعود ملكيته للاله (اي للمعبد) او القصر وبين من يسرق مالا تعود ملكيته للاشخاص كما تفرق بين ما اذا كان المسروق قد سرق من داخل المعبد او القصر (النموذج ٥) او من خارج بناء المعبد او القصر او البيت (النموذج ٧) ، اي انها اخذت بنظر الاعتبار الظروف المحيطة بالجريمة . وبدهي فان السرقة في جميع الحالات المذكورة قد تحققت دون علم ورضاء المالك .

ويتحدث النموذج التاسع عن اختطاف القاصر وقد استخدمت المادة القانونية الفعل الخاص بالسرقة (شَراقُ) للاشارة إلى اختطاف القاصر وعدت الجريمة جريمة سرقة في ظروف مشددة ونصت على معاقبة الجاني بمثل

ما يعاقب عليه لو انه سرق مالا من داخل المعبد او القصر وحددتها بالقتل.

وتشتمل الافعال التي وضعتها القوانين العراقية القديمة ضمن جريمة السرقة على افعال اخرى حيث نصت المادة السابعة من قانون حمورابي (النموذج ٦) على عد كل من يشتري او يستلم على سبيل الامانة مالا منقولا (كالفضة او الذهب او الرقيق او الحيوانات او أي شيء آخر) من يد قاصر (ابنا لرجل كان او رقيقا) سارقا .

وينص النموذج الخامس على عد من يستلم المسروقات من السارق سارقاً ويحدد عقوبته بالعقوبة نفسها المحددة للسارق .

اما النموذجان الرابع والثامن فيتحدثان عن ابتياع مال منقول كان قد فقد ولم يتمكن المشتري الحائز على ذلك المال وقتئذ ، من تحديد البائـــع . اي بعبارة اخرى لم يستطع اثبات ملكيته الشرعية للمال .

وقد عدّ هذا الحائز سارقاً . اما اذا تمكن المشتري من اثبات شرعية حيازته للمال عن طريق الشراء وعين البائع ولم يتمكن البائع من تثبيت شرعية حيازته على المال الذي باعه ، عندها يعد البائع سارقا لانه باع مالا مفقودا لايملكه .

اما النموذج العاشر فيتحدث عن السرقة من البيوت من خلال ثغرة يحدثها السارق وقد عدت القوانين هذا النوع من السرقة من الانواع ذات الظروف المشددة فلم تكتف بتحديد عقوبة القتل على السارق بل نصت على ضرورة تعليق جثته امام الحفرة او الثغرة التي نفذ من خلالها السارق الى داخل البيت بقصد السرقة ليكون ، كما هو واضح ، عبرة لغيره .

اما النموذج الحادي عشر فيتعلق بما يعرف في الشريعة الاسلامية بالسرقة الكبرى او الحرابة وفي القوانين الوضعية باللصوصية ، والتي تتضمن السطو في الطرق العامة وقد حددت عقوبة السارق الذي يقبض عليه اثناء ذلك بالقتل كما حمّلت المادة التالية (النموذج ١٢) المدينة التي وقعت فيها اللصوصية ورئيسها مسؤولية الجريمة فيما اذا لم يقبض على السارق .

واذا حاولنا وضع تعريف عام لمفهوم السرقة في القوانين العراقية القديمة استنادا الى المواد القانونية المتعلقة بجريمة السرقة المعروفة لدينا حتى الان

امكن القول ان « السرقة في القوانين العراقية القديمة هي اختلاس او شروع باختلاس مال منقول مملوك للغير بدون رضاه ، او اختطاف قاصر ، او ابتياع من قاصر ، او تسلم مال مسروق او ابتياع او بيع او ادعاء ملكية مال لايمكن اثبات ملكيته » .

يستنتج مما تقدم بان الفكر القانوني العراقي القديم كان قد قطع مرحلة متقدمة جدا فاقت ما كان عليه الفكر القانوني لدى المجتمعات القديمة الاخرى المعاصرة واللاحقة بقرون عدة كما يتبين ذلك من مقارنة ماجاء في القوانين العراقية القديمة ، التي ترقى بتاريخها الى مطلع الالف الثاني قبل الميلاد ، مع ماجاء في القانون الروماني والعهد القديم ، بعد ذلك التاريخ باكثر من الف سنة ، حول جريمة السرقة وغيرها من الاحكام . وان العديد من المبادىء والاحكام القانونية كانت قد انتقلت بطريق او آخر الى القوانين اللاحقة زمنيا . بل لا نكون بعيدين عن الواقع اذا قلنا بان هناك من المبادىء القانونية التي تضمنتها القوانين العراقية القديمة ما ظلّ يعمل بها عبر العصور الطويلة المتعاقبة وحتى يومنا هذا وان دل ذلك على شيء فانما يدل على مدى تقدم ونضج الفكر القانوني في العراق القديم . فالتفريق بين السرقة ليلا والسرقة نهارا ، والسرقة في ظروف مشددة ، كالسرقة داخل المعبد او القصر وعمل ثغرة في جدار البيت والدخول منها والسرقة اثناء الكوارث كنشوب الحرائق ، وبين السرقة من الحقول والبساتين والاخذ بنظر الاعتبار في جميع الحالات القصد الجنائي لدى السارق كل ذلك من المبادى . القانونية التي لاتزال تأخذ بها القوانين الوضعية المتقدمة بشكل او بآخر .

كما يلاحظ من مقارنة ماجاء في القوانين العراقية القديمة حول السرقة مع القوانين اللاحقة لها بانها تتفق إلى حد كبير في تحديد مفهوم السرقة مع القانون الروماني والعهد القديم فتشمل افعالا جرمية متعددة إلى جانب الافعال التي تتضمنها السرقة بمفهومها الحديث كالاختطاف وتسلم اموال مسروقة وابتياع او بيع او ادعاء ملكية اموال مفقودة لايمكن اثبات

ملكيتها او ابتياع من قاصر . ويمكن تفسير هذا التشابه باحتمال تأثر كل من القانون الروماني والعهد القديم بما كان معمولا في العراق القديم من احكام قانونية سيما وان اول تدوين للعهد القديم كان قد تم على يد احبار اليهود وهم في بلاد بابل اثناء السبي البابلي المعروف في القرن السادس والخامس قبل الميلاد في حين كانت اتصالات الرومان بالعراق قوية في القرون القليلة السابقة واللاحقة للعهد الميلادي ولا يستبعد تأثرها بكثير من المقومات الحضارية العراقية القديمة .

إلى جانب ذلك يلاحظ ان القانون العراقي القديم يتفق والشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية ، في التفريق بين مايعرف بالسرقة الكبرى (الحراية) او اللصوصية وبين السرقة البسيطة ويضع لكل منهما احكاما خاصة تختلف عن الاخرى كما يتفق معها في ضرورة توفر اركان الجريمة الاساسية ولا سيما القصد الجنائي فى حين يختلف واياها فى الافعال التى تتحقق باتيانها جريمة السرقة وفي اسلوب تحديد العقوبة واسلوب تنفيذها كما سنتطرق إلى ذلك فى بحث مقبل انشاء الله .

مؤشرات نفسية وتربوية في تعليم الحساب في المدرسة الابتدائية

الدكتور عبدالجبار غضبان الفرحان
كلية التربية / قسم العلوم التربوية النفسية
الجامعة المستنصرية

الاتجاهات الحديثة في تدريس الرياضيات في المدرسة الابتدائية

الحقيقه انه ليس هناك رياضيات جديده بالمعنى الدقيق لهذه الكلمه فالفكر الرياضي مجرى متصل وان جديده امتداد لقديمه . وللرياضيات اهمية خاصة لخدمة العلوم الاخرى كالهندسة والطب والفيزياء والكيمياء والعلوم الاخرى . وتدخل اهمية الرياضيات حتى في موضوع غزو الفضاء والفلك وبعد النجوم والشمس والقمر عن الكوكب الارض .

كما ان للرياضيات اهمية في الحياة اليومية فكل فرد يستعملها في عملية البيع والشراء او في الدوائر الكثيرة والمتنوعة ، ان التحديث في الرياضيات يتناول اساليب غرضها كي يسهل تعلمها ويوضح بعض غموضها بالاضافة الى الاستفادة مما استجد في علم النفس التربوي وطرق التدريس ، ان الانتقال في الرياضيات من السهل الى الصعب ومن الامثله الى النتائج ضرورية جدا في تعليم الاطفال الصغار والذين يفهمون المحسوس قبل المجرد . وان الجفاف الذي يعانونه الاطفال في المرحلة الابتدائية والثانوية هو نتيجة عرض الرياضيا ت بطرق قوانين ونتائج قبل ان تكون امثلة وجزئيات الى غير ذلك .

ان الاتجاه الحديث في تدريس الحساب للصف الاول الابتدائي مثلا تبدأ بالتمهيد لمفهوم العدد بالتعامل مع المجموعات ومقارنتها ومعرفة المجموعة الاكثر من مجموعتين معلومتين وتحديد المجموعات المتكافئة وتمييزها وتصنيفها بعد ذلك يعطي رمز من الرقمين ١، ٢ بينما الرياضيات القديمة تبدأ بكتابة الرمز ١ يليه في صفحة اخرى رمز الرقم ٢ ورمز الرقم ٣ وتستمر حتى رمز العدد ١٠ .

ان الكتب القديمه تأخذ مفهوم الجمع ١+١ = ٢ اما الاتجاه الجديد فيأخذ مجموعه من ثلاثة اقلام ويضمها الى مجموعة من قلمين ويعد عناصر المجموعة المتكونه ويكتب٣+ ٢ = ٥ ويأخذ المعلم مجموعات اخرى من محيط التلميذ ويقسمها الى بعضها ويكتب تحتها العملية الحسابية المناسبه . وتستفيد الرياضيات من كل جديد في علم النفس ونظريات التعلم فما توصل اليه العالم السويدي بياجير عن مراحل التعلم وتعم مفاهيم الرياضيات عند الاطفال وجد طريقة الى التطبيق فتقدم المفاهيم الرياضيه الان لطريق الاشياء المحسوسه ثم الصور والرسوم وصولا الى المفهوم المجرد . كذلك تؤكد الرياضيات الحديثة عن طريق جعل التلميذ هو محور العملية التربوية بدل من ان يكون المعلم هو المحور وحسب المفهوم للقييم .

القسم الاول :

(١) الاهداف في تعليم الحساب في المدرسة الابتدائية :

فيما يتعلق بتدريس الحساب على مستوى المدرسة الابتدائية يجب ان نبدأ بتحديد الاهداف الواضحة لهذا التدريس ثم نراجع مايقدمه لنا علماء النفس حول نفسية الطفل مابين ٦ ــ ٧ سنوات و ١٢ ــ ١٤ سنة ، عندئذ يصبح بوسعنا ان نواجه مسائل التربية العامة التي يسمح لنا حلها باختيار الطرق والوسائل الفنية اللازمة . ان تدريس الحساب يثير عددا كبيرا من المسائل الصعبة وان تعقيد الاعمال المطروحة يقنع المربي تماما بتعدد الحلول للمشكلات الكثيرة التي يلاقيها يومياً في عمله . وعليه فليست الغاية ان يقدم اليه حلا عمليا وحيدا لجميع المشكلات التربوية التي يصادفونها ومساعداتهم هل تعود على المربي ليطرحوا ويعالجوا بشكل صحيح القضايا الراهنة في تعليم الحساب

تتحدد اهداف تدريس الحساب وفقاً لعناصر اساسية ثلاث النظام الرياضي بحد ذاته، فمقتضيات المجتمع الذي يعد الطفل من أجله والامكانيات النفسية للاولاد كنا نحسب فيما مضى ان علم الرياضيات يشكل البنية الاقوى او الاكثر تناسقا منذ ايام اقليدس وقد تعودنا ان نعتبر هذا العلم مستقرا ومدعما بشكل نهائي ولعل ذلك عائد إلى الموقف التحكمي لمعلمي الرياضيات انفسهم غير أن التفكير الرياضي منذ مائة من السنين قد تحول وتجدد بشكل جذري. كما بدأت النتائج التربوية لهذا التحول تظهر منذ بضعة عشر عاما وبشكل خاص على مستوى التعليم الثانوي. ليس من هدفنا هنا ان نخوض في ثنايا هذا الموضوع الهام بل ان نتساءل عما آلت اليه هذه الثورة العلمية في تدريس الحساب على مستوى المرحلة الابتدائية فمن البديهي جدا ان القواعد الاساسية للتمرس بعلم الحساب لم تلاق انقلابا جذريا ونستطيع الاشارة وحسب الاهمية المعطاة في الرياضيات الحديثة مجموعة تقاطع المجموعات الخ ...

فعلى المربي ان يهتم بهذا الاتجاه كي لايجعل التلميذ الذي يتابع دراسته الثانوية في وضع غير متناسب مع ماسيعطيه مدرس الرياضيات في هذه المرحلة الثانوية . كما ان التطور التقني من جهة ثانية قد اتجه بحيث يفرض على المرء في الحياة المهنية ان يواجه او يعالج امورا علمية ذات علاقة بالرياضيات الحديثة ويحسن ان لايكون التعليم المدرسي يتناقض مع مقتضيات الحياة الاجتماعية .

ان احسن طريقة لتحديد الاهداف في تعليم الحساب تقضى بالانطلاق من فكرة اساسية بموجبها « نوعا من التوافق بين الطفل والعالم الذي يعيش فيه » وبذلك تتخذ من القضية موقفاً وظيفيا بحتا وفي استفتاء دولى اجرى من قبل المكتب الدولي للتربية صنف اهداف تعليم الحساب في العالم على الوجه التالي :

١. اهداف تتعلق باكتساب التقنية .
٢. اهداف تتعلق باهداف العمل وعاداته .
٣. اهداف تتعلق باتخاذ موقف ذهني .
٤. اهداف تتعلق باكتساب المعلومات وبعث الاهتمام .
٥. اهداف تتعلق بالتكوين الفكري .
٦. اهداف تتعلق بالثقافة العامة .

ان الطفل الذي يكتشف العالم فينصهر فيه بفضل عملية مزدوجة من التمثل والتوافق انما ينقاد إلى مقابلة الأشياء بعضها ببعض وإلى ايجاد صلات بينها نوعية في بادىء الامر ثم صلات كمية بعد ذلك . ومن خلال هذه الرؤية يبدو ادراك مفهوم (الكمية) والافكار العددية من بين الاهداف الواجب بلوغها ولكننا نلمس فورا اننا امام مفاهيم يجب ان تنبثق من تجربة الطفل الخاصة ثم تبنى وتتكامل وفقا لانسجام الطفل مع محيطه ، وعليه فان جميع المعلومات التي يتمكن الطفل من اكتسابها تكون مرتبطة بشكل مباشر مع حياته الحقيقية ومن البديهي ان المعلومات الحسابية المكتسبة في المدرسة

الابتدائية تكون وتبقى دائماً مفيدة لمجموعة كبيرة من اعمال الحياة العادية وفي اطار التدرج المهني مهما كان اوليا . ان ابسط عملية تجارية بين البائع والمشتري تفترض تبادل عملية معينة او تقرير البضاعة او حسابا لثمن. كما ان الحياة العادية في معظم البلدان تستلزم قياسا للوقت وتقديرا للمسافات والقياسات ومقابلة للاوزان. لذلك فان ابسط النشاطات الانسانية واكثرها بدائية تحرك مجموعة من العمليات التى تستلزم عند المرء تخضيرا اوليا في الحساب ومن غير ان نواجه هنا حاجتنا الى الرياضيات من اجل ثقافة تقنية عاليه وحتى لو اكتفينا بتحضير مهني اولي فنحن نستطيع التأكيد ان ذلك يقتضي حدا ادنى من المعلومات التي تسمح للعامل تفهم القواعد الاولية للتحضير التقني .

من خلال الحياة المهنية نصل الى مستوى التكامل الاجتماعي فالمشاركة في حياة المدنية تقتضي ان لم يكن معلومات دقيقة كاملة فعلى الاقل حدا ادنى من المعلومات اللازمة للفرد الذي يرغب في تأدية دوره كمواطن . ان ابسط الجداول الانتخابية ورسم خط بياني اولي والنتائج التي تعطي بالنسبة المئوية كل ذلك يفترض لكي يكون واضحا ومفيدا قدرا معينا من المعرفة الرياضية ، كيف يتيسر للفرد ان يشارك في الحياة الاقتصادية والسياسية في مدنيته اذا كانت الاحصائيات الداله على تحقيق الموازنة لاتوافق في ذهنه حقيقة علمية يستطيع ادراكها ... ؟ يجدر بنا على هذا الصعيد ان نسبر غور الاشياء فنصل الى اخر اهدافنا .

ان اهمية الوسائل الدعائية المتطورة ايا كان ميدانها تستلزم اكتساب المعارف اللازمة لادراك الوسائل العلمية والعدديه التي تستخدم فيها ، وليس اقل شأنا من ذلك ان يكون المرء قادرا على وقاية نفسه من الاكاذيب المستورة تحت المظاهر البراقة للاعداد . فحس النقد المطبق على المعطيات العددية ينمو عند الافراد بتحضير اولي جدا ينطلق من تقدير النتائج المعلنه مرورا بمناقشة تقريبية للقياسات الموضوعه ومنتهيا بمعطيات حساب الاحتمالات انطلاقا من هذه الرؤية نستطيع التأكيد ان تكوينا رياضيا صحيحا يتجاوز تماما المستوى الاولى للمعلومات ويشكل عنصرا اساسيا في التكامل الاجتماعي

اذ يعطي المرء الوسائل اللازمة لصيانة احكامه وتقديراته الشخصية . لذلك لايمكن الاكتفاء باعتبار تعليم الحساب تدريبا على تقنيات وسائل معينة بل يجب ان ينمي هذا التعليم عند الافراد رياضه ذهنيه حقيقيه وان يخلق موقفا منطقيا جديدا امام سائر الاحداث في الحياة العادية وان يحقق لهم نوعا من التفكير يشكل حركه نفسانيه هامه . ان أسهل عملية حسابية او ابسط تخطيط هندسي او اية مسألة عادية كل ذلك يشكل قياسات ممتازه للتفكير والبحث ، ان بوادر الاستنتاج الذهني الاكثر دقة تبدو كبذره في الحياة الذهنية عند الطفل الذي يحاول ان يجد من خلال مسألة عملية بسيطة شكلا تفكيريا مألوفا لديه فاستكشاف صورة ماانطلاقا من الواقع واستخلاص فكرة عامه انطلاقا من حاله معينة هما عمليتان نفسيتان تقودان الى النشاط العلمي وتمدان في الظهور من خلال بوادر التفكير الاولي عند الطفل . فالهدف البعيد لاول تدريب حسابي هو اذن اكتساب اسلوب موضوعي للتفكير كي يتطور الى اقصى حد تلك الامكانيات الذهنية التي يحملها الانسان في نفسه ويستطيع التفكير الدقيق مفضل فعاليته والتوفير الذي يحققه ان يضمن للمرء مقدرة اعلى وفعالية اكبر عند مواجهة الواقع ، اذ يوفر مظاهر التلمس الكيفي ويتجنب هدر المادة والطاقة كما يساعد المرء على الارتفاع في مستوى المهارة العملية الى الذكاء الذهني وان يجتاز المظهر المحسوس للاشياء ولاحداث التي ترحمتها الاكثر تجريدا فالتدريب على الحساب يوازى اذن عندما يكون صحيح الاتجاه تحررا ذهنيا حقيقيا ويمكن المرء من اجتياز الهوة التي جعلتها الطبيعه بين الجنس الانساني والحيوان . انطلاقا من جميع هذه الاعتبارات تستطيع التأكيد ان الاهداف العامة لتعليم الحساب تشكل جزءا اساسيا من اهداف التربية بمجملها . ولايمكننا ان نتصور نظاما تربويا يكون الحساب غائبا عنه واذا كانت بعض المواد الدراسية يستوى فيها ان تظهر او تختفي من هذه المناهج او تلك بحسب تقديرات هذا المربي او رغبات ذلك المسؤول فمن المؤكد انه يستحيل استبعاد الحساب له اية مجموعة للانظمة التربوية الاساسية .

القسم الثاني

المظاهر النفسية والتربوية

ترمي ملاحظتنا الاولى الى التذكير بان ليس للمعطيات النفسية التي سترد في هذا البحث الا قيمة نسبية ، لأن معدل سن الاكتساب ومدى النمو والتدرج رغم عناصرها المتشابهة والاكيده عبر جميع الاطفال هي في الواقع تحت التأثير المباشر للمحيط التقني والاجتماعي الذي يسبح فيه الاطفال ، ومن جهة ثانية لن نأخذ بعين الاعتبار مبادىء الحساب على مستوى دور الحضانه بل نركز اهتماما اكبر على الاطفال ابتداء من سن ٥ ــ٦ سنوات .

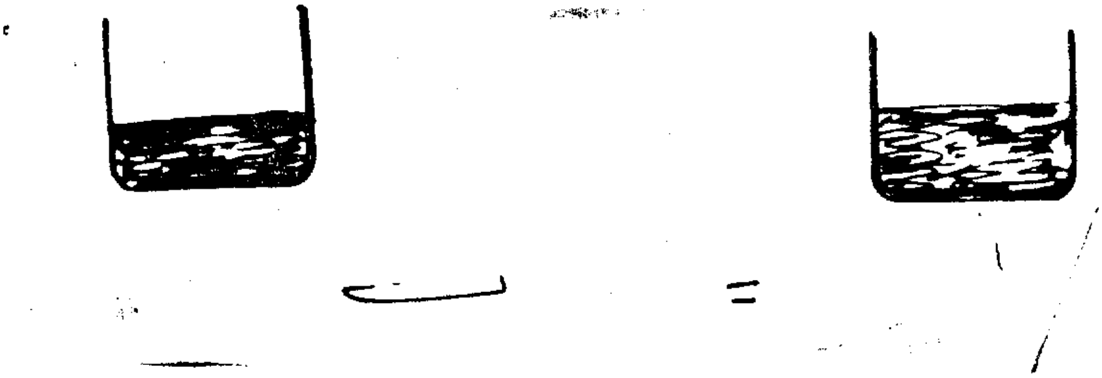
أ ــ فكرة العدد

كثيرة هي المؤلفات التي ظهرت في هذا الميدان ابتداء من عام ١٩٤٠ ولابد من الاشارة اولا الى تحليلات العالم النفساني السويسري جون بياجيه الذي يوجز بايضاح في مؤلف له ظهر ١٩٦٠ موقفه العام من هذا الموضوع الذي مختصره فيما يلي (الصوره العدديه شخصيه بحته . وهي تنشأ من تسلسل نفساني اصيل) فمذ ٦ ــ٧ سنوات تقريبا نبدأ فكرة العدد بالنمو عند الطفل وبنفس الوقت في مظهر يها العددى والترتيبي ولنظهر الى العيان حقيقة هذا الموجز . لابد من الاشارة الى بعض التجارب التي قام بها العالم بمساعدة السيده زيمنكا او الانسه انهلدر .

فكرة عدم تغير الكمية

لنقدم الى طفل كمية من الماء موزعه بالتساوي على وعائين ندعوهما أ ــ ب ونسقط هنا النواحي التقنية لهذا الاجراء . كما نهمل جميع الاحتياطات اللازمة لتفسير النتائج بشكل صحيح (لكل هذه التفاصيل يراجع القارىء المؤلف المذكور لبياجيه وانهلدر) .

المرحلة الاولى : يلاحظ الولد ويقبل فكرة التساوي



المرحلة الثانية ترك احد الوعائين ونفرغ محتوى الثاني في وعاء جديد مختلف الشكل يؤكد الطفل هذه المرة أن أ < ب



شكل رقم(١)

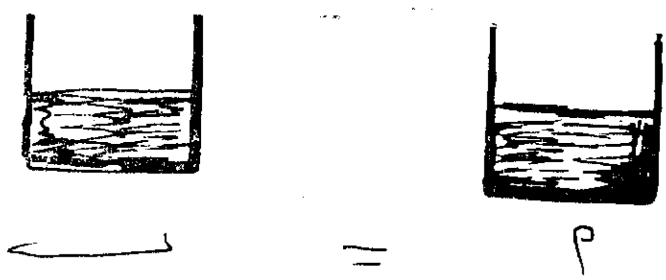
المرحلة الثالثة : نعود الى وضع المرحلة الاولى فيشعر بعض الاطفال بضرورة تقريب الوعائين لملاحظة التساوي من جديد ، بينما يؤكد البعض الاخر فورا ان أ = ب

المرحلة الرابعة : إذا اجرينا التعديل الان على الوعاء (أ) وتابعنا كما في المرحلة الثانية انما بالعكس هذه المرة .

يؤكد الطفل هنا أ < ب

وهكذا نستنتج ان الطفل لايدرك اطلاقا مبدأ التساوي (او عدم التناقض) او يؤكد دور اي تردد ان أ = ب وأ (ب أ) ب ، من جهة ثانية نلاحظ ان جميع العمليات التي يجربها الطفل تكون مرتبطه باحساسه وان التساوي او عدم التساوي الذي يؤكده ينتج من مقابلة المستويات وعلى هذا الاساس يكون مفيدا ان نتابع التجربة على الوجه التالي :

المرحلة الاولى



المرحلة الثانية



اشكال رقم ٢

ويؤكد الطفل هنا ان أ > ب

المرحلة الثالثة : اذا كان فرق المستوى كبيراً جدا . لان قطر احد الوعائين صغير جدا فان الطفل يعكس النتيجه ويؤكد ان أ < ب

هنا يؤكد (بياجيه) ان الولد يعجز كلياً عن (التضعيف المنطقي) لانه لا يستطيع ان يأخذ بعين الاعتبار وبوقت واحد فرق المستوى وفرق القطر .

انه يعجز عن التخلص من احدى وجهتي النار ليعتمد في نفس الوقت على الوجهة الثانية والواقع ان كل ذلك لايعتمد على مفهوم العدد بل على العكس، فان فكرة العدد تعتمد عند الطفل على مبدأ عدم تغيير الكمية خلال جميع التغيرات . فالطفل لايستطيع ادارك أن ٢×٣= ٤×١ الاعندما ينمو في نفسه هذا الشعور بعدم تغير الكمية.

ترتيب المجموعة

الشرط الثاني لنمو فكرة العدد هو شرط الترتيب (أي ترتيب للمجموعة) هنا ايضا نستعين بتجربة بسيطة لكنها غنية بالنتائج. لنعط طفلا مجموعة من ١٠ قصبات معدنية يتراوح طولها مثلا من ٣إلى ١٢سم ولنطلب اليه ان يرتبها بنظام الطول المتصاعد (وبلغه يدركها طبعاً) ان دراسة سلوك الطفل هنا غاية في الفائدة: نلاحظ فورا انه لايدرك معنى الترتيب من الاصغر إلى الاكبر. ان بعض الاطفال يتوصلون الى مقابلة ٢أو ٣أ و٤أ قصبات، اما تنظيم المجموعة بكاملها فيكاد يكون مستحيلا عليهم . وقد يتوصل البعض الى شيء من التنظيم على الوجه التالي:

أي أنهم يعجزون عن الاهتمام بتنظيم الطرفين معا او بلغة اكثر تجريدا نقول ان الطفل يستطيع مقابلة قسمين داخل مجموعة واحدة لكنه يعجز عن تحقيق المعادلة المزدوجة بين (أ ب) و (ب ج) أي (أ ب حـ) وهو لا يستطيع الا في عمر قريب من نهاية مرحلة الروضة ان ينظم بشكل صحيح الاطوال المختلفة شرط أن لايكون عددها كبيرا جدا .

كيف يتوصل الطفل الى مفهوم العدد

اذا لمسنا خلال النضج النفسي المتدرج عند الطفل نموا للشروط الاساسية اللازمة لتفتح مفهوم العدد عنده فلا يجب ان نتصور هذه الشروط متطورة كل منها على حده . اذا كان العدد بالنسبة إلى (بياجيه) تركيباً ذاتياً يفترض حفظ المجموعات وترتيبها فاننا نصل إلى النتيجة المهمة التالية: ليس لنا ان

نفترض عند الطفل بناءا مستقلا لنظامين عدديين متميزين عدا وترتيبا ، فالعدد الحسابي بوجهيه العددي والترتيبي ينطلق بنفس الوقت من المجموعات المنطقية للدرجات والصلات العددية وبشكل نتيجة لذلك بناءا متكاملا عن غريكو (Creco) تبقى مسألة هامة بحاجة إلى حل كيف يتوصل الطفل من خلال ادراكه الحسي واختياره إلى هذا التركيب الخاص الذي يمثل العدد الكامل نجد انفسنا هنا امام جواب خاص هام للسيد (بياجيه) يشكل احدى الدعائم الاساسية في بنائه حول دراسته العلوم ومن المهم ان نتوقف عند هذا الجواب ، فبعد ان يعدد كل النظريات الممكنة يكتب (بياجيه) في مؤلفه : مقدمة في دراسة وراثية المعروفة (١) ص ٥٧ : (عبارة ١+ ١= ٢ هل هي حقيقة ام اتفاق ام نص بديهي ، هل هي تفرض نفسها علينا وفقا لتجارب معينة وما هي هذه التجارب ام هي مقبولة بشكل مبدئي ، ام هي نتيجة لحدس مباشر ومن أي نوع . هل يشكل العدد نفسه فكرة اولية او هو في تركيب ذاتي لعمليات ذهنية ومنطقية ، ان الاجابة على جميع هذه الاسئلة موجودة في عدة اجزاء من الكتاب المذكور وسنحاول هنا ان نستخلص منها القسم الاهم مع شيء من التيسير في غنى الفكرة الاساسية للمؤلف

تبدو لنا عقدة الموضوع في الفرق الذي يشير اليه (بياجيه) بين مظهري الاختيار اللذين يجريان على الاشياء او مع الأشياء والذين يشكلان صيغتين اساسيتين ومختلفتين من التجريد الذهني عندما اشاهد مجموعة من اربع حبات كرز فثمة تجريد اول ومباشر يتعلق بالصفات الفيزيائية للاشياء (الشكل ، اللون ، اللمعان ، النعومة) كما ان هناك تجريداً اخر هو وجود ٤ حبات ولنزيد هذه النقطة وضوحا لنستمع إلى ... (بياجيه) (العدد ليس تجريدا من الأشياء او من الحقائق التي تجري عليها تجربتنا بل من العمليات نفسها التي تحصل خلال هذه التجربة (العملية او الذهنية) والتي تجعلها ممكنة (الكتاب المذكور ص ٦٧) ولكي نتوصل إلى عمليات ذات صفة علينا نسبيا (عملية التسلسل العددى لاتظهر عند الطفل الا حول سن ٧ سنوات)

انطلاقا من مسلك ادنى نسبيا (الذاكرة التي تبدأ دون ريب مع اللغة) يجب الاعتماد على تجريد من نوع خاص هو التجريد انطلاقا من الاعمال، مقابل التجريد انطلاقا من (الاشياء ذلك يشكل بالفعل صيغتين للتجريد مختلفتين تماماً ومن الاهمية بامكان التأكيد على ذلك (المؤلف المذكور ص ٧٠ او٧١).

تنتج من كل ذلك الخلاصة الاساسية المذكورة في الصفحة ١٣٣ اذا كان العدد تجريبيا في مظهره الحدسي ، فانه مع ذلك يضاف إلى الاشياء ولا يستخرج منها وهو بكامله موجود في ثناية التمثل العملي (يتبين لنا من ذلك أهمية دور الأشياء، اذا كانت الغاية تسلسل الالوان او الاوزان فالصفات الفيزيائية هي المعول عليها) اما من حيث التعداد فالشيء على العكس لا أهمية له بمعنى ان صفاته الخاصة لاتتدخل في الحسبان ، طالما ان الغرض الوحيد المعول عليها هو التعداد نفسه وبالاختيصار لايلعب الشيء في هذا النوع من التجارب الا دور الركيز للعمل الذهني ، وهو ليس في المعنى الادق الا (اشارة) المؤلف المذكور ص ١٣٣ .

بعض ملاحظات تربوية :

دون أن نشير هنا جميع المسائل التربوية التي تنتج مباشرة عن الموقف العام الذي اتخذه (بياجيه) ترى من الضروري ايضاح بعض النقاط التي تلاقي مع القضايا النفسانية لذلك سيكون عملنا تلميحا لبعض نواحي الموضوع اكثر مما هو معالجة بالمعنى الصحيح نستطيع ان نطرح فورا سؤالا يتعلق بدور (الناحية الحسية) في تعليم المبادىء الحسابية وبمكانة وسائل الايضاح وشكلياتها ينتج مباشرة عن التحليلات السابقة ان ليس على المربي ان (ينتظر) سلبيا كي تتكون فكرة العدد عند الطفل وان ليس الاكتفاء باجراء عمليات او تجارب على الاشياء المختلفة بل عليه ان يشير ويشجع نشاط الطفل الذي يقوده إلى فكرة العدد ليس الامر تدريبا او اكتسابا اليا للمعلومات بل هو نشاط منطقي وذهني يتحرك حتى يتمكن الادراك الذي يعتمد على معطيات التجارب وعلى

اللغة وعلى حالة النضج الخاصة بالطفل ان يعطي نتيجة في اكتساب فكرة العدد. هل يجب اذن اختيار وسائل مادية جدا وتمثيليه ام على العكس وسائل مجردة وغير تمثيليه؟ان الاجابة السريعة على هذا السؤال تظهر عند من يعطيها نقصا في ادراك تعقيد هذا المشكل وتسهيلا مسيء.إلى النظرة التربوية في تعليم الحساب من الصحيح كما يبين لنا ساهيا ان فكرة العدد تنتج من عملية تجري مع الاشياء ايا كان شكلها او لونها او مظهرها.وعليه يمكن لقسم من وسائل الايضاح ان يستجيب لمقتضيات السهولة كي يساعد العمل الذهني على الانطلاق في ظروف سهلة ومفيدة لكن من الخطأ ان نعتبر هذه الوسائل الغير تمثيلية مجرد اقلام او قطع منوعة فالتدريب الحسابي لايقف عند حدود تنمية فكرة العدد في مظهرها المنطقي البحت كما ذكرها (بياجيه).ان التجريد ثقة للاشياء والكميات والجمع والقسمة يمكن بل يجب ان تنطلق من الاشياء الطبيعية التي يصادفها الطفل في محيطه اذا اردنا ان نوجد علاقة بين الحساب والحياة فيجب علينا منذ البدء ان لانقطع جميع الخيوط التي تربطهما معا واذا كانت وسائل الايضاح البسيطة مفيدة ليدرك الطفل ان ٤+١= ٢+٣ فان وسائل الايضاح المنظورة والاوضاع الحقيقية المأخوذة من الواقع ضرورية تمكن الطفل من ان يفهم ويحل كل المسائل الصغيرة التي تعتمد على ٤+١او٢+٣ لتتجنب اذن التسهيلات المنطرقة ولندرك دون ان نقع في هوس التوضيح المادي مدى تعقيد العمليات الذهنية ولنحافظ على غنى هذه العمليات المنظورة بفضل دراسة منهجية دقيقة(مراجع دراسة وسائل الحساب التي سترد فيما بعد)هل تسمح لنا المعطيات النفسية ان نعرف ماذا كان ضروريا ان نقدم الاشياء في مجموعات مبنية ام لانحن نعلم ان العاده جرت تحت تأثير نظرية الشكل ان تقدم تمثيلا هندسيا للعدد على الاقل للاعداد من ١ ــ ١٠ رغم الفائدة العميمه التي تقدمها هذه الاشكال الهندسية بغية تحليل الارقام وتثبيت النتائج الحسابية التي لايجدر اهمالها فلابد من التأكيد على ان المظهر العددي للرقم هو الذي يبرز وحده وبشكل سلبي بعض الشيء نكاد نقول بشكل تأملي واذا كان صحيحا

ان تمثيل رقم ٧ يسمح لأن يبرز شعرياً وبشكل تصويري تقسيمه الى (٣×٢+١) او ٤+٣ او ٥+٢ فان المظهـــر الترتيبـــي للعدد ٧ الذي يعبر عنه بعبــارة ٦ ، ٧ ، ٨ قد اهمل بشكل تام لذلك بأن من الضروري ان نستعين بالمجموعات غير المبنية لتعليم الطفل الاشياء التي تشكل المجموعات ولتعوده على اكتساب الغيابات الممكنة والمختلفه ولتعطيه امكانيات التعداد المفيده جدا في تطويره الحسابي .

نرغب في نهاية هذه الملاحظات التربوية الموجزه ان نعلق اهمية لم تظهر لنا بشكل كاف في دراسة (بياجيه) على دور المربي من حيث اللغة . حاولنا ان نثبت ان العدد يبنى، مع اساس من التجارب الملموسه انطلاقا من التنظيم الداخلي لاعمال الفرد الذهنية ، ونستطيع ان نؤكد دون ان نتحدث هنا عن (عملية الوعي) ان اللغة مؤهلة لان تكون (لحد العوامل الايجابية لهذا التطور اذا ادخلت بمهارة من قبل المربي) وعلى كل ستواجه هذه المسائل فيما بعد عند التحدث على مسلك التسميع لتبين كيف تستطيع في تدريس الحساب احدى صيغ الوصل بين المحسوس المجرد .

العدد في النشاط المدرسي: لندع جانبا الافاق الواسعه التي يطل منها (بياجيه) وتلاميذه ولنعد الى مظاهر اوثق صله بمشاغلنا النفسية التربوية كما سبق ان لاحظنا لايظهر العدد دفعه واحدة في النشاط الذهني للطفل (قولنا ان العدد يشتق من النشاطات او الاعمال التي يمارسها الفرد على الاشياء) دون ان تنبثق قولا عن هــذه الاشياء يعني ان تعتبـــر مختلــف انــواع العدد كنتيجه لترتيبات ذهنية متدرجة دون ان تعترض مسبقــا وجود العدد فــي الذهن او في الاشياء) (بياجيه) لذلك اصبح ضروريا ان تصور فترة يستطيع فيها الطفل أن يستكشف الفكرة التي تبدأ بالنمو قبل ان يسيطر عليها ويستخدمها بشكل صحيح

ان الاعداد التي نستخدمها بسهولة في الحياة العملية او في النشاط المدرسي توازن من الناحية الذهنية اوضاعا في غاية الاختلاف اما الاطفال الذين لم يقتلعوا بعد مفهوم العدد من جذوره المادية فانهم يحيون غالبا في ايهام

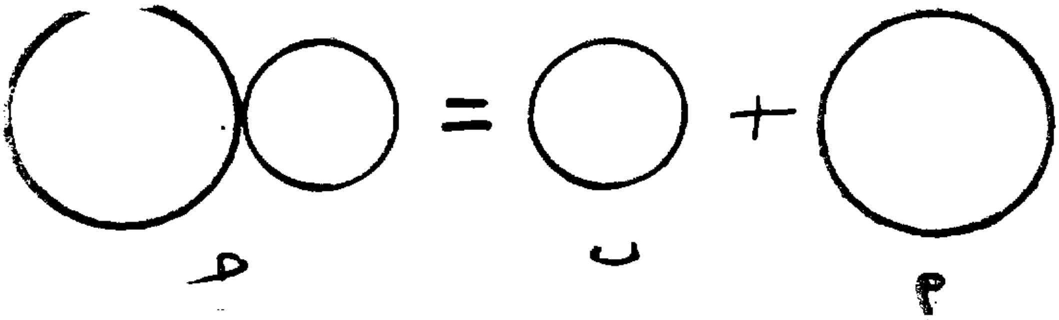
يؤذى تطورهم النفسي كما يضر بموقفهم من الحساب ان الايهام الذي ندخله عن غير قصد بين المظهر العدى والمظهر الترتيبي للعدد (مثلا عندي ثلاث كرزات والساعة الان هي ٣) او بين الظهر المتصل وغير المتصل (عندي ثلاث لترات ماء وثلاث قناني) يجب ان ينتبه اليه المربي الذي يدرك مصادر هذه المعلومات .

ان كتابة الاعداد تثير صعوبات نفسية اخرى يجدر بنا ان نتوقف عندها فالمظهر الكتابي للارقام يشكل تماما كما هي الحال في كتابة الخط (تمثيلا رمزيا من الدرجة الثانية) اذا كان على الطفل وقد تعلم (الاسم) الذي يمثل مقدارا معينا ان يعبر عن هذا المقدار (باشارة) خاصة ومن أجل ذلك يجب أن يكون قد ادرك التمثيل الرمزي ولا بد ان نتمعن هنا سيرا ذا وجهتين من التجربة الحسية عند الطفل (انا امسك اشياء لاعدها إلى التعبير اللفظي) (عندي اربع كلل إلى التمثيل الكتابي بواسطة الرقم ٤) كذلك يجب ان يكون الطفل مؤهلا لاجتياز الخط العكسي لهذه المراحل: امام الرقم (٣) مثلا يجب ان يؤدي الطفل التعيين الشفهي بكلمة ٣ ثلاثة ثم ان يدل على مجموعة من ثلاثة اشياء فالادراك الكامل لاية اشارة يجب ان يسير في هذا الخط المزدوج الصاعد والهابط بين قوسين كما قال افلاطون ومع ذلك فنحن نكتفي احيانا بمعرفة لدى الطفل متفاوته الوضوح دون ان نتأكد من الفهم الدقيق والادراك الشامل لجميع مظاهر السلوك العددي . ان كتابة الارقام نفسها لا تلاقي اية صعوبات مادية اكثر من كتابة الخط العادي انما لايجب كما صدف ان لاحظنا في الموضوع صفوف الحضانةان يعتبر حسن حظ الطفل دليلا على تفوقه بالحساب فقد يحلو للطفل ان يهتم بالارقام ويحسن كتابتها دون ان يدرك حسابيا مايفعل ، وكم يكون له اذا تغيرت المعلمة ان لايبقى جيدا في الحساب كما كان من قبل يجب ان نوجه اهتماما خاصا للرقم صفر الذي يقترن كما يقول علماء الرياضيات بالمجموعة الفارغة فهو يشكل عند الطفل تجريدا جديدا واضافيا لانه لايمثل شيئاً

كما هي الحال لسائر الارقام بل يدرك علىأنه لاشيء أو على انه لن يبقى شيء بعد عملية حسابية ، من هنا نفهم ان ادراك شيء للتعبير الرمزي للصفر تظهر نتائجه عند كتابة الاعداد الكبيرة وفي دراسة الترقيم ولننهي بحثنا نذكر بعض الصعوبات الذهنية في كتابة الاعداد فدراسة الاعداد الاكبر من تسعة تنتج لنا ذكر بعض الملاحظات ، سبق ان لفتنا انتباه القارىء. عملا إلى مايبدو لنا في غاية السهولة والمنطق لايبدو وكذلك للطفل قبل سن التاسعة لايستطيع ان يدرك البنيان الجميل في نظام ترقيمنا العشري في مجمل احاد عشرات مئات فالى جانب الصعوبات الخاصة باكتساب المقررات اللازمة يجد الطفل نفسه لاول مرة في حياته امام اتفاق بالغ الدقة .

ان قيمة الرمز الحسابي الرقم يتعلق بمركزه النسبي بينما كان هذا الرمز حتى الان يرتبط مباشرة بقيمة ما والعكس بالعكس ، ان كتابة العدد ١١ لاتعطى نفس القيمة للرقمين (١) ولذلك فلا بد من قطع إلى حد ما مع ماتعلمناه سابقاً وتعرف طبعا جميع العراقيل والصعوبات التي يلاقيها الطفل من سن ٥ ـ ٦ سنوات كي ينظم المسافات ويحسن بنيانها ليميز القرب من البعد واليمين من اليسار ولذلك نبقى نتجنب الالتباس عند الطفل بين نوعين من الاتفاق الاسمي للرقم من جهة والاتفاق البنائي او المركزي من جهة ثانية حتى تكون المستويات المختلفة التي تجري عليها النشاطات العددية فيما بعد صحيحة التركيب بعضها مع بعض .

(ب) العمليات الحسابية : ان عرض اي موضوع علمي يقودنا بالضرورة إلى التمييز بين الوجهات المتكاملة العديدة التي لاتتصل لهذا الموضوع وكذلك الامر يختص بمفهوم العدد والعملية الحسابية الاولية ففي المستويات الاولى من الحساب نجد ان العمليات الحسية الوحيدة التي يصادفها الطفل فعلا هي الجمع والطرح بين مجموعتين من الاشياء وقسمة مجموعة ما الى اقسام متساوية او توزيع مجموعة من الاشياء الى عدد محدد من الاقسام اما بالنسبة لعلم الرياضيات فالجمع بين مجموعة أ و ب لايعطي لمجموعه حـ إلا بالشرط التالي :



شكل رقم (٣)

اذا وجدت في مكان ماجوقة من العازفين المجموعة أ والمجموعة من المغنين ب فان ضم هاتين المجموعتين الى مجموعة واحدة بعضها عدد من الافراد معادلا لمجموعة اعضاء الجوقتين بشرط ان لايكون اي مـــن الاعضاء عازقاً وفي هذا الشرط الحسابى الامر أ ب = صفر يخلق للطفل صعوبات جمة وكثيرا مايكون موقف المعلم مصدرا لمتاعب واخطاء لاحقه اذا علمنا الطفل بطريقة اليه جدا لايمكننا اجراء اية عمليات حسابية جمع او طرح الا على اشياء من نفس النوع فان الطفل يصبح عاجزا فيما بعد اذا اتبع باحترام كامل تلك القواعد التي تلقيناها ان يجب عدد الحيوانات الموجودة في مزرعة لانه لايمكننا حسب قوله ان نجمع البقرات مع الخراف فالقضية اذن هي ان يدرك الطفل ان العمليات يجري على الاعداد وان لامعنى لهذه الاعداد الا بالنسبة للمجموعة المختصه بها ومن هنا نعود مرة اخرى الى ضرورة وضع تحديد دقيق لمفهوم المجموعة ففي المثل السابق ليس الامر ان نجمع الخراف والابقار بل نضع مجموعتين من الحيوانات والتعديل هذا ليس لغويا فحسب بل يعتمد على عملية نفسية متقدمه جدا في مجالات التصنيف فان الابقار والخراف تعتبر مختصه بصيغتين متعادلتين وان هذين الصنفين يمكن ان يقيما الى مجموعة اوسع هي مجموعة الحيوانات ان هذه الملاحظات البسيطه تظهر لنا حاجة المربي الى التـــفـــكـــيـــــــر مجدداً بتلك المسائل والاحوال الاولية كي لايغرز في نفس الطفل بغير ارادته انما بشيء من الاهمال مفاهيم وعادات وطرق للتفكير تسد الطريق

امام اي تصميم فكري او تعرض للاذى المكتسبات اللاحقة واذا عدنا إلى الصعيد التربوي والنفسي للنشاط المدرسي فاننا نستطيع التمييز بين مختلف المظاهر التي سنتناولها بالدروس دون أن يكون تسبقها اشارة مقصودة لتلاحقها الزمني .

١ — **مفهوم العملية الحسابية** : قبل أي دراسة رياضية مهمة مهما كانت اولية يجب ان يكون الطفل ملما على المستوى المحسوس اي على مستوى خبرته الشخصية بما يعنيه ضم الاشياء (وتفريغها) فمسلك الطفل بتأثير تطوره المحرك الطبيعي يمر شيئا فشيئا تحت مراقبة فكرة النامي كما ان العمليات الذهنية تنتظم وتتجمع اما الطفل فهو ان كان قد اكتسب بعض الخطط او الصور العملية يستطيع الاستفادة منها بشكل صحيح في الاستجابة منها اذا مايطلب منه الا انه لم يصبح بعد مؤهلا لرؤية الصلة الدقيقة بين سائر انواع السلوك واوجه الشبه التي تربط بينها ويكون دور المربي هنا ان يقود الطفل إلى تصنيف اولي لهذه الاعمال وتوزيعها إلى عدة مئات بسيطة تعطي كل منها اسما خاصا .

٢ — **اسم العمليات الاساسية** : ليس هناك نظريا الا اربع عمليات أساسية واكتساب اربع كلمات يجب أن يكون كافيا مبدئياً لكننا نجد انفسنا هنا امام مسألتين مختلفتين الاولى ترتبط باكتساب المفردات والثانية ترتفع إلى مستوى الرياضيات البحتة اذا كان على شيء من السهولة تعليم الاطفال عبارة الجمع والطرح فليس من السهل دائما ان نجد صلة قريبة بين العمليات الاساسية الاربعة وبين العدد اللامتناهي من العمليات الحية التي يمكن ان يصادفها الطفل لقد اثبت عدة مؤلفين ان هناك عددا من العمليات النفسية تفوق الاربع وقد تسنى لنا شخصيا ان نفحص بين السابعة ٧ — ٩ فروق الناتج بالنسبة إلى العمليات النفسية لذلك ورغنه في التمديد حصرت العمليات الاساسية بسبع فقط ومن باب الاحتياط نؤكد ان ليس ثمة حلول نهائية ومحددة تعطي للطفل وتسمح له بايجاد العملية المناسبة لاية مسألة حسابية معينة فالامر في

الحقيقة هو عملية فهم ودون ان تهدف إلى تحليل كامل لجميع هذه الاوضاع لترامي الاستجابات النفسية المنوعة التي تثيرها المسائل التالية :

أ - **مسائل يعبر عنها بعملية الجمع** : اما ان نعبر مباشرة عن ضم مجموعتين متجانستين (٣ كلل+ ٤ كلل) او ان نتخطى الاشياء نفسها لنصنفها في فئة اخرى كم طيرا تمثل ٤ دجاجات و ٣ بطات ؟ وعاء يحتوي على ٣٠٠ غرام من المربى ووزنه فارغا ٨٢ غراما فكم يزن مملوءا ؟ في هذه الحاله الاخيره نجدد الاشارة الى صعوبة يلاقيها الاطفال عندما نشكل المعطيات على المستوى النفسي شيئا من التنوع (مسافر قطع ١٥ كلم بالسيارة و ٣ كلم مشيا فكم قطع في مرات اخرى ورغم التشابه الظاهر تلاقي المعطيات العدديه تفسيرا نفسيا مختلفا ويجد الطفل بصعوبة ضرورة جمع الاعداد المطلوبة (انطلقت في الساعة الثامنه ومشيت مدة ٣ ساعات ففي اي مسافة وصلت . حالة اخيرة هي حالة جمع القيم السلبية (مثال مجموعتين من الصحون المكسورة او المسألة التالية : كان معي ٥٠٠ قرشا عندما نزلت الى السوق صرفت ٢٠٠ قرشا ثم ٧٥ قرشا فما مجموع ماصرفت؟ نلاحظ ان من اليسير التعرف هنا على ثلاثة انواع من الحالات التي يصح فيها الجمع

— مجموعة اشياء متشابهة

— مجموعة اشياء تصنف في فئة جديدة

— مجموعة قيم سلبية

ب - مسائل يعبر عنها بطريقة طرح : نستطيع ان نلاقي مرة اخرى الانواع السابقة لكننا سنحاول تجنبا للتعقيد اختصار الاوضاع التي يعبر عنها بعملية طرح الى ثلاثة فاما ان نفتش عن الباقي (امامي ٨ حبات ملبس اكلت منها حبتين فكم حبه تبقى ؟ واما ان نفتش عن (التكملة) لنقص من كمية لتعادل كمية اخرى (مع سليم ١٢ كلة يلزمه ٥ لاجراء مبادله مع رفيقه فكم ينقصه واما ان تقابل كميتين (طول سليم ٩٨ سم وطول امين ٧٢ سم فكم يكون

سليم اطول من امين ؟) وكثيرا مايحصل الالتباس في ذهن الاطفال خاصة اذا وجدنا (التكملة) بواسطة الجمع كما هي الحال في العملية التي تعاد كفاية).

هذه الانواع الثلاثة من الطرح ترتكز على مستويات نفسية مختلفة فللتفيش على الباقي هو ايسرها تناولا ومقابلة الكميتين تأتي متأخرة ولنفترض ان الولد يجيد معالجة العلاقات غير المتقابلة اما البحث على التكملة فتقتضي احيانا قفزة في المجهول لان الكمية الاولى معلومة اما الثانية فهي فرضية وحسب.

ج ـ **مسائل يعبر عنها بعملية ضرب :** يبدو في هذه المسائل لاتشكل على مستوى المدرسة الابتدائية اية صعوبات خاصة لانها لاتعتبر في اقصى الاحتمالات الاكثر تجربة حسية انما يتبقى السهر تماما على حسن تناول الاشارات والرموز ذات العلاقة بالوحدات المستعملة .

د ـ **مسائل يعبر عنها بعملية قسمة :** يمكننا ان نواجه هنا حالتين ترتكزان على نفسيتين مختلفتين ففي الحالة الاولى يكون وحدتا الانطلاق متجانستين اما حاصل القسمة فلا يكون لهما (عندي ١٨ حبة شوكولاته وزعتها إلى مجموعات المقسوم والحاصل متجانسان اما المقسوم عليه فيكون مختلفا عنهما (عندي ١٨ حبة شوكولاته اوزعها على ٦ رفاق فكم حبة ينال كل منهم) هنا تبدو العلاقة بين التجربة الحسية والعملية الحسابية على شيء من الصعوبة لان التعبير عن الجواب يكون على كثير من الايهام في ذهن الطفل .

٣) **الترجمة الرمزية للعمليات :** ان الترجمة الرمزية الكتابية لعبارة ٣+ ٢=٥ العملية تختص مثلا بجمع كيسين من الملبس تخلق رغم سهولتها الظاهرة كثيراً من الصعوبات النفسية عند الطفل . يجب ان ندرك الفرق النوعي بين عملية حسية غنية بالاحداث بالنسبة للطفل حاصلة .

فالطفل الذي يملك ٣ كلل ثم تلقى كلتين من احد رفاقه يجب ان ينسى هذا الحدث الغني بالعناصر العاطفية ليترجم كل ذلك وفي لمحة بصر ٣+٢ = ٥ هذا الفرق بالكثافة النفسية لهاتين الفترتين من العمل الذهني يمكنه

ان يخير الطفل ويعطيه الاساس بان مايكتبه رمزيا لايتجاوب فعلا وبشكل كامل مع مايريد التعبير عنه ، طالما لم يتوصل إلى قدر معين من التجريد، فالعبارة المكتوبة تعبر وفي نفس الوقت وبلمحة بصر مدهشة في سائر فترات الواقع العملي وعن النتيجة النهائية . بينما لايلمس الطفل في نفس الوقت المراحل الحسية الثلاث التي تقود إلى عبارة ٣ ٢ = ٥ لايمكننا الامتناع عن التفكير هنا بعملية اكتساب اللغة (مع شيء من الانزلاق) كما يقول بياجه ومرحلة الكلمة ، الجملة ففي هذه المرحلة يكون التعبير الصوتي مشاركاً لوضيفة معينة عنها وبشكل كامل . انما يجب ان تتم عملية التمييز والفصل التي تقود الطفل إلى التمييز بين هاتين المرحلتين المختلفتين زمنياً وهنا ينعكس الحديث لان التجربة الحقيقية للطفل يجب ان تتكشف في لمحة تعبر عنها تماماً. وهنا نلمس الحاجة الاستعانة بما يدعوه ب ، جانيه سلك التسميع لنضمن لهذه الترجمة الرمزية كل غناها فالعبارة المكتوبة هي ترجمة ويجب ان تهيأ بسلسلة من المراحل التي تسمح للطفل بالانتقال تدريجيا من مرتبة الى اخرى من هذه العملية في البدء يكون العمل وعلى الطفل ان يعمل ويعالج بيديه عدة مرات اذا اقتضى الامر وخلال هذه العمليات يدخل المربي التعبير الشفهي الاول الذي يقود الطفل الى (قبول) مايعمل لذلك يكون العمل واللغة متداخلين بشكل عميق ويوضح احدهما الاخر اما المرحلة الثانية فهي مسلك التسميع او يطلب المنجزه وتختلف عنده في نفس الوقت شيئا من (الوعي الداخلي)اللازم وعندما يتمكن الطفل من التعبير شفهيا وبشكل صحيح عن المواقف اللازمه عندئذ يستطيع ادخال الترجمة الرمزيه والكتابية بواسطة الرسم اوالارشاد الحسابيه هذه العملية النفسية يجب ان تتمتع بميزة هامة هي ذات وجهتين : على المعلم ان يقود الطفل من المحسوس الى المجرد وكتفي عليه ايضا ان يتمكن الطفل امام عبارة ٣ ٢ = ٥ من المرور بالمراحل النازله نحو العملية الحسية وان يدربه وهذا احسن على ايجاد مسائل او عمليات حسيه يعبر عنها بالعبارة المتقدمة نتأكد بذلك من الاستيعاب الكامل عند

الولد وننمي خياله الحسابي اذ تدعم بشدة العلاقة المتبادله بين المحسوس والمجرد واذا لم تكن هذه العلاقة المتبادلة قائمة على اساس متين. وذلك على جميع المستويات التعليم الحسابي فان الطفل ينسى ثم يعجز على استعادة المعنى الحسي للعملية عندئذ يصبح الحساب شكلا بحتا ويعقد الولد رغبة التعلم بسرعـــة .

على الصعيد العملي تقتضي الترجمة الرمزيه للعمليات الحسابية من الطفل اكتساب عدة اشارات وبعض نقاط التفاهم ويجدر ان تكون امكانية الرمز (الوظيفة الرمزيه) في هذا الوقت على شيء من النمو حتى تصبح هذه الاكتسابات ممكنه فمن المعروف انه بالنسبة للبعض منها (كيفية وضع عملية طرح مثلا) ويجب ان تنتظر مستوى ذهنيا لعمر ٨ سنوات تقريبا حتى تنال بالنسبة الينا سواء وضعت افقيا او عاموديا . فانها ليست كذلك بالنسبة للطفل الذي يجد نفسه امام بنائين حسيين مختلفين هنا نستطيع القول انه لم يبلغ بعد مرحلة (عدم التغيير) لترتيب العملية الحسابية ، وعلى المربين ان يبدو شديدي الانتباه للصعوبات التي يلاقيها الطفل لانها ليست في الواقع صعوبات (رياضيه) بالمعنى الصحيح بل هي في اغلب الاحيان عجز في امور فرعية تؤثر على سير العمليات الحسابيه وتجعل الطفل يقنع مرة بعد مرة انه لايعلم شيئا في الحساب

جـ ـ **القياس** : لن تورد هنا الاعلى سبيل التذكير ضرورة التمييز بوضوح بين (المقدار) نفسه وبين قياسه الذي يعبر عنه بعدد وان المقادير يمكن ان تكون نوعية وكمية فالمقدار النوعي كاللدف مثلا يمكل ان تكون له درجات متساوية ويسمح بوضع علاقات تؤدي الى المقابلة او الى التصنيف اما المقدار الكمي فهو الذي يسمح فوق ذلك بتحديد علاقات جمع لتميز بصفات المبادله المشاركه .

كما تبين لنا سابقا لايستطيع الطفل التوصل الى مفهوم القياس لاي مقدار الا اذا استطاع ان ينظم بشكل صحيح عناصر مجموعة ما ثم ان يجري المقابلات فقياس المقدار هو بالواقع مقابلة بمقدار اخر جرى اختياره كنموذج

فكيف تنمو عند الطفل هذه العملية النفسية ، التسلسل ، المقابلة ، للنموذج الوحــــده .

تلك هي الشذات الاساسية التي نلاقيها في طريقنا دون الاشارة إلى جميع التداخلات التي يمكن ملاحظتها بين التطور النفسي العضوي للطفل وبين تجاربه الفنية .

المهم في رأينا هو ان نعتبر القياس (هذا السطر يقيس ١٠ سم مثلا) بمثابة المرحلة النهائية لعملية نفسية طويلة تتطور وفقا لمخطط يجهله المربون غالبا او يهملونه . حول هذا الموضوع تبدو تحليلات ديكرولي بغاية الفائدة وتبدو مشاهدة الاولاد في المدارس المدنية ثمينة جدا ان قيادة الطفل إلى مفهوم القياس هي ان ننمي عنده بالاضافة إلى التسلسل والمقابلة فكرة النموذج المقدار الثابت والاختبار اللاحق لاي نموذج يرتضيه الجميع (كالنظام المترى مثلا) ليس الا نتيجة منطقية لهذا التطور ، من هنا تبرز الضرورة القصوى لتمارين كثيرة من الملاحظة والتجميع والمقابلة لقد اظهرنا بفضل تجارب (بياجيه) كيف تمر العلاقات بين كميتين من التساوي إلى عدم التساوي والعكس بالعكس وعلينا ان ننتظر قليلا قبل ان يصل الطفل إلى مرحلة المقابلة الصحيحة بفضل نموذج يبقى مقدار ثابت خلال التنقلات التي تجري عليه وفي هذه الفترة فحسب نستطيع التحدث عن القياس والخطأ التربوي يحصل بادخال فكرة النموذج (واحيانا الوحدة نفسها) بشكل اعتباطي بينما يكون الطفل مقصرا إلى ادراك هذه المرحلة من تطوره النفسي (انظر فيما بعد المظاهر العملية لهذه المسألة) .

عندما يتقبل الطفل فكرة المقابلة بين مقدار معين (شجرة مقطوعة مثلا او طول الصف) وبين مقدار اخر اتخذ النموذج من قبل الجميع (قطعة من الخشب مثلا) عندئذ تكون فعلا مفهوم القياس ونستطيع اذ ذاك ادخال النظام المتري مفرداته وقوانينه . لكن هذا النشاط لايكون فعالا الا اذا اجرى الطفل عددا كبيرا من التجارب تؤهله ليدرك ان نتيجه المقابلة (العدد الذي

يمثل القياس) تتعلق بالمقدار المتخذ كنموذج . ان قياس طوله مثلا يعادل ٤ مرات طول يد المعلمة و٦ مرات طول يد تلميذ كبير و٧ مرات طول يد طفله في صفوف الروضة وعندما يبلغ الطفل الواحد وهنا يتميز ضرورة اختيار نموذج موقر ، اما على المستوى العملي للقياس وسواء اتخذنا نموذجا او وحدة متفقاً عليها متخذ متطلبات معينة لمسالك المقابلة بمركزيها الحركي والذهني (ضبط نقطتين في حالة قياسات الطول ، مهارة الحركة ودقتها في حال قياسات الوزن) .

د ـ **التفكير عند الطفل** : ان نخوض في دراسة عامة حول تطور التفكير عند الطفل بل نكتفي بالنواحي التي تتعلق مباشرة بتعليم الحساب في المدرسة الابتدائية ينطلق من الاوضاع الملموسة والحقيقية التي يعرفها الطفل ثم نستعرض بالتدريج كيفية الوصول إلى التفكير وسنتوقف عند الحد الادنى مما يدعو في الواقع (التفكير الرياضي) كما يؤديه تلامذة التعليم الثانوي .

يعرف الطفل في الواقع اوضاعا ملموسة هي اوضاع حياته العادية ترسله والدته مثلا لشراء الخبز فيتعرف منذ الصغر على معنى المبادلة والتعامل وتداول العملة هو في الواقع ملزم بحل مسألة صغيرة تتعلق بشراء أحدى السلع وعلى المربي ان يدرك ان هناك مراحل عديدة بين الوقت الذي يتمكن فيه الطفل ان يحل مسألة ملموسة وبين الوقت الذي يستطيع ان يضع بشكل صحيح المسألة التالية : ذهب سليم إلى الخباز ومعه ورقة ٥ ليرات اشترى ٣ كيلو خبز بسعر ٤٥ قرشا للكيلو . فما المبلغ الذي يرده له الخباز ؟ في المرحلة الأولى ليس لهذه الوضعية عند الطفل اية عناصر حسابية بل هي غنية بالعوامل العاطفية فهو يذهب فخورا وسعيدا لاتمام الصفقة المكلف بها ، ويكاد يكون غريباً بشكل كامل من المظاهر الحسابية للمسألة هو يعرف تماما انه سيعطي قطعة مالية وانه سيسترد مالا اخر لكنه يكون مهتما بحبة مابس يتناولها اكثر من اهتمامه بصحة الحسابات وبعد عدة اشهر يكون : باستطاعته معرفة قطع العملة ثم يصبح مؤهلا لاليعدها بدقة بل يميز اذا كانت القيمة المعادة

اليه تعادل او لاتعادل مايستحقه نلاحظ اذن ان هناك تطورا واهتماما بالناحية العددية ثم بالنواحي المتعلقة بصحة الحساب ثم يأتي وقت يتمكن منه الطفل من ان يعد نفسه ويدقق حسابيا ان المبلغ الذي يعطيه لعناصر هو ثمن السلعة المشتراة ، كما يستطيع عند عودته إلى المنزل ان (يقدم حسابا) اي ان يقص على والدته مراحل عمله وان يشرح بعض صعوباتها في هذا الوقت يعدد الطفل مؤهلا لحل المسائل الاولية التي تطرأ عليه في الصف ولنستعرض الان مايلزمه ليكون جوابه مناسبا لما ينتظره المعلم .

نستلهم هنا مؤلفات العالم النفساني ب جانبيه فنؤكد حاجة الطفل لتعلم طريقة وضع تقرير عما جرى معه، ماذا كانت المهمة التي اسندت اليه ؟ كيف اداها ؟ وماذا كانت نتائجها ؟ هذا (التقرير) هو الذي يجب تنظيمه بان نجعل الطفل تماما المراحل والمظاهر الحسابية وهكذا نجد في جميع الاوضاع المتشابهة عناصر مشتركة يمكن ترجمتها بعبارات مماثلة . وعليه لايجب ان نتخذ العمل الحسابي اي مظهر سحري بل يجب ان يمر عليها في حالة وعي يتدرج الاعمال المنجزة وفي محاولة مستمرة للتعبير، غايتها التوفيق الكامل بين الفكر والعمل ، ومن خلال هذه الرؤية النفسية يصبح حل العمل الحسابي في جميع شكلياته المحسوسة والمجردة كما يصبح انشاء الحل كتابته متناسبين مع المجهود الفكري الذي تقتضيه الناحية الحسابية .

المصادر العربيــة

١ — الادراك الحسي عند ابن سيناء دكتور عثمان نجاتي دار المعارف بمصر / ١٩٦١ .

٢ — الشخصية بين النظرية والتطبيق التربوي دكتور محمد حسن ابو عنية / ١٩٧٨ دار المعارف بمصر .

٣ — فلسفة التربية فيليب فينكس ١٩٧٢ ترجمة وتقديم دكتور محمد لبيب النخيعي ١٩٦٥ .

٤ — سيكولوجية التعليم د . جابر عبد الحميد جابر دار النهضة العربية ١٩٧٢ .

٥ — فن الدراسه كيلفورد تمورغان وجيمس ديز ترجمة فؤاد جميل تقديم / يوسف حوراني مكتبة الحياة بيروت ١٩٧٤ .

٦ — الاسس النفسية للتعليم الثانوي د . احمد زكي صالح دار النهضة العربية / ١٩٧٢ .

٧ — التربية والتعليم تأليف روبتر دوترانس وجماعته ترجمة هشام نشابه واخرون / مطبعة اليونسكو ١٩٦٦ .

٨ — المدرسة والطفل باريس ١٩٤٧ .

٩ — طرق التدريس تأليف ساهرة القاضي ١٩٦٨ .

١٠ — طرق تدريس الرياضيات تأليف د . محمد جواد سعد الدين واخرون / كتاب معاهد المعلمين .

١١ — الحساب والتربية باريس مطبعة الجامعات الفرنسية ١٩٥٥ .

١٢ — وزارة التربية / التربية في التقرير السياسي ، اعداد لجنة وثيقة رقم (٣٠) بغداد — منشورات المديرية العامة للتخطيط التربوي — قسم التخطيط العدد و (٧٠) سنة ١٩٧٥ .

١٣ ــ اللغة العربية ، اصولها منفسية وطرق تدريسها د . عبد العزيز عبد المجيد ١٩٥٢ / القاهرة .
١٤ ــ تطور النظرية التربوية د . صالح عبد العزيز دار العارف بمصر ١٩٦٤ .
١٥ ــ اتجاهات حديثة في تدريس العلوم د . رؤوف عبد الرزاق العاني مطبعة الادارة المحلية ١٩٧٨ .
١٦ ــ اللغة العربية والطرق العملية لتدريسها / الجزء الاول الاستاذ عابد توفيق الهاشمي .
١٧ ــ طريقة التدريس بين المبدأ والتطبيق / الدكتور مسارع الراوي مطبعة العاني بغداد ١٩٦٥ .
١٨ ــ أساسيات التدريس د . عبد الحميد جابر بغداد / ١٩٦٧ .
١٩ ــ مبادى تعليم القراءة صبحية عكاش بيروت / ١٩٥٦ .
٢٠ ــ طرق التدريس في التعليم الصناعي / د . صبحي خليل / بغداد ١٩٦٢.
٢١ ــ التربية المتحدة واركانها د . حنا غالب ط٢ ١٩٧٠ / دار الكتاب اللبناني ــ بيروت .
٢٢ ــ التعليم المستمر / الجامعة التكنلوجية / بغداد مركز التعليم المستمر بالتعاون مع جمعية المهندسين العراقيين مواضيع للدورة التربوية للمدربين الفنيين / ١٩٨٢ كتاب من اعداد الدكتور محمد جاسم العبيدي د . صبحي خليل د . سعدي لفتة .

المصادر الفرنسية

1– HAMAIDE A La methode Decroly, paris Belachaux et. NI-estle 1946. p. 264

2– Hendrix C. Lehseignement de lecture parla methode qla-bale editions DesocA 1953.

3– pedagogie de L apprentissage pan press Unitlersitairo do brance 1959

4– Insituteurs hicn educateurs decmaiv Bruxelles 1966.

5– BERGE A. La Liherte dans Leducat paris editioo du scar-akee 1950.

6– Brunot F. Len sei£nement delo langue braninise Iparis cal-in 1922.

7– lavie sociale des enbants paris edition duscara lee 1950 1120 p.

المصادر الانكليزية

8–Interoducbion to psychologyERnest R. HLEGARD, RIch-ard. Atlein sixth Edition 1975 U.S.A.

9– Advanced Teaching methods 805 class rotes and hand ou-ts. D. - Blezek, Allen summe sessions L 180.

توجيه المتفوقين عقلياً من اجل تكيف أفضل

الاستاذ عبد الرزاق عزت رزوق
كلية الآداب /الجامعة المستنصرية

مقدمة

هناك خلط كبير بالنسبة لمصطلح «متفوق» بل ان التقاة في هذا المجال يختلفون فيه. ورغم هذا الخلط فان تعاريفه تكاد يجمعها قاسم مشترك. ان عودة إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تظهر لنا أن مقاييس موضوعية نسبياً قد طورت في هذا المجال. وكان الحدث الكبير في ذلك هو نشر اول اختبار للذكاء عام ١٩٠٥. وبهذه الوسيلة امكن حصر الافراد في مجموعات متواصلة التسلسل من حيث القدرة العقلية، أي من متفوقة وحتى ضعيفة. وهكذا بدأ نوع من التعاريف يمكن تسميته بتعاريف نسبة الذكاء (I.Q) وقد استخدمت دراسات تيرمان هذا النوع من التعريف .فقد اشار إلى أن الأطفال — الموهوبين — وهو الاسم الذي اطلق آنذاك على المتفوقين — هم اولئك الحاصلون على نسبة الذكاء ١٤٠ او اكثر حسب اختيار ستانفورد — بينيه.

ولم تكن نسبة الذكاء بقادرة على تحديد الكثير من الطلبة الذين صاروا فيما بعد متميزين في مجالات معينة كالموسيقى والأدب والعلم مثلاً. وهكذا استبعد مصطلح نسبة الذكاء من تعاريف الموهبة. وظهرت تعاريف للموهبة

استبعد مصطلح نسبة الذكاء من تعاريف الموهبة. وظهرت تعاريف للموهبة سميت بالتعاريف الاجتماعية. وقد اعتمدته الجمعية الامريكية للاطفال الموهوبين .فقد عرف الموهوب بانه الطفل ذو الاداء الملحوظ والثابت في مجال قيم محتمل من مجالات النشاط الانساني. اضافة إلى ذلك فقد اعتمدت تعاريف النسبة المئوية في هذا الشأن، فالطالب الموهوب علمياً هو الذي يقع في نطاق نسبة ١٥ — ٢٠٪ من اعلى السلم النسبي المئوي من طلبة المدارس. وظهرت تعاريف للموهبة تعتمد نموذج كلفورد. فقد عرف الطالب الموهوب بانه الذي يمتلك قدرات عقلية كامنة في مستوى ذهني رفيع فيما يتعلق بالتفكير المنتج والتقييم، وبحيث يمكن الافتراض على نحو معقول، بأنه يستطيع حل المشكلات والابتكار والتجديد ان توفرت له الخبرات التربوية الكافية (Dunn, p.p 182-184)

وهناك من يرى أن مصطلح الموهوب قد اتسع ليشمل المجالات الاكاديمية ، بعد أن كان قاصراً على مجالات الفنون والمجالات الميكانيكية المختلفة والحرف ومجالات العلاقات الاجتماعية . وأصبح «الطفل الموهوب» هو الطفل المتفوق سواء كانت الموهبة في مجال اكاديمي أم في مجالات مثل الموسيقى أو الرسم أو التمثيل (عبدالغفار ، ص ٣٢) .

ولو حاولنا استعراض تعاريف التفوق العقلي مقارنة بتعاريف الموهبة لتبين لنا ان كلا المصطلحين يتناولان ظاهرة واحدة في الاعم الاغلب . فهناك من يرى ان المتفوق عقليا هو من وصل أداؤه إلى مستوى أعلى من مستوى العاديين في مجال من المجالات التي تعبر عن المستوى العقلي الوظيفي للفرد بشرط أن يكون ذلك المجال موضع تقدير الجماعة .

أو يعرف بانه وصول الفرد في ادائه إلى مستوى يفوق مستوى معظم قرنائه في مجال من المجالات التي تقدرها الجماعة . والمحك الذي يمكن استخدامه لتحديد ما إذا كان فرد من الناس متفوقاً عقلياً أم لا هو مستوى الاداء الذي يصل اليه في هذا المجال . وتعرف الجمعية الاميركية القومية للدراسات

التربوية الطفل الموهوب أو الطفل المتفوق بانه الذي يظهر امتيازاً مستمراً في ادائه في أي مجال له قيمة (عبدالغفار ، ص ٥٠) .

وكما ان هناك تنوعاً في تعاريف الموهبة أو التفوق رغم اتفاقها في الهدف، فهناك تنوع في تعاريف التكيف تبعاً للثقل الذي تؤكد عليه التعاريف . فهو يمكن ان يكون « عملية ايجاد وتبني نماذج السلوك الملائمة للبيئة أو التغيرات الحاصلة فيها (Good p. 13) أو هو «تكيف الفرد مع نفسه لكي يتلاءم مع المتطلبات المحددة للبيئة التي يعيش فيها ». ('Lazarus p 525) . أو هو «محاولات الفرد لتحقيق نوع من العلاقات الثابتة والمرضية مع بيئته (Lazarus. p. 10) .

أما التكيف الاجتماعي فقد عرف هو الآخر تعاريف عديدة . فقد عرف بانه « علاقات منسقة بين الفرد والآخرين تتطلب فهم الفرد للعلاقات الملائمة في المجتمع الذي يعيش فيه وتأسيس علاقات مع معاصريه تتضمن تعديلاً مستمراً في شخصيته (Good. p. 13) ويعرف بانه «تفاعل الفرد مع بيئته .(Askoff, p 499).

وللتكيف المدرسي تعاريف عديدة فهو «العملية التي تتم بها ملاءمة البيئة المدرسية لحاجات الطلاب » (Good p. 499)أو أنه « قدرة الطالب على تكوين علاقات مرضية مع مدرسيه ورفاق صفه » (Arkoff,P.3،8) .

ويهمنا في هذا المجال أن نشير إلى أهمية التكيف والتكيف المدرسي خصوصاً بالنسبة للمتفوقين عقلياً . فهم النخبة من الافراد الذين يعول عليهم في التطور الاجتماعي والاقتصادي لأي مجتمع . وبدون اعدادهم مدرسياً اعداداً يتناسب وامكاناتهم فهناك احتمال كبير الا يكونوا متكيفين مع بيئتهم المدرسية وبالتالي قد يتحول اداؤهم المدرسي إلى مستوى دون المستوى الاعتيادي بكثير .

معوقات النشاط لدى المتفوقين :

من المعروف أن الافراد المتفوقين عقلياً وهم القلة في أي مجتمع يتمتعون بصفات خاصة بهم ، لعل اهمها استقلالية الفكر وعدم الانقياد لما يفرضه الآخرون و الابتعاد عن التقليد . ومثل هذه الصفات تؤدي بهم إلى مواجهة مشكلات تتعلق بتكيفهم النفسي والاجتماعي . فالعديد منهم قد يؤدي به تفوقه إلى الشعور بالغربة من قبل الآخرين عموماً والاصدقاء في الاخص . وكثير منهم يفضلون أن يتعلموا بطريقة استقلالية . ويميلون إلى انجاز المهمات بطريقة يتفوقون فيها على رفاقهم . كما ان قيمهم واتجاهاتهم تختلف إلى حد ما عن بقية الطلبة . فافكارهم تباعدية في حين ان افكار الآخرين في مجملها تقاربية .

ومن سمات المتفوقين عقلياً انهم غالباً مايميلون إلى الانعزالية عن الآخرين والابتعاد عنهم . ويحصل التناقض مع مجتمعهم عندما تفرض عليهم المطالب من قبل المجتمع للانصياع إلى ماتريده الأغلبية وعندئذ تبدأ المشكلات بالظهور بل يمكن القول ان اكثر مشكلات التكيف لدى الأطفال المتفوقين عقلياً ناجمة من العزلة عن الآخرين سواء كانوا رفاقاً لهم في المدرسة أم الآخرين في المجتمع الاكبر ('Torrance, 104–121) .

ومن المؤكد القول ان المتفوقين عقلياً يختلفون عن العاديين في بعض خصائصهم الشخصية . فهم من ذوي القدرة العقلية العالية ، وهذا التفوق العقلي يجعلهم أفضل من الافراد العاديين في جوانب نموهم البدني والاجتماعي والانفعالي . ومع ذلك فان هذا التفوق العقلي يمكن ان يجعلهم سيئي التكيف للبيئة التي يعيشون فيها . ففي المدرسة لاينمي هؤلاء ميلاً ايجابياً للنشاطات الرياضية ويميلون إلى الوحدة والعمل الانفرادي . ويحس بعضهم بنظرة الآخرين نحوهم .بسبب هذا التمايز الواضح في التفوق العلمي ، مما يجعل من الصعب احداث الوفاق بينهم وبين الآخرين ومن هم اقل منهم شأناً في القدرة العقلية .

وتسهم المدرسة في بعض الأحيان في أحداث العزلة عند الطالب المتفوق عقلياً . فغالباً ماتكون لديه اهتمامات عقلية تبتعد عن اهتمامات من هو أقل منه في المجال العقلي ، ومثل هذا يؤدي الى عدم وجود القاسم المشترك لتكوين علاقات اجتماعية سليمة بينهما . ولو قارنا بين النضج الاجتماعي والانفعالي والنضج العقلي للمتفوق لتبين وجود فارق بين نوعي النضج ؛ أي أن نضجه الاجتماعي والانفعالي هو دون مستوى النضج العقلي وهذا مدعاة الى حدوث صعوبه في احداث تكيف مرضٍ مع زملائه في نفس عمره الزمني .

أضف الى ذلك ، أن الانجاز الدراسي لدى المتفوق عقلياً هو أعلى بكثير من الانجاز الدراسي لمن هم في سنه الزمني وفي صفه ، اضافة الى ان انجازه الدراسي يكاد يكون ارفع بكثير من نضجه الاجتماعي والانفعالي . وبسبب هذا التفاوت بينه وبين الآخرين فانه قد لايكون محط حب الطلبه الآخرين فهو في مقدمة من يجيب حين يسأل المعلم سؤالاً معيناً وهو الاكثر نيلاً للحظوه لدى المعلم ، بل قد يكون في مقدمة من يمثل المدرسه في نشاطاتها العلمية والاجتماعية . كل ذلك في الواقع يؤدي الى احداث الفجوة بينه وبين بقية طلبة الصف ، مما قد يؤدي به الى أن يحول نشاطه الصفي الى نشاطات غير مرغوبه . وعلى هذا فان وضع منهج موحد لجميع الطلبه يؤدي بالمعلم الى أن يكرس جهوده لاولئك الطلبه الاعتياديين في القدرة العقلية دون المتفوق أو قد يحصل العكس . وفي كلتا الحالتين يؤدي الأمر الى خلق سوء تكيف للطالب المتفوق عقلياً . وعندئذ يكون من الانسب وضع منهج دراسي للمتفوقين يختلف عن الذي يقدم للطلبة من ذي القدره العقليه الاعتياديه . (crow& Crow, 1963 pp. 270-271) من كل ماتقدم تتضح بعض المعوقات التي تحد من نشاط الطالب المتفوق . فهو في الواقع أشبه بمن وقف وحده في الميدان . فهو في موقف لايستطيع فيه أن يتواءم مع من هم في سنه ولايستطيع في الوقت نفسه أن ينصاع للمعايير التي تقررها جماعته العمرية . وهو ان تحول الى عالم من هم اكبر منه سناً فانهم يقبلونه لأنه

يمتلك خاصية غير عادية بالنسبة لعمره ، لكنه قد يجد فجوة كبيرة بينه وبينهم من حيث الخبرة الاجتماعية ، ذلك لأن نضجه الاجتماعي وخبرته الحياتية لاتهيئه لأن يتكيف الى عالم الكبار .

لقد تطورت الخبرة في ميدان التكيف لدى المتفوقين بحيث غدا بالامكان ذكر جملة من الحقائق في هذا الشأن . فالعزلة التي يعانيها هؤلاء الأطفال لا تعتبر بذي أهمية بالنسبة لحياتهم النفسية حتى وصولهم الصف الثالث الابتدائي ، حيث يكون وعيهم بذاتهم مازال في مرحلة غير متطورة . لكنهم بعد هذه الفتره يجدون صعوبة في التكيف إلا مع من هم ضمن دائرتهم العقلية . ومما يزيد الأمر صعوبة هو أن الأطفال الاعتياديين غالباً ما يختارون لصحبتهم من هم على نسقهم ، اي من الاعتياديين أيضاً . ولو اردنا احصاء المتفوقين ضمن الصف الواحد لعلمنا شدة العزلة التي يعانيها المتفوقون . ولو حاول الطلبة الاعتياديون اختيار متفوق لصحبتهم فغالباً مايكون ميلهم له مبنياً على الاحترام لموهبته لاعلى اساس الحب له . ولايعني هذا الاحترام بالضرورة أن يعقد كلا الجانبين صحبة اجتماعية ، بل قد تبقى عزلة المتفوقين اجتماعياً رغم احترام الآخرين لهم ، على أن الادبيات تمضي اكثر من ذلك إذ ترى انه كلما ارتقى الموهوبون صفاً أعلى مالوا إلى أن يصبحوا اكثر انعزالية ('Torramee. pp. 125–138).

وإذا ماانتقلنا شطر المعلمين لعلمنا أنهم أيضاً يلعبون دوراً في ميل الطالب المتفوق الى العزلة ، خاصة عندما يكون المعلم غير واع تماماً بدوره الارشادي إذ من المعلوم ان المتفوق يمتلك بعض الخصائص العقلية التي قد لاتتوضح عند الطالب الاعتيادي . فهو ميال الى الاستقلالية في الرأي والى المناقشة الحادة والى عدم التقبل الدائم لما يقوله المعلم ، اضافة الى النقد الصارم والاسئلة العديده والافكار الجديده . ومثل هذه الخصائص تلقي على المعلم اعباءً فوق الاعباء الاعتيادية في الصف . فهو من جهه ملتزم في التقيد بخطة تدريسية موحده للجميع ، وهو مطالب في الوقت نفسه أن يكيف برنامجه

الدراسي ليكون على استعداد لمواجهة حاجات المتفوق. ومثل هذه المواءمة يبدو أنه من الصعب تحقيقها وعندئذ قد يضطر المعلم الى الأخذ بنظر لاعتبار الأخذ حاجات الاغلبية، مما يؤدي إلى جعل الأطفال المتفوقين احياناً غير مرغوبين في الصف، مما يقودهم ذلك لا محالة إلى العزلة. أو قد يؤدي الأمر بالمعلم إلى بذل مزيد من الجهد والمرونة من أجل تحقيق حاجات كلتا المجموعتين (kaplan, pp 317–318).

ان ما أشرنا اليه اعلاه يقودنا بالضرورة إلى تبين الاساليب والوسائل الصحيحة للتعامل مع المتفوق لتحقيق حاجته إلى التكيف الاجتماعي والنفسي. فقد يؤدي عزلته الاجتماعية إلى احداث اضرار كبيرة في مجمل بنيته الشخصية ويؤثر بالتالي على امكاناته العقلية، مما قد يؤدي به إلى أن يكون أقل نجاحاً من فرد ذي قدرة عقلية اعتيادية لكنه ذو مهارة جيدة. إن كل اسلوب أو وسيلة لا تواجه موهبة المتفوق بواقعية، وتعلمه كيفية استخدامها في العلاقات الأجتماعية مع الآخرين لا يكون بذي قيمة. ومثل هذه الاساليب أو الوسائل يجب أن تطبق في السنين الأولى من التعليم، قبل أن تصبح الميول الانعزالية ثابتة، على أنه من الأفضل أن يتم ذلك قبل الدخول إلى المدرسة. ذلك لأن عزلة الطفل لها بداياتها في البيئة الارحب وفي مجال الحياة العائلية أيضاً، فمن المعروف ان الوالدين كثيراً ما يحدثون هذه العزلة لطفلهم المتفوق لأنهم ليسوا على وعي بما يملكه من تفوق وطبيعة هذا التفوق وظروف انباته ورعايته (kaplan, p. 318).

ويصاحب العزلة الاجتماعية لدى المتفوق الميل إلى كبت قدرات التفكير الابداعي والتخلي عن النشاطات الخلاقة. ومثل هذا الكبت قد يحصل في أية مرحلة من المراحل العمرية من حياة المتفوق. فهو قد يحصل خلال فترة الروضة وقد يحصل خلال المرحلة الابتدائية. ومثل هذا الكبت يحتمل له أن يؤدي إلى ظهور العديد من المشكلات.

فالطفل المتفوق عقلياً والذي يعاني من كبت هذه القدرة غالباً ما يصبح ميالاً إلى الانصياع والطاعة للآخرين وقد يؤدي هذا به إلى الشعور بضعف الثقة في تفكيره ويؤدي ذلك بالتالي إلى عدم وضوح مفهوم لذات مستقل لديه. وتلعب البيئة المدرسية دوراً في هذا المجال. فعندما لاتتيح المدرسة له فرصة لممارسة حاجاته دون مراقبة كاملة من قبل الآخرين، وعندما لا يكون المعلم قادراً على التشخيص الصحيح لهؤلاء ، فقد يوضعون في صنف عقلي لايناسبهم لأنه لم تعط لهم مهمات تتحدى قدراتهم ، العقلية ، كل ذلك يمكن ان يؤدي إلى تكوين مفهوم للذات غير واقعي من قبلهم. وقد يحصل في بعض الاحيان ان تتوفر لمثل هذا الطالب فرصة التعبير عن تفوقه لوجود معلم له خبرة وكفاءة في هذا المجال تمكنه من اكتشاف مثل هذا الطالب ، وعندئذ قد تبرز طاقاته بالقدر المناسب ومن ثم يؤدي هذا إلى تغير في مفهوم الذات لديه بالاتجاه الاحسن . لكن مثل هذه الفرصة قد لاتدوم لاحتمال تغير المعلم ولعدم وجود بديل مناسب له ، وعندئذ يكون هناك احتمال بأن يكون هذا الطالب مفهوماً للذات غير مستقر مما يزيد في توتره النفسي .

وتلعب طرق التدريس التقليدية دوراً مهماً في كبت ابداعية المتفوق مما يؤدي إلى رغبة واضحة لديه عن التعلم . فعندما لاتشجع طرق التدريس على الاستفهام والتخمين والاستكشاف والتجريب فقد يتجه المتفوق إلى تقبل ما يفرض عليه بطرق تدريسية تقليدية . وعندما يحرم المتفوق من التعلم بطريقة ابداعية فهناك احتمال بأن يفقد الميل إلى التعلم . فلو أن طالباً متفوقاً كانت لديه اهتمامات تمتد من الكهربائية فالحيوانات المائية فالطيور ثم إلى انواع من النماذج الجيولوجية . ويمكن أن يكون لمثل هذا المتفوق معلم كان قد شجعه على مثل هذا التجميع . لكنه صادف ان جاءه معلم آخر لم يحبذ له هذا التجميع وكذلك الوقت المصروف من قبل المتفوق في التجريب على ماجمعه . ومثل هذا التصرف من قبل المعلم الجديد قد يؤدي بالتفوق

إلى أن يظهر مشاعر اللا ابالية وعدم الرغبة في الموضوع الذي يدرسه ذلك المعلم ، بل ويمكن أن يعمم هذه المشاعر على الموضوعات الدراسية الاخرى.

كما وتلعب الموضوعات الدراسية دوراً اساسياً في المشكلات السلوكية للمتفوقين . فمن المعروف ان هذا النوع من الطلبة يميلون إلى الموضوعات التي تثير منهم التحدي الفكري والرغبة في الخيال الفكري وهل المشكلات العلمية التي تتطلب بذل الجهد الذي يفوق ما يبذله الطالب الاعتيادي . وعندما تفشل المدرسة في تحقيق هذه المهمة بسبب هذا التوحيد للمناهج بحيث يشمل الطلبة جميعاً ، وبسبب عدم انتباه المعلم إلى خواص هذا النوع من الطلبة . وبالتالي التكيف لمواجهة احتياجاتهم رغم قصور جوانب المنهج الأخرى ، كل ذلك يؤدي إلى احتمالية مواجهة العديد من الأطفال المتفوقين الذين يعانون من مشكلات سلوكية . وعلى هذا الأساس ، يمكن النظر إلى كثير من حالات سوء التكيف على اساس انها رد فعل للمهمات المدرسية التي تتسم بعدم التحدي ، والمملة ، والتي يمكن أن يؤديها كل الطلبة .

وقد يؤدي كبت المتفوقين لحاجتهم الابداعية إلى احداث شيء من الصراع العصابي Neurotic Conflicts ومثل هذا الاضطراب لايحتمل له أن يكون واضحاً بينهم إلا في حالات قليلة . ويفسر مثل هذا الاضطراب على اساس ان الطلبة المتفوقين يعانون من مخاوف مردها الخوف من التعبير عن افكارهم خشية تعرضهم إلى نقد الاخرين بسبب مايطرحونه من آراء قد تخالف مادرج عليه زملاؤهم . وبمرور الايام تصبح هذه المخاوف عملية تراكمية يمكنها أن تؤثر في الصحة النفسية للطالب المتفوق . فعندما تكون الحاجة إلى الابداع لدى المتفوق قوية ويكون كبت هذه الحاجة قاسياً أو طويل المدى . فان شلل التفكير قد يكون هو الناتج من هذا الكبت (Torronce, p.p 126-136)

توجيه المتفوقين عقلياً :

ليس من شك ان كل طالب متفوق لديه حاجة قوية للتفوق ، وهذه الحاجة شأنها شأن أية حاجة اخرى لدى الفرد تدفعه لتحقيقها . ومضامين هذه الحاجة تتمثل بميل المتفوق إلى ماهو غريب وغير معرف وغير واضح. وتتمثل أيضاً بالحاجة الملحـة إلى الاستفهام والاستيضاح واختبار الافكار وبعبارة اخرى يميل المتفوق إلى كل ماهـو تباعدي في الفكر ولا يجذبه ماهو تقاربي في الفكر . واذا كانت هذه هي خصائص المتفوق فان ممـا لاشك فيه أن رعاية هذه الخصائص تتطلب جهداً كبيراً ممل يقوم بأمر الرعاية ، خاصة إذا علمنا ان المجتمع في الاعم الاغلب لايهيىء مثل هذه الرعاية بل قد تعمل بعض العوامل الاجتماعية على اعاقة التفوق لدى مالكها . وعلى اساس ذلك فان اولئك القائمين بامر التربية هم في مركز يمكنهم بواسطته أن يسهموا في توجيه المتفوق . ويعتبر دور المعلم في هذا المجال دوراً رائداً، فهو الأقدر بما يملكه من خبرة تربوية ، اضافة إلى توفر الوقت لديه ، على مواجهة حاجات المتفوق .

وتصبح وظيفة المعلم اكثر تعقيداً إذا علمنا إن مواجهة حاجات المتفوق لاتعني الارتقاء بابداعيته فقط ، بل باحداث شروط التكيف الجيد لديه ، خاصة وان المتفوق يعاني الكثير في هذا المجال . فالمتفوق بحاجة إلى تحقيق شيء من التوازن بين التكيف مع الآخرين وابداعيته ليعزز كل منهم الآخر. وهذه مهمة المعلمين والموجهين في كل مستويات التعليم ، ذلك لأن شخصية المتفوق لاتنبث فجاة ، بل تتخذ مراحل طويلة من التدرج بدءاً من الروضة وحتى مراحل متقدمة في العمر .

واذا كانت مهمات المعلم في هذا المجال معقدة وعديدة، فان من الأجدر الاشارة إلى جوانب مهمة المعلم لتطوير الابداعية لدى المتفوق .

١ ـ اثابة مايسهم به المتفوق من ابداع :

ان كل الدراسات التي بحثت في موضوع التعزيز ، اشارت إلى أهمية المكافئة في تدعيم السلوك المرغوب ، ويدخل في هذا المجال اثابة السلوك الابداعي . ومع الأهمية الكبيرة لمكافئة مايقوم به الطالب المتفوق ، إلا أن الاكثر اهمية في هذا المجال هو تنمية تفوق الطالب عن طريق الاهتمام باسئلته وتشجيعه على طرح اسئلته وكذلك الأمر بالنسبة لما يعرضه من افكار شخصية . وعلى العموم . فان الاثابة المعنوية ، كما يبدو . تعطي مردوداً اكبر بالنسبة للمتفوق من الاثابة المادية .

٢ ـ حاجة المتفوق الى الاعتراف بابدعيته:

ان كثيراً من الطلبة المتفوقين قد لايسعفهم الخط لأن يكتشفوا من قبل المعلمين، وعندئذ قد يشعرون بالحيف لذلك، ويصبح تأثير الحيف اكثر إن انكر المعلمون او تجاهلوا مايبديه المتفوقون من امكانات .وقد ينجح المعلمون في اكتشاف المتفوقين باستخدام الاختبارات المناسبة. لكن مثل هذا الاجراء يصبح ناقصاً إن لم يتبعه استمرار باعتراف المعلمين والآخرين بقابلياتهم والعمل على تطويرها.

٣ ـ تقبل الواقع :

والمقصود هنا بالواقع هو البيئة التي يعيش فيها الفرد سواء كانت المدرسة أم البيت أم المجتمع عموماً ، وكذلك الواقع الداخلي للطالب المتفوق . فالبيئة المدرسية والبيتية والمجتمعية لايمكنها تهيئة كل المتطلبات التي يحتاجها الطلبة المتفوقون لتطوير افكارهم . كما أن المتفوقين أنفسهم تعوزهم بعض القدرات والامكانات لتحقيق افكارهم التي يطمحون اليها . وعلى هذا الاساس لابد أن تحصل لدى المتفوق قناعة بالقصور الحاصل في بيئته وذاته لتحقيق مطامحه ، وهذا هو الذي يفرق الطالب المتفوق عن غيره . فغير المتفوق قد يلقي بالتبعات على البيئة لعدم توفيرها مايحتاجه ، وبالتالي يجد

ذلك عذراً لعدم القيام بما يلقى عليه من أعباء ، أما المتفوق فإنه يتخذ الاتجاه الاكثر بنائية . فهو يتقبل ماهو موجود من قصور ليس بطريقة تهكمية ولكن باسلوب ابداعي ايضاً .

٤ — تعزيز ثقة المتفوق بنفسه :

المعروف عن المتفوق أنه يضع نصب عينيه اهدافاً محددة يندفع لتحقيقها . وغالباً ماتتسم هذه الاهداف بالواقعية ، وامكانية الوصول اليها . اضافة إلى شعور المتفوق بقيمة مايهدف اليه وتقديره لها . وعلى هذا الاساس فان المعلم الناجح هو الذي يسعى إلى تعزيز ثقة المتفوق بقيمة مايسعى اليه واهميته له ولمجتمعه . وعندما يعجز المعلم عن تحقيق ذلك فقد تحصل لدى المتفوق ضعف ثقة بما يطمح اليه من اهداف وبالتالي عدم امكانية البلوغ .

٥ — الحاجة الى وضع المتفوق في الموضع الصحيح :

ان القاعدة الاساسية التي يجب الايمان بها وتطبيقها هي أن التباعد في التفكير لايعني الانحراف أو المرض العقلي . فكلاهما مختلفان تمام الاختلاف والخطر الكبير على الطالب المتفوق يأتي من الكبار سواء كانوا والدين أم معلمين والذين لايفهمونه . وعندئذ قد يوضع مثل هذا الطالب في صنف المرضى العقليين أو المضطربين . ومن اجل هذا لابد للمؤسسات التربوية من تزويد المعلمين بالخبرات المناسبة التي تؤهلهم إلى الطرق الصحيحة للتعامل مع المتفوق . ويتطلب هذا حسن استخدام الاختيارات المناسبة للتشخيص ومن ثم التعامل الأنسب .

٦ — الحاجة الى الوصال :

الذي لاشك فيه ان المتفوق يعاني العزلة . وقد ألمحنا إلى ذلك فيما سبق . وقلنا أن السبب يعود إلى التباعد الفكري الذي لديه وإلى التقارب في الفكر لدى غير المتفوقين . وبالتالي يؤدي ذلك إلى احداث فجوة اجتماعية بين المجموعتين . على أن مما لاشك فيه ان المتفوق يشعر بالحاجة الماسة إلى الوصال

والا تطور الأمر لديه إلى مايشبه العزلة الاجتماعية الصارمة . ويلعب المعلم والمربي دوراً كبيراً لتحقيق هذه الحاجة . فقد يكون بامكانه البحث عن رفاق له يفهمونه ويستطيعون التواصل معه . وفي بعض الاحيان يصبح المعلم أو الموجه الشخص الذي يتواصل معه المتفوق. ويمكن القول في هذا المجال أن المجموعات المتجانسة يمكن أن تهيىء الوسائل التي بواسطتها يقلل من أثر العزلة ويزداد الاتصال .

٧ ــ التحرر من القلق :

وبسبب هذا الشعور لدى المتفوق بالعزلة فانه يشعر أنه لايمكنه التحرر من القلق والخوف . فكثير من هؤلاء بحاجة شديدة الى معرفة الوسائل للتغلب على هذه المخاوف . وعندما يستطيعون تحقيق ذلك فانهم قد يتمكنون من توظيف قدراتهم العقلية بصورة متكاملة .

٨ ــ مواجهة الاحباط :

المعروف ان المتفوق كثيراً مايواجه المشقة والفشل . وقد يتطور عنده الأمر الى الاعتقاد بان المشقة والفشل يعتبران امراً مشتتاً لطاقاته . على أن من المسلم بـه أن المتفوق لابد له من استكشاف وتجريب الافكار وابتكار المشروعات . ومثل هذه المهمات تتطلب الكثير من تحمل المسؤولية والعمل الشاق ، بل والفشل في بعض الاحيان . ومن الضروري في هذه الحالة ان يشجع المعلمون المتفوق على تحمل مثل هذه المشاق ('Crow 8 Crow, p.p 509-511)

المدرسة والسلوك التفوقي :

من الواضح أن التفوق العقلي ليس أمراً مقتصراً على الفن والموسيقى والأدب وهو ليس قاصراً على بعض جوانب المنهج الدراسي ، بل التفوق العقلي متوافر في كل مفردة دراسية ، سواء كان ذلك في العلوم أم في العلاقات الانسانية . واذا كان الأمر كذلك فان المعلم أو المربي يرتكبان خطأين بارزين

اولاهما اهمال رعاية المتفوق وثانيهما عدم اعطاء الأهمية المناسبة لما يقدم لهم من موضوعات بحيث تتناسب وقدراتهم .

إن الطفل الذي يؤجل اكتشاف تفوقه غالباً مايظهر تفوقه قبل دخول المدرسة من خلال جملة من النشاطات العقلية المتمثلة بالحدس والتساؤل والبحث والمعالجة ، ويظهر ايضاً من خلال عملية التحسس بالمصاعب والمشكلات وفي تكوين الفرضيات واختبارها . ويجب أن يكون واضحاً في هذا المجال ان التفوق العقلي ينمو بسرعة اكثر من الذكاء خلال الفتره المبكره من الطفوله .

وعلى هذا الاساس فان دور المدرسة في هذا المجال هو اعطاء الاعتبار الكافي للعدد الكبير من الاطفال الذين يمتلكون خاصية التفوق والعمل على صيانة هذه الخاصية . فالمتفوق ينمو ان سمحنا له بالنمو والتطور . لكن الملاحظ أن هذه الخاصية قلما يصيبها الحظ في الرعاية . بل الواقع يشير الى ان عدم استمرار توجيه المتفوق يحصل في المراحل التعليميه المتعدده وان عدم الاستمرار هذا يصاحب بهبوط في حب الاستطلاع أو الميل الى التعلم عند الطالب . واذا ماحصل التوقف أو عدم الاستمرار في التفوق فلابد أن يستتبع ذلك سلوك غير سوي للمتفوق ، وبعبارة اخرى لابد من الاضطراب الانفعالي لدى الطالب المتفوق . واذا رافقها ذلك عدم اكتراث من قبل المعلم أو الموجه للتغير الحاصل في سلوك المتفوق فان ذلك يعتبر مدعاة الى حدوث اضطراب انفعالي اكبر لدى الطالب المتفوق . ويمكن القول من خلال الدراسات العديده ان الهبوط الكبير في خاصية التفوق يمكن ملاحظته ، اواسط المرحلة الابتدائية وانه يكون أقل في مرحلة الرياض أو المرحله المبكره من الدراسة المتوسطة .

إن استعراضاً لتاريخ اولئك الذين اعتبروا في عداد المتفوقين يشير الى أن اكثر الصعوبات التي واجهها اولئك كانت في المرحلة الابتدائية بالذات

ويمكن أن نذكر من هؤلاء بنيامين فرنكلين وتوماس اديسون والأخوين رايت .

وعلى هذا الاساس يمكن القول ان التشجيع الذي يلقاه المتفوق يعتبر امراً بالغ الأهمية بالنسبة لاستمراريته في تحقيق اهدافه . ومع مبدأ التشجيع لابد من التأكيد على مبدأ المثابره ، لأنه باستمرار المتفوق في اداء مهمة تتسم بالتفوق لابد أن يصل الى حل لها عكس ماقد يحصل عند هبوط همة المثابرة .

وعند أخذ الصف بنظر الاعتبار بالنسبة للمتفوق، لابد من القول ان السلوك التفوقي لدى الطالب ينمو ويتطور عندما يكون لدى المعلم وعي بأهمية السماح للطالب المتفوق أن يطرح مالديه من افكار غريبه . لكن الذي يلاحظ أن الاهتمام لدى المعلمين مركز على تدريب الطلبة منذ البداية على التركيز على التحليل والتجزيئي وعلى نقد بل ونبذ كل شيء يختلف عما هو مألوف ومقبول .

والملاحظ ايضاً ان المعلمين في الأعم الاغلب لايرتضون الافكار الابتكارية التي يطرحها المتفوقون وذلك لسبب واضح وهو ان المعلمين يحاولون قدر طاقتهم سحب الطلبة جميعاً الى معايير السلوك المقبولة اكثر من تأكيدهم على انتاج مافيه خلاف وهذا يعني أن المعلمين قد لايرتضون المهمات التي تبتعد عما قررته المدرسة .

ومايجب أن يؤكد عليه في هذا المجال هو أنه لابد من تشجيع على جمع الاجزاء بغية الوصول الى الكل ، والى تعلم كيفية تطوير الافكار والى النقد الذاتي لما يقوم به الفرد نفسه . واستخدام الاختبارات للحكم على قيمة الافكار التي تطرح .

واذا ما اعطينا الاعتبار الكافي لطرح الافكار الجديده من قبل المتفوق فلابد ان يصاحب ذلك بالاحترام لمن يطرح مثل هذه الافكار . وتكاد المدرسة

ترتكب خطأ كبيراً اذا ما اعتبرت اولئك الذين يطرحون مثل هذه الافكار أقل شأناً . ان تحليل سير كثير من المتفوقين في مجالات المعرفة المتعدده يوضح بجلاء أن اكثرهم كان يعاني من صعوبات مدرسية عديدة ، لعل اهمها التحصيل الدراسي الذي لايتناسب مع مايطرحونه ، هذا اذا اضفنا الى ذلك أن العديد منهم ترك المدرسة بسبب هذه الفجوه بين مالديهم وما لدى الآخرين .

وعندما يكون لدى المربي ايمان بأهمية وضرورة افساح المجال للطالب المتفوق في أن يعبر عن افكاره بحرية ، فان ذلك أول خطوة على طريق تطوير تفوقه ، يستتبع ذلك أن يكون المربي على وعي بأهمية مبدأ حب الاستطلاع الذي يعتبر العنصر الاكثر اهمية للسلوك التفوقي . وتشجيع هذا المبدأ يعين المتفوق على معرفة قيمة مايتعلمه . فالعديد من الطلاب يقضون كثيراً من وقتهم المدرسي بأمور غير انتاجية وذلك لانهم لم يتعلموا استخدام مهاراتهم بصورة صحيحة .وهكذا فان كثيراً من المتفوقين فشل في اظهار تفوقه لأنه لم يعلم كيف يستقصي ويستطيع ويتساءل ويناقش .

ولا بد أيضاً من التأكيد على أهمية توفير الشروط الأفضل للدراسة والمطالعة بالنسبة للمتفوق . فمع التساوي في الظروف والشروط التى يفضلها المتفوقون مع الطلبة الاعتياديين ، وكما وضح ذلك من الأدبيات التي بحثت في مجالات المطالعة لدى المتفوقين ، إلا أنه من خلال ملاحظة المتفوقين عن كثب يتضح أن فترات الهدوء والوحدة التى لجأ اليها هؤلاء هي التي مكنتهم من ابراز الأفكار الجديدة التي عدوا في ضوئها متفوقين . ومن خلال التعبير عن الذات لديهم تبين انهم يحتاجون المشي عندما يفكرون ، وبعض منهم يفضل الجلوس والسرحان . وعلى هذا تبدو الحاجة ماسة إلى أن يولي المعلمون والمربون أهمية خاصة إلى توفير الاجواء المناسبة داخل المدرسة لمطالعة المتفوقين. والأمر نفسه يعمم على الوالدين اللذين لابد لهما من تدبير الوضع الأفضل في البيت لراحة ابنهما المتفوق في فترة مطالعته وتفكيره . ولابد أن

يعلما أن الوحدة التي يلتجأ اليها هي أمر ضروري لانتاج أفكار مبدعة لديه.

وهناك أمر مهم في هذا المجال لابد من الاشارة اليه وهو موضوع تقويم اداء الطالب عموماً وتقويم اداء المتفوق خاصة . إذ أن من المعروف أن التقليد السائد في المدرسة . في الاعم الاغلب . هو أن التقويم في التعليم بمختلف مراحله يعتمد على الحفظ والتذكر . أي أن المعلمين يعتمدون في واقع الحال على تقويم الفكر التقاربي دون التباعدي . ولذلك يلجأون إلى الاختبارات التي تؤكد على الاختيار من متعدد لأنها الأفضل في التصحيح والأسهل أيضاً لدى المعلمين والتي لاتتطلب من الطالب إلا أن يعرف الاجابة الصحيحة فقط. ولذلك يلجأ الطـــالب ، أي طالب ، إلى حفظ مايراد منه مـــن مـــادة وما عليه إلا أن يختار الاجابة الأفضل . والخطأ في هذه الطريقة وفي الطرق الاخرى التي يلجأ اليها المعلمون انها لاتستثير الطالب المتفوق بل ويشعر بتفاهة مايطلب منه القيام به . فمن المعروف أن الطالب المتفوق يفضل المهمات المعقدة والمفتوحة open – end ويتمتع بالتعلم عن طريق الاستطـــلاع والاستقصاء لا التعلم المعتمد على حلول لمشكلات ليست مهمة . وعندما يشعر المتفوق بالتأكيد الذي يوليه المعلم على طرق التقويم التقليدية وعدم اهتمامه بالطرق التي تؤكد على التفكير الابتكاري أو التخيلي فإنه قد يصاب بالاحباط وقد يؤثر على تحصيله الدراسة لامحالة .

ولو اننا حاولنا اجمال ماذكر اعلاه لقلنا أن أولى مهمات المعلم أو المربي بالنسبة للمتفوق هو أن يجعل مجال اهتمامه منحصراً في المنتج الابتكاري لديه . أو بعبارة أخرى أن يولي أهتماماً أساسياً في تفكير الطالب التباعدي وأن يهييء له المستلزمات المدرسية المناسبة. والأمر نفسه يمكن أن يعمم على الوالدين في توفير الشروط البيئية التي تجعل الطالب المتفوق ينصرف فكره إلى الانتاج الابتكاري . واذا ماتحقق هذا فعلاً فلا بد أن يؤدي في واقع الحال إلى تكيف الطالب نفسياً واجتماعياً . ان تحقيق ذلك يتطلب كثيراً من الجهد وسعة الفكر والمرونة والصبر بالنسبة للمعلم حتى يستوعب طبيعة

سلوك المتفوق وما يحتاجه ، لكي يكيف المجال التربوي لصالحه . ولابد في هذه الحالة من اعادة النظر بموضوع اعداد المعلمين قبل الخدمة واثنائها من أجل توفير الخبرات المناسبة لهم لكي يكيفوا المنهج المدرسي باطاره الواسع ليلائم حاجة المتفوق (Strom, p.p . 258–269) .

تحليل خصائص المتفوقين :

ليس من شك في أن المتفوقين لديهم خصائص تميزهم عن غيرهم من الأفراد . ولقد بحث هذا الأمر كثيراً ، وصار هناك اتجاه إلى أنهم يتمتعون بخاصية الاستقلالية في تفكيرهم وفي المهمات التي يقومون بها . وهم مجددون في الفكر والعمل ولا يميلون إلى أن يكونوا نسخة ثانية من الآخرين . ولديهم الرغبة في عدم الانقياد للآخرين ، بل العكس ، لديهم الرغبة في بعض من التسلطية . والميل إلى التجديد فيهم يدفعهم إلى الانفتاح للخبرة وإلى مرونة في التعامل مع الأشياء والاحداث والافراد . ويكاد يكون دافعهم للانجاز عالياً وينصرفون بكليتهم إلى المهمات التي يؤدونها ويفضلون ماصعب منها. كما انهم يتسمون بالميل إلى التنظيم في الادراك .

واذا كانت هذه هي خصائص المتفوقين فما العوامل التي تسهم في رفعة هذا التفوق لديهم ؟ ليس من شك في ان العوامل البيئية لها دور كبير في هذا المجال . فالبيت له القدح المعلى في هذا التأثير . فغالباً مايتخذ المتفوقون من ابائهم أو اقاربهم نماذج يقتدون بها في المعيتهم . وآباء هؤلاء . في الاعم الاغلب . ميالون إلى اظهار الاحترام والتقدير الكافي لهم ويمنحونهم قدراً كافياً من الثقة فيما يقومون له من مهمات . ويمنحونهم الاستقلالية المناسبة لاكتشاف عالمهم وتشجيعهم على مواجهة المواقف دون اعتماد على الآخرين . وآباء هؤلاء يتسمون بقدر كبير من التسامح لسلوك ابنائهم ولديهم قليل من ضبط أو سيطرة لسلوكهم .

ان بيان ما اوضحناه اعلاه يتوضح في دراسة كل من weisberg & spring (١٩٦١) اللذيـــن درسا علاثلات (٣٢) متفوقــاً في عمـــر (٩) سنوات

لمعرفة خصائص هذه العائلات . وقد ظهر ان اباء المتفوقين يتسمون بالانفتاحية لا الانغلاقية في علاقاتهم مع الآخرين ، وقليلوا السيطرة على سلوك ابنائهم ، ومتقبلون لميولهم العدوانية ، ولا يتطلبون منهم سلوكاً ناضجاً طيلة الوقت ، بالاضافة إلى انهم لايطلبون من ابنائهم انصياعاً كثيراً للافكار أو القيم التي يتبنونها . وبالاضافة إلى ذلك فان دراسة Mockinnon (١٩٦٢) تظهر ان البيوت التي يشب فيها المتفوقون تتحلى بالنظام (Lyton, p.71)

ولو انعمنا النظر إلى الموقع الاجتماعي الذي ينتسب اليه هؤلاء المتفوقون لأمكننا القول انهم يقعون ضمن الطبقة الوسطى ، وعوائل المتفوقين تظهر لديها بوضوح الرغبة في النقلة الاجتماعية بصورة مستمرة . فهم لايتقبلون البقاء ضمن ماهم عليه من موقع ، بل يطمحون إلى الارتقاء العمودي . ومثل هذا التحرك يؤدي لامحالة إلى اكساب المتفوقين مزيداً من خبرة واثارة . يضاف إلى ذلك أن الاباء في ظل هذا الموقع الاجتماعي الذين هم فيه يتمتعون بشيء من الاستقلالية الذاتية في مهنهم (Lyton, p.71).

واذا كان هذا هو وضع البيت الذي ينشأ فيه المتفوقون . فما هو وضع الثقافة الاوسع التي يعيش المتفوقون ضمنها والذين يتأثرون تأثراً كبيراً بالمتغيرات اللاحقة التي تحصل فيها . ويمكن الوصول إلى بعض من الاستنتاج حول ذلك من دراسة تورنس (١٩٦٥) التي بحثت في وجهات نظر المعلمين في خمس ثقافات هي الثقافة الامريكية والالمانية والافريقية والهندية والفليبينية بالنسبة للسلوك التفوقي للطلبة. وقد توصل البحث إلى ان المعلمين في كل هذه الثقافات وبدرجة من التقارب في الرأي لا يستسيغون من الطالب بعض سلوكه والمتسم بكثرة السؤال والحدس والاستقلالية في اصدار الاحكام وفي التفكير والمبادأة، والرغبة في تحمل المخاطر، وعدم الرغبة في تقبل آراء السلطة التربوية. لكنهم من جانب آخر يكبرون في المتفوقين سمات الطاعة والمجاملة والأدب (Lyton, p.75)

وعلى اساس مامر يمكن القول، وبشيء من العمومية، أن البيت ذو تأثير

اكبر على الطفل المتفوق من تأثير الثقافة عموماً، وان تأثيره يكون اكبر اذا كان مناخه فيه شيء من توجه نحو التفوق والرغبة المستمرة فيه. وان هذا التأثير من قبل البيت أمر طبيعي، خاصة اذا ما عرفنا ان الاحتكاك المباشر الذي يقيمه الأطفال وحتى فترة المراهقة يكون مع الوالدين والذين حولهم في البيت، على خلاف المجتمع الذي تكون سلطته عليهم قليلة واحتكاكهم به غير مباشر.

ولكي يمكن التعويض عن النقص الحاصل في تأثير الثقافة بمفهومها الذي اشرنا اليه سابقاً على الطالب المتفوق، ولكي يمكن تعزيز دور البيت وتأكيده لابد من التوجه شطر المؤسسة التربوية فهي الأقدر على منح هذا التعزيز. وعلى هذا الاساس علينا ان نبتدىء بمرحلة الحضانة والروضة على وجه الخصوص حيث يكون عقل الطفل اكثر حساسية للتغير. فما هو متوفر في الروضة من لعب وادوات يمكنها أن تسهل نمو الادراك الحسي للطفل. ويمكن ان يتم ذلك عن طريق الرمل والماء، وباكتشاف الاشكال عن طريق الطين والاسلاك. اضافة إلى امكانية البيئة في أن تعد المتفوق إلى عالم الكبار عن طريق اخذها له لاكتشاف البيئة التي تحيط الروضة. وعلى هذا الاساس فان العديد من نشاطات الروضة وخاصة النشاط المسرحي والرسم وعمل النماذج الطينية تعطى للطفل بصورة تلقائية الفرصة لخلق شيء يمكن تسميته ابداعاً. ورغم ان الروضة الحالية مازالت اسيرة التقاليد التربوية التي درجت عليها التربية. إلا أن الفرص المتوفرة لديها، واذا ما احسن استغلالها بشكل جيد من قبل المعلمين، يمكن أن تسهم إلى حد كبير في بروز النشاط الابداعي للطفل (Lyton, pp 77-79)

مصادر البحث

1- Arkoff, A.B Adjustment and mental Health. N.y McGraw Hill, 1968.

2- Crow and Crow. Education Psychologg. American Book Company, 1963.

3- Crow and Crow. Mental Hygiene For Teachers. The Macmillan Company, 1963.

4- Dunn, L. "Exceptional Children In The Schools" N.Y. Holt, Rienhart & Winston. 1966.

5- Garrett, H. psgcholen and Life. N.Y. SociaL Science Press, 1970.

6- Good, C.V. Dictionarg of Edacation. 3 rd Edition. N.Y. McGraw-Hill 1956.

7- Gordon, J.E. Personality and Behavior N.Y. McGraw-Hill 1956.

8- kaplan, Louis . Education and Mental Health. N.Y. Haper & Row Pablishers. 1971.

9- Lazaras, R. Personality and Adjustment. Englewood Cliff, N.J. Prentice-Hall. 1963.

10- Lytton, Hugh. Creativity and Education. London, Routledge & kegan paul, 1971.

11- Strom, R.G. Psgchologg For The Classroom, Englewood. Cliff. N.J Prentice-Hall 1969.

12- Torrance, Paul. Guiding Creative Talent. Englewood Cliff, N.J Prentice-Hall, 1962.

١٣ — عبد الغفار ، عبد السلام : التفوق العقلي والابتكار . دار النهضة العربية . القاهرة . ١٩٧٧ .

من تاريخ العراق المعاصر

حادثة مقتل الملك غازي
في ضوء الوثائق البريطانية

الدكتور فاروق صالح العمر
كلية الآداب / جامعة البصرة

المقدمة

تولى الملك غازي الحكم بعد وفاة والده الملك فيصل الاول سنة ١٩٣٣ بعد ان وضع هذا الاخير كثيراً من الاسس الثابتة/ داخليا وخارجيا / لدولة حديثة التكوين لايتعدى عمرها الزمني اثنى عشر سنة فقد أدخل العراق عصبة الامم سنة ١٩٣٢ وأصبح من الدول المستقلة والمعترف بها دوليا. وعلى المستوى الداخلي وضعت بعض الاسس لهذه الدولة كالدستور والنظام البرلماني والاحزاب السياسية. كما جرى وضع اسس تعاهدية بين العراق وجاراتها من الدول الشقيقة والصديقة مع بروز اهمية العلاقة مع بريطانيا

من خلال معاهدة ١٩٣٠ والتي اطلق عليها معاهدة الاستقلال.

وبعد ان كانت الاوضاع متماسكة نوعاما في فترة الملك فيصل وذلك للمطالب الشعبية والحكومية المتجانسة في رفض الانتداب والمطالبة بالاستقلال، حيث كانت الاطراف المتنافسة تخضع دائما لمشورة الملك فيصل ان كانت في الحكم او في المعارضة أو على مستوى الاحزاب السياسية. ان هذه الحالة لم نجد لها مايشابهها في فترة الملك غازي حيث ان اساليب المعارضة في فترته التي حكم منها ١٩٣٣/١٩٣٩ قد أخذت طرقاً مختلفة .. فالمعارضة البرلمانية التي كانت المجال الطبيعي لها داخل المجلس النيابي منذ تأليف هذا المجلس سنة ١٩٢٥ كانت هي المعارضة السائدة ولو أن غرضها بصورة عامة كان اسقاط الحكومات وسحب الثقة منها ... ورغم أن المعارضة لم تنجح في اسلوبها هذا كلياً ، فانها تقصد في ذلك الدخول إلى اسلوب الاثارة في نفوس الرأي العام خاصة عندما تأخذ الصحافة دورها في هذه الاثارة وبالذات الصحف الحزبية المعارضة .

وفي الوقت الذي وجدت فيه المعارضة ان اسلوبها هذا اصبح لامفعول له نراها تلجأ إلى اسلوب جديد للمعارضة واسقاط الحكومات وهو العمل على ادخال العشائر كعنصر تهديد في السياسة ، كما حدث في الفترة ١٩٣٤/١٩٣٦ في وزارات علي جودة الأيوبي وجميل المدفعي ، وحتى في وزارة ياسين الهاشمي الثانية ١٩٢٦ ولكن هذا الاسلوب لم ينجح في اسقاط الوزارة الاخيرة لما تتمتع به من نفوذ وقوة. وحتى انها استطاعت ان تسكت هذه التحركات العشائرية التي كانت تشمل الفرات الاوسط بالذات .

ولهذا وجدنا المعارضة تستعمل اسلوبا ثالثا جديدا واكثر اثارة وهو ادخال الجيش والعسكريين كعنصر جديد في التغيير السياسي . فكانت بداية الانقلابات العسكرية في العراق منذ سنة ١٩٣٦ حتى مايس ١٩٤١ والتي اجهض في هذه الاخيرة الجيش لموقفين المعارض وكنتيجة، للحركة التي تم في اثرها اجراء بعض التعديلات على القوات المسلحة في خفض عددها

وعدتها وتقليص فعالياتها لتكون عنصرا ضعيفاً امام التواجد العسكري البريطاني المكثف خلال الحرب العالمية الثانية (١) .

كل هذه الارهاصات جاءت في الفترة التي حكم فيها الملك غازي اضافة إلى بعض الهزات العنيفة التي اصابت العائلة المالكة من الداخل وخاصة قضية (الاميرة عزة) شقيقة الملك غازي حيث كادت هذه القضية ان تودي بالملكية في العراق (٢) .

حادثة مقتل الملك غازي

لقد كتب عن هذه الحادثة الكثيرون من الساسة العراقيين الذين لعبوا دورا في سياسة العراق مثل .. ناجي شوكت ، توفيق السويدي ، صلاح الدين الصباغ . طه الهاشمي وكذلك المؤرخ عبدالرزاق الحسني وحتى أن المؤلفين الجدد او في الرسائل الجامعية الكثيرة التي ان لم تكتب بشيء من التفصيل فانها مرت بهذه الحادثة واعطتها تفسيرا او تحليلا او وجهة نظر.

وكانت مجمل الاراء بها شيء من الاتفاق على ان القضية ليست حادثة طارئة وعفوية وانما هي حادثة مدبرة .. وقد وجه الاتهام إلى بريطانيا بانها وراء الحادثة اما مباشرة او بالواسطة . وكذلك اتفقت الاراء على ان للوصي عبدالاله ورئيس الوزراء نوري السعيد يداً في ذلك .

ودفعني الاستقصاء للوصول إلى قناعة ترضي الناحية التاريخية في الكتابة ، وتعمدت البحث في الموضوع منذ سنة ١٩٧٧ في ملفات الوثائق البريطانية (P.R.O) واطلعت على وثائق كثيرة منها مايتعلق باذاعة (قصر الزهور) لانه كان في اعتقادي انه المنفذ الذي يمكن الوصول إلى الحقيقة في حالة ما اذا كانت النية توجيه الاتهام إلى بريطانيا بانها وراء العملية ، خاصة وان بريطانيا كانت تعتبر هذه الاذاعة موجهة ضدها . وضد مطامعها في المنطقة اضافة إلى ما كانت تؤكد عليه الاذاعة في الدعوة القومية والوحدة العربية . وكان الملك غازي هو الذي يدير هذه الاذاعة ويوجهها إلى العراقيين

وإلى اهالي الكويت وكذلك سوريا ومن خلالها — اي الاذاعة — حصل الملك غازي على شعبية ظهرت ملامحها عند مقتله وخروج الشعب العراقي بكامله يبكيه من الشمال إلى الجنوب (٣) .

وكانت مجمل الوثائق المتعلقة باذاعة قصر الزهور يتركز اكثرها في الملفات

F.O.371 21867
21868
21869

وكذلك الملفات التي توثق حادثة الملك غازي وتتركز في الملفات .

F.O371 23200
23201
23202

ووجدت ان القضايا المطروحة في هذه الوثائق هي نفسها الموجودة في الكتب وملفات الوثائق العراقية ووجدت الخرائط نفسها المرسومة حول الحادثة ويئست من أن اجد شيئاً مثيراً او دليلا على ارتكاب جريمة قتل .. انما من خلال قراءتي اطلعت على اراء الساسة البريطانيين في الملك غازي وكذلك رأي السفير البريطاني في بغداد . وكانت هذه الاراء تلتقي في عدم الاتفاق مع الملك غازي في سياسته ، وكانوا دائمي الشكوى من تصرفاته وتطلعاته السياسية وذلك لان تصرفاته الخاصة التي كانوا يذكرونها لاتهم بريطانيا ابدا لان الاستجابة المضادة لها تؤثر في الوضع الداخلي وهذا شيء يخدم سياستها العامة .

ويمكن ايجاز قضايا بريطانيا ضد غازي كما جاء في المقابلة التي تمت بين ناجي شوكت نائب رئيس الوزراء في وزارة نوري السعيد سنة ١٩٣٩ وبين (باترسن PETERSON) السفير البريطاني في العراق والتي ذكرها ناجي شوكت في كتابه (ذكريات) (٤) ولخصها في نقطتين من خمسة نقاط عرضها السفير البريطاني على نائب رئيس الوزراء .

١ - «محطة اذاعة قصر الزهور الخاصة ، والتي تهاجم بريطانية في كل يوم وتحرض الكويتيين على الثورة ضد امرائهم» .

٢ - «اعتزام الملك غازي احتلال الكويت» .

هذه هي النقاط نفسها التي كانت تتداول ضمن التقارير البريطانية التي كان يرفعها (باترسن) الى وزارة الخارجية البريطانية وهي نفسها التي كان الساسة البريطانيون يخبرون الساسة العراقيين بها اثناء زيارة هؤلاء الى بريطانية او في لقاءاتهم الثنائية والذين اخذ بعضهم يروي ذلك ضمن مذكراته الشخصية. ويقول توفيق السويدي في اثناء لقاءه في لندن مع (المستر بتلر BUTLER) وكيل وزارة الخارجية البريطانية الدائم والذي كان يشكو من تصرفات الملك غازي خاصة الاذاعة الموجهة الى الكويت (ان الملك غازي لايملك المقدرة على تقدير موقفه لبساطة تفكيره) ثم يضيف (مستر بتلر) قائلاً : «اني آسف لان الملك بعمله هذا لايعلم انه يلعب بالنار وأخشى ان يحرق اصابعه يوما ما» (٥) .

نخرج من هذا ان بريطانيا لم تكن ترتاح لوجود غازي وكذلك هناك ساسة عراقيون لم يكونوا يرتاحون لوجود غازي .. فالتقت الاهداف ضد غازي .. ولكن من يكون المنقذ ؟ لو رجعنا الى الوراء قليلا والى فترة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ في فترة ازمة العائلة المالكة (قضية الاميرة عزة) ظهرت طروحات عديدة لمستقبل العائلة المالكة وكانت الشخصيات البارزة في السياسة العراقية تحاول اعادة القوة لكيان الملكية داخل العراق ولكن ماهو البديل ؟

كانت بريطانيا ترتأي لتقوية عرش غازي ان يتكون مجلس ملكي استشاري يتولى تقديم النصح للملك CROWN COVNCIL E.704/1937 وكان نوري السعيد من هذا الرأي بل كان يرى تأليف (مجلس وصاية) وحتى انه كان يردد اسم ياسين الهاشمي لقيادة البلد (٦) . وفي تقرير بريطاني لاحق تحت عنوان :

"Possible altermalive to the Prsasent King of IRAQ"

رفعه WARD من القسم الشرقي في وزارة الخارجية البريطانية حول امكانية تغيير الملك غازي وقد اوضح WARD خلال التقرير استعراضاً كاملاً للعائلة المالكة في العراق والشخصيات الممكن ترشيحها .. وان رأيه قد استقر على شخصيتين هما عبدالاله والامير زيد وقد وضع WARD بعض العراقيل في طريق ترشيح الامير زيد للعرش منها ان أمه تركية اضافة إلى طبائعه وثقافته التركية التي تفوق في تأثيرها نشأته العربية وبذلك فقد منح عبدالاله الاولوية. واوضح ايضا بأن الساسة العراقيين يرغبون في عبدالاله اكثر من رغبتهم في الامير زيد (٧) .

وفي تقرير جاء ضمنه رأى الدكتور (سندرسن) طبيب العائلة المالكة الخاص وقد جاء فيه . ان الملك شاب قوي وفارس وشجاع ومع ذلك فانه عاطل وكسول ويميل إلى مصاحبة اشخاص سيئين .. وفي نهاية التقرير يذكر عن لسان (سندرسن) ان العائلة المالكة قد ذكرت اسم عبدالاله بأنه البديل الممكن في حالة عدم أستطاعة الملك غازي البقاء في عرشه . يمكن مراجعة التقرير (٨) . Possition of king GHAZI in IRAQ

وهكذا نجد ان اسم عبدالاله قد بدأ يبرز ويهيأ منذ سنة ١٩٣٦ أي قبل ثلاث سنوات من حادثة الملك غازي– مما يدلل على ان بريطانيا كانت قد هيأت نفسها لاستقبال البديل الملكي في العراق .

هذا بالنسبة إلى عبدالاله اما الشخصية الثانية الفعالة فهو نوري السعيد الشخصية العراقية التي لعبت دوراً كبيراً منذ بداية الثلاثينات والذي اصبح في نهايتها وبداية الاربعينات خاصة الشخصية السياسية الاولى في البلاد بلا منافس حتى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ م .

بعد ان استطاع تصفية منافسيه طوال تلك الفترة لان من ميزات شخصية نوري السعيد انه لاينسى الاساءة وانه من اصحاب النفس الطويل في الرد.
ان الكتلة العسكرية القومية التي انهت بكر صدقي كانت بتوجيه وبترتيب

نوري السعيد وهو في القاهرة. ومنذ تلك الفترة لم تهدأ لنوري السعيد هادئة فقد استمر في التخطيط وخلق الازمات والمؤامرات الى ان انتهت هذه بحركة ١٩٤١ والتي كان فشلها معناه بروز نوري السعيد كرجل السياسة العراقية الاول دون منافس .

لانستطيع ان نتكلم عن حادثة الملك غازي دون ان نعطى لنوري السعيد فسحة في هذه الدراسة ولنرجع الى الوثائق البريطانية ايضا «حول حادثة الملك غازي ونتتبع ماكان يريد نوري السعيد عمله خلال الفترة من اوائل ١٩٣٩ م . ففي ١١ كانون الثاني ١٩٣٩ م . كتب (باترسن) السفير البريطاني في بغداد الى وزارة الخارجية البريطانية يخبرها بآراء نوري السعيد وهي : —

١ — كان نوري السعيد يرى ان يتنازل عن رئاسة الوزارة الى الامير زيد ويحتفظ هو بوزارة الخارجية ولهذا طلب رأى السفير .. وهل هناك اعتراض على الموضوع .

٢ — كان نوري يرمي من ذلك كما جاء في التقرير البريطاني لتقوية الناحية الدستورية أو التشريعية وكان السفير البريطاني في التقرير نفسه يعتقد بان هناك ترتيباً ليحل الامير زيد محل الملك غازي بصورة سريعة ويساعده في ذلك فيما اذا كان زيد رئيساً للوزراء . وردت الخارجية البريطانية باستفسار حول رأي نوري بتقوية الناحية الدستورية او التشريعية هل يعني ذلك أنه يحاول اعطاء اهمية وزيادة تأثير للبرلمان او يقصد في التقليل من استعمال الجيش كعامل سياسي للمعارضة .. وفي رأي الخارجية البريطانية اذا كان هذا الاخير هو المقصود فهذا شيء حسن جدا .. غير انها — الخارجية البريطانية — وبصورة غير مباشرة ارتأت ان يكون اتصالها بنوري السعيد بمعنى انها لاترتأى التغيير الذي طرحه نوري حول رئاسة الوزارة . الا ان فكرة نوري السعيد كما توضحت في تقرير آخر للخارجية البريطانية في ١٧ كانون الثاني ١٩٣٩ ان نوري كان يرمي من مجيء زيد بأي منصب في البلاط ليكون قريبا» من الملك غازي ويقدم له النصيحة في الوقت الذي

كان الملك غازي كثير الشكوك في نوري فلهذا نرى ان نوري طلب من السفير البريطاني القيام بالاتصال بالملك غازي لتمهيد الامور للامير زيد (١٠).

غير ان (باترسن) السفير البريطاني قد أثار هذا الموضوع شكوكه فطلب من نوري أن يوضح له بصراحة (هل يرمي من مجيء الامير زيد اكثر من ذلك) الا أن نوري أنكر ذلك ولو انه (أي نوري) كان حسب قول باترسن متذمراً من عدم وجود ملك جيد ولكنه لم يكن راغباً في التغيير ولكي يريد أن يكون بجانب الملك شخص يثق به ويقدم له المشورة يوماً بعد يوم وفي كل الأوقات وبصورة مستمرة ، غير أن الخارجية البريطانية ردت على رسالة (باترسن) بأنها لاترتأي التدخل في هذه القضايا التي هي من خاصية الوضع الداخلي في العراق وطلبت الخارجية البريطانية أخيراً (اذا أكد عليك نوري ذلك فاثناء محادثتك مع الملك أخبره أن هذا الاقتراح كان من نوري السعيد حتى لاتثير شكوك الملك).

وبعد حوالي الشهر من ذلك وفي وزارة نوري السعيد نفسها حبكت قضية المؤآمرة التي اتهم فيها حكمت سليمان ومجموعة من الضباط الذين تعاونوا معه خلال انقلاب بكر صدقي ١٩٣٦ (وقد ارسل باترسن) السفير البريطاني إلى الخارجية البريطانية يخبرهم بأن نوري السعيد) ويدعوه باترسن دائماً بالجنرال) أخبره وبصورة سريعة بأن مؤامرة عسكرية قد اكتشفت للاطاحة بالملك غازي واحلال عبد الاله مكانه ... ويضيف (باترسن) بأن نوري السعيد قد أخبر الامير زيداً بذلك والاخير أخبر بدوره طه الهاشمي بالموضوع ... وان نوري يريد اخبار الملك بالمؤامرة لكن بدون ذكر التفاصيل والابعاد (١١).

وطبيعي أن نوري السعيد لم ينس الاساءة التي حدثت له بعد انقلاب بكر صدقي ١٩٣٦م . وهروبه إلى القاهرة وكذلك أن معظم الاسماء التي طرحت بانها في قيادة المؤامرة من العسكريين هم من اعوان بكر صدقي ومن الاسماء التي ليس وراءها أحد التكتلين (تكتل صلاح الدين الصباغ / معسكر الرشيد) والتكتل الآخر (حسين فوزي ـ أمين العمري / معسكر الوشاش) .. ولكن

صدى هذه المؤامرة في السياسة الداخلية قليل جداً غير أن الشيء الذي يثير الانتباه هو تردد اسم عبد الاله كبديل للملك غازي .

ان نوري السعيد كان على صلة جيدة مع عبد الاله منذ أن كانا في القاهرة بعد انقلاب بكر صدقي، كان نوري منفياً وعبد الاله طالباً وكان نوري السعيد يحس بمدى الكره الذي يحمله عبد الاله على ابن عمه الملك غازي. (١٢)

واذا كانت العلاقات بين نوري وعبد الاله قد استمرت فكان بتأثير العسكريين (صلاح الصباغ وجماعته) فان عبد الاله استطاع ان يستقطب العسكريين بعد ان اثبتوا مقدرتهم في تغيير الاوضاع بعد ١٩٣٦ وتأثيرهم الفعال في التغييرات الوزارية التي حدثت بعد ذلك حتى مايس ١٩٤١ . وكان لصداقة عبد الاله الحميمة مع محمود سليمان المنفذ الذي استغله لكسب جانب الضباط الوطنيين . يقول الصباغ في (فرسان العروبة) (كانت علاقتنا بعبد الاله الوصي على احسن مايرام اذ يدعونا إلى مقره بين حين وآخر لانتخاب الحديث في شتى المواضيع). (١٣)

وهكذا وجدنا في هذه الفترة التقاء الاطراف المتناقضة وهي التي يمكن أن نطلق عليها فترة المهادنة التي خطط لها نوري والتي اسبغ عليها صداقة متينة تجمع نوري السعيد + طه الهاشمي+ عبد الاله رشيد عالي الكيلاني الذي يتفق مع نوري في الموقف الغير مؤيد للملك غازي بعد الذي حدث في انقلاب بكر صدقي ١٩٣٦م.

ان كل هذه الاطراف كانت تحاول كسب العسكريين فكما عرفنا أن عبد الاله كان يلتقي بهم بصورة مستمرة وان طه الهاشمي يعتبر بالنسبة لهم — أي العسكريين — القائد الذي يرجعون اليه في كل القضايا وأما بالنسبة إلى نوري السعيد فقد كان أيضاً في ذروة صداقته لنا فلا يفوته اسبوع دون أن يوجه لنا الدعوة في داره ليوضح لنا نواياه ومقاصده ويوجه العتاب إلى طه الهاشمي من ورائه لأن طه يخفي عنا أموراً يجب أن نطلع عليها) وكان نوري يحرضهم على انهم يجب أن يكونوا أول من يعرف بهذه الامور.(١٤)

واضافة رشيد عالي الكيلاني لهم حسب رأى توفيق السويدي هو اقتراح لكسب العسكريين الاخرين من (جماعة الوشاش) وهم جماعة رشيد عالي الكيلاني ومعنى ذلك ان كل التكتلات العسكرية سوف تكون ضمن مخطط نوري السعيد وتعمل من أجله .

وقد برز دور رشيد عالي الكيلاني بعد تعيينه رئيساً «للديوان الملكي».وتعتقد السفارة البريطانية ان هذا التعيين جاء بدون رغبة الملك غازي نفسه . (١٥) في حين ان نوري السعيد لم يكن مرتاحاً لهذا التعيين في اول الامر ولكنه حاول الاستفادة منه بعدئذ خاصة وان وراء رشيد عالي الكيلاني كتلة عسكرية كما عرفنا قبل قليل .

ان تعيين رشيد عالي الكيلاني رئيساً للديوان ملاحظة تعيد نفسها ففي نهاية عهد فيصل الاول ١٩٣٢ وعندما كان نوري غائباً في عصبة الامم صدر امر تعيين رشيد عالي الكيلاني رئيساً للديوان واعتبر نوري هذا العمل موجها ضده .

وفي شباط ١٩٣٩ وايضا عندما كان نوري السعيد في الخارج صدر أمر تعيين رشيد عالي الكيلاني رئيساً للديوان واعتبره ايضاً عملاً موجهاً ضده .. الا أن ناجي شوكت في ذكرياته اوضح انه هو الذي اقترح تعيين الكيلاني في رئاسة الديوان بعدما عرف بأن الكيلاني بدأ يكتل ضد الوزارة بعد أن ابعده نوري السعيد عن استلام احدى الوزارات . وقد قام ناجي شوكت باقناع الملك غازي بذلك فصدرت الارادة الملكية بتعيينه بناء على ماجاء باقتراح وكيل رئيس الوزراء اي ناجي شوكت .(١٦) وعندما عاد نوري السعيد إلى بغداد استوعب موضوع الكيلاني بسرعة وكما يقول توفيق السويدي ان هذا التعيين اضاف إلى نوري كتلة عسكرية (معسكر الوشاش) بل ان السويدي كان يرى ان تعيين الكيلاني كان باقتراح من نوري السعيد نفسه . وهذا ماقاله السويدي إلى باترسن (١٧) .

هناك ملاحظات احب ان اضيفها بحذر :

أولا : هل للعسكريين الوطنيين دور في عملية انهاء غازي ؟ان ماقاله فهمي سعيد ـ احد الاركان الاربعة للمربع الذهبي (الخير فيما اختاره الله) عند قتل غازي وبشكل هادىء ماهي دلالته ؟ .. ان هذا الخبر ذكره صلاح الدين الصباغ في (فرسان العروبة في العراق) (١٨)

ثانيا : والملاحظة الاخرى هي ايضاً من نفس المصدر (فرسان العروبة في العراق)والتي توضح اتصال صباح نوري السعيد بعد عودته من الخارج بعد مقتل بكر صدقي ١٩٣٧ (وعمد هذا ـ أي صباح ـ للاتصال بكتلة صلاح الدين الصباغ ورفاقه واثناء اجتماعه بهم طرح رأياً (ماذا كنا نرى قتل غازي والحاقه ببكر صدقي وتخليص البلاد من عبثه) ويبرز هنا دور فهمي سعيد للرد وبصوت قوي على صباح نوري السعيد (لاياصباح لن يحدث هذا أبداً) (١٩) .

ثالثا : يظهر لنا من الملاحظتين اعلاه مدى التناقض بين ما ابداه فهمي سعيد بعد مقتل بكر صدقي ١٩٣٧ وبعد حادثة الملك غازي ١٩٣٩.. وهل للفترة الزمنية هذه التي امدها سنتان والتي امتازت بسيطرة الجيش على الامور السياسية بشكل واضح ان غيرت من رأي فهمي سعيد .. قلت انني اضيف هذه الملاحظات بحذر .

الفصل الختامي :

لنرجع إلى مذكرات علي جودة الايوبي قليلاً فهو لم يكتب عن هذا الموضوع الا القليل فعندما وصل إلى مقتل الملك غازي ذكر (قتل الملك غازي في حادثة اصطدام سيارة بعمود كهربائي) (٢٠) ويبدو انه مقتنع كلياً بذلك علماً بأن علي جودة. الايوبي كان مشرفاً على تربية غازي في فترة الملك فيصل الاول وبعدئذ يذكر لنا علي جودة عن اجتماع البلاط للنظر في امر الوصاية الذي هو الحصيلة النهائية التي كانت تريدها عدة جهات متكاتفة .. وان علي جودة

الايوبي من الاشخاص الذين حضروا هذا الاجتماع مع كل من :

محمد الصدر	رئيس مجلس الأعيان
مولود مخلص	رئيس مجلس النواب
رستم حيدر	وزير
نوري السعيد	رئيس الوزراء
رشيد عالي الكيلاني	رئيس الديوان الملكي
علي جودة الأيوبي جميل المدفعي	رؤساء وزارات سابقين

لم يحضر طه الهاشمي

وبادر رستم حيدر في الاجتماع وطرح اسم عبد الاله كبديل بعد أن ذكر الرواية التي تداولتها الملكة عالية والمحيطين بها بأن الملك غازي قبل وفاته أوصى زوجته الملك عالية بأن يكون الامير عبد الاله وصياً «على فيصل» في حالة اصابته بمكروه.

يقول علي جودة بأنه اعترض على وصاية عبد الاله بحجة صغر عمره وقلة تجربته السياسية (لذا وضحت أن يعهد بهذه المهمة الخطيرة إلى رجل ذي حنكة ومرونة . لتمكنه من انقاذ الموقف في اعدلهات من الاحداث).

ورد رستم حيدر على علي جودة بأن :

١ ــ الملك عبد الله مشغول في شرق الاردن .

٢ ــ الامير زيد متزوج من امرأة تركية فلا يستحسن أن يمارس واجبات الوصاية .

ويستطرد علي جودة الأيوبي/ان الكل يرغبون في عبد الاله ماعداه وجميل المدفعي وان اكثر المتحمسين لوصاية عبد الاله هما طه الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني .. وقد اوصل طه الهاشمي رأياً بأن الجيش سوف يثور اذا لم يعين

الامير عبد الاله وصياً. ومن الطبيعي ان نعرف أن طه الهاشمي كان هو الناطق باسم الجيش وباسم كتلة صلاح الدين الصباغ بالذات . ان هذا يدعوني للعودة إلى الملاحظات التي اوردتها حول (هل للعسكريين دور في عملية انهاء غازي) .

الخلاصة :

ماذا نخرج من كل هذا العرض للموضوع :

لا استطيع ان أقول ان غازي قد قتل .. وكذلك لااستطيع ان اقول انه لم يقتل .. غير انني مع الاحتمال الاخير .. اي انه لم يقتل .. وانما كان لتصرفاته الخاصة اثر في ذلك .. فالمعروف عن غازي انه كان مدمنا لايكاد يفارق الكأس (٢١) وانه كان مولعا بقيادة السيارات بسرعة فائقة ومولعا كذلك بسباق السيارات .. فاذن كل هذه مجتمعة تجعل من موضوع الحادثة شيئاً بديهياً .

فالسرعة في قيادة السيارة + فقدان الوعي تؤدي حتما إلى التصادم واحتمال الموت نتيجة لذلك . ولكن من الممكن ان نضيف انه اذا كان هناك تخطيط لانهاء غازي فان احتمال التخريب المتعمد بأجهزة السيارة يمكن ان يكمل العملية التي تبدأ بالسرعة + فقدان الوعي + وجود تخريب آلي بالسيارة .

ان غازي هو الذي اعطى الاشارة الخضراء لانهائه كليا بمجمل اسباب

اولا : تطلعاته في السياسة الخارجية معتمدا على الاسلوب الدعائي فقط.

ثانيا : تصرفاته الداخلية الخاصة والخاصة جدا .

ثالثاً : مغامراته في سباق السيارات وقيادة الطائرة .

مراجع المبحث :

١ ـ بعد الحرب العالمية الثانية أصبح الطلبة يمثلون المعارضة القوية من خلال المظاهرات والاضطرابات واستمروا لفترة طويلة حتى اخذ العسكريون مكانتهم ثانية بعد ثورة تموز ١٩٥٨م .

٢ ـ قضية الأميرة عزة شقيقة الملك غازي والتي تزوجت من عامل فندق يوناني كان هزة قوية للعائلة المالكة وللساسة العراقيين الكبار في نفس الوقت. ورغم حجب المعلومات من التسرب إلى داخل العراق الا ان الصحافة العالمية كانت قد ركزت على هذه القضية موضحة ذلك بالصور مما جعلت موقف العائلة المالكة وبالذات الملك غازي في موقف صعب كادت ان تودي بالملكية في حينها .

٣ ـ صدر منشور في بغداد وقد وجدته في دار الوثائق البريطانية

F.O.371 / 23201 E. 204

(من جمعية شباب الوحدة العربية / بغداد 1 May 1939

آه غازي مليكنا

إلى الشعب العربي

انهم قتلوا الملك غازي .. ان الانكليز لا يرغبون في ان يروا الملك غازي يعمل للوحدة العربية .... الخ).

وقد هاجم المنشور نوري السعيد (رجل الانكليز) كما يقول المنشور وكذلك هاجم رشيد عالي الكيلاني الذي اعتبروه (سندا لنورى)

واخيراً حرض المنشور في العمل ضد الانكليز واتباعهم(إلى الثورة إلى أخذ الثأر إلى الامام) .

ـ كانت الجماهير العراقية خلال حملة العزاء على موت غازي تردد (سوريا تريد النتيجة والكويت يريد يومه)

٤ ـ ناجي شوكت ذكريات ص ٣٦٢

٥ ـ توفيق السويدي مذكراتي ص ٢٧٦

F.O.371 / 20017 E. 4057 1936

٧- 1936 E 3984 F.0.371 / 20017

٨- 1936 E 6430 F.0.371 / 20017

٩- 1939 E 305 F.0.371 / 23500

١٠- 1939 E 448 F.0.371 23200

١١ — التقرير السابق هامش (١٠)

١٢ — خيري العمري الخلاف بين البلاط الملكي ونوري السعيد ص ٦٠ — ٦٤

١٣ — صلاح الدين الصباغ فرسان العروبة في العراق ص ١٠٤

١٤ — صلاح الدين الصباغ المصدر السابق ص ١٠٤

1939 E 938 F.O.371 / 23200

١٦ — ناجي شوكت، ذكريات ص ٣٥٠

1939 E 938 FO.371 ./ 23200

١٨ — صلاح الدين الصباغ فرسان العروبة في العراق ص ٨١

١٩ — المصدر السابق ص ٩٠

٢٠ — علي جودة الايوبي ذكريات ص

٢١ — ناجي شوكت ذكريات ص ٢٧٧

وارفق اخيراً وثيقة الوصايا الموجودة في دار الوثائق البريطانية

18 April 1939 E 2820 F.N.371 / 23201

«وثيقة الوصاية»

ان الملك غازي قد ذكر في مناسبات عديدة امامنا بأنه في حالة حدوث شيء لي فإن الامير عبد الاله سيكون وصياً لولدي فيصل.

ان الايضاح اعلاه قد وقع من قبل الملكة عالية زاضي واضحة امامنا ووقعنا عليه

نوري السعيد/ رئيس الوزراء ناجي شوكت/ الداخلية رستم حيدر/ المالية

صبيحي الدفتري/ العدل طه الهاشمي/ الدفاع عمر نظمي/ الاقتصاد والشؤون

صالح جبر/ التربية رشيد عالي الكيلاني/ رئيس الديوان حسين فوزي/ رئيس اركان الجيش

فلسفة الطبيعة عند ابيقور

د . قيس هادي أحمد
كلية الآداب – جامعة بغداد

مقدمة

تعني (فلسفة الطبيعة) ،أي اتجاه فلسفي يحاول تفسير ظواهر الطبيعة واحداثها تفسيراً يعتمد على النظر الى الكون ككل، وينطلق من مبادىء أولية يفترض انها قادرة على تفسير جميع اجزائه. لهذا فان فلسفة الطبيعة ليست مدرسة فلسفية قائمة بذاتها أو مذهباً فلسفياً محدداً، بل هي مجرد نظرة الى الكون ومحاولة لتفسيره. وقد تأتي النظرة مادية حينما ومثالية حيناً آخر، كما قد تأتي المحاولة علمية مرة وغير علمية مرة أخرى .

حاولت جميع الفلسفات القديمة والوسيطة ، وحتى بداية العصر الحديث أن تفسر احداث الطبيعة بأوجه مختلفة . الا ان ذلك الاختلاف لم يمنع تلك الفلسفات من أن تتفق على ان فلسفة الطبيعة هي الفيزياء وان الفيزياء هي فلسفة الطبيعة . وبعبارة اخرى اتفقت تلك الفلسفات على ان فلسفة الطبيعة والفيزياء هما اصطلاحان لفرع واحد من فروع المعرفة وهو علم الطبيعة . ولو امعن الدارس النظر الى الأعمال التي تركها لنا فلاسفة الاغريق لوجد ان فلسفة الطبيعة كانت تسمى عندهم (الفيزياء) كما كانت المباحث الفيزيائية – في

العصر الوسيط – تسمى (فلسفة الطبيعة) ، وبقيت هـذه التسمية مستعملة ردحاً طويلاً من الزمن .

اذن فنحن معنيون في هذا البحث بابراز النظرة والمحاولة التي قام بها الفيلسوف الاغريقي أبيقور لتفسير الطبيعة تفسيراً كلياً شمولياً .

لقد دأب سقراط وافلاطون وأرسطو على مقاومة النزعة المادية في تفسير الوجود، غير ان أبيقور اضطلع بمهمة احياء هذه النزعة من بعدهم، حيث بدأ من النظرية الذرية في تفسير الكون، تلك النظرية التي كان قد وضعها الفيلسوف الاغريقي المادي ديمقريطسي الذي توفي عام ٣٧٠ق. م. (١)

اخذ ابيقور يفسر الطبيعة من خلال الطبيعة نفسها دون ان يدخل في نظر الاعتبار أية علة ميتافيزيائية في تفسيراته ، فمنذ الأزل لم تكن هناك الا ذرات مفردة تنطلق في كل الاتجاهات خلال المكان ، وعن طريق تصادم هذه الذرات واتحادها بالصدفة، تكونت مجموعات أدت بمضي الزمن الى تكوين اجسام من شتى الأنواع والأشكال (٢) .

حياة أبيقور وثقافتـه :

ولد أبيقور في جزيرة (ساموس)، احدى جزر بحر ايجة سنة ٣٤١ق.م، وكان ابوه معلما اثينيا، يحصل على مرتب هزيل، الى حد اضطرت معه زوجته ان تعاون في اعالة الأسرة، وذلك بأن تطوف بالمنازل لبيع الأحجبة والرقى الدينية، والأدوية الزائفة، اذ كان الدجل بطب الروح مهنتها. وكثيرا ما كان ابيقور يضطر بعد عودته من المدرسة الى ان يساعدها في بيع ما تنتجه من ضروب الدجل. وهكذا بدأ يحتقر الخرافات الدينية من كل قلبه في وقت مبكر من حياته. كما اظهر ، وهو لايزال صبيا صغيرا، ميلا عظيما نحو الرياضة العقلية فكان يحير اساتذته ، باسئلته .فلنستمع اليه يحاور أحد اساتذته قائلا :

(١) د. توفيق الطويل : اسس الفلسفة ، ص ٢٣٩ .
(٢) هانز وايشنباخ : نشأة الفلسفة العلمية ، ص ٧٧.

(أخبرني ، هل لله السيطرة على كل شيء ؟)
(نعم على كل شيء)
(اذن فهو مسؤول عن آلامنا ولذاتنا على السواء) فاجاب الاستاذ قائلاً :
(لا .ان الله يكون قادراً على ان يمنحنا اللذة، في حين انه ليس قادراً على ان يبعد عنا الألم) .
فرد الأستاذ قائلا : (اظنْ ذلك)
(أذن فماذا يفعل الله اذا ما انتابتنا الآلام ؟)
(اظن انه يدير ناظريه بعيدا عنا)
(لكن معنى هذا ان الله لايستطيع ان يفعل كل شيء، أو يرى كل شيء، او يهتم بنا في كل وقت ؟)

فأجاب الأستاذ في حيرة وارتباك: (لست ادرى حقا .وعليك ان تسأل الفلاسفة ان اردت اجابة لهذه الاسئلة) (١) .

وهكذا ازداد ابيقور تصميما وعزما في البحث وراء اجابة عن اسئلته في مدارس الفلسفة المختلفة. فأولع بالتعرف على المذاهب الفلسفية وهو في الرابعة عشرة. ولما ذهب الى اثينا بعد اربع سنوات كان قد حصل على قسط طيب من العلم والمعرفة (٢) .

وفي اثينا انغمس ابيقور في دراسة ونقد تعاليم المفكرين اليونان، فلم يعجب الا بالقليلين منهم ، اذ وجد ان النزاع بينهم كان شديدا فيما يتعلق باختلاف وجهات نظرهم ، بينما كانوا يبذلون مجهودا غاية في الضآلة للوصول الى اتفاق جوهري . ولذلك غادر اثينا متجها الى الشرق، وقضى بضع سنوات يجوب الأقطار المختلفة، باحثا عن جوهر الحكمة الشرقية . وما ان شعر انه اكتفى بما حصل عليه من علم، وبما عثر عليه من حكمة حتى عاد ادراجه الى اثينا، وكان الذلك في الخامسة والثلاثين من عمره (٣) .

(١) د. هنري توماس : اعلام الفلاسفة ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .
(٢) جورج سارتون : تاريخ العلم (الجزء الثالث) ، ص ٣٦٤ .
(٣) د. هنري توماس : اعلام الفلاسفة ، ص ١٤٤ .

لقد كان سبب عودة ابيقور الى موطنه الأصلي والى مدينة اثينا بالذات، هو ان هذه المدينة دون غيرها كان يمكن لمدرسة فلسفية جديدة ان تتأسس فيها وتكون ذات تأثير على النحو الكامل. وهكذا اشترى ابيقور بيتا وحديقة في احد ضواحي اثينا، وانشأ اكاديمية يلقن فيها فلسفته، وقد استطاع ان يبدأ بدء حسنا، كما يبدأ أي استاذ معترف بفضله، وذلك لأن كثيرا من تلاميذه، ومنهم اسرته نفسها جاءوا معه، كما انه استطاع ان يجتذب اليه تلاميذ — جددا صاروا فيما بعد خلفاء له. (١) وكانت الاكاديمية مفتوحة للرجال والنساء، للاغنياء والفقراء، للسادة والعبيد. لأنه — كما أوضح ابيقور — ليست هناك فروق جنسية أو طبقية في دولة العلم. وكان يهدف من وراء الفلسفة التي يلقنها الى ايجاد مجتمع يظلل الود افراده وينحصر همه في ترويج اللذة ومحو الألم ما لا الى مجتمع من الكمال البشري يستحيل وجوده، مثل مجتمع افلاطون (٢).

لقد كانت الدراسات التقليدية تنظر الى ابيقور على أساس انه واحد من الأفلاطونيين أو الشكاك، في حين انه كان من اشد المفكرين بغضاً للافلاطونية والريبية. وكم اتهم بالجهل المطبق والعداء لكل انواع المعرفة، في حين انه كان من اكثر المفكرين علما وثقافة، فقد كان ملما بكل التيارات الفكرية التي كانت سائدة في عصره. لقد درس الافلاطونية والارسطية وفلسفة ديمقريطس منذ نعومة اظفاره، كما انفق سنوات عديدة في القراءة والبحث، قبل ان يعتبر نفسه معلما ومرشدا (٣).

وقد كان ابيقور وافر الانتاج حيث بلغ ما كتبه من الكتب حوالي الثلاثمائة كتاب، الا ان معظم انتاجه لم يصل الينا، ولكن لحسن الحظ وصل الينا

---

(١) جورج سارتون : تاريخ العلم (الجزء الثالث) ، ص ٣٦٥.

(٢) د. هنري توماس : اعلام الفلاسفة ، ص ١٤٦.

(٣) Norman Wantworth De Witt: Epicurus & His Philosophy, P. 6 – 7.

ملخص لفلسفته، كما جاء في ملحمة شعرية لأحد اتباعه بعنوان (في طبيعة الأشياء). كما يذكر المؤرخون ثلاثا من أشهر مؤلفات ابيقور، واحدة تتعلق بالفيزياء والثانية تتعلق بالأرصاد الجوية، والثالثة اعلن فيها ابيقور معارضته الواضحة لأرسطو في موضوع الأخلاق واللاهوت (١).

أصبح ابيقور قبيل وفاته من أشهر الفلاسفة الأغريق الى درجة ان اولئك الذين لم يكن في وسعهم ان يستمعوا الى محاضراته كانوا يقبلون على شراء كتبه، وقد ساعده علمه ونزعته الانسانية على تحمل كل ما صادفه من آلام ومعاناة، فبالرغم من الفقر والحرمان والمرض الذي كان يعانيه، كتب الى احد اصدقائه قائلاً: (انني اجتاز الآن آخر يوم في حياتي. فقد تملكني مرض الحصاة وحطمتني الآلام المبرحة التي لم يعد يقوى الجسم على احتمالها. ولكنني بالرغم من كل هذا اجد سعادتي في استعادة ما كنا نتبادله من افكار واحاديث فيما مضى).

كان يستعيد افكار الماضي البهيجة ولا يخشى من المستقبل شيئاً بعد، قضى طوال حياته في مأدبة الطعام البسيط والمحبة الحانيه كان على أهبة الأستعداد للرحيل في هدوء الى ليل لا يعكر صفو النوم فيه شيء. ألم يكن من الأفضل له ان ينام الى الأبد بدلاً من ان يستيقظ على آلام يوم آخر، وقد حدث له هذا سنة ٢٧٠ ق.م (٢).

النظرية الذرية في الفيزياء

لقد تبنى ابقور نظرية ديمقريطس الذرية جاعلاً منها الاساس الذي اقام عليه بناء فلسفته الطبيعية. فكل الموجودات تتألف من ذرات لها احجام وأشكال مختلفة، تتحرك منذ الأزل في فراغ لا متناه. ومن اونة الى أخرى تنحرف الى هذا الجانب أو ذاك فتلتقي، شأنها في ذلك شأن الذرات التي تبدو في شعاع الشمس. وبانحرافها المستمر والتقائها فانها تركب بالتدريج وتؤلف مادة الأراضي والأقمار

---

(١) The New Encyclepedia Britannica: Vel 8 Article: Epicurus.

(٢) د. هنرى توماس: اعلام الفلاسفة، ص ١٥٥ – ١٥٦.

والنجوم وعوالم الكون (١) . لا شيء — عند أبيقور — يوجد من عدم ولا شيء ينتهي الى عدم. فالكون كان وما يزال وسيبقى دائماً هو الكون، ولا شيء يوجد خارج نطاق الكون او في داخله قادر على التأثير فيه أو التغيير في مجرى احداثه.

ويتألف الكون من اقسام وفراغ، يستدل على وجود الأجسام بالملاحظة الحسية، في حين يستدل على وجود الفراغ بالعقل. فإذا لم يكن الفراغ موجودا اذن فكيف يكون بمقدور الأجسام ان تتحرك بالصورة التي نشاهدها. والأجسام تكون بطبيعتها مركبة من الذرات التي هي الأجزاء الغير قابلة للتجزئة أو التغير، وأي جسم في الكون، هو عبارة عن تألف مجموعة من الذرات ينتهي عندما تتحالل الذرات .. المؤلفة له، غير ان هذه الذرات لاتذهب الى العدم، بل انها تبقى موجودة في الكون لتتألف مرة أخرى في مركبات جديدة، أو بالأحرى في اجسام جديدة ... وهكذا. ويقرر أبيقور بشكل واضح لا نهائية الكون، ويأتي بالدليل العامي المنطقي التالي ... فيرى ان لكل شيء نهائي نهاية تمكن ملاحظتها بالقياس الى اشياء اخرى، وبما ان من المستحيل ملاحظة أي نهاية للكون يمكن ملاحظتها بالقياس لأشياء اخرى، لان هذه الاشياء الاخرى حتى لو وجدت فانها ستكون داخل نطاق الكون نفسه، اذن فلابد ان يكون الكون لا نهائياً . كما يقرر أبيقور لا نهائية عدد الذرات ولا نهائية الفراغ الذي تسبح فيه، فيرى ان الذرات لو كانت محدودة .. تسبح في فراغ غير محدود، فانها ستتبعثر في هذا الفراغ اللا محدود ولأنعدمت تقريباً الفرصة امامها للالتقاء والتآلف بغية تكوين الأجسام. هذا من جهة، ومن جهة اخرى، فانه لو كان الفراغ متناهياً والذرات لا متناهية في عددها، اذن لأصبح هذا الفراغ المكان الغير مناسب لوجود هذه الذرات وحركتها فيه، باعتباره مكاناً محدوداً لا يمكن له ان يستوعب عدداً غير محدوداً من الذرات (٢) . ولما كانت الذرات المؤلفة للكون في حركة دائمة مستمرة

---

(١) نفس المرجع : ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٢) The New Encyclepedia Britanniea : Vel. 8 Article: Epicurus.

تتألف مرة في الاجسام لتنحل مرة اخرى، فيستتبع ذلك حتماً ان الكون يسير تدريجياً الى الفناء، وان تكون الارض في النهاية الا كتلة من الرماد البارد سابحة في غير هدف، حيث تستقر على كومة انقاض الأكوان ورمادها (١).

وطبقاً لأبيقور فان كل هذه الحركة التي تقوم بها الذرات تلقائية. فلا تقودها أو ترشدها يد الهية، فقد اعترف ابيقور بوجود الآلهة كمثل عليا للناس يحتذون بها ولكنه انكر ان يكون للآلهة أي دور واية علاقة بتسيير العالم الذي نعيش فيه او هدايته. وقد كان رأيه في هذه المسألة يشبه الى حد كبير رأي الفيلسوف الانكليزي (فرانسيس بيكن ١٥٦١ – ١٦٢٦) الذي اكد بشكل قاطع على الاستقلالية الكاملة للطبيعة وللقوانين الطبيعية عن أي تدخل أو عناية الهية (٢).

نظرية التطور أو النشوء والارتقاء :

لقد حاول ابيقور الاجابة عن السؤال التالي .. كيف حدث أن أدى تجمع هذه الذرات غير الموجهة من المادة الى خلق عالم من الاشجار والازهار والطيور والحيوانات والبشر ؟ وما نوع هذه العملية التي جعلت الذرات توفق من خلالها في ان تخرج الى حيز الوجود عالماً مثل ديمقريطس أو فيلسوفاً مثل أبيقور؟ فقال أبيقور ان ذلك يتم بجهل ودون قصد عن طريق المحاولة والخطأ ، خلال تطور المادة التدريجي من الأشكال الأولية الى الأكثر تطوراً، خلال التخلص الطبيعي من غير الصالح والابقاء على الأصلح. وقصارى القول: خلال عملية النشوء والارتقاء (٣) . ان الوصف الذي قدمه أبيقور لحركة الذرات كان يختلف الى حد ما عن الوصف الذي قدمه ديمقريطي. فالذرات عند أبيقور لا تتحرك دائماً بخطوط متوازية كما كانت عند ديمقريطي. بل انها تنحرف احياناً لتلتقي مع بعضها البعض مكونة اجساماً. بحيث استطاع أبيقور – بعد هذا التعديل في نظرية ديمقريطس – ان يضع الاسس أو المبادىء لنظرية التطور لألفين ومائتي عام

(١) د. هنري توماس : اعلام الفلاسفة ، ١٤٨ .
(٢) د. قيس هادي احمد: نظرية العلم عند فرانسيس بيكن ، ٦٢٦ – ٧٠ .
(٣) د. هنري توماس : اعلام الفلاسفة ، ١٤٩ .

قبل (تشارلس داروين ١٨٠٩ – ١٨٨٢) لقد جارى أبيقور ديمقريطس في ان الذرات كانت منذ الأزل تسير كلها في خطوط متوازية في زمان لا متناهٍ الا انه افترض ان بعض هذه الذرات لم تستمر في حركتيها هذه، بل انها انحرفت عرضاً عن مساراتها المتوازيـة، واصطدمت بعضها البعض . وقد أدى هذا الحادث العارض الى بدء التطور (١) .

يعلن أبيقور ان الذرات في حركتها الدورية اللانهائية تعرضت لشتى انواع التركيب والتحليل، حتى التقت في النهاية واتحدت مكونة ما نسميه بـ(العالم). وفي البدء لم تكن ارضنا الا كتلة من المادة لا حياة فيها. ولكنها بدأت تخرج بالتدريج الحشائش والشجيرات والأزهار، ثم لم تلبث ان ظهرت الحياة الحيوانية وأخذت الطيور تطير في الجو والحيوانات تجوس خلال الغابات. وقد تكيفت بعض هذه الفصائل لبيئاتها، وامكنتها ان تبقى وتعيش، اما نتيجة لجرأتها أو لدهائها . على حين تخلقت فصائل اخرى تعاني من نقص في البصر، أو السمع، أو وسائل التنقل والحركة، ولم تكن تلك الفصائل الا فلتات من الطبيعة، بل ضحايا تجربة عمياء في عالم لاخطة له . وهكذا كان مآلها الانقراض. اما الانسان – وهو الممثل الأول في هذه المسرحية التي لم يشترك في اعدادها – فكان آخر من ظهر على مسرح الاحداث. وقد كان جسورا همجيا عاريا في انحاء الأرض، شأنه شأن الحيوانات الأخرى، يعيش على الأعشاب والفواكه وثمار البلوطة وينام ليله في الحقول وفي العراء .

وبعد فترة من الزمن اضطر ان يتخذ من الكهوف مأوى له عندما وجد ان الحيوانات الأكثر ضراوة منه تهاجمه. ثم استتبع تجمع عدد كبير من الآدميين الوحوش في قطيع يعيش في كهف واحد لدفع الأذى المشترك. واستتبع ذلك تطورا تدريجيا في الكلام والعواطف ومشاعر الصداقة البدائية الغير ناضجة. ولما رأوا صوراً غريبة في احلامهم اضفوا على هذه الصور صفات فائقة وقوى خارقة وحياة ابدية، وبدأوا يتخيلونها الهة ثم يعبدونها .

---

(١) دانز رايشنباخ : نشأة الفلسفة العلمية ، ٧٧.

وشيئا فشيئا تعلموا كيف يقفون ممدودي القامات، وتحولت ارجلهم الأمامية الى اذرع، وأخذوا يكتشفون كيف يمكن استعمال المعدن في صناعة الآلات والأسلحة. وهكذا اصبحوا اكثر قدرة على حماية انفسهم وقتل اعدائهم. وبدأت بعض الجماعات تتبادل البضائع والأفكار، بل واللطمات مع جماعات اخرى. وبهذه الطريقة تعلموا شيئا فشيئا فنون المقايضة والتجارة والملاحة والزراعة والشعر والموسيقى وهندسة البناء والسياسة والحرب.

قصارى القول يريد ابيقور القول بأن المدنية ما هي الا عملية نشوء وارتقاء، تمكن الانسان من ان يكيف نفسه لعالم غير مضياف، ويعيش لفترة قصيرة في صراع ابدي من اجل البقاء، وليست الحياة كلها الا قتالا متواصلا لا هدنة فيه لأحد بالموت (١).

الأخلاق الطبيعية :

هنالك اعتقاد قديم بوجود علاقة بين تطور العقل وتطور (الاخلاقية)، وكان سقراط أول من رسم الخطوط الأولى للرأي الذي يقول (لا أحد سيىء بأرادته)، وقد كان هذا بداية لمحاولات دؤوبة من اجل انشاء اخلاقية علمية. وبتعبير آخر طبيعية. فما دام أي تطور للعقل واي نمو في مداركه يؤدي الى تطور ونمو لأخلاقية الانسان، وما دام أي انسان ليس سيئا بطبيعته، بل ان جهله بطبيعته وبالعالم المحيط به هو المسؤول عن لا اخلاقيته، اذن فما احرى بالانسان من أن يزيد في معرفته عن الطبيعة .. سواء في ذلك طبيعة عالمنا، أو طبيعة الانسان. وقد كان ابيقور في ارائه الاخلاقية قريباً الى حد كبير من اصحاب الرأي الذي يقول بأن الانسان خير بطبيعته وان المعرفة العلمية هي خير وسيلة لتأكيد هذه الخيرية والتخلص من أي شوائب للشر عند الانسان (٢).

(١) د. هنري توماس : اعلام الفلاسفة، ص ١٤٩ - ١٥١.
(٢) فرانسو غريغوار : المذاهب الاخلاقية الكبرى، ٢٥.

لقد كان ابيقور واقعيا في بناء الأسس الأخلاقية. وهكذا أقر اللذة — الحسية لأن الانسان كالحيوان من حيث انه تغلب لذته منساقا بفطرته ، وان سخر عقله لتهيئة الوسائل المؤدية اليها، واعتبر كل لذة خيرا ما لم تقترن بألم فتصبح من أجل هذا شرا ، بل رأى ان الألم اذا نجمت عنه لذة وجب طلبه، وفي ضوء هذا توخى اللذة التي تدوم طوال الحياة ، اى انه دعا الى الحياة السعيدة ، ومن اجل هذا رأى ان يحرص الانسان على الا تستعبده رغبة شخصية او لذة فردية، وواجب عليه ان يسيطر على شهواته ويتحكم في اهوائه، وان يتخلى عن اللذة متى أدت الى الم يكبر وان يحتمل الألم من اجل لذة يتوقعها من وراء احتماله .

لهذا اثر ابيقور اللذات الروحية والعقلية على لذات الحس ، لأن الجسم يحس باللذة والألم مابقينا ، ولا يستطيع ان يذكر اثارهما بعد انتهائهما، ولا ان يتوقع حدوثهما في المستقبل. ان العقل هو الذي يستطيع ان يذكر ما مضى وان يتصور ما هو آت . من اجل هذا وجب ان ننشد طمأنينة العقل ، ففي وسع العقل ان يخفف حدة الألم الجسماني بتذكر المتعة الماضية او توقع اللذة المقبلة (١)

لم تكن فلسفة ابيقور الا محاولة للتخلص من الألم والتحرر من الخوف من الموت خلال تقبلنا للعيش في كون مادي . وقد تأثر بهذه الفلسفة الكثير من الفلاسفة المحدثين والمعاصرين من مثال (جون ستيوارت مل ١٨٠٦ — ١٨٧٣) . .. (وعمانوئيل كانت ١٧٢٤ — ١٨١٤) و (شوبنهاور ١٧٨٨ — ١٨٦٠) و(برتيراند رسل —٨٧٢— ١٩٧٠) .كما دفعت هذه الفلسفة حتى الفيلسوف الكاثوليكي (سانتيانسا ١٨٦٣ — ١٩٥٢). الى ملاحظة ان ابيقور قد نادى (بما يمكن ان يعد اعظم فكر وصل اليه الجنس البشري على الاطلاق) (٢) .

---

(١) د. توفيق الطويل : فلسفة الأخلاق ، ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) د. هنرى توماس : اعلام الفلاسفة ، ص ١٥٦ .

والواقع فان ابيقور يعتبر من الفلاسفة الذين حاولوا اعادة صياغة الفكر الفلسفي ، بحيث يمكن تقييم الدور الذي قام به في هذا المضمار بأنه كان شبيها بالدور الذي قام به كل من (أوكست كونت ١٧٩٨ – ١٨٥٧) و (هربرت سبنسر ١٨٢٠ – ١٩٠٣) (١) .

---

(١) Nerman Wentwerth De witt:Epicurus & His Philosophy P. 7.

المراجع العربيـــة :

(١) أحمد (د. قيس هادي) : نظرية العلم عند فرانسيس بيكن. رسالة ماجستير (جامعة القاهرة، ١٩٧٥) .

(٢) الطويل (د. توفيق) : اسس الفلسفة (دار النهضة العربية. القاهرة، ١٩٧٦) .

(٣) الطويل (د. توفيق) : فلسفة الأخلاق (دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦) .

(٤) توماس (د. هنري) : اعلام الفلاسفة. ترجمة متري امين. مراجعة وتقديم د. زكي نجيب محمود. (دار النهضة العربية. القاهرة، ١٩٦٤).

(٥) رايشنباخ (هانز) : نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة د. فؤاد زكريا (دار — الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧) .

(٦) سارتون (جورج) : تاريخ العلم (الجزء الثالث). ترجمة د. توفيق الطويل (وآخرون)، اشراف د. ابراهيم بيومي مدكور (وآخرون) . (دار المعارف بمصر — القاهرة ١٩٧٠) .

(٧) غرغوار (فرانسوا) : المذاهب الأخلاقية الكبرى، ترجمة قتيبة المعروفي (منشورات عويدات — بيروت ١٩٧٠) .

المراجع الأجنبيـــة :

(١) The New Encyclepedia. Britannica:William Bevten, Publisher londen, Geneva, 1974.

(٢) Wentworth De Witt (Nerman):Epicurus & His Phileseph Univeraity of Minneseta Press Minneapelis 1964.

دراسة تجريبية عن أثر بعض المتغيرات على عملية التذكر

الدكتور خمد مهدي محمود
كلية الآداب / الجامعة المستنصرية

الفصل الاول

تعريف الذاكرة

لعل من القصور الذي لايزال علم النفس يعاني منه، هو عدم وجود نظرية متكاملة تفسر طبيعة عمل الذاكرة. ويبدو هذا واضحاً عند استعراض البعض من التعاريف الذي تناولت الذاكرة.فبعض التعاريف تؤكد على ان الذاكرة هي «الوظيفة او الوظائف العقلية التي تعمل على احتفاظ المرء بآثار خبرات الماضي واستعادتها او الانتفاع منها فيما بعد، سواء على المستوى الشعوري او اللاشعوري (١١، ص٢٩٣)، او هي «القدرة على الاحتفاظ بما مر بالفرد من الخبرة المتعلمة» (٥، ص٥١٥) او «العملية العقلية التي يتم بها تسجيل وحفظ واسترجاع الخبرة الماضية» (٧. ص٢١٥). او الخاصية التي تسجل الخبرات السابقة وتحتفظ بها وتسترجعها في المستقبل، وهي الاساس في عملية التعلم (١٢، ص١٦٨)، او انها «الاثر الذي تتركه الخبرات الراهنة، هذا الاثر، أي الذاكرة، يؤثر في الخبرات المقبلة» (٨، ص٢٦٨) او انها الاثر الباقي من الماضي (٣، ص٧). أو

هي القدرة على خزن المعلومات القادمة مـن البيئة المحيطة واستعادتها ، وهذه المعلومات هي مجموع انطباعات البيئة ـ الحسية واللغوية ـ التي تسجل على صفحة المخ على نسق تسجيل الاصوات على شريـط مسجل (٩، ص ٦).

طبيعة الذاكرة

ان الاختلاف في تعريف الذاكرة موجود ايضاً في تحديد طبيعة الذاكرة والمكان والكيفية الذي تخزن فيها الاستجابات المكتسبة، حيث يشير بعض العلماء الى ان الذكريات مخزونة في خلايا المخ لان الادراك يترك اثراً في هذه الخلايا فاذا حدث تأثير جديد انبعث ذلك الادراك القديم.

كما يعتقد علماء آخرون ان لحاء المخ هو المكان الذي تحدث فيه الارتباطات العصبية التي تسببها الخبرات والمعلومات التي تكون على شكل انطباعات وتصورات ذهنية تعرف بآثارالذاكرة (٧، ص٢١٦) .

وهناك وجهة نظر شائعة تؤكد على ان خزن المعلومـات يتم في الوصلات العصبية، وهي نسيج مجهري بين كل حجيرتين عصبيتين .

وقد ثبت ان بعض التفاعلات الكيميائية التي تجري في الوصلة العصبية تؤدي الى منع الباعث العصبي (تيار كهربائي) من المرور من خلية عصبية الى خلية اخرى، كما ان بعض التفاعلات تسهل مرور التيار. وتشبه الوصلة العصبية Syuapses المفتاح الكهربائي الذي يفتح الدورة الكهربائية او يغلقها . ويعتقد بعض العلماء ان الوصلة العصبية هي المكان الذي تختزن فيه المعلومات (٢ ، ص ٣٠٥)

كما ان هناك وجهة نظر اخرى تؤكد على وجود علاقة بين الحامض النووي RNA الموجود في كروسومات الخلايا العصبية وعملية التذكر ، حيث يقوم باستقبال الانطباعات البيئية ويختزنها ويحتفظ بها لاعادتها عند الحاجة (٩ ، ص٦٦) ومن التجارب الكثيرة التي اجريت في هذا المجال. تجربة دربت فيها مجموعة من الفئران على تعلم استجابة الوصول الى غرفة الهدف بدون اخطاء في متاهه.

ثم نقل الحامض النووي الموجود في الخلايا العصبية الى مجموعة ثانية لم تتعلم هذه الاستجابات. ثم اجري اختبار للمجموعة الثانية، فوجد ان الاستجابات التي تعلمتها المجموعة الاولى قد انتقلت للمجموعة الثانية رغم انها لم تتعلمها من قبل، كما ان المجموعة الاولى قد نسيت الكثير مما تعلمته.

وهناك وجهة نظر اخرى حديثة نسبياً تشير إلى ان خزين المعلومات يتوزع توزيعاً عاماً ، وان الجهاز العصبي باجمعه يشترك في تحليل المعلومات وخزنها ، والدليل على ذلك من وجهة نظرهم. هو ان اصابة الدماغ في موضع معين يؤدي إلى ضياع جزء معين من المعلومات (٢، ص٣٠٧) .

ان ما تقدم من وجهات نظر هي فسيولوجيه بحته، وتعتبر في الغالب حصيلة البحوث التي تناولت فسلجة الجهاز العصبي ، ورغم اهمية الادلة التي تسوقها هذه البحوث، إلا انها لم تقطع في كثير من جوانب الذاكرة، هذا اضافه إلى الاختلافات فيما بينها. مما سمح بطرح وجهات نظر اخرى من قبل المشتغلين في علم النفس . حيث يرون ان الجانب الفسيولوجي هو الجانب الاساسي، الا انه لايمكن ارجاع الذكريات إلى رسوم منطبقه في المخ فقط، حيث يقول برغسون على سبيل المثال انه اضافه إلى الذاكرة الحسيه الحركيه التي يمكن تفسيرها من خلال وجهة النظر الفسيولوجية، فان هناك ذاكرة نفسيه محضه تتمثل الماضي وتستحضره بطريقة قد تختلف عما اكتسبته. وهي محفوظه في اللاشعور ولاتعود إلى الشعور إلا عند الحاجة. اما الطريقه التي تنتقل فيها الذكريات إلى الفعل. فيشير برغسون إلى ان ذلك يتم بواسطة المخ باعتباره المصفاة التي تصفي الذكريات الضرورية للفعل الحاضر. ان وجهة النظر هذه هي الاخرى يمكن توجيه النقد اليها. فهي لم توضح كيف تختزن المعلومات. لان نظرية اللاشعور غير محددة المكان . (٤، ص٤٥) .

الواضح انه لاتوجد وجهة نظر متفق عليها تحدد طبيعة عمل الذاكرة والمكان الذي تختزن فيه المنبهات. والباحث يرى ان هذه القضيه ليست اساسية بالنسبة لعلم النفس وانما الاهم هو التحديد الدقيق للسلوك المرتبط بهذه العملية العقليه، وبالاخص التنبؤ به في المواقف المختلفة .

انواع الذاكرة

تقسم الذاكرة الى انواع مختلفة، ولكن في الغالب يكون التقسيم وفقاً للنشاط النفسي لها، مثل الذاكرة الحسيه التي تحتوي على الذاكرة البصريه والذاكرة السمعيه والذاكرة اللمسيه ..الخ ،وكذلك الذاكره اللفظيه والحركيه والانفعاليه ،وتقسم ايضاً وفقاً لنوع النشاط، ذاكرة ارادية واخرى غير ارادية، (٧،ص٢١٩ — ٢٢١). وكذلك ذاكرة اجتماعيه واخرى فصميه . وايضا تقسم في ضوء الاستمراريه في الاحتفاظ بمادة التذكر، حيث يشير Kagan إلى ان هناك ثلاثة نظم للذاكرة هي :

١ — نظام الاثر :

وهو المتبقي من المعلومات المرسله إلى الدماغ من حاسه معينه، ويكون على شكل احساس بالتذكر، والاحساس بتسجيل المعلومات من البيئة ثم ينتقل قسم منها بعد ذلك إلى الذاكرة قصيرة المدى (١٣، ص٩٨) ان الفترة الذي تدوم فيها المعلومات في الاثر لاتتعدى ثانيه ونصف إلى ثانيتين ، ومن الممكن ادراك الاثر من الخبره الخاصه، فنحن حين نطفىء التلفزيون يبقى بعضنا يرى الصورة لفتره قصيرة رغم اختفائها، ان الكثير منا مر بهذه الخبره ،وهي صورة داخليه للتثنيه، ويشير سبيرلنك من تجربة اجراها على مجموعة من الافراد عرض عليهم (٢٠) حرفاً في لمح البصر ، وبعد ذلك طلب منهم تذكرها ، ان الفرد يتذكر من ٤ الى٥ حروف من الا (٢٠) حرفاً الذي عرض (٢،ص٢٧٣) .

٢ — الذاكرة قصيرة المدى

يفترض بروذبينت ان هناك شيئاً يشبه الغربال في عمله يتوسط بين الاثر والذاكرة قصيرة المدى، وهو مهيّأ ليسمح بدخول بعض المعلومات إلى هذه الذاكرة ، وتكون هذه المعلومات، عادةً، ذات اهميه للفرد، فنحن نستطيع التقاط اسمائنا ضمن مجموعه كبيرة من الاصوات، ونحن نستطيع

ايضاً التفاهم وسط محطة تعج بالاصوات من دون ان تؤثر علينا ، ونسمع صوت محدثنا فقط دون الاهتمام بالاصوات الكثيرة الاخرى (٢، ص٢٧٧)؛ منهاولعل من الدراسات التي استنتج منها وجود الذاكرة قصيرة المـــدى تلك التي قام بها ادمز Adsm ١٩٦٩ وبرودبينت ١٩٧١، حيث قام كل منهما بجمع التقارير الصحيه لاولئك الافراد الذي اصيبوا بورم في الدماغ او الذين اجريت لهم جراحه، ووجد من تحليل هذه التقارير ان هؤلاء غير قادرين على ادخال المعلومات الجديدة إلى الذاكرة بعيدة المدى، في حين لايجدون صعوبة في تذكر المعلومات القديمه اى قبل اصابتهم، فهم يتذكرون الحوادث القديمه بكل وضوح ولكنهم ينسون الاشياء التي قاموا بها قريباً (١٥، ص٢٤٩)

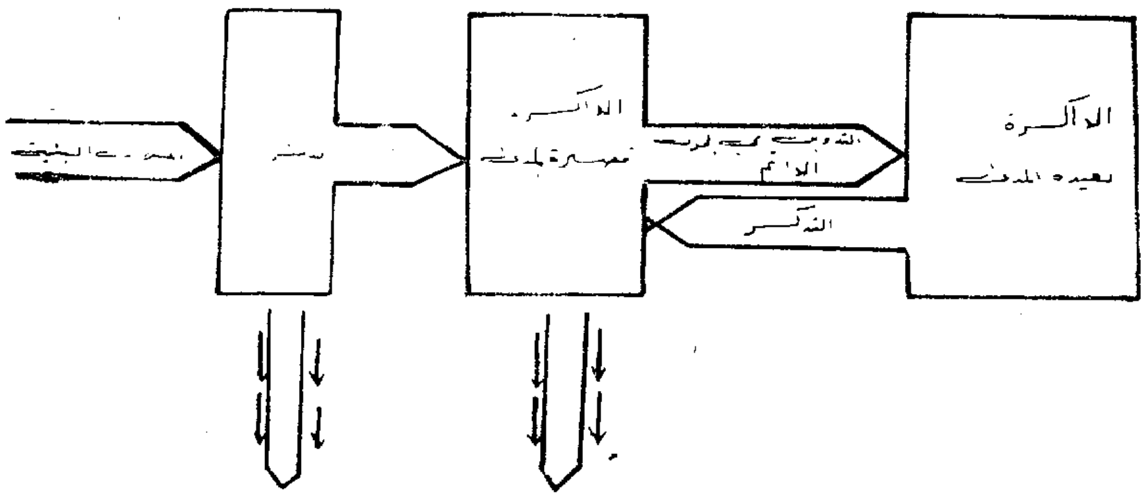
ان وظيفة هذة الذاكرة هي معالجة ظروف الحياة اليوميه التي تتطلب الاحتفاظ بالمعلومات لمده قصيره، والتي ترتبط بالحوادث اليوميه السريعه المعتاده والتي لاتلبث ان تختفي كحفظ رقم او اسم ..الخ . ولا تبقى المعلومات في هذه الذاكره اكثر من (٣٠) دقيقة تقريباً .

٣ ـ الذاكره بعيدة المدى

تختزن المعلومات في هذه الذاكره لمدة طويلة خاصة اذا توفرت شروط تساعد على هذا الابقاء كوضوح وتكرار المنبهات المتذكرة ، او زيادة استخدامها ، او اذا اصطبغت بصبغه انفعاليه ، وخاصة اذا كانت هذه الانفعالات ساره . ومن خصائص هذه الذاكرة، ان انتقال المعلومات إليها بطيء للغاية ولا يحدث فجأة وانما بالتدريج .

ويصور Kagan انظمة التذكر التي مرت كما هو في الشكل (١) حيث ينتقل الاحساس بالمنبهات من العالم الخارجي ليسجل لمده قصيره في الاثر، وان البعض من هذه المنبهات ترسل إلى الذاكرة قصيرة المدى، ويفقد القسم الكبير منها ، ومن الذاكرة القصيرة المدى يرسل قسم من المنبهات وهو القسم القليل جداً إلى الذاكره بعيدة المدى ليصبح مسجلاً فيها، ويكون في المستطاع استعادته، اما المنبهات التي لاتنتقل فانها تنسى .

شكل (١) يبين كيفية انتقال واستعادة المنبهات في نظم الذاكره الثلاث (٢، ص٩٩)



المعلومات التي لاتنقل الى الذاكرة بعيدة المدى

المعلومات التي لاتنتقل الى الذاكرة قصيرة المدى

عملية التذكر

يقسم علماء النفس عملية التذكر الى ثلاث مراحل: —

١ ــ أ مرحلة الاكتساب Aquisition

ان الاكتساب هو عملية تعلم او استقبال المنبهات المختلفة بواسطة النهايات العصبية الموجودة على سطح الجسم، وهي الخطوة الاساسية في التذكر. اذ انه لايمكن تذكر شيء لم يسبق للشخص اكتسابه. كما ان مانتذكره يتوقف على طريقة اكتسابه، هذا وان لكل فرد مدى للاكتساب وطاقة محددة للتعرض للمثيرات.

ويتأثر مدى الاكتساب بعوامل كثيرة منها ذكاء الفرد وسنه وصحته ونضجه وينخفض الاكتساب إلى ادنى حد عند المصابين بالفصام والاكتئاب، فيكون المريض منصرفاً عما حوله مستغرقاً في ذاته لدرجة تفقده الاهتمام والانتباه المتواصل وتلهيه عن اكتساب ما يمر به من خبرات (١١، ص٢٩٤)

٢ ـ مرحلة الاحتفاظ Retention

هو حفظ الخبرات السابق تحصيلها وابقاؤها كامنة لحين الحاجة الى الانتفاع بها، وهي الفترة التي تنقضي بين اكتساب الموضوع واستعادته مرة اخرى ، وتتطلب هذه العملية سلامة الجهاز العصبي ، وتتأثر بالتعب وسموم الامراض والعوامل الوجدانية الشديدة واصابة الدماغ وامراضه ، كتصلب الشرايين وضموره في سن متأخرة وغير ذلك من الحالات التي تؤدي الى النسيان بعد التحصيل (١١ ، ص٢٩٥).

٣ ـ الاسترجاع

هناك نوعان من الاسترجاع هما الاستدعاء Recalling والذي يعني استعادة للخبرة السابقة كما استقرت في الذهن ، وفي الغالب يكون ما نستدعيه اقل من المكتسب ويكون محرفاً عنه (١ ، ٣٦٥). وتتوقف سهولة الاستدعاء على قوانين التداعي وهي التكرار ، فما يكثر حدوثه في الحياة اليومية يسهل استدعاؤه وكذلك الحداثة فالحوادث القريبة اسهل استدعاءاً من الحوادث التي حدثت في الماضي البعيد. وكذلك الشدة فالحوادث الهامة والصيغ القوية يسهل استدعاؤها (١١ ، ص٢٩٥).

وقد بينت الدراسات ان مشاكل النسيان هي مشاكل الاستعادة وهذا يعني ان المعلومات قد تختزن ، ولكن لايمكن استعادتها من جهاز الذاكرة ، ويوحي هذا بأن ماكنز من خزن المعلومات هو غير ماكنز من البحث عنها واستعادتها وهذا قد يلقي الضوء على مشكلة عدم قدرة المسنين على استعادة الخبرات القريبة نسبياً فالمشكلة هنا هي تدهور ماكنز من البحث عن المعلومات واستعادتها وليس كما يعتقد في ان هؤلاء غير قادرين على استيعاب المعلومات. (٢ ، ص٣١١) .

وقد تتعطل عملية التذكر لاسباب عضوية كاصابة الدماغ وامراضه واسباب نفسية . مثل كبت الذكريات المؤلمة غير المرغوب فيها او نسيان ذكريات ترتبطها صلة بذكريات مكبوتة. وفي الحالات النفسية المؤدية للنسيان غير الشعوري

(الكبت) قد يسترجع الشخص هذه الذكريات في حالة التنويم او التخدير، فهو نسيان ظاهري بخلاف النسيان العضوي فهو نسيان مستديم (١١، ص٢٩٥)؛

وقد بينت بعض الدراسات، ان المعلومات التي تختزن في الذاكرة توضع تحت صنف معين من المعلومات التي تم تعلمها، وان استعادتها تكون اسهل حينما يتم البحث تحت هذا الصنف نفسه. وهذا يقودنا الى استنتاج هو ان احد اسباب الفشل في استعادة الخبرات قد يرجع الى انها قد خزنت بالذاكرة بعيدة المدى بشكل مشوش وفوضوي لا يسمح بايجادها بسهولة (٢، ٣١٣).

اما التعرف Recovnition او التذكر بالتعرف فيعني ان المثير موجود ويقوم الفرد باستعادة الخبرة المرتبطه به. ورغم ان التعرف اسهل من الاستدعاء لكنه يحصل التحريف بالتعرف ايضاً، وكذلك هناك نوع من التعرف يسمى بالتعرف الكاذب، فكثيراً مايحصل ان نسمع منبهاً او نشاهد مكاناً ونعتقد اننا سمعنا او شاهدنا ذلك قبلاً ولكن الحقيقه غير ذلك.

آليات عمل الذاكرة

تجمعت حقائق كثيره عن طبيعة عمل الذاكرة من الدراسات والتجارب التي اجريت خلال فتره طويلة، ولعل بافلوف من الاوائل الذين تناولوا آليات عمل الذاكرة وخاصة الاساس الفسيولوجي، حيث يشير إلى ان المنبهات البيئية تترك أثاراً في الدماغ تبقى فيه بعد أن تزول هذه المنبهات، وهي اما صور ذهنيه Images او آثار لغويه يتم الاتصال بينهما، كما في المثال التالي: عندما ينظر الشخص إلى شيء مادي (شجرة، انسان ...الخ) فان هذا المنبه يترك اثراً او صوراً ذهنيه بصريه في المركز المخي البصري الذي يقع في النصفين اللذين يقعان في القسم الخلفي من المخ وعندما يقرأ الكلمة الدالة على المنبه المادي، فان انطباعها يحصل على هيئه مدرك عقلي في المركز المخي البصري للكلام المقروء الذي يقع في الفصين اللذين يقعان في القسم الخلفي العلوي من المخ ثم تحصل وصله عصبيه بينهما او ارتباط شرطي مستقر. بحيث ان رؤية الشيء المادي تقترن دائماً وتستثير ايضاً الكلمه الداله عليه (٩، ص٦٤)

كما ان هناك كثيراً من المعلومات التي توصلت ، إليها الدراسات في مجال علم النفس التي القت الضوء على طبيعه عمل الذاكرة منها : —

١ — يتذكر الافراد الاشياء التي اكتسبوها بدافع اكثر مما يتذكرون الاشياء التي يكتسبونها بالصدفه لان الدافع يجعلهم يلمون بالتفاصيل بطريقة جاده ومنظمه (١، ص٣٦٠)

٢ — ان الآثار الانفعاليه التي يتركها المنبه لها اثر في عملية استرجاعه فالمنبهات المشحونه بصبغه انفعاليه تكون اسهل على التذكر .

٣ — في الغالب يتذكر الافراد الاشياء السارة اكثر من تذكر الاشياء غير الساره .

٤ — تلازم الحوادث يساعد على سهولة استرجاعها لان تذكر احداها يؤدي إلى تذكر باقي الحوادث المتلازمه معها سواء كان التلازم زمنياً ام مكانياً (٥، ص٥٢١)

٥ — كلما كان المكتسب ذا معنى كان الاحتفاظ به اقوى وانحداره اقل، بينما يقل الاحتفاظ بسرعة إذا كان المكتسب عديم المعنى ويظل انحداره سريعاً. ولكن التجارب بينت ان فقدان المكتسب كلية امر لا وجود له وانه لابد من بقاء قدر من المكتسب (١، ص ٣٦٣)

٦ — بينت التجارب ان التذكر يكون اقوى اذا عرضت منبهات حسية متمايزة بعضها عن البعض الآخر، كأن تكون مثيرات ضوئية وصوتية . كما بينت تجربة Alan Baddeley ان تذكر الكلمات المتناقضة من حيث اللفظ افضل من تذكر الكلمات المتشابهة في تلفظها. فقد كانت نسبة ما تذكره افراد التجربة للقائمة المتشابهة ٦٠.٦٪ في حين كانت النسبة المتذكرة ٨٢.١٪ من مفردات القائمة المختلفة (١٦، ص ٢٣٦)

٧ — اننا نميل عند التذكر إلى اعادة صياغة الاشياء المعروفة التي تحتوي عناصر غير محددة او غامضة او غير مألوفة، بحيث تعدل ما هو غير مألوف

إلى شيء معروف وينسجم مع الطابع الثقافي والحضاري السائد، وينطبق ذلك على الاشكال والصور، كما ينطبق على ادراك النصوص الادبية (٥، ص ٥١٩).

٨ ـ اننا نضيف كثيراً من التفاصيل عند استرجاع الاشكال التي يمكن تميزها ولكن ليس من السهل تسميتها لقلة التفاصيل فيها ويسمى ذلك بمبدأ الاتضاح (٥، ص ٥١٩)

٩ ـ دلت التجارب ان الافراد لا يعطون وصفاً دقيقاً لما شاهدوه ويحدث ذلك حتى وان اعتقدوا انهم كانوا بالغي الدقة، ويعتقد بعض الباحثين ان هذا التغيير يحدث في الفترة ما بين الاكتساب والاسترجاع. ولكن البعض الآخر يعتقد بان التغييرات تحدث وقت المشاهدة او عند وصفها وليس في الوقت الذي يمر بينهما (١٠، ص ١١٠)

١٠ ـ اننا نهمل التفاصيل التي لا تؤثر في ادراك الاشكال او الصور التي يسهل تمييزها وتسميتها عند تذكرها. (٥، ص ٥٢٠)

١١ ـ ان الذاكرة فعالية ابتكارية لأن المعلومات لا تختزن جميعاً، وقد يتذكر السامع ما يكفي فقط ليجعله يتابع الفكرة الرئيسية. فهو ينسى حرفيات القصة، ولكنه يتذكر الفكرة الرئيسية للقصة وبعض الشخصيات الرئيسية فقط (٥، ص ٥٢٠).

١٢ ـ ان التذكر والادراك عمليتان متقاربتان لا يمكن الفصل بينهما، ويستطيع الفرد ان يتعرف على الاشياء ما دام قد اختزن في ذاكرته عناصر تشبه خصائص الشيء الذي يتعرف عليه، فان لم يتوفر مثل هذا التشابه فإن التعرف على الشيء اقرب إلى المستحيل (٢، ص ٣٠٤).

موقع الدراسة الحالية

يتبين مما تقدم انه رغم اهمية ما اكتشف من حقائق عن الذاكرة إلا أن الكثير من الظواهر ما زال بحاجة إلى الدراسة. كما ان الكثير من المعارف المكتشفة يختلف بعضها عن البعض الآخر. فما زالت الذاكرة لم تحدد بدقة.

ولم يحدد ايضاً مكان خزن المعلومات. كما اختلف في تحديد انواع الذاكرة، وطبيعة كل واحدة منها، وان المعارف عن كيفية اكتساب المعلومات وحفظها واستعادتها مازالت قليلة جداً، وكما يقول Anderson . في الوقت الحاضر هناك العديد من الاسئلة لا يمكن الاجابة عليها بشكل مرضٍ، ليست فقط لاننا لم نتوصل إلى معلومات عن الذاكرة، وانما تكتشف معلومات تتعارض مع اشياء نعرفها ونعرف انها صحيحة (١٤، ص ٤٤٧).

ان ما تقدم من قصور يرتبط جزء منه بحد ذاته بدراسة الذاكرة . كما قد يرجع جزء منه إلى اختلاف طبيعة الاساس النظري والمناهج المستخدمة في دراسة الذاكرة . حيث نجد فئة من الباحثين تؤكد بأن الذاكرة والعمليات العقلية الأخرى ظواهر بايولوجية فطرية محتمة سلفاً عند الانسان في حين نجد فئة أخرى تشير إلى انها حصيلة البيئة او الاكتساب الاجتماعي، وثالثه تقف موقفاً وسطاً بين الموقف البايولوجي والموقف الاجتماعي . وهناك وجهة نظر اخرى تؤكد ان الذاكرة والعمليات العقلية الأخرى مؤلفة من عنصر دماغي الذي هو اداتها والعنصر الثقافي المكتسب الذي يمدها بمحتواها وتصبح الظواهر العقلية وظائف Functions او عمليات Processes فسلجية . ان المنهج الذي تستخدمه وجهة النظر هذه في دراسة الذاكرة يعتمد على فسلجة وتشريح الاعصاب . كازالة اجزاء معينة من ادمغة الحيوانات . او دراسة الأشخاص الذين اصيبوا او ازيلت اقسام معينة من ادمغتهم ، اضافة إلى عزل الافراد عن مصادر البيئة ...الخ (٩، ٥٧ — ٦٠)

ان الباحث يعتقد ان دراسة الذاكرة في مجال علم النفس ينبغي ان تتناول السلوك المرتبط بالذاكرة عندما تكون في اوضاع تنبيهية مختلفة . وباستخدام المنهج التجريبي، والدراسة الحالية تقع في هذه الحدود .

الفصل الثاني

منهج الدراسة

— اهداف الدراسة

تهدف الدراسه إلى تحقيق مايلي :

اولاً اثر طريقه عرض المنبهات على التذكر من الذاكرة قصيرة المدى وبعيدة المدى .

ثانياً : اثر الدافعيه في تذكر المنبهات من الذاكرة قصيرة المدى وبعيدة المدى .

— فروض الدراسة

لتحقيق هذه الاهداف وضعت الفروض الآتيه :

اولاً : مدى تذكر الكلمات المرئيه (*) من الذاكرة قصيرة وبعيدة المدى اوسع من مدى تذكر الكلمات المسموعه فقط

ثانيا : مدى تذكر الكلمات المرئيه والمسموعه في آن واحد من الذاكره قصيرة وبعيدة المدى اوسع من مدى تذكر الكلمات المسموعة فقط

ثالثا : مدى تذكر الكلمات المرئيه والمسموعه في آن واحد من الذاكره قصيره وبعيدة المدى اوسع من تذكر الكلمات فقط

رابعاً : مدى تذكر المقاطع الصماء المرئيه من الذاكرةقصيرة وبعيدة المدى اوسع من مدى تذكر المقاطع المسموعة فقط .

خامساً : مدى تذكر المقاطع الصماء المرئيه والمسموعة في آن واحد من الذاكرة قصيرة وبعيدة المدى اوسع من مدى تذكر المقاطع الصماء المسموعة فقط .

سادساً : مدى تذكر المقاطع الصماء المرئيه والمسموعة في آن واحد من الذاكره قصيرة وبعيدة المدى اوسع من مدى تذكر المقاطع الصماء المرئيه فقط .

(*) ان الكلمات التي اختير تذكرها في الفروض الثلاث الاولى هي الكلمات ذات المعنى .

سابعاً : مدى تذكر الطلبه الذين يكافأون على تذكرهم للكلمات المرئيه والمسموعة في آن واحد من الذاكرة قصيرة وبعيدة المدى اوسع من مدى تذكر الطلبه الذين لم يكافأوا .

ثامناً : مدى تذكر الطلبه الذين يكافأون على تذكرهم للمقاطع الصماء المرئيه والمسموعه في آن واحد من الذاكرة قصيرة وبعيدة المدى، اوسع من مدى تذكر الطلبه الذين لم يكافأوا .

ـ عينة الدراسة

اختيرت عينتان بشكل عشوائي من مجموع الطلبة في قسم علم النفس ـ كلية الآداب في الجامعة المستنصرية بحيث اشتملت العينه الاولى على (٧٥) طالبا وطالبه وزعت بصورة عشوائيه إلى ثلاث مجموعات ،كل واحدة منها تحتوي على (٢٥) طالباً وطالبه متكافئين تقريباً في العمر والجنس. وقد اختبرت من خلال هذه العينه الفرضيات الست الاولى وذلك لمعرفه اثر طريقه عرض المنبه (سمعي ـ بصري ـ سمعي بصري في آن واحد) واشتملت العينه الثانيه على (٤٠) طالباً وطالبه قسمت بصورة عشوائيه إلى مجموعتين متكافئتين تقريباً في العمر والجنس وكل مجموعة تتكون من (٢٠) طالباً وطالبه عدا كون الاولى وعدت بمكافأة لاشتراكها في تذكر الكلمات والمقاطع الصماء في حين لم توعد الثانيه بشيء.وقد اختبرت من خلال هذه العينه الفرضيتان الأخيرتان لمعرفة اثر المكافأة في تذكر المنبهات من الذاكرة قصيرة وبعيدة المدى جدول (١) .

ـ اجراءات الدراسة

تطلب تحقيق فروض الدراسة اجراء تجربتين كل واحدة منها تحتوي على تجربة فرعيه .

جدول (١) يبين العينتين اللتين اختيرتا لتحقيق فروض الدراسة

	سمعي		بصري		سمعي بصري في آن واحد		المجموع
	ذ	ث	ذ	ث	ذ	ث	
العينه الاولى	١٣	١٢	١١	١٤	٩	١٦	٧٥

	مكافأة		بدون مكافأة		
	ذ	ث	ذ	ث	
العينة الثانية	٨	١٢	١١	٩	٤٠

— التجربة الاولى

١ — ان المتغير المستقل في الفرضيات الست الاولى هو طريقه عرض المنبه للسمع او للمشاعرة او للمشاهده والسمع في آن واحد، وكان المتغير التابع هو مدى التذكر .

٢ — ان ادوات التجربة، هي قائمة للكلمات ذات المعنى واخرى من المقاطع الصماء (المنبهات المطلوب تذكرها). ولاجل اعداد القائمة الاولى اجريت الخطوات التالية

أ — طلب في استفتاء من (٥٠) طالباً وطالبة من قسم علم النفس ذكر (٢٠) كلمة يعتقدون انها كلمات عامة .

ب — اختيرت قائمة من (٢٠) كلمة حصلت على اعلى تكرارات

جـ — وضعت قائمة من (٢٠) مقطعاً اصم .

٣ ــ اجريت تجربة استطلاعية كان الهدف منها حذف الكلمات غير المميزة لدى عينة الافراد وقد مرت التجربة الاستطلاعية بالمراحل الآتية :

أ ــ تعرض قائمة الكلمات ذات المعنى على شاشة من جهاز (هيدبروجكتير) بحيث تعرض الكلمة بشكل منفرد كل ثلاث ثوان بالنسبة للمجموعة التي تشاهد المنبه، وتسمع كل كلمة من القائمة بالنسبة للمجموعة التي تسمع المنبه، وتسمع كل كلمة وتشاهدها في آن واحد لمدة (٣) ثوان للمجموعة التي تسمع وتشاهد المنبه في آن واحد .

ب ــ بعد عشر دقائق يختبر تذكر كل مجموعة ، بان يطلب منها كتابة الكلمات على ورقة. ثم يعاد اختبارها في اليوم التالي.

جـ ــ بعد اجراء التجربة الاستطلاعية عدلت قائمة الكلمات وذلك بحذف الكلمات الغير مميزة ، حيث اكتشف ان كثيراً من الكلمات الموجودة في القائمة هي اسماء لاشياء موجودة في مختبر علم النفس وهو المكان التي اجريت فيه التجربة، مثل: باب، شباك، منضدة ... الخ ولذلك حذفت هذه الكلمات.

٤ ــ اجريت التجربة النهائية بنفس الخطوات التي اجريت فيها التجربه الاستطلاعيه تقريباً

٥ ــ اجريت تجربة المقاطع الصماء باتباع نفس الخطوات التي اتبعت بالنسبة للكلمات ذات المعنى واعتبر اجراء تجربة المقاطع الصماء محكاً لصدق اتجاهات النتائج العامة لتجربة الكلمات ذات المعنى .

ــ التجربة الثانية

١ ــ ان المتغير المستقل في الفرضيتين الاخيرتين هو المكافأه . اما المتغير التابع فهو مدى التذكر .

٢ ــ كانت المكافأة التي وعدت بها المجموعة التجريبية، هي اعطاء درجات اضافية على الدرجات الامتحانية في احدى المواد الدراسية .

٣ ـ اجريت نفس اجراءات التجربة السابقة عدا ان المجموعتين قد عرض عليهما المنبه بنفس الطريقة (سمعي بصري في آن واحد) .

ـ الوسائل الاحصائية

١ ـ استخدم تحليل التباين ٢×٣ للمجموعات المتساوية (٦٠ ص ٢٠٠) وذلك لايجاد الفروق في مدى التذكر عند المجموعات التي استخدمت معها طرق مختلفة لعرض المنبهات (سمعي، بصري، سمعي بصري)، وذلك للتذكر من الذاكرة قصيرة المدى وبعيدة المدى، وايضاً مرة مع الكلمات ذات المعنى ومرة اخرى مع المقاطع الصماء .

٢ ـ استخدمت معادلة «شيف» لمتابعة التباين بين كل مجموعتين للكشف عن اي الطرق في عرض المنبهات افضل للتذكر من الذاكرة قصيرة المدى وبعيدة المدى .

والمعادلة كالاتي

$$\text{ف} = \frac{(\bar{\text{س}}_{1} - \bar{\text{س}}_{2})^{2}}{\left(\frac{\text{ن}_{1} + \text{ن}_{2}}{\text{ن}_{1}\ \text{ن}_{2}}\right)\text{ط}}$$

حيث $\bar{\text{س}}_{1}$ و$\bar{\text{س}}_{2}$ متوسطات حسابية بين المجموعة الأولى والثانية على التوالي وان ن_{1} و ن_{2} عدد مفردات المجموعة الأولى والثانية على التوالي وان ط = متوسط المربعات داخل المجموعات

٣ ـ استخدام تحليل التباين ٢×٢ (٦٠ ص ١٩٦) لايجاد الفروق بين تذكر المجموعتين في التجربة الثانية التي حصلت احداهما على مكافأة والتي لم تحصل الأخرى على المكافأة، وذلك من الذاكرة قصيرة وبعيدة المدى، وايضاً مرة مع الكلمات ذات المعنى ومرة أخرى مع المقاطع الصماء .

- **تعريف المصطلحات**

١ ـ مدى التذكر : كمية المنبهات التي يمكن للفرد ان يكتسبها بالتعرض لها مرة واحدة ويستعيدها كما هي غير منقوصة (١، ص ٣٦١). هذا وقد التزم بهذا التعريف حرفياً عند تحليل نتائج الدراسة حيث لم تعتبر الكلمة او المقطع متذكراً إلا بعد أن يكون التذكر كلاماً بدون تحريف.

٢ ـ الذاكرة قصيرة المدى : وهي الذاكرة التي يبقى فيها المنبه فترة لا تزيد عن (٣٠) دقيقة كما اشارت إلى ذلك الدراسات في الاطار النظري، وقد التزم الباحث بذلك في دراسته الحالية .

٣ ـ الذاكرة بعيدة المدى : وهي الذاكرة التي تبقى فيها المنبهات اكثر من نصف ساعة .

٤ ـ الذاكرة : هي العمليات التي تتوسط بين امتصاص المعلومات واستعادتها فيما بعد .

الفصل الثالث

نتائج الدراسة

اولاً : المقدمه

احتوت التجربة نوعين من المنبهات . قائمة كلمات ذات معنى وقائمة مقاطع صماء، وقد عرضت في ثلاث طرق، عن طريق السمع — البصر — السمع والبصر في آن واحد . واختبر تذكر المفحوص بعد عرض المنبه بعشر دقائق، واعتبرت استعادته للمنبه بعد هذه الفترة الزمنيه على انها من الذاكرة قصيرة المدى باعتبار ان المنبهات في هذه الفترة لا زالت في هذه الذاكرة ولم تنتقل إلى الذاكرة بعيدة المدى كما اختبر تذكر المفحوص في اليوم التالي واعتبرت استعادته للمنبه على انها استعادة من الذاكرة بعيدة المدى باعتبار ان هذه المنبهات قد انتقلت اليها

وقد اظهرت النتائج كما هو موضح في الجدول (٢) ان عدد الكلمات او المقاطع الصماء التي يتذكرها المفحوصون من الذاكرة قصيرة المدى اكثر من التي يتذكرونها في اليوم التالي . مهما كانت طريقة عرض هذه المنبهات سمعية كانت ام بصرية ام سمعية بصرية في آن واحد .كما بينت النتائج ايضاً ان المفحوصين الذين عرضت عليهم الكلمات والمقاطع عن طريق البصر وسمعوها في آن واحد قد تذكروها اكثر من المفحوصين الذين شاهدوا هذه المنبهات فقط او الذين سمعوها فقط. هذا وان الذين شاهدوا المنبهات تذكروها اكثرمن الذين سمعوها فقط. سواء كان ذلك من الذاكرة قصيرة المدى او الذاكرة بعيدة المدى .

إن الفرق في متوسط نسيان الكلمات ذات المعنى والمقاطع الصماء خلال الفترة بين اختبار التذكر بعد عشر دقائق من عرض المنبهات وبين تذكرها في اليوم التالي قليل وهو لصالح المقاطع الصماء. حيث انخفض متوسط تذكر الكلمات ذات المعنى ١,٠٨ في المجموعة التي سمعت المنبه فقط و ٢,٢٠

جدول (٢) يبين متوسطعد د الكلمات ذات المعنى والمقاطع الصماء التي تذكرها المفحوصين من الذاكرة قصيرة المدى و بعيدة المدى.

طريقة عرض المنبه	سمعي				بصري				سمعي بصري			
نوع الذاكرة	المنبهات		المتوسط		المنبهات		المتوسط		المنبهات		المتوسط	
	الكلمات	المقاطع	الكلمات	المقاطع	الكلمات	المقاطع	الكلمات	المقاطع	الكلمات	المقاطع	الكلمات	المقاطع
الذاكرة قصيرة المدى	٢٠١	٨٤	٨,٠٤	٣,٣٦	٢٤٧	١٣١	٩,٨٨	٥,٢٤	٧١٦	١٨٢	١٠,٧٢	٧,٢٨
الذاكرة بعيدة المدى	١٧٤	٥٣	٦,٩٦	٢,١٢	١٩٢	٩٢	٧,٦٨	٣,٦٨	٢٠٧	١٣٠	٨,٢٨	٥,٢
الفرق			١,٠٨	١,٢٤			٢,٢٠	١,٥٦			٢,٤٤	٢,٠٨

للمجموعة التي شاهدت المنبه فقط و ٢,٤٤ للمجموعة التي سمعت وشاهدت المنبه. اما بالنسبة للمقاطع الصماء فكان انخفاض متوسط التذكر على التوالي ١,٢٤، ١,٥٦، ٢,٠٨. وهذه النتيجة تستدعي الانتباه حيث بينت تجارب سابقة الى انه كلما كان المكتسب ذا معنى كان الاحتفاظ به اقوى وانحداره اقل اي نسيانه اقل بعد فترة زمنية بينما يقل الاحتفاظ بسرعة اذا كان المكتسب عديم المعنى ويظل في انحداره بسرعة (١، ص٣٦٤).

ويمكن تفسير النتيجة اعلاه على ان استمرار الاحتفاظ بالمنبه ذي المعنى ليست مسألة مطلقة، وانما يزداد الاحتفاظ، اذا كانت هذه المنبهات لها ارتباطات بحاجات الفرد وخاصة اذا كانت مرتبطة بصبغة انفعالية، سارة كانت ام غير سارة. اما خلاف ذلك فانها لا تفرق كثيراً من المقاطع الصماء، وفي بعض الاحيان يحصل العكس، اذ ان تذكر المقاطع الصماء يكون اكبر اذا طلب من المفحوص حفظها او ارتبط ذلك الحفظ بمكافأة.

ثانياً : نتائج تحليل التباين

للتعرف على مستوى دلالة الفروق القائمة في تذكر المنبهات (كلمات ذات معنى ومقاطع صماء) من الذاكرة قصيرة وبعيدة المدى. وكذلك الفرق بين طرق عرض المنبهات (سمعي – بصري – سمعي بصري في آن واحد)، استخدم تحليل التباين (٢×٣) من نمط العينات المتساوية.

أ – علاقة طريقة عرض المنبه بالتذكر

١ – تذكر الكلمات ذات المعنى

اوضحت النتائج وجود فروق لها دلالة معنوية عند (٠,٠١) بين مدى تذكر المفحوصين من الذاكرة قصيرة المدى. ومدى التذكر من الذاكرة بعيدة المدى، حيث بلغت القيمة الفائية المحسوبة (١٥.٦٣) وعند ملاحظة المتوسطات. وجد ان الفرق لصالح التذكر من الذاكرة قصيرة المدى. هذه النتيجة جاءت متفقة تقريباً مع نتائج التجربة الكلاسيكية التي اجراها (ارثر جيتس)

التي بينت فروقاً واضحة بين التسميع الفوري اي بعد الحفظ مباشرة وبين التسميع بعد اربع ساعات. حيث كانت النتيجة لصالح الاول، سواء بالنسبة لحفظ المقاطع ذات المعنى او للمقاطع الصماء (٧، ص ٢٢٦) .

ويمكن الاشارة في هذا المجال إلى نتيجة جانبية من نتائج البحث الحالي، إذ ظهر ان بعض الكلمات او المقاطع المتذكرة في اليوم الاول ليست هي المتذكرة في اليوم التاني، فقد تذكر المفحوصون كلمات ومقاطع جديدة من الذاكرة البعيدة المدى لم يتذكروها من الذاكرة قصيرة المدى .

ان لهذه النتائج تطبيقات تربويه ، فهي توضح للقائمين بالتدريس ان يعرفوا ان مايتذكره التلاميذ بعد عرض الدرس مباشرة لايؤكد انهم اتقنوا المهارة، وسوف يتذكرونه في المستقبل ، كما ان مايتذكرونه في المستقبل قد لايكون بالضبط ماتذكروه بعد عرض الدرس مباشرةً .

كما كشفت نتائج التباين عن وجود فروق لها دلالة معنويه عند مستوى (٠,٠١) في متغير طرق عرض الكلمات ذات المعنى ، حيث بلغت القيمه الفائية المحسوبه (٨,٥).

وعند استخدام طريقة «شيف» لمتابعة التباين بين كل مجموعتين، اي لايجاد اي الطرق هي الافضل. وكما موضح في الجدول السابق، وجدت فروق ذات دلالة احصائية عند مستوى (٠,٠٥) بين تذكر الذين سمعوا والذين شاهدوا الكلمات وبمراجعة المتوسطات وجد ان هذا الفرق لصالح الذين شاهدوا الكلمات. ان هذه النتيجة تتفق مع اتجاه عام في دراسات هذا المجال، تشير إلى ان الصور البصرية هي الأكثر تذكراً واثبت من سائر ضروب الصور الاخرى مما يجعل الادراك البصري هو المهيمن على الانسان.

كما وجد ايضاً فرق ذو دلالة احصائية عند مستوى (٠,٠١) بين تذكر الذين سمعوا الكلمات وبين الذين شاهدوها وسمعوهـا في آن واحد. وبمراجعـة المتوسطات وجد فرق لصالح المجموعة التي شاهدت وسمعت في آن واحد، في

جدول (٣) خلاصة تحليل التباين بين طرق عرض الكلمات من خلال الذاكرة قصيرة وبعيدة المدى .

مصدر التباين	درجة الحرية	متوسط المربعات	القيمه الفائية	مستوى الدلاله
أ ـ الذاكرة (الذاكره قصيرة المدى ، بعيدة المدى)	١	١٣٦	١٥،٦٣	ذو دلالة عند مستوى ٠،٠١
ب ـ طريقة عرض الكلمات (سمعي ـ بصري ـ سمعي بصري)	٢	٥٠،٢	٥،٨	ذو دلاله عند مستوى ٠،٠١
أ.ب	٢	٥٠٩	٥٨،٥	ذو دلاله عند مستوى ٠،٠١
بين الخلايا	١٤٤	٨،٠٧		

حين لم تظهر فروق ذات دلالة احصائية بين تذكر الذين شاهدوا الكلمات الذين شاهدوها وسمعوها معاً . ولكن ملاحظة المتوسطات يتبين وجود فروق لصالح المجموعة الثانية حيث كانت على التوالي (٩،٨٨ ، ١٠،٧٢).

اما بالنسبة لاختبار التذكر في اليوم التالي (الذاكرة بعيدة المدى) فقد تبين عدم وجود فروق ذات دلالة احصائية عند (٠،٠٥) بين المجموعات الثلاثة

جدول رقم (٤) يبين مستوى دلالة الفروق بين تذكر الأفرادالذين عرضت عليهم الكلمات بطرق مختلفة ، وذلك من الذاكرة قصيرة وبعيدة المدى

طرق عرض المنبه	درجة الحرية	القيمة الفائية	مستوى الدلالة * ( )
(الذاكرة قصيرة المدى)			
سمعي وبصري	١	٧,٣٠	ذو دلالة عند مستوى ٠,٠٥
سمعي وسمعي بصري في آن واحد	١	٤١,٦٤	ذو دلالة عند مستوى ٠,٠١
بصري وسمعي بصري في آن واحد	١	١,٥٢	غير ذي دلالة عند مستوى ٠,٠٥
(الذاكرة البعيدة المدى)			
سمعي وبصري	١	١,٧٥	غير ذي دلالة عند مستوى ٠,٠٥
سمعي وسمعي بصري في آن واحد	١	٣,٧٦	غير ذي دلالة عند مستوى ٠,٠٥
بصري وسمعي بصري في آن واحد	١	٠,٧٨	غير ذي دلالة عند مستوى ٠,٠٥

(*) حسب مستوى الدلالة بين كل طريقتين كالاتي :-

(١) حساب قيمة ف

(٢) يرجع إلى قيمة (ف) الجدولية وهي عند مستوى دلالة ٠٥ و بدرجة حرية ٢/٧٣ والتي تتراوح بين ٣,٠٩ - ٣,١٣ .

(٣) تضرب هذه القيمة د (ج - ١) و (ر) هنا هي عدد المجموعات .

(٤) تقارن القيمة التي نحصل عليها في الفقرة (٣) بقيمة (ف) المحسوبة ، وهذا ينطبق على باقي مستويات الدلالة .

ولكن من خلال ملاحظة المتوسطات وجد فرق لصالح تذكر المجموعة التي شاهدت وسمعت في آن واحد ثم للمجموعة التي شاهدت فقط ثم المجموعة التي سمعت حيث المتوسطات على التوالي (٨,٢٨، ٧,٩٨، ٦,٩٦). وقد يرجع سبب ذلك الى ان تعاقب الزمن قد يخفض الفروق في تأثير طريقة عرض المنبه.

٢ ـ تذكر المقاطع الصماء

اوضحت النتائج وجود فروق لها دلالة معنوية عند (٠١و٠) بين مدى تذكر الافراد للمقاطع الصماء من الذاكرة قصيرة المدى والتذكر من الذاكرة بعيدة المدى، حيث بلغت القيمة الفائية المحسوبة (٢٧,٧)

وعند ملاحظة المتوسطات وجد ان الفرق لصالح التذكر من الذاكرة قصيرة المدى. كما بينت النتائج فروق ذات دلالة عند مستوى (٠,٠١) في متغير طرق عرض المقاطع الصماء، حيث بلغت القيمة الغائية المحسوبة (٤٣,٧)

جدول (٥) يبين خلاصة تحليل التباين بين طرق عرض المقاطع الصماء (سمعي، بصري، سمعي بصري في آن واحد من خلال الذاكرة القصيرة وبعيدة المدى.

مصدر التباين	درجة الحرية	متوسط المربعات	القيمة الغائية	مستوى الدلالة
أ ـ الذاكرة (قصيرة، بعيدة المدى)	١	٩٧	٢٧,٧	ذو دلالة عند مستوى ٠,٠١
ب ـ طرق عرض الكلمات (سمعي، بصري، سمعي بصري)	٢	١٥٣	٤٣,٧	ذو دلالة عند مستوى ٠,٠١
أ، ب	٢	٥٢	١٤,٩	ذو دلالة عند مستوى ٠,٠١
بين الخلايا	١٤٤	٣,٥		

وعند استخدام طريقة (شيفه) لمتابعة التباين بين كل مجموعتين لايجاد اي الطرق افضل، وكما هو موضح في الجدول (٦) وجد عند اختبار التذكر من الذاكرة قصيرة المدى، فروق ذات دلالة احصائية عند مستوى ٠٫٠١ بين تذكر الذين سمعوا وبين الذين شاهدوا المقاطع الصماء، وبمراجعة المتوسطات، تبين ان الفرق لصالح الذين شاهدوا المقاطع، ووجد مثل هذا الفرق ايضاً بين تذكر الذين سمعوا وسمعوا وشاهدوا المقاطع في آن واحد. ولصالح المجموعة الثانية. كما وجد مثل هذا الفرق ايضاً بين تذكر الذين شاهدوا والذين شاهدوا وسمعوا المقاطع في آن واحد .

اما بالنسبة لاختبار التذكر من الذاكرة بعيدة المدى، فقد وجدت فروق ذات دلالة معنوية عند مستوى ٠٫٠١، بين الذين سمعوا وبين الذين سمعوا وشاهدوا المقاطع في آن واحد ولصالح الاخيرة. كما وجدت فروق ذات دلالة ايضاً عند مستوى ٠٫٠٥ بين تذكر الذين شاهدوا والذين شاهدوا وسمعوا في آن واحد، ومن ملاحظة المتوسطات، تبين ان الفرق لصالح الاخيرة ايضاً .

في حين لم تظهر فروق ذات دلالة عند مستوى (٠٫٠٥) بين تذكر الذين سمعوا وبين الذين سمعوا وشاهدوا ولكن قيمة (ف) عالية وتقارب مستوى الدلالة ،حيث بلغت (٥٫٧١) في حين بلغت القيمة الجدولية بعد مضاعفتها (٦٫١٨)، ومن ملاحظة المتوسط يتبين ان الفرق لصالح الذين شاهدوا المقاطع كما موضح ذلك في الجدول (٦) .

الواضح ان الاتجاه العام لنتائج تذكر المقاطع الصماء يؤكد نتائج تذكر الكلمات ذات المعنى. حيث اشارت كل منهما إلى ان تلقي المنبهات عن طريق البصر والسمع في آن واحد افضل من حيث مدى تذكر هذه المنبهات سواء من الذاكرة القصيرة المدى او البعيدة المدى. كما بينت ان تلقي المنبهات عن طريق البصر افضل في تذكرها من تلقيها عن طريق السمع .

جدول (٦) يبين مستوى دلالة الفروق بين تذكر الافراد الذين عرضت عليهم المقاطع الصماء بطرق مختلفة ، وذلك من خلال الذاكرة القصيرة والبعيدة المدى.

طرق عرض المقاطع	درجة الحرية	القيمة الفائيه	مستوى الدلالة
(الذاكرة قصيرة المدى)			
سمعي وبصري	١	٦و١٢	ذو دلالة عند مستوى ٠١و٠
سمعي وسمعي بصري في آن واحد	١	٥٥	ذو دلالة عند مستوى ٠١و٠
بصري وسمعي بصري في آن واحد	١	١٤	ذو دلالة عند مستوى ٠١و٠
الذاكرة بعيدة المدى			
سمعي وبصري	١	٧١و٥	غير ذي دلالة عند مستوى ٠٥و٠
سمعي وسمعي بصري في آن واحد	١	٨٨و٣٣	ذو دلالة عند مستوى ٠١و٠
بصري وسمعي بصري في آن واحد	١	٨٢و٧	ذو دلالة عند مستوى ٠٥و٠

(ب) اثر المكافأة على التذكر :

لاختبار اثر المكافأة على التذكر اختيرت مجموعتان سمعت وشاهدت في آن واحد قائمه الكلمات ذات المعنى ، وكذلك قائمه للمقاطع الصماء في وقتين مختلفين. وكان يختبر تذكر كل مجموعه من الذاكرة قصيرة المدى وكذلك من الذاكره بعيدة المدى. والفرق الوحيد بين المجموعتين ان احداهما وعدت بمكافأه لاشتراكها في تجربة التذكر. في حين لم توعد الثانيه بشيء. واستخدم تحليل التباين ٢×٢ لايجاد الفروق بين مدى التذكر لدى المجموعتين.

١ ـ تذكر الكلمات ذات المعنى

اظهرت النتائج وجود فروق ذات دلالة معنويه عند مستوى ٠.٠١ بين مدى تذكر الافراد للكلمات ذات المعنى من الذاكرة قصيرة المدى وبين مدى تذكرهم من الذاكرة بعيدة المدى. حيث بلغت القيمه الفائيه

المحسوبه ٠٩,٤٩ وعند ملاحظه المتوسطات ، يتبين انه لصالح الذاكره قصيرة المدى .

كما تبين ان الذين وعدوا بمكافأة كان مدى تذكرهم للكلمات من الذاكرة قصيرة وبعيدة المدى اوسع من المجموعة التي لم توعد بمكافأة حيث كانت الفروق ذات دلاله معنويه عند مستوى ٠٠١ ، فقد بلغت القيمه الفائيه ٢٣,٨٢ ، كما تبين ذلك من الجدول (٧) .

جدول (٧) خلاصة تحليل التباين يبين تأثير المكافأة على مدى تذكر الكلمات ذات المعنى من الذاكرة قصيرة وبعيدة المدى

مصادر التباين	درجة الحرية	متوسط المربعات	القيمة الفائية	مستوى الدلالة
أ ــ الذاكرة (قصيرة وبعيدة المدى)	١	٥٨	٩,٤٩	ذو دلالة عند مستوى ٠,٠١
ب ــ المكافأة	١	١٤٦	٢٣,٨٢	ذو دلالة عند مستوى ٠,٠١
أ ، ب	١	١	٠,١٦	غير ذي دلالة
بين الخلايا	٧٦	٢,٩٣		

٢ ــ تذكر المقاطع الصماء

ان النتائج التي تقدمت في الجدول (٧) تؤيدها نتائج تذكر المقاطع الصماء كما هي موضحة في الجدول (٨). حيث تبين وجود فروق ذات دلالة معنوية عند مستوى ٠,٠١ بين مدى تذكر الافراد المقاطع الصماء من الذاكرة قصيرة المدى وبين تذكرهم من الذاكرة بعيدة المدى، فقد بلغت القيمة الفائية المحسوبة ١٠.٥٨ وعند ملاحظة المتوسطات تبين ان الفرق لصالح الذاكرة قصيرة المدى.

كما تبين ان الذين وعدوا بمكافأة كان مدى تذكرهم للمقاطع الصماء مــن

جدول (٨) خلاصة تحليل التباين ، يبين تأثير المكافأة على مدى تذكر المقاطع الصماء من الذاكرة قصيرة وبعيدة المدى.

مصدر التباين	درجة الحرية	متوسط المربعات	القيمه الغائبة	مستوى الدلاله
أ - الذاكرة (قصيرة وبعيدة المدى)	١	٣١	١٠,٥٨	ذو دلالة عند مستوى ٠,٠١
ب المكافأه	١	٨٠	٢٧,٣	ذو دلالة عند مستوى ٠,٠١
أ ، ب	١	٧	١٦,٠٤	ذو دلالة عند مستوى ٠,٠١
بين الخلايا	٧٦	٢,٩٣		

الذاكرة قصيرة وبعيدة المدى اوسع من المجموعة التي لم توعد بمكافأة حيث كانت الفروق ذات دلالة معنوية عند مستوى (٠,٠١) فقد بلغت القيمه الغائيه المحسوبه ٢٣,٨٢.

ان هذه النتائج قد تؤكد صحة نتائج تذكر الكلمات ذات المعنى، التي اشارت إلى اثر المكافأة في عملية التذكر. كما تؤيد نتائج تجارب اجريت على الحيوان، بينت انه كلما زادت قوة الدافع إلى التعلم والى استعادة الخبرة، كان نشاط الذاكرة اوضح واقوى (١، ص٢٥٧) ورغم انه لايمكن تعميم من هذه التجارب على الانسان باعتبار ان ذاكرته لغويه في معظمها، إلا ان هذه النتائج اكدتها ايضاً تجارب اجريت على الانسان حيث اوضحت ان ما يكتسب بقصداحسن في تذكرهمما اكتسب عن طريق الصدفه. وان الدافع يجعل الفرد يلم بالتفاصيل المنتظمه مما يتيح له التذكر بوضوح (١٠ص٣٦٠) ان هذه النتيجة ذات اهمية تربوية فهي توضح للقائمين بالتدريس انه ينبغي ان يكون الدافع او الغرض من تعلم اي موضوع واضحاً للطالب .

المصادر

١ ــ احمد فائق، محمود عبد القادر، مدخل الى علم النفس العام، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة (بدون تأريخ).

٢ ــ تريفرز، علم النفس التربوي، ترجمة موفق الحمداني، حمد دلي الكربولي، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٩ .

٣ ــ جان دولاي، امراض الذاكرة، ترجمة ميشال ابي فاضل، منشورات عويدات بيروت، ١٩٧٨ .

٤ ــ جميل صليبا، علم النفس، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٢ .

٥ ــ رمزية الغريب، التعلم: دراسة نفسية تفسيرية توجيهية، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٩ .

٦ ــ صبري رديف، سليم الغرابي، اسس الاحصاء، مطبعة كلية العلوم بغداد ١٩٧٧ .

٧ ــ طلعت منصور وآخرون اسس علم النفس العام، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٧ .

٨ ــ عبد الرحمن عيسوي، دراسات في السلوك الانساني، منشأه المعارف الاسكندرية (بدون تأريخ) .

٩ ــ نوري جعفر، جمال الآلوسي، الذاكرة طبيعتها واهميتها، مجلة البحوث التربوية والنفسية، العدد ٢، مركز البحوث التربوية، بغداد ١٩٨١ .

١٠ ــ وليام ن. ماك بين. رونالد ك. جونسون. علم النفس يعرفك بنفسك. ترجمة عثمان لبيب، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.

١١ ــ وليم الخولي، الموسوعة المختصرة في علم النفس والطب النفسي، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٦ .

12– James Drerer, *A Dictlonory of Psych ology*.Penguin Books, Lonvon, 1977.

13 – Kagan ahd Haremann, *Psychology: An introduction*, second Edition, Harcourt Brace jovanovich, INC, New Yovk, 1972.

14– Richard C. Andersonr & Gerald W.Faust, *Educational Psycholog*, Dodd, Mead & Company, New York, 1974.

15– Robert M.W. Travers, *Educational Psgchology*, The Macmillan Company New york, 1973.

16– Sarnoff A. Mednick & Other, Psychology Exploration in Beharior and Experience, JohanWiley & Sons, INC New York, 1975.

الاستنتاجات

من خلال ما تقدم يمكن التوصل الى الاستنتاجات الآتية :

١ ـ ان مدى التذكر من الذاكرة قصيرة المدى اوسع من مدى التذكر من الذاكرة بعيدة المدى .

٢ ـ ان المنبهات التي تستقبل عن طريق البصر والسمع في آن واحد يكون مدى تذكرها اوسع من المنبهات التي تستقبل عن طريق السمع او عن طريق البصر فقط ، كما تبين ايضاً ان المنبهات التي تستقبل عن طريق حاسة البصر يكون مدى تذكرها اوسع من مدى تذكر المنبهات التي تستقبل عن طريق حاسة السمع ، وهذا ينسحب على التذكر من الذاكرة قصيرة المدى والذاكرة بعيدة المدى، كما ينسحب ايضاً على الكلمات ذات المعنى والمقاطع الصماء .

٣ ـ ان للمكافأة اثراً في عملية التذكر ، حيث تبين ان الذين وعدوا بمكافأة لأشتراكهم في عملية التذكر ، كان مدى تذكرهم اوسع من مدى تذكر الافراد الذين لم يوعدوا بشيء ، وهذا ينسحب على التذكر من الذاكرة قصيرة المدى وبعيدة المدى ، وكذلك ينسحب على الكلمات ذات المعنى والمقاطع الصماء .

٤ ـ ان الفرق بين متوسط نسيان الكلمات ذات المعنى والمقاطع الصماء قليل جداً . وهذه النتيجه لاتتفق مع نتائج البحوث السابقة التي اشارت إلى ان المقاطع الصماء يكون نسيانها اكبر من الكلمات ذات المعنى . وقد فسر الباحث هذه النتيجه ، بان ما اشارت إليه البحوث السابقة ليس مسأله مطلقة . حيث يزداد الاحتفاظ بالمنبهات اذا كانت هذه المنبهات لها ارتباطات بحاجات الفرد . وخاصة اذا كانت مرتبطه بصبغه انفعاليه ساره كانت ام غير ساره . اما خلاف ذلك فانها لاتفرق كثيراً عن المقاطع الصماء . وفي بعض الاحيان يحصل العكس اذ ان تذكر المقاطع الصماء يكون اكبر اذا طلب من المفحوص حفظها او ارتبط ذلك الحفظ بمكافأة .

٥ ـ واظهرت النتائج ان الكلمات او المقاطع الصماء المتذكره في اليوم الاول (الذاكره قصيرة المدى) ليست هي بالذات التي يتذكرها المفحوص في اليوم التالي (الذاكرة بعيدة المدى)، وانما كان بعضها مختلف عما تذكره في اليوم الاول. وهذه النتيجة تلقي ضوءً على مسألة النسيان، حيث تدلل على النسيان ليس نهائياً، فبعض من المنبهات التي ننساها تكون قد اختفت من الذاكرة لفترة من الزمن وانه من الممكن ان تستعاد اذا توفرت ظروف معينه، ولهذه النتيجه تطبيقات تربويه فهي توضح للقائمين بالتدريس، ان مايتذكره التلاميذ بعد عرض الدرس مباشرة لايؤكد انهم اتقنوه، وسوف يتذكرونه في المستقبل، وان مايتذكرونه في المستقبل قد لا يكون بالضبط ماتذكروه بعد عرض الدرس مباشرة.

تحليل المسار
أسلوب حديث في مناهج البحث
في علم النفس

PATH ANALYSIS TECHNIQUE

د. مصطفى محمد عيسى
كلية الآداب / الجامعة المستنصرية

مدخل :

عمد أكثر المختصين في علم النفس وعلى رأسهم كرونباك (١) وبروكدين (٢) إلى تقسيم استراتيجيات البحث في علم النفس إلى مجالين أساسيين :

الأول : التصميمات التجريبية Experimental Designs والتي تتمثل في استخدام تحليل التباين (Analysis & Variance (ANOVA بتصنيفاته المختلفة منها تحليل التباين ذي الاتجاه الواحد ('One way AN OVA) ويدرس هذا التصميم متغيراً مستقلاً واحداً . وكذلك تحليل التباين ذي الاتجاهين (Two way ANOVA) والذي يدرس متغيرين مستقلين أو

1. Cronbach, L. The two discuplinés of Scienteic Pincipal compovents Psychology, *Amesican Psyohologist*, 1956, Vol. 12, P. 671-683.
2. Brogden, H. Some obseruations on two methods in Psyc holos1, *Psycholoyical Bnlletin*, 1972, Vol. 78, P. 431-437.

أكثر. ومن هنا كانت تسميته أيضاً بالتصميمات العاملية Factorial wesigns وعنه ينبثق اسلوب التصميمات المتكدسة Nested designs وغيرها كثير.

الثاني : التصميمات الارتباطية Cerelatinal Designs والذي يتمثل في استعمال العلاقة الارتباطية كأساس لتحليل النتائج وعنها ينبثق الانحدار بتصنيفاته المختلفة ومنها الانحدار المتغيرين Bivariate Regremon أحدهما متغير مستقل والآخر متغير تابع . وكلاهما متغيرات مستمرة والانحدار المتعدد Multiple Regressio والذي يكون فيه متغير تابع واحد وفيه متغيران مستقلان أو أكثر ، وجميع هذه المتغيرات مستمرة. Continons Variables، والتحليل التمييزي Discniminant analysis ويكون فيه المتغير التابع متقطعاً . كأن يكون ثنائي التقسيم Dichotomous ، والتحليل الكانوني Cannocial Analy والذي تكون فيه المتغيرات المستقلة والتابعة مستمرة وأكثر من اثنين لكل منهما وأخيراً التحليل العاملي Factor ahelyis والعناصر الرئيسة Principal component, .

ان الاساس الذي بني عليه هذا الفصل بين هذين المجالين من البحوث هو القدرة على دراسة العلاقات السببية للمتغيرات ففي التصميمات التجريبية يلجأ الباحث الى احداث تغييرات في بعض المتغيرات ويلاحظ كيف تؤثر هذه المتغيرات في المتغير التابع، ولكي يضمن المجرب ان التغير في المتغير التابع يرجع الى المتغيرات المستقلة التي جرى تغييرها فانه يعمد الى ضبط المتغيرات الاخرى ذات العلاقة. ومن أكثر الاساليب قوة في الضبط هو الاختيار العشوائي Randomigation . وعندما يكون المجرب قادراً على التغيير في المتغير المستقل Maripulation والاختيار العشوائي فانه يكون واثقاً من تقرير ما يجب عمله لكي يصل الى التغير المطلوب في المتغير التابع.

اما في التصميمات الارتباطية (غير التجريبية) فالأمر يبدو أكثر. تعقيداً وغموضاً وذلك ان الباحث لا يستطيع احداث التغييرات في المتغيرات المستقلة او الاختيار العشوائي كما هو الحال في التصميمات التجريبية. بالرغم من ان الباحث

يستطيع الى حد ما ان يستعيض عن الضبط العشوائي باساليب الضبط الاحصائي الا انه يجب ان يكون واعياً للمحاذير المتأصلة في تفسير وتحليل البيانات المستقاة من التصميمات الارتباطية؛ فمن المعروف ان الارتباط ليس دليلاً على السببية. ان الارتباطات بين المتغيرات يمكن ان تدلل على وجود علاقات سببية الا ان التفسير الكامل لا يمكن بلوغه على اساس المعلومات المتيسرة بل على اساس الاطار النظري والتحليل المنطقي لتلك المعلومات .

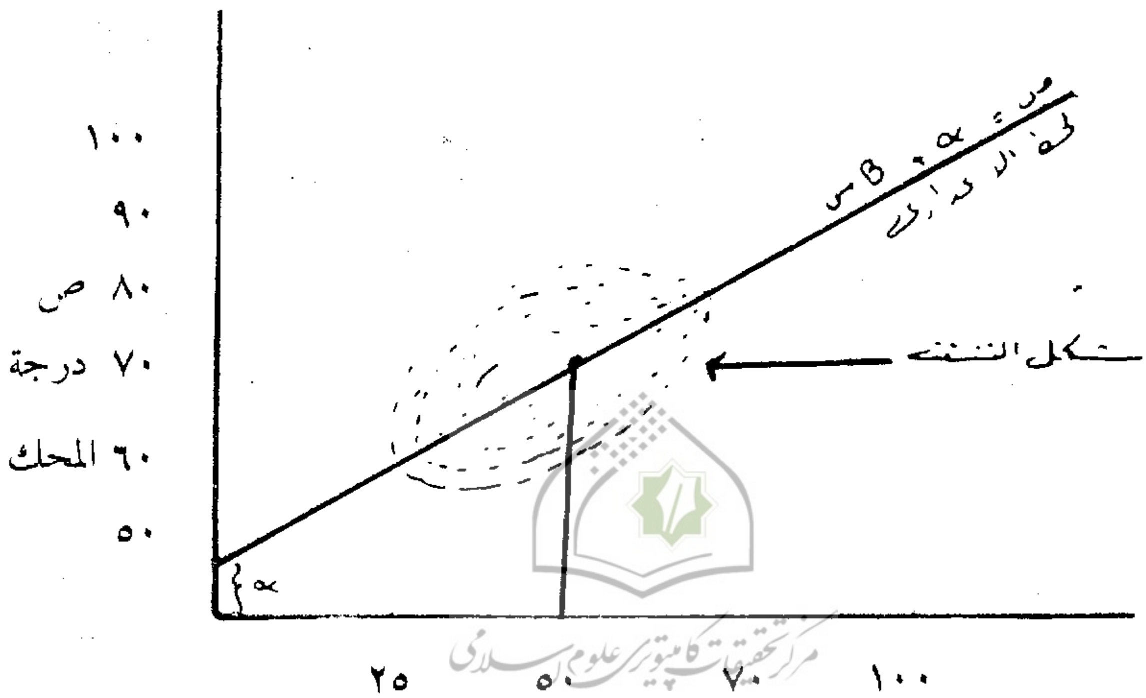
في هذه الحالة يغدو المطلوب اسلوب تحليل يلقي ضوءاً على مدى قوة الاطار النظري الذي يكونه الباحث. ويعتبر تحليل المسار واحداً من اساليب التحليل والعرض الثاني، لا يقصد منه الشمولية لهذا الاسلوب، انما المام القارىء بالمبادىء الاساسية والتطبيقات العملية لتحليل المسار، من خلال هذه الحاجة جاء تحليل المسار وتحليل الارتباط المتقاطع المتأخر Cross – Lagged Correlational Aralysis لسد الفجوة بين النوعين من التصميمات التجريبيـة والارتباطية وكلاهما يستخدم الارتباط كأساس لتقرير العلاقات السببية بين المتغيرات في التصميم السببي . وفي هذا المجال سيقتصر الحديث على اسلوب تحليل المسار واعداً القراء الكرام ان اتحدث عن الاسلوب الاخر في وقت لاحق .

ولما كان اسلوب تحليل المسار يعتمد اساساً على تحليل الانحدار المتعدد فان الفهم الكامل لهذا الأسلوب لايتم الا بخبرة وافية بتحليل الانحدار ، ولكي اسهل على القارىء فهم هذا الأسلوب أرى لزاماً علي اعطاؤه نبذة موجزة عن تحليل الانحدار .

مفهوم الانحدار

من المعلوم أن الارتباط يفيد في تقييم درجة العلاقة بين متغيرين ، وهو وحده لايكفي للتنبؤ بدرجات معنية تستعمل (محك) من درجات أخرى تستعمل كمنبىء . ان الاسلوب الاحصائي الذي يمكننا من ذلك هو تحليل لانحدار والذي يعتبر الارتباط ركناً اساسياً في استخدامه .

لتبسيط ذلك سأقتصر على شرح الانحدار لمتغيرين فقط احدهما متغير مستقل (منبيء) والآخر متغير تابع (محك) ، ان الأساس النظري لتحليل الانحدار لهذين المتغيرين يمكن أن يوضح بفحص شكل التشتت Scatterplot لهما (انظر شكل رقم ١) .



س
درجة المنبىء
شكل رقم ١

من شكل التشتت هذا نستطيع أن نستدل على أن العلاقة الارتباطية بين هذين المتغيرين قوية نسبياً (٠.٥٠ مثلاً) وهي خطية أيضاً . ولكي نستطيع التنبؤ بدرجات المحك من درجات المنبىء علينا أن نصف العلاقة بين هذين المتغيرين بتجديد أكثر . يغدو التنبؤ ممكناً حينما نستطيع وصف هذه العلاقة بمعادلة قومها ص=ف (س) وهي أن ص دالة س ولدى معرفتنا لقيمة س

فاننا نستطيع حساب قيمة ص اذا امكننا تحديد الدالة ف وهي التي تحدد العلاقة بين س، ص.

المعادلة المألوفة في تحليل الانحدار هي معادلة الخط المستقيم وهي ص = أ B س

وباستخدام هذه المعادلة نستطيع القيام بعملية التنبؤ المطلوبة . ففي الشكل السابق رقم (١) فان هذه المعادلة تتمثل في الخط الانحداري المستقيم .فكل زيادة في س يقابلها زيادة في ص يمكن تحديدها عن طريق ضرب س في معامل انحدار يرمز له بالرمز بيتا B وهو درجة ميل الخط الانحداري المستقيم ، مضافاً اليهما قيمة ثانية هي الفالا وهي تحدد موقع الخط على المحور الصادي . في الرسم البياني .

من الجدير بالذكر انه عندما تتحول الدرجات الخام لكل من المنبىء والمحك إلى درجات قياسية والاخيرة هي التي تستخدم في رسم الخـط الانحداري المستقيم فان قيمة تساوي صفراً أي أن الخط الانحداري يجب أن يمر بنقطة الاصل . في الرسم البياني وقيم بتياء B تأخذ نفس قيم معامل الارتباط أي تتراوح مابين + ١ و — ١ .

ففي الشكل (١) نستطيع ان نتنبأ بدرجة فرد ما على المحك اذا علمنا درجته على المنبىء وذلك برفع عمود من درجته على المنبىء ومن نقطة التقاء هذا العمود بالخط الانحداري نزل عموداً على المحور الصادي ونقطة التقاء العمود النازل بالمحور الصادي تتحدد درجته على المحك . فمثلاً اذا كانت درجة الفرد على المنبىء تساوي ٥٠ فان درجته على المحك تساوي ٨٠ .

ما هو تحليل المسار :

هو اسلوب لتقييم النماذج السببية ويستهدف دراسة التأثيرات المباشرة وغير المباشرة لمتغيرات معينة على متغيرات اخرى بحيث تعتبر المتغيرات الاولى مسببات

والمتغيرات الاخرى نتائج لتلك المسببات .

لقد طور هذا الاسلوب من قبل سيوول رايت(١) (٢) Sewall Wriyht وذلك في عام ١٩٣٤م وبهذا فهو ليس بالموضوع الحديث ولكن الحديث فيه هنا هو استعماله في مجال علم النفس لدراسة العلاقات السببية من عدد من المتغيرات .

ويرى رايت ان اسلوب تحليل المسار لا يسعى الى تحقيق المستحيل المتمثل في استنتاج العلاقات السببية من قيم معاملات الارتباط وانما يسعى الى ربط المعلومات الكمية التي تزودنا بها معاملات الارتباط مع المعلومات النوعية الاخرى المتوفرة عن العلاقات السببية للوصول الى تفسيرات نوعية للظاهرة المدروسة(٢)

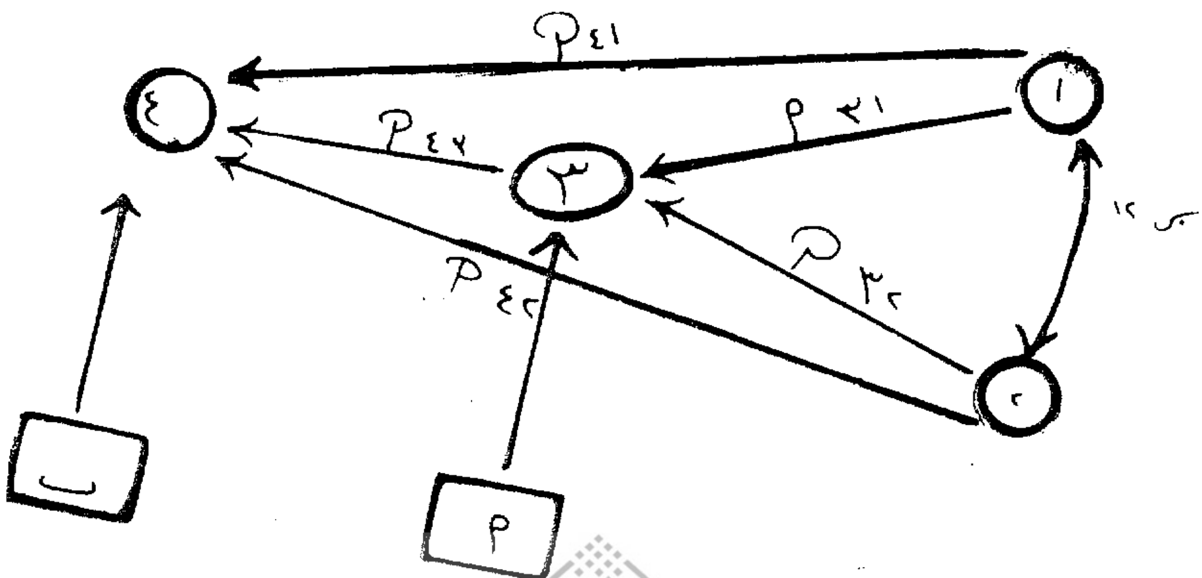
ففي الحالات التي تبدو فيها العلاقات السببية لمتغيرات ظاهرة معينة غير معروفة، يمكن استعمال تحليل المسار بغية الوصول الى تفسيرات منطقية لأية فرضية تتعلق بتلك الظاهرة. ومن هنا كان تحليل المسار اسلوباً مفيداً في اختبار نظرية قائمة وليس في استحداثها .

مخطط المسار :

مخطط المسار ليس جزءاً اساسياً في التحليل الكمي لتحليل المسار، الا انه وسيلة نافعة في رسم نموذج العلاقات السببية بين مجموعة من المتغيرات. ففي اي نموذج سببي يمكن التمييز بين ما يسمى متغيرات داخلية Endogenous Variables واخرى خارجية Exogenous Vaniables . فالمتغيرات الداخلية هي المتسببة عن متغيرات داخلية او خارجية عن النموذج السببي، اما المتغيرات الخارجية فهي المتسببة عن متغيرات تقع خارج النموذج السببي .

1. Wright, S. Poth Coefficiento and path neressions: AlrIsn-ative or complenentary concepts. *Biomclrics*, 1960, Vol. 16, P. ·423-445.
2. Wniyht, S. The method of parh ceefficients, Annals of Marhematical Statistis, 1934, Vol. 5, P.161-215.

والشكل التالي رقم(٢)يوضح الفرق بين هذين النوعين من المتغيرات في مخطط للمسار يتكون من اربعة متغيرات .



شكل رقم (٢)

فالمتغيرات (١)، (٢) خارجية. ومعامل الارتباط بين هذين المتغيرين الخارجين يعبر عنه بخط منحني به اسهم من كلتا جهتيه. وهذا يعني ان الباحث لا يرى ان احد هذين المتغيرين سبب في الآخر، بل قد تكون بينهما علاقة سببه متبادلة. ومن هنا فالعلاقة بين هذه المتغيرات الخارجية لا تخضع للدراسة والتحليل في مخطط المسار هذا .

اما المتغيرات (٣)، (٤) فهي داخلية . والمسارات بين هذين المتغيرين، او بين هذين المتغيرين وغيرهما من المتغيرات الخارجية يعبر عنها بخط مستقيم به سهم من جهة واحدة . فالمتغير الذي يصدر منه الخط يعتبر سبباً (عاملاً مستقلاً) اما المتغير الذي يتوجه اليه الخط ويوضح ذلك السهم الموجه اليه فيعتبر نتيجة (عاملاً تابعاً) فالمساران الصادران من المتغيرين (١) و(٢) والمتوجهان الى المتغير (٣) يشيران الى أن المتغير (٣) تابع للمتغيرين المستقلين (١) و(٢)(*).

(*) في حالات متطورة من تحليل المسار يمكن دراسة العلاقات السببية المتبادلة بين المتغيرات المتضمنة في موديل سببي معين .

كما يلاحظ من المخطط اعلاه أن متغيراً داخلياً يعتبر متغيراً تابعاً بالنسبة لعلاقته بمتغيرات معينة ويعتبر ايضاً متغيراً مستقلاً بالنسبة لعلاقته بمتغيرات اخرى . فالمتغير رقم (٣) يعتبر تابعاً للمتغيرات (١) و(٢) ، وهو نفسه يعتبر متغيراً مستقلاً بالنسبة للمتغير (٤) .

ولما كان من المستحيل تفسير التباين الكلي لمتغير في النموذج السببي ، فقد استعملت العوامل المتبقية لتفسير تأثيرات المتغيرات غير المتضمنة في النموذج. ففي الشكل رقم(٢) تعتبر المتغيرات أ وب متغيرات متبقية Residual. Variables . وكما سيلي في افتراضات تحليل المسار فان هذه المتغيرات المتبقية يفترض ان لاتكون مرتبطة فيما بينها ، كما انها غير مرتبطة بأي من المتغيرات المار ذكرها في النموذج السببي . فالمتغير أ مثلا لا نعترض ان يكون مرتبطاً بالمتغير ب وكذلك غير مرتبط باى من المتغيرين آ ١و٢ .

افتراضات تحليل المسار :

من بين الافتراضات التي لابد من توفرها لدى استعمال تحليل المسار مايلي : —

١ — تتصف العلاقات بين المتغيرات في النموذج السببي بكونها خطية Linear وجمعية Additire وسببية Causal ، فالعلاقات بين المتغيرات التي تتصف بكونها منحنية Girvilinear أو ضربية Multiplicative أو علاقات متفاعلة تستبعد من النموذج .

٢ — المتغيرات المتبقية لايفترض أن تترابط فيما بينها ، كما انها لاتترابط مع غيرها من المتغيرات المتضمنة في النموذج سواءاً كانت داخلية أم خارجية. ان الهدف من هذا الافتراض هو محاولة تضمين كافة المتغيرات ذات العلاقة في النموذج والعمل على تفسيرها. والجزء من الارتباط الذي لايمكن تفسيره في النموذج ويمكن رده إلى المتغيرات المتبقية . فالمتغيرات الداخلية يمكن اعتبارها تركيباً خطياً Linear comribation من المتغيـرات الخارجية

ومتغيرات داخلية أخرى ومتغيرات متبقية ، في حين تعتبر المتغيرات الخارجية معطيات Givens لا يمكن تغييرها . وعندما تترابط المتغيرات الخارجية فيما بينها فان هذه الارتباطات تعتبر أيضاً معطيات لاتخضع للتحليل او التفسير في النموذج .

٣ – تقتصر العلاقة السببية بين المتغيرات بكونها ذات اتجاه واحد Uni-directional . أما العلاقات السببية المتبادلة فانها تستبعد من النموذج .

٤ – تماس المتغيرات في النموذج بمقياس فاصل Lnterval Scale

معاملات المسار :

معاملات المسار قيم تعبر عن التأثير المباشر لمتغير يعتبر سبباً لمتغير آخر يعتبر أثراً أو نتيجةً ، ويرمز عادة لمعامل المسار بالرمز P ويوضع بجانبه رقمان : الأول يشير إلى الأثر (المتغير التابع) ، والثاني يشير إلى السبب (المتغير المستقل) وعليه فالرمز P ٣٢ في الشكل رقم ٢ يشير إلى حجم التأثير المباشر للمتغير (٢) على المتغير (٣) .

حساب معاملات المسار

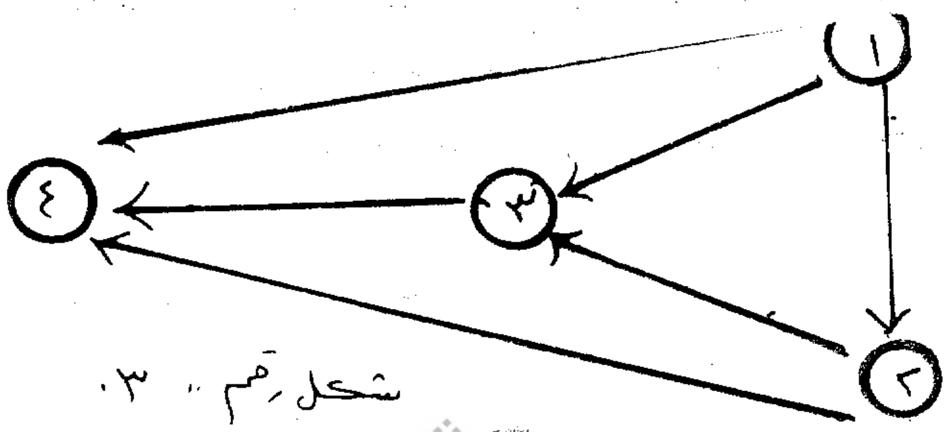
ان كلاً من المتغيرات الداخلية في نموذج سببي يمكن تمثيله بمعادلة تتكون من المتغيرات التي يعتمد او يتوقف عليها هذا المتغير اضافة إلى المتغير المتبقى أو تلك المتغيرات التي لاتدخل ضمن النموذج قيد الدراسة . ولكل متغير مستقل في المعادلة معامل مسار يشير إلى كمية التغير المتوقع في المتغير التابع نتيجة للتغير في المتغير المستقل . وقد مر القول بأن المتغيرات الخارجية يفترض انها تعتمد على متغيرات ليست متضمنة في النموذج وعليه فهي ممثلة بمتغيرات متبقية فقط . وسيتمثل المتغير المتبقي بالرمز ق مع ما يرافقه من رقم . ولتوضيح ذلك فهناك اربع معادلات للنموذج السببي ذي المتغيرات الاربع (شكل رقم ٣) مستخدمة الدرجات القياسية Zsceres لقياس هذه المتغيرات الاربعة ، والمعادلات هي :—

ز١ = ق١ .... (١)

ز٢ = P٢١ ز١+ ق٢ .... (٢)

ز٣ = P٣١ ز١+ P٣٢ ز٢+ق٣ .... (٣)

ز٤ = P٤١ ز١+P٤٢ ز٢+P٤٣ ز٣+ق٤ .... (٤)



شكل رقم « ٣ »

وفي هذه المعادلات جميعاً فان ق تشير إلى متغيرات غير متضمنة في النموذج . فالمتغير (١) خارجي فهو ممثل بالمتغير المتبقي ق١ فقط والمتغير (٢) يعتمد على المتغير (١) والمتغير المتبقي ق٢ والذي يرمز إلى متغيرات خارج النموذج تؤثر على المتغير (٢). ونفس التفسير ينطبق على بقية المعادلات .

ولايضاح كيفية حساب معاملات المسار في الشكل رقم (٢) توضح كيفية حساب معامل المسار أ٢١ ، وهو الذي يشير إلى تأثير المتغير (١) على المتغير (٢) .

$$\text{س}_{١٢} = \frac{١}{\text{ن}} \sum \text{ز}_١ \, \text{ز}_٢$$

واذا عوضنا عن ز٢ من المعادلة رقم٢ يصبح

$$\text{س}_{١٢} = \frac{١}{\text{ن}} \sum \text{ز}_١ \, (\text{أ}_{٢١} \, \text{ز}_١ \cdot \text{ق}_٢)$$

$$= P_{\text{٢١}} \frac{\sum \text{ز}_{\text{١}}\text{ز}_{\text{١}}}{\text{ن}} + \frac{\sum \text{ز}_{\text{١}}\text{ق}_{\text{٢}}}{\text{ن}}$$

$$\text{س}_{\text{١٢}} = P_{\text{٢١}}$$

حيث أن $\frac{\sum \text{ز}_{\text{١}}\text{ز}_{\text{١}}}{\text{ن}} = \frac{\sum \text{ز}_{\text{١}}^{\text{٢}}}{\text{ن}} = \text{١}$ وذلك لأن تباين الدرجات القياسية دوماً يساوي ١. والتباين المشترك بين المتغير (١) وق = صفراً كما افترض سابقاً . ومن الجدير بالذكر أنه في حالة الارتبـــاط أ صغر الترتيب Zero–Order Correlation فان بيتا B وهي معامل الانحداد القياسي Standard Regression Coefficient يساوي معامل الارتباط وقد، أشرنا إلى ذلك مسبقاً . وعليه فان :

$$\text{س}_{\text{٢١}} = \beta_{\text{٢١}} = P_{\text{٢١}}$$

وعليه فان معامل المسار من المتغير (١) إلى المتغير (٢) يساوي β ٢١ والتي يمكن الحصول عليها من البيانات بحساب س ١٢ .

فمعامل المسار يساوي معامل الارتباط صفر الترتيب عندما يعتمد متغير ما على سبب واحد ومتغير متبق فقط . وهذا هو واقع الحال مع المتغير ٢ في الشكل رقم٣ . وكما يلاحظ ان المبدأ نفسه ينطبق على المتغير الذي يعتمد على أكثر من سبب مادامت تعتبر متغيرات مستقلة .

وباتباع نفس الطريقة ولوانها تصبح أكثر تعقيداً في المسارات اللاحقة نستطيع التوصل إلى معاملات المسار التالية للنموذج السببي في الشكل رقم٣.

$$\text{س}_{\text{١٢}} = P_{\text{٢١}}$$

$$\text{س}_{\text{١٣}} = P_{\text{٣١}} + P_{\text{٣٢}}\,\text{س}_{\text{١٢}}$$

$$\text{س}_{\text{٢٣}} = P_{\text{٣١}}\,\text{س}_{\text{١٢}} + P_{\text{٣٢}}$$

$$\text{س}_{\text{١٤}} = P_{\text{٤١}} + P_{\text{٤٢}}\,\text{س}_{\text{١٢}} + P_{\text{٤٣}}\,\text{س}_{\text{١٣}}$$

$$\text{س}_{\text{٢٤}} = P_{\text{٤١}}\,\text{س}_{\text{١٢}} + P_{\text{٤٢}} + P_{\text{٤٣}}\,\text{س}_{\text{٢٣}}$$

س٣٤ = P ٤١ س١٣ × P ٤٢ س٢٣ × P ٤٣

من بين الاستعمالات المهمة لتحليل المسار هو تحليله للارتباط إلى عناصر : ففي نموذج سببي معين يمكن تحديد أي جزء من الارتباط بين متغيرين يعزى إلى التأثير المباشرة لسبب معين وأي جزء منه يعزى إلى التأثيرات غير المباشرة . وهذا مايميز تحليل المسار على تحليل الانحدار المتعدد . ويمكن للتأثيرات غير المباشرة ان تحدث بصورة شتى . فمثلاً عندما تترابط الأسباب فان كل سبب يمارس تأثيراً مباشراً على المتغير التابع كما يمارس تأثيراً غير مباشر من خلال ارتباطه بأسباب أخرى . ففي الشكل رقم (٣) حيث يترابط المتغيران الخارجيان (١) و(٢) . فان س١٣ يعزى إلى التأثير المباشر وغير المباشر للمتغير (٣) .

والتأثير المباشر يعبر عنه المسار المباشر من (١) الى (٣) . اما التأثير غير المباشر فيرد الى الارتباط بين المتغير (١) والمتغير (٢) والذي يعتبر بدوره سبباً للمتغير (٣) . والتعليل نفسه ينطبق على باقي المتغيرات . ولحساب مجموع التأثيرات غير المباشرة (مت غ م) لمتغير ما يطرح تأثيره المباشر من معامل الارتباط بينه وبين المتغير التابع ففي الشكل السابق يحسب مجموع التأثيرات غير المباشرة للمتغير (١) على المتغير (٤) بالمعادلة التالية :

مت غ م٤١ = س ٤١-٤١ P

وبالمثل نجد مجموع التأثيرات غير المباشرة للمتغير (٣) على المتغير (٤)

مت غ م٤٣ =س ٤٣-٤٣ P

كما يمكن حساب مجموع التأثيرات غير المباشرة على متغير تابع بضرب معاملات المسار من المتغيرات والموصله الى المتغير التابع .

حذف بعض المسارات

بعد حساب معاملات المسار لكل المتغيرات في النموذج السببي يلجأ الباحث احيانا الى حذف بعض المسارات وذلك حينما يعزى الارتباط بين هذين

المتغيرين الى تأثيرات غير مباشرة فقط. وبحذف بعض المتغيرات حيثما امكن ذلك يكون الباحث قد توصل الى نموذج سببي اكثر اختصاراً واقتصادياً Parsimonious . ولكن في ضوء ماذا يكون الحذف ؟ يرى هيتز (١) ان هناك محكين لحذف المسارات والذي سماه زركشة او تزيين النظرية وهما: اختبار الدلالة الاحصائية لمعاملات المسار التي بدورها تساوي (اوزان بيتا) وهي معاملات الانحدار القياسية. والمعاملات غير الدالة احصائياً يمكن حذفها وتستبقى المعاملات ذات الدلالة الاحصائية ونظراً لكون الدلالة الاحصائية لمعامل ما قد ينتج بسبب كبر حجم العينه يلجأ البعض الى المحك الثاني وهو الدلالة المعنوية حيث يقوم الباحث بحذف المعاملات التي ليست ذات دلالة معنوية. ولكون الدلالة المعنوية دون تحديد قيمه رقميه للحذف يعتبر أمرا نسبياً فقد اقترح لاند Land (٢) اعتبار معاملات المسار التي تقل عن ٠٥. ليست دالة معنوياً ويمكن حذفها .

اختبار النظرية :

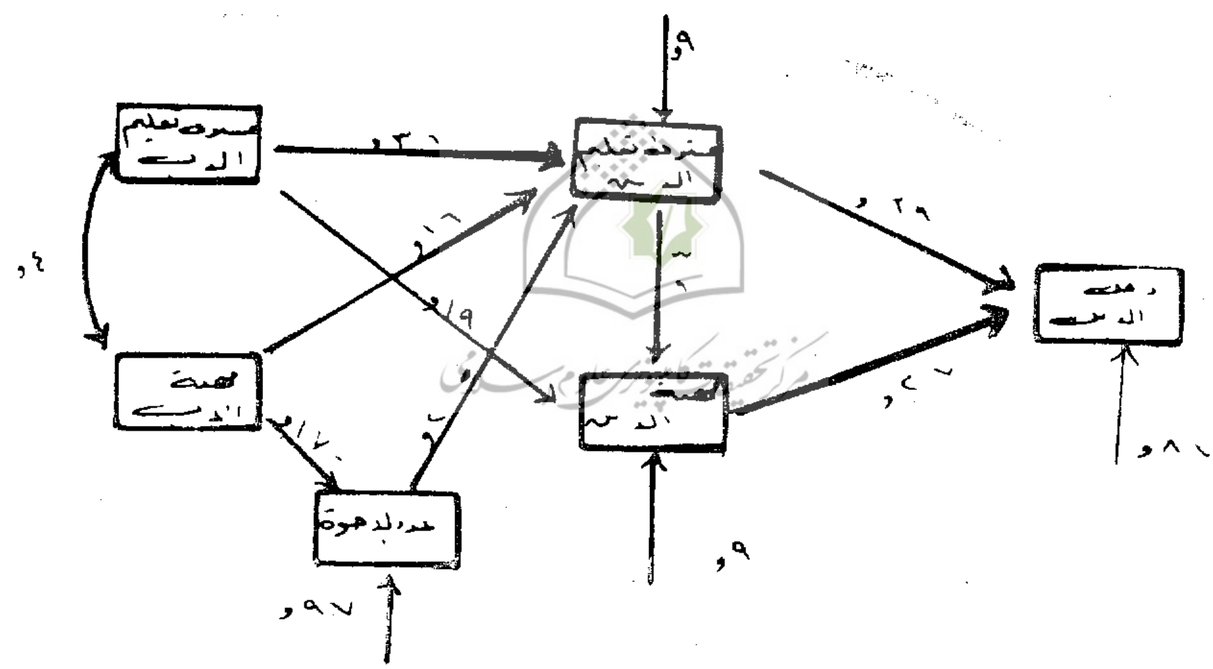
يعتبر تحليل المسار وسيلة تحليلية مهمة في اختبار النظرية . فالباحث يمكن ان يقرر ان نموذجاً من الارتباطات منسجم مع اطار نظري معين ام لا فباستخدام معاملات المسار يمكن التوصل الى مصفوفة الارتباط لكل المتغيرات في النموذج ويطلق عليها عادة رمز R فاذا امكن بعد حذف بعض المسارات التوصل الى نفس المصفوفه الاصليه R او قريباًمنها (يمكن التأكد من ذلك باستخدام 2 لاختبار دلالة الفرق بين المصفوفين) . فان ذلك يدلل على سلالة النموذج المختصر وصحته في تفسير الاطار النظري. وبعكسه فان تحليل المسار يبرهن على قصور بعض النموذج المختصرة في اختبار نظرية ما .

1. Hise, D. Problems in Path analysis and causal in tesence. In E. F. Borgatta (3d.) *Sociological Methadology*, 1969, San Francisco ; Jossey-Bass.
2. Land, K. Principles of Path analysis. In E. F. Borgatta (Ed.) *Sociological Methodology*. San Francisco: Jossey Bass, 1969.

(لمزيد من المعلومات حول التوصل الى المصفوفات R والمختصرة انظر Billings (١)

مثال تطبيقي: يمثل الشكل رقم ٤ مخطط مسار النموذج سببي جاء نتيجة البحث تدريبي قام به الكاتب على عينة محدودة من طلبة الدراسات العليا المختصين في علـم النفس الصناعـي مستهدفاً دراسة العلاقات السببية بين بعض المتغيـرات الاجتماعية والاقتصادية واثرها في تقرير الدخل.

يتضمن الشكل رقم (٤) نوعين من الارقام. الأول هو الارقام التي على الاسهم الصادرة من متغير معين ومتوجهة الى متغير آخر، وهذه الارقام هي معاملات الانحدار القياسية (اوزان بيتا) والتي تبين مدى تأثير متغير ما على غيره



شكل رقـم (٤)

1. Billings, R. & Steve Wroten, Use & path analysis in Industrial / organiyatial Pslchology: Cviticsms and Suggestion *Iournal of Applied Psychology*, 1978, Vol. No. 6, P. 677-688.

من المتغيرات في النموذج. وما دامت هذه المعاملات قد جاءت نتيجة لاستخدام الدرجات القياسية فمن الممكن مقارنة احجامها بين المتغيرات المختلفة. فمثلاً ان مستوى تعليم الابن له تأثير أكبر على دخل الابن (معامل مساره ٠,٣٩) من تأثير حصة الابن على دخل الابن (معامل مسارها ٠,٢٧) وهكذا ..... النوع الثاني هو الارقام التي على الاسهم التي لم يحدد مكان صدورها (متغيرات متبقية) وهذه الارقام تبين كمية التباين الذي لا يمكن تفسيره عن طريق المتغيرات المتضمنة في النموذج .فمثلاً معامل المسار (ويسمى معامل الاغتراب ايضاً) لمتغير الدخل يساوي ٠,٨٧ فان تربيعه يعطي نسبة التباين للدخل والتي لا يمكن تفسيرها بواسطة المتغيرات المتضمنة في النموذج وهو ٧٥٦ ف وعليه فان ٠,٢٤٤ فقط من تباين الدخل يمكن تفسيرها عن طريق متغيرات النموذج. وهكذا مع متغيرات مهنة الابن ومستوى تعليم الابن وعدد الاخوة.

اما بقية معاملات المسار للمتغيرات المتضمنة في النموذج فقد حسبت خلال سلسلة من الانحدارات المتعددة (باستخدام الالة الحاسبة الالكترونية ــ الكمبيوتر) وقد بديء بحساب معامل المسار للمتغير المستقل الاكثر قرباً للمتغير التابع . وبعد ذلك يأتي المتغير المستقل الذي يليه وهكذا ... وفي النموذج اعلاه تم حساب الانحدار على متغير الدخل من متغير مهنة الابن ومن استخراج معامل المسار له، وبعد ذلك حسب معامل المسار لمتغير الدخل من متغير المستوى التعليمي للابن المباشر. والتأثير غير المباشر لمستوى تعليم الابن على الدخل من خلال مهنة الابن. ان معاملات المسار كهذه تدلنا على التأثير المباشر وغير المباشر للمستوى التعليمي للابن على دخله. والتأثير المباشر يتحدد بمقدار معامل المسار له (وزن بيتا) .اما التأثير غير المباشر فيمكن حسابه عن طريق ضرب معاملات المسار بعضها ببعض. فمثلاً ان التأثير المباشر للمستوى التعليمي على الدخل هو ٠.٣٩ اضافة لذلك هناك تأثير مباشر للمستوى التعليمي للابن على مهنته قدره ٠.٤٠ وهو معامل المسار من المستوى التعليمي للابن الى مهنة الابن، في حين كان معامل المسار من مهنة الابن الى دخل الابن يساوي ٠,٢٧ وبضربهما معاً

نحصل على التأثير غير المباشر للمستوى التعليمي على الدخل عن طريق مهنة الابن وذلك يساوي ٠،٤٠ × ٠،٢٧ = ٠،١١ .

كما يتضح من المخطط أن المستوى التعليمي للأب ليس له تأثير مباشر على دخل الابن ، ويبدو ذلك في غياب السهم الموصل بين هذين المتغيرين مباشرة . وطبعاً هذا لايعني أن مستوى تعليم الأب ليس بالمتغير المهم في التأثير على دخل الابن مباشرة ، لكنه بصورة غير مباشرة يؤثر على دخل الابن عن طريق مستوى تعليم الابن بتأثير مقداره ٠،٣٦ × ٠،٣٩ = ٠،١٤ وكذلك عن طريق مهنة الابن بتأثير قدره ٠،١٩ × ٠،٢٧ = ٠،٠٥ وكذلك هناك تأثير غير مباشر لمستوى تعليم الأب على دخل الابن من خلال تأثير الأول على مستوى تعليم الابن والذي يؤثر مباشرة على مهنة الابن والاخيرة تؤثر مباشرة على دخل الابن ومجموع هذا التأثير غير المباشر يساوي ٠،٣٦ ٠،٤٠ × ٠،٢٧ = ٠،٠٤ وبذلك يكون المجموع الكلي للتأثيرات غير المباشرة لمستوى تعليم الاب على دخل الابن هو ٠،٢٣ بهذا يبين تحليل المسار انه بينما لايؤثر مستوى تعليم الاب على دخل الابن مباشرة الا أنه يقوم بدور غير مباشر في تحليل دخل الابن . وكذلك يبين أن أكبر تأثير لمستوى تعليم الاب على دخل الابن يمارس عن طريق مستوى تعليم الابن (مسار مركب من ٠،٣٦ × ٠،٣٩ = ٠،١٤ ثم عن طريق مهنة الابن مسار مركب من ٠.١٩ × ٠.٢٧ = ٠.٠٥ وأقل تأثير غير مباشر يمارسه مستوى تعليم الأب على دخل الابن يكون من خلال تأثير الاول على مستوى تعليم الابن وهذا بدوره يؤثر على دخل الابن من خلال مهنة الابن وذلك بمقدار ٠.٠٤ كما أن مهنة الأب لاتؤثر مباشرة على دخل الابن ولكن تأثير مهنة الأب على دخل الابن يتم بصورة غير مباشرة عن طريق مستوى تعليم الابن مسار مركب مقداره ٠،١٦ × ٠،٣٩ = ٠،٠٦ وكذلك عن طريق مستوى تعليم الابن ويؤثر الاخيـر عن مهنة الابن والتي تؤثر عـــلى دخل الابن بمقدار ٠،١٦ × ٠،٤٠ × ٠.٢٧ = ٠.٠٢ .

كما أن هناك تأثيراً غير مباشر سلبي على دخل الابن من متغير عدد الاخوة من خلال مستوى تعليم الابن وقدره — ٠,٢٠ × ٠,٣٩ = —٠,٠٨ وهناك تأثيراً غير مباشر آخر من عدد الاخوة على دخل الابن من خلال تأثير الاول المباشر على مستوى تعليم الابن والذي يؤثر بدوره على مهنة الابن بصورة مباشرة والذي يؤثر على دخل الابن مباشرة بمقدار —٠,٢٠ × ٠,٤٠ × ٠,٢٧ = ٠,٠٢ .

ومن النتائج الاخرى التي كشفها تحليل المسار تلك المتمثلة في معاملات المسار السالبة بين بعض المتغيرات . فهناك تأثير مباشر سلبى من مهنة الأب على عدد الاخوة (ابنائه) مما يبين انه كلما ارتقت مهنة الاب كلما قل عدد ابنائه . وكذلك الحال بين عدد الاخوة والمستوى التعليمي للابن (معامل مسار — ٠,٢٠) مما يدل على ان كثرة عدد الاخوة عائق امام بلوغ الفرد تعليمياً عالياً . اما تأثير مهنة الاب غير المباشر على المستوى التعليمي للابن عن طريق عدد الاخوة فيغدو ايجابياً بمقدار — ٠,٢٠ × — ٠,١٧ = ٠,٠٣ وهذا التأثير الايجابي غير المباشر يماثل التأثير الايجابي المباشر لمهنة الاب على المستوى التعليمي للابن من حيث اشارة معامل الارتباط وليس حجمه .

من خلال هذا البحث المبسط يتضح ان تحليل المسار أداة نظرية مهمة لانها تضطر الباحث إلى تحديد كل العلاقات السببية في النموذج بصورة واضحة . كما يتضح انه لا يقتصر على حساب التأثيرات المباشرة للمتغيرات المستقلة على المتغيرات التابعة وانما يمكن حساب التأثيرات غير المباشرة ونماذج العلاقات السببيّة بين كل المتغيّرات في النموذج . من هنا فقد استأثر هذا الاسلوب باهتمام المختصين في مجال علم النفس خاصة والمختصين في العلوم السلوكية عامة .

المصادر

1- Billings, R. & Skve Wnden, Use & path aralysis in Indnstrial./ Organizational Psychology: Critcisms and Suggeshons. *Towrnal of Applied Psychology*, 1978, Vol. 63, No. 6, P.677–688.

2- Brogden, H. Some observations on two methods in Psychology, *Psychological Bulletin*, 1972, Vol. 77, No. 6, P. 431–437.

3- Cronbach, L. The two disciplines of scientefic Psychology, *American Psychologlst*, 1957, Vol. 12, P. 671–683.

4- Heise, D. Problems in Path analysis and Causal inference. In E.F. Borgata (Ed.) *Sociological methology*, San–Francisco: Jossey–Bass, 1969.

5- Land, K. Principles & path analysis, dn E.F. Borgatta ('Ed.) *Sociological Methodology*, San–Francisco, Jossey: Bass, 1969.

6- Wright, S. Path coeff icients and path ragrossions: Ahernatire or complementary concepts. *Biometrics*, 1960, Vol. 16, P. 423–445.

7- Wright, S. The method of path Coefficients, *Annals of Mathematical Statistis*, 1934, Vol. 5, P. 161–215.

دور العقيدة الاسلامية في تحقيق وحدة العرب الاولى

الدكتور هاشم يحيى الملاح
كلية الاداب / جامعة الموصل

تمهيد :ــ

يعتقد كثير من الناس بحكم بعدهم عن عصر الرسالة ان اركان العقيدة الاسلامية الاساسية كالتوحيد والايمان بالرسل والبعث بعد الموت، هي مجرد عقائد غيبية ، يؤمن بها الانسان ويلتزم بها في مجال العقيدة. غير ان الحقيقة التاريخية ، تتجاوز هذه الحدود بكثير، وخصوصاً في عصر الرسالة، ذلك ان اركان العقيدة الاسلامية آنفة الذكر ، كانت ذات مضمون سياسي واجتماعي ثوري ساعد على نقل الامة العربية من حالة الشرك والانقسام القبلي الى حالة التوحيد والوحدة الشاملة .

واذا كان قد سبق لعديد من الباحثين ان نبهوا الى هذه الحقيقة بصورة مجملة فان هذا البحث يحاول دراسة هذه الحقيقة بصورة مفصلة فيتناول كل ركن من اركان العقيدة الاسلامية . ويبين الدور السياسي الذي لعبه في الصراع ضد المشركين المحافظين على اوضاع التجزئة والتخلف . وربما سيلاحظ القارىء ان هذه الدراسة لاتخلو من قراءات جديدة لوقائع وتفسيرات قديمة .

لقد حرص الباحث ان يستند في دراسته الى نصوص القرآن الكريم كلما امكن ذلك لانه المصدر الوحيد الذي يعرض العقيدة الاسلامية كما نزلت

بشكل دقيق وحي مما يساعدنا على الوصول الى الحقيقة التاريخية ويجنبنا مزالق الخطأ في الحكم والاستنتاج .

١ ـ التوحيد : ـ

حينما ظهرت الدعوة الاسلامية في مكة كانت العقيدة السائدة بين اغلبية سكان شبه الجزيرة العربية هي «الشرك» وهي الاعتقاد بتعدد الالهة، فالى جانب وجود اله اعلى . خالق السموات والارض توجد آلهة اخرى تشارك الله مقامه . وتشفع للبشر لديه في بعض الحالات. وقد سمي اصحاب هذا الاعتقاد : «المشركون» .

وقد اشار القرآن الكريم الى الشرك والمشركين في عديد من الآيات نحو قوله :

«وجعلوا لله اندادا ليضلوا عن سبيله» (١) .

«ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله » (٢)

«والذين اتخذوا من دونه اولياء مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (٣)

ويبدو ان المشركين قد تصوروا ان العلاقة التي تربط بين الالهة قائمة على وجود «آلهة صغرى وآلهة كبرى . فهناك ارباب، وهناك رب الارباب، وهناك الاله الاب والآلهة الابناء والبنات. والمشركون هنا يؤمنون بالله ولكنهم يؤمنون الى جانبه بالهة صغرى يتخذون منها الوسيلة الى الله او الشفاعة عند الله. وهذه الالهة الصغرى من جنس الملائكة في الغالب او هي الاوثان والاصنام التي تمثلها ارواح الالهة » (٤) .

وقد اشار القرآن الكريم الى مثل هذه التصورات في العديد من الآيات نحو قوله :

«وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون» (٥) «ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم به يؤمنون» (٦) « افرءيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى

الكم الذكر وله الانثى. تلك اذا قسمة ضيزى ......» (٧).

ان الاعتقاد بتعدد الالهة كان يلتقي مع واقع العرب السياسي في ذلك الحين القائم على تعدد الكيانات السياسية والمتمثل بالنظام القبلي. فكان لكل قبيلة الهها الذي تقدم له القرابين والنذور كي يشفع لها عند الله (٨) . كما ان هذا الاله كان يعتبر رمزا لعزة القبيلة فيعلو شأنه كلما علا شأن قبيلته. وقد اشار القرآن الكريم الى ذلك بقوله : «واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا » (٩) لذا فقد صاح ابوسفيان حينما انتصر جيشه على المسلمين في معركة أحد : «اعل هبل» . فرد عليه المسلمون بقولهم :« الله اعلى واجل» (١٠) .

وقد ترتب على هذا الترابط بين النظام القبلي وعقيدة الشرك ان تعمقت روح العصبية القبلية والانقسام بين ابناء الامة العربية. وقد اشار القرآن الكريم الى هذه الحالة بقوله: «ص. والقرآن ذي الذكر. بل الذين كفروا في عزة وشقاق»(١١) كما اشار الى الوحدة التي تحققت للعرب بفضل الايمان بقوله: «واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداءاً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً» (١٢) .

ورغم ان العرب قبيل ظهور الاسلام كانوا منقسمين الى وحدات قبلية كثيرة وان عقيدة الشرك كانت هي العقيدة السائدة بين معظم ابناء الامة العربية الا ان عوامل الوحدة كانت قد بدأت تظهر وتفعل فعلها على كافة المستويات . فعلى مستوى السياسة كان هنالك ميل الى عقد المحالفات بين ابناء القبائل العربية من اجل الاستجابة لمصالحهم الاقتصادية والسياسية المتنوعة. فعلى مستوى التجارة كانت «الايلاف» وهي الاحلاف التجارية تعقد لضمان سير القوافل التجارية بين مختلف انحاء الجزيرة العربية وقد اشار القرآن الكريم الى ايلاف قريش بقوله « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف .... » كما ظهرت الاسواق التجارية الموسمية كسوق عكاظ وذي المجنة وغيرها ... اما على مستوى اللغة فقد سادت اللغة الادبية الموحدة التي استخدمت في الشعر الجاهلي . اما على المستوى الديني فقد اصبحت مكة هي المركز الاساسي للعبادة الوثنية لدى العرب

واخذ الناس يحجون اليها من مختلف انحاء الجزيرة العربية لتقديم النذر والقرابين لآلهتهم ولاداء مناسك الحج كما لعبت الاشهر الحرم دوراً بارزاً في سيادة السلام خلال اربعة اشهر من السنة مما ساعد على انتعاش التبادل التجاري والثقافي في الجزيرة العربية (١٣).

لقد ساعدت هذه الظروف بمجموعها على بدء تحسس العرب بوجودهم القومي وتمايزهم عن الامم الاخرى التي لا تشاركهم لغتهم وقيمهم الاجتماعية والثقافية لذا فقد وصفوا من ليس بعربي بأنه «اعجمي». كما اخذوا يشعرون بالتعاطف مع العربي حينما يشتبك بحرب مع الاعجمي. لذا فقد عد انتصار بني شيبان على الفرس في معركة ذي قار بمثابة انتصار للعرب على العجم .حتى لقد اورد الطبري ان الرسول(ص)قال في هذه المناسبة وكان قد بعث بالرسالة: «اليوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا»(١٤) .

ويلاحظ أن دعوة التوحيد التي جاء بها الاسلام لم تكن مقطوعة الجذور عن واقع العرب الروحي قبيل ظهور الاسلام . فقد كان العرب المشركون يعتقدون بوجود إله اعلى خالق السموات والارض . اما الآلهة الأخرى فكانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى . مما يدل على أن أصل التوحيد كان قائماً وموجوداً لدى العرب . كما تشير المصادر التاريخية إلى وجود أشخاص من العرب لم يقتنعوا بعقيدة الشرك ولم يستطيعوا الاقتناع بالديانة اليهودية والمسيحية.... وبقوا يبحثون عن الدين الحق ... وقد عرفوا بالاحناف .... ورغم عدم توفر معلومات كافية عن هؤلاء الاحناف الا أنه من الثابت انهم كانوا موحدين وكانوا يدعون إلى دين ابراهيم.....(١٥) .

وقد أشار القرآن الكريم إلى الحنيفية واعتبر الاسلام دين الحنيفية ((قل انني هداني ربي إلى صراط مستقيم ، ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين)) (١٦) .

((وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا . قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين)) (١٧) .

ان ماتقدم يؤكد الروايات التي تذهب إلى أن الرسول (ص) كان قبل البعثة حنيفياً كبقية الأحناف من العرب . ولكنه بعد أن حمل الرسالة الاسلامية تقدم كثيراً على اولئك الاحناف الذين اتسمت مواقفهم بالرفض لعقيدة الشرك. دون ان يتقدموا خطوات واضحة لاختيار البديل والعمل على تغيير واقع مجتمعهم (١٨) .

ان عقيدة التوحيد التي عرضها القرآن الكريم تبدو أكثر وضوحاً وبساطة واقناعاً من عقيدة الشرك التي كان عليها أغلبية العرب عند ظهور الاسلام.
وكان المفروض أن يقبل العرب هذه العقيدة لو لم تتعارض مع مصالح المسيطرين على النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي من شيوخ القبائل ورجال الملأ (١٩) .

لقد أدرك رجال الملأ في مكة أن الايمان بعقيدة التوحيد قد يكلفهم كثيراً وذلك للاسباب التالية : —

١ — لقد كانت مدينة مكة عند ظهور الاسلام مركز العبادة الوثنية في شبه الجزيرة العربية . وكان مشركو العرب يحجون اليها في موسم معين من السنة ، لتقديم النذور والقرابين لاصنامهم ولاداء مناسك الحج . لذا فقد خشي زعماء مكة ان تفقد مدينتهم مركزها الديني المتميز في حالة انتشار عقيدة التوحيد. خصوصاً، وان مناسك الحج الاسلامي إلى مكة لم تفرض إلا في مرحلة متأخرة من الفترة المدنية .

٢ — لقد كان موسم الحج الوثني الى مكة ذا فائدة اقتصادية واجتماعية للعديد من الاشخاص والاسر الذين يشرفون على تنظيم عبادة الاصنام واقامة مناسك الحج .

كما كان هذا الموسم مناسبة جيدة لانتعاش المبادلات التجارية وتحقيق ارباح كبيرة لاهل مكة وعلى الاخص رجال الملأ المكيين . ومن ثم فقد قدروا ان تحولهم من الشرك الى التوحيد قد يقضي على هذا الموسم ويصيب مصالحهم التجارية بالكساد .

٣ ـ لقد كانت القبائل العربية تعامل اهل مكة بصورة متميزة عن غيرهم لانهم حماة بيت الله الحرام والقائمين على رعاية الاماكن المقدسة. ومن ثم فقد منحت قوافلهم التجارية الحماية والامان مما مكنهم من التجارة بين اليمن والعراق والشام بحرية. وكان من شأن تحول اهل مكة عن عبادة الاوثان ان يؤدي الى نشوب المنازعات بينهم وبين القبائل العربية المشركة مما يفقدهم المعاملة المتميزة التي كانوا يحضون بها والامان الذي كانت تتمتع به قوافلهم التجارية .

وقد أشار القرآن الكريم الى الرفاهية والامان التي كان يوفرها البيت الحرام لقريش بقوله :

«لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف .فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (٢٠) .

«اولم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء » (٢١) «او لم يروا انا جعلنا حرما امنا ويتخطف الناس من حولهم » . كما نقل القرآن تخوف المشركين من ان قبولهم الدعوة قد يؤدي بهم الى فقدان الامان الذي كانوا يتمتعون به من قبل في ظل العقيدة الوثنية: «وقالوا : ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا » (٢٢) .

ولكن هل كان هذا العامل الاقتصادي وحده الذي حمل رجال الملأ المكيين ومن شايعهم على معارضة الرسالة الاسلامية ام كان ثمة عوامل اخرى سياسية واجتماعية تقف الى جانب العامل الاقتصادي. ان عرض ومناقشة الاساس الثاني الذي قامت عليه العقيدة الاسلامية سيساهم في توضيح هذه العوامل . اذ لو كانت معارضة قريش للرسالة الاسلامية راجعة الى عوامل اقتصادية فقط فلربما كان بالامكان ايجاد تسويات او حلول وسط كأن يسمح للرسول بالمضي في دعوته بين العرب مع بقاء قريش على دينها .لقد طرح عتبة بن ربيعة احد الملأ المكيين مثل هذا الحل الوسط على قومه ولكن اقتراحه رفض.

قال عتبة بن ربيعة : «يامعشر قريش، اطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وان يظهر على العرب فملكه، ملككم وعزه عزكم ، وكنتم اسعد الناس به قالوا: سحرك والله ياابا الوليد باسانه . قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا مابدا لكم » (٢٣) .

ان اهم مايلاحظ على اقتراح عتبة انه كان قد استشعر البعد الوحدوي للرسالة الاسلامية وان من المحتمل في حالة نجاحها ان تقود الى وحدة العرب تحت زعامة الرسول (ص) . وبالتالي فقد نصح لقومه بأن يتخذوا موقفا معتدلا من الرسول (ص) ودعوته .

٢ : محمد رسول الله : —

ان الاساس الثاني الذي قامت عليه العقيدة الاسلامية هو الايمان بأن محمدا رسول الله . وقد نص القرآن الكريم على ذلك بقوله : «ماكان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» (٢٤) .

لقد بين القرآن الكريم ان اختيار الرسل ليس شأنا من شؤون البشر . وانما هو امر خطير اختص الله به نفسه. فهو الذي يختار من يشاء من عباده لحمل الرسالة الى الناس : «وماكان الله ليطلعكم على الغيب . ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم اجر عظيم» (٢٥) . وقد بين القرآن الكريم ان سنة الله قد جرت على ان يبعث لكل امة رسولا منهم ليبين لهم سبيل الرشاد (٢٦) .

ان هؤلاء الرسل قد جاءوا متتابعين منذ عهد ادم حتى محمد (ص) : «انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ......» (٢٧) .

ان الغاية من ارسال هؤلاء الرسل الى قومهم هي ان يطاعوا بأمر الله . «وما ارسلنا من رسول الاليطاع باذن الله»

«من يطع الرسول فقد أطاع الله» (٢٨) .

لقد كانت الترجمة الواقعية لهذه العقيدة هي ان يؤمن الناس من اهل مكة وغيرهم بأن محمدا رسول الله . وبناءا على ذلك فان عليهم ان يخضعوا لأوامره التي هي اوامر الله تعالى «وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى» (٢٩) .

لقد كان واضحا ان الايمان بهذا الركن من العقيدة الاسلامية سينقل محمدا (ص) الى مركز الزعامة في قومه مما سيحدث انقلابا كبيرا في البنية السياسية للمجتمع . اذ من المعروف ان العرب كانوا عند ظهور الاسلام ، يتألفون من مجموعة كبيرة من القبائل المستقلة بعضها عن بعض . وكانت كل واحدة منها قائمة على الاعتقاد بوحدة النسب بين افرادها . كما كان لكل منها شيخاً يستمد سلطته عادة من رفعة نسبه وكثرة ماله اضافة الى تمتعه ببعض الصفات الاخلاقية العالية عند العرب كالكرم والشجاعة والحكمة . وكانت العادة تقضي بان لايستبد شيخ القبيلة بممارسة السلطة وحده بل كان يشاركه هذه السلطة رجال الملأ من قومه وهم عادة رؤساء العشائر والبطون .

ان فكرة الرسالة كما عرضها القرآن الكريم كانت تشكل ثورة حقيقية على النظام السياسي القبلي وذلك للاسباب الاتية :

١ — ان الرسالة لم تصل الى محمد (ص) استنادا الى مكانته في القبيلة ، فهو لم يكن شيخا لقومه ولاحتى واحدا من رجال الملأ فيها . كما لم تصل اليه بناءا على ثروة كبيرة يملكها . فهو كان اقرب للفقر منه للغنى . ولكن الرسالة جاءته بناءا على اختيار الله تعالى له فقط . وقد اشار القرآن الكريم الى اعتراض المشركين على هذا الاختيار : «وقالوا لولا انزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» (٣٠) . اي من مكة او الطائف .

٢ — ان الله . الذي اختار محمداً لحمل الرسالة الاسلامية هو رب العالمين . وبالتالي ، فان الرسالة التي حملها محمد الى قومه ليست مقصورة عليهم

وحدهم وانما هي تمتد لتشمل الناس كافة : «ومـا ارسلناك الا رحمة للعالمين» (٣١) .

«ومالرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا» (٣٢) .

ومن ثم فان الايمان بهذه الرسالة ، انما هو بداية لذوبان الحواجز القبلية بين ابناء الامة العربية وبينهم وبين الناس كافة . لقد نص القرآن الكريم على ذلك بقوله :

« ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم» (٣٣) .

٣ ــ ان التزام الناس بطاعة محمد (ص) بحكم الايمان بانه رسول الله سيحول الناس « وبضمنهم شيوخ القبائل ورجال الملأ» إلى« مسلمين » أي مستسلمين لاوامر الله ورسوله. وبذلك يصبح محمد هو الرئيس الفعلي للمجتمع الجديد ويفقد شيوخ القبائل سلطتهم السياسية على قومهم . وقد اشار القرآن الكريم إلى هذه الناحية بقوله : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً» . (٤٣)

لقد رفض رجال الملأ . في مكة الايمان بأن محمدا رسول الله ودعوا قومهم إلى عدم الايمان به استنادا إلى الحجج الاتية : ــ

١ ــ ان الدعوة التي جاء بها مخالفة لنظام المجتمع القائم على تقاليد الاباء والاجداد : ــ

« واذا قيل لهم : تعالوا إلى مانزل الله والى الرسول. قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . او لو كان آباؤهم لايعلمون شيئاً ولا يهتدون » (٣٥).

« وكذلك ماارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها : انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » (٣٦) .

٢ ــ ان شروط الزعامة لاتنطبق على محمد (ص) فهو ليس « ذا مال وبنين» « وليس » عظيماً» في قومه. لقد اشار القرآن إلى هذه الحجة وتولى تفنيدها :

« وقالوا : نحن اكثر اموالا واولادا ومانحن بمعذبين. قل : ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن اكثر الناس لا يعلمون . وما اموالكم ولا اولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الا آمن من وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » (٣٧) .

٣ ـ اذا جاز ان يكون الرسول بشرا فلا بد ان يكون مؤيدا من الله بالمعجزات وهي الامور الخارقة للعادات : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً ، او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتي بالله والملائكة قبيلا او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً »لقد رفض الرسول ـ كما يحكي القرآن ـ ان يستجيب لمثل هذه الطلبات لانها تعبر في صميمها من عدم استعداد للايمان (٣٨) .

لقد كان اشبه بالمستحيل ان يؤمن رجال الملأ برسالة محمد (ص) لان مقتضيات هذا الايمان كانت تكلفهم كثيراً فلا غرابة ان يتشبثوا بشتى الحجج والوسائل في معارضتهم للدعوة. لذا فقد اخذ الرسول يركز جهده لكسب المستضعفين وغيرهم ممن لايقفون منه ومن دعوته موقف التعالي والاستكبار : حتى لقد عاتب الله الرسول حينما تطلع إلى هداية المستغنين عن دعوته واهمل احد اتباعه من المستضعفين « عبس وتولى ان جاءه الاعمى . وما يدريك لعله يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى . اما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك الا يزكى » (٣٩) .

وهكذا ، ففي الوقت الذي اندفع فيه رجال الملأ إلى معارضة الدعوة الاسلامية بسبب رغبتهم في المحافظة على امتيازاتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، اتجه بعض اصدقاء ومعارف الرسول من صغار التجار الذين ضاقت نفوسهم بما كان عليه قومهم من تفرق وضلال إلى الايمان بالدعوة الجديدة . كما شاركهم ايمانهم ، كثير من المستضعفين الذين وجدوا في

الدعوة الجديدة مايريح نفوسهم ويحسن من او ضاعهم (٤٠) خصوصاً وان الدعوة الاسلامية كانت قائمة على قاعدة : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم».

على ضوء ماتقدم ، فقد اتخذ الاسلام موقفا اجتماعيا متعاطفا مع الفقراء والمستضعفين بينما راحت ايات القرآن توجه النقد اللاذع إلى رجال الملأ باعتبارهم ملاكا للرقيق ، بخلاء ظالمين للايتام والفقراء ، متكبرين ، ويغشون في معاملاتهم التجارية (٤١) . اما رجال الملأ فقد سلكوا في محاربة الدعوة الاسلامية في مكة اسلوبين متوازيين :

١ ـ فبالنسبة للرسول (ص) فقد ادعوا بأن ماجاء به ليس جديدا وانما هو اساطير الاولين كما زعموا بان اعجميا يلقنه القرآن الكريم ثم راحوا اخيرا يسخرون من الرسول ويصفونه بالجنون ، وبأنه كذاب وشاعر وساحر (٤٢) .

٢ ـ اما بالنسبة للمستضعفين من الذين آمنوا . فلم يكتف رجال الملأ بالسخرية منهم او الضغط عليهم ليرجعوا عن تأييدهم للرسول بل ذهبوا الى ابعد من ذلك كثيرا ..... فأخذوا يسجنونهم ويعذبونهم .

« قال ابن اسحاق : ثم انهم عدوا على من اسلم واتبع رسول الله (ص) من اصحابه . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش . وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر ، من استضعف منهم . يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه . ومنهم من يصلب لهم . ويعصمه الله منهم » (٤٣) .

لقد استمر رجال الملأ المكي في معارضة الرسالة الاسلامية بشتى الوسائل واضطروا الرسول إلى الهجرة عن مدينته وخاضوا العديد من المعارك ضده ، دفاعا عن مراكزهم السياسية وامتيازاتهم الاجتماعية بالدرجة الاولى . وكانوا ينظرون إلى جهاد الرسول على انه جهاد في سبيل الملك والسلطان . لذا فحينما انهزموا في ميدان الحرب اعلنوا قبولهم لسلطة الرسول السياسية مع بقاء روح الشك العميق في نفوسهم . وربما كان ابو سفيان زعيم مكة

خير مثل على ما نقول . فحين وصلت جيوش المسلمين مكة لفتحها جيء بأبي سفيان إلى الرسول (ص) وكان اشبه مايكون بالاسير فدار الحوار الآتي : « ويحك يا ابا سفيان ، ألم يأن لك ان تعلم انه لا اله الا الله ؟ قال : بأبي انت وامي ما احلمك واكرمك واوصلك لقد ظننت ان لو كان مع الله اله غيره فقد اغنى عني شيئاً بعد . قال : ويحك يا ابا سفيان : الم يأن لك ان تعلم اني رسول الله ؟ قال : بأبي انت وامي ما احلمك واكرمك واوصلك ، اما هذه والله فان في النفس منها حتى الان شيئاً فصاح به العباس ويحك اسلم قبل ان تضرب عنقك فأسلم . ثم ان العباس اخذ ابا سفيان ليشاهد جيوش المسلمين وهي تستعد لدخول مكة فأبدى اعجابه بقوله : «لقد اصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيماً » فرد عليه العباس مصححاً» يا أبا سفيان انها النبوة » قال فنعم اذن (٤٤) .

٣ : الايمان بالرسالات السابقة :ـ

في الوقت الذي دعا فيه الرسول محمد (ص) قومه من المشركين إلى التوحيد كان يعلم ان في جزيرة العرب اقواماً من اهل الكتاب الذين يؤمنون مثله بالتوحيد (٤٥) لذا فقد توقع تأييدهم ونصرتهم كما راوده الامل ان يؤمنوا به باعتباره رسول الله إلى الناس كافة وان يصبحوا مسلمين . خصوصاً وان جوهر جميع الاديان السماوية كما ورد في القرآن الكريم هو الاسلام اي « الاستسلام لاوامر الله التي ينقلها رسله إلى الناس» (٤٦) ان الرسالة التي جاء محمد بن عبدالله (ص) ليبشربها « بلسان عربي مبين » ـكما يقرر القرآن الكريم هي امتداد للرسالات السابقة التي بشر بها ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى . ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (٤٧)

لقد اكد القرآن الكريم في العديد من الايات ان الاسلام ماجاء لينقض ما جاءت به الاديان السابقة ، بل مصدقا لها ومفصلاً لبعض ما اجملته من امور واحكام : « والذي اوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين

يديه » (٤٨) . « ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة وهذا كتاب مصدق، لساناً عربيا » ..... (٤٩) .

« ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (٥٠) .

لقد اعلن بعض اهل الكتاب تصديقهم لما جاء في القرآن الكريم من تعاليم واكدوا ان هذه التعاليم هي امتداد لما جاء في كتبهم الدينية (٥١) .

وقد نص القرآن الكريم على ذلك بقوله : « نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين وانه لفي زبر الاولين ، او لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل (٥٢) « قل ارأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لايهدي القوم الظالمين » (٥٣) .

لقد وضع القرآن الكريم اليهود والنصارى والصابئين من حيث المبدأ في صف واحد مع المؤمنين برسالة محمد (ص) ، واثنى عليهم جميعا وبشرهم برضوان الله عليهم طالما التزموا بالايمان بالله وبالعمل الصالح « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الاخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٥٤).

ان ما ورد آنفاً لايعني ان هنالك تطابقاً بين هذه الاديان ، وانما يعني ان هنالك اتفاقا في جوهر العقيدة اما التفاصيل المتعلقة بمناسك العبادة واحكام الشريعة . فقد اشار القرآن الكريم إلى التمايز بين هذه الاديان : « وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة . ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٥٥) .

ان الايات السابقة تشير إلى ان الحكمة الالهية قد اقتضت بأن لا يتوحد الناس في ملة واحدة او دين واحد بل اقتضت ان ينقسموا إلى اديان متعددة كي يتنافسوا فيما بينهم في طلب الخيرات (٥٦) .

لقد قرر القرآن الكريم ان نجاة الانسان يوم القيامة لاتعتمد على التمنيات او مجرد الانتساب إلى احد الاديان السماوية وانما تعتمد على العمل الصالح ايا كان فاعله « ليس بأمانيكم ، ولا اماني اهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجزبه ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى ، وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » (٥٧).

لقد استنتج من النص القرآني الوراد اعلاه « ان الفوز لايكون بالجنسيات الدينية . وانما يكون بايمان صحيح له سلطان على النفس وعمل يصلح به حال النفس . ولذلك نفى كون الامر عند الله اماني المسلمين او اماني اهل الكتاب واثبت كونه بالعمل الصالح مع الايمان الصحيح » (٥٨).

لقد شاع لفترة طويلة في الفكر الاسلامي رأى ، يرى ان الاسلام قد نسخ بمجيئه سائر الاديان السابقة عليه استنادا إلى الاية القرآنية : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين » (٥٩) .

غير ان بعض المفسرين يرون ان المقصود بالاسلام هنا : هو الجوهر الديني الذي انطوت عليه الاديان السماوية كافة والذي يقضي بوجوب التسليم باوامر الله التي جاءت عن طريق الرسل كافة. وبالتالي فليس المقصود بالاسلام الوارد في هذه الآية دينا معينا بالذات. ومن ثم فليس هناك ناسخ ومنسوخ في العلاقة بين الاديان السماوية وانما هي فروع متعددة لدين الهي واحد والذي اطلق عليه القرآن الكريم اسم : اسلام (٦٠) .

ان موقف الاسلام المتسامح والمنفتح مع اهل الكتاب على مستوى العقيدة قد مهد الطريق لاقامة جسور الثقة والتعاون بين المسلمين وبين كل من النصارى واليهود على مستوى الحياة الاجتماعية. لذا فقد سعى الاسلام إلى ازالة الحواجز

الاجتماعية التي تفصل بين المسلمين وأهل الكتاب سواء اكانوا يهوداً او مسيحيين، وذلك عن طريق اباحة طعام كل منهم للآخر. واباحة زواج المسلمين من الكتابيات وقد نص القرآن الكريم على ذلك في احدى سوره المدنية : «اليوم احل لكم الطيبات، وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم»(٦١).

ان اباحة القرآن الكريم للمسلم ان يتزوج من كتابية تدل على انه كان يسعى لتأكيد الاحترام والاعتراف المتبادل بين اتباع هذه الاديان. كما يؤكد رغبة الاسلام في تعميق اواصر المحبة والتكامل الاجتماعي بين اتباع هذه الاديان عن طريق السماح بتكوين العوائل المختلطة من ناحية العقيدة : كأن يكون الزوج مسلماً والزوجة مسيحية او يهودية، وكأن يكون الاعمام مسلمين والاخوال يهوداً او مسيحيين، وهكذا ....

لقد استعمل الرسول (ص) هذه الاجازة شخصياً، فاتخذ له من بين اليهود زوجة وهي « صفية حيي»(٦٢) مما يؤكد الاستنتاجات التي اشير اليها آنفاً.

اما على مستوى السياسة فقد ساعد موقف الاسلام المتسامح من اهل الكتاب على اقامة جسور من الثقة والتعاون بين المسلمين وكل من النصارى واليهود وحسب التفصيل الاتي :—

١ ــ العلاقة بين المسلمين والمسيحيين :—

لقد كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة، اول ترجمة عملية لروح التعاون بين المسلمين والمسيحيين الذي بشرت به الدعوة الاسلامية فقد روى ابن اسحاق ان الرسول (ص) قال لاصحابه ــ لما رأى ما يصيبهم من البلاء على ايدي قومهم من المشركين : لو خرجتم إلى ارض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده احد وهي ارض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما انتم فيه (٦٣). وقد تحقق فعلاً ما توقعه الرسول من النجاشي فقد روت ام سلمة عن وضع المهاجرين في الحبشة ما نصه :

«لما نزلنا ارض الحبشة، جاورنا بها خيرها ــ النجاشي ــ امنا على ديننا وعبدنا الله تعالى لانؤذى ولانسمع شيئا نكرهه (٦٤) فلما بلغ مشركي مكة ذلك خافوا ان تتطور العلاقة بين المسلمين والاحباش فقرروا ارسال وفد للنجاشي لاقناعه بارجاع المهاجرين إلى قومهم. وكان مما قالوه له: «ايها الملك، انه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا انت وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من ابائهم واعمامهم وعشائرهم لتردهم اليهم» (٦٥). ولكن النجاشي رفض الاستجابة لطلبهم بعد ان قابل مجموعة من المهاجرين وسمع منهم شيئا عن الدعوة الاسلامية حتى ان ابن هشام يذكر ان النجاشي قد تأثر كثيرا مما سمع من القرآن حتى لقد بكى وبكى معه اساقفته وقال للوفد «ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقوا فلا والله لا اسلمهم اليكم، ولا يكادون» (٦٦). لقد شجع موقف النجاشي الودي الرسول (ص) على ارسال دفعة ثانية من المهاجرين إلى الحبشة حتى بلغ مجموع المهاجرين «سوى ابنائهم الذين خرجوا معهم صغارا وولدوا بها: ثلاثة وثمانين رجلا» (٦٧).

وقد بقي هؤلاء المهاجرون في الحبشة فترات متباينة حسب ظروف كل منهم الا ان اغلبهم قد عاد منها والتحق بالرسول (ص) بعد هجرته إلى المدينة وانتصاره في معركة بدر على المشركين اي بعد مضي تسع سنوات على بداية الهجرة إلى الحبشة غير ان بعضهم وعلى رأسهم جعفر بن ابي طالب ــ عم الرسول (ص) ــ قد تاخروا كثيرا في الحبشة ولم يعودوا منها الا بعد ان ارسل الرسول (ص) رسولا إلى النجاشي يطالب بعودتهم وكان ذلك بعد صلح الحديبية اي بعد مضي ثلاث عشرة سنة على هجرتهم إلى الحبشة. مما يدل على ان المهاجرين كانوا يتمتعون بحياة جيدة في الحبشة وكانوا يعاملون من قبل النجاشي وقومه من المسيحيين معاملة طيبة. حتى لقد اثرت هذه المعاملة في احدهم كثيرا فاعتنق المسيحية وهو عبيد الله بن جحش (٦٨) كما

استمرت علاقة الرسول (ص) طيبة بالنجاشي حتى وفاته في سنة ٩ للهجرة حيث «صلى عليه واستغفر له» (٦٩) .

لقد وصف القرآن الكريم هذه العلاقات الحسنة التي سادت بين المسلمين والمسيحيين بقوله: «ولتجدن اقربهم مودة للذين امنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون . واذا سمعوا ما ازل إلى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع المشاهدين» (٧٠) .

كما سجل القرآن الكريم تعاطفه العميق مع الروم – المسيحيين – في حربهم مع الفرس – المجوس – وتنبأ لهم بالانتصار عليهم في خاتمة المطاف بقوله : « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون » (٧١) .

ان هذا الطابع الودي والايجابي الذي طبع علاقات المسلمين بالمسيحيين لم يخل من توترات ومساجلات فكرية في عصر الرسالة مما كاد يقلب اساس العلاقات الودية التي بناها الاسلام في سنواته الاولى . ويمكن تلخيص عوامل التوتر بالنقاط الاتية : –

أ – من المعروف ان المسيحيين كانوا مختلفين حول طبيعة المسيح وعقيدة التثليث الى فئات مختلفة . لذا كان من المنطقي ان ينتقد القرآن الفئات المسيحية التي اعتقدت بتأليه المسيح باعتباره مخالفا للتوحيد الذي دعا اليه بقوة نحو قوله : «لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم» (٧٢) .

«لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة (٧٣) .

ب – بعد هجرة الرسول (ص) الى المدينة وتأسيس الدولة العربية الاسلامية فيها . اخذت هذه الدولة تنمو وتتوسع حتى وصلت مرحلة حرب التوحيد والتحرير ضد الدولة البيزنطية وحلفائها وقد تجلى ذلك في غزوة مؤتة وتبوك مما فتح باب الصراع بين الدولة العربية الاسلامية والدول المسيحية (٧٤) .

جـ ـ لقد اقتضت ضرورات تنظيم الدولة العربية الاسلامية فرض الجهاد والزكاة على المسلمين وفرض الجزية على اهل الكتاب . وقد اعتقد بعض العلماء المسلمين ان سبب فرض الجزية على اهل الكتاب هو عدم تدينهم بشريعة الاسلام . غير ان هذا الفهم غير صحيح لانه لو كان صحيحا لما أعفي من هذه الضريبة الرهبان ورجال الدين والنساء والشيوخ . ان هـذه الضريبة قد فرضت بدلا عن النصر والجهاد اي عوضا عن الخدمة العسكرية لذا فقد اسقطت عن اهل الكتاب الذين التحقوا بالجهاد الى جانب المسلمين (٧٥).

٢ ـ علاقة المسلمين باليهود : ـ

لقد لعب اليهود دورا غير مباشر في تهيئة اذهان العرب ، وعلى الاخص اهل يثرب لتقبل الدعوة الاسلامية من خلال حديثهم عن الايمان بالله واحد والايمان بالانبياء والرسل والبعث بعد الموت . كما ان توقعهم لمجيء المخلص الذي سيقودهم الى النصر ضد اعدائهم ، سهل على اهل يثرب الايمان بالرسول محمد (ص) قبل ان يسبقهم اليه اليهود (٧٦) .

ويبدو ان الرسول ، كان يضع هذه الاعتبارات في ذهنه حينما اتصل بجماعة من اهل يثرب بحدود السنة العاشرة للبعثة . واخذ يدعوهم الى الاسلام . اذ استهل حديثه معهم حينما اخبروه انهم نفر من الخزرج بقوله : من موالي يهود انتم ؟ فقالوا له نعم . فقال افلا تجلسون اكلمكم ؟ (٧٧) .

لقد لاقى الاسلام نجاحا باهرا بين عرب يثرب ، اذ ما كاد هؤلاء النفر يعودون الى قومهم ويتحدثون لهم عن الاسلام حتى انتشر بينهم فلم يبق دار من دور الانصار الا وفيها ذكر من رسول الله (ص) لذا فقد تم التعاقد خلال السنتين التاليتين بين الرسول وبين ممثلي الاوس والخزرج على هجرة الرسول من مكة الى يثرب وذلك بموجب بيعة العقبة الاولى والثانية .

ويبدو ان الدافع المباشر الذي دفع اهل يثرب لقبول الدعوة الاسلامية هو ما ذكره النفر الاوائل الذين دعاهم الرسول للاسلام . اذ قالوا : «انا قد

تركنا قومنا ، ولاقوم بينهم من العداوة والشر مابينهم ،فعسى ان يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم الى امرك ونعرض عليهم الذي اجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل اعز منك » (٧٨) .فالدافع المباشر لاقبال اهل المدينة على الايمان بالدعوة هو البحث عن التوحيد والوحدة تحت قيادة الرسول (ص) ورسالته اما الدافع غير المباشر فكان الرد على التحدى العقائدي الذي يواجههم به اليهود .

اما موقف اليهود من الدعوة الاسلامية ، فيبدو من الادلة التالية انه كان في البداية حسنا :—

أ — لقد استشهدت بعض الايات القرآنية باليهود لتأييد صحة الدعوة الاسلامية «أولم يكن لهم اية ان يعلمه علماء بني اسرئيل» (٧٩) «قل ارأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به،وشهد شاهد من من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لايهدي القوم الظالمين» (٨٠) .

ب — حينما هاجر الرسول (ص) الى المدينة كان اول من رآه رجل من اليهود فانطلق يبشر المسلمين بوصوله «فصرخ باعلى صوته ، يابني قيلة ، هذا جدكم قد جاء» (٨١)

ج — بعد وصول الرسول (ص) الى المدينة «كتب رسول الله (ص) كتابا بين المهاجرين والانصار وادع فيه اليهود وعاهدهم واقرهم على دينهم واموالهم وكان مما جاء فيه «وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولامتناصر عليهم » و «ان اليهود ينفقون مع المؤمنين مادامو محاربين وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وانفسهم . الا من ظلم واثم فانه لايوقذ الا نفسه واهل بيته» (٨٢) .

ربما كان الدافع الذي حمل اليهود على اتخاذ هذا الموقف الايجابي نسبيا من الرسول انهم اعتقدوا ان نجاح الرسول في توحيد اهل المدينة حول

رسالته سيجلب الامن والرخاء للمدينة وبالتالي فان مصالحهم التجارية قد تزدهر وربما دفعتهم تأكيدات القرآن في المرحلة المكية بان الاسلام جاء مصدقا لما جاءت به الرسالات السابقة وثناءه المتكرر على بني اسرائيل وانبيائهم الى التفاؤل ، والظن بان هجرة الرسول الى المدينة قد تكون لصالحهم .

غير ان موقف اليهود اخذ بالتبدل بعد ان شعروا بخطر المنافسة التي بدأ يشكلها وجود المهاجرين القرشيين المعروفين ببراعتهم التجارية على مصالحهم الاقتصادية ، كما ان تنامي قوة الرسول (ص) وانتصاره على قريش في معركة بدر وتوجهه نحو توحيد المجتمع المديني من خلال الصحيفة التي اعلنها والتي اعتبرت «اليهود امة مع المؤمنين» ودعوة الرسول (ص) اليهود للايمان به جعلت اليهود يشعرون بالخطر يتهدد وجودهم المتميز في المدينة من الناحية الدينية والسياسية .

ومن ثم، فقد شرعوا بمعارضة الرسول (ص) والدعوة الاسلامية عن طريق التشكيك بصحة الرسالة الاسلامية والتعاون مع المنافقين من اهل المدينة لاضعاف مركز الرسول فيها . واخيرا في مد يد المعاونة لمشركي مكة في حربهم ضد الرسول والدعوة الاسلامية وكان طبيعيا ان يرد القرآن عليهم ويفند انتقاداتهم وتشكيكاتهم في الرسالة الاسلامية ويكشف حقيقة موقفهم في العديد من الايات نحو قوله: «ياايها الذين امنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ، ودوا ماعنتم ، قد بدت البغضاء من افواههم وماتخفي صدورهم اكبر . قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون. هاانتم اولاء تحبونهم ولايحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، واذا لقوكم قالوا آمنا. واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ. قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها. وان تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا . ان الله بما يعملون محيط» (٨٣) .

قد تطور الصراع بين الرسول (ص) واليهود حتى انتهى الى اتخاذ اجراءات عملية ضد اليهود . فقام الرسول باجلائهم عن المدينة على دفعات عن طريق

القوة المسلحة وبذلك انهى وجودهم السياسي في المدينة . ولكن كل ذلك لم يؤد الى سحب اعتراف الاسلام بالديانة اليهودية كديانة سماوية . كما استمر الرسول في معاملته لليهود باعتبارهم اهل كتاب شأنهم في ذلك شأن المسيحيين .

٤ ـ البعث بعد الموت : ـ

تقوم هذه العقيدة على التأكيد بان الموت ليس هو خاتمة المطاف بالنسبة للانسان وانما هو مرحلة اشبه بالسبات ، تعقبه مرحلة انبعاث وحياة خالدة اخرى . جاء في القرآن الكريم : «هو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيها ليقضى اجل مسمى ، ثم اليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون» (٨٤) .

ان هذه العقيدة تلتقي مع حب الانسان للحياة وتطلعه للخلود وكراهيته للموت والفناء . لذا فقد عرفت هذه العقيدة بصور مختلفة في العديد من العقائد والاديان . ولكنها اخذت ابعادها المحددة في الاديان السماوية ، وهي اليهودية والمسيحية والاسلام .

لقد بشرت هذه الاديان بعقيدة البعث بعد الموت ، واوضحت ان الانسان سيحاسب امام الله عن اعماله التي قام بها في حياته الاولى فمن امن بالله ورسله وعمل صالحا فانه سيدخل الجنة . واما من كفر واساء في عمله فانه سيعاقب بدخولهم الجحيم .

لقد وصف القرآن الكريم يوم البعث والجنة والنار باوصاف حية ومؤثرة وبآيات كثيرة جدا نحو قوله : «فكيف اذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفيت كل نفس ماكسبت ، وهم لايظلمون» (٨٥) «وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا ، حتى اذا جاؤها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ، الم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم ايات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل : ادخلوا ابواب جهنم

خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة ، زمرا حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين» (٨٦) .

لقد كانت العقبة الكبرى التي واجهت الرسول (ص) وهو يبشر قومه من مشركي مكة بهذه العقيدة ، انهم كانوا لايؤمنون بعقيدة البعث بعد الموت . وكانوا يقولون كما ينقل القرآن عنهم : «ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين (٨٧) «وإذا متنا وكنا ترابا وعظاما ءإنا لمبعوثون» (٨٨) .

غير ان القرآن الكريم حاول اقناعهم بهذه العقيدة منطلقاً من حقيقة ان مشركي مكة كانوا يؤمنون بان الله هو خالق كل شيء .وبالتالي فان الله الذي خلقهم لقادر على ان يبعثهم من جديد بعد موتهم.جاء في القرآن الكريم: « ويقول الانسان اذا ما مت لسوف اخرج حيا ؟ اولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » (٨٩) .

ثم ان القرآن الكريم ، بعد ان اثبت للمشركين امكانية البعث بعد الموت وحقيقته راح يستثمر هذه العقيدة في مئات الآيات الحية المؤثرة لترغيب الناس بالايمان والثبات على العقيدة والتضحية من اجلها والالتزام بمثلها وآدابها ذلك لان الله قد وعد المؤمنين الصالحين بان يخلدهم في الجنة يوم القيامة .

كما حذر القرآن الكريم في مئات السور المؤثرة المرعبة الكافرين بان لهم يوم القيامة عذاب جهنم خالدين فيها .

ولم يكتف القرآن بالترهيب العام من نار جهنم . بل راح يوجه الخطاب إلى زعماء المشركين بالدعوة بصورة خاصة ويبين لهم انه لن ينقذهم من عذاب نار جهنم اموالهم ولا اولادهم كما لن يشفع لهم احد امام الله .فالمسؤولية يوم القيامة مسؤولية فردية والمعيار الوحيد للنجاة هو الايمان والعمل الصالح :

« ان الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئاً» (٩٠) . « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء .

لقد تقطع بينكم وضل عنكم ماكنتم تزعمون « كما وجه القرآن الكريم خطابه إلى عامة الناس والمستضعفين داعيا اياهم إلى الخروج عن طاعة سادتهم المشركين والالتحاق بالدعوة الاسلامية لان هؤلاء السادة لن يغنوا عنهم من عذاب الله شيئاً يوم القيامة : « يوم تقلب وجوههم في النار ، يقولون يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا . وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » (٩١) .

وهكذا يتبين ان عقيدة البعث بعد الموت بما تنطوي عليه من ترغيب في الجنة وترهيب من الجحيم قد لعبت دورا سياسيا كبيرا في خدمة اهداف الدعوة الاسلامية . اذ انها اشاعت روح الشك والتردد في صفوف المشركين. كما حملت اعداد متزايدة منهم على الايمان بها وتقديم صنوف التضحيات في سبيلها من اجل انقاذ ارواحهم والحصول على الجنة يوم القيامة.

٥ ــ امة واحدة : ــ

لقد كانت المبادىء الاساسية التي قام عليها الاسلام وهي الايمان بإله واحد والايمان برسالة محمد (ص) والرسل السابقين عليه ، والايمان بالبعث بعد الموت هي المحور المركزي الذي دار حوله نشاط الرسول (ص) طيلة فترة دعوته التي امتدت حوالي ٢٢ عاما بشطريها المكي الذي دام اثني عشر عاما والمدني الذي امتد حوالي عشرة اعوام .

لقد تميز الشطر المكي بالدعوة إلى هذه المبادىء بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن (٩٢) اذ توجه الرسول في البداية إلى قومه في مكة ، بيشرهم وينذرهم بلسان عربي مبين (٩٣) « وانذر عشيرتك الاقربين» (٩٤)«وانه ذكر لك ولقومك» (٩٥)«ولتنذر ام القرى ومن حولها»(٩٦) « وما

ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم»(٩٧) « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » (٩٨) .

لقد كان اول من امن بالرسول (ص) زوجته خديجة وبعض اهل بيته واصدقائه ونفر من المستضعفين من قومه(٩٩) وكان اول من كفر به سادة قومه من رجال الملأ وبذلك انقسم المجتمع المكي إلى فئتين : فئة محافظة على التقاليد ، مسيطرة على المجتمع تكفر بالدعوة وترى فيها عاملاً خطراً على مصالحها وعلى وحدة واستقرار المجتمع . وفئة مسلمة بقيادة الرسول ، تسعى عن طريق الكلمة – القرآن – إلى تغيير المجتمع واخراجه من الظلمات إلى النور .

لقد اتسمت معارضة المشركين للدعوة الاسلامية بالعنف والعناد ولجأوا بحكم سيطرتهم على المجتمع إلى اساليب الضغط الادبي والاجتماعي والاقتصادي لايقاف انتشار الدعوة ومحاصرتها . ثم لجأوا إلى العنف والتعذيب ، يشهرونه في وجه المستضعفين الذين لايتمتعون بالحماية العشائرية لفتنتهم عن دينهم . ولكن هذه الاجراءات لم تنجح في محاصرة الدعوة ومنعها من الانتشار والتقدم .

اما الرسول فقد كان يبذل جهودا كبيرة من اجل غرس معاني الايمان في نفوس اتباعه وبث روح الصبر والتماسك بينهم . وكانت ايات القرآن الكريم تحكي للمسلمين قصص الانبياء السابقين وما لاقى اتباعهم من اضطهاد وتعذيب فصبروا على كل ذلك حتى جاءهم نصر الله ...... كما كان القرآن يبشر المؤمنين الصابرين بجنات عدن يخلدون فيها يوم القيامة . اضافة إلى الانتصار على اعدائهم في الحياة الدنيا .

لقد اعتبر القرآن الكريم المؤمنين بالرسالة الاسلامية « امة» واحدة : « وان امتكم هذه امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » ونظرا لان هذه الامة الواحدة قد حملت رسالة السماء وراحت تبشر بها الناس .فقد خاطبها القرآن

بقوله : « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١٠٠) « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (١٠١) .

ان الانتساب إلى الامة لايتطلب نسبا معينا او ثروة خاصة وانما الايمان بالرسالة الاسلامية فقط. كما ان مكانة الفرد في هذه الامة لا تستند إلى معايير المجتمع الجاهلي كالنسب وكثرة الاموال والاولاد ، وانما تستند إلى التقوى. وهي تعني الايمان العميق بالرسالة ، والالتزام بمبادئها والتضحية في سبيلها: « وما اموالكم ولا اولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ، الا من آمن وعمل صالحاً » (١٠٢) . « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (١٠٣).

لقد امتازت الامة « الناشئة بانها امة منفتحة على الناس كافة لانها تقوم على الايمان وهو مسألة عقيدة وضمير . وبذلك تجاوزت الحواجز والتقسيمات القبلية والاقليمية والعرقية الضيقة . جاء في القرآن الكريم : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل ، لتعارفوا ا ن اكرمكم عند الله اتقاكم » (١٠٤) . لذا لم يحصر الرسول (ص) دعوته بابناء قومه من قبيلة قريش ، بل تجاوزها إلى دعوة ابناء القبائل العربية الاخرى كثقيف والاوس والخزرج .....

كما تمكن من كسب بعض الموالي من غير العرب كصهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي ... وكأن هؤلاء كانوا رموزاً لاقوامهم فقد سعى الرسول لكسب الاحباش عن طريق حث مجموعة كبيرة من اتباعه للهجرة إلى الحبشة. كما ارسل رسائل إلى بلاد فارس والروم لدعوة حكامها إلى اعتناق الاسلام . لقد نص القرآن الكريم على ان الرسالة الاسلامية هي رسالة عالمية للناس كافة « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين (١٠٥) ما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا (١٠٦) » .

ولقد سعى الاسلام إلى بناء امة متميزة في عقيدتها وسلوكها وعباداتها. لذا لم يكتف باعتناق اتباعه للعقيدة الاسلامية فقط بل طالبهم الألتزام بقواعد

الاخلاق والسلوك الفاضل كالصبر والصدق والامانة والتواضع والكرم .
كما طلب منهم اداء العبادات التي فرضها عليهم لانها تساعد على تقوى الله والالتزام باوامره :

« ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله اكبر » (١٠٧) .

لقد وصف القرآن الكريم بمئات من الايات الصفات التي يتحلى بها المؤمنون من افراد الامة الاسلامية نحو قوله : « قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ،والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون » (١٠٨) .

لقد كرست هذه الصفات التي اتصف بها المؤمنون من افراد « الامة » الناشئة الانقسام في المجتمع المكي . ذلك لان امة المؤمنين قد غدت مختلفة تماما عن امة المشركين : في عقيدتها ، وسلوكها ، وعباداتها ، لذا فقد اصبح التعايش السلمي بين الامتين وفي مكان واحد — مكة — اشبه بالمستحيل. لذا فقد اخذ اضطهاد المشركين المسيطرين على المجتمع يتصاعد ضد المسلمين. مما اضطر الرسول إلى البحث عن ملجأ له ولاتباعه خارج مدينة مكة .

ومن ثم فقد حث نفراً من اتباعه على الهجرة إلى الحبشة ..... ثم توجه هو إلى الطائف بحثا عن ملجأ أو حماية . فلما فشل اخذ يتوجه إلى وفود العرب القادمين إلى مكة في مواسم الحج عسى ان يجد بينهم نصيرا لدعوتهم .... وكان له ما اراد بحدود السنة العاشرة للبعثة . اذ قابل عند العقبة نفرا من اهل يثرب فآمنوا بدعوته ثم عادوا إلى قومهم يبشرونهم بالدين الجديد ... ولم تمض على اول لقاء له بأهل يثرب سوى سنتين حتى كانت الدعوى قد ثبتت مواقعها في يثرب وحتى بدأ الرسول واتباعه بالهجرة ومن ثم فقد دعيت

مدينة الرسول او المدينة . وبذلك بدأت المرحلة الثانية من مراحل بناء « الامة» الاسلامية الناشئة .

لم يدخل الرسول (ص) المدينة بصفته لاجئا ، بل دخلها بصفته رسولا وذلك لان المسلمين من الاوس والخزرج كانوا ينظرون اليه بصفته رسول الله ، وان طاعته واجبة كطاعة الله . كما انهم قد سبق وبايعوه على «السمع والطاعة » في بيعة العقبة الثانية . اما بقية ابناء الاوس والخزرج ممن لم يدخلوا في الاسلام فقد اظهروا للرسول (ص) الاحترام تضامنا مع قومهم . وكذلك فعل يهود المدينة تضامنا مع حلفائهم من الاوس والخزرج (١٠٩).

لقد ادرك الرسول منذ البداية ان عليه العمل من اجل تقوية مركزه ، وبناء الوحدة الداخلية في المدينة ، وذلك عن طريق اتخاذ الخطوات الاتية : —

١ — من اجل تحقيق الوحدة بين ابناء قبيلتي الاوس والخزرج المتنافستين، فقد اطلق عليهم وصف «الانصار» لانهم نصروا الدعوة . كما اطلق على المسلمين الذين قدموا إلى المدينة ايا كان انتماؤهم القبلي وصف «المهاجرين». وبذلك اصبح المجتمع الجديد مكونا من المهاجرين والانصار (١٠١) .

٢ — ولغرض تمتين الروابط بين المهاجرين والانصار، وحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي واجهت المهاجرين إلى المدينة في اول عهدهم بها، فقد اعلن الرسول (ص) المؤاخاة بين المهاجرين والانصار فقال لهم: تآخوا في الله اخوين اخوين» (١١١) .

ويبدو ان هاتين الخطوتين حققت اهدافها في تحقيق الوحدة بين المؤمنين لذا فقد اشار اليها القرآن بقوله : «واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداءاً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً» (١١٢) .

٣ — كما قام الرسول (ص) ببناء المسجد (١١٣) ليكون مركزاً لنشاطات المسلمين المختلفة حيث يجتمعون فيه لأداء الصلاة، وسماع توجيهات ومواعظ الرسول (ص) وللتداول في امورهم العامة .

٤ — ثم ان الرسول كتب «كتاباً بين المهاجرين والانصار وادع فيه يهود وعاهدهم واقرهم على دينهم واموالهم وشرط لهم واشترط عليهم» . وقد عرف هذا الكتاب بـ «الصحيفة» . وقد وصفه كثير من الكتاب المعاصرين بـ «دستور المدينة» . وكان اهم ما تضمنه هذا الكتاب ما يأتي : —

أ — اعتبر «المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، انهم امة واحدة من دون الناس» «وانه من تبعنا من يهود ، فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم» . وبذلك تكون «الأمة» الناشئة في يثرب مؤلفة مبدئياً من المسلمين المهاجرين والانصار — ومن تبعهم من مشركي الاوس والخزرج ويهود مدينة يثرب .

ب — تقوم العلاقة بين ابناء — الأمة — وبغض النظر عن انتماءاتهم القبلية او الدينية على اساس المساواة والتضامن في جميع الاحوال .

جـ — تعتبر مدينة يثرب حرما آمنا بالنسبة لاهل المدينة فلا يجوز لهم الاقتتال او سفك الدماء .

د — يكون الرسول (ص) «مردا» ترد اليه كافة المشاجرات والمخاصمات للفصل فيها أي قاضياً . كما لا يجوز لاحد الخروج للحرب الا باذن منه(١١٤).

لقد ساعدت هذه الاجراءات التنظيمية التي قام بها الرسول (ص) على ايجاد سلطة منظمة تحت قيادته تتولى مسؤولية حكم سكان مدينة يثرب وبذلك بات من الممكن القول ان الرسول (ص) قد افلح في انشاء «دولة — مدينة» في يثرب ، لتكون نواة للدولة العربية الاسلامية الكبرى .

٥ : الجهاد في سبيل الله : —

لقد كانت الهجرة إلى المدينة نقطة تحول كبرى في حياة الجماعة الاسلامية ، وفي اسلوب عمل الرسول (ص) فبعد ان كانت هذه الجماعة تحت سلطة اعدائها من رجال الملأ المكيين ، غدت جماعة مستقلة ، تعيش وتعمل تحت قيادة الرسول (ص) . ومن ثم فقد اصبح بامكانها مواجهة اعدائها بالقوة

بعد ان كانت تكتفي بالصبر والمسامحة لذا لم يعد الجهاد في سبيل الله مقصوراً على بذل الجهد في سبيل نشر الدعوة عن طريق الكلمة والاقناع ، بل انضاف اليه بذل الجهد في استعمال السيف لقهر الأعداء في ميدان الحرب. وقد اشار القرآن الكريم إلى هذا التحول بقوله :

« اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز . الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة واتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الامور» (١١٥).

لقد كان تفسير هذه الايات ان الله قد «اذن» للامة الاسلامية الناشئة ان تلجأ إلى السيف لمواجهة قبيلة قريش التي اضطهدت المسلمين ومنعتهم من ممارسة حريتهم في عبادة الله مما اضطرهم للهجرة عن موطنهم مكة . لذا فقد شرع الرسول (ص) بعيد استقراره في يثرب إلى تنظيم سرايا مسلحة للقيام باعتراض قوافل قبيلة قريش ومصادرتها (١٠٦) وقد كان الغرض من هذا الاجراء على ما يبدو فرض حصار اقتصادي على تجارة قريش الخارجية لارغامها على الاعتراف بالمسلمين والتفاهم معهم. غير أن قريشاً لم ترضخ لهذا الضغط ولجأت إلى المقاومة المسلحة ، مما ادى إلى حصول معركة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة والتي انتهت بانتصار كبير للمسلمين (١١٧) .

لقد حمل هذا الانتصار قريشاً على اعداد اقصى ما تستطيع من قوة للثأر من المسلمين. وقد تم لها ما ارادت في معركة احد التي وقعت في السنة الثالثة للهجرة (١١٨). ثم واصلت قريش جهودها في جمع الانصار والحلفاء حيث تمكنت من حصار المدينة في غزوة الاحزاب في السنة الخامسة للهجرة ولكنها فشلت في اقتحام المدينة (١١٩) ..... وبذلك انتقل زمام المبادرة إلى ايدي المسلمين . فاتجهوا في السنة السادسة إلى مكة طالبين السماح لهم بزيارة الكعبة .

لان الاسلام قد اعترف بقدسية الكعبة وامر المسلمين بالتوجه نحوها في الصلاة. ولكن قريشاً قد رفضت هذا الطلب وهددت باستعمال السلاح لمنع المسلمين من دخول مكة. غير أن قريشاً اضطرت في النهاية وتحت ضغط حلفائها الذين استنكروا موقفها من المسلمين الذين جاؤوا مكبرين وزائرين لبيت الله الحرام إلى مفاوضة المسلمين وتوقيع صلح الحديبية معهم (١٢٠) .

لقد ضمن هذا الصلح للرسول الحق في زيارة الكعبة في السنة التالية والحق في نشر دعوته بين القبائل العربية . مما فتح آفاقا جديدة امام انتشار الاسلام في جزيرة العرب . لذا فما كادت قريش تخل باحد بنود صلح الحديبية في السنة الثامنة للهجرة حتى توجه الرسول بقوة كبيرة تقدر بحدود عشرة الاف مقاتل وفتح مكة دون ان يلقي مقاومة تذكر (١٢١) . وبذلك تمكن من وضع حد للصراع الذي دام عشرين عاما بين الاسلام والشرك . لقد وصف القرآن الكريم هذا النصر بقوله : «اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » (١٢٢) .

لقد كانت مكة عاصمة الشرك وقائدة المشركين في جزيرة العرب . ومن ثم ، فقد ادى فتحها الى دخول بقية بلاد العرب في الاسلام بسهولة .... فلم تلبث الطائف ان دخلت في الاسلام (١٢٣) . ثم اخذت القبائل العربية ترسل الوفود الى الرسول (ص) لمبايعته على الاسلام . حتى لقد اطلق على السنة التاسعة للهجرة عام الوفود لكثرة الوفود العربية التي وفدت على الرسول (ص) لمبايعته (١٢٤) لذا فقد اعلن القرآن الكريم في هذا العام الغاء الشرك من جزيرة العرب وحرم على المشركين زيارة الكعبة (١٢٥) وبذلك اصبح الاسلام هو العقيدة الرسمية للعرب وللدولة العربية الموحدة .

وهكذا حققت العقيدة التي جاءت تدعو الى وحدة الله في السماء وحدة الامة العربية على الارض .

المصادر والمراجع :ـ

١ ــ سورة ابراهيم ٣٠
٢ ــ سورة البقرة ١٦
٣ ــ سورة الزمر ٣
٤ ــ الدكتور محمد احمد خلف الله ، محمد والقوى المضادة ، مصر ١٩٧٣ ص ٨٠
٥ ــ سورة الانعام ١٠٠
٦ ــ سورة سبأ ٤٠
٧ ــ سورة النجم ١٩ ــ ٢٣
٨ ــ خلف الله ، محمد والقوى المضادة ص ٧٤ ــ ٧٥
٩ ــ سورة مريم ، ٨١
١٠ ــ ابن هشام ، السيرة النبوية ، مصر ١٩٥٥ ، القسم ٢ ص ٩٣
١١ ــ سورة ص ١ ــ ٢
١٢ ــ سورة آل عمران ١٠٣
١٣ ــ الدكتور صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، بغداد ١٩٥٥ ص ٦٩ ــ ٨٥ ، ١٣١ ــ ١٣٩ محمد عمارة ، فجر اليقظة القومية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٣٩ ــ ٤٦ .
١٤ ــ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ١٩٦١ ، ج ٢ ، ١٩٣، ٢٠٧
١٥ ــ العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ص ٢٥٩ ــ ٢٦٠
١٦ ــ سورة الانعام ١٦
١٧ ــ سورة البقرة ١٣٥
١٨ ــ المقدسي ، البداية والتاريخ ، ١٩١٦ ، ج ٥ ، ص ٤٥ ــ ٤٦ محمد عزة دروزه ، سيرة الرسول ، القاهرة ١٩٤٨، ج ١ ص ١٣ ــ ٣٢
١٩ ــ يراجع خلف الله ، محمد والقوى المضادة ، ص ٧١ ــ ٨٩ ، العلي محاضرات في تاريخ العرب ص ٢٨٠ ــ ٢٨٢ .

٢٠ — سورة قريش ١ — ٤
٢١ — سورة القصص ٥٨
٢٢ — سورة القصص ٥٧
٢٣ — ابن هشام ، السيرة النبوية ، قسم ١ ، ص ٢٩٤
٢٤ — سورة الاحزاب ٤٠
٢٥ — سورة ال عمران ١٧٩
٢٦ — سورة النحل ٣٦
٢٧ — سورة النساء ١٦٣ — ١٦٤
٢٨ — سورة النساء ٦٩ — ٨٠
٢٩ — سورة النجم ٣ — ٤
٣٠ — سورة الزخرف ٣١
٣١ — سورة الانبياء ١٠٧
٣٢ — سورة سبأ ٢٢
٣٣ — سورة الحجرات ١٣
٣٤ — سورة الاحزاب ٣٦
٣٥ — سورة البقرة ١٧٠
٣٦ — سورة الزخرف ٢٢ — ٢٣
٣٧ — يراجع ، خلف الله ، محمد والقوة المضادة ٣١ — ٣٣
٣٨ — المرجع السابق ص ٣٤ — ٣٦
٣٩ — سورة عبس ١ — ٧
٤٠ — العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ص ٢٩٥ — ٢٩٧
٤١ — تراجع سورة الفجر ١٧ — ٢٠
٤٢ — سورة البلد ١١ — ١٧
سورة الهمزة ١ — ٤
سورة المطففين ١ — ٣

سورة القلم ١٠ — ١٦
سورة ابراهيم ص ٢١
— العلي . محاضرات في تاريخ العرب ص ٣٠٦ ٣٠٨١ كما تراجع السور الاتية .
سورة الفرقان ٤ — ٥ ، النحل ١٠٣
سورة الانعام ٧ ، سورة الفرقان ٨
سورة الحجر ٦ ، سورة القمر ٢٥
سورة الصافات ٣٦ ، سورة الاسراء ٩٤

٤٣ — ابن هشام ، السيرة النبوية قسم ١ ص ٣١٧
٤٤ — المصدر نفسه قسم ٢ ص ٤٠٣ — ٤٠٤
٤٥ — المصدر نفسه قسم ١ ص ١٨٠ — ٢٤٠ ، يراجع ايضا : اميل درمنغم حياة محمد (ترجمة عادل زعيتر) ٢٧ ، مصر ص ١٢٥
٤٦ — الدكتور محمد عبد الله دراز . الدين مصر . ١٩٣٧ ص ١٧٥ — ١٧٦
٤٧ — سورة الشورى ١٢
٤٨ — سورة فاطر ٩٢
٤٩ — سورة الاحقاف ١٣
٥٠ — سورة يوسف ١١١
٥١ — ابن هشام ، السيرة النبوية قسم ١ ص ٣٩١ — ٣٩٢
٥٢ — سورة الشعراء ١٩٢ — ١٩٧
٥٣ — الاحقاف ١٠
٥٤ — سورة البقرة ٦٢ ، تراجع ايضا المائدة ٦٩
٥٥ — سورة المائدة ٤٢ — ٤٨
٥٦ — محمد عمارة ، الاسلام والوحدة القومية بيروت ١٩٧٩ ص ٧٢ — ٨١
٥٧ — سورة النساء ١٢٣
٥٨ — خلف الله ، محمد والقوى المضادة ص ١٣٩

٥٩ — سورة آل عمران ٨٥
٦٠ — فهمي هويدى ، الله ليس منحازا لاحد ، مجلة العربي ، الكويت ، العدد ٢٥٩ ، حزيران ١٩٨٠ ص ٣٧ ، لمزيد من التفصيل يراجع الدكتور محمد عبد الله دراز ، الدين ، الكويت ١٩٧٠ ص ١٧٥ — ١٨٥ .
٦١ — سورة المائده ٥
٦٢ — ابن هشام ، السيرة النبوية قسم ٢ ص ٢٣٦
٦٣ — المصدر نفسه قسم ١ ص ٣٢١ — ٣٢٢
٦٤ — المصدر نفسه قسم ١ ص ٣٣٤
٦٥ — المصدر نفسه قسم ١ ص ٣٣٥
٦٦ — المصدر نفسه قسم ١ ص ٣٣٦ — ٣٣٧
٦٧ — المصدر نفسه قسم ١ ص ٣٣١
٦٨ — المصدر نفسه قسم ٢ ص ٣٥٩ — ٣٦٣
٦٩ — المصدر نفسه قسم ١ ص ٣٤١
٧٠ — سورة المائدة ٨٢ — ٨٥
٧١ — سورة الروم ٢ — ٤ : اميل در منغم ، حياة محمد ص ١٢٩
٧٢ — سورة المائدة ١٧
٧٣ — سورة المائدة ٧٣
٧٤ — ابن هشام ، السيرة النبوية قسم ٢ ص ٣٧٣ — ٣٨٢ : ٥١٥ — ٥٢٧
٧٥ — محمد عمارة الاسلام والوحدة القومية ص ٨٩ — ١٠٦
٧٦ — ابن هشام ، السيرة النبوية قسم ١ ص ٤٢٨ — ٤٢٩
٧٧ — المصدر نفسه قسم ١ ص ٤٢٨
٧٨ — المصدر نفسه ١ ص ٤٢٩
٧٩ — سورة الشعراء ١٩٧
٨٠ — سورة الاحقاف ١٠

٨١ ـ ابن هشام ، السيرة النبوية قسم ١ ص ٤٩٢
٨٢ ـ المصدر نفسه قسم ١ ص ٥٠١ ـ ٥٠٤
٨٣ ـ سورة آل عمران ١١٨ ـ ١٢٠
٨٤ ـ سورة الانعام ٦٠
٨٥ ـ سورة آل عمران ٢٥
٨٦ ـ سورة الزمر ٧١ ـ ٧٣ ، ولمزيد من التفصيل يراجع صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ص ٢٦٧ ـ ٢٧٢
٨٧ ـ سورة المؤمنون ٣٧
٨٨ ـ سورة المؤمنون ٨٢
٨٩ ـ سورة مريم ٦٦ ـ ٦٧
٩٠ ـ سورة آل عمران ١٠
٩١ ـ سورة الاحزاب ٦٦ ـ ٦٨
٩٢ ـ سورة النحل ١٢٥
٩٣ ـ سورة ابراهيم ٤
٩٤ ـ سورة الشعراء ٢١٤
٩٥ ـ سورة الزخرف ٤٤
٩٦ ـ سورة الانعام ٩٢
٩٧ ـ سورة ابراهيم ٤
٩٨ ـ الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٤
٩٩ ـ ابن هشام ، السيرة النبوية ، قسم ١ ص ٢٤١ ـ ٢٦١
١٠٠ ـ سورة آل عمران ١١٠
١٠١ ـ سورة البقرة ١٤٢
١٠٢ ـ سورة سبأ ٣٧
١٠٣ ـ سورة الحجرات ١٣
١٠٤ ـ سورة الحجرات ١٣

١٠٥ – سورة الانبياء ١٠٧
١٠٦ – سورة سبأ ٢٨
١٠٧ – سورة العنكبوت ٤٥
١٠٨ – سورة المؤمنون ١ – ١١
١٠٩ – يراجع بحثنا : نشأة دولة المدينة في يثرب، مجلة الجامعة، الموصل ١٩٨٢/٣/١، ص ٥٥ – ٦٠
١١٠ – ابن هشام، السيرة، قسم ١ ص ٥٠٥
١١١ – المصدر نفسه، قسم ١ ص ٥٠٥
١١٢ – سورة آل عمران ١٠٣
١١٣ – ابن هشام، السيرة قسم ١ ص ٤٩٨
١١٤ – المصدر نفسه قسم ١ ص ٥٠١ – ٥٠٤
١١٥ – سورة الحج ٣٠ – ٤١
١١٦ – ابن هشام، السيرة قسم ١ ص ٥٠١ – ٥٠٥
١١٧ – المصدر نفسه، قسم ١ ص ٦٠٦ – ٦٠٧
١١٨ – المصدر نفسه، قسم ٢ ص ٦٠ – ٧٠
١١٩ – المصدر نفسه، قسم ٢ ص ٢١٤ – ٢٣٣
١٢٠ – المصدر نفسه، قسم ٢ ص ٣٠٨ – ٣٢٧
١٢١ – المصدر نفسه، قسم ٢ ص ٣٨٩ – ٤١٨
١٢٢ – سورة النصر ١ – ٣
١٢٣ – ابن هشام، السيرة قسم ٢ ص ٥٣٧ – ٥٤٢
١٢٤ – المصدر نفسه، قسم ٣ ص ٥٦٠
١٢٥ – سورة التوبة ١ – ٨

استـــــــدراك

وقع سهواً في عنوان بحث الدكتور سوادي عبد محمد الموسوم « تأثير الفكر الاندلسي بالحركة العلمية في المشرق الاسلامي» في العدد السابع من المجلة والصحيح هو « تأثر الفكر الاندلسي بالحركة العلمية في المشرق الاسلامي »

اللغات الاوربية

CONTENTS

...aradise lost (Chicago: Packard and Company, p. 178.

30. See ibid, p. 7.

31. Frank Kermode, "Adam Unparadised", in *The Living Milton*, ed. Frank Kermode (London: Routledge and Kegan Paul, 1960), p. 120.

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

1 . E. M.W. Tillyard, *Milton* (London : — Ltd., 1968), p. 218, p. 224.

2 . Lois Potter, *A Preface to Milton* (London: Longman Group Ltd., 1971), p. 22.

3 . Ibid, pp. 22–3.

4 . Ibid, p. 22; See also Allan H. Gilbert, "Milton on the Position of Woman", *Modern Language Review*, XV (Jan., 1920), pp. 7–27.

5 . John G. Halkett, *Milton and the Idea of Matrimony: A Study of the Divorce Tracts and Paradise Lost* (New Haven and London: Yale University Press, 1970), p. 2; see also B. A.Wright, *Milton's Paradise lost* Southampton: The Camelot Press, 1962), pp. 58 ff.

6 . It is asserted by Wright that "his second and third marriages, on evidence, were happy". See *Milton's Paradise Lost*, p. 19.

7 . See e.g. Alexander Witherspoon and Frank Warnke, eds, *Seventeenth–Century Prose and Poetry*, 2nd edn. (New York: Harcourt, Brace and World, 1957). Milton during the fourth period of his literary career, (1660–74) blind and isolated "has achieved ... the aim which had been his since childhood– to "leave something so written to aftertimes as they should not willingly let it die", p. 880. Besides, commenting on Milton's sonnet XIX (On his Deceased Wife), the editors cite writers who "persuasively" argue that Milton's first wife

But Adam and Eve are told by Michael that they should leave Eden, and Eve breaks out in an "audible lament",

> O unexpected stroke, worse than of Death !
> Must I thus leave thee, Paradise ? thus leave
> Thee, native soil, these happy walks and shades,
> Fit haunt of gods ?
>
> (*P.L.*, xi, 11, 268–71)

This is a typical feminine reaction, but before leaving Paradise she, as well as Adam, is comforted and fortified with knowledge: she is ready to be led by her husband: "with thee to go/Is to stay here", (*P.L.*, xii, 11.615–16), thus replacing Paradise with the "paradise within". Eve now is the perfect companion for Adam, and the cycle is complete. She is consoled with the fact that

> though all by me is lost,
> Such favor I unworthy am vouchsafed,
> By me the Promised seed shall all restore".
>
> (*P.L.*, xii, 11. 621–3)

Eve is given the last word, for "Adam heard /well pleased, but answered not" (*P.L.*, xii, 11. 624–5).

So hand in hand they begin their long adventure of human history, fortified with experience and mutual love and understanding. It is, after all, a fortunate fall!

* * * * *

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

neither to himself nor to Eve:about his noble motive, his profound and sincere love for Eve he keeps silent, and it is undignified the way he tries to put all blame on Eve alone:

> This woman whom mad'st to be my help,
> And gav'st me as thy perfect gift, so good,
> So fit, so acceptable, so divine,
> That from her hand I could suspect no ill,
> And what she did, whatever in itself,
> Her doing seemed to justify the deed;..
> She gave me of the tree, and I did eat"
> (*P. L.*, x, ll. 137-43)

Adam is duly rebuked by the Son. He has forgotten his position assigned to him by God. Hence the blame is put on Adam rather than on Eve who, conceited and deceitful woman, is redeemed psychologically in the scene of judgement.(25)Guilty and sad she delivers her brief biblical reply, which brings to mind "all the satire on feminine garrulity that these lines quietly reject".(26) "The Serpent me beguiled", she confesses, "and I did eat". (*P. L.*, x, l. 162). It is rightly suggested by one of the critics that .

> to read the poem according to a formula which insists that Eve is everywhere and always inferior to Adam is to miss much of the rich humanity of both characters. Adam may be intellectually superior in Book X, but Eve is infinitely more admirable and deserving of our sympathy. (27)

If Eve is the first to begin their alienation by wilfully desiring to work alone, then in their gradual reconciliation the first motion is also hers. She approaches Adam, who sits apart, suffering and crying out for death, and softly addresses him, but is indignantly repelled: "Out of my sight thou serpent".

if such pleasure be
In things to us forbidden, it might be wished
For this one tree had been forbidden ten.

(*P. L.* ix, 11.1024–26)

Waking up, Adam and Eve realize that innocence has gone, and having covered their shameful parts, they sit weeping; "high passions, anger, hate/Mistrust, suspicion, discord" began to rise within. (*P. L.*, ix, 11. 1123–24). Instead of courtesies exchanged before the fall, they now start to fling recriminations at one another, "as some of their descendants were to fling pots and pans",(23) and Adam delivers his climactic outburst,

Thus it shall befall
Him who to worth in women overtrusting
Lets her will rule; restraint she will not brook,
And left to herself, if evil thence ensue
She first his weak indulgence will accuse."

(*P. L.*, ix, 11. 1182–86).

So many critics and readers take this to be representative of Milton's own resentment and bitterness against women.
It is enough to mention here that even before his private unhappy experience Milton had conceived the idea in his drafts for tragedy "that Adam would naturally have a violent revulsion of feeling after the fall."(24) In fact, Milton here exempts neither Adam nor Eve from blame:

Thus they in mutual accusation spent
The fruitless hours, but neither self-condemning,

P. L., ix, 11.1187–88).

Their sin is made known to heaven and the Son descends to Eden to question them. Adam's account of the fall is fair

Adam is stunned and stands speechless realizing that she has been deceived, but feeling "the link of nature draw" him, flesh of flesh, he nobly and self–sacrificingly resolves to die with her for

> Should God create another Eve, and I
> Another rib afford, yet loss of thee
> Would never from my heart;
>
> (*P. L.*, ix, II. 911–13)

Adam, therefore, in full–knowledge submits unhesitatingly "to what seems remediless", (*P. L.*, ix, I. 219)

> Against his better knowledge, not deceived,
> But fondly overcome with female charm.
>
> P. L., ix II. 998–99)

This may well be so, but Adam while meditating on this "remediless situation, does not seem to be altogether undeceived by the serpent's argument: though Satan has tasted of the fruit, so Adam reflects,

> he yet lives,
> Lives, as thou saidst, and gains to live as man
> Higher degree of life, inducement strong
> To us, as likely tasting to attain
> Proportional ascent, which cannot be
> But to be gods, or angels, demi–gods.
>
> P. L., ix, II. 932–37)

Thus Satan's argument seems to be too powerful for Eve's intellectually superior mate.

The fruit has the same intoxicating effect upon Adam; it inflames them both with Lust, and he is only too pleased with it that he recklessly says

Eve greedily gorges herself with the fruit and being intoxicated she cheerfully praises the tree which, so she now believes, has a goddess ofh er.Indeed "it is like watching some magic transformation".(22) She suddenly becomes cunning and slyly contemplates whether to share her newly-acquired happiness with Adam or keep it to herself

so to add what wants
In female sex, the more to draw his love,
And render me more equal, and perhaps,
A thing not undesirable, sometime
Superior; for inferior who is free ?

On second thoughts, suppose that the fruit is really deadly-

then I shall be no more,
And Adam wedded to another Eve,
Shall live with her enjoying, I extinct;
(*P.L.*, ix, II. 821–25, 827–29)

Thus blinded by undefeatable spasm of jealousy and possessiveness, she resolves to make Adam an accomplice, self-deceptively assuring herself that

So dear I love him, that with him all deaths
I could endure, without him live no life.
(*P. L.*, ix, II. 832–33).

Adam looking for Eve finds her, with her cheeks flushed, near the tree. She runs to him and, to the reader's surprise, tells him how much she has missed him, and breath-lessly pours out her story, telling him that she has done it for his own sake (another lie). She snobbishly tells him that since she does not like to be his superior, he should taste of the fruit lest "different degree/ Disjoins us". (*P. L.* ix, II. 883–84).

we live/Law to ourselves, our reason is our law", (*P. L.*, ix, ll. 653–54) and it is her reason that Satan subtly and cunningly contrives, step by step, to confuse. Indeed, his argument proves to be too powerful for Eve to refute: he hypocritically shows his indignation at the wrongs done to man, assuring her that the tree, "mother of science", does not cause death, his evidence is himself. Is it fair that man should be denied what is allowed to beasts? Eve grows increasingly confused as Satan argues his point. They may die perhaps but "by putting off/ Human, to put on gods, death to be wisht. "(*P. L.*, ix, ll.713–14). Trying to make her sceptical of arighteous God he questions whether it is envy, and "can envy dwell/In heavenly breastas" (*P. L.*, ix, ll. 729–30).

> These, these and many more
> Causes import your need of this fair fruit.
>
> (*P. L.* ix, ll. 730–31)

How could Eve but be beguiled by such twisted and misleading reasoning? Indeed, how could she know that he is not telling the truth? She is left gazing, fascinated by the fruit, and reasons with herself only to justify what she is about to do. Milton makes her pluck the fruit and eat it, believing that she is under the influence of hunger:

> Meanwhile the hour of noondrew on, and waked
> An eager appetite, raised by the smell
> So savory of that fruit
>
> (*P.L.*, ix, ll. 739–41)

The act of transgression is thus made plausible from Eve's point of view. One of the Milton critics even suggests that "it is quite possible that Eve might still have withstood had the temptation occurred at any other time of day".(21)

Tillyard, suspicious as ever, thinks that Eve's proposal to work alone, though relatively harmless, is not sincere, and that the last thing Eve really wants is to be separated even for a morning from her lover since they are honeymooners. So he contends that she is laying a"mild trap" for him hoping that he will tell her that he"cannot bear to lose sight of her".(19)

I do not think that Eve is in need of laying such a trap for Adam who has been repeatedly shown as a geneous lover who never misses a chance for declaring his deep love and adoration. Eve, thereby, is made to suggest this separation and for the reasons mentioned above because Milton is desirous that the original biblical situation should be provided with what it lacks, namely motivation.

Satan, so much debased and enfeebled wishes that he might espy her alone, for he thinks that she is an easier prey being "divinely fair" and "fit love for gods", (*P. L.*, ix, l. 489) whereas Adam is a"foe not informidable", (*P. L.*, ix, l. 486) and Satan's wish is answered beyond his expectations. Thus,the Tempter taking the shape of a serpent succeeds in attracting the attention of Eve: he flatters her by calling her"a goddess among gods", one who ought to be adored and served by "angels numberless", and not to be wasted on rude beasts and "one man" and "what is one?"(*P. L.*, ix,ll. 545-48).In short, as Cleanthe Brooks by way of jest suggests "he literally declares her Miss Universe of the year !".(20)

Eve is not unflattered, though Milton immediately adds that she has listened, for it is at the voice that she so much curiously marvelled,(*P. L.*,ix, l.551).The serpent explains that the reason lies in eating of the fruit of the tree of knowledge, but Eve quite innocently tells it that God has forbidden them from eating this fruit, a sole proof of their obedience,"the rest,

pleased, reflected on the lake surface. Moreover, the night before the fall Satan in the sha pe of a toad whispers into her ears, while she is asleep and poisons her dreams.

Critics have made much of this dream: if to F. Bowers it is to "engender pride, a sense of discontent with her hiera- rchical relations as asubject to Adam", Tillyard goes so far as to suggest that it shows that Eve has really passed from inn- ocence to sin, and that the fall has already taken place.(17)Sin is perhaps a conscious act in which the will has to assume its role. It is even unacceptable, to my mind, to maintain that the dream reveals Eve's subconscious thoughts of aspiring above her position, for it is Satan that has been whispering evil thoughts into her ears, and she is, in fact relieved when she awakens and finds that it has all been a dream after all.

That Satan should seek Eve rather than Adam to tempt is a biblical fact curtly stated in the book of Genesis.(18)Adam and Eve, therefore, have to be separated for a while: on the morning of the fall, Eve takes the initiative, and, being driven doubtless by her prudence as a housewife and her practical nat- ure, suggests division of labour for so much time is wasted by talk and smiles. Though her suggestion does not "pass unpraised" (*P.L.*, ix, 11, 231–2), Adam warns her of danger lurking some- wher in the garden; it is, therefore, "safest and seemliest" if she stays by her husband "who guards her, or with her the worst endures". (*P.L..*, ix, 11. 268–69). This Eve takes for lack of confidence in her faith and is slightly offended. Adam gently tries to reason with her, but all to no avail. Thus reluctant to use force against her since "force upon free will hath here no place", (*P. L.*, ix, l. 1174)) and perhaps out of injured feelings, he permits her to go, "for thy stay, not free absents thee more". *P.L.*, ix, l. 372).

been noted that such ideas are in conformity with the common contemporary belief; such lines, therefore, may well be taken as merely representative of such beliefs that Milton shares with the rest of his contemporaries,. (15)Besidees, Raphael is not allowed to have his own way: though Adam is "half abashed" at the warning and advice of the former, he corrects him and assures him that what he enjoys in Eve more than anything else is .

> those graceful acts,
> Those thousand decencies that daily flow
> From all her words and actions, mixed with love
> And sweet compliance, which declare unfeigned
> Union of mind, or in us both one soul,;
> Harmony to behold in wedded pair
> More grateful than harmonious sound to the ear.
> Yet these subject not;
>
> (P.L., viii, ll. 600-607)

Thus it is Adam that is allowed to take command of the situation, and turn the argument against Raphael.

Furthermore, by inserting this episode, Milton is, in effect, trying "to face the problem of dramatic motivation". (16)The reader is prepared for the crisis in the epic, i.e. the fall, and Adam's powerful love foreshadows his future action. His love is not a fault in itself but a potential one, for Adam and Eve are created free.

The reader has likewise been prepared for the fall of Eve, and her potential flaw has also been earlier fore-shadowed. Her susceptibility to vanity is touched upon when she gives Adam an account of her first moments of consciousness. When she first sets eyes on Adam, she at first turns away from him preferring her own image with which she has been so much

Superior and unmoved, here only weak
Against the charm of beauty's powerful glance.

(*P.L.*, viii, ll. 531-33).

He knows that Eve is intellectually his inferior, (*P.L.*, viii, ll. 540-42) yet, he cannot but feel submissive before her,

when I approach
Her loveliness, so absolute she seems
And in herself complete, so well to know
Her own, that what she wills to do or say
Seems wisest, virtuoasest, discreetest, best;
All higher knowledge in her presence falls
Degraded, wisdom in discourse with her
Loses discountenanced, and like folly shows:

(*P.L.*, viii, ll. 546-53)

The angel with "contracted brow" warns Adam that what he in effect adores in Eve is her beauty:

fair no doubt, and worthy well
The cherishing, thy fonoring, and thy love,
Not thy subjection,

(*P.L.*, viii, ll. 568-70)

and he advises Adam to love

What higher in her society thou find'st
Attractive, human, rational, love still;
In loving thou dost well, in passion not,

(*P.L.*, viii, ll. 586-88)

Commenting on Raphael's words, Waldock insists that he is in those lines "obviously Milton's spokesman", and when Adam talks about Eve's inferiority "he merely mouths his author's theories of woman's place and function."(14)Why should such speeches by Adam be always taken, as a matter of course, to be representative of the author himself? It has previously

Eve, a prudent housewife, immediately draws his attention to the fact that only "small store will serve, where store, /All seasons, ripe for use hangs on the stalk", (*P.L.*, v, ll. 322-23) and on "hospitable thought intent" she sets about preparing a meal for the guest, who honourably addressed her as "Mother of Mankind". She remains with them throughout their long discourse (Books, v, vi, vii, viii), but when she sees Adam "in studious though obstruse", she withdraws and goes to look after her flowers. Milton, ever mindful, that the ideal marriage companion should be capable of maintaing a conversation with her mate is quick to remind the reader that.

Yet went she not as not with such discourse
Delighted, or not capable her ear
Of what was high: such pleasure she reserved,
Adam relating, she sole auditress;

(*P. L.*, viii, ll. 48-651)

A feminine touch is thus given in her preference: to acquire such knowledge through her husband would be more pleasurable for he,

she knew, would intermix
Grateful digressions, and solve high dispute
With conjugal caresses; from his lip
Not words alone pleased her. O when meet now
Such pairs, in love and mutual honor joined?

(*P. L.*, viii, ll. 54-8).

Besides, dramatic necessity also requires that Eve should leave, for how would Adam be able to tell Raphael of his great love in her presence?

Adam tells Raphael how overwhelming his love to Eve is:

In all enjoyments else

different from Adam, then she is his complementary half. 'P.L., iv, 11. 487-8).

Their relationship is based on mutual love and devotion. She tells Adam.

> With thee conversing I forget all time,all seasons and their change, all please alike.
>
> .. ..
>
> But neither breath of morn when she ascends
> With charm of earliest birds, nor rising sun
> On this delightful land, nor herb, fruit, flower,
> Glistering with dew, nor fragrance after showers,
> Nor grateful evening mild, nor silent night
> With this her solemn bird, nor walk by moon
> Or glittering starlight, without thee is sweet.
>
> (*P.L.*, iv, 11 639-40, 650-56).

Adam tenderly addressed her as the "daughter of God and man, accomplished Eve." (*P.L.*, iv, 1. 660). Eve is deeply in love with Adam and she willingly accepts him as a guide and protector. As suggested by D. Miller, Milton "has come as near as possible to asserting her equality with man. "(13) Adam's life in paradise before the creation of Eve was boring and incomplete for " among unequals what society?" (*P.L.*, viii, 1. 383'). So God created Eve his 'likeness', his 'fit help' and 'other self'. (*P.L.*, viii, 1. 450). Indeed, in her own sphere she is even superior to Adam: while he is outside waiting for dinner, he catches sight of Raphael approaching to pay them a visit. He immediately asks Eve to

> go with speed
> And what thy stores contain, bring forth and pour
> Abundance.
>
> (*P.L.*, v, 11 313-15)

the luckier of the two for he lacks companionship on his own level. Even her beauty is excelled by "manly grace and wisdom" and if God is Adam's law, then he is hers and "to know more/Is woman's happiest knowledge and her praise". (*P.L.*, iv, ll. 637-8).

The subsidiary position assigned to Eve in the hierachy of creation is not of Milton's making, nor is it fair to demand that he should reform it. It is interesting, though, to examine the poet's treatment of the subject and see whether in his delineation of the character of Eve any biased attitudes are given expression.

To begin with, female inferiority was universally acclaimed during Milton's time; it was confirmed by the Bible, and is "representative of contemporary theological conceptions".(9) The idea itself comes within the basic concept of the hierarchy of the universe, and "if this position gave Adam precedence in some ways, it also made his responsibilities heavier". (10) In fact, Adam's and Eve's wedded love is also meant to be the "archetype of all marriages". Indeed, Milton's concept of marrige, as Wright suggests, is "more honourabire to women than that of most people of the period":

> If man's domination is taken for granted... (Milton) ... in *Tetrachordon* is willuing to recognize exceptionally cases where the husband may admit his wife's superiority ... 'if she exceed her husband in prudence and dexterity, and he contentedly yeeld, for then a superior and more natural law comes in, that the wiser should govern the less wise, whether male or female". (12)

Adam and Eve are portrayed as happy lovers through whom Milton expresses his ideal image of wedded love, which is a social, intellectual, spiritual as well as physical union. If Eve is

declarations could be justified on grounds other than autobiographical.

The reader is first introduced to Adam and Eve through the envious eyes of Satan who immediately signals them out as being superior to all other creatures, "God-like erect", "lords of all", and "in their looks divine/The Image of their glorious Maker Shone". Satan notices though that

both
Not equal, as their sex not equal seemed;
For contemplation he and valor formed,
For softness she and sweet attractive grace;
He for God only, she for God in him,(8)

"Not equal" here does nt of necessity imply that Eve is degradingly a lesser creature. It simply means that they are different: if Adam is formed for "contemplation" and "valor", Eve is formed for physical softness, and "attractive grace". The last line has, possibly, a reference to their physical origin, besides suggesting Eve's position in the scheme of creation. Adam is created in the image of God, whereas Eve is created from Adam's rib, i.e. the image of Adam. His intellectual gifts declare "absolute rule", and his short and dark hair symbolizes his masculinity, whereas Eve's golden tresses hanging like a veil to her waist assert her beauty and femininty, that is in need of Adam's support for "as the vine curls her tendrils". (P.L., iv, I 307). If the image suggests "subjection", then it is subjection that is not forced upon her, but .

required with gentle sway
And by her yielded, by him best received,
(P.L', iv, II 308- 9).

The first words uttered by Eve are those of submission, Adam is her "guide and head", and she even considers herself

During the period of her absence Milton published the first of the four divorce tracts *Doctrine and Discipline of Divorce* (1643), to be followed by *The Judgement of Martin Bucer*, *Tetrachordon*, and *Colasterion*. In those tracts he announced "a new concept of the Christian marriage", pleading for divorce on grounds of "incompatibility" and not mere adultery, and'non consummation" of the marriage. He also declared that marriage is "possible only if one has the right to free oneself from an unworthy partner".(4)

Whether the divorce pamphlets are provoked by Milton's private experience or by his objective concern to reform the laws of England is open to debate, but it is quite possible to reconcile, as Halkett argues, those two motives:

> Milton turned at a moment of grave personal difficulty to a question he had been weighing for a long time; and his passionate and unabted involvement in the argument, which captured his attention for nearly two years, reflects a profound personal concern.(5)

It may well be so, but it is not sound to assert that "this profound personal concern"gave his subsequent works a biased colour. Nearly twenty-five years elapsed between the publication of the divorce tracts and the writing of his epic *Paradise Lost* (1667), during which period Milton married twice after the death of Mary Powell.(6) Besides, the idea of writing an epic had been all these years fermenting in his mind, and Milton should have been concerned more with immortalizing his name than with seeking an outlet for his "old grudge" or frustrations.(7)

Therefore, it would be more rewarding, to my mind, to discard the bioliterary criticism, and examine the text itself and judge whether in the portrayal of Eve, Milton's adverse

"DAUGHTER OF GOD AND MAN" A RECONSIDERATION OF MILTON'S EVE IN PARADISE LOST

By

Nawal M. Hasan (M.A.)

College of Arts

University of Mosul

It was a moment of profound significance in human history when Eve stretched out her hand for the forbidden fruit. Tillyard asks whether Eve's rashness is seen by Milton as "universally human" or" specifically feminine". He feels that Milton's "old grudge against the female sex gets the upper hand of his conscious intentions". Adam's tirade against women after the fall, Tillyard further argues is representative of "Milton's own voice, unable through the urgency of personal experience to keep silent."(1)

Milton's "personal experience" that critics make so much of is his first marriage to the eighteen-year-old Mary Powell in the Summer of 1642.(2)Biographers tell us that within a month after her arrival she was on her way back to her parents apparently for a visit to returm to her husband three years later. Tradition has it that Mary refused to return in spite of the entreaties of his several messengers, and that finally "friends brought about a reconciliation between husband and wife." Yet, it is still doubtful whether this long period of separation was due to personal or political circumstances. "Traffic between Royalist Oxford (where Mary lived) and Parliamentary London became increasingly dangerous in 1642 and was finally prohibited, so that she might not have been able to return even if she had wanted to"(3).

15. August Strindberg, *The Son of a Servant* (London, Jonathan Cape, 1967).

16. Maurice Valency, *The Flower and the Castle* (New York, The Library, 1966).

17. Richard Vowels, "A Cook's Tour of Strindberg Scholarship," *Modern Drama*, vol. 5 (December 1962).

18. Paul Wescher, "Strindberg and the Chance-Images of Surrealism," *Arts Quarterly*, vol. 16 (Summer 1953).

19. Raymond Williams, *Drama From Ibsen to Eliot* (London, Chatto and Windus, 1961).

BIBLIOGRAPHY

1. Carl Enoch William Dahlstrom, *Strindberg's Dramatic Expressionism* (New York, Benjamin Blom, 1968).
2. Martin Lamm, *Augusrt Strindberg* 'New York, Benjamin Blom, 1971).
3. Martin Lamm, *Modern Drama* 'Oxford, Basil Blackwell, 1952).
4. Winifred Loraine, *Robert Loraine* (London, Collins, 1938).
5. F. L. Lucas, *Ibsen and Strindberg*' London, Cassell, 1962).
6. Justin MacCarthy, "August Strindberg, " *Fortnightly Review*, vol. 52 (September 1892).
7. Borge Gedso Madcen, *Strindberg's Naturalistic Theatre* Copenhagen, Munksgaard, 1962).
8. Michael Meyer, translator, *Strindberg, The Father, Miss Julie and The Ghost Sonata* (London, Eyre Methuen, 1976).
9. John Milton, "A Restless Pilgrim, Strindberg in *The Infe-Jno*," *Modern Drama*, vol. 5 (December 1962).
10. Margery Morgan, "Strindberg in England," *Modern Drama*, vol. 7 (1964-65).
11. Allardyce Nicoll, *World Drama*(London, George Harrap, 1964).
12. George Steiner, *The Death of Tragedy*(New York, Knopf, 1961).
13. August Strindberg, *A Dream Play* (London, Secker and Warburg, 1973).
14. August Strindberg, The *Road to Damascus* (London, Jonathan Cape, 1939).
15. August Strindberg, *The* Son of a Servant (London, Jonathan Cape, 1967).
16. Maurice Valency, *The Flower and the Castle* (New York, The Library, 1966).
17. Richard Vowels, "A Cook's Tour of Strindberg Scholarship, "*Modern Drama*, vol. 5 (December 1962).
18. Paul Wescher, "Strindberg and the Chance–Images of Surrealism," *Arts Quarterly*, vol. 16 (Summer 1953).
19. Raymond Williams, *Drama From Ibsen to Eliot* (London, Chatto and Windus, 1961).

sphere, he remains the master, still more modern than any of us, even today; still our leader." (1)

As for the Irish dramatist, Sean O'Casey, he was so touched at seeing a performance of *The Father* in London in 1927 that he sent a note to the leading actor, Robert Loraine, in which he wrote, "... you were great artist in a great play. Strindberg, Strindberg, Strindberg, the greatest of them all. "(2)

Certainly Strindberg is a great artist whose impact is evident in modern drama all over the world. But what makes him great is not only his innovation in drama but also the strange life of the writer himself, that life which he faithfully reflected in his work. Yet, another great writer, Maxim Gorki, admired Strindberg for another aspect of his work. It was his powerful, uncompromising voice in the Viking spirit. "It is the duty of any honest writer", said Gorki, "to make himself disagreeable to the public, and the greatest art is the art of annoying people." (3) In this respect, Strindberg could certainly claim position in the first ranks.

---

(1) Lamm, *ModeJn DJama*, p. 316.

(2) Winifred Loraine, *Robert Loraine* (London, Collins, 1938), p. 333.

(3) Richard Vowels, "A Cook's Tour of Strindberg Scholarship," *Modern Drame*, vol. 5 (December 1962), p. 264.

had not been acquainted with Strindberg's work." (1) As a matter of fact, Shaw was very well acquainted with the dramatic work of the Swedish dramatist, and once he witnessed a special performance of *Miss Julie* at Strindberg's Intimate Theatre in Stockholm. "In 1908 Strindberg arranged a special performance for Bernard Shaw, who was on a visit to Stockholm, and watched it with him." (2) Besides. Shaw's odmiration for the Swedish dramatist was so great that in 1926 he endowed the Anglo–Scandinavian Foundation with his Nobel Prize money, "so that English translations of Swedish literature, in particular the works of Strindberg, should be published." (3) Morever, Strindberg was largely produced in England in the period between the two World Wars,and "it became the thing, for the *avant–garde,* to prefer Strindberg to Ibsen." (4)

Henrik Ibsen, himself, was quite aware of the influence of his contemporary rival. He, therefore, kept a painting of the Swedish dramatist on his study wall, not, he explained, because of any sympathy or friendship with either the painter or Strindberg, but because, he said, "I am now not able to write a word without having that madman staring down at me!" (5) And while he lived in Paris from 1894 to 1897, "six of his plays were running simultaneously on the Parisian stage." (6)

In America, Eugene O'Neill proclaimed himself a disciple of Strindberg. "To me," he said, "like Nietzsche in his own

---

(1) Marvery Morgan, "Strindberg in England," *Modern Drama* vol. 7 (1964–65), p.173.

(2) Meyer, p. 88.

(3) Morgan, p. 166.

(4) Lucas, p. 473.

(5) Meyer, p. 22.

(6) Paul Wescher, "Strindberg and the Chance–Images of Surrealism," *Arts Quarterly*, vol. 16 (Summer 1953), p.93.

Strindberg wrote about 60 plays, a number of autobiographical books and novels and articles. The reception of his plays and his influence on other dramatists are still raising controversies. In his life time he was quite amused to find that he was causing an uproar. "An old lady fell dead in the theatre;" he wrote delightedly to Nietzsche describing the effect of the performance of *The Father* on the audiece, "another woman miscarried; at the sight of the strait–jacket three quarters of the audience rose as one man, and ran from the theatre madly bellowing." (1) As an innovator of drama, Strindberg has been greatly imitated all over the world. But his imitators, according to Raymond Williams, "never reached his own level". (2)

In England, and as early as 1892, the critic Justin MacCarthy wrote an article in which he described Strindberg in these "A new star has arisen in the North." (3) He labelled *The Father* as the "most profundly tragic play that the literature of the North has yet produced, *Ghosts* not excepted." (4) The influence of Strindberg on Bernard Shaw is quite clear in such plays as *Arms and the Man*, which has many affinities with *Miss Julie*,and *Man and Superman*,with the analogy between som of its scenes and those of Strindberg's *The Father*. "Indeed, the later Shaw", says Margery Morgan, "might never have remained open, as he did, to new dramatic influences if he

---

(1) Lucas, p. 351.

(2) Raymond Williams, *Drama From Ibsen to Eliot* (London, Chatto and Windus, 1960), p. 125.

(3) Justin MacCarthy, "August Strindberg," *Fortnightly Review*, vol. 52 (September 1892), p. 326.

(4) *ibid.*, p. 329.

doning of psychological in the search for what is essentially human. (1)

In his attempt to cut below the surface of things, strindberg used startling symbols, unrealistic patterns of speech, fragmentary characters and he dispensed with the logical sequence of time, place and action. Yet in his dream plays Strindberg succeeded to expose the inner struggle of the main characters. "Never before in the history of drama", Says Martin Lamm, "has the inner struggle of a soul been so graphically... so tangibly, exposed to an audience." (2) After the writing of Strindberg's dream plays, a new function of drama was revealed, to present a state of mind.

Whether it is the result of the strange and dreadful experiences of the Inferno crisis during shich period Strindberg was at his best as he had said in 1884:

"My best writing comes when I am suffering from hallucinations" (3), the dream plays are Strindberg's masterpieces, as they are entirely his own creation.

Like some other dramatists who had their own theatres, Strindberg was able in 1907 to found his Intimate Theatre in Stockholm. For this theatre he wrote his last four chamber plays, *Storm*, *Rhe Burnt House*, *The Ghost Sonata* and *The Pelican*. In these plays and some other short ones such as *Pariah*, *The Stronger* and *Simoom*, Strindberg experimented freely with the form of drama. The plays are very short and the characters are sometimes reduced to two in number and they are just labelled as Mr X and Mr Y, as we find in *Pariah*.

---

(1) Dahlstrom, p. 47.

(2) Martin Lamm, *Modern Drama* (Oxford, Basil Blackwell, 1952), p. 144.

(3) *ibid.*, p. 145.

all together 1035 performances of 24 different Strindberg plays in 62 German cities." (1)

In the Author's Note to *A Dream Play*, Strindberg laid down the principles of Expressionism. "In this dream play", he wrote,

> the author has, as in his former dream play, *To Damascus* attempted to imitate the inconsequent yet transparently logigical shape of a dream. Everything can happen, everything is possible and probale. Time and place do not exist; on an insignificant basis of reality the imagination spins, weaving newpatterns; a mixture of memories, experiences, free fancies, incongruities and improvisations. The characters split, double, multiply, evaporate, condense, disderse, assemble. But one consciosness rules over them all, that of the dreamer; for him there are no secrets, no illogicalities, no scruples, no laws. (2)

This is analogous in many respects to the charcteristics of Expressionism which were dominant in the plays of such German playwrights as George Kaiser, Ernest Toller and the younger Brecht, to mention but a few names. In the German Expressionistic plays the following factors are easily detected:

> Confusion, the radiation, expansion and unfolding of the ego, lyricism, abstractness, rhetorical ecstasy, pure untrammeled feeling in man, childish dilettantism, dream–character, telegram–style, pantomime, typification of character, social–political framework and the aban-

(1) Carl Enoch William Dahlstrom, *Strindberg's Dramatic Expressionism* (New York, Benjamin Blom, 1968), p.61.

(2) August Strindberg, *A Dream Play* (London, Secker and Warburg, 1973).

was bored with the photographic realism which reproduced even the speck of dust on the lens of the camera. In his later period, Strindberg wrote completely symbolic plays. Examples of these are *Swanwhite* (1901) and *The Crown Bride* (1902).

Between 1894 and 1896 Strindberg had a serious mental crisis which he later called the Inferno. Just before and during this period, he began to see a series of "images in which natural objects appear to have human features, sometimes distorted but often accurate." (1) Even this crisis, according to John Milton, is a part of Strindberg's search and striving for something out of his reach. He could not stand still, "nor could he accept a particular dramatic form as the ultimate end." (2) The Inferno experience was a transition period during which the dramatist was desperately looking for a new direction in his career." It seems quite plausable to assume that the search caused the experience, not that the experience was the cause of the search." (3) Whatever real cause of the Inferno crisis, it is a matter of fact that Strindberg emerged from it more powerful than ever.

Strindberg's greatest achievement in drama is Expressionism. The plays which he called his dream plays, such as *The Road to Damms* (1898-1901), *A Dream Play* (1901) and *The Ghost Sonata* (1907), are indisputably considered to be the foundation of this aesthetic movement in drama which appeared mainly in Germany in the second decade of the twentieth century. In fact Strindberg's plays became so popular in Germany that in "the two sessions, 1913-14 and 1914- 15, there were

---

(1) . John Milton, "A Restless Pilgrim, Strindberg in *The Inferno*, " *Modern Drama*, vol.5 (December 1962), p. 309.

(2) . *ibid.*, p. 307 .

(3) . *ibid.*, p. 307.

Paris, in January 1893. (1) It was characterized by several French critics "as a daring naturalistic) drama ... very similar to the French naturalistic dramas performed by Antoine." (2) But despite Strindberg's attempt to justify the use of the technical devices in the play to make it as Naturalistic as poscible, the play remains in most of its parts as an echo of Strindberg's own tormented life. Darwinism and its doctrine of the survival of the fittest are used to reflect Strindberg's conception of the class struggle in which Jean, the valet, wins the battle over Julie, the aristocrat; in other words, the struggle between Strindberg, the son of a servant, and his first wife, the barone - ss, reversed. Besides, the use of symbolism in the play, such as the whip of Julie's father, the killing of Julie's bird which symbolically foreshadows Julie's fate and the occasional heigh-tened, exaggerated style of dialogue mark the play as a depart-ure from Naturalism.

To Justify his break with Naturalism, Strindberg announced in December 1888 that he was on the point of of abandoning Zola. "Zolaism", he said, "seemst to be on the way out. There-fore, don't be surprised that I don't want to trail behind, since I'm used to being in the vanguard." (3) Like many other writ-ers such as Ibsen, Shaw and Zola himself, Strindberg found Naturalism a burden on his art. A year later, he published an essay in the Danish paper, *Ny jord*, in which he violently conde-mned Naturalism, calling it the "objectivity that is so beloved by those who have nothing to say, by those devoid of tempera-ment - the soulless ones, as they ought to be called." (4) He

---

(1) . *ibid.* p. 87.
(2) . Madsen, p. 70.
(3) . Lamm, p. 277.
(4) . *ibid.*, p. 277.

Zola's manifesto". (1) For coming in contact with the psychological experiments with the power of suggestion made the Swedish writer able to see great possibilities in Naturalistic drama. In August 1887 he wrote a letter to Zola with a French translation of *The Father* to this effect. But three months later he received a reply from the French writer in which he observed that "he did not consider it a very naturalisic piece of work, despite his polite praise of it .... Zola did not find the characters sufficiently explained and determined by the physical milieu they tended to become abstractions and lacked'un e'tat civil' complet." (2) Because of that *The Father* was not performed in Paris until 1894.

Strindberg was not discouraged by the fate of *The Father* and so he wrote another play, *Miss Julie* (188), in which he tried to apply the principles of Naturalism: natural determination, heredity and milieu. " I take the liberty", he wrote to his publisher, " of hereby offering you the first naturalistic tragedy of the Swedish drama, and I beg you not to reject it without serious thought, or you will later regret it, for ... this play will be remembered in history. (3) Indeed, the play has become one of the masterpieces of Naturalistic drama, and the preface Strindbgerg wrote to it is one of the documents of Naturalism; as Strindberg expressed in this preface his understanding of this aesthetic movement in the theatre. *Miss Julie* was presented by two of the famous independent theatres in Europe which furthered the cause of Naturalism. Otto Brahm's Freie Buhne put it on in April 1892, and Andre Antoine's Theatre Libre in

---

(1) Lamm, p. 199.

(2) Borge Gedso Madsen, *Strindberg's Naturalistic Theatre* (Copenhagen, Munksgaard, 1962), pp. 57-58.

(3) Meyer, p. 83.

Siri tricked me into writing to Forssberg (the famly idoctor)... that I believed I was mad. " (1) In fact Strindberg has dramatized the idea which he had already expressed in his essay "Psychic Murder", published in 1887. In this essay he described a series of real and fictional psychic murders and concluded that the struggle for power, formerly purely phyysical, had become"more psychic, but not therefore less cruel". The world, he goes on, " had been transformed into a torture chamber where strong minds used psychic means to destroy the weaker ones." (2)

Strindberg's belief in the continuous war between men and women recurs again and again even in his later plays. To the question "Tell me-what is woman? " one of the characters in the Road to Damascus (1898-1901) gives the following answer:

> I don't know! Perhaps a larva or a chrysalis, out of whose trancelike life a man one day will be created. She seems a child, but isn't one; she is a sort of child, and yet not like one. Drags downward when the man pulls up. Drags upward, when the man pulls down. (3)

Like any other creative writer, Strindberg wanted his work to be read and performed outside his small country, Sweden. Therefore he wrote to a friend of his asking him to urge the French writer, Emile Zola, the founder of Naturalism in the theatre, to get a publisher for *The Fater* and to have it performed in Paris. Strindberg, on the other hand, had been so impressed by the French writer that he tried in 1883 to "persuade the editor of the newspaper, *Puck*, to publish excerpts from

(1) *ibid.* p. 17.

(2) Martin Lamm, *August Strindberg* (New York, Benjamin Blom, 1971), p. 203.

(3) To *Damascus*, p. 258.

her-like dog and cat! " (1) Later on, in *The Road to Damascus*, the Doctor bids the Stranger to take a stick to his wife, perhaps echoing Nietzsche's advice to go to woman with a whip. (2) Yet this tense relationship between Strindberg and woman in general and the failure of his three marriages seem to some critics to be the cause of the dramatist's creative writing. "His three major creative periods", says Maurice Valency, "were the aftermath, in each case, of his three marriages, and the psychic crises which they precipitated were the immediate source of his masterpieces" (3).

Strinbderg dramatized the war between the male and female sexes in several plays, such as *The Father*, *Miss Julie*, *The Dance of Death* and others. In these plays he emphasizes the power of woman over man as a result of hypnotism and suggestion which she practices over him. Man in Strindberg's plays is shown as the more refined sex, doomed to be crushed by the more primitive and stronger female sex, while woman is shown as a vampire. "Her weapon of victory was to be not, as in the days of Aeschylus and Shakespeare, poison or dagger, but the much subtler weapon of spiritual murder through suggestion" (4). Indeed, the main issue in *The Father* is this power of suggestion and how it works. In a letter to a friend of his Strindberg wrote describing how his wife, Siri, used that "witchcraft" over him. "She got me to imagine for three years", he wrote, "that I was ill, got me to imagine I was mad and everyone pitied and believed her! ... Remember that

(1) *ibid.*, p. 331.

(2) *ibid*, p. 425.

(3) Maurice Valency, *The Floewer and the Castle* (New York, The Library, 1966), p.243.

(4) Meyer, p. 15.

of women. (1)

Early in his career as a playwright, Strindberg formed his own opinion of women,partly because of his bitter experience with his first wife, the Finnish actress Siri von Essen, and mainly because of his belief in the war between the sexes. Just before he wrote his first successful play, *The Father* (1887), in which he dramatized the war between man and woman, he had been much impressed by an article which he read in a magazine. The writer of that article, Paul Lafargue, "postulated the theory that the family was originally a matriarchy and only became a patriarchy as a result of a long and violent war between the sexes. A return to the matriatrchal pattern would involve an equally long and bloody war." (2) As a result of that Strindberg wrote an essay in which he expressed his fear that such a battle would mean the defeat of man, that if this battle takes place it will herald an age of barbarism. (3) To some extent, he even looked at the relationship between him and his wives in the ight of this conception. "Ah," he wrote to his first wife, Siri, even before their marriage, "happy I shall be when I am married and have someone I can always quarrel with! " (4) And again he wrote from Paris to his second wife, Frida, in Austria saying that he longed to leave everything and "come back to live with

---

(1) August Strindberg, *The Road to Damascus* (London, Jonathan Cape, 1939), p.207.

(2) Michael Meyer, Translator, *Strinbderg, The Father, Miss Julie and The Ghost Sonata* (London, Eyre Methuen, 1976), p. 14.

(3) *ibid.*, p. 14.

(4) F. L. Lucas, *Ibsen and Strindberg* (London, Cassell, 1962), p. 331.

works faithfully reflect their own lives. In the words of George Steiner, "No playwright ever made of so public a form as drama a more private expression." (1) In fact Strindberg thought that literature could not be imaginative, therefore he called for the establishment of huge archives centres in whuich the real life story of each persen should be kept:

> I remember that when I was a very young journalist and had already seen the weaknesses inherent in prefabricated literature, I drew up plans. ... for a literature of the future that would present all the documents relating to the inner story of a human being. This literature would be built up by having every citizen at a certain age deposit his autobiography, written anonymously and with no names in the text, in the communal archives.(2)

Unlike Ibsen who championed the feminist campaign in such plays as *A Doll's House* and *The Pillars of Society*, Strindberg used drama as a weapon to attack women. And despite his emphasis that he was not a woman-hater, he often makes his mouthpieces express such feelings. In *The Road to Damascus*, for instance, the following dialogue takes place between the two major characters, despite the fact that in this later play Strindberg became less hostile in his attitude towards women:

Stranger: Tell also whether you held me to be a misogynist?

Lady: A woman-hater? Every healthy man is one, in the secret places of his heart; and all perverted men are admirers

---

(1) George Steiner, *The Death of Tragedy* (New York, Knepf, 1961), p. 298.

(2) August Strindberg, *The Son of a Servant*(London, Jonathan Cape, 1967), p. 24.

THE THEATRE OF AUGUST STRINDBERG

Dr. Moussa Alsoudani, College of Arts, University of Baghdad

In his own way, the Swedish dramatist, August Strindberg (1849-1912), contributed considerably to the world theatre and world drama. He did much to further the cause of Naturalism, and he is considered by almost all those interested in the development of world drama to be the creater of Expressionism in drama. His range of form is so vast that he is described to be a uniqe writer whose hand, according to Allardyce Nicoll, "touch now the early romantics , now the realists and naturalists, now the expressionists, now the surrealists, and now the existentialists. There is no author whose range is wider or more provocative. In him the entire history of the stage from 1800 to the present day is epitomized." (1)

Strindberg lived a miserable life. His mother was a servant, and his father, a shipping merchant, went bankrupt when the child was four years old. At the age of thirteen his mother died. He failed at the university; and when he went on the stage, he failed also. He married three times, but none of his marriages was successful. He spent a great deal of his life living away from his own country. In Paris his scientific experiments to make gold failed, and for three years he hovered on the brink of insanity. Ironically, he died of stomach cancer.

These biographical details are quite relevant in understanding Strindberg's work , for he is one of the few writers whose

1. Allardyce Nicoll, *World Drama* (London, George Harrap, 1964), p. 563.

Tillyard, E. M.W. *Shakespeare's History plays*. London: Chatto and windus, 1951.

Waith, Eugene M. (ed.). "Introduction" to *Shakespeare: The Histories*. Englewood cliffs, N. J. :prentice–Hall Incorporation, 1965.

wilson, J. Dover, "Shakespeare's *Richard III* and *The True Tragedy of Richard the Rhird*, 1594," *Shakespeare Quarterly*, III (October 1952), 199–306.

BIBLIOGRAPHY

Bullough, Geoffrey (ed.). *Narrative and Dramatic Sources of Shakespeare*. London & New york: Routledge and kegan Paul & Columbia University press, 1966. vol. III.

Campbell., Lily B. "The Tragical Doing of king Richard III, " as quoted in Shakespeare. *Richard III*. New york Toronto & London: The New American Library & The New English Library Limited–The Signet Classic Shakespeare, 1964.

Churchill, George B. *Richard the Third up to Shakespeare*. Berlin: Mayer & Muller, 1900.

Eccles, Mark. "Introduction," as quoted in Shakespeare. *RiChard III*. New york, Toronto & London: The New American Library & The New English Library Limited–The signet Classic Shakespeare, 1964.

Haeffner, paul. *Critical Commentary on Shakespeare's Richard III*. London: Macmillan, 1966.

Rease, M. M. *The Cease of Majesty: A study of Shakespeare's History plays*. London: Edward Arnold Ltd., 1961.

Ribner, Irving. *The English History play in the Age of Shakespeare*. princeton, New Jersey. princeton University press, 1957.

Rossiter A.P. "Angel with Horns: The Unity of *Richard III*, "as quoted in waith, Eugene m. (ed.) *Shakespeare: The Histories*. Englewood Cliffs, N, J. :prentice–Hall Incorporation, 1965.

Sanders, Wilbur. *The Dramatist and the Received Idea: Studies in the plays of Marlowe & Shakespeare*. Cambridge: Cambridge University press, 1968.

14 – Mark Eccles, "Introduction," as quoted in ibid, p. xxix.

15– Wilbur Sanders, *The Dramatist and the Received Idea: sudies in the plays of Marlowe & Shakespeare* (Cambridge: Univer-tty press, 1968), p. 74.

16– Georve B. churchill, *Richard the Third up to Shakes-peare* (Berlin: Mayer & Muller, 1900), p. 474.

3-· William Shakespeare, *Richard* III 'New york, Boronto & London: The New American Library & The New English Library Limited–The Signet Classic Shakespeare, (1964) I.i.30, 32–35.

4– Irving Ribner, *The English History play in-the Age of Shakespeare* (Princeton, New Jersey :Princeton university press, 1957), p. 87.

5– The translation is quoted from Ribner, ibid., 87, footnote 37.

6– William Shakespeare, *3 Henry VI* (New york, Toronto & London: The New American Library & The New English Library Limited–The signet classic Shakespeare, 1968), v.vi. 81–83.

7– Geoffrey Bullough (ed.), *Narrative and Dramatic Sources of Shakespeare* (London &New york: Routledge and Kegan paul & Columbia University Press, 1966), III, 237.

8– A. P. Rossiter, "Angel with Horns: The Unity of *Ricard III,* "as quoted in Eugene M, waith (ed), *Shakespeare: The Histories* (Englewood Cliffs, N. J. :Prentice–Hall Incorporation, 1965), p. 82.

9– E. M.W. Tillyard, *Shakespeare's History plays* (London: Chatto andWindus, 1951), p. 208.

10– M. M. Reese, *The cease of majesty: A study of Shakespeare's History* plays (London: Edward Arnold Ltd., 1961), p.15.

11– paul Haeffner, *Critical Commentary on Shakespeare's Richard III* (London: Macmillan. 1966), p. 42.

12– Eugene M. waith, "Introduction," as quoted in *Shakespeare: The Histories, 66. cit., p. 12.*

13– Lily B. Campbell, "The Tragical Doings of king Richard III, "as quoted in Shakespeare, *Richard III, op. cit.*, p. 219.

traditional myth represented by the divine providence. It is no wonder then that Queen Elizabeth's reign must be praised highly especially when she is the granddaughter of Richmond (Henry VII), the first Tudor king. In each play Richmond is introduced as a chosen instrument and asymbolic figure.

Moreover Richmond, as history records that, exploits both Tudor myth and his historical descent from Cadwallader, the last of the British so that he can justify his claim to the throne and his rebellion against the established king; thus he named his eldest son after Arthur, the most famous legendary British king to remind his people that he and his son will bring back England's old glory. In both plays history is viewed as mirror on which the lessons of the preceding century can be reflected, and so rulers and subjects as well can take advantage of these lessons. The Tudor bias is shown everywhere in the chronicle histories which furnished the basic materials in the two plays, but time and again author of these plays devate from the chronicles as the are more concered with dramatic effects than accurate historical facts which theb found in the works of historians, such as More, Holinshed, Hall and others The most important technique followed in both plays is the long soliloques especially those given by Richard; and each author does his to soften the horrors of the scenes by mastering his dramatic hold on the play as a whole ,

1- The Malone Society Reprints (ed.), *The True Tragedy of Richard the Third* 'Oxford: Oxford University Press, 1929), 2204.

2- J. 'Dover wilson, "Shakespeare's *Richard III* and *The True Tragedy of Richard the Third*, 1594," *Sharespeare Quarterly*, III (October 1952), 300.

akespeare makes the English feel proud of Richard's patriotism when he is talking of Richmond, who is backed by the French:

> If we be conquered, let men conquer us,
> And not these bastard Britains, whom our fathers
> Have tinheir own land beaten, bobbed, and thumped,
> And in record left the them heirs of shame.
>
> (V. iii. 333–336)

Richard's courage and valour are represented in the battlefield of Bosworth, and "so when he dies, "as George B. Churchill puts it, "upon the field of battle dies possessed of that for which he had longed, the glory and the fame of kingship, and with it the fame of a courage undaunted and a will unrelenting to the last. (16) In both plays Richard asks for a fresh horse to continue to fight fearlessly. The following quotations, on the other hand, show Shakespeare's indebtedness to *The True Tragedy*. We have this furious speech when Richard addresses his page in *The True Tragedy*:

> King. A horse. a horse, a fresh horse.
>
> page. A flie my Lord, and saue your life.
>
> King. Flie villaine looke I as tho I would flie, no first shall this dull and senselesse ball of earth reciue my bodie cold and void of sense. (11.1985 ff.)

In Shakespeare, Richard has the same fury addressing Catesby:

> King Richard. A horse! A horse! My kingdom for a horse!
> Catesby. Withdraw, my lord; I'll help you to a horse.
> King Richard. Slave, I have set my life upon a cast,
> And I will stand the hazard of the die.
>
> (V. iv. 7–10)

The unifying theme in both plays is the moral theme which brings the other themes closer to each other. The lessons that the sixteenth-century people should understand are those taught by the Tudor historians who hoisted the banner of the

was the great and never–to–be forgotten nexus of Elizabthan political consciousness, the drawing of a new age, the advent of the messiah–king,"(15)as wilbur sanders points out. shakespeare allows only few lines to celebrate this outstanding historical event, first in stanley's words:

> Sir christopher, tell Richmond this from me: ...
> Withal say that the Queen hath heartily consented
> He should espouse Elizabeth her daughter.(IV.v.1ff.)

and then when Richmond says:

> O, now let Richmond and Elizabeth,
> The true succeeders of each royal house,
> By God's fair ordinaance conjoin together!
> (V.v.29–31)

Furthermore, *The True Tragedy* excels *Richard III* in showing more patriotism by paying tribute to Queen Elizabeth and her ancestors who tried to establish order and unity. At the end of the play the first messenger gives a brief idea about Henry VII's reign; then he is followed by the second messenger who relates Henry VIII's and Edward VI's reigns. princess Elizabeth gives details about Queen mary, and then her mother concludes the play praising Queen Elizabeth:

> She is that lampe that keeps faire Englands light,
> And through her faith her country liues in peace
> And she hath put proud Antichrist to flight,
> And bene the meanes that ciuill wars did cease.
> Then England kneele vpon thy hairy knee,
> And thanke that God that still prouides for thee.
> (11.2202–2207)

In conclusion we should like to say something favourable to Richard, who has been severely, but justly attacked throughout the article. Richard in both plays is no coward, and sh-

Most readers and viewers are relieved at length when Richard is thrown off the stage to be replaced by the peace promising Richmond. Eugen M. Waith comments on this point and says:"Despite the fact Richard completely dominates the play, and that he has a sinister fascination, we are enabled to accept Richmond's view of him entirely and rejoice that he has been put out of the way,'(12) so Shakespeare is occupied with the idea of giving a practical example about the destructive elements of human nature, and that he is concerned with the moral theme of the play as he is "emphasizing moral rather than political sins,"(13)as Lily Campbell points out.Still Shakespeare wants to show us the irony of the whole play–that destructive people destroy themselves at the end. "The tragedy is, "as Mark Eccles says, "ironic in that Richard, by destroying others, brings destruction upon himself."(14)

The True-Tragedy, on the other hand, dwells on the theme of restored order and unity more than Shakespeare does, especially when it emphasizes the marriage of Richmond and Elizabeth which is an important unifying symbol. while shakespeare always keeps Elizabeth off stage,*The True Tragedy* gives her several roles the most important of which is when she is offered as bride to Richmond. She is shown a sadutiful daughter who is ready to welcome her future husband if her mother gives her consent:

> Then know my Lord, that if my mother please, I must in dutie yeeld to her command for when our father leftaged his life, he willed vs honour still our mot hers age:and therefore as my dutie doth command,I do commit my selfe to her dispose. (11.2110ff.)

Shakespeare does not give this matter its due consideration, especially when "the marriage of Richmond and Elizabeth

In God's name cheerly on, courageous friends,
To reap the harvest of perpetual peace
By this one bloody trial of sharpy war.(V.ii.14-16)

Richmond comes to put an end to disorder and to heal the wounds of the civil wars which tore England and distorted its face. Richmond, on the eve of his victory, sleeps peacefully and all the ghosts and spirits which visit him foretell his triumph. So Richmond can be considered as God's "minister" as he claims to be :

O thou whose captain I account myself,
Look on my forces with a gracious eye!
Put in their hands thy bruising irons of wrath,
That they may crush down with a heavy fall
The usurping helmets of our adversaries!
Make us thy ministers of chastisement.
(V.iii. 109–114)

In *The True Tragedy* Richmond is also shown as God's agent and calls upon His help :

Then courage countrymen, and neuer be dismayed,
Our quarels good, and God will help the right,
For we now by dangers we haue past,
That God no doubt will giue vs victorie.
(11.1650–1653)

Shakespeare wants us to notice the way he followed in the opening and closing scenes of the play. It opens with Richard, who harbours malice, threat, intrigues, war, and disorder; then it ends with "Richmond, who of course is another symbol, this time for justice, and the constructive aspects of peace,"(11) as paul Haeffner states. Richhmond really predicts that God will:

Enrich the time to come with smooth-faced peace,
With smiling plenty, and fair prosperous days!(V. v. 33–34)

the idea that the principle of order and justice must replace anarchy, discord, and tyranny. God's instrument for achieving this principle is Richmond, who is introduced as a pious leader. In both plays Richard must be superseded by a good ruler. This is obviously seen in *The True Tragedy* when Richard never asks God for help against Richmond:

> A Catesbie, thou lookest like a dog, and thou Louell too, but you will runne away with them that be gone, and the diuel go with you all,Godivel hope,God, what talkel of God, that haue serued the diuell all this while. No, fortune and courage for me. (ll. 1966 ff)

Richard does not believe that God has helped him become king; he believes–as the foregoing quotation shows that too–that Fortune is his only help: "Fortune make me a king, Fortune giue me a kingdome" (ll. 443–444).

The Richard of *The True Tragedy* has a worse end than the Shakespearean Richard as his body is to be carried naked through the city of Leicester according to Richmond's order:

> Now seeing that each thing turnes to our content,
> I will it be proclaimed presently, that traytrous Richard
> Be by our command, drawne through the streets of Lester,
> Starke naked on a Colliers horse let him be laid,
> For as of others paines he had no regard,
> So let him haue atraytors due reward. (ll.2152ff.)

In each play Richmond is shown as God's agent. He always praises Him for His help, The first words of Shakespear's Richmond following his triumph are :

> God and your arms be praised, victorious friends!
> The day is ours; the bloody dog is dead.(V.v.1 -2)

Richmond depends on God to restore order while addressing his men before the battle is fought:

ating, is now humiliated, insulted, old, powerless, dominated and deprived of everything except hatred and bitterness for her enemies who brought her to this destiny–no sinner can escape his doom.

The first doom has afflicted Clarence, and Shakespeare shows him tortured by his dreams and conscience before he receives God's justice. Again God's vengeance is demonstrated when we find that not only Margaret is widowed, but also Elizabeth. Furthermore God's vengeance befalls Buckingham, Richard's satellite, because he has already supported Richard in committing crimes–he gets a crown for Richard, but death for himself.What is more, Anne ends up with a mysterious death because she has made it possible to let Richard win her hand at the funeral scene of her father–in–law whom Richard has murdered.

From all the above–mentioned examples we feel the influence of the sixteenth–century historians on Shakespeare–" as moralists, historians had a duty to reveal the logic and benevolence of God's plan and to explain and justify His interventions,"(10) as M.M. Reese puts it. It is no wonder then that when Richard's doom comes, he is first tortured by the pricks of conscience and horrible nightmares. He starts to feel suspicious of his supporters and turns friends into enemies, then he meets his death in the battlefield of Bosworth on foot after his horse has been killed under him–that the evil gains of years fall to destruction in one day. Richard must be revenged on and must pay with his life for plotting the assassination of his brother, his nephew, his king and his countrymen; and ultimately he becomes the victim of all his own atrocious crimes.

Having demonstrated the first two themes of the two plays, it is time now to explain the third theme dealing with

On the whole, Shakespeare treats the theme of the divine retribution better than that of *The True Tragedy*. He tries to show that God of the Old Testament–king of kings–is ruling indirectly through the play. Richard is God's instrument, and God answers prayers as well as curses without showing any mercy. This theory is better explained by A. P. Rossiter:

> But [Richard] is not only this demon incarnate, he is in effect God's agent in a predetermined plan of divine retribution: the "scourge of God." Now by Tudor–Christian historical principles, this plan is *right*. Thus, in a real sense, Richard is a king who "can do no wrong"; for in the pattern of the justice of divine retribution on the wicked, he functions as an avenging angel. Hence my paradoxical title, "Angel with Horns."(8)

The divine judgement, accordingly, is that of the familiar principle– a tooth for a tooth and an eye for an eye: a prince of Wales is for a prince of Wales and a king of England is for a king of England . Yet this divine punishment is not only private, but also common and general. Richard's doom does not arrive at its end until his sins ripen for punishment, and after he has been exploited by divine vengeance to punish the others, because "the play's main end is, "as E. M. W. Tillyard puts it, "to show the working out of God's will in English history."(9)

Richard's doom is preceded by other actions of God's revenge. Oueen Margaret, the widow of Henry VI, sends her curses throughout the play and invokes God's justice to avenge her on her enemies. But she is herself punished by God's justice–she is now humiliated and degraded. she, who was queenly, proud, charming, powerful, passionate and domin-

I promise thee Will, it greeues mee to see what mone these yoong princes make, I had rather then fortie pounds I had nere tane it in hand, tis a dangerous matter to kill innocent princes, I like it not. (II. 1295 ff.)

In Shakespeare we find that the Second Murderer feels sadness after the crime has been carried out:

A bloody deed and desperately dispatched!
How fain, like Pilate, would I wash my hands
Of this most grievous murder! ...

For I repent me that the Duke is slain.

(I. iv. 274 ff.)

Again God's anger and vengeance on Richard is represented in both plays when the sun does not shine on the day of the battle field of Bosworth. In *The True Tragedy* the overcast sky is a bad omen and Richard prophesies his doom, after his horse has been killed, while addressing the page:

You watry heauens rowle on my gloomy day, and darksome cloudes close vp my cheerfull sownde, dpwne is thy sunne Richard, neuer to shine againe. (II. 1989 ff.)

Shakespeare's Richard feels uncomfortable when the sky is gloomy:

A black day will it be to somebody ....

The sun will not be seen today;

The sky doth frown and lour upon our army ....
Not shine today! Why, what is that to me
More than to Richmond? For the selfsame heaven
That frowns on me looks sadly upon him.

(V. iii. 281 ff.)

My conscience hath a thousand several tongues,
And every tongue brings in a several tale,
And every tale condemns me for a villain.
Perjury, perjury in the highest degree,
All several sins, all used in each degree,
Throng to the bar, crying all, "Guilty! Guilty!"
I shall despair. Thereis no creature loves me;
And if I die, no soul will pity me.

(V. iii. 194–202)

But in both plays all that the spirits want is revenge on Richard. In Shakespeare, Richard realizes that when he says:

Methought the souls of all that I had murdered
Came to my tent, and every one did threat
Tomorrow's vengeance on the head of Richard.

(V. iii. 205–207)

In *The True Tragedy* the ghosts give a similar threat:

Meethinkes their ghoasts comes gaping for reuenge,
Whom I haue slaine in reaching for a Crowne,
Clarence complaines, and crieth for reuenge.
My Nephues bloods, Reuenge, reuenge, doth crie.
The headlesse Peeres comes preasing for reuenge.
And euery one cries, let the tyrant die.

(ll. 1880 ff.)

In both plays we find murderers who feel regret when the murder is committed. In *The True Tragedy* Will Sluter and Jack Denten murder the two princes. Shakespeare also uses two men to murder Clarence. In both plays the moral theme is stressed and one of the murderers feels regret either before or after the crime is committed. In *The True Tragedy* Denten feels regret before the deed is done:

Accuseth meas guiltie of the fact,
The fact, a damned iudgement craues,
Whereas impartiall iustice hath condemned.
(II. 1403 ff.)

Richard's conscience is not only troubled in his sleepless nights or nightmares, but also when he is awake, especially when he imagines terrible visions. He visualizes the spirits of the people whom he has slain crying for revenge. What is worse, he imagines that all things have shared the cry:

The hell of life that hangs vpon the Crowne, ...
That sleepe I, wake I, or whatsoeuer I do,
Meethinkes their ghoasts comes gaping for reuenge,
Whom I haue slaine in reaching for a Crowme ....
And all, yea all the world I thinke,
Cries for reuenge, and nothing but reuenge.
(II. 1874 ff.)

He is in a dilemma as he is torn between repentance and stubbornness:

Nay what canst thou do to purge thee of thy guilt?
Euen repent, craue mercie for thy damned fact,
Appeale for mercy to thy righteous God,
Ha repent, not I, craue mercy they that list.
My God, is none of mine. (II. 1416 ff.)

While the playwright of *The True Tragedy* emphasizes the theme of retribution by showing Richard's affliction by the blame of conscience, Shakespeare's Richard shows no signs of having a troubled conscience, except on the eve of the battle of Bosworth. Here he is troubled by the ghosts of the people he has already murdered and thinks that he is "a villain" and denied the love of people for his atrocious misdeeds:

In *The True Tragedy* Richard has the same doubtful feeling of Stanley:

> Ay sir, that you might be in Cheshire and lancashire, then should your Postes passe inuisible into Brittaine, and you to depart the realme at your pleasure, or else I to suffer an intollerable foe vnder me, which I will not. (ll. 1538ff.)

Having dealt with the first theme of the two plays, let us now turn to the second theme concerning religion and moral retribution. The author of *The True Tragedy* shows, unlike Shakespeare, that Richard himself thinks he may fall and that his fall will be greater than his rise:

> Doth Fortune so much fauour my hapinesse,
> That I no sooner deuise, but she sets abroach?
> Or doth she but to trie me, that raising me aloft,
> My fall may be the greater. (ll. 393 ff.)

His conscience is weaker than the Shakespearean Richard's. In his first speeches he argues with himself the stimuli that made him commit misdeeds, and he is mostly shown with wounded conscience. To back this statement, it is worth quoting Geoffrey Bullough's comment on this subject: "Richard here is a . . . complex character . . . He is not merely a brutal tyrant but also a man with a conscience. As soon as he has gained the throne he begins to fear that his reign will not endure,and he becomes the prey of wild alarms."(7)He does not feel at ease and no sooner is he driven to the thought of repentance to God, than he puts it aside. Richard's guilty conscience is clearly represented after his coronation and the murder of the princes:

> My fearefull shadow that still followes me,
> Hath sommond me before the seuere iudge,
> My conscience witnesse of the blood I spilt,

His fame will not be limited within England, but it will be worldwide no matter how long he will keep the throne. Moreover, he does not believe that God has helped him win the crown, but Fortune is his real assistance:

> Why so, now Fortune make me a King, Fortune giue me a kingdome, let the world report the Duke of Gloster was a King, therefore Fortune make me King, if I be but King for a yeare, nay but halfe a yeare, nay a moneth, a weeke, three dayes, one day, or halfe a day, nay an houre, swounes half an houre, nay sweete Fortune, clap but the Crowne on my head, that the vassals may but once say, God saue King Richards life, it is inough, (11. 443 ff.)

Still Richard, to secure his power in both plays, uses people for his own advantage. When he gets what he needs from them or when they hesitate to carry out his wishes, he no longer trusts them and feels suspicious of them. This is clearly seen when Shakespeare's Buckingham refuses to murder the two princes and finally decides to join Richmond against Richard. In *The True Tragedy* Richard is also suspicious of Buckingham, or even any person as he only relies on himself and trusts no one:

> But yet if my neighbours house bee on fire, let me seeke to saue mine owne, in trust is treason, time slippth, it is ill iesting with edge tooles, or dallying with Princes matters, Ile strike whillst the yron is hot, and Ile trust never a Duke of Buckingham, no never a Duke in the world, further then I see him. (11. 469 ff.)

Shakespeare's Richard does not trust Stanley, as he thinks he might join Richmond at any moment:

> Ay, thou wouldst be gone to join with Richmond.
> But I'll not trust thee. (IV. iv. 490–491)

the child is not of age to rule, and Richard finds it incredible to rule for another. He reveals all this in his soliloquy:

Ah yoong Prince, and why not I?
Or who shall inherit Plantagines but his sonne?
And who the King deceased, but the brother? . . .
Why now I with renowne of a soldier, which is neuer fold but
By waight, nor changed but by losse of life,
I reapt not the gaine but the glorie, and since it becometh
A sonne to maintaine the honor of his deceased father,..
Why my father got the Crowne, my brother won the Crowne,...
Why what are the babes but a puffe of
Gun–pouder? a marke for the soldiers, food for fishes,
Or lining for beds, deuices enough make them away,
Wherein I am resolute, and determing ,needs no counsell.

(11. 350 ff.)

In both plays Richard is not sure that he will stay King for a long time. In Shakespeare he is happy because he has gained the throne, no matter how long he will keep it. He only has lust for power for the time being, and there is no mention that his fame will last even after his death:

But shall we wear these glories for a day?
Or shall they last, and we rejoice in them?

(IV. ii. 5–6)

In *The True Tragedy*, Richard prophesies a tragic end for himself but still death will not bury his fame. He is not interested in power for power's sake, but in fame of power that will bring him glory even after death:

Ah how this title of Maiestie, animates me to my purpose,
Valour brings fame, and fame conqueres death. (11. 390ff.)

Again Richard, who knows nothing but malice, murder, revenge and perjury, is hypocritical towards his right–hand man, Buckingham. When he becomes King, he backs out and denies Buckingham the earldom of Hereford, which he promised.Richard does so because Buckingham is reluctant to murder the two princes, which is still unjustifiable since Buckingham has done much to help Richard become King.

Now we turn to the Richard of *The True Tragedy*, who is obsessed with one thought and passion that he expresses in the following:

> And the title of a King, is next vnder the degree of a God...
> To be baser than a King I disdaine. (ll. 356, 364)

The only way to get to the crown is not by deception as the Shakesperean Richard does, but by a continuous strife. Moreover the fear of death and hell will never prevent him from getting the throne by removing his nephew:

> And I will wear the Crowne, . . .
>
> Haue I removed such long out ofmy sight, as my brother Clarenc
> And king Henry the sixth, to suffer a child to shadow me,
> May more, my nephew to disinherit me, . ..
> No death nor hell shall not withhold me, but as I rule I will raign.
>
> (ll. 367 ff.)

Still the Richard of *The True Tragedy* is less hypocritical than the Shakespearean Richard and lacks his artful cunning. He believes he has more right to the throne, especially since he is Plantagenet's son who has actually helped his brother win the crown, and so it is not expected to give it to a child who has done nothing. He has gained the glory of a soldier with no crown, but the child has gained the crown without abtaining the glory or even knowing anything of the past.What is more

lent desire to get the throne can make him double–faced.When Clarence is on his way to prison, he meets Richard, who addresses him: "Your imprisonment shall not be long" (I. i. 114), which can be interpreted in two ways. For Clarence this means that Richard will do his best to get him released; but for Richard this means that he will try to bring about Clarence's death as soon as possible, and that is why he says to himself: "That I will shortly send thy soul to heaven" (I. i. 119).

To be a hypocrite, Richard exploits the gullibility of the people with whom he deals. Richard's favourite amusement is to satirize, ridicule, and make fun of others. His hatred and contempt for mankind make him try to play his tricks on those who are his satellites or adversaries. His hypocrisy and his confidence in deceiving people encourage him to play different roles successfully—a sinner and a saint, an enemy and a friend, a subject and a monarch, a warrior and a suitor. All obstacles give way before him—the wit of men and the intrigues of women. He deceives both the religious Mayor of London and the citizens when he appears reading a book of prayers, and supported on each side by a bishop.

In his soliloquy after winning Anne, Richard asks his audience to admire him for this extraordinary success:

> Was ever woman in this humor woo'd?
> Was ever woman in this humor won?
> I'll have her, but I will not keep her long.
> (I. ii. 227–229)

It is really incredible how he won her especially when she knows that he has already killed her husband and her father–in–law, and how stupid she is when she believes his statement that he killed them to win her. Is that the way to woo and win women, and in a funeral scene?

The True Tragedy refers to Richard's deformity at he beginning of the play when Truth describes Richard, the crookbacked as "tyrannous".

> A man ill shaped, crooked backed, lame armed, withall ,
> Valiantly minded, but tyrannous in authoritie.
>
> (ll. 57–58)

Richard's deformwed hand is mentioned again in *The True geaTrdy* when his power is threatened by Richmond. Richard hopes, as we have already mentioned, that he will take Richomond's heart with "this lame hand of mine" (l. 1978).

The lust for power can make Richard either entirely hypcritical as in Shakespeare, or partly hypocritical as is the case in the other play. *The True Tragedy's* Richard has little use of hypocrisy, and his method is mostly forceful and direct. He is never seen a deceiver except when he talks to the young king, his nephew. In this scene he wishes his nephew long life and happy reign:

> Rich. Long liue my Princely Nephew in all happinesse.
>
> King. Thankes vnckie of Gloster for your curtesie, yet you haue made hast, for we lookt not for you as yet.
>
> Rich. There in I shew my humble dutie to your grace, whose life I wish to redouble your deceased fathers dayes.
>
> King. Thankes good vnckle. (11. 702 ff.)

The Shakespearean Richard is much more deceitful. He tells us that he has the ability to murder while he smiles, to shed false tears, and he can even excel the chameleon. His vio-

the author of the other play does, as Richard seems both psychologically and physically deformed. He has decided to follow the crooked way because he is crook–backed, and thinks that not only mankind hates him, but even the dogs that bark at him; thus his inferiority complex suggests to him to seize power and to play the villain:

> I, that am curtailed of this fair proportion,
> Cheated of feature by dissembling Nature,
> Deformed, unfinished, sent before my time
> Into this breathing world scarce half made up,
> And that so lamely and unfashionable
> That dogs bark at me as I halt by them,
> Why, I, in this weak piping time of peace'
> Have no delight to pass away thetime,
> Unless to spy my shadowinthesun
> And descant on mine own deformity.
> And therefore, since I cannot prove a lover
> To entertain these fair well–spoken days,
> I am determined to prove a villain
> And hate the idle pleasures of these days.
> (I. i.18–31)

So it is Richard's deformity that motivates his internal malice. He justifies his revenge on human society because he thinks that he has been neglected and deprived of the rights and pleasures which the others enjoy. He thinks that he is "alone" in this world that shows no love towards him; and the feeling of his inferiority complex makes his heart void of love:

> And this word "love," which graybeards call divine,
> Be resident in men like one another
> And not in me: I am myself alone.(6)

In each play, Richrad is likened to beasts whether he is after power, with or without power. In *The True Tragedy* his brutality is unpleasantly demonstrated when he hears of Richmond's arrival in England, and he wishes he could drink Richmond's blood and eat his heart flavoured with salt:

> I hope with this lame hand of mine, to rake out that hatefull heart of Richmond, and when I haue it, to eat it panting hote with salt, and drinke his blood luke warme, tho I be sure twil poyson me.
>
> (ll. 1978 ff.)

Again in Shakespeare, Richard is compared to a blood–drinking dog when Queen Margaret refers to him, while addressing the Duchess of York, Richard's mother. He is associated with all the words related to this animal– "Kennei," "dog," "hellhound," and "cur":

> From forth the kennel of thy womb hath crept
> A hellhound that doth hunt us all to death.
>
> That that had his teeth before his eyes
> To worry lambs and lap their gentle blood....
>
> How do I thank thee that this carnal cur
> Preys onthe issue of his mother's body
> and makes her pewfellow with others' moan!
>
> (IV. iv. 47 ff.)

Richard is once more likened to a "bloody dog" when he is killed by Richmond:

> Richmond. God and your arms be praised, victorious friends!
> The day is ours; the bloody dog is dead.
>
> (V. v. 1–2)

Richard's lust for power and revenge can be attributed to his deformity. Shakespeare points this out more clearly than

If! Thou protector of this damned strumpet,
Talk'st thou to me of if's? Thou art a traitor.
Off with his head! Now by Saint Paul I swear
I will not dine until I see the same. (III. iv. 73 ff.)

Richard's obsession with power has its reaction on others. In both plays he is not welcome to be Protector. In *The True Tragedy* when Shore's wife is informed that Richard has become Protector after Edward IV's death, she says:

Ah me, then comes my ruine and decaie,
For he could neuer abide me to the death,
No he alwaies hated me whom his brother loued so well,
Thus must I lament and say, all the world is vnconstant. (II. 268 ff.)

In *Richard III*, Queen Elizabeth is worried about herself and son, the Prince in the case of her husband's death and that makes Richard Protector:

Grey. The heavens have blessed you with a goodly son
To be your comforter when he is gone.
Queen Elizabeth. Ah, he is young, and his minorirty
Is put unto the trust of Richasd Gloucester,
A man that love not me, nor none of you.
Rivers. Is it concluded he shall be Pro tector?
Queen Elizabeth. It is determined, not concluded yet;
Put so it must be if the King miscarry.
(I. iii. 9–16).

> Now that Shores wifes goods be confiscate, goe from me to the Bishop of London, and see that she receiue her open penance let her be turnd out of prison but do bare as a wretch ... that none shall releeue nor pittie her, and priuie spies set in euerie corner of the Citie, that thay make notice of them that releeues her. (ll. 1007 ff.)

But still Richard is the central character and he is always seen in the play either with the physical eye or with the mind's eye. Thus *The True Tragedy* combines the tragic and historic themes, and it seems "probably the first play of this type,"(4)as Irving Ribner puts it. It carries on the Senecan theme of revenge more profoundly than Shakespeare does, and its very opening is typically Senecan. The ghost of Clarence, previously murdered by Richard, begins the play with the cry for revenge:

> Cresse cruor sanguinis, satietur sanguine cresse,
> Quod spero scitio. O scitio, scitio, vendicta. (1–2)
> "Let Blood increase. Let blood be satisfied with blood.
> Which I hope speedily. O speedily, speedily, revenge."(5)

In both plays Richard takes quick steps against his opponents and pours his revenge on them to secure his access to the throne. In both plays Hastings' head must be cut off before Richard has his dinner. In *The True Tragedy* Richard gives the order while addressing Hastings:

> If villain, feedest thou me with Ifs & ands, go fetch me a Priest, make a short shrift, and dispatch him quickly. For by the blessed Saint *Paule* I sweare, I will not dine till I see the trators head. (ll. 950 ff.)

In Shakespeare he does the same thing:

Both plays have three main themes, namely: the lust for power, the moral theme, and that order and justice must replace anarchy and tyranny. The dominating theme is the lust for power, and let us show how Shakespeare's Richard represents it. Richard is a product of a preceding age of horror, and he learned only one thing–savagery. He emerged in *2 Henry VI*, where there is nothing but inhumanity. Although Shakespeare's *Richard III* is self–contained and has its own unity, yet it is a completion of *Henry VI*. *Richard III* is a problem of a man who has no right to claim the throne, and this man is Richard himself. We are introduced to him in *3 Henry VI*, where he is very anxious to wear the crown. It is Richard himself who kills Henry VI in the Tower, and then bides his time to plot against his brother, the Duke of Clarence.

Richard characterizes himself in his first soliloquy in *Richard III* as a villain and a treacherous conspirator against his brother, the Duke of Clarence. He will spare no effort to bring about Clarence's death by exploiting the "prophecies' libels, and dreams" to make king Edward IV feel suspicious of his brother. Thus, Richard foretells from his first appearance on the stage that murder, plot, and treachery will follow:

> I am determined to prove a villain. ...
> Plots have I laid, inductions dangerous,
> By drunken prophecies, libels and dreams,
> To set my brother Clarence and the King
> In deadly hate the one against the other.(3)

In *The True Tragedy* we have a secondary story of Shore's wife, who is also treated unjustly by Richard. He confiscates her property and sets her out of prison to beg in the streets. He asks the page to carry out his order:

THE CO MMON THEMES THE TRUE TRAGEDY OF RICHARD THE THIRD AND SHAKESPEARE'S RICHARD III

Dr-Mohammed Baqir Twaij

College of Education, University of Baghdad

The True Tragedy of Richard the Third (hereafter *The True Tragedy*), which is written partly in verse and partly in prose, is an anonymous play. It was first acted in London in 1594 by the Queen's Men, but it may have been written between 1588-1589 as there is a mention in the epilogue which is probably related to the defeat of the Spanish Armada in 1588, while Queen Elizabeth is also highly exalted: "And she hath put proud Antichrist to flight.(1) As for Shakespeare's - *Richard III*, it was written between 1592-1593. A controversial belief is that Shakespeare made use of *The True Tragedy* when he wrote *Richard III*. Both plays are a combination of English history and tragedy, and both are influenced by the Senecan treatment of revenge. It is worth noting also, as J. Dover Wilson puts it, that "*Richard III* and *The True Tragedy*, for all their differences, are strikingly similar in general structure. (2) Since our article is not concerned with general comparison between the two plays in question, it is bettter then to turn to the title of this article which is our only conceern.

٧٣٩

REFERENCES

Corder, S.P. An Intermediate English Practice book, Longmans, Green and Co., Ltd., London, 1969.

Greenbaum, S. Studies in English Adverbial Usage, Longman Group Ltd., London, 1970.

Hassan, A. Alnahwil waafi, daaril-magaarif, Misr, 1978.

Manifred Bierwisch "Semantics"

New Horizons in Linguistics, Edited by John Lyons, Penguin Books Ltd., England, 1975.

Scott, F.S., Brockett, C.S., Brown, J. G.

Goddard, P. R. English Grammar, A Linguistic Study of its classes and structures, Heinemann Educational Books, Ltd., London, 1978.

Zandvoort, R.W. A Handbook of English Grammar, Longman Group Limited, London, 1975.

۷۳۱

6. Ibid, p. 114.
7. Ibid, p. 121.
8. Manfred Bierwisch, "Semantics" *New Horizons in Linguistics*, 1975, p. 167.

Pattern practice exercises and conversation have to include sentences whose adverb of manner, if it is only one word, is put between the verb and its subject which is nearly similar to its counterpart in standard Arabic where the adverb of manner is more frequently positioned between two nominals, one of which is an inchoative and the other is its predicate. Compare:

In Enlish

The cold bitingly affected the grown up trees.

In Arabic

[? albardu qaarisan muj irun]
The cold bitingly harmful
The cold, being biting, is harmful.

Grammatically speaking, the pattern practice exercises should go from the known to the unknown,i.e. from the simple to the more difficult. Afterwards advanced exercises will lead gradually to the normal use of the adverb of manner in real situations. Adverbs of manner will be introduced many times with all the structures and in all situations in which they can logically be used. The aim should be continuous and gradual progress rather than immediate mastery.

Footnotes :

1. Scott, F.S., et. al., *English Grammar*, 1978, p. 32.
2. Corder, S. P., *An Intermediate English Practice Book*, 1969, p. 49.
3. Zandvoort, R. W., *A Handbook of English Grammar*, 1975, p. 249.
4. Hassan, A., *Al-nahwil waa fi*, 1978, p. 365.
5. Greenbaum, S., *Studies in English Adverbial Usage*, 1970, pp. 6-8.

However, what is to be suggested here is that the text book writers for teaching English in Iraq and other Arab countries, especially in the intermediate stage, may take into account the fact that the use of the adverb of manner in English constitutes less difficulty for Arab students when they occur in identical positions with their counterpart in Arabic. Thus, sentences which are syntactically similar in both languages are to be firstly taught and practiced. This may help students to understand and control the use of the adverb of manner in this linguistic area. This can be shown in sentences D1 and D2 below and their ciunterparts in Arabic:

D1. The baby plays happily.

In Arabic,

[yal9abut tiflu masruuram]
play (the) baby happily
The baby plays happily.

D2. The student reads the poem clearly.

In Arabic,

[yaqra?ut taalibul qassidata waatihatan]
read (the) student (the) poem clearly
The student reads the poem clearly.

Arab students have to practice passive sentences whose adverbs of manner are often positioned after the past participle as in:

The book has been printed carefully.

Students may face no difficulty in controlling the use of the adverb of manner in the sentence above which is partly different from its counterpart in Arabic whose adverb of manner is more often positioned after the subject of the passive Verb as in

[tubi9al kitaabu? aniiqan]
printed (the) book elegantly
The book has been printed elegantly.

of manner modifies not only the verb but also the subject. Consider the sentence below:

Tom behaves shamefully towards his wife.

In the sentence above, the adverb of manner "shamefully" modifies the process of behaving, and at the same time it also shows how"Tom" the subject is performing the action of behaving. Unlike Arabic, the adverb of manner in English has nothing to do with the object of the verb, i. e. it does not modify it. However, the correct position of the adverb of manner must depend not only on its meaning but also on the interrelation of the lexical element, and the syntacic structures of the sentence. "In order to understand the meaning of a sentence and its semantic relation to other expressions,one must know not only the meaning of its lexical elements, but also how they interrelate. This in turn depends on the syntactic structure of the senotence."(8)Whereas in Arabic the adverb of manner "al-haal" always follows either the subject or the object, to express how the subject performs the action or how the attendant circumstance of the object at the time when the process of the action dented by the verb takes place and it may also be said to answer the question word "keifa" (how).

In conclusion, it should be stated that the several positions the adverb of manner can occupy in English may play a significant role in causing a variety of problems to Iraqi students learning English as a foreigh language, i.e. students are uncerain about the exact position of the adverb of manner in a sentence. Therefore, the errors they commit may be attributed to the use of the adverb of manner whose implication is different from its counterpart in Arabic or to the fact that the exercises they trained for were randomly constructed.

ence introduced by "how".(6) For example, for the sentence below:

Foolishly, he answered their questions?

we might ask,

How did he answer their questions?

But the sentence adverb "foolishly"would not be an answer to this question. However, the question above could be asked and received in reply to the sentence below in which"foolishly' serves as an adverb of manner. (7)

He answered their question foolishly.

Consider many other similar examples whose adverbs of manner can serve as a response to an interrogative sentence introduced by the question word "how" with their counterparts in Arabic as in :

a.1. Tom speaks Arabic *fluently*.
a.2. [yatakalamu tom al9arabiyata. taliigan]
speak tom Arabic fluently
Tom speaks Arabic fluently.
b.1. The poem has been read *clearly*.
b.2. [quuri?atul qasiidatu waatihatan]
was read the poem clearly
The poem was read clearly.
c.1. He works *carelessly*.
c.2. [ya9malu bi-?ihmaalin]
work he carelessly
He works carelessly.

The foregoing discussion reveals that English adverb of manner usually occupies end-position when there is no other adverb in the sentence. The underlined words above are adverbs of manner which show how the action denoted by the verb is performed.Mention should here be made that English adverb

of them and other constituents in the sentence can be expressed by paraphrase. For example, for the first two sentences with "strangely" our paraphrase might be

1–a. It is strange (that) he answered the questions.

2–a. He answered the questions in a strange manner.

Sentence 2-a. shows that the adverb of manner usually qualifies the verbal predicate only. In a similar case only "frankly" in sentence two below is an adverb of manner, i. e. can serve as a response to an interrogative transformation introduced by How. (5)

Have a look at the following two sentences:

1. Frankly, he wrote to them about it.

2. He wrote to them about it frankly.

A point to notice is that the adverb which is fronted in sentence(1)would not be an answer to the question introduced by how. For example, the function of frankly in the following sentence is ambiguous because of its position as far as adverb of manner is cocerned:

Frankly, he explained his position to me.

Greenbaum believes that if "frankly" in the sentence above is interpreted as adverb of manner, the sentence could be paraphrased by:

He was being frank when he explained his position to me.

And if we interpret it as a sentence adverb it could be paraphrased by;

I am speaking frankly when I tell you that he explained his position to me.

Thus it can hardly be said that "frankly" is adverb of manner because it cannot serve as a response to an interrogative sent-

And in Arabic it is very rare to have an adverb of manner at the beginning of a sentence, and if it occurs it may not, like in English, function as a sentence adverb,
Consider the sentence below:

[waaqifan , indal baabil haarisu]
standing at the door the guard
At the door stands the guard.

In the sentence above the adverb of manner "waaqifan" (standing) which occurs at the beginning of the sentence is not, like in English, a sentence adverb, as we shall see soon after, because it modifies only the noun "alhaarisu" (the guard). Unlike Arabic, the position of adverb of manner in English makes a great difference to the sense. On a normal interpretaion, Greenbaum states that the following two sentences differ considerably in meaning:

1. Strangely, he answered the questions.
2. He answered the questions strangely.

He assumes that the semantic difference which is reflected by a variation in position, results from a difference in the perception of the fu nction of "strangely" in the two sentences. Greenbaum goes on to say that syntactic tests can be applied to demonstrate that "strangely" in sentence one, and "strangely in sentence two differ syntactically. For example, if the two sentences are transfomed into questions then "strangely" can be retained in the interrogative transformation of sentence two only.

Did he answer the questions strangely?

However, "strangely" in sentence one is not acceptable in question form in any position. The semantic relationship between each two homonyms and the relationship between each

This article deals mainly with this kind of adverbs. Zandvoort states that adverbs of manner (most of which end in-ly) either immediately precede the proincipal verb, as in:

He quietly closed the door behind him.

or follow the predicate and its object (if any), as in:

The book has been printed very carefully.

He thinks that in the latter case adverbs of manner are usually more emphatic than in the former, while Corder argues that in a passive sentence adverbs of manner are usually put immediately before the past participle as in :(2)

That house has been badly damaged.

Of the following examples, Zandvoort believes that the second and fourth probably represent the most common construction:

He quietly closed the door behind him.
He closed the door quietly behind him.
The book has been very carefully printed.
The book has been printed very carefully.

He goes on to say that "for the sake of emphasis an adverb of manner may be given front-position as in (3):

Slowly and impressively he rose from his seat.

In Arabic adverb of manner is used to modify either the subject it follows as in :

[jaa?al faa?izu masruuran]
came the winner happy
The winner came looking happy.

or the object it follows as in :(4)

[ra?aytut tifla baakiyan]
saw I (the) baby crying
I saw the baby crying.

ADVERB OF MANNER
DIFFICULTIES ENCOUNTERED BY IRAQI STUDENTS

Abdul Hassan H. Sheikhe, M.A.

This article aims at discussing a problem that is familiar to me as an English language teacher. Iraqi students have learned adverbs of manner. They understand their meaning and function and can respond to them when they hear or see them used. But when they try to use the same adverbs on their own in speech or writing, something goes wrong. They end up with sentences like these below:

They were responsible for the accident largely.
They were responsible for the largely accident.
The beautifully food was served.

The three examples above were detected, among many other similar mistakes, in the answer sheets of the first year students at the colleges of Agriculture and Veterinary Medicine of the University of Baghdad.

The word class adverb is often defined by position rather than by form. Items with no obvious form of resemblance such as 'quickly' 'out' and 'sometimes' are often considered to be members of this class. Thus, even in nonsense sentences there is no difficulty in identifying such adverbs:

The blengblong blanged blingfully.

The great majority of adverbs have an-ly suffix. Most adverbs in this category are formed from adjectives and the -ing form of verbs,(1) e.g.

glad	gladly
willing	willingly

Age of Reason, The New American Library of world Literature, 1956.

Hill, W.F., *Learning: A Survey of Psychological Interpretation*, Chandler Publishing Company, 1963.

Hopper, R., and Naremore, R., *Children's Speech: A Practical Introduction to Communication Development*, Harper and Row publishers, 1978.

Leibaiz, "Identity in Individuals and True Propositions, 1686, in Hampshire, S. *The 17th Century Philosophers and the Age of Reason*, The New American Library of World Literature, 1956.

Lennengerg, E., *Biological Foundation of Language*, John wiley and Sons, Inc. 1967.

Mcneill, D., "Developmental Psycholinguistics". In F. Smith and G.A. Miller, *The Genesis of Language: A Psycholinguistics Approach*, Cambridge, Mass. M.T.T. press, 1966.

Slobin, D.I., *Psycholinguistics*, Glenview Ill, Scott, Foresman, 1971.

Skinner, B.F. *Verbal Behaviour*. New York. Appleton-Century-Crofts, 1957.

Watson.J.B. "Behaviour: An Introduction to Comparitive Psychology". New York: Holt, Rinchart and Winsten, 1914.

References

Broadbent, D.E., "In Defence of Empirical Psychology", Bull. Br. psychol. Soc. 23, 1970. pp. 87–96.

Brown, R., *A First language: The Early Stages*, Harvard University Press, Cambridge, Massachuetts, 1973.

Brown, R., Cazden, C. and Bellugl, U., "The Child's Grammar from I to III. In J. P. Hill (ED.), 1967, Minnosota Symposium on child Psychology, Minneopolis: University of Minnosota press.

Brown, R., and Fraser, C., "The Acquisition of Syntax" In Charles Cofer and Barbara Musgrave, Eds. Verbal Behaviour and Learning: problems and Brocesses, New York, McGraw–Hill, 1963.

Brown, N., *Language and Mind* Harcourt Brace, Jovanovich, Inc. 1972.

Chomsky, N., "The Formal Nature of Language "in Lennenberg, E, *Biological Foundations of Language*, John Wiley and Sons, Inc. 1967.

Chomsky, N., "Review of Verbal Behaviour by B.F. Skinner", Language, 35, 1959, pp. 26–58.

Chomsky, N., *Aspects of the Theory of Syntax*, M.I.T. press. Cambridge, Massachusetts, 1965.

Gromer, F., R., "In Defence of the Empirical Method: A Reply to Broadbent Concerning Psycholinguistics", Bull. Br. psychol. Soc., 1970,pp. 271–279.

Cross, G. R., *The Psychology of Learning: An Introduction for Students of Education*. Pergamon, press, 1974.

Descarte. "Meditations of the First Philosophy, 1641, in Hampshire Stauart, *The 17th Century Philosophers and The*

uage. Both accounts of language acquisition are not explanatorily adequate and need further elaboration and reinforcement. It is hoped that efforts will be redirected towards developing a unified theory of language acquisition which is so powerful as to explain satisfactorily how such a complex phenomenon is acquired.

All these evidences point to one conclusion-that children are born with a perfect knowledge of the principles of universal grammar and a predispostion to make use of them in analyzing the utterances they hear around them. Children search for what McNeill calls "the local manifestations of the linguistic universals" in the particular language they are exposed to (p.73). Their inborn knowledge supplem ents the deficiencies in the scanty utterances they hear around them and enables them to derive their own rules. The mind is therefore not a "tabula rasa" as the empiricists claim but it contains some "cognitive structures" or internal states" which facilitate language acquisition. The function of the mind is not only to internalize data but to analyze, synthesize, associate, integrate and expand them.

Summary

Psycholinguists and language experts agree that language develops as a result of the interaction between the child and his/her environment but they differ in terms of the degree of emphasis they place on the environment. The behaviourists consider the enivronment as the primary factor involved in language acquisition. They do not acknowledge the existence of the mind and they affirm that all knowledge, patterns of thought and complex behavior are derived from experience by mechanical devices.

The rationalists, on the other hand, assert that the environment plays a significant role but it is by no means the decisive and conclusive one. The data we perceive through our senses activate and provoke the innate structures we are born with. These structures then grow, develop and expand as the child acquires additional knowledge from his environment. A child deprived from human society will never acquire lang-

Children succeed in acquiring their native language even though the samples of speech they hear contain grammatical errors, distortions, hesitations and incomplete utterances. Children who are born to deaf parents and those who hear nothing from their parents except commands come up with the right grammar of their language at a very early stage in their life .

2.Only human beings can learn a language. No aninnal can learn a human language no matter how long it has been trained. This conclusion has been confirmed by recent studies on two chimpanzees Washoe and Sarah (Brown 1973). Our vocal tract apparatus is shaped in a specific way which enables us to utter speech sounds. Animals' vocal mechanism is shaped differently and that is why they cannot learn a human language (Hopper and Naremore, p. 15).

3. All human societies speak languages of roughly equal complexity and abstraction. No language seems to be more primitive than the other or closer to the system of animal communication.

4. All human languages are creative systems, i.e. a native speaker of any language can produce and understand,an infinite number of novel sentences, sentences that have never been uttered or heard before. This creative command of language use is unique to human beings (Chomsky, 1968).

5. Human languages are strikingly similar in the deep structure and are superficially different in their surfarce structure. They use different devices to express the same semantic concepts. For instance, English relies exclusively on word order to express the grammatical relationships whereas Russian relies extensively on the inflectional endings.

6. In old age, all people start scrambling their words and sentences. This fact serves as an evidence that language is represented genetically in the structure of the human mind.

4. Imitation and expansion :

It has been noticed that not only children imitate adult's speech but that adults imitate children's utterances too while extending them i.e. adding what has been omitted. The adult's intention as McNeill puts it, is to "verify their understanding of the child's speech" (p.75). Adults are more concerned with their children's value judgements than with their grammatical structures. The controversy whether or not expansion is necessary for language acquisition has not been resolved yet.

The learning strategies discussed above are all tentative hypotheses based on observation and empirical studies. Language researchers are prepared to tell with certainty how each of the processes discussed above operates but they could predict that certain strategies are more important at a certain stage of language development or in learning certain aspects of language than others. For instance, imitation is more important in learning individual sounds or words than in learning grammatical structuers. (Hopper and Naremore pp. 129-133).

Evidences to support the rationalists' position :

A hypothesis about innate cognative structure could not be validated empiirically by introspecting the human mind since the mind is not susceptible for direct observation. Evidences to support such a hypothesis accumulate from a variety of sources especially from a consideration of the process by which children acquire their first language. These evidences are :

1. All children, those who are cared for and those who are neglected, those who are bright and those who are dull acquire the language they are exposed to in a relatively short period of time and at approximately the same age. If they are exposed to more than one language, they will master them provided that they hear enough samples of each

in a relatively short period of time. The tendency to overgeneralize even appears in their single word utterances such as the use of the word "moon" by Eva to refer to the real moon as well as to "half-grape fruits", "shiny green leaves", "lemon slices" etc. '(Hopper and Naremore, 1973, p.30). Children first learn the inflected forms of irregular verbs correctly by memorizing them as independent units. When they discover the rules that govern the inflection of the regular ones, they soon overgeneralize them to govern the irregular ones and that is why they start producing "incorrect forms such as "runned" and "bringed" ('Hopper and Naremore, p.56) .

2. Rule Induction:

Chomsky (1967) argues that what children learn in the process of language acquisition is a set of rules which they induce from the hivgly limited amount of lanvuage samples they hear around them. The child formulates his rules and tests them against further samples of language data. It sounds implausible to postulate that a child learns each sequence of words by experiencing it and by being corrected for the incorrect structures. Rather, a child learns from his earlier childhood a finite set of rules on the basis of which he generates an infinite number of sentences.

3. Simplification and reduction :

Children tend to simplify adult's utterances by eliminating forms that are not part of their linguistic competence. These forms include the function words and certain grammatical morphemes. These forms are acquired in a certain sequence and their order of acquisition is universal and systematic (Brown 1973).

atical rules and specify other properties of sound and meaning in particular languages. These innate principles are part of what he calls the mind being represented somehow in the structure of the brain and are transmitted genetically from parents to children.

Lennenberg (1967) asserts that language is biologically determined i.e. children learn how to talk just as they learn how to crawl or walk. According to him, what makes language possible is the interaction of many parts of the brain rather than the existence of some physical structures in the left hemi. sphere of the human mind. Without such an interaction, verbal communication would be impossible. Lennenberg refers to the dominance of the left hemisphere by the "Lateralization of Function". Language functions are by no means reserved to the left hemisphere only. The right hemisphere performs some functions, too (p.66). Lennenberg maitains that "the capacity for language acquisition is innately related to Man's peculiar maturational history and the unique degree of lateralization of function (pp.181-182).

Brown (1973) contends that language acquisition is a creative process and that its strategies are universal among childdren learning their language natively. Children also acquire the grammatical morphemes and function words of their first language in a certain sequence. This sequence is common to all children. The most important learning strategies discussed in first language acquisition research are:

1. **Overgeneralization :**

Language researchers seem to agree that this is the primary process at work in language acquisition. Children are disposed to overgeneralize in the basis of the scanty utterances they are exposed to and that is why they master the language

defence of the empiricits' view (1970), attempts to account for creativity on empirical bases. He affirms that rats learn to associate food not only with a large red sequare but with the whole class of sequare shapes regardless of position or of other qualities" (p.93). Animals learn to associate two "conceptual classes." Each class contains several members. Human beings, by analogy, learn how to associate particular words in a similar way.They also learn the rules that govern such an association i.e., they can tell whether such an association is permissible in their own language. Once they have mastered the principles of word organization, children could judge whether or not certain sequence of individual items is grammatical. On the basis of these principles, children could produce new sentences. Such an account is obviously inadequate. The empiricits also failed to account for the systematization and universality of certain type of "errors" which appear at certain stages of language development.

The rationalists' learning strategies:

The rationalists hold that language cannot be acquired, controlled or accounted for in behaviouristic terms. They base their theories on observational and longitudinal studies of child language acquisition rather than on an extension of animal lab experiments. They postulate certain hypotheses and try to verify them by empirical research.

Chomsky (1968) argues that language cannot be acquired without postulating a cognative system that grows in early childhood. He maintains that human beings are endowed with a number of specific faculties, one of them is the language faculty which consists of certain principles that are common to all languages i.e. we are born with a perfect knowledge of the principles of universal grammar which determine the gramm

(the regular ones) yet they inflect the weak verbs correctly but not the strong ones. He concludes that practice contributes nothing to stablizing linguistic forms and that language acquisition does not proceed through imitation (pp. 70-73).

4. Conditioning :

Conditioning occurs when a particular stimulus becomes associated with a certain gesture, click, switching on a light, ringing a bell etc. The animal then begins to respond not only to that original stimulus but also to what is associated with it. Pavlov's experiments on dogs are a good example of conditioning. A dog salviates at the sight of food. If the ringing of the bell is synchronized with serving food, the dog will then respond to the ringing bell too and begin to secrete saliva even though it is not served with food. It is then, said, that the dog becomes conditioned to the sound of the bell (Crops, pp. 13-16) Watson asserts that all the patterns of thought and complex behaviour could be reduced to a sequence of conditioned reflexes similar to sneezing in response to nose irritation or knee-jerk in response to a sharp stroke on the knee (Hill pp.35-37). Language, it is argued, could be learnt as a set of habits to be conditioned in a child in a way similar to that of dogs. One major difference between human behaviour and animal behaviour is that the behaviour developed in animals has to be taught whereas children do not have to be taught language (speech). In learning how to talk children proceed naturally at their own and without formal instruction. Conditioning also does not explain how children learn, the underlying deep structure of sentence which is different from the surface one.

All the empiricits, learning theories failed to account for creativity-the fact that a child can produce novel forms that have never been uttered or heard before. Broadbent in his

The evidences against this assumption are numerous. A child in his attempt to discover the underlying structure of a language creates novel forms, forms such as "bringed", "foots" "what me doing" and "no fit" which can never be uttered by an adult (Cromer, 1970). Secondly the child's imitations are not perfect reproductions of the adult's forms. They are characterized by the omission of certain grammatical morphemes and function words. Children, for instance omit the possessive inflectional ending as in "Daddy car" or the copula and the article as in "chair broken" (Brown and Fraser, 1963, p.188) The child drops them because they have no place in his/her linguistic competence. Adult's developed forms do not become part of the child's grammar merely by repetition and intensive practice. An exchange between a mother and her child illustrates how the child responds after eight repetitions of the same dialogue.

child	:	No body don't like me.
mother	:	No, say "nobody likes me".
child	:	Nobody don't like me.
		(eight repetitions of the same dialoge)
mother	:	No, now listen carefully; say "nobody likes me."
child	:	Oh ! Nobody don't likes me.

(McNeill, 1966, p.69)

Thirdly, a child cannot process complex structures and therefore he/she is not capable of reproducing them on his/her own (Brown, 1973, p. 409). There is also a restriction on the length of sentences processeod by the child. A child cannot imitate lengthy utterances since he/she operates under a constraint of length (Brown and Bellugi, 1964, p.138). McNeill (1966) argues that children receive much more pratice on strong verbs (the irregular ones) than they receive on wealk verbs

rns conform to those of an adult i.e. by a series of successive approximations the child's speech becomes similar to that of an adult. Reinforcement occurs either by gesture or by doing what is required or even by a subvocal activity.

The empiricsts claim that children learn when they receive a positive reinforcement for their performance and they do not learn when they receive a negative one. Furthermore they hold that a delay between the response and its reinforcement results in a poor performance and that the reverse is true (Hill, 1963 PP. 11-15). We therefore infer first that adults model childrens' speech and secondly that children who receive more positive reinforcement from their parents learn faster than those who receive less reinforcement, a hypothesis which is empirically invalid .

Evidences from longitudinal studies of language acquisition confirm the fact that all children come up with the right grammar of their language in a relatively short period of time and at approximately the same age. Furthermore adults pay attention to the truth vale of their children's propositions other than to their grammatical structures. They of ten correct their children utterances without telling them what is wrong with them or even the correct option. Children discover for themselves the correct grammatical form and internalize it. Their innate mechanism, therefore, helps them to utilize reinforcement to the best. (Slobin, 1971, pp.57-59).

3. Imitation :

It has been thought for long that imitation is the major process in language acquisition. The child first listens to his parents, hears new forms then reproduces them. He eventually learns them by further repetition and practice. The assumption being made is that adults shape the child's linguistic forms.

Speech is the movement of the muscles of the throat and thought is a subvocal speech.

Slobin (1971) contends that a child in the process of language acquisition learns a complex internal rule system rather than a collection of stimulus-response connections (P.56). It is impossible that a child infers rules by stimulus-response connections. Instead a child induces rules from the language data to which he/she is exposed and internalizes them i.e. a child must be cognatively involved in structuring his own language. A child processes information, analyzes the utterances and constructs his own rules. Language structure is too complex and abstract to be aquired or accounted for by such mechanical devices. Furthermore mechanical learning by drilling and repetition only does not ensure proper understanding of what is learnt. Effective learning can only be achieved by thoroughly comprehending and integrating what is newly learnt with what is already known.

2. Reinforcement:

Skinner (1957) considers reinforcement a primary factor in language acquisition. Words are seen as conditioned stimuli which, over time, produce conditioned responses which are then reinforced. For instance a mother may use the word "milk" in various contexts when speaking to the child; and actual milk may be given when the word is used. The child learns to associate the word with its referent. He may also find that his/her own enunciation of the word results in being given some milk. In this way, the child learns first to understand and then to produce speech itself.

Skinner contends that children in the process of language development emit certain sounds which they gradually modify as a result of the adults' reinforcement until their speech patte-

rch up to 1957,the date when Chomsky's Syntactic Structures was published.

This paper is primarily concerned with child language acquisition. The empiricists'and the rationalists' views on how language is acquired will be reviewed, contrasted and commented on.

The empiricists' learning theories :

All the empiricists' theories of learning are, in essence, an extension of experiments conducted on animals in labs. The findings of these experiments are generalized to human beings. The empiricists' theories place a heavy emphasis on mechanical learning, memorization and repetition rather than on underrstanding, cognition and explanation. The following are the most important psychological theories of learning.

I. The Stimulus-Response Bond.

This theory states that a particular stimulus elicits a certain response. Children learn by associating stimuli to responses. This association could be strengthened through reinforcement, repetition or reward. it could be weakened to the extent of extinction through punishment. A reward could be anything from a word of approval to a material prize. A punishment ranges from a statement of disapproval to a painful stroke.

Watson (1914) argues that words "substitute" their referents and when presented as stimuli they would provide the same response as the actual referent. He asserts that we are born with certain stimulus-response connections called reflexes such as a sneeze in response to a sharp tap on the knee. He also maintains that human behaviour like animal behaviour could be studied without making recourse to "consciousness". Behaviour to him means no more than muscle movements.

IS LANGUAGE BIOLOGICALLY DETERMINED, OR IS IT MECHANICALLY ACQUIRED ?

Adil Al-Kufaishi
Faculty OF Arts
Al-Mustansyriah University Instructor

An Overview :

The conflict between the empiricists' and the rationalists' views on how knowlege is acquired is by no means new. It dates back to the 17th century-the so-called "Century of Genius." The rationalist tradition dominated research up to the beginning of the 20 th century. It has been revived recently by the publications of Chomsky (1959), (1965), Lennenberyg (1967), McNeill (1966) and Brown (1973). 17th century philosophers such as Descartes (1641) and Leibniz (1686) embarked on their expedition to explore the foundations of knowledge the human mind-, a substance without which thinking would be impossible. They hold that human beings have knowlege that is not derived from experience but is prior to experience and determines the kind of knowledge that could be derived from experience. This knowledge is latent or dormant. The function of experience is to activate it i. e., cause it to be realized.

The empiricists hold that the mind is a blank tablet and that all knowledge is determined by the environment and can be accounted for as habits built up by mechanical devices such as stimulus-response bond, conditioning, reinforcement etc. Human language is viewed as a set of habits established by processes similar to that in which animals learn how to respond to a certain stimulus. The empiricist's tradition dominated resea-

Nasir, Sari. *The Arabs and the English*. London; Longman, 1976.

Newby, P. H. *The Book of Thousand and One Night by Sir Richard Burton: A Selection*. London: Arthur Barker, 1958.

Opie, Iona and Peter. *The Classic Fairy Tales*. London: Oxford University Press, 1975.

Phelps, William Lyon. *The Beginnings of the English Romantic Movement: A Study in Eighteenth Century Literature*. Boston, Mass.: 1893.

Said, Edward W. *Orientalism*. London and Henley: Routledge and Kegan Paul, 1978.

Shaw, Sheila. "Early English Editions of the Arabian Nights." *Moslem World* 49 (July 1959): 232–238.

Stark, Fraya. *Beyond Euphrates: Autobiography*. London: John Murray, 1951.

Steeves, Harrison R. *Before Jane Austen: The Shaping of the English Novel in the Eighteenth Century*. London: George Allen and Unwin, 1966.

Tillotson, Kathleen. *Novels of the Eighteen-Forties*. London: Oxford University Press, 1954; reprint ed., Oxford Paperbacks, 1962.

Wagenknecht, Edward. *Cavalcade of the English Novel*. New York: Henry Holt, 1955.

Willey, Basil. *The Eighteenth Century Background*. London: Chatto and Windus, 1965.

Edwardes, Michael. *East–West passage : The Travel of Ideas, Arts, and Inventions between Asia and the Western World.* London: Cassell, 1971.

Farwell, B. *Burton:A Biography of Sir Richard Burton.* New york: Holt, 1963.

Forster, E: M. *Aspects of the Novel.* 1927; reprint ed., Penguin Books, 1968.

Gerhardt,Mia I. *The Art of Story–Teller:A literary History of the Thousand and One Nights.* Leiden: E. J. Brill, 1963.

Gibb, Hamilton. "Literature." *Legacy of Islam.* Sir Thomas Arnold and Alfred Guillaume, eds. Oxford: At the Clarenden Press, 1931.

Haddawy, Hussain Fareed. "English Arabesque: The Oriental Mode in Eighteenth–Century English Literature." Ph. D. dissertation, Cornell University, 1962.

Hawori, Rida. "A study of the Exotic East in the works of Thockeray with reference to the Cult of the Orient in Eighteenth and Nineteenth Century England." Ph. D. dissertation, University of London, 1967.

Highet, Gilbert. *The Classical Tradition: Greek and Roman Influences on Western Literature.* London: Oxford University press, 1957.

Hitti, Philip K. *History of the Arabs.* London: Macmillan, 1943.

James, Louis. *Fiction for the Working Man: 1830-1850.* Penguin University Books, 1974.

Leavis, Q. D. *Fiction and the Reading Public.* London: Chatto and Windus, 1965.

Meester, Marie. E. De. *Oriental Influence in the English Literature of the Nineteenth Century.* Heidelbarg, 1915.

BIBLIOGRAPHY

Abdullah, Adel M. "The Arabian Nights in English Literature 1900." Ph. D. dissertation, University of Cambridge, 1963.

Ali, Muhsin Jassim. "Nineteenth–Century Criticism of the Arabian Nights." Ph. D. dissertation, Dalhousie University, 1978 (appeared in book–form, titled *Scheherazade* in English (3 continents press:washington, 1981)

Allen,Walter. *The English Novel: A Short Critical History*. London: Phoenix House, 1954; penguin Book, 1965.

Annan, M. C. "The Arabian Nights in Victorian Literature." Ph. D. dissertation, Northwestern University, 1945.

"Art VI. The Arabian Nights." *Edinburgh Review* CLXIV (1886): 166–199.

Baker, Ernest. The *History of the English Novel*. 10 vols. New york: Barnes and Noble, 1950.

Beckford, William. *Vathek*. London: Oxford University press, 1970.

Bernbaum, E. *Guide Through the Romantic Movement*. New york: Ronald press, 1949.

Burton, Richard F. *The Book of the Thousand Nights and A Night.* A plain and literal translation of the Arabian Nights' Entertainments, translated and annotated by Richard F. Burton. 10 vols.' (privately printed by the Burton Club.)

Conant, Martha pike. *The Oriental Tale in England in the Eighteenth Century*. New york: Columbia University press, 1908; reprint ed., New york: Octagon Books, 1966.

Cruse, Amy. *The Victorians and Their Books*. London: George Allen and Unwin, 1962.

many possibilities which are inherent in this oriental trend can be seen in authors of such different character as Scott and Morier. Others are to be investigated in the following chapters which will show how four prominent novelists made use of het *Arabian Nights*.

we may find some mention of them in his work. "(1)

By this time, the nineteenth century, the *Arabian Nights* had become part of the English literary culture. Since very few Englishmen knew enough Arabic to compare the original texts with the current translations,the oriental,exotic interpretation was never challenged. It was precisely this kind of exotic reading matter which filled a void in English literature. Introduced through the French, it came to England at a time when the neo – classical way of thinking and writing was losing its vitality and something new was beginning to emerge. From the very beginning this new movement, Romanticism, had great affinities with the exotic as represented by the *Arabian Nights*. The tales came to be universally known among Englishmen, usually while they were still children. They offered good stories, full of suspense and adventure representing for many readers a temporary escape from an unsatisfactory reality. New developments in the publishing business., with far-reaching consequences in the author-reader relation, made the book available to all classes, including the poor. As the popularity of the *Nights* was being established among common readers, it was only natural that they should exert a strong influence on original writers as well. Because of the many sidedness of the tales this influence varied from writer to writer. But the more general lesson of the *Nights* concerning the importance of suspense and plot, certain motifs of universal appeal, and the possibilities of the comic were generally adopted by English writers of fiction.During the eighteenth century a literary trend had emerged which started to create pseudo-oriental tales putting them to different uses, like the moral, the philosophical, the Gothic, the satirical and others. Two of the

(1) Meester, p. 17.

names are all resorted to, to give the work an oriental colouring. "(1)

Even for a man like James Morier, an explorer and diplomat, who made two wide journeys through the Near and Middle East, who is reputed to know intimately the domestic life, the bazaars, the religious beliefs, and the manners of persia, the *Arabian Nights* served as a model for his picaresque romance, *The Adventures of Hajji Baba of Ispahan* (1824). The book, naturally, drew on his knowledge of persia and its people, acquired on the British embassy at Tehran and on journeys. Morier claimed that Galland's *Arabian Nights* gave a true picture of the Orient.

> In the 'Introductory Epistle' he compares picture of the Orient to that of the *Arabian Nights* and admits that it is most difficult even for a traveller to delineate Asiatic manners. Beside this avowed contrast, a few motifs occur that show direct borrowing. The consultation of the stars before the bleeding of Aslan Sultan's wife, Hajji Baba's dread of the loss of his ears if he entertained any erotic feelings towards her, Hajji Baba's story of Ali-Sakal, the barber and contemporary of Caliph Haroun al-Rashid, his day dreams of greatness and his behaviour as such, are reminiscent of the Barber's cycle of the tales. (2)

These few examples from the works of Scott and Morier suffice to demonstrate the influence exerted by the *Arabian Nights* on nineteenth century authors. Obviously, "we cannot expect them to have made an equally deep impressionon on every man, but if they did not influence an author very strongly, yet

(1) Abdullah, pp. 172-73.

(2) Abdullah, p. 158.

otonous reflections, and rejected the endless repetitions of the Arabian original. (1)

Scott's indebtedness to the tales can be seen in the introduction to *Quentin Durward*, where he alludes to the story of Aboulcazem, in his allusion to Prince Hussein in *Waverley*, to Hassan Bedr-ed-DDeen in *Count Robert of Paris*, and in his knowlege on the subjeits of Arabia and syria, their inhabitants and their customs in *The Talisman*. (2) A reviewer of the even recommended *Waverley* (1814)

> as faithfully embodying the lives, the manners, and the opinions of this departed race, and as affording those features of ancient days, which no man probably, besides its author,has had the means to collect,thedesire to preserve, or the power to portray.This tale should be ranked in the same class with the Arabian Nights' entertainmments,in which the story, however it may for a moment engage the attention, is but of little consequence in proportion to the faithful picture which they present of the manners and customs of the east. (3)

features of scott's style attributed to his reading of the *Nights* include "insertion of poetry in the prose text, constant use of proverbs, prostration on the sight of a monarch,punishment for seeing the face of a princess–all on the model of the Arabian Nights–; some geographical, sociological and theological data together with some exoticism and a slightly florid and archaic style intermingled with a few Arabic term, expressions and

(1) Meester, p. 47ff.

(2) Unsigned review, *British Critic*, August 1814. 2: 189–211. There is no clue as to the reviewer's qualifications for passing judgement on the faithfulness of pictures of the East.

(3) 'Dedicatory Epistle ' to *Ivanhoe*, 1818.

exquisite fancy to their prosaic descriptions, or to illustrate vividly certain ideas and tastes,"(1) which indicates to what extent they could count on their readers' familiarity with the tales. (2)

Sir Walter Scott's allusions, for instance, to the Muslims in general, which were fairly accurate and bespoke some genuine acquaintance with the tenets of Islam, Eastern wisdom and the history of the Crusades, came basically from his reading of the *Arabian Niqhts*. In his novels he frequently referred to the tales of which he had been such a diligent and fond reader. In the introduction to *The Talisman* (1825), the most Eastern of his novels, Scott confessed that he had never visited the Middle East. He said that he felt the difficulty of giving a vivid picture of a part of the world whith he was totally unacquainted, "unless by early recollections of the *Arabian Niqhts' Entertainments*. "(3) Stricken with poliomyelitis which made him lame for the rest of his life, Scott resorted to the tales for companionship, solace and comfort. His favourite version of the *Nights* was Galland's edition of which he said:

> No fascination has ever been attached to Oriental literature equal to that produced by Mr. Galland's first translation of the Arabian Tales; in which, retaining on the one hand the splendour of Eastern costume, and on the other the wildness of Eastern Fiction, he mixed these with just so much ordinary feeling and expression as rendered them interesting and intelligible, while he abridged the long-winded narratives, curtailed the mon-

(1) Ali, p. 79.
(2) Ib.d., P.36.
(3) *The Talisman*, Scott's Introduction, p. 3.

of the tales. "The mere endeavour to study the *Niqhts* at length and to apply to this study all the available contemporary critical tools, should be seen as another testimony to its tremendous popularity with readers and critics. " (1)

There is almost no author in the nineteenth century, "who had not shown in some way, that he read and loved the *Arabian Niqhts*." (2) They loved the tales with that attachment that human nature accords to a most cherished memory. "In the course of his literary meanderings, he told of his early devotion to the Arabian tales, of the formative influence they had exerted upon his mind, and of all that the *Arabian Niqhts' Entertainments* represented in rel ation to his own philosophy of life."(3)The Arabian tales were so well known in England by the middle of the nineteenth century that "people who did not know that sesame was a grain, could have told that 'Open Sesame' was a magic password, which could open the robbers' cave."(4) These tales opened up wide possibilities of allusion of which writers could take advantage as they had become a part of the cultural background of England, and refer to their situations and characters as though they were in current existence. "Writers not only made their meaning clear, but transferred to their own ideas some of the picturesque effect and imaginative force that belonged to the well known and well loved story of 'Ali Baba and the Forty T hieves."(5) Major writers of the period had" drawn heavily upon Scheherazade's endless treasure of allusions to verify their social and literary criticism, to add a dash of

(1) *Ibid.*, p. 228.

(2) Meester, *Oriental Influence in the English Litetature*, p. 16.

(3) Annan, pp. 55-6.

(4) *Ibid.*, p. 159.

(5) *Ibid.*, p. 160

The satiric group "is chiefly exemplified by the pseudoletters culminating, in English, in Goldsmith's *Citizen of the World*, and by Count Hamilton's entertaining parodies." (1)

Satire used the oriental tale for the purpose of criticizing contemporary society, moral and politic; but also turned its criticism against the oriental tale itself. One such English writer "who made a deliberate attempt to parody the structure of the oriental tales was Horace Walpole. His *Hieroqlyphic Tales* (1785) are, as the postscript says, 'mere whimsical trifles, written chiefly for private amusement." But if the craze died down, genuine interest in Oriental life and thought came later "with the more accurate knowledge of Eastern countries" and "when, still later, the Oriental classics were made accessible in scholarly and unadulterated editions." (3)

> Consequent upon the English colonial expansion in India and the Arab East, the increasing social and cultural impact of industry, the growth of the newly enriched middle classes, as well as the progress of Oriental scholarship, eighteenth-century pseudo-Orientalism gave way to an ardent search for accuracy and exactitude in information and details concerning Eastern settings, customs and national peculiarities. (4)

In the England of the nineteenth century, there were attempts to focus on the aesthetic and sociological significance

---

(1) Conant, p. xxvi.
(2) *Ibid.*, p. 220.
(3) Baker, 5: 56.
(4) Ali, p. 58.

East, and in time to the Middle Ages." (1) Beckford's interest in the Orient was obviously made possible by his appetite for such reading matter as the *Arabian Nights* and its imitation and adaptations done earlier in the century. The oriental elements in *Vathek* are of great significance. Beckford "deliberately enlists the support of all the possible supernatural machinery of the *Arabian Nights*: genii, afrits, and all art of magic. He also reproduces the *Arabian Nights* atmosphere by sometimes employing a multitude of calenders, dervishes and faquirs, prayers and ablusions, seraglios, sofas, eunuchs, harems,and their veils." (2) In one way or another *Vathek* exerted a definite influence on the next literary generation. Novelists like Benjamin Disraeli and Meredith as well as poets like Byron, Southey, Moore and Landor were greatly indebted to this tale. (3)

In the province of satire which was the spirit of the age of Addison and Steele, Johnson and Goldsmith, satirists found abundant sources in the *Nights*.

A first reading of the *Arabian Nights* must have been for the Augustans like the discovery of a planet inhabited by creatures intelligent certainly but utterly and disconcertingly unlike human beings;and just as in the twentieth century writers have for the purpose of satire brought Martians to the earth, so the first literary exploitation of the discovery of the East was for satirical ends. (4)

---

(1) Michael Edwardes, *East- West Passage : The Travel of Ideas, Arts and Inventions between Asia and the Western World* (London: Cassell, 1971), p. 139.

(2) Hawari, pp. 377-8.

(3) See, William Beckford, *Vathek*, ed Roger Lonsdalec London: Oxford University Press, 1970), p. viii.

(4) Allen, *The English Novel*, p. 90 .

Johnson's *Rasselas*, for instance, she calls philosophical. To George Sherburn, it is "the best piece of moral writing, " (1) to Edward Wagenknecht "a monument of Christian pessimism (2) B. G. MaCarthy calls it "the finest philosophical novel of the English Oriental School," (3) and Walter Allen considers it "a philosophical fable on the vanity of human happiness."(4) Harrison R. Steeves admits that " oriental romance " is " an accepted but inaccurate phrase ... since it was oriental only in the imitative sense, and the imitation was, like most of them, generally a rather inferior article, " (5) he, nevertheless depicts *Rasselas* as an oriental romance. These diverse views demonstrate that divisions like Conant's, although useful, are arbitrary, and that no literary work can be depicted purely as imaginative, philosophic, moralistic or satiric.

Great among imaginative oriental fiction is William Beckford's *History of the Caliph Vathek* (1786), a fusion of oriental subject and imagery with the Gothic 'tale of terror'. It was written in French by an Englishman "whose imagination was warmed by the exoticisms of both East and West, whose desire was to move away from reality-in space to the mysterious

---

(1) George Sherburn, "The Restoration and the Eighteenth Century, " p. 94.

(2) Edward Wagenknecht, *Cavalcade of the English Novel* (New York: Henry Holt, 1955), p. 123.

(3) B. G. MaCarthy, *The Later Women Novelist*, p. 25.

(4) Walter Allen, *The English Novel : A Short Critical History* (London: Phoenix House, 1954; Penguin Books, 1965), p. 89.

(5) Harrison R. Steeves, *Before Jane Austen : The Shaping of the English Novel in the Eighteenth Century* (London: George Allen and Unwin, 1966), pp. 227-8.

Vision of Mirza' is a philosophical vision, 'The Letter from a Monkey', is a satirical adventure story, and 'The Story of Hilpa' is a kind of mock-heroic romance. (1)

Of the philosophic oriental tales composed in English, Johnson's *Rasselas* (1759) is the most important. It contributes to the original tale given an Eastern setting. Johnson succeeds in delighting the reader by providing his tale with variety, and by delaying the inauguration for the search for happiness until Rasselas has had several interesting physical and mental adventures at home. "Written immediately after the death of Johnson's mother, it expresses the substance of the author's somber philosophy of life. Though darkened by his immediate grief, the philosophy is essentially the same as that revealed in his conversations and his verse." (2) The theme of the tale can hardly be stated in a better phrase than "The Vanity of Human Wishes." It had for its subject the impossibility of happiness except through serenity and patience, which Johnson thought could be attained only by integrity and knowledge.

Traces of the influence of the *Arabian Nights* on English literature of the eighteenth century are usually shown to have been the preoccupation of four groups of men of letters: the imaginative, the moralistic, the philosophic and the satiric group. It was Martha Conant (3) who first classified the literary works which appeared under these four headings. Although she is often cited by other scholars in regard to her cataloguing, her line of distinction between the imaginative group and the moralistic group is somewhat artificial and inaccutrate. Dr.

(1) *Ibid*., p. 40.

(2) Conant, pp. 140-41.

(3) Cf. above, p. 25, note 16.

wanted to see or study. Short story writers could learn from some of its well knit stories how to build their own. Fatalists and pessimists deeply meditated upon some of its tales. Pornographists found it to their taste. (1) Even in the world of "Fairy Tales" the *Arabian Nights* have been cited to have influenced "The Three Wishes," "Bluebeard" and "The Tinder Box". "Comparison with 'Aladdin and his Wonderful Lamp' need not be resisted, particularly when it is remembered that the *Arabian Nights* was the favourite reading of Hans Andersen's childhood. The tale of Aladdin is, like 'The Tinder Box', a tale of a mortal being made use of by a supernatural, on the promise of rich reward; and several of the incidents have much similarity." (2)

In England the first oblique use of a tale from the *Nights* was made by Addison to illustrate a moral concept. Addison's oriental narratives are important in that he lent the tremendous prestige of the *Spectator* to fiction in this mode. "It is owing to his example that the long procession of sultans, dervishes, hermits, caliphs, and viziers winds its way through eighteenth century magazines."(61)Most of the tales of the *Spectator* are little more than anecdotes used to reinforce a moral or to underline some idea in a diverting manner. In No. 195 of the *Spectator* 1711, Addison utilized the *Arabian Nights*' story of 'Duban, the Physician', to illustrate how beneficial bodily labour is to health. Other tales represent different narrative species. 'The

---

(1) Abdullah, pp. 196-7.

(2) Iona and Peter Opie, *The Classic Fairy Tales* (London: Oxford University Press, 1975), p. 206.

(3) Robert D. Mayo, *The English Novel in the Magazines, 1740-1815* (Northwestern University Press, 1962), pp. 40-1.

The comic spirit of the tales contributed to a great degree to their popularity. In the way of mischievous adventure, and unrestrained exhibition of ridiculous weakness in character, the comic parts of the *Nights* are outstanding. Numerous examples come to mind, like the set of stories of the little Hunchback, who was choked with a bone, and the Bareber of Baghdad and his seven brothers--there is that of the tailor who was persecuted by the miller's wife, and who after toiling all night in the mill, got nothing for his pains. And there are many instances of the same sort, "which are an inexhaustible mine of comic humour and invention, and which, from the manners of the East they describe, carry the principle of callous indifference in a jest as far as it can go (58)
g0. (1).

The influence of the *Nights* is as varied as the stories themselves. Its wide and enduring popularity is mainly due to its many sidedness.

> Realistic writers could find realism in its description of every day life. Romantic writers were fascinated by its supernatural machinery and its highly imaginative quality. Gothicists had examples in its magicians and sorceresses. Detective and mystery story writers could find suggestions in some of its purely detective stories. The *Nights* must have suggested to some publishers and novelists the idea and technique of serial publications. Moralists, amoralists and immoralists could find material to their hearts' content. To the exoticists it was a major inspiration. Travellers and orientalists learnt from it a great deal about the countries and the peoples they

(1) *The Complete Works of William Hazlitt*, ed. Howe (6 vols.; London: C. M. Dent, 1931), 6: 12-13.

If a book is universally known and liked by men of all ages and of different educational levels it becomes inevitable that this book should exert a powerful influence in the realm of literature as well. The *Arabian Nights* were influential because they met certain literary needs. The tales helped in teaching English novelists "the value of ingenius plotting, the emotional effect of suspense,and the charm of paradoxical conclusion." (1) " Concerning plot, Conant rightly states that the *Sir Roger de Coverley papers* possess admirable characterization and well-defined background, but the absence of plot denies them the name of the first English novel. The *Arabian Nights* which appeared almost contemporary with the De Coverley papers "offered just that element of plot which was lacking in the periodical sketches."(2) In the *Nights*,"there are several tales that, in certain respects, deserve to be called classical; *Ali Baba and the forty Thieves*,or *Zeyn Alasnam and the King of the Genii*, for instance, despite all their oriental decorations, are admirably simple and well-proportioned; and the *Arabian Nights*, as a whole, is a treasure-house of story perhaps unsurpassed in literature."(3) There are frequent motifs in the collection which "may be said to form the story-teller's very stock-in-trade.Such as, for instance, the old parents finally blessed with ason, the son squandering his inheritance after his father's death; in the travel stories, shipwreck; in the Harun stories, Harun's insomnia and his going out in disguise. "4

---

(1) Earnest A. Baker, *The History of the English Novel*, 10 vols. 'New york: Barnes & Noble, 1950), 5:57.

(2) Conant, pp. 241-2.

(3) *Ibid.*, p. 242.

(4) Gerhardt, *The Art of story-Telling*, p. 51.

In many ways publication and the *Arabian Nights* resemble one another and require similar techniques. In both instances it is a matter of the utmost importance that the stories are interrupted at a point of high tension, while the number of available pages or the approaching morning impose, on a different level, where this point must occur. This element of the story in the *Arabian Nights*, no doubt, accounts for the developing popular interest in the tales, a point clearly emphasized by E.M. Forster, in his lectures on the English novel:

> Scheherazade avoided her fate because she knew how to wield the weapon of suspense – the only literary tool that has any effect upon tyrants and savages. Great novelist though she was,–sxquisite in her descriptions, tolerant in her Judgements, ingenious in her incidents, advanced in her morality, vivid in her delineations of character, expert in her knowledge of three Oriental capitals – it was yet on none of these gifts that she relied on when trying to save her life from her intolerable husband. They were but incidental.She only survived because she managed to keep the king wondering what would happen next. Each time she saw sun rising she stopped in the middle of a sentence,and left him gaping.
>
> "At this moment Scheherazade saw the morning appearing and, discreet, was silent." This uninteresting little phrase is the backbone of the *One Thousand and one Nights*, the tapeworm by which they were tied together and the life of a most accomplished princess was pressrved. We are all like Scherazade's husband, in that we want to know what happens next. That is the universal and that is why the backbone of anovel has to be a story. (1)

(1) E. M. forster, *Aspescts of the Novel* (London : Edward Arnold, 1953), pp. 28–29.

All these new trends made it possible for Scheherazade's tales to become well known to the English people,so well as a matter of face. that their popularity brought writers and readers together "on the common ground of universal familiarity with the *Arabian Nights*." (1)

Most Englishmen were first introduced to the tales as children, The young Victorians, in general, supplemented their scanty stock of literature by reading the books belonging to their elders. Even when books for the young increassed both in quantity and in quality during the years of Queen Victoria's reign:

> "there were some grown–up books they could not make up their minds to leave behind–notably *Pilqrim's proqress, The Arabian Nights, Gulliver's Travels,* and *Robinson Crusoe*. They insisted on keeping these and adding them to their own particular store, and gradually the fathers and mothers gave up their claim and the transfer was complete. (2)

This might partially explain the number of editions of Galland's and other translations during this period. As a result of the new scientific interest in authenticity, exactness, and completeness, new translations from the Arabic began to multiply as well. "Countless editions of single tales and children's editions joined the current; while pantomimes, operettas, melodramas, and burlesques of the two favorite tales, 'Aladdin' and Ali Baba,' became increasingly popular throughout the Victorian period." (3)

---

(1) Ali, p. 117.

(2) Amy cruse, *The victorians and their Books* (London : George Allen & Unwin, 1962), p. 286.

(3) Annan, p. 7.

books a profitable speculation, and publishers immediately began to exploit the poorer public by first a six–shilling one-volume novel, and then in the fifties and sixties by cheaper Railway Library and 'yellow Back' novels. "(1) In addition to books there were the circulating libraries which served readers overwhelmingly devoted to fiction, and the "rapidly epanding provision of magazines, ranging from *Chamber's Journal* and *Eliza Cook's Journal* for the lower middle--classes (or the servants of the rich and better educated) through Dickens' *Household words* to the *Saturday Review*. Most of the magazines made their concessions to fiction..."(2) New popular weekly papers provided serial fiction for the masses. " At the price of a penny, the reader could have his fill of serial romance,along with much improving and informative matter. (3) In the end one cheap form of publication devoured the other; the part–issue was driven off the market by its rival the magazine serial... for the reader could get his instalment of a novel and much else besides at the same price."(4) These developments had repercussions in the author–reader relationship which tended to become much closer as a result of serial publication, a fact that proved to be of the utmost importance for charles Dickens.Serial publication gave back to story–telling "its original context of performance"(5)since the outcome of an author's efforts could be measured immediately and concretely by the evidence of fluctuating sales.

---

(1) Leavis, p. 152. (2) 45ford. p. 208.

(3) Kathleen Tillotson, *Novels of the Eighteen–Forties* (London: Oxford University press. 1954; Oxford paperbacks,1962) p. 31.

(4) *ibid.*, p. 30.

(5) *ibid.*, p. 36.

"few stayed long enough to get a really solid grounding even in the rudiments."(1) Still, there was a marked increase in literacy and, as a consequence, an expanded and diversified reading public which required an expanded literature. "Clearly the passion for fiction was endemic among the lower orders, too. Another investigator in London reported the widespread habit of owning books in working–class families, but pointed out that the Bible and religious books were the least read, while the greatest proportion of books 'were narrative'" (2)

Fiction, and that not always of the best sort, provided much needed diversion. But there were other incentives drawing men to printed material: "the desire to keep up with the events of the fast – changing world; the spirit of self – improvement which permeated down to the masses ... and the seething social unrest which found expression and focus in the radical propaganda of the period from 1815 to 1850." (3) In addition to books, a " new journalism succeeded in turning every working man into a newspaper reader. "(4) The publishing business was quick to understand and utilize the situation and "in the mid forties the invention of various processes (especially of ink – blocking on cloth) made cheap

---

(1) Boris Ford (ed.), *The pelican Guide to English Literature, Vol. VI: From Dickens to Hardy* (penguin Books, 1958; reprint rev., 1964), p.214.

(2) Richard D. Altick, *The English Common Reader: A Social History of the Mass Reading public 1800–1900* (Chicago & London: The University of Chicago press, 1957), p. 217.

(3) *Ibid.*, p. 97.

(4) Q.D. Leavis, *Fiction and the Reading public* (London: Chatto & Windus, 1965), p. 118.

number of early travellers to the East recommended it as a true picture of the then slowly changing Muslim Orient. Realistic scenes of everyday life are cleverly mingled with romance."(1) After all, they deal with life's fundamentals: death, old age, marriage, anger, fear, pain, love, regret, loyalty, beauty, religious faith, temptation, sickness, delight, luck–in short, all aspects of life's experiences and feelings.

The tales were also popular, especially in the nineteenth century, among a new semi–educated audience of fiction–readers, many of whom were still unacquainted with the classics of prose fiction. The radicalism of romantic heroes, the oriental scenery, the exotic element, and the mysterious and miraculous appealed to the urban working class. In its reading matter, this class "was not only a new market for literature, it had its own tastes. "(2) It demanded more excitement, scandal and sentiment in its reading matter. The appeal of the oriental and exotic elements to the public was "an escape from the actual degradation and licence of town and factory conditions." (3) This somewhat harsh evaluation must, of course, be seen within the framework of the relations between reading public, authors, and publishing business. Most children in England spent at least some time in school, though"

---

(1) Adel M. Abdullah, "The Arabian Nights in English Literature to 1900" (ph.D. dissertation, University of Cambridge, 1963), p. 61.

(2) Louis James, *Fiction for the Working Man 1830–1850: A Study of the Literature produced for the Working Classes in Early Victorian Urban England* (London: Oxford University press, 1963), p. 51.

(3) *Ibid.*, p. 90.

in the midst of unreality, a verisimilitude, is mentioned to account in large part for the popularity of the book. "The cities of Baghdad and Cairo, the countries of the East, the Seven Seas, are real places, though so far away that they seem on the borders of fairyland. Time as well as space is an actuality, however remote and vague." (1) The European reader found it easy to imagine himself present at the scenes described because customs and manners were felt to be described in vivid detail.

Indeed, throughout the whole of the *Arabian Nights*, there is not a single violation of probability for which we could not produce a similar instance in European works of fiction: and the great merit of the Arabian appears to be, that whenever

> he has recourse to supernatural agency, the personages whom he suffers to be under the species of influence, lose none of their human feelings, but, in the most extraordinary situations and circumstances, act under human motives and inducements.(2)

Other commentators observed that the tales were told in a simple, direct manner with little subtlety or sophistication: all black and white without shadings. "There are no great ideas in them; no thought-provoking theories or philosophies. There is only folk wisdom, sometimes crudely and often beautifully expressed."(3)Even the make-believe66"is so cleverly poised that all those who translated the book and a large

(1) Conant, pp. 5-6.

(2) "Prefatory Discourse," *Arabian Nights Entertainments* (London:W. Suttaby, 1807), I, xix, quoted by Muhsin Ali, p. 35.

(3) Farwell, *Burton*, pp. 366-7.

the *Arabian Nights*, or whether the tales helped in accelerating Romanticism, they won their way to the hearts of the people, and attained a popularity such as few books had.

In addition to the foregoing causes for the enthusiastic reception of the book, the interest in the tales themselves was appreciated. "They are all stories which have long been *told* before they were written. The same reason for the force of the Psalms: all the non-essentials are dropped during long repetition. Same for ballads." (1)

It was not only their rich colour and exotic setting-that element which has made the fortune of their imitators. For all their magic and mystery they stood on the solid ground of reality; though their characters might be standardized and undeveloped, their adventures were real adventures, told with an instinct for the dramatic. Beneath their fantasy and exotic appeal there was a moral core, without which they could not have entered so deeply into the heart of Europe, nor have preserved for two centuries a place in the affections of both learned and simple. The real East became but the more vivid and its influence the more potent that it was freed from the cumbering extravagances that had hitherto obscured it. (2) The tales were considered to be far more like real life than many other stories: "There is the wonder and strangeness; the unexpectedness which is so much more frequent in life than in the 'realistic' novel." (3) This strange sense of reality

---

(1) Freya Stark, *Beyond Euphrates: Autobiography* (London: John Murray, 1951), p. 42.

(2) Gibb, "Literature," *The Legacy of Islam*, p. 20–3.

(3) Freya Stark, p. 47.

Arabian Nights there would have been no *Robinson Crusoe*, and perhaps no *Gulliver's Travels*. (1)

The *Arabian Nights*, then, "came at the psychological moment,"(2) and was the ideal refuge of the romantics, from the very beginning of Romanticism on to its latest survivals. It was not only the romantics who found echoes of their longings and desires in the tales of the *Arabian Nights*. Victorians, also, attempted "to maintain momentary escapes to a realm of spontaneity and freedom or to throw shades of fancy upon reality itself in order to make it more acceptable," (3)

The romantic character of the *Arabian Nights*, then, was the chief reason for the popularity of the tales. On the other hand, Ernest Bernbaum gives the book an even greater impact when he states:

If the first English translation had been worthy of the Arabian original, or even of the French intermediary, the Pre-Romantic Movement might have been accelerated by contact with a world so different from the neo-classic, so unrationalistic, so colorful in its imaginative freedom, Sensuousness, and fatalism. Decades were to pass before the real qualities of the *Arabian Nights* were felt, the crude prosaic style of the translation almost destroying them; nevertheless a few of its most obvious marvels were Perceived and imitated whether it was the romanticists who popularized

(1) Gibb, "Literature", *The Legacy of Islam*, p. 201.

(2) B. G. MaCarthy, *The Latet Women Novelists, 1744–1818* (Oxford: B. H. Blackwell, 1947), P. 13.

(3) Muhsin Jassuim Ali, "Nineteenth-Century Criticism of the *Arabian Nights*", (Ph.D. dissertation, Dalhousie University, 1978), p. 101.

(4) E.Bernbaum, *Guide through the Romantic Movement* (New York: Ronald Press, 1949), p. 11.

> stories of one's own day. There was a turning from the "annals of England" as well as from Greece and Rome, a turning that took two lines of escape, one temporal, the other geographic. The first was a return to the Middle Ages . . . The other escapist path led to remote lands. Under the stimulus of *The Arabian Nights*, first translated into occidental languages in the first two decades of the century, and of Jesuit "relations" as well as of the literature of travel and trade, there were definite idealizations of Chinese, Persian, Arabian and other Oriental peoples. (1)

In the tales of the *Arabian Nights*, then, Englishmen found "an escape from the undesirable realities of their own culture and society. "(2) They helped in creating a dream world in which the hard facts of real life were evaded. "The picture of the remote, mysterious, gorgeous East depicted in these tales gratified the growing taste for the unusual, the marvelous, the wild, and for the picturesque, the exotic, the extravagant, allaying classical restraint, and exciting the imagination." (3)

> The *Arabian Niqhts*, essentially a production of the people, possessed in a superlative degree the one quality, hitherto overlooked by men of letters, but indispensable in a popular literature, the spirit of adventure. It is not over rash to suggest that it supplied the clue for which the popular writers were searching, and that but for the

(1) *Ibid.*, pp. 974–5.

(2) Sari J. Nasir, *The Arabs and the English* (London: Longman, 1976), p. 14.

(3) Hussain Fareed Ali Haddawy, "English Arabesque: The Oriental Mode in Eighteenth-Century English literature" (Ph. D. dissertation, Cornell University, 1962), p. 113–4.

most typical of neo–classicism, all the emotions and imagination which had been suppressed for so long began to show themselves in an interest in romantic stories,legends and improbable tales, especially those set in a a foreign land. In fact, even while the vogue of neo–classicism was at its height, a number of poets began to write in a special mood which betrayed a new sensibility and heralded the romantic movement. The change was slow and gradual, and, in the works of Thomson, Young, Gray, Collins and Blair, some of the elements peculiar to the classical age became allied with a new tenderness of feeling and a keener sense of nature. As time went by, the disintegration of the classical ideal grew more distinct. Reason was replaced by a sense of the mysterious, wit by humor and pathos. Gradually, the Age of Reason gave way to an Age of Sentiment.

"Undoubtedly there was an excess of sentimentality after the vogues of Richardson and Rousseau were established." (1)Other aspects of Romanticism in England were: sensibility, primitivism, love of nature, sympathetic interest in the past, mysticism and individualism. These aspects were manifested through an escape from the familiar known world into the unknown and hence mysterious parts of the earth. George Sherburn, when writing about "Accentuated Tendencies" in the eighteenth century, asserts that the means of escape were "Medievalism" and "Oriental Exotism" :

> If a genuine thirst for novelty cannot be quenched by classical story, it is not likely to be satisfied for long by

---

(1) George Sherburn, "The Restoration and the Eighteenth Century (1660–1789), "*Literary History of England*, ed. Albert C. Baugh (New York: Appleton–Century–Crofts, 1948), p. 967.

transformed into a blackened, ruined countryside of mine shafts, tall chimneys pouring out smoke, and horrible industrial towns in which people lived and worked under appalling conditions. The standards of morality and decency had begun to sink rather low. The criminal classes had gathered boldness and numbers in spite of ruthless laws; ignorance and brutality had become widespread among the poorer classes, and the introduction of cheap gin increased alcoholism at an alarming rate. Religion offered little consolation to the laboring poor and the paupers. The churches and organized religion did not deal adequately with the problems arising from the new urban and industrializing trends.

The world–or at least the younger generation–was becoming restless, disillusioned with things as they were, and hungry for change. In literature, reactionary tendencies during the Augustan Age were contrary to Augustan feeling. The age ignored and denounced too often the inner life of men, their hidden dreams and desires and hopes, all that belonged essentially to men as individuals and as members of a society. Authors felt that the artificial conventions and strict regulations of the neo–classical art were forced, unnatural and oppressive to originality and spontaneity of spirit. In spite of all its merits, the Augustan literature itself was not really classic; it was pseudoclassic. "It lacked the element that gives to Greek literature its unparalleled glory and charm–*Unconsciousness*. The literature of the school of Pope was painfully self–conscious." (1) Reaction was inevitable. As a protest against all that was

(1) William Lyon Phelps, *The Beginnings of the English Romantic Movement: A Study in Eighteenth Century Literature* (Boston, Mass.: Ginn & Co., 1893), p. 12.

It was also characterized by a sense of tradition, distrust of the emotions and little appreciation for works of imagination. It is sometimes called "The Age of Reason", "The Age of Commonsense", and sometimes, too, it is called "The Enlightenment" and "The Age of Elegance". All these ideals suited men for a while, but

> literature, for ever changing, once more changed its character and methods–this time very decisively. Philosophy and history gave way to emotion. The ideals of wit, politeness, and self–control were discarded as artificial. People turned to admire sincerity, sensitivity and self-expression. (1)

True as this may seem, on one hand, literature, on the other hand, is simply the crystallization of tendencies of thought, social, economicl and political forces shape literature, and bring about new trends in form and content. In the eighteenth century and "just when the metaphysicians were demonstrating that all was for the best in the best of possible worlds, a number of major writers were pointing out that a great deal of whatever was,was wrong." (2) It was a century of wars, fought in all kinds of places and conditions, in particular against France–at the beginning, in the middle, and again at the end of the century. The Industrial Revolution now had its first impact upon English manufacturing, and the struggle between capital and labor had its inception. Much of England was rapidly

---

(1) Gilbert Highet, *The Classical Tradition: Greek and Roman influences on Western Literature* (Oxford University Press, 1957), p. 355.

(2) Basil Willey, *The Eighteenth Century Background* (London: Chatto & Windus, 1965), p. 100.

who captured (and held) the imagination of the west, who introduced Haroun Al-Rashid and Scheherazade to the drawingrooms from Moscow to Madrid, and started the delightful oriental strain in European letters which has produced works as variousas Volta ire's *Zadig* and Beckford's *Vathek*. For a long time the European mind had been building up fantasies about the classical world of Greece and Rome. It launched out into more extravagant fantasy about Baghdad, the Abode of peace. (1)

Another reason for the welcome given the *Arabian Nights* is found in the yearning to break out from the closed circle of the neoclassical, in the pre-romantic and the romantic movements. In its first stages, the neo-classical age began with the restoration of the Stuarts in the person of Charles II in 1660, and gave a name to the period of literary history embracing the latter part of the seventeenth century. The fashionable literature of the time reflects the reaction against puritanism, the receptiveness to French influence, and the dominance of the "classical" point of view in criticism and original composition. Deliberately setting out to rival the accomplishments in arts and letters that had graced the reign of Augustus Caesar when the Roman Empire was established, men of the Restoration spoke of being part of a new Augustan Age. During this period, and the early part of the eighteenth century English writers were largely concerned with facts. The neo-classical spirit was ambitious, progressive, and forward-looking, and was characterized by clarity, objectivity and rationalism.

---

(1) P.H. Newby, in the Introduction to *The Book of Thousand and One Night by Sir Richard Burton: A Selection* (London: Arthur Barker, 1958), p.7.

the *Nights* to the European reader," (1) He was a born story–teller, in the good and the bad sense; he possessed the gift of easy, skilful, effective narration, and he stuck at nothing to make his stories artistic; if the necessary details were not in his original he was quite ready to supply them from his own productive imagination. He had a bright, flexible style, admirably fitted for the purpose he had in view, lucid yet eloquent, smooth and polished without being over elaborate, yet longdrawn enough to suit the languorous indolence of Eastern life.(2) Galland selected his materials and skilfully adapted them to contemporary European taste, emphasizing the fantastic and the miraculous, carefully avoiding reference to sex, and adding morals at the end of the stories. "Galland's divergences from his manuscripts were not due to ignorance nor to carelessness, but to his determination to adapt the *Arabian Nights* to the literary laws of the time, which were lax in the matter of literary license and rigorous in regard to matters of taste. (3) Galland's version, in short, was the origin of a book that has left a deep imprint on the European imagination and instilled notions of the mysterious East in the minds of Europeans that no other book has created. He, to put it metaphorically, was "the man who let the oinni out of the bottle," and it was he

(1) Now Rida Hawari, "A Study of the 'Exotic' East" (Ph.D.dissertation, University of London, 1967), p.54.

(2) "Art. VI, The Arabian Nights, "*Edinburgh Review* 164 (1886): 167.

(3) Margaret Cecillian Annan, "The Arabian Nights in Victorian Literature" (Ph.D. dissertation, University of Illinois, 1945), p. 34.

his wife. one day, for example, she said to him: 'Ma'ruf, I want yọu to get me some pastry and make sure they put real honey. "(1) Burton's translation reads: "Amongst other afflictions which befell him from her one day she said to him: 'O Ma' aruf, I wish thee to bring me vermicelli–cake, dressed with bees' honey."(2) Burton's translation is the more literal; it follows the Arabic sentence structure almost word for word. But in doing so the spirit of the original is lost and something new, the exotic "oriental tale", is created. It was these English *Arabian Niqhts* which became known to the English people and which exercised such a powerful influence on their novelists.

There are many reasons for tne popularity of the *Nights* in England. In the first place, it came through France, and the French exerted a tremendous influence on English literature "Especially since 1660, French influence had prevailed in England, French literary critics were regarded as authoritative, and French fashions in literature were followed. Since, then, the vogue of the oriental tale was so great in France, it was naturally echoed in England." (3) But the *Niqhts* would never have achieved such astoundin popularity in England had it not been for Galland's copy."Galland was the right person to iutrodnce

---

(1) Rendered from the original Arabic for this thesis.

(2) Richard F. Burton, *The Book of the Thousand Nights and a Night,* x:1.

(3) Martha pike Conant, *The Oriental Tale in Enoland in the Eighteenth Century* (New York: Octagon Books, 1966), p. 238. This is the only detailed study of the Oriental Tale in England; it does not, however, trace the influence to original Oriental texts.

ts over the entire work. He tried hard to retain the flavour of oriental quaintness and naivete of the medieval Arab by writing,as the Arab would have written in English'. The result is a work containing thousands of words and phrasee of great beauty, and, to the western ear, originlity. (1)

All the translations, including the ones surveyed, have, each in its own way, won their place in literature. "Their history is a small part of the literary history of Europe. Together by their merits and defects, they have determined and shaped the approximate, mobile faulty, familiar, living notion which the Occident has of the book and its stories."(2)

To anyone familiar with both the original Arabic text and the translations it is puzzling how the same tales can convey such different and even opposits impressions. Stylistically they undergo a metamorphosis when rendered from Arabic into English and other European languages. While the Arabic text seems–at least to Arabs –straightforward, familiar, simple, colloquial, even vulgar, the language of the English translations can best be described as "exotic" and "oriental". Burton, for example, had a weakness for archaic and uncommon expressios, he coined words to render the meaning of the Arabic original, his idiom seems affected and unnatural and the style flowery, he sought out the exact English equivalent for Arabic words at the expense of clearness and comprehensibility. Any phrase or sentence, chosen at random, will demonstrate the point; a short Arabic statement may be rendered as follows: "He had a lot of trouble from

---

(1) Byron Farwell, *Burton: A Biooraphy of sir Richard Francis* (London: Longmans, 1964), p. 366.

(2) Gerhardt, p. 113.

and was re–edited in a revised new edition by E. stanley Poole. The version by John Payne (9 vols., 1882–84) is a faithful and complete rendering into sophisticated and archaic English (1). Sir Richard Burton's "A Plain and Literal Translation of the Arabian NightsT, Entertainments, now entitled the book of the Thousand Nights and a Night with Introduction, Explanatory Notes on the Manners and Customs of Moslem Men, and a Terminal Essay upon the History of the Nights," (10 vols., 1885, Supplemental Nights, 1886–88, 6 vols.), is the fullest and the most famous. Burton was eminently qualified for the task:

> As a traveler, Burton was a real adventurer; as a scholar, he could hold his own with any academic Orientalist in Europe; as a character, he was fully aware of the necessity of combat between himself and the uninformed teachers who ran Europe and European knowledge with such precise anonymity and scientific firmness. Everything Burton wrote testifies to his combativeness, rarely with more candid contempt for his opponents than in the preface to his translation of the *Arabian Nights*. He seems to have taken a special sort of infantile pleasure in demonstrating that he knew more than any professional scholar, that he had acquired many more details than they had, that he could handle the material with more wit and tact and freshness than they. (2)

No one has attempted to duplicate his efforts since the publication of his translation.

The great charm of Burton's translation, viewed as literature, lies in the veil of romance and exoticism he cas-

(1) *Encyclopaedia Britannica*, s.v. "Thousand and one Nights".
(2) Edward W. Said, *Orientalism* (London and Henley : Routledge and Kegan Paul, 1978), P.194 .

early editions of the *Arabian Nights' Entertainments*, the oldest of which is the second edition of 1712."(1)All of the English editions have identical titles,

none gives the name of the English translator, though all mention Galland.Perhaps the most important point to be observed is that the order and text of the tales, in all of the English editions described, are the same. It seems likely, therefore, that the first English translation, made some time prior to 1712, served as the master record, as it were, of all 18th century editions in English. It was not until the year 1798 that an attempt was (2)made to improve upon the prose of this first English translator. The first Grub Street translator, also, invented the title, *The Arabian Nights' Entertainments*, which has stuck to the tales ever since and was even translated into Arabic for the Calcutla edition of 1839-42.

In spite of its defects, it established the popularity of the *Nights* in England, and was read with delight by Englishmen It was followad by other renderings and direct translations from the Arabic. The first attempt to render a complete and faithful translation of the printed texts of the *Nights* into English was made by Henry Torrens in 1838, but he died prematurely and only one out of his projected nine or ten volumes was completed. He only published, in a literal translation, the first fifty 'nights' in which he tried to give the feeling of the original. This was followed by E.W. Lane's translation (3 vols., 1839-41), which was a bowdlerized selection intended for the drawing room. It was copious, had valuable annotations,

(1) Shaw, p. 233.
(2) *Ibid.*, p.234.

until the present time. In Arab universities the *Nights* is not studied, and if Arab scholars deal with the work at all, they concentrate on its non–literary aspects. In general, Arabs do not see much difference between the folk–tales that are told, mostly to children, by simple and uneducated people, and the tales Scheherazade told the "happy king" to save her life.Because of their colloquial language, unsophisticated style, and, at times, coarse content such tales, inside and outside the *Arabian Nights*, are not considered to belong to the realm of literature proper. In addition to this, it is important to keep in mind that the *Nights* does not have the exotic appeal for Arabs that plays such an important role for European readers.

When Galland brought out the first partial translation of the *Nights* in French, the tales created a great sensation and were translated almost at once into several European languages, His translation was fascinating in that it "transfomed the grudgingly tolerated Cinderella of Arabic literature into a beloved and bounteous fairy of Western popular and literary imagination." (1)

"There seems to be no clue as to when the *Nights* appeared first in English. Some unknown translator at a very early date turned Galland's artistic French into the strangest Grub Street English."(2)This "Grub Street Version" is believed to have made its appearance prior to 1712 and shortly after their 1704 publication in Paris, though where, when, and by whom, are facts not known. "There are in the British Museum four

(1) Gibb, "literature" in *The legacy of Islam*, p.346.
(2) Duncan B. Macdonald, "A Bibliographical and literary Study of the first Appearance of the Arabian Nights in Europe, "*The library Quarterly* 2 (October 1932): 405.

the *Niqhts* was popular in twelfth-century Egypt. To this period probably belong the picaresque stories and the longer fairy tales, "imaginatively conceived, clumsily constructed, with much use of the magic."(1) Miss Mia Gerhardt's litetary analysis of the tales in Arabic is a valuable contribution. In one paragraph she sums up the history and nature of the total collection as follows :

> There have been men who invented the stories and told them, others who told them in their turn, others who wrote them down; other men worked them over and gave them, sometimes, a quite different form, and still others who assembled them into volumes.
> Now all these men who took part in the creating, transmitting, recasting and compiling of the collection have receded into the mists of time; it is no longer possible to find out anything about them. Here is a book, then, whose author's name is legion; a book that simply grew, snowball-fashion, at random, until finally the first printed editions settled a more or less fortuitous form of it. (2)

It was European orientalists who first became absorbed in and studied the importance and interest of the work, thus directing attention to it. In Arad countries the nights never held the exalted place that it was given in Europe. As early as the tenth century the Arab literati Al-Mas'udi and Ibn al-Nadim condemned the book, in the version available to them, as silly and trivial. This evaluation has not changed

(1) Cassell's Encyclopaedia of Literature, s.v. "*Arabian Nights.*"
(2) Gerhardt, *The Art of Story-Telling*, p.39.

Baghdad and, eventually, Egypt, with new tales added during each stage, but "the final form was not taken by the *Nights* until the later Mamluk period in Egypt."(1)Thus, the collecting, shaping and reshaping of *Nights* took place between the tenth and the sixteenth century. The different elements are unified by the Arabic language, the Islamic background, and they are held together by the frame-story. In every other respect, the collection brings together most diverse material: fairy tales, novels and novellas–including love, picaresque, and seafaring stories–legends, didactic tales, humorous stories and anecdotes The style is as diversified as the content ranging from poetry over rhymed prose to the most simple colloquial language. Basically, the *Nights* belongs to the field of folk-literature which is demonstrated most clearly by the fact that the original Arabic texts were never printed until the nineteenth century and that even the standard editions include different tales and several variants of their common tales. Much has been written about the *Nights*, origin and date but most of itremains mere speculation for lack of documents. Many of the tales were conceived for the purpose of entertaining Arab folk. "It is likely that the itinerant story-teller who gathered his audience about him in the town coffee-house contributed a fair share to the legacy of these tales of a thousand and one nights. " (2) There are tales which were added during the Baghdad period, tales in which free imagination is at play, well constructed, usually short and simple, they have a middle class setting, contain love intrigues, very little of the magical and much interspersed verse. Scholarship has shown that a version of

(1) *Philip K. Hitti, History of the Arabs (London: Macmillan, 1943), p. 404.*

(2) *Sheila Shaw, "Early English Editions of the Arabian Nights,"* Moslem World *49 (July 1959)*:232.

THE ARABIAN NIGHTS IN ENGLAND

Fakhir Abdul Razzak
Department of English
College of Education
University of Baghdad

The *Arabian Nights' Entertainments* won its way into the hearts of the English people at the time of its first introduction in the early part of the eighteenth century. The universality of its appeal, its quality of charm and its captivating literary power have maintained its constant popularity until the present time.

Poets, novelists, critics and essayists have read Scheherazade's tales, and gratefully acknowledged their formative influence upon their imagination. They imitated them, borrowed matters from them, adapted them and referred and alluded to them.

The chief concern of the present study is to investigate the reasons behind the welcome given to the tales when they were introduced, with special attention to the causes that explain the romantic strain in the reception.

The *Arabian Nights* is a "composite work consisting of popular stories originally transmitted orally and developed during several centuries, with material added somewhat haphazardly at different periods and places." (1) The frame tale is of Indian origin; it was transmitted through Persia to

---

(1) *Mia I. Gerhardt*, The Art of Story-Telling: A Literary Study of the Thousand and One Nights (*Leiden: Brill, 1963*), *p. 2.*

b. have size and magnitude.
c. have size and possess direction.
d. have mass, volume and length.

6. Cranes could be divided into two main classes. The first class have a jib, or arm, from which the load is suspended. This jib crane allow the load to be raised or lowered and then deposited at any point within the radius of the jib. While other is the overhead travelling cranes.

6. Cranes
a. have jib, or arm from which the load is suspended.
b. are either jib or overhead travelling.
c. have either jibs or arms.
d. Both (a&c)

7. A force of attraction exists between every body in the Universe. it has been investigated by many scientists including Galileo and Newton. This gravitational force depends on the mass of the bodies involved. Normally it is very small but when one of the bodies is a planet, like the earth, the force is considerable.

A gravitation force.
a. depends on its mass and velocity.
b exists between every body in the universe.
c. it is not considerable when it is one of the bodies of a planet.
d. is investigated only by Galileo and Newton.

Appendix II

Implicity Stated Functions

Read the following passage and *ring* the appropriate answer:

1. Some chemical actions which attack engineering materials, especially metals can harm their properties. This corrosion reduces life of a material and increases the cost of a structure.

   1. Corrosion

   a. attacks metals
   b. does not harm engineering materials
   c. is not a chemical operation.
   d. reduces the cost of the structure.

2. Monel metal, which contains roughly 60% nickel and 30% copper, is also corrosion–resistant. This alloy is a resistant to both fresh and salt water corrosion.

   2. Monel metal

   a. is corrosion resistant.
   b. is an alloy which is only resistant to fresh water corrosion.
   c. is an alloy containing three metals only.
   d. is both (B and C).

3. In engineering many different physical quantities are dealt with. They can be divided into two groups. Both scalar and vector quantities have size or magnitude; while vector quantities possess direction only. Scalar quantities, however, have mass, volume and length.

   3. Both Scalar and rector

   a. are similar physical quantities.

6. Cranes

a. have jib, or arm from which the load is suspended.
b. are either jib or overhead travelling.
c. have either jibs or arms.
d. Both (a&c)

7. A force of attraction exists between every body in the universe. It has been investigated by many scientists including Galileo and Newton. This force of attraction which is known as a gravitational force, depends on the mass of the bodies involved. Normally it is very small but when one of the bodies is a planet, like the earth, the force is considerable.

7. A gravitation force

a. depends on its mass and velocity
b. exists between every body in the universe.
c. it is not considerable when it is one of the bodies of a planet.
d. is investigated only by Galileo and Newton.

3. Both scalar and vector .

a. are similar physical quantities.
b. have size and magnitude.
c. have size and possess direction.
d. have mass, volume and length.

4. Whenever one surface moves over another, a force is set up which resists the movement. This force, which we call friction, always opposes motion. It exists in every machine. It can be reduced by lubrication but never completely removed.

4. Friction in machines

a. is caused by the movement of a surface.
b. opposes motion
c. is set up by the movement of one surface over another.
d. can be completely removed by lubrication.

5. We can define a crane as a machine which lifts heavy loads and displaces them horizontally. In other words, a crane can lift loads and move them to a different position in the horizontal place, unlike a hoist which is only a lifting device.

5. A crane

a. can only lift heavy loads horizontally.
b. can move loads to a different position.
c. is a lifting device.
d. can lift and displace loads.

6. We can divide cranes into two main classes. These are jib cranes and overhead travelling cranes. Jib cranes have a jib, or arm, from which the loads is suspended. The jib allows the load to be raised or lowered and then deposited at any point within the radius of the jib.

Appendix I

Explicitly Stated Functions

Read the following passages and *ring* the appropriate answer.

1. Corrosion attacks al engineering materials, especially metals. Corrosion is any chemical action which harms the properties of a material. It reduces the life of a material and increases the cost of a structure.

1. Corrosion
   a. attacks metals.
   b. does not harm engineering materials.
   c. is not a chemical operation.
   d. reduces the cost of the structure.

2. Alloys made from copper and nickel are corrosion-resistant.
   For example: Monel metal, which contains roughly 60% nickel and 30% copper, is resistant to both fresh and salt water corrosion.

2. Monel metal :
   a. is corrosion resistant.
   b. is an alloy which is only resistant to fresh water corrosion.
   c. is an alloy containing three metals only.
   d. is both (B and C).

3. We deal with many different physical quantities in engineering. These can be divided into two groups: scalar and vector quantities. Both have size, or magnitude, but only vector quantities possess direction.
   Mass, volume and length are scalar quantities.

t= 0.0335532

since t, as shown above, is > 2,179

we should accept the hypothesis that there is a significant difference between reading the explicit and the implicit functions in EST paragraphs by Iraqi learners of science.

4. Conclusions :

1. The results of this study confirm that there is a significant difference in comprehension between implicit and explicit functions for Iraqi students of science as readers of scientfic discourse.
2. Teaching/learning EST requires an adaptation of the notional/functional categories of the language rarher than the formal/structural ones. This is due to the fact that learniny lexis and structures does not help much to / understand what function or functions a sentence or a paragraph serves.
3. Reaching/learning the notional/functional categories of language involves a special attention to the distinction between physical and conceptual discourse.
4. While EST materials, based on the structual/formal categories of language are graded with respect to 'lexical items and grammatical structures, an adaptation of the notional functional ones involves grading with respect to the rhetorical difficulty in the target communicative function.

20/ 50=0.4 / 3.63 | 10/ 50=0.2 / 2.56
35/ 50=0.7 / 4.80 | 10/ 50=0.2 / 2.56

166.35 | 106.7

$\overline{X} = \Sigma \frac{xi}{n}$

$= \frac{166.35}{7}$

$\overline{X}=23.764$

$\overline{X} = \Sigma \frac{xi}{n}$

$= \frac{106.7}{7}$

$\overline{X}_2=15.242$

$S_1=\Sigma(xi-x)^2$

$S_1=54.33^2.56^2+53.13^2+$
$43.85^2+4.5^2+3.63^2+$
$4.80^2=$
$7756.510000-3953.093872=$
3803.416128

$S_2=\Sigma(x_2-x)^2$

$S_2=25.10^2+27.97^2+25.10^2+$
$20.27^2+3.14^2+2.56^2+2.56^2=$
$2476.160000-7(15.242)2$
$=2476.160000-53971.915179$
$=51495.755179$

$$t=\frac{x_1 - x_2}{\frac{S_1+S_2}{12}\times\frac{2}{7}}$$

$$t=\frac{23.764-15.242}{\frac{3803.416128+51495.755179}{12}\times\frac{2}{7}}$$

$$t=\frac{8.522000}{64515.699859}$$

$$=\frac{8.522000}{253.99940917}$$

quantities possess direction . Scalar quanties, however., have mass, volume and length.

3. Results:

In the admin stration of the test the students' answers were corrected and calculated as shown in the following table.

Q		1	2	3	4	5	6	7
Explicit	No	33	10	32	24	25	20	35
	%	66	20	64	48	50	40	70
Implicit	No	9	11	9	6	15	10	10
	%	18	22	18	12	30	20	20

To see whether such results are statistically singnificant or non significant a "t" test has been conducted on them. (1)

Explicit	Implicit
33/ 5=0.66 / 54.33	9/ 50=0.18 / 25.10
10/ 50=0.2/ 2.56	11/ 50=0.22 / 27.97
32/ 50=0.64 / 53.13	9/ 50=0.18 / 25.10
24/ 50=0.48 / 43.85	6/ 50=0.12 20.27
25/ 50=0.5 / 4. 50	15/ 50=0.3 / 3.14

(1). A "t" test is commonly applied to show that two Values are singnificantly different. The hypothesis is usually accepted if "t" is less than 2.179, otherwise the hypothesis is rejected, i.e. the two Values are considered as not significantly different.

tions to test their reading comprehension. These paragraphs were re-written containing implicit definitions and classifications and were given after two weeks to the same group of students. The two sets of paragraphs were identical in all other respects since the purpose of the study was to examine the difference in students' performance in the reading comprehension of paragraphs. The Syntax and lexical items were kept as simple as possible. Examples at implicit and explicit definitions used in this test are presented below: (1)

Explicit Definition :

"Corrosion attacks all engineering materials, especial y metals, corrosion is any chemical action which harms the properties of a material. it reduces the life of a material and increases the cost of a structure. "

Implicit Denfinition:

"Some chemical actions which attack engineering materials, especially metals can harm their properties. This corrosion reduces the life of a metal and increases the cost of a structure."

Explicit Classification:

"We deal with many different physical quantities in engineering.These can be divided into two groups–scalar and vector quantities. Both have size, or magnitude, but only vector quantities possess direction. Mass, volume and Length are scalar quantities. "

Implicit classification:

"In engineering many different physical quantities are dealt with. They can be divided into two groups. Both scalar and vector quantities have size and magnitude, while vector

---

(1) *For more details concerning the two tests. See Append[illegible]*

a competence in the realization of the linguistic forms as "meaning" and functions. (1)

Starting from the facts stated above the present study aims at testing the difference in reading comprehension of scientific information when they are stated explicitly according to the first point of view i.e. following the frequent structures in handling certain functions and when the information is stated implicitly in textbooks and references of scientific nature. The selected functions are definitions and classifications.

2. Method :

Fifty students from the Department of Physics at Mosul University were chosen at random for the purpose of testing their capacity in reading performance on paragraphs of scientific discourse containing implicit and explicit definitions and classifications. Differences in performance were examined with respect to :

1. Implicit and Explicit information .
2. Level of English as a foreign language proficiency.

In order to test comprehension of implicit and explicit definitions and classifications, seven paragraphs on physics were selected, each containing one definition or one classification. (2) The students answered sets of multiple choice ques-

---

(1) D. A. Wilkins, *Notional Syllabuses* (Oxford: OUP, [illegible]), p. 22.

(2) It is worth stating that similar papers have [illegible] produced as for example by William C. Frick and Janet [illegible] Anderson, "Rhetorical Difficulty in Scientific English: A Study in Reading Comprehension," in TESOL [illegible] Vol. 14, No. 3, Sept. 1980. However the present paper is concerned with one-level students in Iraq [illegible] different communicative functions that were tested.

Rhetorical Difficulties in the Reading Comprehension of EST to the Iraqi students of Science

Jassim M. Hassa..

I. Introduction:

It seems that there are currently two major views on the nature of English for Science and Technolongy (EST). One of them would appear to take the point of view that there is a special "register" in scientific discourse and treat this register as a "special language" which is composed of certain lexical items and some frequent grammatical structures which can be identified with different functions and concepts of the discipline for which the language is used. Consequently, the teaching of scientific English materials differ from the teaching of global ELT materials only by being associated with language data which is scientific and technical in referential content. Therefore the focus of attention in EST teaching will be on teaching the related grammatical structures and lexical items which are highly distributed in scientific discourse. (1)

The Last decade, on the other hand, has witnessed the rise of a new strategy in the teaching of EST. This strategy adopts the view that the knowledge of syntactic and lexical features of the language does not mean the ability to use the language as a means of communication and the learner must have

---

(1) *See H.G. Widdowson, "Literary and Scientific English", in ELT Journal, vol. XXVIII, No. 4, July 1974, p. 283.*

Al – Mustansiriya Literary Review

Published by the College of Arts

Al-Mustansiriyah University

VOL. 8

1984